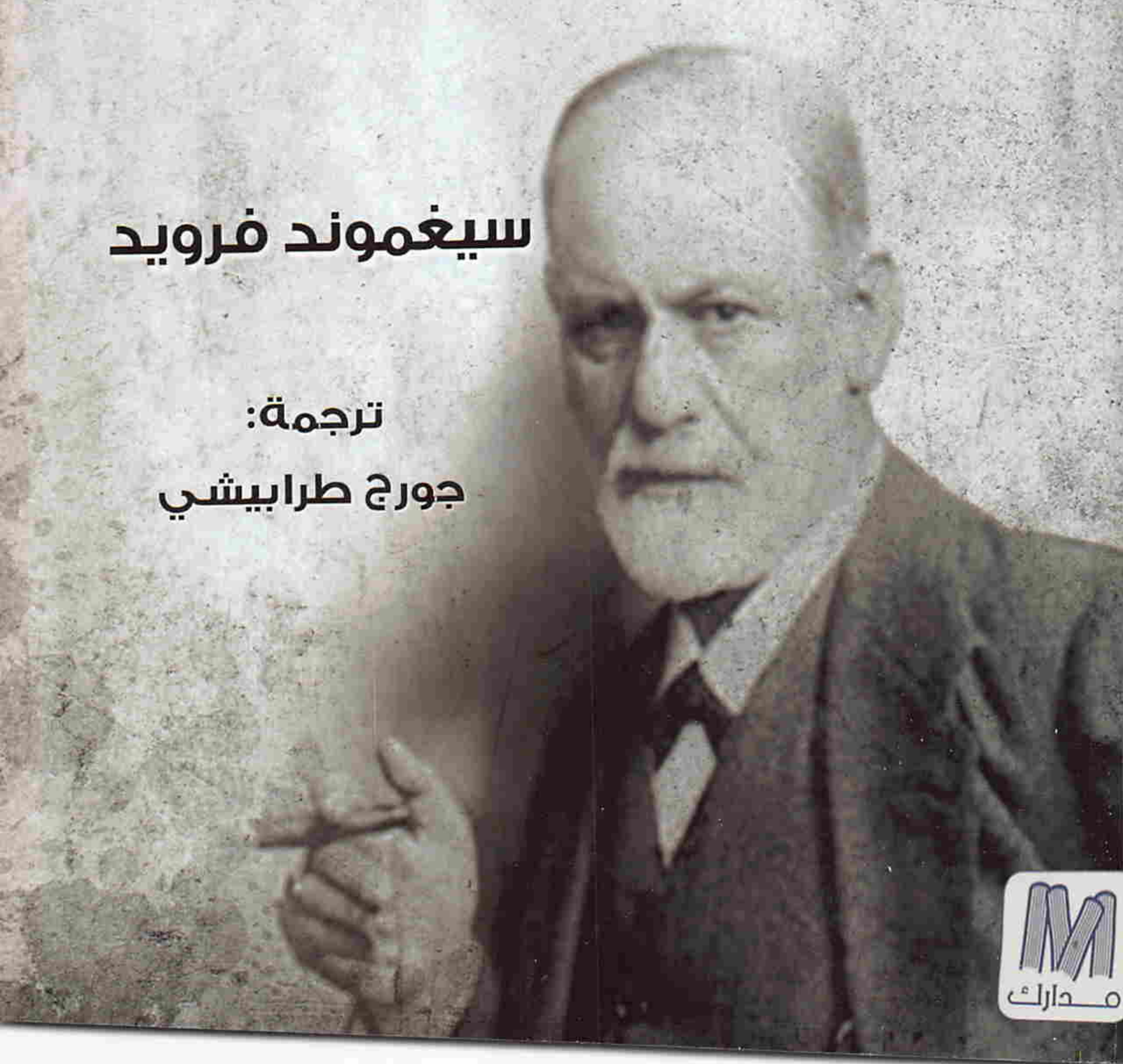
المؤلفات شبه الكاملة

-2-

محاضرات تمهيدية جديدة

حياتي - خمسة دروس - مساهمة في تاريخ التحليل النفسي



سيغموند فرويد

ترجمة:

جورج طرابيشي

مدارك

محاضرات تمهيدية جديدة

في التحليل النفسي

الكتاب: **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي**

المؤلف: **سيغموند فرويد**

ترجمة: **جورج طرابيشي**

التصنيف: **علم نفس**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2015

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 019 - 4

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing



الكتاب متوفر لدى معرض مدارك للنشـــر والتـــوزيع

الرياض، حي المحمدية، طريق الامام سعود بن عبدالعزيز

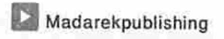


www.mdrek.com read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.






Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing

سيغموند فرويد

المؤلفات شبه الكاملة

المجلد الثاني

محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي

خمسة دروس في التحليل النفسي

مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي

حياتي والتحليل النفسي

ترجمة جورج طرابيشي

فهرس المجلد الثاني

محاضرات تمهيدية جديدة

في التحليل النفسي

تصدير

بهذه المحاضرات السبع التي تخيّل فرويد عام ١٩٣٢ أنه يلقيها على جمهور افتراضي من المستمعين والمستمعات يختم خالق التحليل النفسي سلسلة المحاضرات التي كان ألقاها قبل سبعة عشر عاماً في أحد مدرجات عيادة الطب النفسي في جامعة فيينا تحت عنوان: **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي** والتي نشرنا ترجمتها في الجزء الأول من **المؤلفات شبه الكاملة**.

وقد استكمل فرويد في هذه المحاضرات السبع، التي كتبها ولم يلقِها، والتي جعل عنوانها **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي**، ما استجدّ من تطور وكشوف جديدة في النظرية والتقنية التحليلية النفسية خلال فترة السبعة عشر عاماً المنصرمة، ولا سيما في موضوع الحلم وعلم الغيب واللاشعور والدين وتصور العالم والإيديولوجيا الماركسية الصاعدة عصرئذ.

وقد كنا ترجمنا نص هذه المحاضرات السبع الجديدة نقلاً عن الترجمة الفرنسية الصادرة عن منشورات غاليمار عام ١٩٣٦ بقلم آن برمان. وقد أتاحت لنا الترجمة الجديدة الصادرة عن الدار نفسها عام ١٩٨٤ بقلم روز ماري زتلن، وكذلك الترجمة الجديدة الثانية الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ١٩٩٥ ضمن سلسلة **مؤلفات فرويد الكاملة**، والتي اضطلع بها كل من بيير كوتيه وجانين ألتونيان، أن ندخل تعديلات ونعتمد مصطلحات أكثر التصاقاً بالقاموس الفرويدي، فضلاً عن إضافة هوامش تقرِّب النص إلى القارئ العربي وتعرِّف بأسماء الأعلام والوقائع التاريخية المشار إليها فيه.

ج. ط

مقدمة

ألقيت **المحاضرات التمهيدية في التحليل النفسي** في الموسمين الدراسيين الشتائيين ١٩١٥ - ١٩١٦ و١٩١٦ - ١٩١٧ على مدرج عيادة الطب النفسي بفيينا، أمام مستمعين حضروا من جميع الكليات. وقد ارتجلت النصف الأول من تلك المحاضرات ارتجالاً، وجرى نسخها فور إلقائها؛ أما محاضرات النصف الثاني فقد ألّفتها أثناء عطلة صيفية في سالزبورغ عام ١٩١٦ ثم ألقيتها بنصّها وحرفها في الشتاء التالي. وكانت ذاكرتي عهدئذ لا تزال طرية وأشبه بآلة تسجيل.

بالمقابل، إن هذه المحاضرات الجديدة لم تلقَ قط. فتقدمي في السن أولاً أعفاني من التزاماتي - الهامشية في الحقيقة - تجاه الجامعة؛ وفي الحق لم يكن في هذه الالتزامات من عنت، لكنها كانت تقتضيني إلقاء بعض الدروس. وفضلاً عن ذلك، بات متعذراً عليّ أن أحاضر في الجمهور من جراء عملية جراحية أجريت لي[1]. إذاً، لئن وضعت نفسي مجدداً، في المحاضرات التالية، وسط جمهور من المستمعين، فما ذلك إلا على سبيل التصوُّر والتخيُّل: فلعل هذا التوهم أن يساعدني، وأنا أتعمق في موضوعي، على ألا أغفل عن أن أحسب حساب القارئ.

لا ترمي هذه المحاضرات الجديدة بتاتاً إلى أن تحلّ محلّ الأولى التي لا يمكن أن تنفصل عنها بحال؛ فهي لا تؤلف كلاً مستقلاً. إنما هي تتابع وتكمّل سابقاتها، ومن الممكن تقسيمها، من هذا المنظور، إلى ثلاث مجموعات. فالمجموعة الأولى تنتظم الموضوعات التي سبق لي أن عالجتها قبل خمسة عشر عاماً، ولكن منقّحة، على اعتبار أن التعمُّق الذي طرأ على معارفنا وما استتبع ذلك من تعديلات في وجهات نظرنا يوجبان عرضها في لبوس جديد، أي

١ - أجريت لفرويد ابتداء من عام ١٩٢٣ عدة عمليات جراحية لاستئصال سرطان في فكه.«م».

إخضاعها لمراجعة نقدية. أما المجموعتان الأخريان فتنتظمان التقدم الذي استجدّ فعلاً، إذ تعالجان مسائل لم يكن لها من وجود بعد في عهد محاضراتنا الأولى، أو لم يكن لها من الأهمية ما يوجب أن نخصَّها بفصل مستقل. والشيء المحتوم، وإن يكن ليس مما يؤسف له، أن تجمع بعض هذه المحاضرات الجديدة بين خصائص تينك المجموعتين.

وتوكيداً لارتباط هذه المحاضرات الجديدة بـ **المحاضرات التمهيدية للتحليل النفسي**، جعلتها تابعة لها في الترقيم: فالأولى فيها هي التاسعة والعشرون. وأكرر القول هنا بأن هذه المحاضرات الجديدة، مثلها مثل سابقاتها، ليست برسم المحللين النفسين المحترفين، إذ لا تفيدهم شيئاً جديداً. وإنما هي موجَّهة إلى الفئة العريضة من الناس المثقفين الذين يؤلون ـ على ما نرجو ـ خصائص هذا العلم الجديد وفتوحاته حسن التفاتهم، وإن كان اهتمامهم به لا يزال يشوبه التحفظ. وهذه المرة أيضاً كان شاغلي الرئيسي ألا أضحِّي بشيء من أجل المظاهر، وأن أتحاشى تقديم التحليل النفسي وكأنه محض علم، مكتمل وناجز، من العلوم؛ فلم أسعَ إلى إخفاء مشكلاته، أو إلى التستر على ثغراته وشبهاته. والحق أنه لا مكان في أي فرع آخر من فروع العلم للتباهي بمثل هذا الالتزام بالتواضع والموضوعية، إذ هو شيء بدهي، والجمهور لا ينتظر شيئاً آخر. فليس لقارئ كتاب في علم الفلك أن يمنى بخيبة أمل أو أن يزدري هذا العلم إذا ما أُوضحتْ له الحدود التي تضيع معرفتنا في العماء حينما تتخطاها. وليس كذلك الحال في علم النفس. فهنا يتجلى على أوسع نحو ما جُبل عليه الإنسان من عدم أهلية للبحث العلمي. فلكأن الناس لا يطالبون علم النفس بأن يحقق للمعرفة بعض التقدم، بل يبحثون فيه عن ترضية أخرى. وهم يؤاخذونه على كل مشكلة لم تحظَ بحلٍّ، ويلومونه على كل موضع للشك وموطن للارتياب.

وكل من يحبّ علم الحياة النفسية حباً حقاً لا معدى له عن تقبُّل هذا الظلم والإجحاف.

فيينا، صيف ١٩٣٢

فرويد

المحاضرة التاسعة والعشرون

مراجعة نظرية الحلم

سيداتي سادتي، إني إذ أدعوكم من جديد بعد انقطاع دام أكثر من خمسة عشر عاماً لأتداول وإياكم في الجديد، وربما أيضاً في التطوير، الذي حمله للتحليل النفسي هذا الردحُ المنصرم من الزمن، أرى أنه من الأولى والأحقّ، لأكثر من اعتبار، أن نوجِّه اهتمامنا أولاً صوب الوضع الحالي لنظرية الحلم. فهذه النظرية، التي تشغل في تاريخ التحليل النفسي حيِّزاً خاصاً، هي له بمثابة منعطف حاسم. أفليس إليها يعود الفضل في انتقال التحليل من مرتبة محضِ طريقةٍ في العلاج النفسي إلى مرتبة علم نفس للأعماق؟ إن عملنا الفتيّ لم يقدِّم نظرية أظهر وألفت للنظر وأدنى إلى الأصالة والابتكار من نظرية الحلم، بل لم يقدِّم أية نظرية أخرى يمكن أن تصمد للمقارنة معها. ولقد كانت هذه النظرية بمثابة فتح جديد جرى انتزاعه من إسار المعتقدات الشعبية والروحانيات. وجدّة الأفكار التي حملتها بين طياتها جعلتها تقوم بدور «شبُّولت»[1]: فلها القول الفصل في من يمكن أن يصبح نصيراً للتحليل النفسي وفي من لن يُقيَّض له أبداً أن يفهمه ويستوعبه. وقد قدَّمت لي، أنا نفسي، سنداً موثوقاً في تلك الفترة الصعبة التي

---

١ ـ يقبس فرويد هذا التشبيه من **التوراة**، سفر القضاة، الإصحاح الثاني عشر، وقد جاء فيه أن رجال جلعاد لما ظهروا على رجال أفرايم وطاردوهم في مخاوض الأردن، صاروا إذا أمسكوا بواحد سألوه: «أأنت أفرايمي، فإن قال لا كانوا يقولون له: قل إذاً شِبُّولت، فيقول: سبّولت، ولم يتحفظ للفظ بحقٍّ، فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الأردن، فسقط في ذلك الوقت من أفرايم اثنان وأربعون ألفاً». وهكذا صارت كلمة «شبّولت» بمثابة كلمة سر، بها يعرف الصادق من المدعي الكاذب. والواقع أن القارئ العربي قد يكون أقدر من غيره على فهم سرّ كلمة «شبّولت» العبرية هذه متى ما أخذ بعين الاعتبار أنها تعني «سبّلة» أو سنبلة». ويبدو أن الأفرايميين ما كانوا يقتدرون على نطق حرف الشين لأنه لا وجود لها في لهجتهم، فيلفظونها «سين» فيفضحون حقيقة هويتهم. «م».

كانت فيها التظاهرات المجهولة للأعصبة لا تزال تبلبل عليّ حكمي الذي لم يكن قد ثبت ورسخ بعد. وكان يتّفق لي أحياناً أن أشكّ في صحة معارفي ومعلوماتي الاجتهادية، ولكنني كنت إذا ما أفلحت في ترجمة حلم مشوَّش، عابث، إلى سيرورة نفسية صحيحة ومفهومة، أستعيد طمأنينتي ويقيني بأني أسلك الطريق القويم.

وعلى هذا يهمّنا بوجه خاص أن نتتبع من جهة أولى، على ضوء نظرية الحلم، تطور التحليل النفسي في إبان تلك الحقبة، وأن نسجل من الجهة الثانية المكاسب التي حققها في نظر الجمهور من حيث اقتدار هذا الجمهور على فهمه وتقييمه. وأبادر إلى تحذيركم مقدّماً وصراحة بأن توقعاتكم ستخيب بصدد هاتين النقطتين تحديداً.

لنتصفح معاً أعداد **المجلة الدولية للتحليل النفسي (الطبي)**[٢] التي لا تني تنشر منذ عام ١٩١٣ أبحاثاً ذات أهمية فاصلة بالنسبة إلى علمنا. فأنتم تقعون في المجلدات الأولى على باب دائم بعنوان **تأويل الأحلام**، وهو باب غني ومليء بالدراسات عن مختلف بنود نظرية الحلم؛ لكن كلما تقدمتم في تصفح تلك المجلدات، قلَّت المقالات في هذا الموضوع، حتى إن الباب نفسه يختفي في آخر الأمر بعد أن كان ثابتاً. ويسلك المحللون النفسيون هنا مسلك من لم يعد لديه شيء يفيدنا به، فلكأن نظرية الحلم أعطت كل ما في مقدورها أن تعطيه. لكن لو سألتموني ماذا أفاد من هذه النظرية جميع أولئك الذين لا يناصرون التحليل النفسي مناصرة مباشرة ـ وفي عداد هؤلاء كثرة من الأطباء النفسيين والمعالجين النفسيين الذين يطهون طعامهم على نارنا حتى من غير أن يعربوا لنا عن عرفانهم بجميل ضيافتنا، وفي عدادهم أيضاً أولئك المثقفون المزعومون الذين درجوا على وضع اليد على كشوف العلم الهامة، والمتأدبون، والجمهور الواسع ـ لما جاء الجواب يبعث على الرضا. إن بعض الصيغ والتعابير قد حظيت بشهرة، ومنها ما

٢ ـ مجلة أسسها فرويد في مطلع سنة ١٩١٣ لتكون ناطقة بلسان **الرابطة الدولية للتحليل النفسي** على إثر خلافه مع ألفريد آدلر، ثم مع فلهلم شتيكل. وقد صدرت أول الأمر باسم **المجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي**، ثم أسقطت صفة «الطبي» عنها. «م».

لم نقل به قط، وعلى سبيل المثال الزعم القائل إن الأحلام جميعها من طبيعة جنسية. وبالمقابل، إن الأشياء الهامة بقيت غريبة، فيما يبدو، عن الوعي العام، مثلما كانت عليه قبل نحو ثلاثين سنة. ومن هذا القبيل الجهل، مثلاً، بالتمييز الجوهري الذي ينبغي أن يقام بين المضمون الظاهر للحلم وبين أفكاره الكامنة، والجهل بعدم التناقض بين الحلم الكابوسي وبين وظيفة الحلم في تحقيق الرغبات، وباستحالة تأويل الحلم إذا لم يفصح الحالم عن التداعيات ذات الصلة به، وعلى الأخص الجهل بأن الشيء الرئيسي في الحلم هو عمل الحلم. إن من حقي أن أتكلم هذا الكلام، بعد أن تلقيت، على مدى تلك السنوات، أكداساً من الرسائل يروي فيها كاتبوها أحلامهم ويطلبون إليّ تفسيرها أو تزويدهم بمعلومات عن طبيعة الحلم. وهم يزعمون أنهم قرؤوا **تأويل الحلم**[3]، لكن كل سطر من سطورهم يفضح عدم استيعابهم لنظريتنا عن الحلم. وهذا ما يبيح لنا أن نعود إلى معالجة مسألة الأحلام برمتها. ولعلكم تذكرون أننا كنا كرّسنا مجموعة كاملة من المحاضرات لنشرح كيف توصلنا إلى فهم هذه الظاهرة النفسية التي ظلت بلا تفسير إلى ذلك اليوم.

إذاً، فعندما يروي لنا شخص ما، وعلى سبيل المثال مريض من مرضانا، حلماً من أحلامه، نفترض أنه امتثل للعهد الذي قطعه على نفسه في بدء علاجه التحليلي بأن يبوح لنا بكل شيء. ذلك أن الحلم ضرب من المكاشفة بالأسرار، ولكنها مكاشفة بلغة غير موائمة؛ فهو ليس تظاهرة اجتماعية، كما أنه ليس وسيلة للإفصاح عن النفس على نحو يستطيع أن يفهمه الآخرون. ثم إننا نحن أنفسنا لا نتوصل للحال إلى فهم ما يريد المريض أن يقوله لنا، كما أنه هو نفسه لا يفهم ما يعنيه حلمه. وهنا نرى لزاماً علينا أن نتخذ قرراً سريعاً: فإما أن يكون الحلم، كما يزعم الأطباء من غير المحللين النفسيين، دليلاً على أن الحالم لم ينم نوماً جيداً، وأن مناطق دماغه لم تتوصل جميعها إلى درجة متعادلة من الاستجمام، وأن بعضاً منها بقي مصراً على أداء وظائفه ولكنه لم يتوصل إلى ذلك إلا على نحو

٣ - **تأويل الحلم**: أهم كتب فرويد وأضخمها إطلاقاً، أصدره سنة ١٩٠٠. وقد اشتهر عنوانه بالعربية بصيغة الجمع (**تفسير الأحلام**)، ولكنه في الواقع وفي الأصل الألماني بالمفرد. «م».

ناقص ومبتور؛ ولئن يكن الأمر لكذلك حقاً، فحسناً نفعل إن لم نشغل أنفسنا أكثر مما شغلناها بالنتاج العديم القيمة نفسياً لاضطراب وقع في الدماغ في أثناء النوم؛ وبالفعل، كيف لنا أن نأمل بالخروج بنتيجة مفيدة من مثل هذه الدراسة؟ وإما أن يكون الحلم... لكن ألم نأخذ من البداية بهذا الموقف الثاني؟ ألم نفترض، وإن عسفاً ـ إننا لنقرّ بذلك ـ أن هذا الحلم المستغلق على الفهم لا بدّ أن يكون أيضاً فعلاً نفسياً بليغ القيمة والدلالة، وأن في مقدورنا استخدامه في التحليل نظير أي سرّ يكاشفنا به المريض؟ إن التجربة وحدها هي التي ستبيِّن ما إن كنا على حقّ. فإن تأتّى لنا أن نحوِّل الحلم إلى على هذا النحو إلى تصريح له دلالته وقيمته، انفتح أمامنا بكل تأكيد مجال لتعلُّم شيء جديد وللتوصل إلى معرفة وقائع كان سيمتنع علينا، لولا ذلك، النفاذ إلى صميمها.

هنا تبرز لنا وجاهياً صعوبات مهمتنا وألغاز موضوعنا. إذ كيف سنتمكن من تحويل الحلم إلى مكاشفة عادية؟ كيف سنفسِّر أن شطراً مما يبوح به المريض قد تلبّس ذلك الشكل المستغلق فهمه عليه وعلينا على حدّ سواء؟

أنتم ترون، سيداتي سادتي، أني أسير هذه المرة لا على طريق عرْضٍ نشوئي تكويني، بل على طريق عرض قطعي دوغمائي. فأول ما سنفعله أن نحدد موقفنا من مشكلة الحلم بالاعتماد على مفهومين جديدين وتسميتين جديدتين. فالحلم، بحصر معنى الكلمة، سنسميه نص الحلم أو **الحلم الظاهر**؛ أما ما نبحث عنه وراء هذا الحلم الظاهر، إن جاز هذا التعبير، فهو **أفكار الحلم الكامنة**. وبذلك تكون مهمتنا قد تحددت: إذ يتوجب علينا أن نحوِّل مضمون الحلم الظاهر إلى حلم كامن وأن نفسر كيف أمكن، في داخل نفس الحالم، أن يكون قد حدث العكس فصار الكامن هو الظاهر. عملنا الأول ذو طبيعة عملية إذاً، وهو يدخل في نطاق **تأويل الحلم**، ويخضع لتقنية محددة. أما عملنا الثاني فمن طبيعة نظرية، والغرض منه تفسير عمل الحلم، ولا يمكن بالتالي إلا أن يكون نظرياً. وتقنية تأويل الحلم ونظرية عمل الحلم هاتان لا بدّ أن نبنيهما لبنة لبنة.

والآن بأيهما نبدأ؟ بتقنية تأويل الحلم، على ما يخيَّل إليّ؛ فمادتها أكثر مرونة، والانطباع الذي ستتركه فيكم سيكون أكثر حيوية.

لنفرض إذاً أن المريض روى لنا حلماً، فتعيَّن علينا أن نفسِّره. لقد أصخنا إليه السمع بهدوء، متحاشين إصدار حكم على ما سرده. فماذا نفعل بعد ذلك؟ نعقد العزم على ألا نشغل أنفسنا، بقدر ما يتأتى لنا ذلك، **بالحلم الظاهر**. وغني عن البيان أن هذا الحلم الظاهر يتسم بجملة من الخصائص التي لا يسعنا أن نسقطها كلها من اعتبارنا. فهو قد يكون متلاحماً، مؤلفاً تأليفاً متسقاً كما لو أنه قصيدة، وقد يكون غامضاً مستغلقاً على الفهم، أشبه ما يكون بهذيان. وقد يحتوي على عناصر متهافتة، أو على نكت أو استنتاجات ذات طابع فكري في ظاهرها. والحالم نفسه يجد حلمه الظاهر واضحاً بارعاً، أو ضبابياً غامضاً. وقد تكون لصوره شدّة الإدراكات الحسِّية، أو قد تكون مبهمة إبهام النفثة اللاامتمايزة. وقد تصطف أكثر السمات تنوعاً واختلافاً جنباً إلى جنب في الحلم الواحد أحياناً، موزعة على عدة فقرات منه. ولا تحسبوا أن هذا التنوع اللاامتناهي في **الحلم الظاهر** ليس في نظرنا مما لا يعتدّ به؛ بل سيكون في مقدورنا، على العكس، أن نخرج منه بعناصر كثيرة من شأنها أن تسهِّل علينا عملية التأويل. لكننا سندع هذه المسألة جانباً في الوقت الراهن - على أن نعود إليها في وقت لاحق - وسنسلك الطريق الرئيسي، الطريق الذي يفضي مباشرة إلى تأويل الحلم. أي أننا سندعو الحالم إلى أن يغضّ النظر، هو الآخر، عن الانطباع الذي خلَّفه فيه الحلم الظاهر ليركِّز انتباهه على مختلف عناصر مضمون الحلم، وليطلعنا من ثم على المتداعيات التي تتبادر إلى ذهنه بصدد كل جزء من هذه الأجزاء، وذلك حال تواردها.

أليست هذه تقنية خاصة ومختلفة عن الطريقة المستخدمة في العادة في تقييم المكاشفات والتصريحات؟ أنتم تحدسون بلا ريب بأن هذه الخطة تخفي وراءها فروضاً لم نتكلم عنها بعد. لكن لنتابع ما نحن فيه. فبأي ترتيب يتعيّن علينا أن نطالب مريضنا بأن يفحص أجزاء حلمه؟ تنفسح أمامنا هنا عدة طرق: فبوسعنا بكل بساطة أن نأخذ بالترتيب الزمني كما ظهر في رواية الحلم. وتلك هي، إن جاز القول، الطريقة المتَّبعة والمتعارف عليها، وهي أدقّ من كل طريقة سواها. أو ندعو الحالم إلى أن يختار من حلمه أولاً **البقايا النهارية**، لأن التجربة علّمتنا أنه

لا مفرّ في كل حلم من الأحلام بلا استثناء تقريباً من أن تتسرب إليه رسابة من ذكرى أو إشارة إلى حادثة أو جملة من حوادث وقعت في النهار السابق للحلم. ولو نقّبنا في هذا التداعي لاكتشفنا، وربما دفعة واحدة في بعض الأحيان، الصلة القائمة بين **عالم الحلم** البعيد غاية البعد في الظاهر وبين حياة المريض الواقعية. وبوسعنا أخيراً أن نطلب إلى هذا الأخير أن يكلمنا بادئ ذي بدء عن عناصر حلمه التي تبدو له أهمَّ من غيرها بحكم وضوحها البالغ وحدّتها الحسّية. ونحن نعلم أصلاً أن هذه الطريقة الأخيرة هي التي تسهِّل عليه الطريق أكثر من غيرها للاهتداء إلى المتداعيات. على أنه ما دام الظفر بهذه المتداعيات هو المهمّ، فسيان أن تُستخدم هذه الطريقة أو تلك للوصول إلى هذا الهدف.

وحالما تتحصل لنا هذه المتداعيات نجد أنها تضع في متناولنا مواد بالغة التنوع: ذكريات من عشية الحلم، ومن اليوم الذي حلم فيه بالحلم، ومن أيام خوالٍ مضت منذ عهد بعيد، وتأملات، ومناقشات تتوزع بين التأييد والمعارضة، واعترافات، وتساؤلات. وتارة يتكلم المريض بطلاقة، وطوراً يتلجلج ويتوقف لهنيهة من الزمن. وأغلب المعطيات تكون على صلة بعناصر الحلم، ولا عجب في ذلك ما دامت تنبع منها أصلاً. لكن قد يحدث أحياناً أن يسبِّقها الشخص الذي هو قيد تحليل بهذه الكلمات: «إنني لا أذكرها إلا لأنها تواردت إلى ذهني عفواً».

فإن ركّزنا اهتمامنا على هذا الفيض من الخواطر، لا نعتم أن نلاحظ أنه تجمعنا ومضمون الحلم نقاط مشتركة أخرى عدا نقطة الانطلاق. فهي تسلِّط ضوءاً باهراً على جميع أجزاء الحلم، وتسدّ الثغرات الفاصلة بينها، وتجعل احتشادها العجيب الغريب شيئاً قابلاً للفهم. وينبغي في هذه الحال أن نتوصل إلى جلاء الصلة القائمة بين تلك الخواطر وبين مضمون الحلم. عندئذ يتبدى هذا الأخير على أنه خلاصة لتلك المتداعيات، وإن صيغت هذه الخلاصة بموجب قواعد لم نمط عنها اللثام بعد، فبدت عناصرها وكأنها تمثِّل صفوة منتخبة من بين جمهور غفير. وليس ثمة من شك في أن تقنيتنا توصلنا إلى معرفة الشيء الذي ينوب الحلم منابه، وأين ينبغي البحث عن القيمة النفسية للحلم، لكنها لا تظهر لنا التباسه وغموضه وغرابته.

لكن حذارِ من سوء الفهم! إذ لا يجوز لنا أن نخلط بين التداعيات التي تتوارد إلى ذهن المريض بصدد حلمه وبين أفكار الحلم الكامنة؛ فهذه الأخيرة متضمَّنة في المتداعيات كما لو في محلول أساسي، ولكن ليس بتمامها. فالمتداعيات تزوِّدنا من جهة أولى بقدر من العناصر أكبر بكثير مما نحتاج إليه لصياغة أفكار الحلم الكامنة، أي بكل ما أنتجه عقل المريض من استطرادات وتعديلات وحلقات رابطة في أثناء اقترابه من أفكار الحلم. ويتوقف التداعي من جهة ثانية عند عتبة أفكار الحلم الحقيقية، فلا يمسّها بعد أن يدنو منها إلا مساً رفيقاً لا يتعدى الإشارة والتلميح؛ وهنا نتدخل لنكمل الإشارات والتلميحات، ولنستخلص استنتاجات لا مناص منها، ولنوضح ما لم يأتِ المريض بذكره إلا عابراً في تداعياته. وقد يبدو في مثل هذه الحال وكأننا نتصرف على هوانا بالمواد التي زوّدنا بها الحالم ونعبث بها لنقوِّل أقواله ما لم تفصح عنه. والحق أنه ليس من اليسير علينا أن نبرر مشروعية طريقتنا من خلال عرض مجرَّد كالذي نحن بصدده. لكن ما عليكم إلا أن تقوموا بأنفسكم بتحليل حلم من الأحلام، أو أن تدرسوا مثالاً جيد الاختيار من بين الأمثلة التي تحفل بها أدبياتنا، حتى تقتنعوا بهذه الطريقة التي تفرض نفسها فرضاً في عمل تأويلي كهذا.

لئن يكن تأويلنا للحلم مرتهناً بالإجمال، وعلى وجه الخصوص، بتداعيات الحالم، فإننا نتصرف باستقلال عنها في معالجتنا عناصر معيَّنة من مضمون الحلم، يرغمنا على ذلك عدم توارد تداعيات إلى ذهن الحالم بصددها. وقد لاحظنا منذ زمن مبكر أن مضامين بعينها يتكرر بروزها في مثل هذه الحالات، وهي ليست بالكثيرة عدداً، وقد دلتنا الخبرة المديدة أنه يتعيّن علينا أن نعتبرها رموزاً لشيء آخر. ويجوز لنا، قياساً على عناصر الحلم الأخرى، أن نعزو إليها مدلولاً ثابتاً، لكنه ليس بالضرورة وحيد المعنى، ومداه يتحدد بقواعد خاصة باتت مألوفة لدينا. وبما أننا نعرف كيف نترجم هذه الرموز، بينما يعجز الحالم عن ذلك، بالرغم من أنه هو الذي يداورها، فقد يتفق أن يتكشف لنا معنى حلم من الأحلام بجلاء تام وعلى نحو مباشر، حتى قبل أن نبذل أدنى جهد لتأويله، على حين يقف الحالم نفسه أمامه وكأنه أمام لغز. لكنني كنت أوفيت الحديث في محاضراتي السابقة

عن الرمزية وعما نعرفه عنها وعن المشكلات التي تواجهنا بها، مما يغنيني اليوم عن الرجوع إلى هذه النقطة.

تلك هي إذاً طريقتنا في تأويل الحلم؛ لكن من حقكم بعد ذلك التساؤل عما إذا كان يمكن اعتمادها في تأويل الأحلام كافة. وسيكون جوابنا أن لا، ولكن من الممكن استخدامها في تأويل عدد كبير بما فيه الكفاية من الأحلام لإثبات صلاحتها ولتبرير استعمالها. لماذا ليس الأحلام كلها؟ في جوابنا عن هذا السؤال سنجلو للعيان نقطة هامة وسنجد أنفسنا منقادين إلى الكلام عن الشروط النفسية لصياغة الحلم. وبالفعل، يصطدم العمل التأويلي بمقاومة متفاوتة الأهمية، تارة طفيفة، وطوراً شموس لا تذلل (على الأقل بالوسائل المتاحة لنا في الوقت الحاضر)، وتارة ثالثة متوسطة الشدة. وليس لنا أن نتجاهل، أثناء العمل التأويلي، تظاهرات هذه المقاومة. فتارة يكاشفنا المريض بلا تردد بتداعياته، فإذا بالتفسير يبزغ مع أول أو ثاني تداعٍ منها. ولكن هذا المريض نفسه قد يبدي في تارة أخرى تردداً ومراوغة. وحتى يتاح لنا في هذه الحال الظفر بمعطيات ذات نفع في تفهُّم الحلم، يتعيَّن علينا أن نستمع إلى المريض في تعداده لسلسلة طويلة من الخواطر. وكلما طالت سلسلة التداعيات هذه وكثرت فيها الالتواءات، كانت المقاومة أشدّ وأقوى؛ هذا على الأقل ما نعتقده، وهو في ظاهره حقّ. وهذه المقاومة هي التي تعلِّل أيضاً نسيان الأحلام. فكثيراً ما يتعذر على المحلِّل، رغم ما يبذله من جهود، أن يتذكر حلماً من أحلامه. لكن إذا ما توصلنا، في أثناء العمل التحليلي، إلى تذليل صعوبة كانت تربك المريض إزاء التحليل، فسرعان ما يبزغ الحلم المنسيّ في ذهنه على نحو مباغت. ومن الواجب أن نفسح مجالاً هنا لملاحظتين أخريين. فغالباً ما يسهو الحالم عن جزء من حلمه، ثم لا يلبث في طور تالٍ أن يستلحقه به. ولزام علينا أن نرى في ذلك محاولة للنسيان. وبما أن التجربة تدلّنا أن هذا الجزء هو بالتحديد أبلغ أجزاء الحلم دلالة، فليس لنا معدى عن الافتراض بأن مقاومة بالغة القوة قد اعترضت سبيل الكشف عنه. ناهيك عن ذلك، كثيراً ما نلاحظ أن الحالم يبادر، تحاشياً منه لنسيان أحلامه، إلى تسجيلها كتابة عند استيقاظه. وبوسعنا في هذه الحال أن نخبره أن محاولته هذه لا طائل فيها؛

وبالفعل، إن المقاومة التي أراد التغلب عليها بتسجيله نصّ حلمه لا تلبث أن تنتقل إلى التداعيات نفسها فتجعل تأويل الحلم بحكم المستحيل. وفي هذه الشروط لن يدهشنا أن نلاحظ أن تزايداً جديداً في المقاومة من شأنه أن يحتجز تلك التداعيات وأن يحبط عملية تأويل الحلم.

من كل ما تقدم سنستنتج أن المقاومة التي تعترض سبيل تأويل الحلم لا بدّ أن يكون لها أيضاً دور في تكوين هذا الأخير. وبالفعل، وعلى حين أن مقاومة عاتية تعيق صياغة بعض الأحلام، فإن أحلاماً غيرها تنصاغ بدون أن تلقى غير مقاومة واهية. وعلى كل حال، إن شدة المقاومة تتفاوت في أثناء الحلم الواحد، وإليها يمكن أن نعزو الثغرات ومواطن الإبهام والتفكك التي قد ترنِّق مسار أجمل الأحلام.

لكن ما دور المقاومة هنا وإلامَ توجّه؟ الحق أن المقاومة مؤشِّر موثوق إلى وجود صراع. فثمة قوتان متناحرتان تتواجهان، واحدتهما تنزع إلى الإفصاح عن شيء، وثانيهما تعارض ذلك. والحلم الظاهر، كما يتشكل غبّ ذلك، يحتوي جميع النتائج والحلول التي يتمخّض عنها الصراع بين تينك النزعتين، وإن في صورة مكثَّفة. ففي موضع بعينه من الحلم تكون الغلبة للقوة الدافعة باتجاه الإفصاح، وفي موضع آخر تتوصل القوة المناوئة إما إلى إلغاء الإفصاح إلغاء تاماً، وإما إلى استبداله على نحو لا يعود من الممكن معه تعرّف طبيعته الحقيقية. وأكثر الحالات تواتراً هي تلك التي يؤول فيها الصراع إلى حلّ وسط: فالإفصاح الذي كانت تنزع إليه إحدى القوتين المتواجهتين يحدث فعلاً، لكن بعد أن يناله ما يناله من تخفيف وتحريف وتمويه وإزاحة حتى ليكاد يتعذر تعرُّفه. فإن لم يصوِّر الحلم بأمانة أفكار الحلم، وإن غدا العمل التأويلي ضرورياً لتمكيننا من تخطي الهوة التي تفصل الحلم عن أفكاره، فمردّ ذلك إلى الانتصار الذي تكون قد أحرزته القوة المعاكسة التي تكفّ وتحدّ وتقيّد. والمقاومة التي نرتطم بها عند تأويلنا للحلم هي التي تكشف لنا عن وجود هذه القوة. وما دمنا اعتبرنا الحلم ظاهرة منعزلة، مستقلة عن التشكيلات النفسية المشابهة لها، فقد أسمينا تلك القوة **رقيب الحلم**.

أنتم تعلمون أصلاً أن هذه الرقابة ليست تدبيراً إجرائياً يسري مفعوله على

الأحلام وحدها دون سواها. وأنتم لا تجهلون أن حياتنا النفسية محكومة برمّتها بالصراع بين هيئتين نفسيتين تُسمَّيان بغير ما دقة بالمكبوت اللاشعوري وبالشعور، وأن المقاومة التي تعترض سبيل تأويل الحلم، كمؤشر إلى رقابة الحلم، ما هي إلا المقاومة الناجمة عن الكبت، وهي التي تفصل الهيئتين المذكورتين واحدتهما عن الأخرى. وتعلمون أيضاً أن الصراع بين هاتين الهيئتين تتولَّد عنه، في بعض الشروط، تشكيلات نفسية أخرى تكون، مثلها مثل الحلم، نتيجة تسوية أو حلٍّ وسط. لذا لن تطالبوني بأن أكرر هنا كل ما تقدم بي قوله في المدخل إلى نظرية الأعصبة[٤] بصدد الشروط التي تنعقد فيها مثل هذه التسويات أو الحلول الوسط. وقد فهمتم أن الحلم نتاج باتولوجي، وأنه الحلقة الأولى في سلسلة تنتظم العرَض الهستيري والوسواس والهذاء، لكنه يتميز عن هذه التظاهرات المرَضية بطابعه الزائل وبحدوثه في ظروف الحياة السوية. وإننا لنردد ما كان قاله أرسطو: إن حياة الحلم هي ما تقوم به النفس البشرية من نشاط أثناء النوم[٥]. فعندما ننام ننصرف عن العالم الخارجي الواقعي، فيتحقق بذلك الشرط اللازم لتكوين ذهان من الأذهنة. وليس لأدقّ دراسة لأخطر الأذهنة أن تكشف لنا عن خصائص أبلغ دلالة في تمييز الحالة المرضية. لكن المريض بالذهان ينصرف عن الواقع بطريقتين مختلفتين: إما لأن المكبوت اللاشعوري تعاظم قوة فطغى على الشعور المتشبِّث بالواقع، وإما لأن الواقع صار مضنياً لا يطاق فرمى الأنا المهدّد، في فعل تمرد يائس من جانبه، بنفسه بين ذراعي الدافع الغريزي اللاشعوري. وبالمقابل، إن الذهان البريء وغير الضارّ الذي هو ذهان الحلم عزوف مؤقت ومتعمد عن العالم الخارجي؛ وهو لا يلبث أن يزول ويتلاشى متى ما انعقدت الصلات من جديد مع هذا العالم. وفي أثناء هذا الانعزال يطرأ تبدُّل وتعديل في توزيع طاقة النائم النفسية. فالنائم يستطيع على هذا النحو أن يتحاشى إنفاق شطر من طاقته الكابتة التي يستخدمها في العادة في لجم اللاشعور، إذ عندما يحاول هذا اللاشعور أن يستغل حريته النسبية في أثناء النوم يجد طريق الحركية مسدوداً دونه ويضطر إلى

٤ ـ أي في **المحاضرات التمهيدية في التحليل النفسي**، القسم الثالث.

٥ ـ في **مقالة الأحلام**. «م».

الاكتفاء بتلبية هلسية. وعندئذ يمكن للحلم أن يتشكل؛ غير أن وجود رقابة حلمية يدلّ على أن كمية معيَّنة من المقاومة الصادرة عن الكبت تظل ناشطة حتى في أثناء النوم.

هل للحلم وظيفة، هل له دور نافع؟ ها قد تأتّت لنا القدرة للإجابة عن هذا السؤال. فالاستجمام التام الذي يرمي النوم إلى توفيره مهدد بالترنيق من ثلاثة جوانب متباينة؛ أولاً من قبل التنبيهات التي تعرض اتفاقاً للنائم من الخارج، وثانياً من قبل شواغل اليوم السابق للحلم التي يشقّ عليه طردها من ذهنه، وثالثاً وأخيراً من قبل الحاثات الغريزية Motions اللامشبعة، المكبوتة، المترصِّدة لكل فرصة للإفصاح عن نفسها ـ والتنبيه الصادر عن هذه الحاثَّات محتوم وغير عارض. وبنتيجة الوهن الذي يطرأ على القوى الكابتة في أثناء النوم، يغدو صفاء النوم عرضة للتعكير إذا ما توصل تنبيه خارجي أو داخلي إلى الاتصال بأحد هذه المصادر الغريزية اللاشعورية. وبفضل صياغة الحلم تجد حصيلة هذا اللقاء متصرَّفاً لها في الحلم نفسه، من حيث أنه ظاهرة هلسية لا ضرر منها، وبذلك تتأمّن مواصلة النوم. وقد يحدث أحياناً أن يتسبَّب الحلم في شعور بالحصَر لدى النائم فيوقظه؛ غير أن هذه الواقعة لا تتناقض البتة مع وظيفة الحلم، بل كل دورها أن تكون إشارة إلى أن الرقيب يجد الموقف أخطر مما ينبغي ويرى أنه ما عاد في مستطاعه السيطرة عليه. أفلا يتفق لنا، ونحن نيام، أن ندير بيننا وبين أنفسنا الفكرة التالية الباعثة على الاطمئنان والرامية إلى تفادي الاستيقاظ: «هذا حلم ليس إلا!»؟

هذا، سيداتي وسادتي، ما أردت أن أقوله لكم في موضوع تأويل الحلم، وهو التأويل الذي يهدف إلى ردّ الحلم الظاهر إلى أفكار الحلم الكامنة. فإذا ما تمّ بلوغ هذا الهدف، فقد الحلم بوجه عام أهميته بالنسبة إلى التحليل العملي. ويضيف المحلِّل النفسي المكاشفة التي أفاده بها المريض في صورة حلم إلى المكاشفات الأخرى، ويوالي من ثم التحليل. على أنه يجدر بنا أن نتوقف فترة أطول بعد عند الحلم؛ وأول ما يهمّنا هو دراسة السيرورة التي تتحول بها أفكار الحلم الكامنة إلى حلم ظاهر. ولعلكم تذكرون أني كنت وصفت هذه السيرورة في محاضراتي

السابقة بكل تفاصيلها[٦]؛ ولذا أبيح لنفسي أن أعرض لها هنا بإيجاز شديد.

إن عمل الحلم سيرورة جديدة في نوعها، وعلى درجة كبيرة من الغرابة، ولا نعرف لها شبيهاً من قبل. وقد أتاحت لنا هذه السيرورة أن نلقي نظرة أولى على الظاهرات التي تجري في النسق اللاشعوري والتي تختلف كل الاختلاف عما نعهده من فكرنا الشعوري. ولهذا السبب يحكم عليها هذا الأخير، لا محالة، بأنها بعيدة الاحتمال ومغلوطة. وقد تعاظمت أهمية هذا الكشف حينما لاحظنا أن الآليات ذاتها ـ لا نجرؤ أن نقول: العمليات التفكيرية ذاتها ـ التي تتحكم بسيرورة تحويل الأفكار الكامنة إلى أفكار ظاهرة تتحكم أيضاً بتكوين الأعراض العصابية.

لننتقل الآن في تصويرنا للأشياء إلى توصيف إجمالي لا نجد منه بدأ. لنفرض أننا تمكَّنّا في حالة بعينها من أن نستوعب بنظرة واحدة جميع الأفكار الكامنة المشحونة بشحنة انفعالية متفاوتة القوة، وهي الأفكار التي تنوب مناب الحلم الظاهر حالما ننتهي من تفسير الحلم. إننا نلحظ أن سلوك الحالم لن يكون واحداً على الدوام إزاء جميع أفكار الحلم، وهذه ملاحظة لها أهميتها الكبيرة. وبالفعل، إن الحالم يتعرف معظم أفكار الحلم ويعترف بها، ويسلِّم بأنه من الممكن أن تكون راودته هذه الفكرة أو تلك في وقت من الأوقات. وبالمقابل، إن فكرة واحدة تثير ثائرته، فيقول إنها تبدو له غريبة، بل باعثة على الاشمئزاز، وقد يرّدها بعنف واحتداد. والحال أن في هذا دليلاً على الضآلة النسبية لأهمية الأفكار الأخرى التي لا تعدو أن تكون نتفاً من الفكر الشعوري، أو بالأحرى القبشعوري؛ وقد كان من الممكن أن تبزغ هذه الأفكار في حالة اليقظة أيضاً، وأكبر الظن أصلاً أنها عرضت له في أثناء النهار. أما الفكرة، أو بالأصح الشحنة الانفعالية المرفوضة، فهي بنت الليل، وتنتمي إلى لاشعور النائم، ولهذا السبب بالذات ينكرها هذا الأخير ويردّها. وإنما بفضل تراخي الكبت في أثناء النوم أمكن لهذه الشحنة الانفعالية أن تتظاهر وتفصح عن نفسها في صورة ما من

٦ ـ انظر المحاضرة الحادية عشرة.

الصور؛ ومهما يكن من أمر فإن التعبير الذي تتجلى به يتبدى لنا واهناً، محرَّفاً، منكَّراً، ولولا عمل تأويل الحلم لاستعصى علينا تمييزه. ولئن توصلت هذه الشحنة الانفعالية اللاشعورية إلى الإفلات من عيون شبكة الرقابة متنكرةً في صورة يعزّ معها تعرُّفها، فما ذلك إلا بفضل العلاقة التي تربطها بأفكار الحلم الأخرى التي لا اعتراض عليها من قبل النائم؛ ولهذه العلاقة أيضاً تدين أفكار الحلم اللاشعورية بقدرتها على شغل الحياة النفسية حتى في أثناء النوم. وهنا لا مفرّ لنا من التسليم بواقعة محددة، وهي أن الحاثّة اللاشعورية هي الخالقة الحقيقية للحلم، وهي التي تقدِّم الطاقة الضرورية لصياغته؛ وليس في مقدورها، مثلها في ذلك مثل سائر الحاثّات الغريزية، إلا أن تنزع نحو التماس إشباع لها، وقد علَّمتنا خبرتنا بتأويل الحلم أن هذا الإشباع هو هدف كل حلم على حدة. ففي كل حلم من الأحلام لا بدّ أن تتبدى إحدى الرغبات الغريزية وكأنها تحققت. لكن بما أن النفس الإنسانية تسعى في أثناء النوم إلى الانصراف عن الواقع، وبما أن هذا الانسحاب يؤدي إلى نكوص باتجاه آليات بدائية، فإن النائم يعيش تحقيق الرغبات هذا هلسياً وكأنه وقع فعلاً. وبفعل هذا النكوص عينه تتحول الأفكار في أثناء الحلم إلى صور بصرية، وبذلك تتجسم الأفكار الكامنة وتتمسرح.

إن هذا الشطر من عمل الحلم يفسِّر لنا بعضاً من أظهر سمات الحلم ومن أخصِّها. فلندرس من جديد صياغته، وبادئ ذي بدء مقدمته: الرغبة في النوم والانفصال المتعمّد عن العالم الخارجي. فعلى ذلك تترتب نتيجتان: أولاهما أن الجهاز النفسي يفسح في المجال أمام أساليب النشاط القديمة والبدائية لتفعل فيه، وذلك هو النكوص؛ وثانيتهما أن المقاومة التي يبديها في العادة الكبت الكابح للاشعور تتناقص. وإنما بفضل الظاهرة الأخيرة هذه يمكن للحلم أن ينصاغ، وهذه الإمكانية هي التي تنتهز سانحتَها التنبيهاتُ الخارجية والداخلية. والحلم الذي ينصاغ على هذا النحو يكون بمثابة حلٍّ وسط ذي وظيفة مزدوجة: فهو من جهة أولى منسجم مع الأنا، متوافق معه، لأنه يستجيب للرغبة في النوم إذ يلغي التنبيهات التي من شأنها أن تعكِّر صفو النوم، وهو يتيح من الجهة الثانية للحاثة الغريزية المكبوتة فرصة لإشباع نفسها بسماحه لها بأن تأخذ شكل تحقيق هلسي

لرغبة ما. بيد أن عملية صياغة الحلم المجازة من قبل الأنا النائم تظل تجري تحت إشراف الرقابة التي تتولج بها البقية الباقية من الكبت. ويتعذر عليّ أن أصف بأبسط من هذا الوصف سيرورة ما هي بذاتها بسيطة. لكن من المباح لي الآن أن أمضي في وصف عمل الحلم.

لنعد أدراجنا مرة أخرى إلى أفكار الحلم الكامنة؛ فالعنصر الرئيسي فيها هو الحاثة الغريزية المكبوتة التي تتوصل إلى الإفصاح عن نفسها، ولو في صورة ملطَّفة ومنكَّرة، بالاستعانة بالتنبيهات الطارئة عرضاً وبالاعتماد على البقايا النهارية. ونظير كل حاثة غريزية، تسعى هذه الحاثة إلى الظفر بإشباع عن طريق أفعال محددة؛ لكن بالنظر إلى أن الحركية محظورة عليها بحكم شروط النوم الفيزيولوجية، لذا تجد نفسها مكرهة على الارتداد على أعقابها وعلى الاكتفاء بإشباع هلسي. وهكذا تتحول أفكار الحلم الكامنة إلى حشد من صور حسّية ومشاهد بصرية، وعندئذ يحدث فيها ما يبدو لنا بالغ الجدة وبالغ الغرابة. فجميع الصيغ اللغوية الكفيلة بترجمة أدقّ أشكال الفكر وأرهفها: كحروف العطف والجر وتصريف الأسماء والأفعال، كل ذلك يُهجر ويعزف عنه؛ وإزاء هذا النقص في الوسائل التعبيرية، لا يتأتى إلا لمواد الفكر الخامّ أن تفصح عن نفسها، كما في اللغات البدائية التي لا صرف ولا نحو فيها. فالمجرد يُردّ إلى أساسه العيني. ومن ثم، إن ما يتبقى من الأفكار يبدو بسهولة عندئذ مفككاً غير متلاحم. وعندما يُمثَّل عدد كبير من الموضوعات والسيرورات برموز صارت غريبة عن الفكر الشعوري، يكون مردّ ذلك إلى مقتضيات الرقابة بقدر ما يكون مردّه إلى النكوص نحو أزمنة مندثرة في الجهاز النفسي. غير أن عناصر أفكار الحلم تتعرض لتغييرات أخرى أبعد مدى أيضاً. فالأفكار التي تجمع بينها صلة ما تؤلف، عن طريق التكثيف، وحدات جديدة؛ وتحوُّل الأفكار إلى صور يطال في المقام الأول العناصر التي تتقبل مثل هذا التحوير والانضغاط؛ وكل شيء يجري كما لو أن هناك قوة تحاول إخضاع المواد لضغط وكبس. وقد يكون من نتيجة التكثيف أن يتولى عنصر واحد من عناصر الحلم الظاهر تمثيل عناصر عدة من أفكار الحلم الكامنة؛ وبالمقابل، قد تحلّ عدة صور في الحلم محلّ عنصر واحد من هذه الأفكار.

ثمة سيرورة أخرى تبدو لنا أبعث على الاستغراب أيضاً: **الإزاحة** أو تغيير

موضع علامة التشديد، وهي سيرورة تعدّ في الفكر الشعوري ضرباً من ضلال الفكر أو وسيلة للتنكيت. وآية ذلك أن التمثلات المختلفة التي تنطوي عليها أفكار الحلم الكامنة ليست جميعها متعادلة القيمة. وبما أنها مشحونة بقدر متفاوت من الانفعالات الوجدانية، فمن المحتم بالتالي، عند الحكم عليها وتقديرها، أن تتفاوت في أهميتها وفي قدرتها على إثارة الاهتمام. غير أن الحلم يفصلها عن شحناتها الانفعالية، ويصفّي حساب هذه الأخيرة على حدة. فإذا بهذه الشحنات تنزاح إلى أفكار أخرى، أو تبقى في الوضع الذي كانت عليه، أو تطرأ عليها بعض تغييرات، أو أخيراً لا تظهر البتة في الحلم. أما التمثلات المجردة من شحناتها الانفعالية فتتجلى أهميتها في الحلم في ما تخلعه من قوة حسّية على الصور المحلوم بها؛ لكن لا بدّ أن نلاحظ أن علامة التشديد تكون قد انزاحت من العناصر ذات الدلالة إلى العناصر غير المهمة؛ ومن ثم، إن ما يحتل مكانة الصدارة في الحلم هو ما كان يلعب محض دور ثانوي في أفكار الحلم الكامنة؛ وبالعكس، إن الجانب الجوهري من أفكار الحلم الكامنة لا يفصح عن نفسه في الحلم إلا على نحو عارض ومبهم. وهذه الآلية من آليات عمل الحلم هي صاحبة الدور الأكبر في جعل الحلم غريباً غير مفهوم بالنسبة إلى النائم. فالإزاحة، التي تطال أفكار الحلم تحت إشراف الرقابة، هي العلة الرئيسية لتحريف الحلم.

متى ما اكتمل تأثير هذه الآليات في الأفكار الكامنة، يكون صوغ الحلم قد شارف على الانتهاء. لكن يبقى في المجال متسع لتدخل عامل آخر غير مطّرد التأثير، هو ما نسمّيه بالصياغة الثانوية التي تحدث حالما يقع الحلم تحت إدراك الشعور. ومهمة الصياغة الثانوية أن تعالج الحلم حينما يغدو موضوعاً لإدراك الشعور مثلما نعالج نحن في العادة مضامين إدراكاتنا، فنسعى إلى سدّ ما فيها من ثغرات وإلى إضافة بعض الروابط والصلات، وإن يكن مسعانا هذا يعرّضنا لخطر الوقوع في أشكال فجّة من سوء الفهم. ومن شأن هذا النشاط المعقلِن، إن جاز التعبير، أن يخلع على الحلم، في الحالات المؤاتية، واجهة جلية واضحة لا تتفق ومضمونه الفعلي؛ ولكن هذا النشاط لا يفعل فعله في الحالات جميعها أو لا يكون له أحياناً إلا أثر طفيف واهن؛ وعندئذ يتبدى الحلم كما هو، بكل فجواته

وصدوعه. ولا ننسَ من جهة أخرى أن عمل الحلم لا يؤدي وظيفته بقوة متساوية في الأحوال جميعاً؛ فكثيراً ما يقتصر أثره على بعض نتف من أفكار الحلم الكامنة، بينما تظهر نتف أخرى منها كما هي، بلا تعديل، في الحلم. وهكذا يلوح لنا أننا نقوم أثناء حلمنا بعمليات عقلية بالغة الرهافة والتعقيد، فنستغرق في التأملات ونطلق النكات ونبرم القرارات ونحلّ المعضلات. والحال أن ذلك كله لا يعدو أن يكون ثمرة نشاطنا النفسي العادي، وكان من الممكن أن يحدث في النهار السابق للحلم كما في أثناء نومنا، ومن ثم فلا صلة له بعمل الحلم ولا يشفّ لنا عن شيء من خصائصه. وربما كان من المجدي أن نذكّر مرة أخرى بالتناقض الذي يظل قائماً، داخل أفكار الحلم الكامنة بالذات، بين الحاثة الغريزية اللاشعورية وبين البقايا النهارية. فعلى حين تشهد هذه البقايا على كل تنوع أفعالنا النفسية، تنزع الحاثة الغريزية اللاشعورية، وهي المحرِّك الحقيقي لصياغة الحلم، على الدوام وبانتظام نحو تحقيقِ رغبةٍ ما.

هذا كله كان بوسعي أن أقوله لكم قبل خمسة عشر عاماً. بل ألم أقله لكم حقاً! فلنرَ الآن ما التصحيحات التي دخلت على نظريتنا خلال السنوات الأخيرة وما الكشوف الجديدة التي انضافت إليها.

لقد حذَّرتكم من أنكم لن تجدوا هنا شيئاً جديداً كل الجدة، وإني لأخشى أن تأخذوا عليَّ تكرار أقوالي وأن أكون أنا الملام إذ أقسركم على لومي على تكراري. لكن خمسة عشر عاماً قد تصرمت، وإني لآمل أن تكون هذه وسيلتي للتواصل معكم من جديد. والحق أن الأشياء التي نحن بصددها جوهرية وبالغة الأهمية في فهم التحليل النفسي، فلا ضرر من معاودة الاستماع إليها. ثم أليس بقاؤها على ما هي عليه بدون أدنى تعديل منذ خمسة عشر عاماً، أليس بحدّ ذاته واقعة مثيرة للاهتمام؟

ستلفون بطبيعة الحال في الأبحاث التي نشرت في الأعوام الأخيرة توكيدات كثيرة وأوصافاً تفصيلية جمّة، لكنني لن أزيد على تقديم بضع عينات منها. بل سأضطر أحياناً، وأنا أفعل ذلك، إلى تكرار ما سبق قوله. ويتصل أغلب الأمر برموز الأحلام وطرق التمثيل الأخرى فيها. فأنتم تعلمون أن الأطباء في إحدى

الجامعات الأمريكية أنكروا، منذ فترة غير بعيدة، أن يكون التحليل النفسي علماً كغيره من العلوم واحتجوا لإنكارهم هذا بأنه ليس في مقدور التحليل النفسي أن يقدم أي برهان تجريبي. ولقد كان يجدر بهم، على هذا الأساس، أن يوجهوا الاعتراض نفسه إلى علم الفلك، إذ إن التجريب على الأجرام السماوية عسير منتهى العسر. والحق إن هذا العلم يعتمد على الملاحظة وحدها. ومهما يكن من أمر، فقد كان الباحثون الفييناويون حاولوا أن يدعموا بالبراهين نظريتنا في رمزية الأحلام. فقد وجد الدكتور شروتر Schrotter[٧] منذ عام ١٩١٢ أننا إذا أمرنا أشخاصاً غارقين في حالة من التنويم العميق بأن يحلموا بمشاهد جنسية، نلحظ أن المادة الجنسية في الحلم المستثار قد نابت منابها رموز هي عندنا مألوفة. فقد أمر، على سبيل المثال، امرأة بأن تحلم بعلاقات جنسية مع واحدة من صديقاتها، فظهرت هذه الصديقة في الحلم وهي تمسك **بحقيبة سفر** وقد خطّت على بطاقتها هذه الكلمات: «للسيدات فقط». وقد قام بتلهايم betlheim[٨] وهارتمان Hartmann[٩] (١٩٢٤) بتجارب أبعث على الدهشة بعد. وقد أجرياها على معتوهين مصابين بداء كورساكوف[١٠]، إذ قصّا عليهم قصصاً جنسية ثم طلبا

٧ ـ كارل شروتر: عضو **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. مات منتحراً. والإحالة هنا إلى مقال له بعنوان **أحلام تجريبية** في **المجلة المركزية للتحليل النفسي**. «م».

٨ ـ اصطفان بتلهايم: طبيب ومحلل نفسي يهودي كرواتي (١٨٩٨ ـ ١٩٧٠). حضر محاضرات فرويد التمهيدية عن التحليل النفسي وانتمى إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. تطوع في الجيش المعادي للفاشية بقيادة الماريشال تيتو. من أشهر مؤلفاته: **معالجة الأعصبة**. «م».

٩ ـ هاينز هارتمان: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٩٤ ـ ١٩٧٠). ينتمي إلى أسرة أنجبت العديد من الجامعيين والكتاب. تولى تحليله كارل أبراهام وساندور رادو، ومن بعدهما فرويد نفسه. هرب من النمسا بعد سيطرة النازيين عليها ولجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أنشأ **جمعية نيويورك للتحليل النفسي**. من أهم مؤلفاته: **علم نفس الأنا ومشكلة التكيف** الذي وضع فيه حجر الأساس لما سيعرف باسم علم النفس الأنوي. «م».

١٠ ـ داء كورساكوف: مرض عقلي ينشأ من تسمم الجهاز العصبي المركزي أو الطرفي بإدمان الخمر (وهذا أهم أسبابه) أو ببعض الأملاح المعدنية (كالرصاص والزرنيخ والزئبق) أو بجراثيم بعض الأمراض (كالسل والتيفوئيد والملاريا). وقد ينشأ عن إصابات وأمراض في الدماغ أو في الأيض. ومن أعراضه اختلال ذاكري وهرف وقابلية مفرطة للإيحاء ونقص استبصار، بالإضافة إلى بعض الأعراض الجسمية كالتهاب الأعصاب. «م».

إليهم أن يعيدوا سردها وسجّلا ما أحدثه فيها هؤلاء المرضى من تحريف. وقد كانت رموز الأعضاء التناسلية والعلاقات الجنسية في هذه الروايات المحرَّفة مماثلة لتلك التي عهدناها في الأحلام، ومنها رمز السُلَّم. وقد ذكر الباحثان بحقّ أن هذا الرمز ما كان لينتج عن رغبة واعية في التحريف(١١).

كذلك بيَّن هـ. سلبرر Silberer(١٢)، من خلال سلسلة مثيرة من التجارب، أنه في الإمكان مباغتة عمل الحلم في الجرم المشهود إن جاز التعبير، أي في عين اللحظة التي يحوِّل فيها الأفكار المجرَّدة إلى صور. فحين كان يشتدّ به التعب وتزيد حاجته إلى النوم، كان يقسر نفسه على مواصلة العمل، فيفلت منه حبل أفكاره لتحلّ محلها رؤى بصرية هي لا مراء بديل عنها.

هاكم مثالاً بسيطاً على هذه الظاهرة. قال سلبرر: «أفكِّر بأن أصحِّح مقطعاً متهافتاً في أحد مقالاتي، فأراني في الرؤيا وأنا أنجر قطعة من الخشب وأصقلها». وكثيراً ما كان محتوى الرؤية في أثناء هذه التجارب يأتي معبراً في حالة التعب لا عن الفكرة التي يقلِّبها الباحث في ذهنه، بل عن حالته النفسية الخاصة ـ حلول الذاتي محلّ الموضوعي ـ وهذا ما أسماه سلبرر بـ«الظاهرة الوظيفية». وحسبكم مثالاً واحداً لتتوضح لكم حالاً هذه الآلية: فقد حاول الباحث المقارنة بين أفكار فيلسوفين بصدد مشكلة بعينها، ولكن بما أنه كان متعباً، فقد كانت إحدى هذه الأفكار تفلت منه باستمرار، وفي آخر الأمر ظهرت له رؤية: فقد رأى نفسه وهو يطلب بعض المعلومات من سكرتير متجهم. وفي بادئ الأمر بقي هذا منكباً على مكتبه لا يعيره التفاتاً، ثم رماه بنظرة ساخطة وكأنه يبغي طرده؛ وأكبر الظن أن شروط التجربة بالذات هي التي جعلت من الرؤية المتحصلة على هذا النحو محض نتيجة لملاحظة الذات.

---

١١ ـ الإحالة هنا إلى البحث المشترك الذي كتبه كل من اصطفان بتلهايم وهاينز هارتمان عن «ردود الفعل المحبطة للذاكرة في ذهان كورساكوف»، والمنشور في **أرشيف الطب النفسي والعصبي** عام ١٩٢٤. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٢ ـ هربرت سلبرر: محلل نفسي نمساوي عصامي (١٨٨٢ ـ ١٩٢٣). تعرف إلى فرويد وانتمى إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** وذاع أمره بدراسته عن الرمزية قبل أن يتحول إلى التصوف والمذهب الباطني. وقد تبنى مفهوم كارل غوستاف يونغ عن اللاشعور الجمعي. مات منتحراً، وقد عزا بعض الدارسين سبب انتحاره إلى انتقاد فرويد لأفكاره. من مؤلفاته: **رمزية الخيمياء**. «م».

لم ننتهِ بعد من مسألة الرموز. فقد تراءى لنا أننا فهمنا بعضاً منها، لكن الشيء الذي لا يزال يقلقنا هو أننا نعجز عن أن نفسر لماذا أخذ رمز **بعينه** مدلولاً **بعينه**. وفي مثل هذه الحال يفترض بالإثباتات أن تأتي من مصدر آخر، وعلى الأخص من علم اللغة والفولكلور والميتولوجيا والطقوس. ورمز المعطف يقدم لنا مثالاً من هذا القبيل. فقد قلنا إن المعطف يرمز إلى الرجل في الحلم الذي تحلم به امرأة. وأعتقد أنه سيبهركم أن تعلموا بلسان ت. رايك Reik[١٣] (١٩٢٠) أنه «في طقوس الأعراس القديمة لدى البدو يقوم الخطيب بإلباس الخطيبة معطفاً خاصاً يسمّى العباء A'BA وينطق في الوقت نفسه بالكلمات الطقسية التالية: «لا تدعي رجلاً غيري يدثّرك يوماً!» (نقلاً عن روبرت آيسلر Eisler[١٤]: **معطف العالم والقبة السماوية**). وقد وجدنا بأنفسنا بعض رموز جديدة، أكتفي بأن أسوق لكم مثالين منها. فقد ذهب أبراهام Abraham[١٥] (١٩٢٢) إلى أن العنكبوت في الحلم رمز للأم، غير أنها الأم القضيبية[١٦]، الأم المهابة الجانب؛ وعليه، يكون الخوف من العناكب تعبيراً عن الخوف من الزنى بالأم وعن الذعر

١٣ - تيودور رايك: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٨ - ١٩٦٩). كان من أوائل تلاميذ فرويد الذي تولى مساعدته لاستكمال دراسته. وكانت أطروحته عن الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير أول أطروحة تحليلية نفسية في المجال الأدبي. هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية هرباً من النازية. وهناك أنشأ في نيويورك أول معهد علمي للتحليل النفسي. من مؤلفاته: **المازوخية لدى الإنسان المعاصر، القاتل المجهول، الأسطورة والذنب، خلق المرأة، السماع بالأذن الثالثة.** «م».

١٤ - روبرت آيسلر: مؤرخ نمساوي للفن واختصاصي في التوراة (١٨٨٢ - ١٩٤٩). له كتابات عن النظام الملكي وعن التنجيم والفلك وعن المسيح. من مؤلفاته: **متاهة المال، فن التنجيم.**«م».

١٥ - كارل أبراهام: طبيب ومحلل نفسي ألماني (١٨٧٧ - ١٩٢٥). عمل مع يوجين بلولر في المعهد الطبي في زيوريخ، والتقى فرويد عام ١٩٠٧ ودارت بينهما مراسلات. وترأس **الرابطة الدولية للتحليل النفسي.** أولى اهتماماً خاصاً للجنسية الطفلية وميَّز مرحلتين في الطور الفموي عند الطفل: طور أولي يرتبط بالمصّ، وطور افتراسي أو سادي يرتبط بالعضّ. من مؤلفاته: **الرضات الجنسية، الأسطورة والحلم، رمزية لغة الحلم، مفاعيل الرقابة في الحلم والأسطورة، تظاهرات عقدة الخصاء لدى المرأة.** «م».

١٦ - الأم أو المرأة القضيبية أو الفالوسية Phallique: تصور استيهامي من عهد الطفولة للمرأة باعتبارها ذات قضيب، أو باعتبارها رمزياً واضعة اليد على السلطة المفروض فيها أن تكون للأب. ويشار بهذا التعبير عادة إلى المرأة المسترجلة، المستبدة، التي ينمّ مسلكها وملبسها عن قوة وسلطان. «م».

من الأعضاء التناسلية المؤنثة. ولعلكم تعلمون أن التصوير الأسطوري لرأس ميدوزا[١٧] قابل لأن يعزى إلى الدافع نفسه، أي الخوف من الخصاء. أما الرمز الآخر الذي أودّ الكلام عنه فهو رمز الجسر؛ وقد فسره فيرنزي Ferenezi[١٨] في عام ١٩٢١ ـ ١٩٢٢. فالجسر يرمز أصلاً إلى آلة الرجل التي تصل بين الوالدين في أثناء الجماع. غير أنه لا يلبث أن يكتسب مدلولات أخرى مشتقّة من هذا المدلول الأول. فبما أن عضو الذكورة هو صاحب الفضل في ولادة الإنسان من مياه السابياء، يغدو الجسر رمزاً للعبور من عالم الغيب (الوجود قبل الولادة، رحم الأم) إلى عالمنا المعروف (الحياة). ولكن بما أن الإنسان، من جهة أخرى، يعتبر الموت عودة إلى رحم الأم (إلى المياه)، يغدو الجسر أيضاً دالاً على التقدم باتجاه الموت، ويصير له معنى مغاير جداً للمعنى الأول، معنى العبور والانتقال من حالة إلى حالة. وبموجب هذا التأويل، إن المرأة التي لم تفلح في قمع رغبتها في أن تكون رجلاً كثيراً ما تحلم بجسور أقصر مما ينبغي، جسور لا توصل إلى الضفة الأخرى.

غالباً ما نلقى في المضمون الظاهر للأحلام صوراً ومواقف تذكّرنا ببعض الموضوعات المطروقة في الحكايات والخرافات والأساطير. ويتيح لنا تأويل هذه الأحلام أن نهتدي إلى الأصول البدائية الأولى لهذه الموضوعات، وهذا من دون أن يباح لنا تناسي التعديلات التي طرأت بمرّ القرون والأجيال على المدلول الأولي لهذه المواد. ومن شأن عملنا التأويلي أن يزيح النقاب، إن جاز التعبير، عن المادة

١٧ ـ ميدوزا: في الميتولوجيا الإغريقية واحدة من الشقيقات الممسوخات الثلاث المعروفات باسم الغورغونيات، وكان رأسهن مضفوراً بالثعابين، وكانت ميدوزا هي الوحيدة الفانية بينهن. وقد جزّ برسيوس، ابن زفس، رأسها وصار ملكاً وتزوج. «م».

١٨ ـ ساندور فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). تولى تحليله فرويد، وتولى تحليل ميلاني كلاين وجيزا روهايم. وانتقد رياء معاصريه من المحللين الذين يخفون فشل معالجاتهم بذريعة المقاومة والتحويل السلبي، أي إسقاط المريض لمشاعره العدائية على شخص الطبيب المعالج. وكان يرى أن نظرية التحليل النفسي وتقنيته على حدّ سواء قابلتان للتطوير على ضوء معطيات كل حالة فردية على حدة. من أهم مؤلفاته: **الرضّة، حول الأعصبة الحربية، تأملات حول المازوخية، طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية**، فضلاً عن مراسلات مع فرويد في ثلاثة مجلدات. «م».

الخامّ التي يصحّ وصفها في كثرة من الأحوال بأنها جنسية، بملء معنى الكلمة. وهذه المادة هي عينها التي جرى فيما بعد استخدامها على نحو بالغ التنوع بحكم ما طرأ عليها من تعديلات. ومثل هذا الإرجاع إلى الأصول من شأنه أن يجلب علينا صواعق غضب الباحثين من غير أنصار التحليل النفسي، كما لو أن في نيّتنا أن ننكر أو ننتقص من قيمة كل ما أضافته تطويرات لاحقة إلى الواقعة البدائية. على أن مباحث كمباحثنا تبقى خصبة بقدر ما هي طريفة. وهي تسهم أيضاً في تسليط الضوء على بعض موضوعات الفن التشكيلي. ومن ذلك أن ب. ج. آيسلر (١٩١٩) استطاع، بالاسترشاد بأحلام إحدى مريضاته، أن يفسِّر تحليلياً تمثال هرمس[١٩] لبراكسيتيلس[٢٠]، وهو التمثال الذي يمثل الفتى وهو يلاعب صبياً صغيراً. ولنضف أيضاً أن الموضوعات الميتولوجية غالباً ما يمكن تفسيرها بالاعتماد على تأويل الأحلام. ومن ذلك أن قصة المتاهة الخرافية[٢١] يمكن أن تعتبر تمثيلاً لولادة شرجية، على اعتبار أن المسالك والممرات الملتوية هي المعي، وخيط آريادنا[٢٢] هو الحبل السُرِّي.

إن الأساليب التي يتمّ بها عمل الحلم ـ وهذا موضوع نابض بالحياة ويكاد لا ينضب له معين ـ تتوضح لنا يوماً بعد يوم وتغدو أدنى إلى الفهم؛ ولنذكر منها بعض العينات؛ فعلاقة التواتر، مثلاً، يصوّرها الحلم عن طريق تكرار النظائر والأشباه. وهاكم حلماً غريباً حلمت به فتاة في مقتبل العمر: فقد رأت نفسها تدلف إلى قاعة فسيحة فوقع نظرها على شخص جالس على كرسي؛ ثم رأت ٦ أو ٨ أشخاص مشابهين، وكلهم على صورة أبيها. وتفسير هذا المنام هيِّن

١٩ ـ هرمس: من آلهة الإغريق، ابن زفس ومايا. وهو عند الرومان عطارد. كان إله الفصاحة والتجارة واللصوص، ورسول الآلهة. وغالباً ما يُصوَّر في صورة فتى «م».

٢٠ ـ براكسيتيلس: نحات إغريقي، من مواليد أثينا (نحو ٣٩٠ ـ ٣٣٠ ق.م). اشتهر بالنموذج الذي نحته لأفرويت والذي كان مصدر إلهام لنحاتي العصر الهلنستي. «م».

٢١ ـ المتاهة: في الميتولوجيا، مقام المينوتوروس، وهو وحش برأس ثور وجسم بشر. وفي الواقع، هي قصر الملك مينوس في عاصمة جزيرة كريت في عهد الحضارة الميقينية. «م».

٢٢ ـ آريادنا (وباللغات اللاتينية المحدثة آريان): في الميتولوجيا الإغريقية ابنة مينوس. أعطت تيزيوس، الذي قدم إلى كريت ليصرع المينوتوروس، الخيط الذي مكنه من الخروج من المتاهة بعد قتله الوحش. «م».

متى ما علمنا، من بعض التفاصيل الثانوية، أن القاعة تمثل بطن الأم. والحلم يعبِّر عن استيهام شائع مألوف لدى الفتاة الصغيرة التي يداخلها الاعتقاد بأنها التقت بأبيها، أثناء وجودها في الرحم، وذلك عندما كان هذا الأخير يلج إلى جسم الأم في أثناء فترة الحمل. ولا داعي للحيرة والبلبلة إن تمّ ولوج الأب في الحلم من خلال شخص الحالمة نفسها؛ فتلك هي نتيجة عملية إزاحة لها بحدّ ذاتها دلالتها الخاصة. أما مكاثرة شخص الأب فتدلّ فقط على أن العملية المشار إليها يفترض فيها أن تكون تكررت مراراً. والحق أننا مكرهون على الاعتراف بأن الحلم، إذ يترجم التواتر بالمراكمة، لا يجيز لنفسه حقاً فيه شطط. فهو لا يزيد على أن يعطي الكلمة من جديد مدلولها البدائي، إذ إن كلمة التواتر تعني اليوم تكراراً في الزمن، بينما كانت تعني في الماضي تراكماً في المكان[٢٣]. غير أن عمل الحلم، حيثما حدث، يقلب العلاقات الزمانية إلى علاقات مكانية ويظهرها للعيان في هذا الشكل الأخير. لنفترض أننا رأينا في المنام مشهداً يدور بين شخصين يبدوان للناظر صغيرين جداً ونائيين للغاية، كما لو أنه يراهما بمنظار مما يستعمل في تقريب المشاهد المسرحية، وهو يمسك به مقلوباً. فالصغر والنأي لهما معنى واحد، أي يعبّران عن البعد في الزمن، ولا يشقّ علينا في هذه الحال أن نفهم أن المشهد المشار إليه يعود إلى ماض بعيد. ولعلكم تذكرون، ناهيك عن ذلك، أني كنت ذكرت وبيّنت لكم بالأمثلة في محاضراتي السابقة[٢٤] أنه في مستطاعنا أن نستخدم، من أجل التأويل، حتى الخصائص الشكلية الخالصة للحلم الظاهر بردّنا إياها إلى مضمون أفكار الحلم الكامنة. وأنتم تعرفون الآن أن الأحلام التي يحلم بها المرء في ليلة واحدة تنتمي جميعها إلى مركَّب واحد. ومن المهم أيضاً أن نعرف هل تظهر الأحلام المشار إليها للحالم في صورة متصلة، أم أنها تظهر له مجزّأة، وفي هذه الحال كم يكون عدد الأجزاء. والحق أن هذا العدد كثيراً ما يناظر النقاط المركزية

---

٢٣ ـ بديهي أن هذه خصوصية لغوية محصورة بالألمانية نظراً إلى الوحدة الاشتقاقية بين التواتر Haufigkeit والتراكم Haufung. «م».

٢٤ ـ انظر المحاضرة الثانية عشرة من **المحاضرات التمهيدية في التحليل النفسي**. «م».

المستقلة بذاتها في صياغة الأفكار في أفكار الحلم الكامنة، أو يناظر التيارات المتعاكسة والمتصارعة في حياة النائم النفسية، إذ يوصف كل تيار من هذه التيارات، على وجه التخصيص إن لم يكن على وجه الحصر، في جزء بعينه من الحلم. وكثيراً ما تكون صلة الحلم الطويل الرئيسي بالحلم القصير الذي يعقبه كصلة النتيجة بالشرط. وبوسعكم أن تجدوا مثالاً مقنعاً على ذلك في محاضراتي السابقة. أما الحلم الذي يعتبره الحالم وكأنه دُسّ على النص الأصلي دساً، فيناظر بالفعل فقرة هامشية في أفكار الحلم. وقد أوضح فرانز ألكسندر Alexander[٢٥] في دراسة له عن أزواج الأحلام (١٩٢٥)، أن الحلمين اللذين يحلمهما المرء في ليلة واحدة غالباً ما يتوازعان عمل الحلم بحيث يحققان معاً وعلى مرحلتين الرغبة: وهذا ما لا يستطيع أي منهما على حدة أن يقوم به. لنفرض أن الحلم أماط اللثام عن رغبة في إتيان فعل محظور على شخص إنسان معيَّن، فإن هذا الشخص يظهر في الحلم الأول، لكن الفعل لا يشار إليه فيه إلا إشارة وجلة. والعكس هو ما يحدث في الحلم الثاني. فالفعل يظهر فيه بجلاء ووضوح، لكن الشخص يبدو فيه ضائع المعالم، هذا إن لم يستبدل بشخص آخر لا ضلع له بالأمر. وهذا ما يوحي إلينا بأننا إزاء حيلة. ومن الممكن أن تقوم أيضاً بين شطري الحلم المزدوج علاقة مشابهة أخرى، إذ يمثّل أحد الشطرين العقاب، بينما يمثل الشطر الثاني الرغبة. أفلا يعدل هذا القول إنه من المباح للمرء أن يقوم بذلك الفعل المحظور لكن بشرط القبول بالتكفير عنه؟

لا أريد أن أشدَّ انتباهكم أكثر من ذلك إلى هذه التفاصيل الصغيرة، ولن أتوقف كذلك عند المناقشات الدائرة حول كيفية استخدام التأويل في التحليل. فأنتم بشوق، على ما أفترض، إلى معرفة التعديلات التي طرأت على آرائنا الأولى بصدد ماهية الحلم ومدلوله. لكن لا تتوقعوا مفاجآت كبرى في هذا الميدان.

٢٥ - ـ فرانز ألكسندر: طبيب ومحلل نفسي أمريكي من أصل مجري (١٨٩١ - ١٩٦٤). أنشأ في شيكاغو عام ١٩٣١ معهد التحليل النفسي بهدف إرساء الأسس لتحليل نفسي جديد يكون أكثر تواؤماً مع السياق الأمريكي. من مؤلفاته: **مبادئ التحليل النفسي والطب النفسي ــ البدني**. «م».

والنقطة التي كانت مثاراً للنقاش أكثر من أية نقطة أخرى في نظريتي هي بلا شك توكيدي بأن الأحلام جميعاً تحقيق لرغبات؛ وهي مسألة كنا جلوناها قبل زمن طويل في محاضراتنا الأولى. غير أن الناس من غير أهل الاختصاص لا يكلّون أبداً من الاعتراض عليَّ بأنه يوجد عدد كبير من الأحلام التي تبعث على العكس على القلق والحصر. ولقد حافظنا على ما نذهب إليه من مذهب بهذا الصدد بأن قسمنا الأحلام إلى ثلاث فئات: الأحلام الرغبية، والأحلام الحصَرية، والأحلام القصاصية.

إن الأحلام القصاصية تعادل هي الأخرى تحقيقاً لرغبات. غير أن ما يفوز فيها بالترضية والإشباع ليس الحاثات الغريزية، بل تلك الهيئة في حياتنا الجنسية التي بيدها أمر النقد والرقابة والقصاص. وحينما يُسرد على مسامعنا حلم قصاصي صرف، فبوسعنا، بفضل عملية ذهنية بسيطة، أن نعيد بناء الحلم الرغبي الذي جاء الحلم القصاصي ردَّ فعل له، فحلّ محلَّه الحلم الظاهر. وأنتم تعلمون، سيداتي وسادتي، أن دراسة الأحلام هي التي كانت معواننا الأول في فهم الأعصبة. فلن يدهشكم إذاً أن تكون معرفتنا بالأعصبة قد عدَّلت، في طور لاحق، تصورنا للحلم، وسترون فيما بعد[٢٦] أننا اضطررنا اضطراراً إلى التسليم بوجود هيئة خاصة في حياتنا النفسية وظيفتها أن تنقد وتحظر. ونحن نسمي هذه الهيئة بالأنا الأعلى. وبعد أن تحققنا من أن رقابة الحلم هي من اختصاص هذه الهيئة، وجدننا مكرهين على أن ندرس بمزيد من التدقيق والتمعن الدور الذي يلعبه الأنا الأعلى في تشكيل الأحلام.

إن نظريتنا القائلة بأن الحلم يعادل تحقيقاً لرغبة لا تواجه في الحقيقة من الصعوبات الخطيرة سوى اثنتين، قد يشطّ نقاشهما بنا بعيداً، علاوة على أننا لم نجد بعد لأيٍّ منهما حلاً مُرضياً. الصعوبة الأولى مردّها إلى أن الأشخاص الذين تعرضوا لصدمة أو لرضّة نفسية خطيرة قد تنجم عنها هستيريا رضّية، كما يحدث بكثرة في أثناء الحرب، يجدون أنفسهم على الدوام في أحلامهم في

٢٦ ـ انظر المحاضرة الحادية والثلاثين. «م».

مواجهة الموقف الرضّي عينه. وهذا ما قد يبدو متناقضاً مع ما تقدمنا به من آراء بصدد وظيفة الحلم. فما الرغبة التي يمكن أن تلبيها في مثل هذه الحال العودة إلى حدث كان له وقعه المؤلم في النفس؟ هذا لغز يعسر حلّه! أما الصعوبة الثانية فنرتطم بها بصورة شبه يومية في العمل التحليلي؛ وهي لا تنطوي على مثل ما تنطوي عليه الصعوبة الأولى من اعتراض خطير. فأنتم تعلمون أن أحد أهداف التحليل النفسي أن يتوصل إلى إزاحة ستار النسيان الذي يحجب السنوات الأولى من الطفولة، وأن يعيد إلى الذاكرة الواعية تظاهرات الحياة الجنسية للطفولة الأولى. والحال أن هذه الوقائع والخبرات الجنسية الأولى تقترن بانطباعات أليمة من خوف وشعور بالخطر وخيبة وعقاب. ومفهوم أن تكون هذه الانطباعات قد طالها الكبت، ولكنه يشقّ علينا أن نفهم كيف تتوصل بمثل هذا اليسر إلى شقّ طريقها إلى حياة الحلم لتتخذ منها الأخاييل الحلمية نماذج لها. ولِمَ تزخر أيضاً الأحلام بصور معادة مكررة لتلك المشاهد الطفلية، وبإشارات وإلماعات إليها؟ أليس ثمة من تنافر بين طابعها المستكره وبين الميل الذي يفصح عنه الحلم إلى تحقيق رغبة؟ أكبر الظن أننا نهوّل من شأن هذه الصعوبة. فالوقائع والخبرات الطفلية المشار إليها تبقى موثوقة العرى، في الحقيقة، إلى جميع الرغبات الغريزية اللامتحققة التي لا يخمد لها أوار والتي تمدّ الأحلام على مدى الحياة بالطاقة اللازمة لصياغتها. ولا يعسر علينا أن نتصور أن هذه الرغبات تنزع، في اندفاعها الجامح، إلى أن تجبر حتى تلك الوقائع والخبرات الأليمة على الطفوّ من جديد إلى السطح. ومن جهة أخرى، إن الكيفية التي تتمّ بها إزاحة النقاب عن تلك المواد تنمّ بوضوح عما يبذله عمل الحلم من جهود كيما يحوِّل الخيبة والإحباط، بواسطة التحريف، إلى إمكانية وسماح. لكن الأمر يختلف في الأعصبة الرضّية حيث تتمخض الأحلام دوماً عن حصر. ولنقرّ بصراحة أن الحلم، في هذه الحالة، لا يؤدي وظيفته. ولا أريد أن أحتج بالمثل السائر الذي يقول إن الاستثناء يؤكد القاعدة، إذ إن حكمة هذا المثل هي عندي موضع شبهة. إلا أن الشيء الأكيد أن الاستثناء لا يملك أن ينفي القاعدة. ومتى ما عزلنا آلية من الآليات النفسية نظير الحلم، بغية دراستها، عن السياق الذي تنتمي إليه، أمكن لنا أن نهتدي إلى

القوانين التي تحكمها وتسيِّرها. وحينما نعيدها إلى سياقها، فلا بدّ أن نتوقع أن يعود الغموض فيكتنف هذه المعطيات أو أن تتأثر بصدمة تداخلها مع قوى أخرى. إننا نقول إن الحلم تحقيق لرغبة؛ لكنكم إذا ما أخذتم بعين الاعتبار الاعتراضات الأخيرة، توجّب عليكم أن تستنتجوا منه أن الحلم هو محاولة لأن يكون تحقيقاً لرغبة. وكل من له اطلاع على الدينامية النفسية يعلم أن الأمر سيان. فقد يحدث في بعض الظروف ألا يفرض الحلم رغبته إلا بصورة منقوصة للغاية. بل قد يضطر في أحيان أخرى إلى العزوف عنها؛ ويبدو أن التثبيت اللاشعوري على رضة ما هو العامل الأهم في تعطيل وظيفة الحلم. فالنائم يحلم لأن استرخاء الكبت في أثناء النوم يسمح لضغط الواقعة الرضّية بأن يتظاهر ويفصح عن نفسه على إثر الإخفاق الذي يمنى به عمل الحلم الذي كان يفترض به أن يحوّل الآثار الذاكرية للواقعة الرضّية إلى تحقيق لرغبة. ومن المحتمل في مثل هذه الأحوال أن يصاب المرء بالأرق وأن يعزف عن النوم توجساً من إخفاق وظيفة الحلم. بيد أن هذه حالة متطرفة من حالات العصاب الرضي. لكن مهما يكن من أمر، فلا مندوحة من أن نقرّ لأحداث الطفولة وخبراتها بطابعها الرضّي، وألا ندهش إذا ما واجهتنا، في شروط أخرى أيضاً، اضطرابات عابرة في اشتغال الحلم.

المحاضرة الثلاثون

الحلم وعلم الغيب

سيداتي وسادتي، سنسلك اليوم درباً ضيقاً، لكنه قد يفتح لنا آفاقاً عريضة.

لا أخال أني سأفاجأكم كثيراً إذا ما حدّثتكم عن صلات الحلم بعلم الغيب. فغالباً ما اعتبر الناس الحلم مدخلاً إلى عالم الروحانيات، ولا يزال الكثيرون يرون فيه إلى اليوم ظاهرة من ظاهرات الغيب. وحتى نحن الذين اتخذنا الحلم موضوعاً لمباحثنا العلمية لا نملك أن ننكر أنه يكون بين الحلم وبين هذه الوقائع الغامضة صلة أو صلات. فماذا نعني بالغيب والعلم الروحاني؟ لا تتوقعوا مني أن أحاول تصنيف هذه التصورات، التي تشكو من إبهام التعريف، في أبواب واضحة محددة. فنحن جميعاً نعرف بصفة عامة ومشوّشة ما المقصود بهذه الأمور. فهي تشير إلى عالم مغاير لعالمنا القابل للفهم والمحكوم بقوانين صارمة بناها لنا العلم.

تؤكد النزعة الغيبية الوجود الفعلي لـ«تلك الأشياء التي تقع بين السماء والأرض والتي تعجز حكمتنا المدرسية عن تخيُّلها»[1]. ونحن بدورنا عاقدون العزم على عدم التقيُّد بالنظرات المدرسية الضيِّقة، ونجهر باستعدادنا للإيمان بكل ما يتبدى لنا معقولاً.

ولن نخرج في تناولنا هذه الأمور عن الطريقة التي درجنا عليها في التعامل مع الوقائع العلمية. فسننظر أولاً في ما إذا كانت الظاهرات المشار إليها قابلة للبرهان عليها، فإذا ما ثبتت واقعيتها ثبوتاً لا مماراة فيه شرعنا، ثانياً، بمحاولة تفسيرها. ولا أخفي عنكم أن ثمة عوامل عقلية وسيكولوجية وتاريخية تعسّر علينا وضع هذا البرنامج موضع تنفيذ. فالحال هنا تختلف عنها في المباحث الأخرى.

١ ـ الشاهد هنا من **فاوست** لغوته. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

لننظر بادئ ذي بدء في الصعوبة العقلية! وسأسمح لنفسي بأن أستعين بتشبيه لا يخلو من فجاجة، ولكنه ملموس واضح، لإفهامكم ما أعني. لنفرض أننا نسعى إلى معرفة جوف باطن الأرض، وهذه مسألة لم تلقَ لها حلاً بعد على وجه اليقين القاطع. إننا نفترض أن الأرض مكوّنة من معادن ثقيلة متأججة. فلنتصور الآن أن أحدهم جاء يؤكد لنا أن باطن الأرض مركَّب من ماء مشبع بغاز الفحم، من نوع من الماء الغازي. لا ريب في أننا سنردّ بقولنا إن الأمر بعيد الاحتمال جداً، وإنه يتعارض مع توقعاتنا، وإنه لا يقيم اعتباراً البتة لمرتكزاتنا العلمية التي أتاحت لنا الوصول إلى فرضية المعادن. على أن هذا الزعم الجديد ليس متهافتاً بحدّ ذاته، وسنسير بلا مقاومة وراء من يشقّ لنا الطريق إلى التحقق من صحة فرضية الماء الغازي. ولنفرض الآن أنه جاءنا شخص آخر يعلن لنا بمنتهى الجِدّ أن النواة الأرضية مؤلفة من المربَّى! في هذه الحال سيختلف سلوكنا اختلافاً كلياً. فسنقول لأنفسنا إن المربى غير موجود في الطبيعة، وإنه من نتاج الطهو البشري؛ ناهيك عن ذلك، فإن وجود المربى يفترض مقدَّماً وجود أشجار مثمرة وثمار. والحال أنه يعزّ علينا أن نتصور كيف يمكن أن توجد في باطن الأرض أشجار ومنتجات لفنّ الطهو البشري. وستحدو بنا هذه الاعتراضات العقلية إلى صرف انتباهنا عن المسألة نفسها، ولن تراودنا بحالٍ فكرة البحث في ما إذا كانت النواة الأرضية مكوّنة فعلاً من المربى. بل على العكس من ذلك، إذ سنميل إلى التساؤل عن حقيقة الشخص الذي يمكن أن ترد إلى ذهنه مثل هذه الفكرة، وقد لا نحجم حتى عن سؤال المبتكر البائس لنظرية المربى عن المصدر الذي استقى منه علمه، فيأخذه للحال حنق شديد ويتهمنا بأننا نتنكر لفرضيته من دون أن نقيِّمها تقييماً موضوعياً، وبسائق من تحيُّز علمي مسبق. لكن اعتراضه سيذهب أدراج الرياح. ونحن نشعر أن التحيزات ليست على الدوام مذمومة، وأنه من الممكن أن يكون لها في بعض الأحيان ما يبررها، وأنها قد تكون ذات نفع وفائدة إذ تعفينا من مجهود عقيم لا جدوى منه. والحق أن مثل هذه التحيزات ليست سوى استنتاجات يستنتجها الإنسان قياساً على أحكام أخرى مبنية على أساس صحيح.

إن الكثير من معطيات علم الغيب لا تقع من نفوسنا إلا كموقع فرضية المربى، ولهذا نرانا في حِلٍ من نبذها من دون أن نخضعها للفحص. على أن الأمر أعقد في الواقع مما يبدو. والتشبيه الذي اعتمدت عليه، مثله مثل كل تشبيه آخر بوجه عام، لا ينهض بديلاً عن برهان قاطع. وربما كان جائزاً للمرء أن يتساءل إن يكن هذا التشبيه يصدق على الحالة التي نحن بصدد البحث فيها، وربما حدس بأن اختيارنا لم يقع عليه إلا ليتأتى لنا أن نتخذ موقف الرفض الساخر. ثم إن الأحكام المسبقة، وإن تكن مبنية على أساس سليم وذات نفع في بعض الأحيان، قابلة أيضاً لأن تكون مغلوطة وضارة، ويعسر علينا أن نقطع سلفاً هل هي من النوع الأول أو الثاني. ويزخر تاريخ العلوم بشواهد من شأنها أن تجعلنا نحاذر التعجل في الإدانة. أفلم يستسخف العلماء لحقبة مديدة من الزمن الفكرة القائلة إن الحجارة، المسماة اليوم بالنيزكية، تسقط على الأرض من الفضاء الخارجي؟ ولكم تردّدوا حتى يقبلوا بفكرة أن الصخور الجبلية التي تحتوي على قواقع وأصداف كانت في يوم من الأيام قاعاً للمحيطات؟ ثم ألا يصدق الأمر أيضاً على التحليل النفسي يوم خرج على الناس بفكرة اللاشعور؟ لدينا إذاً، نحن أنصار التحليل النفسي، أسباب خاصة تحملنا على الحذر الشديد عندما نستخدم الحجة العقلية لنردّ بها المعطيات الجديدة. وعلينا أن نقرّ بأن هذه الحجة لا تبيح لنا أن نتجاهل نفور الناس وشكّهم وريبتهم.

لننتقل الآن إلى العامل الثاني، أي العامل الذي وصفته بأنه سيكولوجي. وأنا أعني به النزوع البشري العام إلى الخرافة والإيمان بالمعجزات. إذ كلما أناخت علينا الحياة بانضباطيتها الصارمة، شعرنا بمقاومة تندفع من صدورنا احتجاجاً على قوة العقل ورتابته، وعلى متطلبات امتحان الواقع. فنظراً إلى أن العقل يحرمنا من إمكانيات شتى للذة، نراه ينقلب لنا عدواً، فيطيب لنا أن نخلع عنا نيره، ولو بصورة مؤقتة، لنستسلم لإغراءات اللامعقول. فالتلميذ يحلو له أن يلعب بالألفاظ، والعالِم يعمد إلى المزاح، عقب مؤتمر من مؤتمرات العلم، بصدد نشاطه الخاص، كما أن الرجل المتزمّت نفسه يتذوق النادرة والنكتة. بل إن شكلاً أخطر من هذا من أشكال العداء لـ«أسمى قوى الإنسان: العقل والعلم»[٢] يتحيّن

٢ ـ الشاهد هنا من مسرحية **هملت** لشكسبير. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

الفرص ليتظاهر؛ وهذا العداء هو ما يقدِّم في المكانة المشعوذ والمُبْرِئ على الطبيب «حامل الشهادة»، وهو الذي يمهِّد الطريق أمام مزاعم علم الغيب ما دامت الوقائع التي يسلِّم بها هذا العلم تبدو وكأنها انتهاك للقانون والقاعدة، وهو الذي ينيم حسّ النقد ويزيِّف الإدراكات ويبتزّ شهادات ومصادقات لا يمكن التحقق منها. ومن يعِ نزوع الناس هذا إلى الإيمان بالأباطيل، لا يعزّ عليه أن ينكر كل قيمة على المعطياتِ التي تقدِّمها الأدبيات الغيبية.

لقد وصفت الاعتراض الثالث بأنه تاريخي. وأنا، إذ أفعل ذلك، ألفت الانتباه إلى الواقعة التالية، وهي أنه لا يحدث شيء جديد حقاً في عالم الغيبيات. فنحن نلقى فيه جميع العلامات والنذُر والمعجزات والنبوءات وظهورات الأرواح التي جاءنا نبأها من أنأى العصور وأقدم الكتب. وقد كنا نحسب أننا تحررنا منذ عهد بعيد من هذه الاختلاقات التي أنجبها خيال جامح أو احتيال مغرض، والتي أنتجها عصر كان فيه الجهل البشري لا يزال واسع النطاق للغاية والروح العلمي لا يزال يحبو. فإن كنا نصدِّق الوقائع التي يقول لنا مذهب الغيب إنها لا تزال تتظاهر إلى اليوم، فلا شيء يمنعنا من أن نصدِّق أيضاً قصص الأقدمين. وهنا يجدر بنا أن نتذكر أن مأثورات الشعوب وكتبها المقدسة محشوة بقصص العجائب، وأن الأديان ترتكز تحديداً إلى هذه الأحداث العجيبة الخارقة للمألوف لتطالبَ الناس بالإيمان الذي هو حقٌّ لها عليهم. لكن أليس الاهتمام الذي تحرِّكه الغيبيات والاهتمام الذي ينصبّ على الأشياء الدينية واحداً في حقيقته؟ وبالفعل، إننا لنشتبه في أن أحد الأهداف الخفية للمذهب الغيبي أن يمدّ يد العون للدين الذي يتهدده تقدم الفكر العلمي. فإذا ما أمطنا اللثام عن هذا الهدف تعاظمت ريبتنا واشتدّ نفورنا من الانكباب على دراسة الظاهرات الغيبية المزعومة.

على أنه لا مناص لنا في آخر الأمر من أن نتغلب على نفورنا. فبيت القصيد أن نعرف هل ما يرويه أتباع العلوم الغيبية صحيح أو كاذب. ومن المؤكد أن الملاحظة والمشاهدة قمينتان بأن تفسحا المجال أمامنا لنقطع برأي. والواقع أنه يتعيَّن علينا أن نقرّ بجميل أنصار الغيب وحسن صنيعهم. فقصص المعجزات القديمة ممتنعة على إمكانية التحقق منها؛ فإذا ما صادرنا على استحالة التثبُّت منها

توجّب علينا أن نسلِّم أيضاً بأنه لا مجال لأي دحض صارم لها. وبالمقابل، إن الوقائع الراهنة، التي في مقدورنا أن نكون علينا شهوداً، يفترض بها أن تمكّننا من تكوين رأي محقَّق. فإن توصلنا إلى الاقتناع بأن أشباه تلك المعجزات ما عادت تحدث في أيامنا هذه، فلن نعود نخشى أن يعترض علينا المعترضون بأنها قد حدثت مع ذلك في الماضي، بل سنلجأ بالأحرى إلى تفاسير أخرى. أما وقد نحّينا الآن جانباً تحفظانا المسبقة، فقد أصبحنا على أهبة الاستعداد للمشاركة في جهود التنقيب والتقصي عن الظاهرات الغيبية المزعومة.

غير أن مقاصدنا الحميدة لا تلبث، ويا للأسف، أن تصطدم بظروف غير مؤاتية. فالتجارب الغيبية التي على أساسها ينبغي أن نبني حكمنا تُجرى في شروط من شأنها أن تجعل إدراكاتنا الحسية غير موثوقة، وأن تثلِّم انتباهنا وتوهنه، إذ تُجرى في الظلام أو تحت ضوء أحمر خافت وبعد طول انتظار عقيم. كما أننا نُحذَّر من أن ريبيّتنا وحسّنا النقدي من شأنهما، بحدّ ذاتهما، أن يحولا دون حدوث الظاهرة المنتظرة. والموقف الذي يُصطنع على هذا النحو هو، بكل معنى الكلمة، صورة كاريكاتورية للشروط المعهودة التي نجري فيها تجاربنا العلمية. ثم إن المعاينات تُجرى على من يسمّون بـ«الوسطاء»، وهم أشخاص تعزى إليهم قدرات «حساسة» معيّنة، ولكنهم لا يتميزون البتة بأية صفات خلقية أو عقلية أخرى، كما لا تحرِّكهم فكرة ما سامية، أو مقاصد جدِّية، خلافاً لما كان عليه حال صنّاع المعجزات الأقدمين. بل على العكس من ذلك تماماً: فهم لا يُعدّون جديرين بالثقة حتى في نظر الناس الذين يؤمنون بقدرتهم الغامضة؛ وثمة إقرار بأن أغلب الوسطاء محتالون، ومن حقّنا أن ننتظر أن يكون شأن الباقين كشأنهم. ووقع تجاربهم في نفوسنا أدنى إلى وقع ألاعيب الصبيان الخبيثة أو خِدع المشعوذين وحيَلهم. ولم يحدث قط، في أثناء تلك الجلسات، أن ظفرنا بشيء قابل للاستعمال، أو كشف لنا عن مصدر جديد للطاقة. والحق أنه ليس لنا أن ننتظر أن تفيد تربية الحمام شيئاً من المشعوذ الذي يخرج حماماً من قبعته. ولا يشقّ عليّ أن أضع نفسي، بالفكر، موضع شخص يريد الامتثال لمقتضيات الموضوعية فيبرم قراره بحضور بعض الجلسات الغيبية؛ لكنه لا يلبث، بعد وهلة

وجيزة من الزمن، أن يأخذه ملل وتعب ونفور من الأفكار الغريبة التي يراد له أن يعتنقها، فيرتدّ إلى أحكامه السابقة القديمة من دون أن يتاح له أن يزداد بأمور الغيب علماً. ومن الممكن بطبيعة الحال الاعتراض على هذا الشخص بأن سلوكه غير مساغ، وبأن من يوطّن النفس على دراسة بعض الظاهرات لا يجوز له أن يقطع سلفاً بشيء عن طبيعتها أو شروط ظهورها. بل الأجدر به على العكس أن يثابر ويواظب، وأن يتسلح بإجراءات الرقابة والتدابير الاحتياطية التي باتت معتمدة حديثاً للاحتماء من غشّ الوسطاء. ومن سوء الحظ أن تقنية الرقابة الحديثة هذه جعلت من ملاحظة الظاهرات الغيبية أمراً أصعب وأعسر. وقد غدت دراسة العلوم الغيبية اختصاصاً شاقاً، ونشاطاً لا يمكن للمرء أن يمارسه إلى جانب وجوه أخرى من النشاط. وإلى أن يتسنى للباحثين المعنيين بهذه المسألة أن يصلوا إلى نتيجة ما، فكل ما نملك أن نفعله نحن أن نخمّن ونشتبه ونفرض الفروض. ولعل أقرب هذه الفروض احتمالاً أن يكون علم الغيب مرتكزاً إلى نواة حقيقية من الوقائع التي لم يجرِ إلى الآن تعرُّفها، وأن يكون الاحتيال والخيال قد أحاطا هذه النواة بستار يصعب تمزيقه. لكن ما السبيل إلى الدنوّ من هذه النواة؟ ومن أي الجوانب نطرق المشكلة؟ أعتقد أن الحلم سيكون لنا هنا معواناً عظيماً، إذ سيحثّنا على أن نستخلص من كل هذا الركام موضوعة التخاطر Télépathie لنزيل عنها ما علق بها من الشوائب.

أنتم تعلمون أننا نطلق اسم التخاطر على تلك الواقعة المزعومة التي بمقتضاها يمكن لحادثة وقعت في ساعة معيّنة أن يعرف بها، في اللحظة عينها تقريباً، شخص موجود **في مكان بعيد،** من دون أن يصله علمها عن طريق وسائل الإعلام المعروفة لدينا. وثمة شرط ضمني، وهو أن تقع هذه الحادثة لشخص تربطه بالشخص الآخر، متلقي النبأ، روابط وجدانية قوية. مثال على ذلك: وقع للشخص أ حادث أو حضرته الوفاة، فإذا بالشخص ب، المتعلق تعلقاً شديداً به، سواء أكان أماً أم أختاً أم عشيقة، يعلم بالنبأ الفاجع في اللحظة عينها تقريباً عن طريق إدراك بصري أو سمعي؛ فلكأن ب جاءه النبأ هاتفياً، وهذا ما لم يحدث في الواقع بطبيعة الحال. وبوسعنا، إذا شئنا، أن نتكلم هنا عن مقابل نفسي

للإبراق اللاسلكي. ولا حاجة بي إلى أن أقول لكم كم تبدو أشباه هذه الظاهرات بعيدة الاحتمال، وإنه من حقنا أن نرفض أكثر ما يجيئنا من معلومات بصددها، إلا أن الرفض ليس ميسوراً إلى هذا الحدّ بصدد بعض منها. اسمحوا لي الآن بألا أعود، في ما أريد إبلاغه إياكم، إلى إطلاق صفة «المزعومة» على الظاهرة التخاطرية، وبأن أتابع الكلام عنها كما لو أني أؤمن بواقعيتها الموضوعية. لكن كونوا على ثقة أن ليس هذا واقع الحال، وأنه لم يتكون لديّ في هذا الصدد أي اقتناع.

الحق أنه ليس لديَّ شيء كثير أنقله إلى علمكم ـ فكل ما لديّ واقعة طفيفة الشأن. وحتى لا تنتظروا مني أكثر مما ينبغي أن تنتظروا، أبادر إلى إبلاغكم حالاً أن الحلم لا يتصل، في خلاصة الأمر، إلا اتصالاً واهياً بالتخاطر. فالتخاطر لا يلقي أي ضوء على ماهية الحلم، والحلم بالعكس لا يقدم أية شهادة مباشرة بصدد صحة واقعة التخاطر. ثم إن الظاهرة التخاطرية ليست مرتبطة بالحلم بحال، إذ قد تتظاهر أيضاً في حالة اليقظة. والذريعة الوحيدة التي تسوِّغ لنا المقاربة بين الحلم والتخاطر تكمن في أن النوم يبدو مؤاتياً للغاية لاستقبال التبليغ التخاطري. وإذا حدث ذلك وُصف الحلم بأنه تخاطري. فإن حلَّلناه اقتنعنا بأن الإبلاغ التخاطري لعب دوراً مماثلاً للدور الذي تلعبه أية بقية نهارية أخرى، وأن عمل الحلم تناوله بالتحوير كما يتناول أية بقية نهارية أخرى وجعله يخدم غرضه.

ففي أثناء تحليل حلم تخاطري كهذا طرأت واقعة كانت، رغم طفافتها، مثيرة للانتباه إلى حدٍّ يكفي لاتخاذها منطلقاً لمحاضرتي هذه. والحال أنني عندما عالجت هذا الموضوع لأول مرة في عام ١٩٢٢، لم تكن تتوفر لي ملاحظة كهذه. ثم لم تلبث ملاحظات أخرى أن انضافت إليها بعدئذ. غير أني أتمسك بذلك المثال الأول لأنه أسهل وصفاً، ولأنه يتيح لي أن أنفذ وإياكم من ثمّ إلى **لبّ الموضوع**[٣].

كتب إليّ رجل بادي الذكاء، «لا يسحره البتة علم الغيب» بحسب تعبيره

٣ ـ باللاتينية في النص: In Medias Res. «م».

بالذات، يسرد حلماً رآه في منامه فاستغربه. ولنقل من البداية إن لهذا الرجل ابنة يحبها حباً جماً، وهي بدورها شديدة التعلق به. وهي امرأة متزوجة تعيش في مكان بعيد عنه، وهي الآن حامل، وتنتظر مولودها في أواسط كانون الأول/ ديسمبر. والحال أنه رأى في منامه في ليلة ١٦ ـ ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر أن زوجته وضعت توأمين. ولنضرب صفحاً عن بعض التفاصيل اللامجدية التي ما أمكن توضيحها أصلاً. وأما المرأة التي وضعت في الحلم توأمين فهي زوجته الثانية، ومن ثم فهي لابنته زوجة أب. وهو لا يتمنى أن ينجب أطفالاً من هذه المرأة، لأنه لا يقرّ لها بالأهلية لتربيتهم؛ ويوم رأى حلمه كانت صلاته الجنسية بها قد انقطعت من زمن بعيد. ولئن كتب إليَّ فليس لأنه يشكّ في صدق نظرية الحلم، وهذا مع أن المضمون الظاهر لحلمه من شأنه أن يبرر شكاً كهذا. وبالفعل، لماذا يبيح الحلم، خلافاً لرغبة الحالم، أن تغدو تلك المرأة أماً؟ ثم إنه، كما يقول، لا شيء على الإطلاق يبرر خشيته من أن يقع فعلاً ذلك الحادث غير المرجوّ. غير أن ما حدا به لأن يروي لي حلمه هو أنه تلقى، في صبيحة يوم الثامن عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، برقية تعلمه أن ابنته وضعت توأمين. وقد أرسلت البرقية في ليلة ١٦ ـ ١٧، أي في حوالي الوقت نفسه الذي رأى فيه زوجته وهي تضع التوأمين. ويسألني الحالم عما إذا كان هذا التطابق بين الحلم والحادثة من فعل المصادفة في رأيي. وهو لا يجرؤ أن يصف هذا الحلم بأنه تخاطري. إذ إن ما يميّز مضمون الحلم عن الحادثة الفعلية هو تحديداً النقطة الجوهرية في الموضوع، وأعني اختلاف شخصية الوالدة. غير أن ملاحظات مراسلي تبيح لي أن أفترض أنه ما كان ليدهشه لو حلم حلماً تخاطرياً حقيقياً. فابنته، على ما يعتقد بيقين جازم، «فكّرت خصوصاً به في تلك الساعة الصعبة».

سيداتي سادتي، إني لموقن أنكم تستطيعون الآن تفسير هذا الحلم وأنكم تدركون أيضاً لماذا رويته لكم. فرجلنا شخص غير راضٍ عن زوجته الثانية؛ ولقد كان يودّ لو أن زوجته هي، مثلها مثل ابنته، من زواجه الأول. وكل ما هنالك أن كلمة «مثل» محذوفة من اللاشعور. وهوذا رجلنا يستقبل ليلاً وفي أثناء النوم رسالة تخاطرية مفادها أن ابنته وضعت توأمين. فإذا بعمل الحلم يثب على هذا

النبأ، ويجري عليه الرغبة اللاشعورية في أن تحلّ الابنة محل الزوجة الثانية، فكان أن تشكل الحلم الظاهر الغريب الذي يموّه الرغبة ويحرّف الرسالة. ولنعترف أن تأويل الحلم هو الذي أوضح لنا أننا بصدد حلم تخاطري، وأن التحليل النفسي هو الذي أماط لنا اللثام عن حالة تخاطرية ما كان لنا أن نهتدي إليها لولاه.

لكن حذارِ مع ذلك من أن يضلّكم هذا المثال! فتأويل الحلم لم يفدنا، بالرغم من كل ذلك، بشيء عن الحقيقة الموضوعية للحالة التخاطرية. فقد لا تعدو هذه الحالة أن تكون ظاهراً قابلاً للتفسير على وجه آخر. وربما كانت الأفكار الكامنة لحلم ذلك الرجل كالآتي: اليوم يفترض بابنتي أن تضع إن كانت أخطأت، كما أتصور، في حساباتها شهراً. وآخر مرة التقيتها أوحى لي مظهرها بأنها ستنجب توأمين. لقد كانت زوجتي المرحومة تحبّ الأولاد حباً جماً. ولكم كانت ستفرح بولادة هذين التوأمين! (أضيف هذه النقطة بدالّة بعض المتداعيات التي أمدّني بها الحالم والتي لم أوردها هنا بعد). وفي مثل هذه الحال لا يكون الحلم قد نتج عن تبليغ تخاطري، بل عن تخمينات حدس بها الحالم استناداً إلى أساس سليم منطقياً؛ وما كان للنتيجة في هذه الحال أن تختلف. وأنتم ترون أن هذا التأويل للحلم لا يفيدنا هو الآخر بشيء يحتّم علينا التسليم بالوجود الموضوعي للتخاطر. وليس لنا أن نقطع برأي في الموضوع إلا بعد دراسة مدققة لظروف الحالة التي نحن بصددها، وهذا ما لم أستطع أن أفعله في هذا المثال ولا في غيره. ولم يفدنا شيئاً إعلاننا أن التخاطر هو التفسير الأبسط بين سائر التفاسير. وبالفعل، ليس التفسير الأبسط هو بالضرورة الأصحّ، إذ نادراً ما تكون الحقيقة بسيطة. فخليق بنا إذاً أن نتخذ جميع الاحتياطات الضرورية قبل أن نبتّ في الأمر.

بوسعنا الآن أن نترك موضوع الحلم والتخاطر، بعد أن استنفدنا كل قول لنا فيه. لكني أرجوكم أن تلاحظوا أن ليس الحلم، بل تأويل الحلم والعمل التحليلي النفسي هو الذي أمدنا، فيما يبدو، ببعض تصورات جديدة عن التخاطر، لذا نستطيع أن ندع الحلم لنبحث في ما إذا كان تطبيق التحليل النفسي قميناً بأن يلقي ضوءاً على وقائع أخرى من تلك المسماة بالغيبية. لنتأمل، مثلاً، ظاهرة

التحاسس[٤] أو التواصل الذهني، وهي ظاهرة وثيقة الصلة بالتخاطر حتى ليكاد يجوز الخلط بينهما. وبمقتضى هذه الظاهرة يمكن للسيرورات النفسية لدى شخص بعينه، من أفكار وانفعالات واهتياجات، أن تنتقل في المكان إلى شخص آخر، من دون أن تكون هناك حاجة إلى استعمال الوسائل المعهودة من كلمات أو إشارات. وإنكم لتدركون غرابة هذه الظاهرة ومدى ما يمكن أن يكون لها من أهمية عملية فيما لو كانت تحدث فعلاً. ولنقل بالمناسبة إن هذه الظاهرة هي من أقلّ ما يرد له ذكر في الروايات القديمة عن المعجزات.

لقد تراءى لي وأنا أعالج بالتحليل النفسي بعض المرضى أن ممارسات قارئي الغيب تتيح فرصة مؤاتية لإبداء ملاحظات سديدة ومقنعة للغاية بصدد تناقل الأفكار. فقارئو الغيب هم في العادة أشخاص لا شأن لهم، بله من **طراز وضيع**[٥]، يمتهنون مهنة غير معروف ما هي على وجه التحديد: فتراهم يفلّكون بورق اللعب، أو يقرؤون الكف، أو يستنطقون الخطّ، أو يجرون حسابات فلكية، ويتنبؤون على هذا النحو بالمستقبل لزبائنهم بعد أن يثبتوا لهم أنهم على اطلاع على بعض وقائع حياتهم الماضية أو الحاضرة. ويخرج الزبائن في العادة راضين عن هذه الاستشارة، ولا يضمرون لقارئي الغيب ضغينة إذا لم تتحقق نبوءاتهم لاحقاً. وقد تسنى لي أن أعرف وأدرس تحليلياً عدداً من الحالات المشابهة، وسأقصّ عليكم فيما يلي أكثرها استلفاتاً للنظر. غير أن سرّ المهنة يقتضيني، ويا للأسف، أن أكتم عنكم عدداً كبيراً من الوقائع، وهذا ما يقلّص من القوة الإقناعية لهذه القصص. وقد حرصت أشدَّ الحرص على عدم تحريف الوقائع. وهاكم الآن قصة واحدة من مريضاتي مع قارئ من قراء الغيب.

كانت هي البنت الكبرى في أسرة كبيرة التعداد، وكانت متعلقة أشدّ التعلق بأبيها منذ نعومة أظفارها، وقد تزوجت في مقتبل عمرها. وهي راضية كل

---

٤ - Induction: الترجمة المعتمدة لهذا المصطلح: الاستقراء. ولكن بالنظر إلى أن الظاهرة المعنية هنا ليست تناقل الأفكار وحدها بل كذلك الإحساسات والانفعالات وشتى السيرورات النفسية فقد فرض مصطلح التحاسس نفسه. «م».

٥ - باللاتينية في النص: Minus Habentes. «م».

الرضى بزواجها، ولا ينقص سعادتها سوى شيء واحد: الطفل الذي بدونه لا يمكن للزوج المحبوب أن يحلّ تماماً محل الأب. وبعد عدة سنوات من خيبة الآمال، عزمت على القبول بإجراء عملية جراحية في جهازها التناسلي، وعندئذ أقرّ الزوج بأنه المسؤول الوحيد، إذ كان أصيب قبل الزواج بمرض قضى عليه بالعقم الدائم، فكان للصدمة عليها وقع أليم، فاستحوذ عليها العصاب، وظهرت عليها علامات حصر واضح ينمّ عن إغراءات معيّنة كانت تعتمل في سريرتها. واصطحبها زوجها، رغبة منه في الترفيه عنها، في رحلة له إلى باريس أوجبتها عليه أعماله. وهناك، وفيما هما جالسان يوماً في بهو الفندق، لاحظت حركة غير معتادة بين خدم الفندق، فاستعلمت عن الأمر فعلمت أن «**حضرة الأستاذ**»[٦] قد وصل، وأنه يستقبل طالبي مشورته في أحد مكاتب الفندق. فأبدت رغبتها في أن تقوم بمحاولة؛ فرفض زوجها، لكنها انتهزت سانحة غفلته عنها لتتسلل إلى غرفة الاستشارة ولتجد نفسها وجهاً لوجه أمام قارئ الغيب. كانت يومئذ في السابعة والعشرين من العمر، لكنها كانت تبدو دون ذلك بكثير. وكانت قد خلعت خاتم الزواج من إصبعها قبل دلوفها. وطلب إليها حضرة الأستاذ أن تضع يدها على طاس مليء بالرماد، ودرس بعناية وتأنٍّ بصمة يدها، ثم راح يكلّمها عن ضروب شتى من متاعب لا بد أن تعرُض لها، ولكنه عزّاها بقوله في الختام إنها ستتزوج وستكون أماً لطفلين عند بلوغها الثانية والثلاثين. ويوم روت لي هذه القصة كانت تعاني شديد المرض، وكانت قد صارت في الثالثة والأربعين، وقد قطعت حبل كل أمل في أن تنجب طفلاً يوماً. النبوءة إذاً لم تتحقق، لكنها كانت تتحدث عنها بلا أدنى مرارة، بل على العكس بشيء من السرور والرضى، كما لو أنها تستذكر حدثاً مبهجاً. وكان واضحاً للعيان أنها لا تشتبه من قريب أو بعيد في ما يمكن أن يعنيه العددان اللذان جاء ذكرهما في النبوءة، بل ما كان ليخطر لها في بال أنه من الممكن أن يعنيا شيئاً ما على الإطلاق.

قد ترون أن هذه قصة سخيفة لا معنى لها، وستسألونني عن سبب روايتي لها

٦ ـ بالفرنسية في النص Monsieur Le Professeur. «م».

لكم. وما كنت إلا لأشاطركم رأيكم لولا أن التحليل ـ وتلك هي النقطة الجوهرية ـ أتاح لنا أن نجلو سرَّ تلك النبوءة وأن نجد لها التفسير الذي تؤكد التفاصيل صحّته. ذلك أن العددين المذكورين يلعبان، بالفعل، دوراً في حياة أمّ المريضة. وكانت هذه الأم قد تزوجت في سن متأخرة، إذ كانت قد تجاوزت الثلاثين من العمر. وكثيراً ما تحدث أفراد الأسرة عن إسراعها في التعويض عما فاتها. فأول طفلين أنجبتهما ـ ومريضتنا أولهما ـ رأيا النور في سنة واحدة، وكان الفاصل بين الولادتين أقصر ما يمكن أن يكون. وقد أنجبتهما أمها بالفعل قبل أن تبلغ الثانية والثلاثين. وعلى هذا، إن ما قاله **حضرة الأستاذ** لمريضتي كان ما معناه: «لا تقطعي الرجاء، فأنت ما زلت صبية، وسيكون لك مصير أمك. فهي الأخرى لم تنجب إلا بعد طول انتظار. وستكونين بدورك أماً لطفلين عند بلوغك الثانية والثلاثين». أن يكون لها مصير أمها، وأن تحل محلّها لدى الأب، أفليس هذا بالتحديد ما كانت تتوق إله أحرّ التوق؟ أفليس عدم تحقق هذه الرغبة هو ما شرع يقضّ مضجعها؟ لقد أعلنت لها النبوءة أن أمنيتها ستتحقق بالرغم من كل شيء، فكيف لا يخامرها والحالة هذه شعور بالودّ تجاه المتنبئ؟ لكن أتحسبون أن **حضرة الأستاذ** كان مطلعاً على تواريخ الأحداث العائلية الحميمية لزبونة عارضة؟ كلا، هذا محال. فكيف نفسّر، والحال هذه، أن يكون أتيح له أن يعبّر في نبوءته، من خلال الرقمين المشار إليهما، عن أحرّ رغبات المريضة وأكثرها خفاء؟ ليس ثمة سوى سبيلين لتفسير ذلك. إما أن القصة كما روتها لي المريضة غير مضبوطة، وقد جرت غير ذلك المجرى، وإما أن نسلّم بأن التحاسس الذهني ظاهرة واقعية. ومن الممكن أيضاً، في أرجح الظن، أن نفترض أن المريضة قد دسّت بنفسها، بعد انقضاء ستة عشر عاماً، في ذكرياتها ذينك الرقمين القابعين في لاشعورها. وليس لديّ ما يثبت صحة هذا الفرض، لكنني لا أستطيع له اطّراحاً، وأخالكم تؤثرون الأخذ به على الاعتقاد بواقعية التحاسس الذهني. ولكن إن أخذتم بهذا الاحتمال الأخير، فلا تنسوا أن التحليل وحده هو الذي خلق الحالة الفعلية المحجوبة، وهو الذي أماط عنها اللثام بعد أن تنكرت تنكراً بات يتعذر معه تعرّفها.

لو لم يكن عندنا سوى حالة وحيدة مشابهة لحالة مريضتي، لكان جاز لنا أن

نصرف النظر عنها ولا نقيم لها اعتباراً. وليس لأحد أن يشيد اعتقاداً بعيد الأثر كهذا على أساس ملاحظة واحدة يتيمة. لكنني أؤكد لكم، استناداً إلى خبرتي كلها، أن هذه ليست حالة فريدة في نوعها. فقد جمعتُ طائفة من نبوءات مماثلة، وقد أوحت لي جميعها بأن قارئ الغيب لا يزيد على أن يعبِّر عن أفكار الأشخاص الذين يستنطقونه، وعلى الأخصّ عن رغباتهم الخبيئة. حريٌّ بنا إذاً أن نحلل هذه التكهنات على أنها منتجات ذاتية أو استيهامات أو أحلام صادرة عن المرضى أنفسهم. والنتائج لا تأتي بطبيعة الحال متساوية على الدوام في قوتها الإقناعية، وليس في الإمكان أن نستخلص حالاً ومباشرة من جميع الحالات نتائج أدنى إلى العقلانية، لكن الميزان يميل في الإجمال نحو ترجيح واقعية التحاسس الذهني في حالات بعينها. ولقد كانت أهمية الموضوع المعالَج تقتضي أن أسرد عليكم جميع الحالات التي مرّت بي، لكن هذا متعذر، إذ إن وصفها على الوجه الواجب سيشطّ بي بعيداً، كما أن التفاصيل التي سأجد نفسي مكرهاً في هذه الحال على إفشائها ستحملني على انتهاك قاعدة الكتمان الإلزامي. وسأحاول إرضاء ضميري بقدر المستطاع بأن أسوق لكم بعض أمثلة أخرى.

زارني ذات يوم طالب شاب على جانب كبير من الذكاء، ولم يكن قد بقي أمامه إلا أن يجتاز امتحان الدكتوراه، ولكن الحالة التي آل إليها ما كانت تسمح له بذلك. فهو يشكو، بالفعل، من أنه فقد كل اهتمام بالدراسة، وكل قدرة على التركيز، بل كل قدرة على استجماع ذكرياته. وسرعان ما تكشفت الوقائع التي تسبَّبت في هذا النوع من الشلل؛ فهو لم يسقط مريضاً إلا بعد أن قهر نفسه بنفسه، متحملاً في ذلك عناء كبيراً. فقد كان يشعر نحو أخته بحبٍّ آسر، وإن ملجوماً؛ وكانت أخته تقابله بالمثل. وكان يحلو لهما أن يقول الواحد منهما للآخر: «لكم يدعو للأسف ألا نتمكن من الزواج واحدنا من الآخر!». وقد وقع في هيام تلك الأخت رجل معتبر، فراق بدوره في نظرها، غير أن والديها لم يوافقا على الزواج. فاستعان المنكودان بالأخ، فما ضنّ عليهما بعونه. وتطوّع أن يكون واسطة تراسلهما، ثم استطاع في آخر الأمر أن ينتزع موافقة الوالدين. على أنه وقع، في أثناء الخطوبة، حادث لا يعسر التكهن بمغزاه. فقد قام فتانا بصحبة

زوج أخته المقبل برحلة خطرة لتسلق أحد الجبال. وبما أنهما لم يصطحبا مرشداً فقد ضلّا طريقهما وواجها خطر الموت. وبعيد زواج أخته سقط فتانا في تلك الحالة من الإعياء النفسي التي تحدثنا عنها.

ولما استأنف، بمعونة التحليل النفسي، نشاطه العادي غادرني ليقدم امتحاناته بنجاح، لكنه في الخريف من العام نفسه عاد أدراجه ليلقاني لفترة وجيزة من الزمن. ويومئذ سرد عليّ قصة غريبة وقعت له قبل مقدم الصيف. وخلاصتها أنه كانت تقيم في المدينة التي تقع فيها جامعته قارئة غيب مشهورة. وكان أمراء البيت الملكي أنفسهم لا يقدمون على أمر هام من دون أخذ استشارتها. وكانت طريقتها في العمل آية في البساطة: فقد كانت تطلب من سائلها تاريخ ميلاد الشخص الذي يهمّه أمره، من دون أن تستعلم منه عن أي شيء آخر، ثم تستشير كتباً في علم التنجيم وتجري حسابات مطولة، وفي نهاية المطاف تتنبأ بمستقبل الشخص المعني. وقد عقد مريضي العزم على الاستعانة بفنها الخفي ليعرف مستقبل زوج أخته. فذهب لمقابلتها وذكر لها تاريخ الميلاد المطلوب. وبعد أن أجرت المتنبئة حساباتها تكهنت بأن «الشخص المذكور سيموت في شهر تموز/ يوليو أو آب/ أغسطس من جراء تسمم من أكل الأربيان أو المحار». وأنهى مريضي قصته هاتفاً: «كان ذلك في الحق أمراً عجباً!».

كنت قد ألقيت سمعي إلى هذه القصة في بادئ مغضباً، لكني لما سمعت الهتاف الذي صدر عن مريضي أبحت لنفسي أن أسأله: «ماذا ترى من عجب في هذه النبوءة؟ فالخريف قارب أن ينتهي، وزوج أختك لم يمت، وإلا لكنت أخبرتني بذلك من أول الأمر. إذاً فالنبوءة لم تتحقق». فأجابني: «هذا صحيح، لكن الغريب في الأمر أن زوج أختي يحبّ الأربيان والمحار حبّاً جمّاً، وقد تسمّم فعلاً بالمحار في الصيف الماضي، وكاد أن يقضي نحبه». بأي شيء يمكن الاعتراض على هذا كله؟ شيء واحد أحنقني، وهو أن أرى ذلك الفتى المتبحر في العلم، والذي تلقى فضلاً عن ذلك تحليلاً تكلل بالنجاح، قد عجز رغم ذلك عن فهم المسألة خيراً مما فعل. أما أنا، فبدلاً من أن أؤمن بإمكانية التنبؤ بوقوع حادثة تسمم بالأربيان أو المحار بالرجوع إلى جداول التنجيم، أؤثر أن أفترض أن

مريضي لم يتغلب بعد على كراهيته لمنافسه، وهي الكراهية التي كان كبْتُها قد سبَّب له المرض. ويحلو لي أن أفترض أن المنجِّمة صاغت نبوءتها وفقاً لرغبة زبونها: «إن زوج أختي لن يقلع أبداً عن نهمه إلى المحار، ولسوف يورده ذلك حتفه ذات يوم!». وأقرّ بأني لا أستطيع أن أفسّر هذه الحالة على غير هذا الوجه، إلا أن أفترض أن مريضي شاء أن يسخر مني. لكن كان يبدو عليه أنه يحمل على محمل الجدّ ما يقوله، ولم يصدر عنه قط يومئذ، ولا في أي وقت لاحق، ما يمكن أن يبرر شكي ذاك.

هاكم حالة أخرى: كان رجل له مركزه على علاقة بامرأة دونه في المكانة الاجتماعية. وكان يتسلط على علاقته بها وسواس غريب: فقد كان يجد نفسه بين الحين والآخر مدفوعاً إلى تعذيب عشيقته بأن ينهال عليها بالسخرية والكلمات الجارحة حتى ينال منها اليأس كل منال. وعندئذ كان يساوره نوع من الانفراج، فيطلب مصالحتها، ويغمرها بهداياه. على أنه بات يريد الآن أن يتخلص منها، وصار يخاف من وسواسه الاستحواذي، وأدرك أن هذه العلاقة قد تضرّ بسمعته؛ ثم إنه راغب في الزواج وفي بناء أسرة. وبما أنه لا يملك الشجاعة لوضع حدّ لتلك العلاقة من تلقاء نفسه، فقد جاءني يطلب معونة التحليل النفسي. وفيما هو قيد المعالجة، وقعت بينهما مشادّة، فاستحصل من عشيقته على ورقة مكتوبة توجّه بها إلى أحد قراء الخطّ. فقال له هذا إن الخط خط إنسان في الدرك الأسفل من اليأس ومن المحقق أنه سينتحر في الأيام القادمة. وفي الواقع لم يحدث شيء من هذا، وبقيت السيدة على قيد الحياة. غير أن التحليل أعان الفتى على التحرر من أغلال نفسه، فهجر تلك العشيقة وتقرب بالغزل من فتاة تهيأ له أنها قابلة لأن تصبح له زوجة طيبة. وبعيد ذلك حلم حلماً نمّ عن أن الشكوك بدأت تساوره بصدد مزايا الفتاة. فاستحصل على عينة من خطّها، وقدّمها إلى الخبير نفسه. وحتى تكونوا قادرين على تقييم هذه الاستبارات الخطية، وعلى الأخص الأول منها، يجدر بكم أن تعرفوا بعض جوانب التاريخ السرّي لرجلنا. ففي مطلع شبابه تدلّه، بكل قوة اندفاع طبيعته المضطرمة، بحبّ امرأة كانت تكبره سناً. فلما صدّته حاول أن ينتحر، ولا شيء يحملنا على

الشك في صدق هذه المحاولة. وقد كاد يلقى مصرعه فعلاً، وما أمكن له أن يستردّ عافيته إلا بعد طول تمريض وعناية. على أن تلك الفعلة اليائسة مسّت أوتار المرأة المحبوبة، فأسلمت له نفسها، وصار عشيقها، واشتد تعلقه بها في سرّه، وأقام على خدمتها ورعايتها بروح فروسية. فلما انقضى عشرون عاماً ونيف، وزال عنهما رونق الشباب، والمرأة أكثر منه بطبيعة الحال، تولّدت في أعماق نفسه رغبة في الخلاص منها، وفي أن يخلع عنه أغلاله ويسترد استقلاله ويؤسس بيتاً وأسرة. ونمت لديه في الوقت نفسه حاجة، طالما كبتها، إلى الانتقام من عشيقته. فقد كانت، بتعاليها عليه، قد دفعت به إلى محاولة الانتحار في أول عهدهما، وهو يريد الآن أن يشفي نفسه بأن يراها تطلب الموت بدورها لهجره إياها. غير أن الحب الذي كان يكنّه لها كان لا يزال أقوى من أن يسمح لهذه الرغبة بأن تصير واعية؛ ثم إن اغتمامها فيما لو هجرها لن يكون على جانب كافٍ من الشدة ليدفع بها إلى أن تبحث عن خلاصها في الموت. وتحت سلطان هذه الحالة النفسية بنى علاقته بخليلته الحالية التي كانت دونه في المنزلة الاجتماعية لتكون كبش المحرقة فتروي، بثمن بخس، ظمأه إلى الانتقام. وقد استباح لنفسه أن ينزل بها شتى صنوف الإساءة والعذاب القمينة بأن توصله إلى النتيجة التي كان يريد أن يستحصل عليها من عشيقته. وثمة نقطة تفصيلية واحدة كشفت لنا عن أن هذه الرغبة في الانتقام كانت موجّهة فعلاً إلى هذه الأخيرة: فقد كاشفها بسرّ علاقته الجديدة وجعلها مشيرته فيها بدلاً من أن يكتم عنها خيانته. وأكبر الظن أن هذه المرأة المنكودة، التي انحطّت في المرتبة من مانحة إلى آخذة، كانت تعاني من مطارحاته هذه أكثر مما تعاني الخليلة الحالية من فظاظته. وبطبيعة الحال، تحوّل مدار الوسواس الذي كان يشكو من استحواذه عليه في صلته بالخليلة البديلة - والذي دفع به لأن يطلب العلاج التحليلي - من عشيقته القديمة إلى الجديدة. فهو إنما من الأولى كان يريد الخلاص من دون أن يستطيع إلى ذلك سبيلاً. وأنا لست قارئ خط، ولا أقيم وزناً للفن الذي يستنتج شخصية الفرد من خطه. ثم إني أقلّ إيماناً بعد بالقدرة على التنبؤ بمستقبل الشخص المعنيّ بالاعتماد على هذه الوسيلة. على أنه مهما يكن رأينا في قيمة علم الخط، فإن الشيء الأكيد الذي لا جدال

فيه أن قارئ الخط، إذ تنبأ بأن كاتبة الرقعة ستقدم على الانتحار قريباً، أزاح النقاب عن رغبة دفينة مضطرمة تعتمل في صدر طالب الاستشارة. وقد حدث شبيه ذلك في الاستشارة الثانية أيضاً: غير أن الرغبة هذه المرة لم تكن لاشعورية، بل جاء جواب قارئ الخط يعبر عن الشك الذي بدأ يتولد في نفس طالب التحليل وعن قلقه. وقد تأتّى لمريضي في آخر الأمر، وبفضل التحليل، أن يختار موضوعاً لحبّه من خارج الدائرة السحرية التي كان حبيساً فيها.

سيداتي سادتي، عرفتم الآن ما يمكن أن يؤديه تأويل الأحلام، والتحليل النفسي إجمالاً، من خدمات لعلم الغيب. وقد سقت لكم من الأمثلة ما يوضح لكم أن التحليل النفسي قادر على تسليط الضوء على وقائع غيبية ما كان لنا أن نتعرفها لولاه. لكن أيخلق بنا أن نؤمن بالواقعية الموضوعية لهذه الظاهرات؟ أرجّح أن هذا السؤال يبدو لكم مثيراً غاية الإثارة. والتحليل النفسي لا يملك أن يجيب عنه إجابة مباشرة؛ غير أن المواد التي أفسح في المجال لاجتلائها من شأنها، فيما يبدو، أن تدفع بنا للإجابة بالإيجاب. بيد أن فضولكم لن يتوقف عند هذا الحدّ، وسترغبون في أن تعرفوا ما النتيجة التي أفضت بنا إليها المواد الوفيرة الأخرى التي لا يلعب فيها التحليل النفسي أي دور على الإطلاق. غير أني لن أجاريكم في هذا المضمار الذي ما هو مضماري. والشيء الوحيد الذي لا يزال في مقدوري فعله أن أكاشفكم ببعض الملاحظات والمشاهدات التي لا صلة لها بالتحليل النفسي إلا بكونها لوحظت وشوهدت في أثناء المعالجة؛ ولعله ما كان لنا أن نظفر بها لولا هذه الأخيرة. سأضرب لكم مثالاً كان من بين سائر الأمثلة أعظمها وقعاً في نفسي، وسأزوِّدكم بقدر وفير من التفاصيل طالباً إليكم أن تركِّزوا انتباهكم على بعض السمات والخصائص؛ وبالرغم من ذلك سأجدني مضطراً إلى إهمال تفاصيل أخرى كثيرة كان من شأنها أن تزيد في القوة الإقناعية للملاحظة. إنه مثال تتبدى فيه الوقائع بوضوح كبير، ولا تحتاج إلى التحليل النفسي لجلائها. غير أننا لن نستطيع في معرض مناقشتنا إياه أن نتحاشى اللجوء إلى مساعدة التحليل. وإني لأحذِّركم سلفاً من أن هذا المثال على التحاسس الذهني في

الموقف التحليلي ليس بمنجى، هو نفسه، من كل نقد، ولا يبيح لنا أن نسلّم بلا تحفظ بواقعية الظاهرة الغيبية.

والآن هاكم القصة. في حوالي الساعة الحادية عشرة إلا الربع من يوم من أيام الخريف في عام ١٩١٩، وفيما كنت أعالج أحد المرضى، قُدِّمت إليّ بطاقة الدكتور دافيد فورسايث Forsyth(٧) الذي كان قد وصل لتوه من لندن (آمل ألا يعتبرني هذا الزميل اللندني المشهور مفشاء للأسرار إذا كشفت النقاب على هذا النحو عن كونه قد تمرس بالتقنية التحليلية النفسية لبضعة أشهر على يدي). وما وسعني أن أولي هذا الزميل أكثر من دقيقة واحدة تبادلنا فيها التحية وضربت له موعداً للقاء في وقت لاحق. والدكتور فورسايث حقيق مني بالحفاوة، إذ كان أول أجنبي قدِم إليّ بعد قطيعة الحرب، أي في زمن كنا قد بدأنا نأمل فيه بتحسن الأحوال. وبعيد زيارته، وفي تمام الساعة الحادية عشرة، قدم أحد مرضاي، السيد **ب**، وهو رجل ذكي ولطيف، يناهز الخامسة والأربعين من العمر، وقد طلب العلاج التحليلي لما يعانيه من صعاب في علاقته بالنساء. وبالنظر إلى أن تشخيص حالته لم يكن مؤاتياً، فقد كنت اقترحت عليه من زمنٍ إيقاف التحليل، لكنه أصرّ على مواصلته، لأنه كان يأنس لديّ ارتياحاً بعد أن حوّل باتجاهي المشاعر التي كان يكنّها لأبيه. وما كانت مسألة المال مطروحة في ذلك الحين لندرة تداوله أصلاً. وكانت الأويقات التي أزجيها مع هذا المريض ممتعة ومذهبة للتعب؛ ولهذا، وعلى الرغم من القواعد الصارمة للمعالجة الطبية، تواصل المجهود التحليلي النفسي إلى تاريخ كان جرى تعيينه مسبقاً.

في ذلك اليوم تطرّق **ب** من جديد إلى موضوع محاولاته استئناف علاقاته الغرامية بالنساء. وعاد إلى الكلام عن فتاة جميلة، مثيرة وفقيرة، كان سيصيب لديها بكل تأكيد فلاحاً لولا أن عذريتها سدّت الطريق سلفاً أمام كل محاولة جادة من هذا القبيل. وكان قد حدثني عنها مراراً، لكنه روى لي في ذلك

٧ ـ طبيب إنكليزي (١٨٧٧ ـ ١٨٤١). رئيس قسم الأطباء في مستشفى شارينغ كروس في لندن. كان من أوائل من انتسبوا إلى **جمعية لندن للتحليل النفسي**. «م».

اليوم، ولأول مرة، أنها أطلقت عليه، من دون أن تعرف شيئاً عن الدوافع الحقيقية لتعففه، بل من دون أن يراودها أي شك في الأمر، لقبَ **السيد المتبصّر**[8]. وقد راعتني هذه القصة؛ فمددت يدي إلى بطاقة الدكتور فورسايث وأريته إياها.

تلك هي الواقعة. ولا أخالكم إلا ناعتيها بالهزال؛ لكن إن تابعنا اكتشفنا ما هو أعجب.

لقد كان **ب**، في شبابه، أمضى عدة سنوات من حياته في إنكلترا؛ وقد شغف هناك شغفاً شديداً بالأدب الإنكليزي. ولديه مكتبة ثرّة بالكتب الإنكليزية، وقد اعتاد على إعارتي منها. وله أدين بتعرفي إلى كتّاب من أمثال بينت[9] وغلسورثي[10]، ممن لم يكن لي على كتاباتهم اطلاع من قبل. وذات يوم أعارني رواية لغلسورثي عنوانها **المالك**، تدور أحداثها بين ظهراني أسرة متخيَّلة هي أسرة فورسايت Forsyte. ومن المحقق أن غلسورثي أولع هو نفسه بمخلوقاته، إذ عاد إلى إحياء عدد من أفراد هذه الأسرة في رواياته اللاحقة، ثم جمع كل ما كتبه عنها تحت عنوان **حكاية آل فورسايت**. وقبل أيام من المحادثة المشار إليها، كان **ب** قد حمل إليّ مجلداً جديداً من هذه السلسلة. وقد لعب اسم فورسايت والسمات النمطية التي شخّصها المؤلف بعض الدور في أحاديثي مع **ب**، ومثّل شطراً من الكلام الحميم الذي لا بدّ أن يدور بين شخصين اطّرد اللقاء بينهما. والحال أن اسم أبطال هذه الروايات، **فورسايت**، لا يكاد يتميز في اللفظ الألماني عن اسم زائري: **فورسايث**؛ كما أن اللفظة الإنكليزية الدالة على **التبصر**، أي Forsight، تُنطق مثلها. لقد استخلص **ب** إذاً من علاقاته الشخصية الاسم نفسه الذي كان يشغل ذهني في تلك

---

٨ ـ التبصر بالألمانية، وهي قريبة لفظاً وشكلاً من اسم الطبيب اللندني المعني. «م».

٩ ـ إينوخ أرنولد بينت: روائي إنكليزي (١٨٦٧ ـ ١٩٣١)، ذو نزعة واقعية تقرِّبه من ديكنز. «م».

١٠ ـ جون غلسورثي: كاتب إنكليزي (١٨٦٧ ـ ١٩٣٣)، حائز على جائزة نوبل سنة ١٩٣٢، له تمثيليات وروايات، أشهرها **حكاية آل فورسايت**، وهي رواية ذات نزعة واقعية أصدر المجلد الأول منها بعنوان **المالك**. «م».

الساعة، وهذا في ظروف ما كان له بها علم إطلاقاً.

هأنتم ذا ترون أن الأمر ازداد طرافة. غير أني أعتقد أن هذه الحادثة المثيرة للدهشة ستترك في نفوسنا وقعاً أكبر إذا ما درسنا تحليلياً تداعيين آخرين تواردا إلى ذهن **ب** في تلك الجلسة عينها. بل لربما أتاح لنا ذلك أن نكوّن فكرة ما عن الشروط التي حدثت فيها الظاهرة.

١ ـ كنت في أحد أيام الأسبوع السابق قد انتظرت بلا جدوى السيد ب في الساعة الحادية عشرة. وأخيراً خرجتُ ومضيت لرؤية الدكتور أنطوان فون فرويند Freund[١١] في النزل العائلي الذي كان يقيم فيه. وقد أدهشني أن أعلم أن السيد **ب** يقيم في النزل نفسه، ولكن في طابق آخر. وقد أخبرت بهذا الخصوص السيد **ب** عندما التقيته لاحقاً أني زرته، بمعنى من المعاني، في بيته. وإني لمتأكد بأني لم أذكر له إطلاقاً اسم الشخص الذي ذهبت لمقابلته. والحال أن مريضي ما كاد يحدِّثني عن تلقيبه بالسيد **المتبصر** Vorsicht، حتى أردف يسألني: «هل السيدة فرويد ـ أوتوريغا Ottorega - Freud التي تدرِّس الإنكليزية في الجامعة ابنتك؟». ولأول مرة منذ تعارفنا حرّف اسمي على نحو ما يفعل عادةٍ الموظفون والمستخدمون والعاملون في المطابع، ولفظ **فرويند** Freund بدلاً من **فرويد** Freud.

٢ ـ في نهاية تلك الجلسة عينها، سرد لي تفاصيل حلم أيقظه على حصر، وقال عنه إنه «كابوس حقيقي». وأضاف أنه ما استطاع منذ عهد قريب أن يتذكر الكلمة الإنكليزية التي تعني كابوساً، وأنه ترجمها لأحدهم بـA Mare's Nest. وهي، كما قال، ترجمة سخيفة بطبيعة الحال لأن A Mare's Nest[١٢] تعني قصة لا تصدق، قصة لصوص وقطاع طرق،

---

١١ ـ أنطون فون فرويند: صناعي مجري ثري تعاطف مع التحليل النفسي الوليد (١٨٨٠ ـ ١٩٢٠). تبرع بمبلغ مليون ونصف مليون كرونان لبناء معهد للتحليل النفسي في بودابست ولتمويل دار نشر في فيينا. كان واحداً من سبعة أعضاء جمعهم فرويد حوله تحت اسم «القضية»، هم كارل أبراهام وهانز ساكس وأوتو رانك وساندور فيرنزي وإرنست جونز وماكس آيتنغون. «م».

١٢ ـ بالإنكليزية في النص: حرفياً: عشّ الفرس. ويطلق هذا التعبير على كل اكتشاف رائع لا يلبث أن يتكشف عن أنه مخيِّب للآمال. «م».

بينما يقال للكابوس بالإنكليزية Night Mare[١٣]. وقد يبدو أن لا صلة مشتركة بين هذا الخاطر وبين ما تقدَّم سوى هذا العنصر: اللغة الإنكليزية. لكنه ذكّرني بحادثة بسيطة طرأت قبل شهر من ذلك. كان **ب** موجوداً آنئذ في مكتبي. فإذا بزائر طارئ يدقّ بابي، زائر لم أره من مدة بعيدة وصديق عزيز، هو الدكتور إرنست جونز[١٤] من لندن. فأومأت إليه أن عليه بالانتظار في غرفة مجاورة إلى أن تنتهي محادثتي مع **ب**. غير أن هذا الأخير تعرَّف صديقي على الفور من صورة له معلقة في غرفة الانتظار، بل أعرب عن رغبته في أن أقدِّمه إليه. والحال أن جونز مؤلف دراسة عن موضوع الكابوس Night Mare. ولكني أجهل إن كان **ب** مطلعاً على هذه الدراسة، فقد كان يتحاشى قراءة المؤلفات التحليلية النفسية.

بودي أولاً أن أبيِّن لكم كيف يمكننا تحليلياً تأويل تداعيات أفكار **ب** والاهتداء إلى حافزها. فقد كان موقف **ب** حيال اسم **فورسايت** أو **فورسايث** عديل موقفي أنا، وله أدين أصلاً بالفضل في التعرف إلى شخصيات الرواية المسماة بهذا الاسم. وما فجأني وأدهشني أني سمعت مريضي ينطق بهذا الاسم في أثناء التحليل حالما باتت له دلالة وأهمية مغايرتان بالنسبة إليَّ على إثر الواقعة المستجدة المتمثلة بقدوم الطبيب اللندني. ثم إن الكيفية التي تمّ بها استحضار هذا الاسم في الجلسة عينها قد لا تقلّ طرافة وإثارة عن واقعة استحضاره. ذلك أن ب لم يهتف قائلاً: «إني أفكر باسم فورسايت الذي تعرفت إليه من الرواية». كلا، بل عرف كيف يدمجه في تاريخ حياته الشخصي، من دون أن يقيم أية صلة

١٣ ـ الواقع أن من يسميه فرويد بالسيد **ب** يخطئ في الاشتقاق الذي يعزوه إلى كلمة الكابوس بالإنكليزية. ذلك أن كلمة Night Mare ليست مشتقة من نفس المصدر المشتقة منه كلمة Mare's Nest. وهذا خطأ كان سبقه إلى الوقوع فيه إرنست جونز في كتابه: **الكابوس في علاقته ببعض أشكال التطيُّر في العصر الوسيط** (١٩١٢). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٤ ـ إرنست جونز: محلل نفسي بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). اشتهر أول الأمر بالسيرة التي وضعها عن حياة فرويد، ومؤسس **جمعية لندن للتحليل النفسي**. كان له دور عملي بارز في تاريخ حركة التحليل النفسي، وقدّم كل ضروب المساعدة الممكنة لأنصار التحليل النفسي الهاربين من الاضطهاد النازي. وقد ربطته بفرويد صلة صداقة حميمة، وله مساهمات تحليلية نفسية في الأنتروبولوجيا والفن واللغة، من أشهرها دراسته عن **أوديب وهملت**. «م».

شعورية مسبقة بالمصدر المشار إليه. وهكذا نطق به في أثناء سرده لخواطره في تلك المرة تحديداً، من دون أن يكون فعل ذلك في أية مرة سابقة. وقد أضاف: «أنا أيضاً **فورسايت**، فهكذا تسمِّيني فتاتي». أيمكن أن يغيب عنا ما في هذه العبارة من ادعاء غيور مقرون باستصغار اكتئابي للذات؟ ولن نجازف بالتورط في خطأ فيما لو كمَّلناها كما يلي: «يحزّ في نفسي أن أراك شغلت بقدوم هذا الغريب. عدْ إليّ. أفلست أنا أيضاً فورسايت؟ أو بالأصح السيد Vorsicht كما تدعوني الفتاة؟». ثم ما لبثت خواطره أن اتجهت، بفضل العنصر الإنكليزي، نحو واقعتين ماضيتين، تبعثان بدورهما على الغيرة: «قبل بضعة أيام قدمتَ إلى بيتي، لكنك مع الأسف ما كنت تريد أن تلقاني أنا. بل كان طِلبتك سيداً يدعى **فروِيند**». وقد جعله هذا الخاطر يحرِّف اسمي فينطق به فرويند بدلاً من فرويد. ولئن ذكر السيدة فرويد ـ أوتوريغا، فلأن صفتها كمدرّسة للإنكليزية تفسح في المجال أمام توارد الخاطر الذي أفصح عنه فعلاً. وبهذا كله ارتبطت ذكرى زائر آخر، كان قد قدم قبل بضعة أسابيع واستثار لدى مريضي شعوراً مماثلاً بالغيرة إذ أشعره بدونيته حياله؛ فقد استطاع الدكتور جونز بالفعل أن يكتب دراسة حول الكابوس، على حين أن أقصى ما في مستطاع **ب** أن يحلم أحلاماً كابوسية. والخطأ الذي يقرّ بأنه ارتكبه إذ قال A Mare's Nest يحتل مكانه في سياق الخاطر نفسه، ومن المؤكد أن هذا معناه: «أنا لست إنكليزياً حقيقياً ولا فورسايت حقيقياً».

أما غيرته فلا يسعني أن أصفها بأنها غير مفهومة أو في غير محلّها. فقد كنت أخطرته أن تحليله سينتهي، وستنتهي بالتالي معه علاقاتنا، حالما يبدأ طلاب غرباء أو مرضى بالتقاطر على فيينا، وهذا ما حدث فعلاً بعد وقت وجيز. غير أن ما قمنا به حتى الآن لا يعدو أن يكون شطراً من العمل التحليلي؛ فقد فسرنا ثلاث خواطر تواردت في ساعة واحدة وبسائق دافع واحد. وهذا أمر لا صلة كبيرة له باحتمال أن تكون هذه الخواطر قد صدرت أو لم تصدر عن طريق التحاسس الذهني؛ بيد أن كل خاطرة من الخواطر الثلاث تطرح مسألة هذا التحاسس وتثير بصدده ثلاثة أسئلة: هل كان بوسع **ب** أن يعلم أن الدكتور فورسايت قام بزيارته الأولى لي قبل وهلة وجيزة؟

وهل كان بوسعه أن يعرف اسم الشخص الذي ذهبت إلى زيارته في بيته؟ وهل كان يعرف أن الدكتور جونز مؤلف كتاب عن الكابوس؟ أم أن معرفتي بهذه الأشياء هي التي انعكست على خواطره؟ إن أي استنتاج بصدد وجود التحاسس الذهني أو عدمه رهن بالإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة الثلاثة المختلفة. ولا نشغل أنفسنا الآن بالسؤال الأول، على اعتبار أن السؤالين الأخيرين أسهل مأتى. فأما ما يتصل بزيارتي للنزل فهو يبدو، للوهلة الأولى، ذا قوة إقناعية كبيرة. فأنا على يقين بأني لم أسمِّ أحداً حين أخبرت مريضي عرضاً، وعلى سبيل المزاح، بزيارتي لبيته. ومن غير المحتمل أن يكون **ب** قد استعلم في النزل عن اسم الشخص الذي زرته. بل أعتقد بالأحرى أنه بقي جاهلاً تماماً بوجوده. غير أن القوة الإقناعية لهذه الحالة لا تعتم أن تتداعى وتنهار بتمامها بحكم مصادفة محدّدة. فالرجل الذي قصدته في النزل لزيارته لم يكن يدعى **فرويند** فحسب، بل كان لنا جميعاً صديقاً حقيقياً[١٥]. ولكرمه ندين بتأسيس دارنا للنشر. والموت المبكر للدكتور أنطوان فون فرويند، ومن بعده كارل أبراهام، كان من أقسى الضربات التي نزلت قط بساحة التحليل النفسي في طور تأسيسه. وربما قلت يومئذ لمريضي **ب** إني ذهبت لرؤية **صديقٍ** (فرويند) في نزله. وفي هذه الحال، تكون الخاطرة الثانية قد فقدت كل قيمة لها من منظور العلم الغيبي.

كذلك، إن الانطباع الذي تركته فينا الخاطرة الثالثة ينقشع بدوره بسرعة ويتلاشى. هل كان في مستطاع **ب**، وهو الذي لا يقرأ أبداً مؤلفات التحليل النفسي، أن يعرف أن جونز نشر دراسة عن الكابوس؟ أجل، إذ كان لديه بعض مؤلفاتنا، وربما اطّلع من أغلفتها على عناوين المنشورات الجديدة. هذا أمر لا يمكن إثباته، ولكن لا يمكن أيضاً نفيه. إذاً، فليس عن هذا الطريق نستطيع أن ننتهي إلى نتيجة. ويؤسفني أن تكون ملاحظتي مشوبة بالعيب نفسه الذي يشوب الكثير من الكتابات المشابهة: فقد سجلتها بعد طول تأخير وعرضتها للمناقشة في زمن ما عدت أرى فيه **ب**، وبات متعذراً عليّ بالتالي أن أظفر منه بإيضاحات أخرى تتصل بالوقائع موضوع البحث.

---

١٥ ـ يقال للصديق في الألمانية فرويند Freund. «م».

لنعد الآن إلى الخاطرة الأولى التي تنهض، ولو منفردة عن كل ما عداها، دليلاً ظاهرياً على واقعية التحاسس الذهني. هل كان في مستطاع **ب** أن يعلم أن الدكتور فورسايث قدم لرؤيتي قبله بربع ساعة؟ بل هل كان في وسعه أن يعلم بوجود هذا الطبيب أو بحضوره إلى فيينا؟ لا يجوز أن نستسلم لإغراء الإجابة عن هذين السؤالين بالسلب. وإني لأستشفّ وسيلة للإجابة بالإيجاب جزئياً. فربما كنت أخبرت السيد **ب** أني انتظر طبيباً إنكليزياً، هو عندي كحمامة نوح، لألقِّنه أصول ممارسة التحليل. ومن الممكن أن يكون ذلك قد حدث في صيف ١٩١٩، على اعتبار أن الدكتور فورسايث قد راسلني في موضوع زيارته قبل بضعة أشهر من زيارته. بل ربما اتفق لي أن تلفظت باسمه، وإن يكن هذا بعيد الاحتمال جداً على ما يتراءى لي. ولو أنه حدث لي لبقي مطبوعاً في ذاكرتي، إذ إن تعدد مدلولات اسم العلم هذا كان من شأنه أن يستتبع محادثة بصدده. من الممكن إذاً أن يكون الأمر قد حصل وأن أكون نسيته نسياناً تاماً، فلما طرق أذني في أثناء التحليل تلقيبه بالسيد Vorsicht (المتبصر) راعني كما لو أن في الأمر معجزة. والحق أنه إذا ما تبجح المرء بأنه من الريبيين، فحريّ به أن يرتاب أحياناً في ريبيته بالذات. ولربما انطويت أنا في أعماق نفسي على نزوع خفي إلى الغرائبية، وهذا النزوع هو ما يحملني من ثمّ على أن أستقبل بمحاباة حدوث الظاهرات الغيبية.

ولكن حتى لو استبعدنا على هذا النحو جانباً من الغرائبية، لا يكون عملنا قد أنجز. فلا تزال أمامنا مهمة أخرى نؤديها، هي الأشد وعورة من كل ما عداها. لنسلِّم بأن السيد **ب** عرف بوجود دكتور يدعى فورسايث وأنه من المنتظر أن يقوم بزياة لفيينا في الخريف، فكيف نفسِّر بعد ذلك أنه أرهص به يوم قدومه بالذات وعقب زيارته الأولى مباشرة؟ صحيح أنه في مستطاعنا أن نعزو هذه الواقعة إلى المصادفة، فلا نطلب لها تفسيراً؛ لكن حتى أبيِّن لكم أنه لا مجال للمصادفة هنا وحتى أريكم أن مشاعر غيرة فعلية كانت تساور مريضي إزاء الأشخاص الذين يقدمون لزيارتي أو أذهب لزيارتهم، ذكرت لكم الخاطرين الآخرين اللذين تواردا إلى ذهن **ب**. وكيلا نغضّ النظر عن أي احتمال مهما يكن بعيداً، يسعنا أيضاً أن نفترض أن **ب** لاحظ يومئذ أني متوتر الأعصاب على

نحو غير معهود، فاستخلص من ذلك بعض الاستنتاجات. ومن المباح لنا أيضاً أن نفترض أنه ربما يكون ـ وقد وصل بعد ربع ساعة فقط من وصول الإنكليزي ـ التقاه في الطريق وعرفه من سيمائه الأنكلو ـ ساكسونية النمطية ودارت في خاطره بدافع من غيرته الفكرة التالية: «هوذا إذاً **د. فورسايث** الذي سيعني مجيئه نهاية تحليلي. وأرجح الظن أنه قادم من عند **الأستاذ**». ولست بمستطيع أن أمضي إلى أبعد من ذلك في هذه التخمينات العقلانية. فلنعد إذاً مرة أخرى إلى ما كنا نحن عليه من تشكك وإبهام، وإن كان يتعين علينا ـ وهذا هو الرأي عندي ـ أن نعترف بأن الميزان يميل لصالح التحاسس الذهني في هذه الحالة أيضاً. ثم إني لست، بكل تأكيد، الإنسان الوحيد الذي واجهته مثل هذه الوقائع في أثناء الجلسات التحليلية. فقد نشرت هيلين دويتش Deutch[١٦] في عام ١٩٢٦ ملاحظات مماثلة ودرست تعيُّنها من خلال علاقات التحاسس بين المرضى والمحلِّلين.

إني لموقن أن موقفي من هذه المشكلة لن يحظى باقتناعكم الكامل، كما أنه لن يرضيكم كل الرضى إذا كنتم على استعداد للاقتناع. ولربما قلتم: هذا مثل آخر لرجل كرّس حياته كلها بكل استقامة للعلوم الطبيعية، فلما طعن في السن أمسى واهن الذهن، تقياً ورعاً، سريع التصديق. وأنا أعلم أن مشاهير من الأشخاص آلوا إلى هذا المآل، لكن لا يحقّ لكم أن تدرجوني في عدادهم. فأنا على الأقل لم أصبح ورعاً، ولا سريع التصديق، على ما آمل. فالمرء لا يقف في شيخوخته مقوّس الظهر أمام الوقائع الجديدة إلا إذا كان اعتاد أن ينحني طول حياته تحاشياً للصدام الأليم مع الواقع. وأكبر الظن أنكم كنتم تؤثرون أن تروني أتمسك بحبل نزعة تأليهية معتدلة وأن أرفض وأردّ في غير هوادة جميع معطيات

١٦ ـ هيلين دويتش: محللة نفسية أمريكية من أصل نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٨٢). كانت أول محللة نفسية تتخصص بالسيكولوجيا النسوية. انتمت إلى الحركة الاشتراكية في شبابها، ثم إلى التحليل النفسي بعد أن تولى فرويد نفسه تحليلها، ودافعت عن العقيدة الفرويدية «القويمة» فيما يخص الجنسية النسوية. من مؤلفاتها: **التحليل النفسي لوظائف المرأة الجنسية**، **مشكلات المراهقة**، فضلاً عن **شخصيات كما لو أن**، أي الشخصيات التي لا وجود عندها للكبت والتي تعاني من نقص في التوظيف الموضوعاني طبقاً للمصطلحات التي تعتمدها المؤلفة. «م».

المذهب الغيبي. غير أنه يعجزني أن أسعى إلى الفوز بإعجاب الناس، وإني لأدعوكم من ثم إلى أن تنظروا بعين الترفق والتقبل إلى ظاهرة التحاسس الذهني، وبالتالي أيضاً التخاطر.

لا يغرب عنكم أننا لم نعالج هنا هذه المشكلات إلا بقدر ما يمكننا طرقها من منظور التحليل النفسي. فحين عرضت لي، قبل أكثر من عشر سنوات، هذه الظاهرات الغيبية، ساورني، أنا أيضاً، تخوُّف من أن يلحق منها أذى بتصورنا العلمي للعالم، فلا يجد من ثمّ مناصاً من أن يخلي مكانه للعلم الروحاني أو للتصوف فيما لو ثبتت صحّة بعض المعطيات الغيبية. أما اليوم فقد غيّرت رأيي. وتقديري أننا لا نكون قد محضنا العلم الثقة التي يستأهلها لو تصورناه عاجزاً عن أن يتمثل ويستوعب ما تثبت صحته من معطيات المذهب الغيبي. والظاهر للعيان أن الظاهرة التخاطرية بوجه الخصوص تكاد تؤيد مدّ أسلوب التفكير العلمي ـ الميكانيكي كما يقول الخصوم ـ وتوسيعه ليشمل العالم الذهني الذي يعزّ إيجاد ممسك له. فبمقتضى ظاهرة التخاطر، يُفترض بالفعل النفسي الذي ينجزه شخص من الأشخاص أن يؤدي إلى فعل مناظر له لدى شخص ثانٍ. وما يحدث بين هذين الفعلين النفسيين قد يكون في منتهى اليسر سيرورة فيزيقية ينتقل فيها النفسي إلى أحد الطرفين قبل أن ينتقل من جديد إلى الطرف الآخر النفسيّ ذاته. –وفي هذه الحال تغدو محتومة المقارنة مع عمليات انتقالية أخرى كما عندما نتكلم أو نستمع بالهاتف مثلاً. وهل لكم أن تتصوروا ما سيحدث فيما لو أمكنت السيطرة على هذا المكافئ الفيزيقي للفعل النفسي! لن أحجم بالمناسبة عن القول إن التحليل النفسي هو الذي هيّأنا للتسليم بوجود ظاهرات نظير التخاطر بإدراجه اللاشعور بين ما هو فيزيقي وبين ما كان يُسمَّى حتى ذلك الحين بالنفسي. وإذا ألِفْنا فكرة التخاطر، تسنى لنا في زمن لاحق أن نستخدمها على نطاق واسع، لكن الأمر لا يتعدى نطاق الخيال في الوقت الراهن. فليس خافياً على أحد أن الإنسان لا يزال يجهل كيف تنشأ الإرادة الجماعية لدى الحشرات التي تعيش في جماعات. ولعل ذلك يتمّ عن طريق اتصال نفسي مباشر من هذا القبيل. وقد لا يكون أمامنا مناص من الافتراض

بأن هذا ما كانه النمط البدائي، السحيق القدم، في التواصل بين الكائنات البشرية، قبل أن تحلّ محله في زمن لاحق، في مسار التطور السلالي للبشرية، طريقة أفضل تتمثل بالتواصل بواسطة الإشارات والعلامات التي تُدرك بأعضاء الحواس. غير أن الطريقة القديمة قد تظل كامنة، فتفصح عن نفسها في ظروف خاصة، وعلى سبيل المثال لدى الجموع المستثارة انفعالياً. والحق أن المسألة كلها لا يزال يكتنفها قدر كبير من الغموض، وتزخر بألغاز غير محلولة، غير أنه ليس في الأمر ما يدعو إلى الهلع.

إن يكن للتخاطر وجود كسيرورة فعلية، فبوسعنا أن نفترض، رغم صعوبة البرهان، أنه ظاهرة شائعة متواترة. ولن يفجأنا في هذه الحال أن نكتشف أن التخاطر موجود تحديداً في حياة الطفل النفسية. أفلا يتصور الطفل في الغالب من الأحوال أن أهله يقرؤون جميع أفكاره من دون أن يكاشفهم بها؟ وربما كان إيمان الراشدين بعلم الله بكل شيء عديل هذا التصور الطفلي وناشئاً عنه في أغلب الظن. وقد ساقت مؤخراً باحثة جديرة بالثقة، وهي دوروثي برلنغهام Barlingham[١٧]، في دراسة لها بعنوان **تحليل الأطفال والأم**، بعض ملاحظات لا تدع مجالاً للشك بعد الآن - فيما إذا ثبتت صحتها - في واقعية التحاسس الذهني. وقد انطلقت دوروثي برلنغهام من موقف (لم يعد نادراً اليوم) يخضع فيه الطفل والأم في آن معاً للمعالجة التحليلية. وقد روت لنا بعض وقائع غريبة، ومنها على سبيل المثال الواقعة التالية: تكلمت الأم ذات مرة، في أثناء جلسة تحليلية، عن قطعة نقد ذهبية لها دور ما في مشهد من مشاهد طفولتها. فما إن عادت إلى بيتها حتى دلف ابنها الصغير، وكان في حوالي العاشرة من العمر، إلى غرفتها حاملاً لها قطعة نقد ذهبية وطالباً منها أن تحتفظ له بها. فسألته مدهوشة من أين جاء بها، فقال إنه تلقاها هدية في عيد ميلاده. وكان الاحتفال بعيد الميلاد هذا قبل بضعة شهور، ولا شيء يفسّر لماذا

١٧ - دوروتي برلنغام: محللة نفسية إنكليزية اختصت بتحليل الأطفال (١٨٩١ - ١٩٧٩). تولى تحليلها تيودور رايك ومن بعده فرويد وصارت صديقة لابنته آنا فرويد. افتتحت في لندن عيادة خاصة لتطبيب الأطفال نفسياً. «م».

تذكّر الولد الهدية في ذلك اليوم تحديداً. وأعلمت الأم محللة الولد بهذه الواقعة الغريبة وطلبت إليها أن تبحث عن السر في مسلك الولد هذا. غير أن تحليل الولد لم يمط اللثام عن أي شيء، فلكأن الفعل اندسّ في حياة الغلام في ذلك اليوم كما لو أنه جسم غريب. وبعد مضيّ بضعة أسابيع، وفيما كانت الأم جالسة إلى مكتبها لتسجيل الواقعة المذكورة، كما طُلب إليها أن تفعل، إذا بالغلام يدخل عليها ويسألها أن تعيد إليه القطعة الذهبية، قائلاً إنه يريد أن يأخذها ليريها لمحللته. ولم يتوصل التحليل، هذه المرة أيضاً، إلى كشف الدافع إلى هذه الرغبة.

لنعد الآن إلى منطلقنا، إلى التحليل النفسي.

المحاضرة الحادية والثلاثون

تقاسيم الشخصية النفسية

سيداتي سادتي، تسنى لكم بلا شك أن تدركوا من تلقاء أنفسكم أهمية البداية والمنطلق، سواء أتعلق الأمر بالأشخاص أم بالأشياء. وهذا ينطبق أيضاً على التحليل النفسي. فقد تصدى من البداية لدراسة العرض SYMPTOME، هذا الجسم الغريب في نفسية الإنسان في نظر الأنا، فكان لذلك أثره الكبير في الكيفية التي استقبل بها الناس العلم الجديد وفي التطور الذي قُيِّض له أن يمرّ به. فالعرض يصدر عما كُبت ويمثِّله، إن جاز القول، أمام الأنا. لكن المكبوت صقع أجنبي بالنسبة إلى الأنا، موقعه في داخله، مثلما أن الواقع ـ إذا أذنتم لي بهذا التعبير غير المألوف ـ صقع أجنبي خارجي. وقد قادنا العرض إلى اللاشعور، إلى حياة الدوافع الغريزية، إلى الجنسية. وعندئذ واجه التحليل النفسي اعتراضاً طريفاً مؤداه أن الإنسان ليس محض كائن جنسي، بل هو يتميَّز أيضاً بأنبل المشاعر وأسمى العواطف. أفما كان يمكن لهؤلاء المعترضين أن يضيفوا إلى ذلك أن الإنسان، بحضٍّ من وعيه لهذه المشاعر السامية، يمنح في كثير من الأحيان نفسه الحقَّ في التفكير الباطل والمكابرة في ما هو بدهي؟

إنكم لتعلمون قبل غيركم أننا ذهبنا من البداية إلى أن الكائن البشري يقع مريضاً بسبب النزاع بين متطلبات الحياة الغريزية وبين المقاومة التي تنتصب في داخله ضد هذه المتطلبات. ولم يغب عنا لحظة واحدة وجود تلك الهيئة Instance التي تقاوم وتنبذ وتكبت والتي تصورناها مسلّحة بقواها الخاصة: الدوافع الغريزية الأنوية؛ هذه الهيئة التي يخلط علم النفس الشعبي بينها وبين الأنا تحديداً. غير أن التقدم الشاقّ والوئيد للعمل العلمي ما أتاح للتحليل النفسي أن يدرس المشكلات طراً في آن واحد وأن يجد لها حلّها بمثل لمح البصر. ولما

تسنى لنا أخيراً أن نتحول عن المكبوت إلى الكابت، تهيَّأ لنا أننا سنلتقي هنا أيضاً أشياء غير متوقعة، فإذا بنا نواجه ذلك الأنا الذي كان وجوده يتبدى لنا بدهياً لا يحتاج إلى إيضاح. غير أن الشروع بهذه الدراسة اعترضته صعاب شتى، وهذا موضوع حديثي لكم اليوم.

ينبغي بادئ ذي بدء أن أنبِّهكم إلى أن عرضي هذا لسيكولوجيا الأنا سيختلف وقعه عليكم اختلافاً بيِّناً، على ما أظن، عن وقع المدخل التمهيدي - الذي سبقه - إلى المناطق النفسية المظلمة. فعلامَ ذلك؟ لست أدري عن الأمر شيئاً، لكنكم قد تعجبون إذا ما سمعتموني أحدِّثكم الآن عن تصورات وتأملات بعد أن كنت حدَّثتكم على الأخص عن وقائع، وإن تكن وقائع غريبة مستغربة. على أن هذه الحجة ليست بالمفحمة. وبعد إمعان التفكير أعلن أمامكم بأن نصيب المجهود التأملي في التعقل الذهني للوقائع العينية ليس أكبر بكثير في سيكولوجيا الأنا، كما سنرسمها، منه في سيكولوجيا الأعصبة. وقد وجدتني مضطراً إلى التخلي عن تعليلات أخرى كانت قد بدت لي معقولة مقبولة. وأعتقد الآن أن التبعة في ذلك تقع، بنوع ما، على طبيعة الموضوع المدروس بالذات وعلى تنائيه عما ألفناه وعهدناه. ومهما يكن من أمر، فلن يدهشني إن دلَّلتم في حكمكم على قدر أوفى من التحفظ والتحرز مما فعلتم سابقاً.

إن الوضع الذي نجد فيه أنفسنا في مستهل دراستنا هذه هو الذي يحدِّد لنا الطريق الذي يتعيَّن علينا سلوكه. فأنانا هو ما سنشرحه، أنانا الحميم. لكن أذلك ميسور؟ فكيف للأنا، وهو الذات حصراً، أن يغدو موضوعاً؟ بلى، لا يداخلكم ريب؛ ففي مقدور الأنا أن يجعل من نفسه موضوعاً، وأن يسلك إزاء نفسه مسلكه إزاء مواضيع أخرى، وأن يلاحظ نفسه وينقدها، إلخ، إلخ. وفي الوقت نفسه ينهض شطر من الأنا في مواجهة الشطر الآخر. إذاً، إن الأنا قابل لأن ينشطر، وهو ينشطر فعلاً، ولو مؤقتاً. وفي مقدور الأجزاء المنشطرة أن تعود بعد ذلك إلى الالتئام. وليس في هذا كله شيء جديد أو غير معروف. وكل ما في الأمر أننا نتوخى هنا التنويه بوقائع بيِّنة معلومة. ومن جهة أخرى نعلم أن علم

الأمراض يقدر، بتكبيره التظاهرات، أو بتضخيمه إياها إن جاز القول، أن يلفت انتباهنا إلى حالات سوية ما كان لنا، لولا ذلك، أن نفطن إليها. وحيثما يكشف لنا علم الأمراض عن وجود ثغرة أو صدع، فقد لا يعدو الأمر في الحالات السوية أن يكون محض انفلاق أو تشقُّق. لنرمِ بقطعة بلّور إلى الأرض، فتتحطم، ليس كيفما اتفق، بل طبقاً لخطوط انفلاقها، وتتناثر شظايا تكون حدودها متعيِّنة بصورة قبْلية، وإن غير منظورة، ببنية البلورة. هذه البنية المصدَّعة هي أيضاً بنية المرضى العقليين. ولسنا نملك إلا أن نشعر، في مواجهة المخبولين، بنزر يسير من تلك الرهبة الإجلالية التي كانت تحيطهم بها الشعوب القديمة. فقد أشاح هؤلاء المرضى عن الواقع الخارجي، ولهذا السبب بعينه نجدهم أطول باعاً في معرفة الواقع الداخلي، وفي مستطاعهم أن يزيحوا لنا النقاب عن بعض الأمور التي ما كنا، لولاهم، لنجد منفذاً إليها. وإننا ندرج نفراً من هؤلاء المرضى في فئة من يعانون من هذاء الترصد. فهم يشتكون من أنهم موضع رقابة دائمة، حتى في أفعالهم الحميمة، من قبل قوى مجهولة ـ ما هي في أرجح الظن، وفي خاتمة المطاف، إلا أشخاص ـ ويتخيَّلون أنهم يسمعون بآذانهم هؤلاء الأشخاص ينطقون بما رصدوه من أمرهم: «إنه سيقول الآن هذا الشيء، إنه يرتدي ثيابه استعداداً للخروج... إلخ». هذا الترصد ليس هو الاضطهاد بعد، لكنه ليس بعيداً عنه. فالمرضى، المعانون من مثل هذا الترصد، يعتقدون أنهم موضع ريبة وشبهة، وأن المراد ضبطهم في الجرم المشهود لمعاقبتهم عليه. فماذا يحدث لو كان هؤلاء المخبولون على حقّ، ولو كان في داخل أنا كل واحد منا هيئة راصدة تتوعده بالعقاب، لا تختلف عن تلك التي يعانون منها سوى أنها لم تنفصم، كما الحال عندهم، انفصاماً تاماً عن الأنا لتُسقط خطأ على الواقع الخارجي؟

لست أدري إن كنتم تجارونني في موقفي. فتحت الوقع الآسر للوحة المرَضية التي وصفتها لكم تراءى لي أنه ربما صحّ الاستنتاج بأن انفصال هيئة راصدة عن سائر الأنا خاصية عادية من خصائص بنية الأنا ومنذئذ لم تفارقني هذه الفكرة قط، بل حثَّتني على البحث عن السمات والصلات الأخرى لهذه الهيئة

المنفصلة. وليس من العسير أن نواصل في هذا الطريق. فمضمون هذاء الترصد يكفي وحده ليدلّنا على أن هذا الترصد ما هو إلا تمهيد للإدانة وللعقاب، بحيث نحدس أن لهذه الهيئة وظيفة أخرى تؤديها هنا، وهي تلك التي نسميها بالضمير. فالضمير هو ما نعزله بأقصى حدّ من التواتر والاطراد عن الأنا وما نعارضه به بأعظم السهولة. فقد تنزع نفسي إلى إتيان فعل بعينه أتوسم فيه أن يعود عليّ باللذة، لكني أمسك عنه نزولاً عند اعتراض ضميري. أو قد أنساق لإغراء اللذة فأرتكب فعلاً يشجبه ضميري: فما إن أفعله حتى أندم عليه من شدة تبكيت ضميري. وبوسعي أن أقول بكل بساطة إن هذه الهيئة الخاصة التي بدأت أستشفّ وجودها في الأنا هي الضمير. إلا أن داعي الحذر والحصافة يحثّنا على أن نعتبر هذه الهيئة مستقلة بذاتها وعلى أن نسلِّم بأن الضمير وظيفة من وظائفها. وفي هذه الحال تكون مراقبة الذات، التي لا غنى عنها لأداء الضمير نشاطه النقدي والقضائي، وظيفة أخرى من وظائف تلك الهيئة المستقلة. وبما أنه حقيق بنا، حينما نريد الاعتراف لشيء من الأشياء بوجود مستقلّ، أن نطلق عليه اسماً خاصاً به، فسأسمِّي من الآن فصاعداً هذه الهيئة الموجودة في الأنا **الأنا الأعلى**.

أتوقع منكم أن تسألوني ساخرين عما إذا لم يكن كل شأن سيكولوجيا الأنا كما نرسمها هنا أن تبتكر أسماء لتجريدات الحياة اليومية وأن تضخِّمها وأن تحوِّلها من أفكار ومعانٍ إلى أشياء، وهذه كلها عمليات لا تغني غناء كبيراً. اسمحوا لي بأن أجيبكم أنه ليس في مقدورنا، ونحن نرسم معالم سيكولوجيا الأنا، أن نتحاشى ما هو معروف ومعهود من قبل. وليس بيت القصيد أن نصل باستمرار إلى كشوف جديدة، بل أن نفهم ونصنِّف على نحو أفضل المعطيات المتاحة من قبل. أمسكوا إذاً، ولو مؤقتاً، عن انتقاداتكم المزدرية وانتظروا تفاسير وشروحاً أخرى. والحق أن وقائع علم الأمراض تمدّنا بركيزة للعمل عبثاً تطلبون نظيرتها من علم النفس التقليدي. وعلى هذا سأمضي في عرض الموضوع. فما إن نألف فكرة الأنا الأعلى الذي ينعم بقدر من الاستقلال الذاتي وينشد أهدافاً خاصة به ويبقى، في دائرة نشاطه، مستقلاً عن الأنا، حتى تتراءى لذهننا لوحة

مرَضية تجسِّد قسوة تلك الهيئة وتقلب العلاقات التي تقيمها مع الأنا: أقصد هنا السويداء، أو بالأحرى النوبة السوداوية التي لا شكّ في أنكم سمعتم بها وإن لم تكونوا من أطباء الأمراض النفسية. ونحن لا نعلم على وجه التحقيق علة هذا الداء ودافعه وآليته، غير أن ما يسترعي انتباهنا فيه هو الكيفية ـ وقد تقولون بينكم وبين أنفسكم: الضمير ـ التي يعامل الأنا الأعلى بها الأنا. فالسوداوي، في ساعات صفوه، يعامل نفسه، مثله مثل سائر الناس، بقدر قد يزيد أو ينقص من الصرامة، لكن أناه الأعلى الذي يغدو، ساعة النوبة، زِمِّيتاً متصلباً، ينهال بأقسى أنواع الملامة والإذلال وسوء المعاملة على الأنا المسكين، ويتوعده بأصرم العقوبات، ويعنِّفه أشد التعنيف على أفعال ارتكبها من عهد بعيد باستخفاف وبلا تروٍّ. فكأن الأنا الأعلى أمضى هذه الفترة يحشد التهم، وانتظر أن يقتدر ويقوى بما فيه الكفاية ليشهرها ويستخدمها وينطق بحكم الإدانة. وما يريده الأنا الأعلى هو أن يجبر الأنا، وقد تجرد من وسائل دفاعه، على الصدوع لأمر أقسى القواعد وأصرم المعايير. وبكلمة واحدة، إنه ينصِّب نفسه محامياً عن الأخلاقية، ولا يعزّ علينا أن ندرك من أول وهلة أن شعورنا الأخلاقي بالذنب هو ثمرة التوتر القائم بين الأنا والأنا الأعلى. وإن يكن من عجب فهو أن الأخلاقية، التي يقال إنها هدية من الله غرزها في أعمق أعماق نفوسنا، تتجلى هنا على أنها ظاهرة دورية. وبالفعل، لا تكاد تمضي شهور قليلة حتى يخمد كل ذلك الجيشان الأخلاقي، ويخرس صوت الأنا الأعلى الناقد، ويستعيد الأنا اعتباره ويسترجع، بانتظار النوبة التالية، جميع حقوقه. بل ثمة أكثر من هذا: ففي بعض أشكال هذا المرض نلحظ مسلكاً نقيضاً في إبان الفترات الفاصلة بين النوبات، إذ ينعم الأنا بحالة من الجزل والغبطة، فينطلق ويزدهي، فلكأن الأنا الأعلى فقد سلطانه كله أو لكأنه اندمج بالأنا وانصهر معه. وعندئذ يعكف هذا الأنا المنعتق، الأهوس، على تلبية رغائبه كافة بغير ما لجام يلجمه. فما أكثرها من معضلات تبحث لها عن حلول!

إذا ما أخبرتكم أننا توصَّلنا على هذا النحو إلى معرفة الشيء الكثير عن تكوين الأنا الأعلى وبالتالي عن تطور الضمير، فستطالبونني بأكثر من مثال واحد أعزِّز به صحة مدّعاي. فالإنسان الورع قد ينزع، بالاستناد إلى قولة معروفة لكانط

تربط ما بين ضميرنا والسماء المرصعة بالنجوم، إلى إجلالهما والتعبُّد لهما باعتبارهما آيتين من آيات الخليقة[1]. ولا شك أن الافلاك رائعة، لكن الله، عندما خلق الضمير، لم يتقيَّد بخطٍّ متساوٍ مستقيم، والدليل أن أغلب الناس لا يتوفر لهم إلا مقدار طفيف من الضمير، بل طفيف للغاية حتى ليشقّ علينا في بعض الأحيان الكلام عن وجوده. وأما أن القول بأصل إلهي للضمير ينطوي على نصيب من الحقيقة، فهذا ما لا نسعى إلى المماراة فيه. غير أن هذا القول يظل بحاجة إلى شرح وتفسير. فلئن وجد فينا ضمير، فما هو بفطري؛ وهو بهذا المعنى نقيض الجنسية Sexualité التي تكون موجودة من بادئ الأمر وليست إضافة تضاف لاحقاً. وما من أحد إلا ويعلم أن الطفل الصغير كائن لاأخلاقي: فلا وجود عنده لأي كفٍّ داخلي يتصدى بالمعارضة للاندفاعات الملتمسة للذة. والدور الذي يضطلع به الأنا الأعلى في زمن لاحق تتولاه في أول الأمر قوة خارجية، هي سلطة الوالدين. والوالدان يمارسان تأثيرهما عن طريق الترغيب بالعطف والحنوّ وعن طريق الترهيب بالقصاص. والطفل يخشى القصاص لأن مكافئه عنده هو الحرمان من المحبة. وهذا الخوف الفعلي هو المقدِّمة لخشية الضمير مستقبلاً؛ وما دام هو صاحب اليد الطولى فلا مجال للكلام عن الأنا الأعلى والضمير. وإنما في زمن لاحق فحسب ينشأ الموقف الثاني، وهو الموقف الذي ننزع نزوعاً أقوى مما ينبغي إلى اعتباره سوياً. وحالما يتمّ استدماج القيد الخارجي واستبطانه، يحلّ الأنا الأعلى محلّ السلطة الوالدية، ويضطلع بالمراقبة والتوجيه والتهديد مثلما كان الوالدان يراقبان الطفل من قبل ويوجِّهانه ويهدِّدانه.

إن الأنا الأعلى، إذ يستحوذ على القوة والفعالية اللتين كانت تتسم بهما السلطة الوالدية، بل إذ يستخدم طرائق هذه السلطة وأساليبها، لا يكون خليفتها فحسب، بل أيضاً وحقاً وريثها الشرعي، الطبيعي؛ فهو يصدر عنها مباشرة، وسنرى فيما بعد ما سبيله إلى ذلك. غير أنه حريٌّ بنا أن ننوِّه بفارق: فالأنا الأعلى يبدو منحازاً في اختياره فلا يأخذ عن الوالدين إلا قسوتهما وصرامتهما

---

١ ـ الإحالة هنا إلى قولة لعمانويل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) في كتابه **نقد العقل العملي**: «السماء المرصعة بالنجوم فوقي والقانون الأخلاقي في داخلي». «م».

ودورهما القامع، القاهر، ويذر بالمقابل حنوَّهما ومحبَّتهما. ونحن نجنح في العادة إلى الاعتقاد بأن الأنا الأعلى يصير أميل إلى الشدة إذا تميَّزت التربية التي تلقَّاها بالصرامة؛ والحال أن التجربة تدلّ، خلافاً لكل توقُّع، أن الأنا الأعلى قد يغلو غلواً مسرفاً في الصرامة، حتى وإن يكن المربيان قد أظهرا حسن تلطف وطيبة وتحاشيا، بقدر المستطاع، الوعيد والقصاص. ولنا فيما بعد عودة إلى هذا التناقض، وذلك عندما سنعالج تحولات الدوافع الغريزية في تكوُّن الأنا الأعلى.

لا أستطيع أن أطيل في الحديث إليكم بالقدر الذي أريد عن تحوّل العلاقة بالوالدين إلى أنا أعلى، أولاً لأن هذه السيرورة بالغة التعقيد بحيث يتعذّر علينا وصفها في إطار عرض كالذي نحن فيه، وثانياً لأننا لا نحسب نحن أنفسنا أننا فهمنا الظاهرة حقَّ الفهم. اقنعوا إذاً بالإشارات التالية: إن أساس هذه السيرورة هو ما نسمِّيه بالتماهي Identification، أي مماثلة الأنا لأنا غريب عنه. فالأنا الأول يتصرف، من بعض الوجود، كما يتصرف الأنا الآخر ويقلِّده ويستدخله جزئياً. وقد أجاز بعضهم لنفسه، بحقٍّ، أن يشبِّه التماهي بالاستدماج الفموي، الآدِمي[٢]، للشخص الآخر. والتماهي شكل سحيق القدم، وربما أهمّ شكل إطلاقاً، للتعلق بشخص آخر. وليس يجوز أن نخلط بينه وبين الاختيار الموضوعاني Objectal. وهاكم الفرق بينهما: فحين يتماهى الصبي الصغير مع أبيه فهذا لأنه يريد أن **يكون مثله**؛ وحين يتخذ منه موضوعاً لاختياره فهذا لأنه يريد أن **يملك** الأب وأن يستحوذ عليه. في الحالة الأولى يتمثَّل أنا الصبي أنا الأب، أما في الحالة الثانية فما ذلك بضروري. والتماهي والاختيار الموضوعاني مستقل واحدهما عن الآخر إلى حدّ كبير، غير أنه من الممكن أن يتماهى المرء حتى مع الشخص الذي اختاره كموضوع جنسي، فيحوّر أناه تبعاً له. ويقال إن تأثير الموضوع الجنسي هذا على الأنا أكثر ما يكون اطِّراده لدى المرأة، وإنه هو الذي يحدِّد خصائص الأنوثة. وقد حدثتكم بكل تأكيد في محاضراتي السابقة عن هذه العلاقة بين التماهي والاختيار الموضوعاني، وهي علاقة ثرّة بالدلالات. وفي مقدورنا أن نلاحظها لدى الأطفال كما لدى الراشدين، لدى الكائنات

٢ ـ الآدِمي: نسبة إلى الآدِمية Cannibalisme، أي آكل لحم البشر. «م».

السوية كما لدى المرضى. فحين يفقد الإنسان موضوع حبه، أو حين يضطر مكرهاً إلى العزوف عنه، فكثيراً ما يعوِّض عن خسارته هذه بأن يتماهى مع الموضوع المذكور ويفسح له مكاناً له في أناه، بحيث ينكص الاختيار الموضوعاني في هذه الحال إلى التماهي ويرتدّ إليه.

إني لست راضياً كل الرضى عن كلامي هذا عن التماهي، لكن كل ما أرجوه أن توافقوا معي على أن بناء الأنا الأعلى يمكن أن يعتبر حالة موفَّقة من حالات التماهي مع الهيئة الوالدية. والواقعة البارزة التي ينصبّ عليها اهتمامنا الآن هي أن ظهور هيئة أقوى وأطول باعاً في الأنا يرتبط وثيق الارتباط بمصير عقدة أوديب، بحيث يبدو الأنا الأعلى وكأنه وريث هذه المنظومة من المشاعر والعواطف البالغة الأهمية بالنسبة إلى الطفولة. ومفهوم لدينا أن يجد الطفل نفسه مكرهاً، حين ينعتق من عقدة أوديب، على العزوف عن التوظيفات الليبيدوية المكثَّفة التي كان صبَّها على والديه. وكتعويض عن الخسارة النازلة به تتعزز بقوة في أناه التماهيات القديمة مع والديه. وأشباه هذه التماهيات، المترسِّبة عن توظيفات موضوعانية قديمة مهجورة، لا تعتم أن تتكرر مراراً في حياة الطفل مستقبلاً. غير أن هذه الحالة الأولى من حالات التحول تتَّسم، بلا أدنى ريب، بأهمية خاصة وتشغل مكانة خاصة في الأنا، بالنظر إلى قيمتها العاطفية الكبيرة. والتعمق في البحث من شأنه أن يظهر لنا أيضاً أن الأنا الأعلى يضعف ويخور إذا لم يتمّ التغلب على عقدة أوديب. كذلك يستبطن الأنا الأعلى، في أثناء تطوره، تأثير الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا قد نابوا مناب الوالدين: المربين، المعلمين، وكل من يرى فيهم نماذج مثالية. وفي الأحوال السوية يجنح الأنا الأعلى على الدوام إلى الابتعاد أكثر فأكثر عن الوالدين الأصليين ويغدو، إن جاز التعبير، متجرداً أكثر فأكثر من الصفة الشخصية. ولا يغرب عن بالنا كذلك أن الفكرة التي يكوّنها الطفل عن والديه تختلف باختلاف عمره. فيوم تخلي عقدة أوديب مكانها للأنا الأعلى، يرى في والديه شخصين ساميين رائعين؛ لكنهما لا يلبثان لاحقاً أن ينزلا من عليائهما. صحيح أن التماهي مع الوالدين يمكن أن يتكرر في مرحلة تالية أيضاً وأن يسهم بقسط موفور في تكوين الشخصية، غير أنه لا يؤثر

في هذه الحال إلا في الأنا، لا في الأنا الأعلى، إذ يكون هذا الأخير قد تحدد نهائياً بالصور الوالدية الأولى.

لقد حدستم الآن، على ما آمل، بأن الأنا الأعلى المشيَّد على هذا النحو تناظره في النفس بنية فعلية، وليس هو محضَ مفهوم مجرَّد نظير الضمير. ولا يزال علينا أن نتكلم عن وظيفة أخرى بالغة الأهمية: فالأنا الأعلى هو للأنا، بالفعل، مثال، والأنا ينزع إلى الاقتداء بهذا المثال وإلى مشابهته والتمثُّل به. وإذ يرنو الأنا بلا هوادة إلى الكمال، فإنما انصياعاً منه لمتطلبات الأنا الأعلى. ومن الوقائع الثابتة أن الإعجاب الذي كان الطفل يكنُّه لوالديه إنما مردُّه إلى الكمال الذي يخلعه عليهما، وأن مثال الأنا ما هو إلا رسابة متبقية من تلك العلاقة القديمة. وأنا أعلم أنه قد طرق أسماعكم مراراً وتكراراً قول من يقول إن الشعور بالدونية هو سمة العصابي من الناس؛ والحق أن هذا المصطلح يتردد باستمرار في الأعمال الأدبية. والكاتب الذي يكثر من استعمال تعبير عقدة الدونية يتراءى له أنه يلبي على هذا النحو كل متطلبات التحليل النفسي ويسمو بالمستوى السيكولوجي لما يكتبه. وفي الواقع، إن مصطلح عقدة الدونية السحري هذا لا يكاد يجد له استعمالاً في التحليل النفسي. فهذه العقدة لا تتبدى لنا على أنها شيء بسيط وابتدائي. ومن الخطأ الجسيم في اعتقادنا ردُّها، كما يحلو لأنصار علم النفس الفردي[٣] أن يفعلوا، إلى إدراك الفرد لما به من علامات فارقة وعيوب عضوية مزعومة. فالشعور بالدونية له جذوره الإيروسية الراسخة. فالطفل يشعر بالدونية حينما يلاحظ أنه غير محبوب، وكذلك شأن الراشد. والعضو الوحيد الذي يعتبر دونياً حقاً هو القضيب اللامكتمل، أي البظر عند الفتاة الصغيرة. على أننا إذا أردنا أن نبحث عن العلة الرئيسية للشعور بالدونية، فعلينا أن نبحث عنها في ثنايا علاقة الأنا الأعلى بالأنا، إذ إن الشعور بالدونية، مثله مثل الشعور بالذنب، إنما يعبر عن توتر بينهما. وربما كان يجدر بنا أن نعتبر الشعور بالدونية تكملة إيروسية للشعور بالدونية الأخلاقية. غير أننا لم نولِ اهتماماً كبيراً في التحليل النفسي لمشكلة تمايز هذه المفاهيم وتعيين حدودها.

٣ ـ يغمز فرويد هنا، بطبيعة الحال، من قناة تلميذه المنشق عنه، ألفريد آدلر الذي كان سباقاً إلى القول بعقدة الدونية، أو عقدة النقص كما هو شائع بالعربية. «م».

وما تحظى به عقدة النقص والدونية من شعبية هو ما سيحملني هنا على استطراد طفيف. فثمة شخصية تاريخية معاصرة، لا تزال على قيد الحياة وإن توارت عن مسرح الأحداث، تعاني نمواً شائهاً في أحد أطرافها من جراء إصابة عند الولادة. وقد روى كاتب معاصر، له ولع بكتابة سِيَر المشاهير، حياة الرجل المشار إليه(٤). والحق أنه يعزّ على الكاتب، حين يتصدى لكتابة سيرة حياة، أن يقمع النزعة التي تعتمل بين جوانحه إلى سلوك النهج السيكولوجي في الدراسة. وعلى هذا، حاول كاتبنا أن يعزو خُلُق بطله وطبعه إلى الشعور بالدونية الذي لا بدّ أن يكون نجم عن عاهته الجسمانية(٥). غير أن كاتبنا غفل عن واقعة طفيفة لكنها ليست عديمة الأهمية. ذلك أنه عندما تشاء الأقدار أن تنجب الأم ولداً سقيماً أو ذا عاهة، فإن هذه الأم تسعى في العادة إلى تعويض الطفل عن هذه المظلمة بإغداقها عليه فيض حبّها. غير أن الأم، في الحالة التي نحن بصددها، كانت متكبرة، فسلكت عكس هذا المسلك، وضنّت بحبها على ولدها لما به من عاهة. فلما شبّ الطفل عن الطوق وصار رجلاً ذا نفوذ وسلطان، أثبت بأفعاله أنه لم يغفر لأمه قط. وهكذا إذا تذكرتم مدى أهمية حبّ الأم بالنسبة إلى الطفل، فلن يشقّ عليكم أن تصححوا بالفكر نظرية الدونية التي قال بها واضع السيرة.

لنعد إلى الأنا الأعلى! فقد أسندنا إليه فعل مراقبة الذات، والضمير، ووظيفة المثال. وما قلناه عن تكوينه يدلّ أنه مشروط بواقعة بيولوجية هائلة الأثر، وبواقعة سيكولوجية فاصلة الأهمية: أعني بهما من ناحية أولى التبعية الطويلة الأمد التي يكون عليها الطفل إزاء والديه، ومن ناحية ثانية عقدة أوديب، علماً بأن هاتين الواقعتين مترابطتان بدورهما بأوثق العرى. إن الأنا الأعلى يمثّل القيود الأخلاقية جميعاً، وكذلك الصبوّ إلى الكمال، وبالاختصار، كل ما نتصوره الآن من

---

٤ ـ الإحالة الضمنية هنا إلى السيرة التي كتبها إميل لودفيغ عن الأمبراطور البروسي غليوم الثاني (١٨٥٨ ـ ١٩٤١). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥ ـ نتيجة لولادة عسيرة كان غليوم الثاني يعاني من ضمور في الذراع اليسرى ومن خرع في عظم الركبة. «م».

الناحية السيكولوجية على أنه شطر من أسمى ما في الحياة الإنسانية. ولن يتأتى لنا أن نفهم دلالة الأنا الأعلى وأهميته على الوجه الحق إلا إذا توجهنا إلى المصادر التي ينبع منها. والحال أننا نعلم أن الأنا الأعلى ينشأ عن التأثير الذي يمارسه الوالدان، والمربون، إلخ. وبوجه عام يتقيد هؤلاء، في تربية أطفالهم، بتعليمات أناهم الأعلى الخاص. فأياً تكن طبيعة الصراع الدائر بين أناهم وأناهم الأعلى، نجدهم يبدون صرامة وتشدداً في موقفهم من الطفل. فهم قد نسوا الصعاب التي اصطدموا بها في طفولتهم، وبات يطيب لهم أن يتمكنوا الآن من التماهي مع والدِيهم تماهياً تاماً بعد أن كان هؤلاء الوالدون قد فرضوا عليهم في صغرهم قيوداً قاسية. إذاً فالأنا الأعلى عند الطفل لا يتكون على صورة الوالدَين، بل على صورة أناهما الأعلى؛ فهو يمتلئ بالمضمون عينه، ويغدو ممثلاً للتقاليد ولجميع الأحكام القيَمية المتناقلة على هذا النحو عبر الأجيال. ولا يشقّ عليكم أن تدركوا أن معرفتنا بالدور الذي يضطلع به الأنا الأعلى تيسِّر علينا فهم السلوك الاجتماعي للإنسان، كما في حالات الجنوح على سبيل المثال. ولربما تهيأ لنا أيضاً أن نصير مربين جيدين. وأرجح الظن أن قصور تفاسير التاريخ التي تسمى بالمادية يرجع إلى إهمالها هذا العامل. فهي تنحّيه جانباً بحجّة أن «إيديولوجيات» البشر ما هي إلا نتائج وبنى فوقية لشروطهم الاقتصادية الراهنة. وهذا حقّ، لكنه في أكبر الظن ليس الحقّ كله. فالبشرية لا تعيش في الحاضر فقط؛ بل إن ماضي العروق والشعوب وتقاليدها تبقى مستمرة في إيديولوجيات الأنا الأعلى. وهذه التقاليد لا تتأثر إلا ببطء بالحاضر وصروفه؛ وما دامت تفعل فعلها عبر الأنا الأعلى فإنها تظل تضطلع بدور هام في الحياة الإنسانية، مستقل عن الشروط الاقتصادية.

لقد حاولت في عام ١٩٢١ أن أطبِّق هذا التمييز بين الأنا والأنا الأعلى في دراسة السيكولوجيا الجماعية[٦]، وتوصلت إلى الاستنتاج التالي: إن الجمع السيكولوجي اتحاد من أفراد نصبوا في أناهم الأعلى شخصاً واحداً؛ وبفضل هذه السمة المشتركة تماهوا بعضهم مع بعض في أناهم. وهذه الصيغة لا تصدق

٦ - يشير فرويد هنا إلى تعليقه على كتاب غوستاف لوبون الشهير: **سيكولوجيا الجموع**، انظر ترجمتنا لدراسة فرويد في: **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**. «م».

بطبيعة الحال إلا على الجموع التي لها زعيم. ولو تسنى لنا عدد أكبر من الأمثلة من هذا النوع لتجرَّد مفهوم الأنا الأعلى في نظرنا من البقية الباقية من غرابته التي تفجؤنا في كل مرة ننفذ فيها إلى الطبقات العليا، والأكثر سطحية، من الجهاز النفسي، نحن الذين ألفنا أجواء طبقاته الدنيا. وغني عن البيان أننا لا نعتقد أننا قلنا الكلمة الأخيرة في سيكولوجيا الأنا لمجرد أننا حددنا سمات الأنا الأعلى. فنحن ما زلنا بالأحرى في مستهل دراستنا؛ وفي الحالة التي نحن بصددها فإن الخطوة الأولى ليست هي وحدها الصعبة.

على أنه يبقى علينا أن نحلّ معضلة أخرى تقع في القطب المقابل للأنا (إن جاز لنا التعبير). وتملي علينا القيام بهذه المهمة ملاحظة عرضت لنا في أثناء العمل التحليلي، وهي في الحق ملاحظة قديمة للغاية. إذ، كما يحدث غالباً، تصرّم وقت طويل قبل أن نعقد العزم على أن نأخذ بعين الاعتبار الكامل الواقعة المشار إليها. إن نظرية التحليل النفسي مبنية برمَّتها، كما تعلمون، على إدراك المقاومة التي يواجهنا بها المريض حين نحاول أن نجعل لاشعوره شعورياً. وتتجلى المقاومة لدى المريض إما موضوعياً في شكل نضوب في الخواطر أو توارد خواطر لا صلة لها بالموضوع المعالج، وإما ذاتياً في شكل مشاعر أليمة تنتاب المريض حالما نمسّ هذا الموضوع. غير أن هذا المؤشِّر الأخير قد يغيب عن الوجود. وعندئذ نقول للمريض إن سلوكه يحضّنا على أن نستنتج وجود مقاومة. فيجيبنا أنه يجهل بها جهلاً مطبقاً، وهذا ما يدلّ أننا كنا على حقٍّ، ولكن كل ما في الأمر أن المقاومة لاشعورية، مثلها مثل المكبوت الذي نحاول فكّ أسره. فمن أي شطر من حياته النفسية تنبع إذاً هذه المقاومة اللاشعورية؟ لعلكم قائلون إنه كان يتعيَّن علينا أن نطرح هذا السؤال من زمن بعيد، وإن كل مبتدئ في التحليل النفسي لن يتوانى عن الإجابة بأن هذه المقاومة هي بالتعيين مقاومة اللاشعور. غير أن هذا جواب ملتبس ولا جدوى تجتدى منه! فهل المقصود أن المقاومة تنبع من المكبوت؟ بالتأكيد لا. فنحن سنعزو بالأحرى إلى المكبوت توتراً قوياً يدفع به صُعُداً إلى السطح وصولاً إلى الشعور. والحق أن الأنا هو الذي يفصح عن نفسه في المقاومة، هذا الأنا الذي كان وُفِّق فيما مضى في عملية الكبت، فهو لا يرضى

الآن بفكّ أسر المكبوت. هذا ما كانه تصورنا دوماً. وما دمنا قد سلّمنا بوجود هيئة خاصة في الأنا، تتولى التقييد والحظر، هي الأنا الأعلى، فمن المباح لنا أن نقول إن الكبت هو من صنع هذا الأنا الأعلى، سواء تولى ذلك هو نفسه، أو كلّف به الأنا المطيع لأوامره. وقد لا يتنبّه المريض في أثناء التحليل لوجود المقاومة التي تفعل فعلها، وذلك إما لأن الأنا والأنا الأعلى يعملان في بعض الظروف الخطيرة من دون أن يعي الشخص المعني عملهما هذا، وإما ـ وهذا أهمّ وأبعد دلالة ـ لأن بعض أجزاء الأنا والأنا الأعلى تبقى هي ذاتها لاشعورية. وفي الحالتين كلتيهما نلاحظ بغير ما ابتهاج أن الأنا (الأعلى) وما هو شعوري من جهة أخرى، والمكبوت وما هو لاشعوري من الجهة الثانية، لا يتطابقان البتة.

سيداتي سادتي، أشعر الآن بالحاجة إلى التوقف هنيهة بغية تمالك أنفاسي، وأني لأعتذر لكم عن ذلك مع علمي أنكم ترحّبون أنتم أنفسكم بمثل هذه الوقفة. إني أتطلع هنا إلى أن أكمل ذلك المدخل إلى التحليل النفسي الذي كنت قد بدأته قبل خمسة عشر عاماً[٧]، وإني لمضطر أن أتصرف كما لو أنكم لم تشغلوا أنفسكم بغير التحليل النفسي طوال هذه المدة المنصرمة. وهذا ـ أنا أعلم ذلك ـ افتراض غير مسوغ ولا يمكن الأخذ به، لكني لا أستطيع مع الأسف أن أسلك غير هذا المسلك، والسبب في ذلك في ما أعتقد أنه من العسير للغاية أن نبصِّر بالتحليل النفسي من لا صلة لهم به. صحيح أننا لا نريد أن يدخل في روع الناس أننا أتباع علم من العلوم السرية، لكننا وجدنا أنفسنا مكرهين على أن نعلن وننشر على الملأ أنه لا يجوز لأحد أن يدسّ أنفه في شؤون التحليل النفسي ما لم تتوفر له أولاً معلومات معيَّنة عنه، لا سبيل إلى الظفر بها إلا إذا حلَّل نفسه بنفسه. وقد حاولت في محاضراتي، قبل خمسة عشر عاماً، أن أعفيكم من بعض النواحي المجرَّدة في نظريتنا؛ والحال أن المعطيات الجديدة التي سأحدِّثكم عنها اليوم ترتبط تحديداً بتلك التأملات المجردة.

لنرجع إلى موضوعنا. هل الأنا والأنا الأعلى نفسهما لاشعوريان، أم أن

٧ ـ أي **المحاضرات التمهيدية في التحليل النفسي**. «م».

نتاجهما هو وحده اللاشعوري؟ ذلك هو الإحراج الذي كنا وقفنا أمامه مترددين. وقد حسمنا المسألة لصالح الفرضية الأولى. أجل، إن شطراً واسعاً من الأنا والأنا الأعلى يمكن أن يبقى، وهو يبقى بالفعل، في الحالات العادية لاشعورياً؛ فالشخص المعني لا يعرف شيئاً البتة عن مضمونهما، ولا بدّ من بذل مجهود كبير ليتعرفهما على حقيقتهما. وقد يتفق أحياناً ألا يتطابق الأنا أو المكبوت وما هو لاشعوري. وبذلك نجدنا مكرهين على إعادة النظر في كامل تصوراتنا عن مشكلة الشعور/ اللاشعور. وقد نجنح أول الأمر إلى التخفيض خفضاً شديداً من القيمة المعيارية لما هو شعوري، ما دام اتضح أن هذا المعيار لا يركن إليه. غير أننا نرتكب بذلك خطأ، إذ مثل ذلك كمثل حياتنا؛ فالحياة لا قيمة كبيرة لها. لكنها كل ما نملك. ولولا البصيص الذي يمدّنا به الشعور لتهنا في دياميس علم نفس الأعماق؛ ومع ذلك، بوسعنا أن نحاول سلوك اتجاه جديد مغاير.

إن ما يتوجب علينا أن نسمّيه بالشعور لا نحتاج إلى أن نتخذه موضوعاً للنقاش، فهو خارج مجال أي شك. أما أقدم مدلول وأحسنه لكلمة «اللاشعور» فهو المدلول الوصفي؛ فنحن نطلق صفة اللاشعور على كل سيرورة نفسية نجهل عنها كل شيء على الرغم من أنها تجري داخل نفوسنا، ولا نستدل على وجودها إلا من تظاهراتها. وموقفنا حيالها كموقفنا من الظاهرة النفسية التي قد نلحظ حدوثها لدى إنسان آخر. وإن أردنا أن نكون أدنى إلى الدقة، يتعيَّن علينا أن نعدِّل هذا التعريف بقولنا إننا نطلق صفة اللاشعور على كل سيرورة نسلِّم بأنها ناشطة **حالياً**، من دون أن نعلم **في الوقت نفسه** أي شيء عنها. ويعيد هذا التقييد إلى أذهاننا أن معظم السيرورات الشعورية لا تكون شعورية حقاً إلا لأجل وجيز جداً من الزمن؛ إذ سرعان ما تغدو **كامنة**، وإن ظل متاحاً لها أن تصبح من جديد شعورية. وكنا نستطيع على هذا الأساس أن نقول إنها غدت لاشعورية لو كنا على يقين من أنها حافظت، في حالة الكمون تلك، على شيء من مواصفاتها النفسية. ولحدّ الآن لم نتعلم شيئاً جديداً، كما أنه ما من شيء يأذن لنا بأن ندرج في علم النفس مفهوم اللاشعور هذا. لكن إلى ذلك تنضاف أيضاً الخبرة الجديدة التي تتحصل لنا من دراسة الهفوات Actes manqués. لنفرض

أن شخصاً من الأشخاص تورّط في فلتة لسان Lapsus Linguae، فنحن ملزمون في هذه الحال بأن نسلّم بأن هذه الغلطة تنمّ لدى هذا الشخص عن قصد قولي؛ ومن دون أن نجازف بارتكاب خطأ نستطيع أن نحزر طبيعة هذا القصد من خلال التشويش الذي طرأ على القول نفسه؛ ولكن بما أن هذا القصد لم يستطع أن يفرض نفسه فقد بقي بالتالي لاشعورياً. فإن كاشفْنا الشخص المعني بهذا القصد، كنا أمام واحد من احتمالين: فإما أن يقرّ به فنستنتج من ذلك أنه كان لاشعورياً بصورة مؤقتة فحسب، وإما أن ينكره كما لو أنه غريب عنه، ومن ثم يكون لاشعورياً بالنسبة إليه بصفة مستديمة. وتتيح لنا هذه الخبرة أن ننعت باللاشعوري ما كنا وصفناه بادئ الأمر بأنه كامن. فإن أخذنا في اعتبارنا هذه الشروط الدينامية، ميّزنا بين ضربين من اللاشعور: ضرب قابل في أغلب الأحوال لأن يصير شعورياً، وضرب لا يصيبه هذا التبدُّل إلا بعد لأي وعناء كبيرين، وقد لا يصيبه إطلاقاً. وتحاشياً لكل لبس، وإشارة واضحة منا إلى أي من اللاشعورين نقصد، وهل نستخدم هذا المصطلح بمعناه الدينامي أو بمعناه الوصفي، سنلجأ إلى حيلة بسيطة ولا غبار عليها. إذ سنطلق اسم «القبشعور»[٨] على اللاشعور الذي هو كامن فحسب، وسنخصّ الآخر باسم «اللاشعور». وعلى هذا، لن نستخدم سوى ثلاثة مصطلحات: الشعور والقبشعور واللاشعور، وهي تكفي لوصف الظاهرات النفسية قاطبة. ولنكرر القول ثانية بأن القبشعور مكافئ من وجهة النظر الوصفية الخالصة للاشعور، لكننا لا نطلق عليه اسم اللاشعور إلا عندما لا نتقيّد بالدقة في التعبير أو إلا عندما يكون هدفنا مجرد الدفاع عن وجود سيرورات لاشعورية في الحياة النفسية.

آمل أن تقرّوا بأن كل ما ذكرته لكم ليس عويصاً إلى حدّ لا يطاق، وأنه يتيح لنا أن نتصدى لدراسة المسألة على نحو واضح وملائم. غير أن التحليل النفسي اضطر، مع الأسف، إلى استخدام كلمة اللاشعور بمعنى ثالث أيضاً، مما ترتب عليه ـ لنعترف بذلك ـ قدر من اللبس. فتحت وقع كشف التحليل النفسي الجديد عن أن مضماراً واسعاً وهاماً من الحياة النفسية لا يقع في العادة في متناول معرفة الأنا، وأن

---

٨ ـ اختصار دمجي لـ «ما قبل الشعور». «م».

السيرورات التي تجري في هذا المضمار يجب أن تعتبر لاشعورية بالمعنى الدينامي الحقيقي للكلمة، جعلنا أيضاً لمصطلح «اللاشعور» معنى مناطقياً أو نسقياً. وهكذا تكلمنا عن نسق القبشعور واللاشعور، وعن صراع بين الأنا وبين النسق اللاشعوري، وأعطينا هذه الكلمة أكثر فأكثر مدلول مضمار نفسي أو إقليم نفسي أكثر مما تعبر عن سمة من سمات الحياة النفسية أو صفة من صفاتها. ولئن أربكنا في أول الأمر اكتشافنا أن بعض أجزاء الأنا والأنا الأعلى لاشعورية، بالمعنى الدينامي للكلمة، فقد سلّمنا لاحقاً بأن هذا الاكتشاف ييسّر علينا الأمور تيسيراً كبيراً ويتيح لنا في هذه الحال أن نتحاشى تعقيداً بعينه. فغنيّ عن البيان أنه لا يحقّ لنا البتة أن نطلق صفة اللاشعوري على المضمار النفسي الغريب عن الأنا ما دامت الحالة اللاشعورية ليست صفته الحصرية. وعليه، لن نعود إلى استخدام كلمة اللاشعور بالمعنى النسقي، وسنطلق على ما كنا سمّيناه بهذه التسمية اسماً أنسب وأصلح وأقلّ مدعاة لسوء الفهم. إننا سنسمّيه من الآن فصاعداً **الهذا**[٩]، استناداً إلى توظيف نيتشه للغة[١٠] ونقلاً عن ملاحظة أبداها ج. غرودك Groddeck[١١]، لأن هذا الضمير اللاشخصي يبدو لنا قميناً بالتعبير أحسن التعبير عن الطابع الغالب لذلك المضمار النفسي الغريب إلى أبعد حدود الغربة عن الأنا. وهكذا، إن الأنا الأعلى والأنا والهذا هي الممالك أو الأقاليم أو المناطق الثلاث التي نوزّع بينها الجهاز النفسي للفرد؛ وسنعكف فيما يلي على دراسة العلاقات المتبادلة بينها.

لكن لنفتح هنا لهنيهة قوسين. فأنا أتكهن أنه قد ساءكم ألا تتوصل الصفات الثلاث للحالة الشعورية والأقاليم الثلاثة للجهاز النفسي إلى تشكيل ثلاثة أزواج

٩ - بالألمانية Es، وقد ترجم إلى الإنكليزية Id وإلى الفرنسية Le Ça. وقد ترجمه بعضهم إلى العربية بـ«الهو» أو «الهي». وقد آثرنا نحن «الهذا» لتجرُّده من الصفة الشخصية. «م».

١٠ - لقد تميز الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) بمداورته الخاصة للغة الفلسفية الألمانية، ومن قبيل ذلك تمييزه بين «الأنا» و«الذات» وكلامه عن غزو للأول من قبل الثاني. وهذا ما أباح لفرويد بدوره أن يؤسس جدلية «الأنا» و«الهذا». «م».

١١ - جورج غرودك: طبيب ومعالج نفسي ألماني (١٨٦٦ - ١٩٣٤). لم ينتمِ إلى الحلقة التحليلية النفسية الأولى، لكن فرويد هو نفسه من وصفه بأنه «محلل نفسي يعزّ نظيره». وقد وصف غرودك نفسه بنفسه في مؤتمر لاهاي للتحليل النفسي عام ١٩٢٠ بأنه «محلل نفسي متوحّد». وكان سباقاً إلى مداورة مصطلح «الهذا» في كتابه الصادر عام ١٩٢١ بعنوان **كتاب الهذا**. «م».

متطامنة، وأنكم ترون إلى ذلك على أنه نقطة سوداء في نتائجنا. غير أني أعتقد أنه لا داعي لأن نأسف على شيء، وأضيف أن لا شيء يأذن لنا أصلاً بأن نتوقع وجود ترتيب محكم بسيط كذاك. اسمحوا لي بأن ألجأ هنا إلى تشبيه؛ فالتشابيه تيسّر علينا أمورنا أحياناً، وإن كانت لا تكفي لبيان الحقيقة. أتخيَّل إذاً بلداً متنوع التضاريس: ففيه تلال وسهول وبحيرات؛ وسكانه يتألفون من ألمان ومجريين وسلوفاكيين ويمارسون مهناً وأعمالاً شتى. ولنفرض أيضاً أن الألمان يربون الماشية ويعيشون في التلال، وأن المجريين زراع وكرّامون ويعيشون في السهل، وأن السلوفاكيين صيادون للسمك وجدّالون للقصب ويعيشون على ضفاف البحيرات. ومثل هذا التوزيع الجليّ الدقيق كان من شأنه أن يبعث الغبطة في قلب شخص كالرئيس ويلسون[١٢]؛ كما أنه قمين بتسهيل تدريس الجغرافية. لكنكم لو زرتم البلد لوجدتموه في أرجح الظن أقل تساوقاً وأكثر تداخلاً. فالألمان والمجريون والسلوفاكيون يعيشون مختلطين في بعض المناطق، وقد توجد في التلال أراضٍ محروثة، وفي السهول مراعٍ للماشية. وبديهي أن توقُّعكم لن يخيب بصدد بعض الأشياء: فالسمك لا يصطّاد في الجبال، والكرمة لا تنمو في الماء. وعلى هذا، إن وصف البلد، حتى ولو صحّ في جملته، لا مناص من تعديله من حيث التفاصيل.

لا تنتظروا مني أن أقدِّم لكم عن الهذا تفاصيل جديدة كثيرة، خلا اسمه. فهو الشطر الغامض، المستغلق، من شخصيتنا. والقليل الذي نعرفه عنه استقيناه من دراستنا عمل الحلم وتكوين العرض الهستيري. هذا القليل ذو طابع سلبي، إذ لا سبيل إلى وصف الهذا إلا من خلال مباينته للأنا. وبعض التشابيه هي وحدها التي تتيح لنا أن نكوّن فكرة عنه، فنسمِّيه سديماً، مرجلاً يغلي بالانفعالات. وإننا لنتصوره متصلاً في جانب منه بالبدن، يستقي منه الحاجات الغريزية فيعطيها

١٢ ـ توماس وودرو ويلسون: سياسي أمريكي (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤). رئيس الولايات المتحدة سنة ١٩١٣، وقد أعيد انتخابه سنة ١٩١٦، وقرر دخول بلاده الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء. حاول أن يبني معاهدة السلام على النقاط الأربع عشرة المشهورة التي نادى بها وعلى أساس حق الشعوب في تقرير مصيرها. ولفرويد، بالمشاركة مع وليم بوليت، دراسة عنه بعنوان: **توماس وودرو ويلسون، الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأميركية. دراسة سيكولوجية**. «م».

تعبيرها النفسي، ولكننا لا نستطيع أن نحدد أين يتمّ ذلك. والدوافع الغريزية تشحنه بالطاقة، ولكنه لا ينمّ هو نفسه عن أي تنظيم أو إرادة عامة؛ إنما ينزع فقط إلى إشباع الحاجات الغريزية بحسب مبدأ اللذة. ولا تخضع السيرورات التي تدور في الهذا لقوانين الفكر المنطقية، وعلى الأخص منها مبدأ عدم التناقض. فالحاثّات المتناقضة تقيم فيه جنباً إلى جنب من دون أن تتنافى ومن دون أن ينسحب بعضها لصالح بعضها الآخر. وكل ما هنالك أن في استطاعتها أن تسهم، تحت الضغط الاقتصادي الغالب، في تحويل اتجاه الطاقة نحو تشكيلات يتمّ تكوينها على أساس تسوية ودية. وليس في الهذا شيء قريب الصلة بالنفي؛ وقد يدهشنا أن نلحظ أن المسلّمة العزيزة على قلوب الفلاسفة، والقائلة إن المكان والزمان شكلان إلزاميان لأفعالنا النفسية، لا يسري مفعولها هنا. فليس في الهذا شيء يناظر مفهوم الزمان، وليس فيه ما يشير إلى تصرم الزمان، والأغرب من ذلك كله وما يقتضي دراسة من وجهة النظر النفسية أن السيرورات النفسية لا يغيِّر فيها شيئاً مرورُ الزمن. فالرغبات التي لم تبزغ قط خارج الهذا، وكذلك الانطباعات التي لبثت دفينة فيه من جراء الكبت، يُرجَّح أنها لا تفنى أبداً وأنها تبقى على ما هي عليه مهما مرّ عليها من الزمن. والعمل التحليلي هو وحده الذي يتوصل، باستدراجه إياها إلى الشعور، إلى تحديد موقعها من الماضي وإلى تجريدها من شحنتها من الطاقة؛ وإنما على هذه النتيجة تحديداً يتوقف المفعول العلاجي للتحليل.

إنه ليساورني هنا أيضاً الشعور بأننا لم نستغل استغلالاً كافياً لصالح نظريتنا هذه الواقعة التي لا سبيل إلى المماراة فيها: ثبات المكبوت وعدم قابليته للتحوُّل تحت ضغط الزمن. مع أنه هنا تحديداً يبدو أنه ينفتح أمامنا طريق إلى النفاذ إلى أعمق الحقائق. غير أني، ويا للأسف، لم أفلح أنا الآخر في التوغل إلى أبعد مما توغلت.

من نافل القول أن الهذا يجهل أحكام القيمة، والخير والشر، والأخلاق. فالسيرورات جميعها يهيمن عليها العامل الاقتصادي، أو الكمّي إن شئتم، المرتبط بوثيق العرى بمبدأ اللذة. وفي رأينا أن جميع التوظيفات الغريزية، التي تلتمس

التصريف، مقرها في الهذا. بل يبدو أن طاقة هذه الحاثات الغريزية تختلف حالتها عن حالة الطاقة في الدوائر النفسية الأخرى، أي أنها قابلة بسهولة أكبر للتحول وللتصريف. وإلا فكيف لنا أن نفسّر ضروب «النقل» و«الإزاحة» و«التكثيف» التي يتميّز بها الهذا والتي تكون مستقلة أتم الاستقلال عن صفة الأشياء المشحونة بالطاقة (لو كان الأمر يتعلق بالأنا لتكلمنا عن تمثُّلات)؟ ألا كم نودّ ونتمنى لو كان في مستطاعنا أن نفهم هذه الأمور فهماً أفضل وأكثر استيعاباً! ومع هذا فأنتم تلاحظون أننا لا نكتفي بأن نقول إن الهذا لاشعوري، إذ يسعنا أن نتقرّى فيه صفات أخرى بعد. ولعلكم تستشفّون أنه توجد في الأنا والأنا الأعلى أيضاً أجزاء لاشعورية، ولكنها ليست بدائية ولاعقلانية نظير تلك التي تكلمنا عنها للتو. أما فيما يتصل بخصائص الأنا حصراً، بقدر ما يتاح له أن يكون منفصلاً عن الهذا والأنا الأعلى، فلا سبيل لنا إلى معرفتها إلا بدراسة صلاته بالشطر السطحي من الجهاز النفسي، أي ما نسمّيه بالنسق الإدراكي الشعوري. فهذا النظام متجه نحو العالم الخارجي، ويتولى نقل الانطباعات الواردة منه، وفي أثناء اشتغاله وأدائه لوظائفه تحدث ظاهرة الوعي. فهو العضو الحواسي للجهاز كله، إذ يستقبل لا التنبيهات الخارجية المصدر فحسب، بل كذلك التنبيهات الداخلية المصدر، أي تلك الآتية من الحياة النفسية. هل من حاجة لأن نشرح أن الأنا هو ذلك الجزء من الهذا الذي طرأ عليه تعديل وتحوير بحكم مجاورته للعالم الخارجي وتأثره به، وتنظّم على نحو يمكنه معه أن يستقبل التنبيهات وأن يتّقي شرها عند الاقتضاء، مثله في ذلك مثل القشرة اللحائية التي تغلِّف بها جزيئة صغيرة من المادة الحيّة نفسها؟ لقد أصبحت الصلة بالعالم الخارجي ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى الأنا؛ فوظيفة الأنا أن يمثّل هذا العالم لدى الهذا، وذلك لصالح هذا الأخير. وبالفعل، لولا الأنا، لتحطم الهذا، المندفع اندفاعاً أعمى نحو الإشباع الغريزي، على صخرة تلك القوة الخارجية البالغة العنف. ويقع على عاتق الأنا، بحكم وظيفته، أن يراقب العالم الخارجي، وأن يكوّن عنه فكرة صحيحة، وأن يحفظ هذه الصورة في الآثار الذاكرية لإدراكاته. ويتعيَّن عليه أيضاً، بالاستناد إلى امتحان الواقع، أن يستبعد كل ما من شأنه، في

صورة العالم الخارجي هذه، أن يضخِّم المصادر الداخلية للتنبيه والإثارة. وبتفويض من الهذا، يضع الأنا منافذ الاستطاعة الحركية تحت إشرافه، لكنه يجعل بين الرغبة والفعل فاصلاً زمنياً ضرورياً للتفكير، فيستغل في أثنائه الرسابات الذاكرية المتخلفة عن الخبرة والتجربة. وعلى هذا النحو يخلع الأنا مبدأ اللذة، الذي يهيمن على السيرورات في الهذا هيمنة مطلقة، عن العرش الذي كان يتربع عليه، ويستبدله بمبدأ الواقع الأقدر منه على ضمان الأمن والنجاح.

أضف إلى ذلك أنه بفضل النسق الإدراكي تقوم بين الأنا والزمن تلك العلاقة التي يعسر كل العسر وصفها؛ فأكبر الظن أن طريقة عمل هذا النسق هي المصدر الذي تنشأ عنه فكرة الزمن. غير أن أخصّ ما يميِّز الأنا عن الهذا نزوعه إلى تركيب مضامينه والتأليف بينها وإلى تركيز سيروراته النفسية وتأحيد نمطها، وهذا ما يعجز عنه الهذا عجزاً مطلقاً. وآمل أن نوفَّق، عندما سنتصدى في محاضرتنا التالية لموضوع الدوافع الغريزية في الحياة النفسية، إلى كشف أصل هذه الخاصية الرئيسية من خصائص الأنا، وهي الخاصية التي يدين لها بالدرجة الرفيعة من التنظيم الضرورية لخير تظاهراته[١٣]. فالأنا ينمو ويتطور بدءاً من إدراك الدوافع الغريزية وانتهاء بالسيطرة عليها، لكنه لا يصل إلى هذه السيطرة إلا إذا استطاع إدراج ممثل الدوافع الغريزية في سياق أكبر ودمجه في تنظيم أشمل. وإن شئنا استخدام تعابير اللغة الدارجة قلنا إن الأنا يمثل في الحياة النفسية العقل والفطنة، بينما يمثل الهذا الأهواء المنفلتة من عقالها.

لقد انشغلنا حتى الآن بتعداد امتيازات الأنا وقدراته، وقد آن الأوان لنرى إلى الوجه الآخر من الصورة. فما الأنا، بالفعل، إلا جزء من الهذا؛ جزء طرأ عليه، بحكم مجاورته للعالم الخارجي الخطِر والمهدِّد، تعديل مناسب. وقد استمد الأنا، الضعيف من وجهة النظر الدينامية، طاقته من الهذا، ونحن نعلم ما السبل ـ ونكاد نقول ما الحيل ـ التي يتوصل بها إلى تجريد الهذا من مقادير أخرى من طاقته. ونذكر في عداد الوسائل التي يلجأ إليها التماهي مع مواضيع محافظ عليها أو مهجورة. فالتوظيفات

١٣ ـ الواقع أن فرويد سها في محاضراته التالية عن الوفاء بوعده هذا. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

الموضوعانية[١٤] تصدر عن مطالب الهذا الغريزية، وأول ما يتوجب على الأنا عمله هو تسجيل هذه التوظيفات؛ لكنه حين يتماهى مع الموضوع يمْثُل بدلاً منه أمام الهذا ويرنو إلى الاستئثار بطاقته الليبيدوية واحتكارها لنفسه. ونحن نعلم من قبل أن الأنا يستحوذ على هذا النحو، في مجرى حياة الفرد، على عدد كبير من رسابات التوظيفات الموضوعانية القديمة. وخلاصة القول: إن الأنا يتعيَّن عليه أن يحقق مقاصد الهذا، وهو يؤدي وظيفته على خير وجه حينما يتوصل إلى كشف الظروف الموائمة لتحقيق هذه المقاصد. ومن الممكن تشبيه علاقة الأنا بالهذا بعلاقة الفارس بمطيّته. فالحصان يقدِّم الطاقة اللازمة للتحرك، ومهمة الفارس أن يعيِّن الهدف المطلوب إدراكه وأن يوجِّه حركة الحيوان القوي نحو هذا الهدف. على أن العلاقة بين الأنا والهذا ليست على الدوام بالمثلى، وغالباً ما قد يضطر الفارس إلى أن يتجه حيثما يطيب لمطيّته أن تقوده.

إن الأنا ينفصل عن شطر من الهذا بفعل مقاومات الكبت؛ غير أن نطاق الكبت لا يمتدّ إلى الهذا، ومن ثم يتداخل المكبوت مع بقية الهذا ويختلط به.

ثمة قول سائر يزجر الإنسان عن خدمة سيدين في آن واحد. والأمر أدهى بكثير بالنسبة إلى الأنا، إذ إنه مضطر إلى أن يخدم ثلاثة من السادة العتاة، وهو يبذل قصاراه للتوفيق بين مطالبهم. وهذه المطالب متناقضة دوماً، وكثيراً ما يبدو التوفيق بينها مستحيلاً؛ فلا غرو بالتالي إن أخفق الأنا مراراً وتكراراً في مهمته. هؤلاء المستبدون الثلاثة هم العالم الخارجي والأنا الأعلى والهذا. وحين نعاين ما يبذله الأنا من جهود ليعدل بين الثلاثة معاً، أو بالأصح ليطيعهم جميعهم، لا نستطيع أن نأسف على كوننا جسّمنا هذا الأنا وأقررنا له بوجود مستقل بذاته. إنه يشعر بأنه واقع تحت الضغط من نواح ثلاث، وأنه عرضة لثلاثة أخطار متباينة يردّ عليها، في حال تضايقه، بتوليد الحصَر. وبما أنه ينشأ أصلاً عن تجارب النسق الإدراكي، فهو مدعو إلى تمثيل مطالب العالم الخارجي؛ غير أنه يحرص مع ذلك على أن يبقى خادماً وفياً للهذا، وأن يقيم وإياه على تفاهم ووفاق، وأن ينزل في نظره منزلة الموضوع، وأن يجتذب إليه طاقته

١٤ ـ الموضوعانية لا تعني هنا نقيض ما هو ذاتي، أي Objective، بل هي الصفة المنسوبة إلى الموضوع، وبالتحديد موضوع الحب والدافع الغريزي، أي Objectale. «م».

الليبيدوية. وكثيراً ما يرى نفسه مضطراً، في مجهوده للتوسط بين الهذا والواقع، إلى التستر على التطلّبات اللاشعورية الصادرة عن الهذا بتبريرات قبشعورية، وإلى التخفيف من حدّة المجابهة بين الهذا والواقع، وإلى سلوك طريق الرياء الدبلوماسي والتظاهر بأخذ الواقع بعين الاعتبار، حتى وإن بقي الهذا على تصلّبه وتعنته. ومن جهة أخرى، إن الأنا الأعلى الصارم لا يفتأ يراقب الأنا ويرصد حركاته، ويفرض قواعد معيّنة لسلوكه من دون أن يلقي بالاً إلى الصعاب التي يقيمها في وجهه الهذا والعالم الخارجي. وإن اتفق للأنا أن عصى أوامر الأنا الأعلى، عاقبه هذا الأخير بما يفرضه عليه من مشاعر أليمة بالدونية والذنب. على هذا النحو يكافح الأنا، الواقع تحت ضغط الهذا والرازح تحت نير اضطهاد الأنا الأعلى والمصدود من قبل الواقع، يكافح لإنجاز مهمته الاقتصادية ولإعادة التساوق بين مختلف القوى الفاعلة فيه والمؤثرات الواقعة عليه. ومن هنا نفهم لماذا يجد الواحد منا نفسه مكرهاً في كثير من الأحيان على أن يهتف بينه وبين نفسه: «آه، ليست الحياة سهلة!». والأنا، متى ما أكره على الاعتراف بضعفه، استولى عليه الذعر: خوف فعلي حيال العالم الخارجي، مخاوف ضميرية حيال الأنا الأعلى، قلق عصابي حيال قوة الأهواء في الهذا.

هذه العلاقات البنيوية للشخصية النفسية كما عرضتها أمامكم بودّي أن أقدِّمها لكم أدناه في شكل رسم توضيحي بسيط:

تلاحظون من هذا الرسم أن الأنا الأعلى غائص في الهذا؛ وبالفعل، إنه مكره، باعتباره وريث عقدة أوديب، على أن يقيم معه علاقات حميمة. وهو أنأى من الأنا عن النسق الإدراكي. أما الهذا فلا يتصل بالعالم الخارجي إلا بوساطة الأنا، وعلى الأقل في هذا الرسم البياني. ولا يزال يشقّ علينا حتى يومنا هذا أن نقول ما إذا كان هذا الرسم يطابق الواقع حقاً. وهو غير صحيح قطعاً في نقطة واحدة من نقاطه على كل حال، إذ إن المساحة التي يشغلها الهذا كان ينبغي أن تكون أكبر بما لا يقاس من المساحة التي يشغلها الأنا أو القبشعور. فأرجوكم أن تصحّحوا بالفكر هذا الخطأ.

والآن، قبل أن نختم هذه الشروح المتعبة بكل تأكيد، والعويصة المستغلقة في ما أظنّ، لكم عندي وصيّة أخيرة! إياكم أن تتصوروا أن مختلف أقسام الشخصية ذات حدود مرسومة بدقة مثلما ترسم الحدود اصطناعاً بين مختلف الأقطار في الجغرافيا السياسية. والخطوط الفاصلة، نظير تلك التي يطالعنا بها الرسم أعلاه أو التصوير البدائي، لا يمكن أن تعيننا على فهم خصائص الحياة النفسية؛ والأقدر منها على ذلك حقول الألوان المتمازجة في لوحات الرسامين المحدثين. ولئن فكّكنا الأجزاء، فعلينا الآن أن نعيد لأمها. وقد حاولت أن أيسِّر عليكم فهم كنه هذه النفس البشرية التي يعسر النفاذ إلى أغوارها؛ فلا تصدروا على هذه المحاولة الأولى حكماً أقسى مما ينبغي. وأكبر الظن أن التقاسيم تختلف أشد الاختلاف من فرد إلى آخر، وأنها تتحور وتتبدل حتى في أثناء الاختلاف من فرد إلى آخر، وأنها تَّمحي وتضمحلّ بصورة مؤقتة. وهذا يصدق بوجه خاص على أحدث المواليد وأكثرها تعقيداً من منظور علم تكوّن الأنسال وتطورها: تمايز الأنا عن الأنا الأعلى. ومن المحقق أن المرض النفسي يمكن أن يتسبب في مثل هذه التقاسيم، كما لا يشقّ علينا أن نتصور أن بعض الرياضات الصوفية قد تتوصل إلى قلب العلاقات المعتادة بين مختلف القطاعات النفسية، فيتاح للنسق الإدراكي من ثم أن يجد منفذاً له إلى فهم بعض العلاقات في الأنا العميق وفي الهذا، وهذا ما لا يتيسّر له في غير هذه الحال. هل يمكن لهذا الطريق أن يقودنا إلى الحقائق النهائية التي نرهن بها خلاصنا؟ لنا أن نشكّ في ذلك ونحن مطمئنون.

غير أننا نصادر مع ذلك على أن الجهود العلاجية للتحليل النفسي اختارت أن تنصبّ على نقطة مشابهة تحديداً. أفليس هدفها أن تشدّ أزر الأنا، وأن تجعله أكثر استقلالاً عن الأنا الأعلى، وأن توسّع حقله الإدراكي وتعدِّل تنظيمه بحيث يقتدر على تملك أجزاء جديدة من الهذا؟ فحيثما وُجد الهذا توجَّب على الأنا أن يزيحه عن متربَّعه.

وهذه مهمة تقع على عاتق الحضارة، مثلها في ذلك إلى حدٍّ ما مثل استصلاح خليج زويدرزي Zuyderzee[١٥].

١٥ - زويدرزي: خليج قديم في البلدان الواطئة (هولاندا)، سُدّ بحاجز صخري وتحوَّل إلى بحيرة داخلية تعرف باسم إيزلمير، استصلح منها بعد تجفيفها ٢٢ ألف هكتار من الأراضي العظيمة الخصوبة. «م».

المحاضرة الثانية والثلاثون

الحَصَر والحياة الغريزية

سيداتي وسادتي، لن يفجأكم إذا أخبرتكم أن بعض التعديل والتجديد قد طرأ على تصورنا للحصر وللدوافع الغريزية الأساسية في الحياة النفسية. ولن يدهشكم أيضاً أن تعلموا أن أي معطى من هذه المعطيات الجديدة لا يمكن أن يكون كافياً لإيجاد حلّ نهائي للمعضلات المطروحة. وأنا إذ أقول «تصوّرات» فعن عمد. فليس أعسر من مهمتنا، لا لأنه ليس في متناولنا قدر كافٍ من المشاهدات والملاحظات ـ فالظاهرات الأكثر تواتراً والأكثر ألفة لدينا هي بالتحديد التي تطرح علينا تلك الألغاز ـ ولا لأن الأمر أمر تأملات مجردة، فمثل هذه التأملات لا تضطلع هنا إلا بدور ضئيل. وإنما وجه الصعوبة في أن المسألة هي فعلاً مسألة تصورات، إذ المطلوب أن نهتدي إلى الأفكار المجردة الصحيحة التي من شأنها إذا طُبِّقت على المادة الخام التي تزوِّدنا بها الملاحظة أن تولِّد فيها ترتيباً وشفافية.

لقد كنت كرست واحدة من المحاضرات، هي الخامسة والعشرون، لموضوع **الحصر**، وهاكم خلاصتها. قلنا إن الحصر حالة انفعالية، أي تراكبٌ من مشاعر معيَّنة من سلسلة اللذة ـ الكدر مع التعصيبات التصريفية المناظرة لها، علماً بأن إدراك هذه المشاعر يمثِّل على الأرجح رسابة حدث جللٍ متناقلٍ وراثياً في أرجح الظن. حالة الحصر شبيهة إذاً بنوبة الهستيريا التي تنتاب المرء فردياً. وقد ذهبنا إلى أن الحدث الذي يمكن أن يترك مثل هذا الأثر الانفعالي هو الولادة، وهي حدث كان فيه الحصر هو ما يتحكم فعلاً بالنشاط القلبي والتنفسي. وعلى هذا يجوز لنا الافتراض بأن الحصر الأول كان من طبيعة تسمُّمية. ثم ميَّزنا الحصر الواقعي من الحصر العصابي، وقلنا إن أولهما ردّ فعل، مفهومٍ لنا ظاهرياً، على إدراك خطر

خارجي، أي على احتمال الإصابة بأذى ما، وأن ثانيهما يبقى غامضاً للغاية، كما لو أنه معدوم الغائية. وعند تحليلنا الحصر الواقعي أرجعناه إلى حالة من الانتباه الحسّي والتوتر الحركي أسميناها **الاستعداد للحصر**. ومن هذا الاستعداد ينبع ردّ الفعل الحصري. ولردّ الفعل هذا مخرجان: فإما أن يكون **تمخُّض الحصر**، كتكرار للحدث الرضّي القديم، محض إشارة، وفي هذه الحال يكون الغرض من بقية ردّ الفعل مواجهة الموقف الخطِر المستجدّ عن طريق الهرب أو طريق الدفاع؛ وإما أن تكون الغلبة للحدث الرضّي القديم، فيستنفد كلُّ ردّ الفعل نفسَه في تمخُّض الحصر، وعندئذ تغدو الحالة الانفعالية شالّة، وبالتالي غير مناسبة لأية غاية في الموقف الراهن.

وقد درسنا بعد ذلك الحصر العصابي وقلنا إنه يتظاهر بثلاثة أشكال مختلفة: أولاً كقلق عام، كحصر هائم متأهب للتشبث بكل فكرة جديدة قمينة بأن تقدِّم له ذريعة ومبرراً لوجوده، وهذا ما نسمّيه بحَصَر الترقب، كما في العصاب الحصري النمطي مثلاً؛ وثانياً كحصر مرتبط بأفكار وتصورات محددة، كما في ما نسمّيه **بالأرهبة**؛ ولكن لا يعزّ علينا أن نكتشف، في هذه الحال أيضاً، وجود صلة بخطر خارجي ما، والفارق الوحيد أن الحصر إزاء هذا الخطر يبدو لنا مبالغاً فيه للغاية ؛ ثالثاً وأخيراً كحصر هستيري أو حصر مصاحب للأعصبة الخطيرة؛ وهو تارة يرتبط بأعراض أخرى، وطوراً يتظاهر مستقلاً بذاته، وعلى شكل نوبات، وتارة ثالثة يدوم طويلاً ويشكل حالة ثابتة، ولكنه في جميع هذه الأحوال لا يبدو لنا محفوزاً بخطر خارجي فعلي. وقد طرحنا من ثم سؤالين: مِمَ يخاف الإنسان في الحصر العصابي؟ وما الصلة بين هذا الحصر وبين الحصر الفعلي تجاه الأخطار الخارجية؟

الحق أن أبحاثنا لم تبقَ عقيمة غير مثمرة، بل أمكن لنا التوصل إلى بعض المعلومات الهامة. ففيما يتصل بالترقب القلق، أظهرت لنا الخبرة السريرية أنه مرتبط على الدوام بالاقتصاد الليبيدوي في الحياة الجنسية. والعلة الأكثر تواتراً للعصاب الحصري هي التهيُّج المحبط، التنبيه الليبيدوي المستثار الذي لم يجد طريقه إلى الإشباع ولا إلى الاستخدام. وعندئذ يظهر القلق عوضاً عن هذا

الليبيدو الذي حُوِّل مجراه عن وظيفته. وأعتقد أنه يسوغ لي القول إن الليبيدو غير المشبع ينقلب مباشرة إلى حصر. وتؤيد هذا الرأي، فيما يبدو، بعض الأرهبة الشائعة جداً لدى صغار الأطفال. فالكثير من هذه الأرهبة يبدو لنا ملغزاً، مستغلقاً كل الاستغلاق، بينما يسهل علينا بالمقابل أن نجد تفسيراً لأرهبة أخرى، كخوف العزلة والوحدة وخوف الأشخاص الغرباء. فالوحدة والوجه الغريب يوقظان لدى الطفل الرغبة في رؤية قسمات وجه أمه الأليفة لديه من جديد. وبحكم عجزه عن السيطرة على هذه الإثارة الليبيدوية أو عن إبقائها في حالة معلَّقة، نراه يحوِّلها إلى حصر. إذاً، يتعيَّن علينا أن ندرج هذا الحصر الطفلي لا في باب الحصر الواقعي، بل في باب الحصر العصابي. وتقدم لنا الأرهبة الطفلية وقلق الترقب في العصاب الحصري مثالين على إحدى الكيفيات التي يتكوَّن بها الحصر العصابي: أي عن طريق التحول المباشر لليبيدو. وسنحيط الآن بآلية ثانية تشبه من أوجه كثيرة هذه الآلية الأولى.

لنقل بادئ ذي بدء إن المسؤول الأول عن الحصر في الهستيريا وأعصبة أخرى سيرورة الكبت في رأينا. ويتراءى لنا أنه في مقدورنا أن نصف على نحو أكمل مما فعلناه في الماضي هذه السيرورة إذا فصلنا مصير الفكرة المطلوب كبتها عن مقدار الليبيدو الذي كانت هذه الفكرة قد شحنت به. فالفكرة التي يتمّ كبتها يمكن أن تحرَّف حتى لا يعود في المستطاع تعرُّفها؛ غير أن شحنتها الانفعالية، كائناً ما كان نوعها: أعدواناً أم حباً، تتحول لا محالة إلى حصر. وعندئذ لا يعود من أهمية للسبب الذي من أجله باتت الشحنة الليبيدوية غير قابلة للاستخدام، سواء أكان هذا السبب هو الضعف الطفلي للأنا كما في الأرهبة الطفلية، أم السيرورات البدنية للحياة الجنسية كما في العصاب الحصري، أم الكبت كما في الهستيريا. إذاً فآليتا تمخُّض الحصر العصابي تتطابقان وتؤلفان في جوهرهما شيئاً واحداً في واقع الأمر.

وقد تسنى لنا أن نلحظ، ونحن مكبّون على تنقيباتنا هذه، وجود صلة بالغة الأهمية بين تمخُّض الحصر وتكوُّن العرض. فهنا نلحظ وجود فعل متبادل، إذ يمكن للظاهرتين كلتيهما أن تنوب واحدتهما مناب الأخرى أو أن تسدّ مسدّها.

فرهاب الخلاء، مثلاً، يبدأ أول الأمر بنوبة حصر في الشارع ومن الممكن أن تتكرر هذه النوبة كلما خرج المريض إليه؛ لكن تكوُّن العرض، الذي في مقدورنا أيضاً أن نسمِّيه كفاً وأن نعتبره تقليصاً وظيفياً للأنا، يوفِّر نوبة الحصر ويقي المريض منها. والعكس هو ما نلاحظه عندما نحاول التدخل في تكوُّن العرض، وعلى سبيل المثال، في الأفعال القهرية للمريض بالعصاب الوسواسي. فلو منعنا المريض من إنجاز طقس الاغتسال لسقط في حالة لا تطاق من الحصر كان العرض يدرأها عنه كما هو جليّ للعيان. وفي الحق، يبدو أن تمخُّض الحصر يسبق تكوُّن العرض، فلكأن الأعراض أُصطنعت للحؤول دون ظهور حالة الحصر. وهاكم توكيداً آخر: فأول أعصبة الطفولة هي أرهبة، حالات تنمّ بوضوح وجلاء عن أن التمخض السابق للحصر يتوقف بحكم التكوُّن اللاحق للعرض، وهذا ما يشعرنا بأن هذه العلاقة أقدر من أي شيء آخر على إفهامنا طبيعة الحصر العصابي. وقد وفِّقنا في الوقت نفسه إلى معرفة ما يخاف منه الفرد في الحصر العصابي، وتوصّلنا من ثم إلى بيان الصلة بين الحصر العصابي والحصر الواقعي. فما يخشاه هذا الفرد هو بالبداهة ليبيدوه الخاص به. إذاً فالخوف العصابي يختلف من وجهين عن الخوف الواقعي: فالخطر أولاً داخلي بدلاً من أن يكون خارجياً، وهو لا يقع في متناول الشعور.

في الأرهبة، نستطيع أن نرى بوضوح وجلاء كيف ينقلب الخطر الداخلي إلى خطر خارجي، وكيف يتحول بالتالي الخوف العصابي إلى خوف واقعي في الظاهر. وتيسيراً لتفسير هذه الحالة التي يعسر فهمها، لنفرض أننا حيال شخص مصاب برهاب الخلاء لأنه أسير الخوف من بعض الإغراءات. فبعض من يلتقيهم في الشارع يمكن أن يوقظوا لديه هذه الإغراءات. وهذا معناه أن المريض يُخضِع رهابه لعملية إزاحة ونقل، فيعتصره القلق والحصر من موقف خارجي. ومن المحقق أنه يداخله الاعتقاد بأنه يكفل لنفسه على هذا النحو حماية أعظم نجعاً. فالمرء يمكن أن ينجو من الخطر الخارجي بالهرب، بينما محاولة الهرب من خطر داخلي مشروع عسير ووعر.

كنت ختمت محاضرتي السابقة عن الحصر معترفاً بأن مختلف النتائج التي

تمخضت عنها أبحاثنا لا تتفق فيما بينها كل الاتفاق، وإن كانت لا تتناقض ولا تتنافى. فالحصر، باعتباره حالة انفعالية، استعادة لحدثٍ ماضٍ وخطر؛ وهو يبقى في خدمة غريزة البقاء ويفيد في الإنذار بوجود أخطار جديدة. إنه يتولد هو الآخر من ليبيدو صار بكيفية ما غير قابل للاستخدام، ويتمخض بدوره في أثناء سيرورة الكبت. ولئن ناب العرض منابه، فإنه يظل مع ذلك مشدود الوثاق إليه نفسياً. وهيِّن علينا أن ندرك أن هناك حلقة مفقودة من شأنها، لو وجدت، أن تربط بين جميع هذه النتف المتناثرة وتنظيمها في كل واحد.

سيداتي سادتي، إن تقسيم الشخصية النفسية إلى أنا وأنا أعلى وهذا، على نحو ما أبنته لكم في محاضرتي السابقة، قد فرض علينا سلوك اتجاه جديد في معالجتنا مشكلة الحصر. فقد سلّمنا بأن الحصر يحدث فقط في الأنا، وأن الأنا وحده هو القادر على أن يخلق الحصر ويشعر به؛ وهذا الفرض الذي أخذنا به يتيح لنا أن نرى إلى الموقف من زاوية جديدة. وبالفعل، كيف لنا أن نتصوّر، من دون أن نخرج عن حدود المعقول، «حصراً للهذا»، وكيف لنا أن نعزو إلى الأنا الأعلى إمكانية الشعور بالحصر؟ بالمقابل، طاب لنا أن نعاين أن أشكال الحصر الرئيسية الثلاثة: الحصر الواقعي، الحصر العصابي، والحصر الضميري، يمكن أن تُردّ بسهولة إلى علاقات تبعية الأنا الثلاث تجاه العالم الخارجي والأنا الأعلى والهذا. هذه الرؤية الجديدة للأمور تتيح لنا أن ندرك أهمية الدور الذي يضطلع به الحصر كعلامة إنذار بوجود خطر، وهو دور ما كنا على جهل به من قبل. على أننا لم نعد نتساءل بقدر مماثل من الاهتمام عما يصاغ منه الحصر، كما أن العلاقات بين الحصر الواقعي والحصر العصابي قد توضحت بما فيه الكفاية الآن. ولنلحظ، علاوة على ذلك، أن الحالات التي توصف بأنها معقدة تبدو في الوقت الراهن أسهل فهماً وتفسيراً من الحالات التي يقال عنها إنها بسيطة.

لقد قمنا بالفعل مؤخراً بدراسة الكيفية التي يتولد بها الحصر في أرهبة معيَّنة نعزوها إلى الهستيريا الحصرية. وكانت الحالات التي وقع اختيارنا عليها قمينة بأن تكشف لنا عن الكبت النمطي للحاثات الرغبية الصادرة عن عقدة أوديب.

وكان اعتقادنا أن التوظيف الليبيدوي للموضوع الأموي قد تحوَّل أول الأمر، وبفعل الكبت، إلى حصر، ثم تظاهر، لما ارتبط بالبديل الذي هو الأب، في شكل عرض. والحال أن توقعنا قد خاب؛ ويتعذر عليّ أن أكاشفكم هنا بجميع تفاصيل دراستنا؛ لكن اعلموا فقط أنها تمخضت عن نتائج مدهشة ومناقضة لما كنا ننتظر. وبالفعل، ليس الكبت هو ما يتسبب بالحصر، وإنما الحصر، الأبدأ بالظهور، هو الذي يتسبب بالكبت! ولكن ما طبيعة هذا الحصر في آخر المطاف؟ إنه حصر فعلي، واقعي، لأنه ناجم عن خطر خارجي. وبالفعل، إن الصبي الصغير يتوجس خيفة من مطالب ليبيدوه، ويذعره بالتحديد الحب الذي يخالجه إزاء أمه. إذاً، هو حصر عصابي. غير أن التهديد الداخلي الذي يستشعره الصبي الصغير لا يبثّ في نفسه الخوف إلا لأنه قمين باستحضار خطر خارجي لا يملك أن يدرأه عنه إلا بأن يعزف عن موضوع حبه. وفي جميع الحالات التي درسناها حصلنا على نتيجة مماثلة. ولنقرّ بأننا ما كنا نتوقع أن نرى الخطر الغريزي الداخلي يشرط الخطر الخارجي الفعلي ويمهِّد أمامه السبيل.

لكن ما كنه هذا الخطر الفعلي الذي يعتقد الطفل أنه يتهدده بسبب الحب الذي يخالجه إزاء أمه؟ إنه الخصاء، فقدان القضيب. ستعترضون عليّ بطبيعة الحال بأن هذا ليس خطراً فعلياً واقعياً. فلا أحد منا يفكر بخصي أبنائه لمجرد أنهم يحبّون أمهم في إبان الطور الأوديبي. غير أن الأمر أشدّ تعقيداً مما يبدو للوهلة الأولى. فليس بيت القصيد أن نعرف هل الخصاء يمارس فعلاً؛ إنما المهم هو أن التهديد به يأتي من الخارج وأن الطفل يصدِّقه ويؤمن به، إذ كثيراً ما يتوعّده أهله، في إبان طوره القضيبي، وحين يمارس الأونانية المبكرة[1]، ببتر عضوه؛ ولا شكّ أن بعض الإلماعات إلى هذا العقاب قد تعززت لديه بحكم الموروث السلالي. فنحن نعتقد أن خصاء الابن المراهق على يد الأب الغيور والقاسي كان يمارس فعلاً في الأزمنة البشرية الأولى. وغالباً ما يؤلف الختان لدى بعض الشعوب

---

١ ـ الأونانية: نسبة إلى أونان، وهو رجل ورد ذكره في **التوراة** (سفر التكوين)، تزوج من امرأة أخيه بعد وفاته وصار يسكب المني أثناء الجماع خارج مهبلها تحاشياً لاختلاط النسل، فكانت زوجته بعد ذلك تستمني. ويطلق اسم الأونانية على الاستمناء إطلاقاً. «م».

البدائية جزءاً من طقوس بلوغ سن الرجولة، وهو يستمد أصله بكل تأكيد من الخصاء القديم. إننا نعلم أن رأينا بصدد هذا الموضوع يبعد جداً عن الرأي الشائع لدى الناس، لكننا نتمسك بتوكيدنا أن خوف الخصاء هو واحد من أقوى الدوافع إلى الكبت، وبالتالي إلى تكوين الأعصبة، ومن أكثرها تواتراً وشيوعاً. وقد تعزز اقتناعنا هذا لما تسنى لنا أن نحلل أفراداً أجريت لهم عملية ختان، لا عملية خصاء بطبيعة الحال، إما لهدف علاجي، وإما عقاباً لهم على الاستمناء(وهذه واقعة غير نادرة على الإطلاق في المجتمع الإنكليزي أو الأمريكي). وبالرغم مما يساورنا من إغراء في المضيّ قدماً في الكلام عن هذه المسألة، فإننا نحرص على ألا نبتعد عن موضوعنا. ومن المحقق أن حصر الخصاء ليس الدافع الوحيد إلى الكبت، وهو أصلاً لا وجود له لدى النساء، وإن كنّ عرضة هنّ أيضاً لعقدة الخصاء. فالخوف من فقدان الحب يقوم لدى النساء مقام خوف الخصاء، ويكون امتداداً للخوف الذي يعتري الرضيع حين يُفصل عن أمه. وهذا الخوف يناظر فعلاً، كما ترون، خطراً واقعياً. فحين تغيب الأم أو تحرم طفلها من حبها، لا يعود هذا الطفل مطمئناً إلى أن حاجاته ستحظى بالإشباع، بل قد يقع عندئذ فريسة مشاعرِ توترٍ شديدة الإيلام. ومن المباح لنا أن نفترض أن هذا الحصر هو، في جوهره، استعادة للحصر البدئي الذي يعانيه الطفل ساعة الولادة، أي عندما يفصل لأول مرة عن أمه. وإذا ما أخذتم بالاستنتاج الذي انتهى إليه فيرنزي[٢]، أدرجتم حصر الخصاء في الباب نفسه؛ وبالفعل، إن فقدان عضو الرجولة يعني عجز فاقده عن الاتصال من جديد بأمه أو ببديلتها من خلال الفعل الجنسي. ولنقل بالمناسبة إن تخييل العودة إلى رحم الأم، وهو تخييل شائع جداً، بديل عن هذه الرغبة في الجماع. وفي جعبتي أشياء شيّقة كثيرة بوسعي إطلاعكم عليها، لكن من غير المباح لي أن أتخطى حدود مدخل بسيط إلى التحليل النفسي. سأكتفي إذاً بأن ألفت نظركم إلى أن الأبحاث السيكولوجية توصلنا هنا إلى تخوم الوقائع البيولوجية.

٢ - الإحالة هنا إلى بحث ساندور فيرنزي: **حول التحليل النفسي للعادات الجنسية** المنشور في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، العدد الثاني ١٩٢٥. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

يعود إلى أوتو رانك[٣] ـ الذي يدين له التحليل النفسي بالعديد من الدراسات البديعة ـ الفضل في إبراز أهمية واقعة الولادة والانفصال عن الأم. ومع ذلك، قد اتفق رأينا جميعاً على رفض النتائج التي استخلصها من هذا العامل فيما يتصل بنظرية الأعصبة أو حتى بالعلاج التحليلي النفسي. فالرأي عنده أن جميع المواقف الخطرة اللاحقة تكرار لتلك التجربة الحصَرية الأولى: الولادة. والحال أننا لو درسنا المواقف الخطرة لتحققنا من أن كل مرحلة من مراحل النمو والتطور يناظرها حصر خاص بها؛ فخطر عجز الطفل عن مساعدة نفسه يتطابق مع اليقظة الأولى المبكرة للأنا، وخطر فقدان الموضوع (أو خسارة الحب) تقابله الاتكالية التي تميِّز الطفولة الأولى، وخطر الخصاء يناظره الطور القضيبي، والحصر إزاء الأنا الأعلى أخيراً ـ وهو حصر يشغل مكانة متميزة ـ تقابله مرحلة الكمون. والمفروض بدوافع الخوف القديمة أن تتلاشى وتزول مع اطراد النمو والتطور، إذ تكون المواقف الخطرة المناظرة لها قد فقدت زخمها من جراء اشتداد ساعد الأنا. ولكن ليس على هذا النحو الأمثل تجري الأمور في الواقع. فكثيرون من الأفراد لا يتأتى لهم أبداً أن يسيطروا على حصرهم من فقدان الحب، على اعتبار أن حاجتهم إلى أن يكونوا محبوبين حاجة آسرة مستبدة لا يستطيعون حيالها شيئاً؛ لذا نراهم يمضون في سلوكهم، من وجهة النظر هذه، كما لو أنهم أطفال. أما الحصر إزاء الأنا الأعلى فلا ينقطع حبله في العادة أبداً، لأن الحصر إزاء الضمير ضروري لا غنى عنه لقيام العلاقات الاجتماعية واستمرارها. وبالفعل، إن الفرد مرهون أمره دوماً بالمجتمع، إلا في أحوال استثنائية نادرة. وقد تبقى بعض المواقف الخطرة قائمة أحياناً إلى زمن متأخر، إذ تتلبس أسباب الحصر لبوساً جديداً تبعاً للزمن. فخطر الخصاء مثلاً قد يتنكر في إهاب رهاب الأمراض الزهرية. فالراشد يعرف أنه غير مهدد بالخصاء إذا تهالك على الملذات الجنسية، لكنه يعلم بالمقابل

٣ ـ أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). مارس التحليل النفسي كهاوٍ، بعد أن غيَّر كنيته من روزنفلد إلى رانك تمثلاً بالطبيب الطيِّب القلب رانك في مسرحية إبسن **بيت الدمية**، الذي قدّم له نموذجاً مناقضاً لأبيه الذي كان سكيراً مدمناً. من أشهر مؤلفاته: **رضة الميلاد، دون جوان وقرينه، مساهمة في النرجسية، أسطورة ميلاد البطل**. والإحالة هنا إلى كتابه **رضة الميلاد ودلالتها بالنسبة إلى التحليل النفسي** (١٩٢٤). «م».

أنه يجازف، إذا ما أسلس قياده لدوافعه الغريزية، بأن تطاله عدوى بعض الأمراض الخطيرة. والأشخاص الذين نسمِّيهم بالعصابيين يتمسكون بلا مراء بموقف طفلي إزاء الخطر، ولا يتوصلون إلى الظهور على مخاوفهم القديمة. وهذه في الأصل سمة من أبرز سمات الطبع عند العصابيين؛ غير أنه ليس من اليسير الاهتداء إلى علة هذه الحالة.

آمل ألا تكونوا قد نسيتم أن هدفنا دراسة الصلة بين الحَصَر والكبت. وقد تكشفت لنا حتى الآن واقعتان جديدتان: أولاهما أن الحصر يخلق الكبت، خلافاً لما كنا نحسبه، وثانيهما أن الموقف الغريزي الباعث على الخوف ينشأ، في المحصلة الختامية، عن موقف خارجي خطر. وسنبحث الآن في الكيفية التي يحدث بها الكبت تحت تأثير الحصر. هاكم كيف تجري الأمور في رأيي: يلاحظ الأنا أن إشباع مطلب غريزي جديد يستحضر واحداً من المواقف الخطرة التي ما برحت مطبوعة في ذاكرته. لذا يتحتم عليه أن يقمع ويخنق ويشلّ هذا التوظيف الغريزي. ونحن نعلم أن الأنا يتوصل إلى ذلك على الوجه المرام إذا كان قوياً وإذا أفلح في استدماج الحاثة الغريزية المشار إليها في تنظيمه. غير أن هذه الحاثة تبقى، في حالة الكبت، منتمية إلى الهذا، فيلجأ الأنا عندئذ، وقد وعى ما به من ضعف، إلى تقنية مشابهة، إجمالاً، لتقنية التفكير العادي. فالتفكير طريقة في التجريب والمحاولة لا تتصرف إلا بمقادير ضئيلة من الطاقة، مثلها في ذلك مثل القائد العسكري الذي يحرِّك فوق خريطة البلاد مجموعة من التماثيل الصغيرة قبل أن يصدر أوامره إلى مجموع قواته بالتقدم. على هذا النحو يستبق الأنا إشباع الحاثة الغريزية المشبوهة ويتيح لمشاعر الكدر أن تعاود ظهورها في ابتداء الموقف الخطر الباعث على الخوف. وبذلك يباشر مبدأ اللذة ـ الكدر اشتغاله آلياً، ويقوم من ثم بكبت الحاثة الغريزية الخطرة.

أخالكم صائحين بي: قف، فنحن ما عدنا قادرين على تتبُّعك! الحق معكم، فحتى تكون توكيداتي مقبولة لديكم، لا بد أن أتمِّمها بتفاصيل أخرى. وأقرّ بادئ ذي بدء بأني حاولت أن أترجم، إلى لغة فكرنا العادي، سيرورة من المؤكد أنها ليست شعورية أو قبشعورية، بل تتصل في أرجح الظن بشحنات طاقوية ذات

أساس بعيد الغور جداً في النفس حتى ليتعذّر تعرُّفه. على أن هذه الصعوبة ليست عصيَّة على التذليل، وإن يكن متعذَّراً تفاديها. وإنما المهم أن نميِّز تمييزاً واضحاً بين ما يجري في الأنا من جهة أولى، وفي الهذا من جهة ثانية، في أثناء سيرورة الكبت. ولقد تقدم وصف مسلك الأنا الذي يوظِّف شحنة تجريبية ويطلق علامة الخطر لتشغيل آلية اللذة ـ الكدر. وعندئذ يمكن أن تحدث ردود فعل شتى، وقد تكون على جانب كبير من التداخل والتشابك أحياناً: فإما أن تبلغ نوبة الحصر أوجها فيعزف الأنا في هذه الحال عن الاضطلاع بأي دور في الانفعال المريب، وإما أن يستبدل الأنا الشحنة التجريبية بشحنة مضادة، فتتحد هذه بدورها بطاقة الانفعال المكبوت، فيتسنى لها إما أن تكوِّن العرض وإما أن تستقرّ في الأنا بصورة نهائية، بصفتها تكويناً ارتكاسياً، لتعزز فيه بعض الميول والاستعدادات. وكلما اقتصر كل دور تمخض الحصر على أن يكون علامة وإشارة، تعيَّن على الأنا أن يلجأ إلى ردود فعل دفاعية ليربط نفسياً ما جرى كبته، واقتربت السيرورة بجملتها من مستوى الإعداد العادي، لكن دون أن تبلغه مع ذلك. وما دمنا طرقنا هذا الباب، فلنقف عنده ملياً. إنه لمن العسير بكل تأكيد إعطاء تعريف لما اصطلح على تسميته **بالطبع**؛ ولكن لا بدّ أن يكون تسنى لكم أن تروا بأنفسكم أن المرجع الأوحد لهذا الطبع هو الأنا. وقد استطعنا أن نعرف بعض العوامل التي تسهم في تكوينه: أولاً تحول الهيئة الوالدية القديمة إلى أنا أعلى، وهذا أهمّ العوامل وأبلغها أثراً؛ وثانياً التماهي مع الوالدين أو مع أشخاص نافذين آخرين؛ وثالثاً ضروب أخرى من التماهي هي رسابات العلاقات الموضوعانية المهجورة. ولنضف إلى ذلك كله تلك التشكيلات الارتجاعية التي تلعب على الدوام دورها في تكوين الطبع والتي يكتسبها الفرد أول الأمر من خلال كبوتاته، وبعد ذلك بطريقة أكثر سواء، عندما ينبذ الحاثات الغريزية المستهجنة.

لنعد الآن إلى الوراء ولنشغل أنفسنا بالهذا. إلامَ يؤول حال الحاثة الغريزية الملجومة؟ هذه مشكلة وعرة فعلاً. والسؤال الأهم: ما مصير الطاقة، ما مصير الشحنة الليبيدوية لذلك الانفعال، وكيف تستخدم؟ لقد خُيِّل إلينا لأمد طويل من الزمن، كما تذكرون، أنها تُحوَّل إلى حصر بفعل الكبت تحديداً. لكننا لا نجرؤ

على أن نعود إلى توكيد ذلك اليوم، بل سنكتفي بأن نقول بتواضع إن المصير الذي تؤول إليه هذه الطاقة ليس على الدوام واحداً. وأرجح الظن أنه يبقى هناك توافق حميم بصدد الحاثة الغريزية المكبوتة بين السيرورات القديمة في كل من الأنا والهذا، وهو توافق يفترض بنا أن نكون على علم به. وبالفعل، وبعد أن سلَّطنا الضوء على الدور الذي يضطلع به في الكبت مبدأ اللذة ـ الكدر الذي نبَّهته من سباته إشارة الحصر، يغدو في مستطاعنا أن نعدِّل تصوراتنا. فهذا المبدأ يتحكم بلا منازع بالسيرورات التي تحدث في الهذا، ولا يعجزه أن يحدث تبدلات بالغة العمق في الحاثة الغريزية المستهجنة. ولا غرو أن تختلف النتائج الناجمة عن الكبت اختلافاً كبيراً، وأن يكون لها أثر متفاوت المدى. ففي بعض الحالات تحافظ الحاثة الغريزية المكبوتة على شحنتها الليبيدوية، فتقيم في الهذا بلا تغيير بالرغم من ضغط الأنا. وفي أحيان أخرى تبدو وكأنها تعرضت لدمار كامل، وفي هذه الحال تسلك شحنتها الليبيدوية طرقاً أخرى. وقد كنت افترضت أن كل شيء يجري هذا المجرى عندما تُحَلّ عقدة أوديب حلاً سوياً؛ وفي مثل هذه الحالة الموائمة لا تكبت عقدة أوديب فحسب، بل تُلاشى في الهذا. وقد أظهرت لنا التجربة السريرية، علاوة على ذلك، أنه كثيراً ما يحدث، بدلاً من الكبت المعتاد، تناقص في الليبيدو ونكوص له نحو مرحلة سابقة. وهذا كله لا يمكن أن يتمّ بطبيعة الحال إلا في الهذا، وفقط تحت تأثير الصراع الذي أجَّجته إشارة الخطر. والعصاب الوسواسي يقدِّم أبلغ مثال على هذه الظاهرة، لأن النكوص الليبيدوي والكبت يفعلان فعلهما متآزرين.

سيداتي سادتي، أخشى أن يكون هذا العرض قد بدا لكم على جانب كبير من الغموض والوعورة. وإنكم لمدركون أيضاً بلا ريب أنه غير كامل. ولئن ساءني أن أخلف ظنّكم، فلست أملك إلا أن أكرِّر أن غرضي الوحيد إعطاؤكم لمحة عن طبيعة مباحثنا وعن الأهداف التي ننشد. وكلما تقدمنا في دراسة الظاهرات النفسية، تحققنا أكثر فأكثر من غناها وتعقيدها. ففي أول الأمر تبدو لنا بعض الصيغ البسيطة مطابقة للحقيقة، ثم تتكشَّف عن أنها غير وافية بالغرض. وحقيق بنا من ثم أن نعدِّلها ونجوِّدها باستمرار. فحين حدثتكم عن

نظرية الحلم، اقتحمت وإياكم ميداناً لم يُكتشف فيه أي جديد تقريباً منذ خمسة عشر عاماً. أما وقد طرقنا الآن باب الحصر، فقد ولجنا ميداناً هو في أوج التغير والتطور. وهذه الوقائع الجديدة لما تُدرس أصلاً بعد دراسة معمقة، ولهذا في أرجح الظن يعسر كل العسر وصفها. وعليكم بالصبر، فقد ندع عما قليل هذا البحث المضنك في موضوع الحصر، وإن من دون أن نخرج ـ أقرّ بذلك ـ بنتيجة مُرضية كل الإرضاء، مغتبطين على كل حال بأن نكون قد حققنا بعض التقدم. ولقد تسنى لنا على كل حال أن نظفر، في طريقنا، ببعض الأفكار الجديدة. وهكذا يتأتى لنا الآن، بفضل دراسة الحصر، أن نستكمل وصفنا للأنا. فقد قلنا إن الأنا يظهِر ضعفاً كبيراً حيال الهذا، فهو أشبه بخادمه الأمين الذي يلبي مطالبه وينفذ أوامره بلا تلكؤ. وليس في نيتنا البتة أن نتراجع عما قلناه، لكن لا مناص لنا من الاعتراف، من جهة أخرى، بأن هذا الأنا أحسن تنظيماً وأفضل توجهاً نحو الواقع. ولا مجال للمبالغة في هذا التمييز، ولا للتعجب والاندهاش إذا ما مارس الأنا بدوره بعض التأثير على السيرورات التي تجري في الهذا. وعلى هذا النحو يشغِّل الأنا، فيما أعتقد، عن طريق إشارة الخطر، مبدأ اللذة ـ الكدر الذي لا يكاد يعلو فوق سلطانه سلطان. لكن يتحتم علينا الإقرار بأنه لا يعتم أن يدلل من جديد على ضعفه بعزوفه، من جراء الكبت، عن جزء من تنظيمه الدفاعي، وبتسليمه بأن تبقى الحاثة الغريزية بمنأى عن تأثيره بصورة دائمة.

ملاحظة أخرى بعدُ بصدد مشكلة الحصر! لقد تحوّل الحصر العصابي بين أيدينا إلى حصر واقعي، إلى توجس من بعض الأخطار الخارجية. لكننا لا نستطيع أن نقف عند هذا الحدّ، ولا مناص لنا من أن نخطو خطوة أخرى، ولو إلى الوراء، فنتساءل: ما كنْه الخطر حقاً، ما كنه الشيء الذي يخافه الفرد فعلاً في الموقف المحفوف بالخطر؟ إنه بالتأكيد ليس الأذى: فهذا الأذى، لو نظرنا إليه من الناحية الموضوعية، قد لا يكون له أية أهمية على الإطلاق. أما ما يبعث على الخوف فهو بالأحرى التغيير الذي يمكن أن يحدثه هذا الأذى في الحياة النفسية. فالولادة مثلاً، وهي في نظرنا الطراز الأول لحالة الحصر، يكاد يتعذر أن

نعتبرها مضرّة بحدّ ذاتها، وإن يكن احتمال الأذى غير مستبعد. والشيء الأساسي في الولادة، كما في كل موقف خطر، أنها تثير في النفس حالة من التوتر الشديد يكون لها في الفرد وقع مؤلم ولا سبيل أمامه للتخلص منها بالتفريغ وتصريف الشحنة. فإن وصفنا هذه الحالة التي تُمنى فيها جهود مبدأ اللذة بالإخفاق بأنها عامل **رضّي**، تسنّى لنا، انطلاقاً من سلسلة الحصر العصابي - الحصر الواقعي - الموقف الخطر، أن نخلص إلى الاستنتاج التالي: إن الشيء الباعث على الخوف، أي موضوع الحصر، هو على الدوام ظهور عامل رضّي يتعذر تفاديه وفقاً لمعيار مبدأ اللذة. وإننا لندرك للحال أن هذا المبدأ لا يكفي ليدرأ عنا الضرر الخارجي، بل كل شأنه أن يدرأ عنا أذى معيَّناً قد يتعرَّض له تنظيمنا النفسي. وهيهات أن يقوم بين مبدأ اللذة وبين غريزة البقاء من البداية تعاون وتضافر، وما أبعد الشقة بينهما أصلاً! على أن هناك شيئاً قد يفتح لنا الطريق إلى الحلّ المنشود. ذلك أن الأمر يتعلق هنا، كما نرى، بكميات نسبية؛ فضخامة كمية الإثارة التي تجعل من انطباع ما عاملاً رضّياً هي وحدها التي تشلّ عمل مبدأ اللذة وتخلع على الموقف الخطر جسامته. ولئن يكن هذا ما يحدث فعلاً، ولئن يكن في الإمكان أن نجد حلاً للغز بمثل هذه البساطة، فلمَ ننكر احتمال أن تتظاهر مثل هذه العوامل الرضّية في الحياة النفسية حتى في حال انعدام وجود أي موقف يُعتبر خطراً؟ إن الحصر في مثل هذه الحال لا يعود مجرد إشارة وإنذار، بل يظهر إلى الوجود كخَلْق جديد ولأسباب جديدة. وتدلنا الخبرة السريرية أن الأمور تجري فعلاً هذا المجرى. وضروب الكبت المتأخرة هي وحدها التي تزيح النقاب عن الآلية التي وصفناها فيما تقدم والتي يتولد فيها الحصر كإشارة إلى موقف خطر قديم. وأقدم ضروب الكبت وأبكرها تنشأ مباشرة حين يصطدم الأنا بمطلب ليبيدوي باهظ صادر عن عوامل رضّية؛ وهذه الضروب القديمة من الكبت تخلق حَصَرها الخاص بها، وإن وفق نموذج حصر الولادة. وأكبر الظن أن الأمور تجري على النحو ذاته عند تمخُّض الحصر في حالة العصاب الحَصَري الناشئ عن اضطراب بدني في الوظيفة الجنسية. إننا ما عدنا نزعم أن الليبيدو نفسه يتحول إلى حصر، لكن لا يبدو أن هناك شيئاً

يطعن في احتمال أن يكون ثمة أصل مزدوج للحصر: فهو إما أن يصدر مباشرة عن العامل الرضّي، وإما أن يكون إشارة إلى خطر ظهور جديد لهذا العامل.

سيداتي سادتي، لقد طاب لكم في أرجح الظن أن نكون قد انتهينا من موضوع الحصر. لكن غبطتكم لن تدوم طويلاً، لأن الموضوع الذي سنطرقه الآن لا يقلّ وعورة عن سابقه. وإني أنوي أن أطلعكم في محاضرتنا هذه بالذات على نظرية الليبيدو أو مذهب الدوافع الغريزية. فبصدد هذه النقطة أيضاً تبلورت أفكارنا، بيد أنني لن أقول إننا أحرزنا تقدماً كبيراً في هذا المجال بحيث أنكم ستُكافؤون على كل جهد من جهودكم لفهمه. كلا، فهذا حقل نكافح فيه بمشقة لنهتدي إلى طريقنا ولنحقق كشوفاً؛ وما عليكم إلا أن تكونوا شهوداً على مجهودنا هذا. وهنا أيضاً أجدني مضطراً إلى أن أرجع القهقرى لأتناول من جديد أموراً كنت عرضتها عليكم من قبل.

إن نظرية الدوافع الغريزية[٤] هي ميتولوجيتنا نحن أصحاب التحليل النفسي، إن جاز التعبير. فالدوافع الغريزية كائنات أسطورية ورائعة في ما يكتنفها من إبهام. ومع أننا لا نستطيع أن نستغني عنها للحظة واحدة في أثناء عملنا، فإننا لسنا على ثقة بأننا نتصورها تصوراً صحيحاً واضحاً. وأنتم تعرفون ما التصور الشعبي الرائج عن الدوافع الغريزية: فقد أوجدت الدوافع الغريزية لتلبي الحاجات طراً: غرائز الكبرياء والتقليد واللعب، والغريزة الاجتماعية، وكثرة من الدوافع الغريزية المشابهة. وهي تُدرس على حدة، ويُعزى إلى كل منها وظيفة خاصة، ثم يُهمل أمرها. وكنا نشعر منذ عهد بعيد بأن وراء هذا الحشد من الدوافع الغريزية الصغيرة شيئاً ذا شأن وخطورة، شيئاً لا يصحّ الاقتراب منه إلا بحذر وتحرس. وقد خطونا بوجل خطوتنا المتواضعة الأولى، مفترضين أنه من غير المحتمل أن

---

٤ ـ ينبغي أن نعيد التذكير هنا بأن فرويد يؤثر استعمال مفهوم الدافع الغريزي Pulsion (Trieb بالألمانية) على مفهوم الغريزة Instint (Instinkt بالألمانية). فالغريزة تبقى أكثر التصاقاً بالحيوان لأنه لا يستطيع لها رداً، بينما يملك الإنسان تجاه دوافعه الغريزية قدراً من الحرية ومن القدرة على كبحها أو إرجاء إشباعها. كما أن الغريزة تتحدد لدى الحيوان بوراثة النوع وتكون متماثلة لدى الأفراد جميعاً، بينما الدافع الغريزي لدى الإنسان فيه توكيد على الاندفاع في اتجاه محدد بقدر متفاوت من القوة تبعاً للأفراد؛ ومن ثم هو أدنى إلى علم نفس الإنسان منه إلى علم نفس الحيوان. «م».

نضلّ ضلالاً كبيراً إذا ما ميّزنا نوعين أو مجموعتين من الدوافع الغريزية طبقاً لحاجتينا الرئيسيتين: الجوع والحب. ورغم غيرتنا الشديدة إجمالاً على استقلال علم النفس عن العلوم الأخرى، فقد رأينا أنفسنا مضطرين إلى الإقرار بأن هذا العلم يقع هنا تحت تأثير واقعة بيولوجية لا مجال للمماراة فيها، وهي نزوع الكائن الحيّ نحو غايتين: المحافظة على الذات والمحافظة على النوع؛ والحال أن هاتين الحاجتين غير متضامنتين في الظاهر فيما بينهما، ولا يجمعهما أي قاسم مشترك؛ بل كثيراً ما تتصادمان في الحياة الحيوانية. فحريٌّ بنا إذاً، كما تراءى لنا، أن نهتم بعلم النفس البيولوجي وأن ندرس الظاهرات السيكولوجية التي تصاحب السيرورات البيولوجية. وعلى هذا النحو احتلت «الدوافع الغريزية الأنوية» و«الدوافع الغريزية الجنسية» مكانها في التحليل النفسي. وقد أدرجنا في الدوافع الغريزية الأولى كل ما يتصل بصيانة الشخصية وتوكيدها وارتقائها. وأسلكنا في الدوافع الغريزية الثانية كل غنى الحياة الجنسية الطفلية والحياة الجنسية المنحرفة. والحال أننا رأينا، في دراستنا للأعصبة، أن الأنا قوة تقييدية وكابتة، وأن الصبوات الجنسية هي موضوع التقييد والكبت. وقد خُيِّل إلي أننا نضع إصبعنا على هذا النحو لا على التباين بين هاتين المجموعتين من الدوافع الغريزية فحسب، بل كذلك على الصراع فيما بينهما. وقد عكفنا أول الأمر على الدوافع الغريزية الجنسية وحدها وأطلقنا اسم «الليبيدو» على الطاقة المشحونة بها. وعن طريق دراستها حاولنا أن نعطي فكرة واضحة عن ماهية الدافع الغريزي وأن نبيِّن ما يمكننا أن ننسبه إليه. تلكم هي مكانة نظرية الليبيدو.

يتميز الدافع الغريزي إذاً عن المنبّه stimulis بأنه ينشأ من مصادر للتنبيه موجودة في الجسم ذاته، وبأنه يفعل فعله كقوة دائمة، وبأن الفرد المعني يتعذر عليه الهرب منه على نحو ما يستطيع فعل ذلك فيما لو كان التنبيه خارجياً. وإننا لنميِّز، عند دراسة الدافع الغريزي، بين مصدره وموضوعه وهدفه. فالمصدر هو حالة التهيج البدني، والهدف هو تسكين هذا التهيج؛ والدافع يغدو فعالاً نفسياً حينما يشقّ طريقه من المصدر إلى الهدف. وإننا لنتصوره في صورة كمية محددة من الطاقة تندفع في اتجاه محدد، وهذا الاندفاع هو ما يجعلنا نطلق

عليه اسم الدافع Pulsion. وقد درجت العادة على الكلام عن دوافع غريزية موجبة أو سالبة؛ والأصح أن نقول إن الدوافع الغريزية تنزع نحو أهداف موجبة أو سالبة، على أن يكون معلوماً أنه لا بدّ من بذل قدر من النشاط حتى لبلوغ هدف سالب. وهذا الهدف يلقاه الفرد أحياناً في جسمه ذاته، ولكن لا بدّ أن يتواجد في العادة موضوع ما ليتاح للدافع الغريزي أن يبلغ فيه هدفه الخارجي. أما الهدف الداخلي فهو على الدوام تحوير في الجسم يكون له في النفس وقع مستحبّ. ترى هل يكتسب الدافع الغريزي، بحكم صلاته بالمصدر البدني، خصوصية نوعية؟ وفي هذه الحال، ما طبيعتها؟ هذا ما نجهله. وقد دلّتنا خبراتنا التحليلية أن الحاثات الغريزية الصادرة عن مصدر معيَّن يمكن بكل سهولة أن تتحد بالحاثات الصادرة عن مصدر آخر لتشاطرها من ثمّ مصيرها. كما دلتنا أن إشباع دافع غريزي يمكن أن ينوب مناب إشباع دافع آخر. على أن هذا كله ـ لنعترف بذلك ـ لم يفسَّر بعد تفسيراً كافياً. ثم إن صلة الدافع الغريزي بالهدف والموضوع متغيرة أيضاً، إذ يمكن أن يحل محلهما غيرهما؛ على أن صلته بالموضوع تبدو أكثر قابلية للتغيُّر. وإننا نطلق على بعض ضروب التغيُّر التي تتصل بالهدف، وعلى بعض ضروب إبدال المواضيع التي يحسب فيها للقيمة الاجتماعية حسابها، اسم **الإسماء** Sublimation. ونحن نعلم أن بعض الدوافع الغريزية لا تتمكن من الوصول إلى هدفها إذا ما أعاقها عائق ما؛ وهذه الدوافع **المكفوفة من حيث الهدف** هي دوافع غريزية ذات منشأ معروف، تنزع نحو هدف محدد، لكنها لا تصل إلى بغيتها من الإشباع، فينجم عن ذلك توظيف موضوعاني دائم ونزوع مستديم. في هذه الفئة ينبغي أن ندرج، مثلاً، مشاعر المحبة التي لا تفضي أبداً إلى إشباع الحاجة الجنسية وإن كانت صادرة عنها أصلاً. بذا ترون أن مصائر الدوافع الغريزية وخصائصها لا تزال غير معروفة بعد بما فيه الكفاية. ولا ننسَ أنه يجدر بنا أن نقيم تمييزاً آخر بعد بين الدوافع الجنسية وغرائز البقاء. وهذا التمييز لو انسحب على المجموعة بأسرها لكانت له أهمية كبيرة: فمما يسترعي الانتباه في الدوافع الغريزية الجنسية مرونتها، قابليتها لتغيير هدفها، السهولة التي تقايض بها إشباعاً من إشباعاتها بواحد آخر، علاوة

على قدرتها على الإرجاء والتأجيل كما رأينا في الدوافع الغريزية المكفوفة من حيث الهدف. وقد نميل إلى إنكار جميع هذه الخصائص على غرائز البقاء، وإلى القول بأنها صلبة لا تلين، وأنها أشد إلحاحاً وإلحافاً، وأن طبيعة صلتها بالكبت كما بالحصر مختلفة. غير أننا إذا ما أنعمنا النظر رأينا أن هذا الوضع الاستثنائي ليس مشتركاً بين الغرائز الأنوية كافة، بل هو قائم في حالتي الجوع والعطش فقط، ومتعيِّن بالطبيعة الخاصة لمصادرهما الغريزية. وينبع جانب لا بأس به من هذا الالتباس أيضاً من أننا لم ندرس على حدة التغيرات التي تطرأ على الحاثات الغريزية المرتبطة أصلاً بالهذا تحت تأثير الأنا المنظَّم.

على أن مواطئ أقدامنا تكون أثبت وأقلّ تقلقلاً متى ما درسنا الكيفية التي تخدم بها الحياة الغريزية الوظيفة الجنسية. وآراؤنا بصدد هذا الموضوع ثابتة، ولكم بها معرفة من قبل: فليس ثمة ما يبرر الكلام عن دافع غريزي جنسي واحد، وحيد، ينزع من البداية إلى هدف الوظيفة الجنسية، أي إلى اتحاد الخليّتين الجنسيّتين. بل نلاحظ على العكس حشداً من الدوافع الغريزية الجزئية التي تصدر عن مواطن ومناطق مختلفة من الجسم وتكون على قدر من الاستقلال بعضها عن بعض وتطلب وتجد إشباعها في ما نستطيع أن نسميه **باللذة العضوانية**[٥]. والأعضاء التناسلية هي، من بين سائر **المناطق الشهوية**، أحدثها ظهوراً، ويتعذر هذه المرة ألا ننعت اللذة العضوانية التي تستطيع هذه الأعضاء تأمينها بأنها جنسية. هذه النوازع الجزئية الملتمسة للذة غير مندمجة كلها بالتنظيم النهائي للوظيفة الجنسية: فبعضها يُنحّى جانباً لأنه لا غنى فيه، إما بالكبت أو بأي أسلوب آخر؛ وبعضها الآخر يُحرف عن هدفه على النحو الغريب الذي تقدم بيانه ويُستخدم في تعضيد حاثات أخرى؛ وبعضها الثالث أخيراً يبقى أسير أدوار ثانوية ويفيد في أداء أفعال تحضيرية والتمهيد للذة. وقد تناهى إلى أسماعكم من قبل أن هذا التطور الوئيد ينطوي على عدة أطوار من التنظيم المؤقت، وأن تاريخ الوظيفة الجنسية هذا يتيح لنا تفسير انحرافها وخمودها. ونحن نسمّي أول طور

٥ ـ اللذة العضوانية Plaisir d'organe: اللذة المرتبطة بعضو بعينه من أعضاء الجسم. وقد آثرنا إضافة نون النسبة تمييزاً لهذا المصطلح التحليلي النفسي عن المعنى الدارج للصفة: العضوية. «م».

من هذه الأطوار القبتناسلية **بالطور الفموي**، وهو الطور الذي تهيمن فيه المنطقة الفموية الشهوية، بحكم نمط تغذية الرضيع، على ما يمكن أن نسميه بالنشاط الجنسي في هذه المرحلة من مراحل الحياة. وفي الطور الثاني تظهر الدوافع الغريزية **السادية والشرجية** التي تتطابق بكل تأكيد مع ظهور الأسنان ونمو العضلات وضبط وظيفتي التغوط والتبول. وقد تجمعت لدينا ملاحظات وتفاصيل مثيرة بصدد هذه المرحلة العجيبة. أما الطور الثالث فهو **الطور القضيبي**، وفيه تظهر أهمية القضيب لدى الصبي، وما يناظره لدى البنت، ظهوراً لا يجوز أن نغفل عنه. وقد احتفظنا باسم **الطور التناسلي** للتنظيم النهائي، وهو الطور الذي يقوم عند البلوغ وتتثبت فيه مكانة العضو التناسلي المؤنث بعد مرور زمن طويل على تثبت مكانة عضو الذكورة.

هذا كله لا يعدو في أكبر الظن أن يكون كلاماً مكرراً معاداً؛ ولئن أغفلت هذه المرة ذكر تصورات أخرى فليس ذلك لأنها فقدت من قيمتها شيئاً؛ وقد كان التكرار ضرورياً لأنه أتاح لنا أن نربط معطياتنا الجديدة بتلك المعطيات القديمة. وإنه ليطيب لنا أن نكون عرفنا أشياء كثيرة عن التنظيمات الابتدائية لليبيدو، وأن نكون، فضلاً عن ذلك، قد اقتدرنا على أن نفهم الظاهرات المعروفة لنا من قبل فهماً أفضل. هذا على الأقل ما سأحاول أن أثبته لكم ببعض الأمثلة. لقد أوضح أبراهام في عام ١٩٢٤[٦] أنه من الممكن تمييز مرحلتين في الطور السادي الشرجي. ففي أولى هاتين المرحلتين تكون الغلبة للنوازع الهدامة التي تقترن بحب تحطيم الأشياء وإتلافها، وفي ثانيتهما ترجح على العكس كفة النوازع الرفيقة بالأشياء والتي يرتبط بها حب حفظها وتملكها. إذاً في أواسط هذا الطور يظهر حرص الطفل على الموضوع، فيكون بشيراً بتوظيف حبّي لاحق. وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأننا نستطيع أيضاً التسليم بوجود مثل هذا التفريع في الطور الفموي. ففي الشقّ الأول من هذا الطور لا يكون ثمة مجال إلا لاستدماجٍ فموي، على اعتبار أنه لا يكون ثمة وجود لأية ازدواجية في

---

٦ ـ الإحالة هنا إلى بحث كارل أبراهام: **محاولة للتأريخ لتطور الليبيدو على أساس التحليل النفسي للاضطرابات النفسية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

صلات الطفل بالموضوع (أي ثدي الأم). أما الشقّ الثاني، المتميِّز بظهور الأسنان، فيمكن أن يسمَّى بالطور الفموي السادي، وفيه تظهر الازدواجية لأول مرة. وتظاهرات هذه الازدواجية تتحدد بمزيد من البروز في الطور التالي، الطور الشرجي. والحق أن فائدة هذه التقسيمات الجديدة تتضح بوجه خاص حين نبحث كما في حال بعض الأعصبة ـ العصاب الوسواسي والسويداء ـ عن مراكز التثبيت في تطور الليبيدو التي تمهِّد التربة للمرض. واستذكروا هنا ما علمناه بصدد العلاقة بين تثبيت الليبيدو والاستعداد للمرض والنكوص[٧].

خلاصة القول أن تصورنا عن أطوار تنظيم الليبيدو قد أصابه بعض التطور. ففي السابق كنا نعتقد أن كل طور يخلي مكانه إخلاء تاماً للطور التالي. أما اليوم فنرى أن كل طور يترك أثره في التكوينات اللاحقة، وأن هذا الأثر يتظاهر دواماً في تنظيم الليبيدو وفي طبع الشخص. وقد دلتنا أبحاث أخرى، ذات مدى أبعد بعد، أنه غالباً ما يحدث في بعض الحالات المرضية نكوص نحو أطوار سابقة. والحق أن النكوص هو السمة المميزة أصلاً لبعض أشكال الأمراض؛ لكن لا يسعني أن أعالج هنا هذه المسألة، فهي تدخل في باب خاص هو باب علم نفس الأعصبة.

إن الإيروسية الشرجية، أي التنبيهات الصادرة عن المنطقة الشرجية الشهوية، هي التي أتاحت لنا بوجه خاص أن ندرس تحولات الدوافع الغريزية وغيرها من الظاهرات المشابهة. وقد فوجئنا بتنوع استخدامات هذه الحاثات الغريزية. والحق أن دور المنطقة الشرجية في أثناء نمو الفرد كان على الدوام موضع ازدراء، وأكبر الظن أنه لن يكون سهلاً علينا أن نتحرر من هذه النظرة. لكن لنتذكر أن أبراهام يهيب بنا أن نعتبر الشرج يناظر الفم البدائي في تكوين الجنين، ثم ينحدر في وقت لاحق إلى نهاية الأمعاء. ونعلم بعد ذلك أن استقباح الطفل لغائطه وفضلاته يجعله يحوِّل اهتمامه الغريزي الشرجي المصدر نحو مواضيع قابلة لأن تعتبر هدايا؛ وهذا عين الحق لأن الغائط يشكل بالفعل أول هدية يمكن للرضيع أن يقدِّمها للشخص الذي يعتني به عربوناً عن الحب. وفي وقت لاحق، وبفضل تغيُّر في المدلول يذكِّرنا بذاك الذي يصيب اللغة، ينتقل الاهتمام

---

٧ ـ انظر المحاضرة الثانية والعشرين من **المحاضرات التمهيدية في التحليل النفسي**. «م»

القديم لينصب على **الذهب والنقود**، ويسهم في الوقت نفسه في التوظيف العاطفي للتصور الطفلي عن **الطفل والقضيب**. ذلك أن الأطفال يقون، كما تعلمون، لمدة طويلة من الزمن أنصاراً لنظرية المخرج[٨]، ويقينهم راسخ بأن المولود يخرج، نظير الغائط، من الشرج. هكذا يكون التغوط تمثيلاً للولادة. والقضيب كذلك له عندهم سابقة، وهذه السابقة تتمثل في عمود الغائط الذي يملأ ويهيج الغشاء المخاطي للأمعاء. وحين يعلم الطفل، على كره منه ومضض، أن بعض المخلوقات البشرية محرومة من هذا العضو، يقرّ في ذهنه أن القضيب عضو قابل للفصل عن بقية الجسم، مثله في ذلك تماماً مثل الغائط الذي هو أول جزء من جسمه اضطر لأن يتخلى عنه. هكذا يتحول شطر واسع من الإيروسية الشرجية لينصبّ على القضيب؛ على أن الأهمية التي يحاط بها هذا العضو في الإيروسية الفموية ربما كانت ترتكز إلى أساس أقوى من ذلك الذي ترتكز إليه في الإيروسية الشرجية. وبالفعل، لا يكاد يبدأ الفطام حتى يرث القضيب شيئاً من المشاعر التي كانت تفرغ على حلمة ثدي الأم.

فإن غابت عنا هذه العلاقات البعيدة الغور، تعذّر علينا أن نفهم أخاييل الناس، والخواطر التي تتوارد إلى أذهانهم من لاشعورهم، ولغة أعراضهم. فالبراز والنقود والهدية والطفل كلمات متكافئة في نظرنا وتمثلها رموز مشتركة. ولا تنسوا أنه ما كان لي أن أعالج هذا الموضوع إلا باقتضاب شديد. على أني سأضيف قائلاً إن الاهتمام الذي يحظى به المهبل في زمن لاحق له أيضاً وعلى الأخص أصل إيروسي شرجي. ولا غرو في ذلك ما دام المهبل «مستأجراً» من الشرج على حدّ التعبير البديع للو أندرياس ـ سالومي[٩]. فمن لم يتأتَّ لهم أن يجتازوا طوراً معيَّناً

٨ ـ المخرج: فتحة الإخراج لدى بعض الحيوانات الدنيا التي تنتهي إليها الأمعاء والمسلك البولي والشق التناسلي معاً. ونظرية المخرج هي الاسم الذي يطلق على توهم الأطفال بأن الرجال والنساء يلدون أطفالهم من مخارجهم. «م».

٩ ـ لو أندرياس سالومي: أديبة ألمانية من أصل روسي (١٨٦١ ـ ١٩٣٧). روائية وقاصة ومحللة نفسية تولّه في عشقها كثيرون، ومنهم نيتشه وريلكه. وقد التقت فرويد عام ١٩١١ وصارت صديقة لابنته آنا. ثم اختلفت معه بخصوص موقفه من الدين، ولا سيما الدين اليهودي الذي كانت تنتمي إليه مثله. من مؤلفاتها: **حب النرجسية**، **رسالة مفتوحة إلى فرويد**، **خلق الله**، **إيروس**. وفرويد يحيل هنا إلى بحث لها بعنوان «**الشرجي والجنسي**»، منشور في مجلة **إيماغو** سنة ١٩١٦. «م».

من النمو الجنسي، أعني بهم اللواطيين، يستغنون عن المهبل بالشرج. وكثيراً ما تدور الأحلام على حجرة تكون في أول الأمر مفردة ثم لا تلبث أن تنشطر إلى حجرتين يفصل بينهما حاجز، أو العكس بالعكس. وفي ذلك إشارة إلى صلة المهبل بالمعي. ونستطيع أن نعاين أيضاً بجلاء تام كيف أن رغبة البنت في امتلاك قضيب ـ وهي رغبة مضادة للأنوثة ـ تتحول إلى رغبة في أن يكون لها طفل، وبالتالي إلى رغبة في الرجل نفسه باعتباره مالك القضيب وواهب الطفل. هنا نرى أيضاً كيف يتوصل شطر من الاهتمام الشرجي ـ الإيروسي السابق إلى الاندماج في التنظيم التناسلي اللاحق.

لقد تسنى لنا، في أثناء دراستنا هذه لأطوار الليبيدو القبتناسلية، أن نظفر بمعطيات جديدة عن تكوين الطبع. وقد أمكن لنا أن نتعرف ثلاث خصال لا تقبل انفصالاً واحدتها عن الأخرى: الترتيب والاقتصاد والعناد. وقد أظهر تحليل الأشخاص المتسمين بهذه الخصال أنها تنشأ لديهم من استدماجهم للإيروسية الشرجية واستخدامهم المغاير لها. ويبيح لنا اجتماعها لدى الشخص الواحد أن نتكلم عن **طبع شرجي**، وهذا الطبع يقع، بمعنى من المعاني، في قطب مقابل للإيروسية الشرجية الخام. وإننا لنجد صلة مشابهة، وربما أوثق بعد، بين الطموح والإيروسية الإحليلية[١٠]. وثمة أسطورة تلمِع إلماعاً مثيراً للعجب إلى هذه الصلة. إذ يروى أن الإسكندر الأكبر ولد في نفس الليلة التي أقدم فيها شخص يدعى هيروستراتوس، مدفوعاً بدافع الطموح إلى الشهرة، على إحراق معبد أرتميس في أفسس، وهو معبد كان موضع الإعجاب والتقدير العام. فكيف لا يداخلنا الاعتقاد، عندما نسمع هذه القصة، بأن القدماء كانوا على علم بالارتباطات التي نتحدث عنها؟[١١] وأنتم تعلمون أن بين التبويل والنار أو إطفاء النار بعض الصلة.

١٠ ـ الإحليل: مجرى البول في القضيب. «م».

١١ ـ حتى نفهم دلالة هذه القصة الأسطورية من منظور توظيف فرويد لها ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أن كل حريق يقتضي إطفاءه بالماء. والبول ماء. ولئن ولد الإسكندر، وهو من أعظم ما عرفه التاريخ من أصحاب الطموح، يوم حريق معبد أرتميس كما تقول الأسطورة، فلكأن في ذلك دلالة على أن القدماء كانوا يدركون هم أيضاً ما بين الطموح والإيروسية الإحليلية من ارتباط. «م».

وكل شيء يحملنا على الافتراض بأن هناك سمات طبعية أخرى هي بمثابة رسابات أو تكوينات ارتجاعية لبعض البنى الليبيدوية القبتناسلية، لكن لا يزال برهان ذلك معتذراً علينا.

آن الأوان لنعود إلى الوراء، في التاريخ كما في الأطروحة قيد البحث، ولنستأنف دراسة أعم مشكلات الحياة الغريزية. وأذكر بادئ ذي بدء أن نظريتنا عن الليبيدو قامت على المباينة بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. ثم لما تصدينا بعد ذلك لدراسة الأنا نفسه وعرفنا كنه النرجسية، فقد هذا التمييز قيمته. فقد يحدث أحياناً، وبالأحرى نادراً، أن يتخذ الأنا من نفسه موضوعاً له فكأنه عاشق ذاته، ومن هنا استعير هذا الاسم من الأسطورة اليونانية القديمة: **النرجسية**[١٢]. غير أن ذلك ليس إلا ضرباً من المغالاة الشديدة في وضع معتاد. وقد أدركنا في نهاية المطاف أن الأنا هو على الدوام المستودع الرئيسي لليبيدو وأنه نقطة انطلاق التوظيفات الليبيدوية الموضوعانية ونقطة وصولها معاً، وأن الشطر الأكبر من هذا الليبيدو عينه يبقى مقيماً في الأنا بصورة مستديمة. فالليبيدو الأنوي لا يني يتحول بلا انقطاع إلى ليبيدو موضوعاني، والعكس بالعكس. لكن بما أن هذين الليبيدوين لا يختلفان في طبيعتهما، فلا جدوى إذاً من تفريق طاقة كل منهما عن الأخرى. وعلى هذا، كان لنا الخيار بين أن نقلع نهائياً عن استخدام مصطلح الليبيدو هذا وبين أن نستعمله للإشارة إلى الطاقة النفسية إجمالاً.

على أننا لم نلبث أن تخلينا عن وجهة النظر هذه بدورها. إذ سرعان ما فرضت نفسها بمزيد من الجلاء وبطريقة مغايرة تماماً فكرة وجود شقاق في داخل الحياة الغريزية بالذات. ولست أودّ الدخول هنا في جميع تفاصيل هذه الكشوف. اعلموا فقط أن نظريتنا الجديدة عن الدوافع الغريزية ترتكز هي أيضاً إلى اعتبارات بيولوجية، وسأطلعكم على النتائج التي تحصلت لنا. إننا نسلِّم بوجود نوعين، مختلفين جوهراً، من الدوافع الغريزية: الدوافع الغريزية الجنسية،

١٢ ـ معلوم أن النرجسية مشتقة من اسم نرجس، ابن الجنية ليريوب التي اغتصبها إله الأنهار قافيزوس. وقد روى أسطورته أوفيد في قصيدته **الامساخات**. «م».

علماً بأن كلمة الجنسية مأخوذة هنا بأوسع معانيها، أي **الإيروس** Eros[١٣] إذا شئتم، والدوافع الغريزية العدوانية التي هدفها الهدم والتدمير. وقد ترون أن لا جديد في الأمر هنا، وإني لا أفعل من شيء سوى أني أحاول أن أفسِّر نظرياً التعارض بين الحب والكراهية، وهو التعارض الذي ربما صحّ أن نقول إنه يتطابق مع ذلك التعارض الآخر بين الجذب والدفع الذي تصادر العلوم الفيزيائية على وجوده في العالم اللاعضوي. لكن الغريب في الأمر أن العديد من الناس سيعتبرون هذا البيان بدعة خطرة يجب نبذها بأسرع ما يمكن. وفي رأيي أن عاملاً عاطفياً يكمن وراء هذا الرفض. ألم نتأخر نحن أنفسنا كثيراً حتى اعترفنا بوجود غريزة عدوانية؟ ولِمَ لم نتجرأ قبل الآن على إزاحة النقاب عن وقائع تثب إلى العين ويعرفها كل إنسان، وعلى تقديم تفسير نظري لها؟ أكبر الظن أن المقاومة ما كانت لتكون على هذه الدرجة من الشدة لو لم نعزُ مثل هذه الغريزة إلا إلى الحيوان وحده. أما أن نفترض وجود هذه الغريزة في الجبلّة البشرية، فذلك أدنى إلى انتهاك القدسيات ويخالف عدداً كبيراً من الفرضيات الدينية والمواضعات الاجتماعية. كلا، لا بدّ أن يكون الإنسان خيِّراً، أو على الأقل ميالاً إلى الطيبة. فإن عرض له أن كان فظاً عنيفاً قاسياً، فالتبعة في ذلك إنما تقع على اضطرابات عابرة في حياته العاطفية، اضطرابات مستحدثة مستثارة في أغلب الأحوال، وناشئة في أرجح الظن عن التنظيم الاجتماعي الفاسد الذي لا يزال قائماً إلى اليوم.

لكن كل ما يعلمنا إياه التاريخ، ويا للأسف، وكل ما نستطيع نحن أنفسنا أن نعاينه يكذِّب ذلك المعتقد ويظهِر لنا بالأحرى أن الإيمان بـ«طيبة» الطبيعة البشرية هو واحد من تلك الأوهام المؤسية التي يعقد عليها الإنسان الرجاء في أن تجمِّل حياته وتيسِّرها، مع أن كل شأنها أن تلحق به الضرر. لكن لنذر هذا النقاش غير المجدي: فما حملنا على التسليم بوجود غريزة عدوان وتدمير لدى الإنسان لم يكن تعاليم التاريخ ولا خبراتنا الخاصة بالحياة، وإنما بعض الاعتبارات العامة

١٣ ـ إيروس: إله الحب والقوة الخلاقة في الميتولوجيا اليونانية. والأرجح أنه مقتبس بالمعنى نفسه من اللغات السامية.«م».

المستوحاة من ملاحظ ظاهرتين: **السادية والمازوخية**. فنحن نطلق اسم السادية[14] على الحاجة إلى إيلام الموضوع الجنسي وإذلاله وإساءة معاملته للفوز بالإشباع الجنسي، واسم المازوخية[15] على حاجة الشخص نفسه إلى أن يتحمّل هو ذاته كل ذلك العذاب. وأنتم لا تجهلون أيضاً أن هاتين النزعتين تضطلعان بدور في العلاقات الجنسية السوية، وأنهما توصفان بالانحراف متى ما أقصتا الأهداف الجنسية الأخرى وأحلّتا محلها غاياتهما الخاصة. وقد تسنى لكم أن تلاحظوا أيضاً أن السادية أوثق ارتباطاً بالرجولة، والمازوخية أوثق ارتباطاً بالأنوثة، كما لو أن هناك صلة قرابة خفيّة. ولكن لنضف من فورنا أننا لم نحرز تقدماً أكثر من هذا في هذا الطريق. فكلتا النزعتان، السادية والمازوخية، وعلى الأخصّ المازوخية، لا يزال يكتنفهما غموض كبير من زاوية نظرية الليبيدو، ولا يندر بوجه عام أن يتحول ما كان حجر عثرة لنظرية من النظريات إلى حجر زاوية للنظرية التالية لها.

تقدِّم لنا السادية والمازوخية، فيما نعتقد، مثالين ممتازين على تشابك كلا النوعين من الدوافع الغريزية، الإيروس والعدوان؛ ونحن نسلِّم بأن هذين المثالين نموذجيان وبأن جميع الحاثات الغريزية التي قد نتصدى لدراستها هي مزائج وخلائط من تينك الغريزتين. وطبيعي أن نسب المزج تتفاوت من حالة إلى أخرى. فالدوافع الغريزية الإيروسية تسهم في هذا المزج بتعدد أهدافها الجنسية، بينما لا تسهم الدوافع الغريزية الأخرى إلا بتخفيف وتدريج لمنزعها الأحادي الرتيب. وقد أتاحت لنا هذه المعطيات أن نجري أبحاثاً قد يكون لها ذات يوم

14 ـ السادية أو حبّ تعذيب الآخر: مشتقة من اسم المركيز دي ساد (١٧٤٠ ـ ١٨١٤) الذي اشتهر بما كتبه من روايات ارتبطت فيها الإيروسية بلذة تعذيب الغير. «م».

15 ـ المازوخية أو لذة تعذيب الذات: مشتقة من اسم الكاتب النمساوي ليوبولد فون ساشر ـ مازوخ (١٨٣٦ ـ ١٨٩٥) الذي اشتقّ الكاتب النمساوي ـ المجري كرافت ـ إيبنغ (١٨٣٦ ـ ١٩٠٢) من اسمه، وبالإحالة إلى رواية له بعنوان **فينوس ذات الفرو**، مصطلح المازوخية ليطلقه على ظاهرة لذة تعذيب الذات. وهناك من النقاد من يرى أن في ذلك ظلماً للروائي من قبل كرافت ـ إيبنغ المتهم بدوره بأنه كان معادياً للمرأة، ولهذا لم يفهم تعهد بطل **فينوس ذات الفرو** بتنفيذ جميع أوامر معشوقته على مدى ستة أشهر. «م».

أهمية كبرى فيما يتصل بفهم السيرورات المَرَضية. وبالفعل، إن هذه المزائج قابلة هي نفسها لأن تتفكّك، ولدينا أكثر من سبب يحملنا على الاعتقاد بأن تفكك الدوافع الغريزية هذا تترتب عليه أخطر العواقب على الوظيفة. على أن جدّة هذه الآراء قد حالت حتى الآن دون محاولة الاستفادة منها عملياً.

لندرس من جديد المشكلة الخاصة التي تطرحها المازوخية. فلو صرفنا النظر مؤقتاً عن المقوِّم الإيروسي في المازوخية، لوجدنا هذه الأخيرة تزيح لنا النقاب عن وجود ميل إلى تدمير الذات. ولقد قررنا من قبل أن الأنا يحتوي جميع الدوافع الغريزية (والأصح هنا أن نقول الهذا، أي الشخص بكليته)؛ فإن صدق هذا على غريزة الهدم والتدمير أيضاً، ترتب على ذلك أن المازوخية أقدم من السادية، وأن السادية هي غريزة الهدم وقد اتجهت إلى الخارج وتلبست طابعاً عدوانياً. ومن المحتم أن يبقى شطر من غريزة الهدم الأصلية مقيماً في الداخل، لكن يبدو أننا لا نستطيع إدراك وجوده في حالتين: حين يتحول إلى مازوخية بفعل اتحاده بالدوافع الإيروسية، أو حين يتهدد العالم الخارجي في شكل نزعة عدوانية مشحونة بقدر أو بآخر من الإيروسية. وعندئذ نقول إنه إذا لم تتوصل العدوانية إلى بغيتها من الإشباع في العالم الخارجي، فربما كان ذلك لاصطدامها فيه بعقبات فعلية؛ ومن المحتمل عندئذ أن تعزف عن التظاهر والإفصاح عن نفسها في الخارج، فتضخِّم من ثم كتلة غرائز تدمير الذات التي تغلي في مرجلها الداخلي. وسنرى عما قليل أن الأمور تحدث على هذا المنوال فعلاً، وأنه يخلق بنا أن نعطي هذه السيرورة ما تستحقه من أهمية جلى. فالعدوانية المصدودة يمكن أن تغدو ضارة للغاية؛ فكل شيء يجري كما لو أننا مكرهون، كيلا نستسلم لنزوعنا إلى الهدم الذاتي، وكي نتحاشى تدمير أنفسنا، على تدمير الناس والأشياء. فبئساً لها من ملاحظة بالنسبة إلى عالم الأخلاق!

غير أن عالم الأخلاق سيعزّي نفسه لأجل طويل من الزمن بعد بقوله إن تأملاتنا هذه هي محض فرضيات. وإنها لغريبة بالفعل تلك الغريزة التي تنزع إلى تدمير مسكنها الخاص! صحيح أن الشعراء يتكلمون أحياناً عن أشياء من هذا القبيل، لكن الجميع يعرفون أن الشعراء أشخاص غير مسؤولين. فهل الجوازات الشعرية وقف عليهم وحدهم؟ أكبر الظن أن الفيزيولوجيا أيضاً تقدِّم لنا مثالاً على

التدمير الذاتي: مثال ذلك الغشاءُ المخاطي المَعِدي إذا ما هضم نفسه بنفسه. على أنه لا مفرّ لنا من التسليم بأن الأدلة على وجود هذه الغريزة ليست بالمثلى التي لا تشوبها شائبة. إذ ليس يكفي أن يرتهن الإشباع الجنسي لدى بعض المجانين التعساء ببعض الشروط الغريبة الشاذة حتى نجيز لأنفسنا أن نأخذ بمثل هذا الرأي الذي تترتب عليه نتائج جسام! وأعتقد أن تعمقنا في دراسة الدوافع الغريزية قمين بأن يجلو هذه النقطة. والدوافع الغريزية لا تتحكم بالحياة النفسية فحسب، بل كذلك بالحياة الفيزيولوجية. وهذه الغرائز العضوية خليقة بأن نوليها اهتمامنا في ناحية واحدة على الأقل. وسوف نرى لاحقاً أن هذه الناحية مشتركة بين الدوافع الغريزية كافة. فهذه الأخيرة تنزع دوماً، كما نكتشف بالفعل، إلى إعادة بناء وضعية سابقة؛ ومباح لنا أن نفترض أنه ما إن تزول وضعية بعينها حتى تتشكل غريزة لتبتعث هذه الوضعية من جديد، فتنشأ عن ذلك ظاهرات **آلية التكرار القهري**. وما تخلُّق الأجنّة إلا تكرار آلي. وإذا تعقبنا السلسلة الحيوانية إلى أصولها البعيدة جداً، وجدنا لدى الحيوان القدرة على إعادة خلق الأعضاء التي يفقدها. ونحن ندين لغريزة البقاء بقدر ما ندين لعلم المداواة بعدد كبير من حالات الشفاء، لكن هذه الغريزة قد لا تعدو أن تكون بقية متخلفة من مقدرة كانت نامية كل النمو لدى الحيوانات الدنيا. فهجرة الأسماك، وكذلك هجرة الطيور في أكبر الظن، وبالاختصار، كل ما نعتبره تظاهراً للغريزة لدى الحيوانات يحدث بفضل آلية التكرار التي تفصح عن **الطبيعة المحافظة** للدوافع الغريزية. والحق أن هذه الطبيعة المحافظة تنمّ عن نفسها أيضاً في كل زمن وآن في المضمار النفسي. وقد لاحظنا أن الأحداث والخبرات المنسية والمكبوتة من الطفولة الأولى تكرر نفسها في أثناء العمل التحليلي في شكل أحلام وردود فعل، وعلى الأخص في ردود الفعل المتصلة بظاهرة التحويل[١٦]؛ وهذا مع أن انبعاث هذه الأحداث والخبرات الماضية يبدو وكأنه يخالف مبدأ اللذة: ذلك أن آلية التكرار القهري أقوى من مبدأ اللذة نفسه. وبوسعنا أن نلاحظ وقائع مشابهة خارج نطاق

١٦ ـ التحويل: مصطلح أساسي في التحليل النفسي بالإحالة إلى واقعة إسقاط المحلَّل مشاعره الحبية أو العدائية على شخص المحلِّل أو الطبيب المعالج. «م».

التحليل. فبعض الأفراد يكررون على مدى حياتهم استجاباتهم وردود فعلهم الضارة عينها بلا تغيير، أو يلوح وكأنهم مطاردون من قبل قدر عاتٍ محتوم؛ ولكننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أنهم الصانعون الحقيقيون عن غير وعي منهم لحظِّهم العاثر. ونحن نعزو في مثل هذه الحال إلى آلية التكرارالقهري طابعاً **شيطانياً**.

لكن هذه السمة المحافظة للدوافع الغريزية ماذا يمكن أن تفيدنا في فهم نزوعنا إلى تدمير ذاتنا؟ وما الوضعية القديمة الذي تبغي مثل هذه الدوافع الغريزية المحافظة العودة إليها؟ الجواب سهل، ويفتح لنا آفاقاً واسعة رحبة. فلئن صحّ أن الحياة بزغت ذات يوم، في ماضٍ سحيق لا تعيه الذاكرة، وبكيفية يتعذر تخيُّلها، من المادة غير الحيّة، فلا بدّ، طبقاً لنظريتنا، أن يكون تخلّق أيضاً دافع غريزي يرمي إلى إلغاء الحياة من جديد وإلى إعادة الحالة اللاعضوية. وإذا تعرفنا في هذا الدافع الغريزي تدمير الذات الذي تتحدث عنه فرضيتنا، تعيَّن علينا أن نرى فيه تعبيراً عن **غريزة الموت** التي تتظاهر في جميع سيرورات الحياة بلا استثناء. وهكذا نستطيع أن نقسم الدوافع الغريزية التي سلّمنا بوجودها إلى المجموعتين التاليتين: الدوافع الغريزية الإيروسية التي تنزع إلى حشد المزيد فالمزيد دوماً من المادة الحية لتشكِّل منها وحدات أكبر فأكبر، والدوافع الغريزية إلى الموت التي تعارض هذا النزوع وتردّ المادة الحية إلى الحالة اللاعضوية؛ وإنما عن تضافر هاتين المجموعتين من الدوافع الغريزية وتعارضهما تنبع ظاهرات الحياة التي يضع الموت لها حداً.

قد تهزّون أكتافكم وتقولون: «إن ما تعرضه علينا هنا هو محض فلسفة شوبنهاورية[١٧] وليس نظرية علمية!». وهل من مانع، سيداتي سادتي، يحول دون أن يحدس مفكر جريء بما ستؤيد صحته فيما بعد الملاحظة الشاقة والجافة؟ ثم هل غادر الشعراء من متردّم؟ أو لم يفصح الأقدمون، قبل شوبنهاور بعهد بعيد، عن أفكار مشابهة؟ أضف إلى ذلك أن أفكارنا ليست هي بالضبط أفكار

---

١٧ ـ معلوم أن الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٩٦٠) اشتهر بنزعته التشاؤمية التي عرض معالمها في كتابه **العالم كإرادة وكتصور**، وإن يكن هناك تشكيك من قبل بعض النقاد في أن يكون قد قال بوجود غريزة الموت. «م».

شوبنهاور. فنحن لا نزعم أن الموت هو الهدف الوحيد للحياة، كما أن هذه الأخيرة لا تبدو لنا كمّاً مهملاً. بل نحن نسلِّم بوجود دافعين غريزيين أساسيين، ونترك لكل منهما هدفه الخاص به. أما كيف يمتزج هذان الدافعان الغريزيان في أثناء سيرورة الحياة، وكيف تأتى للدافع الغريزي إلى الموت، وعلى الأخص في الحالات التي يتظاهر فيها خارجياً في شكل نزعة عدوانية، أن يؤازر مقاصد الدوافع الغريزية الإيروسية ويخدم أغراضها، فهذا ما يقع على عاتق الدراسات المستقبلية الإجابة عنه وبيانه. أما نحن فلن نذهب إلى أبعد من النقطة التي عندها ينفتح أمامنا مثل هذا المنظور. ومن ثم، إننا سنترك بلا جواب أيضاً مسألة معرفة ما إذا لم تكن الدوافع الغريزية جميعها ذات طبيعة محافظة، وما إذا لم تكن الدوافع الغريزية الإيروسية تصبو، هي الأخرى، إلى استرجاع وضعية آبدة عن طريق تركيب المادة الحيّة في وحدات أكبر.

ها قد نأت بنا الشقة عن منطلقنا، وسأقول لكم، ولو بعد تأخير، إن نقطة البدء في تأملاتنا هذه كانت هي عينها التي حثّتنا على إعادة النظر في الصلات بين الأنا واللاشعور، أي استشعارنا بالمقاومة التي يبديها المريض في أثناء العمل التحليلي والتي لا يكون لها واعياً في كثرة غالبة من الأحوال. ولكن ليست المقاومة وحدها، بل دوافعها أيضاً تبقى لاشعورية. ولما لم يكن لنا مناص من البحث والتنقيب عن هذا الدافع أو هذه الدوافع، فقد كانت مفاجأتنا عظيمة حينما وجدناها تفصح عن نفسها في حاجة **ماسة إلى العقاب** ولم نرَ بداً من تصنيفها في عداد الرغبات المازوخية. ولا تقلّ الأهمية العملية لهذا الكشف عن أهميته النظرية، إذ إن الحاجة إلى العقاب هي الأقوى بين العقبات التي تعترض سبيل جهودنا العلاجية. فهذه الحاجة تجد ما يلبيها في الألم، قرين العصاب، ولذا تتشبث بالمرض. ويبدو أن لهذا العامل، أي الحاجة اللاشعورية إلى العقاب، دوراً في الأمراض العصابية كافة. وهذا ما تشهد عليه، على نحو لا يدع مجالاً للشك، الحالات التي يحلّ فيها محل التألم العصابي تألم من نوع مغاير. وسأضرب لكم مثلاً: آنسة متقدمة في العمر قليلاً كانت تشكو على امتداد خمسة عشر عاماً من جملة أعراض تجرّعها غصص العذاب وتحول بينها وبين أن

تحيا حياة سوية. وقد تسنى لي أن أحررها من هذه الأعراض. فلما شعرت هذه الآنسة بأنها وجدت سبيلها إلى الشفاء، نشطت نشاطاً موفوراً وسعت إلى تنمية مواهبها التي لم تكن متوهّمة بحال وشاءت بكل جوارحها أن تعوّض ما فاتها من الزمن وأن تعرف أخيراً النجاح والسعادة. غير أن محاولاتها جميعاً باءت بالفشل: فقد قيل لها أو لاحظت بنفسها أن السن التي بلغتها لا تفتح أمامها أبواب النجاح. وما كان من المستغرب إزاء الخيبة المتكررة أن تنتكس ويعاودها المرض، ولكن هذا الطريق كان قد بات عليها بحكم المسدود. وبالمقابل، صار يقع لها، بعد كل خيبة أمل، حادث يسبّب لها ألماً ويمنعها لحين من الزمن من متابعة نشاطها: سقطة، التواء في القدم، جرح في الركبة، في اليد، إلخ. وقد لفتُّ نظرها إلى أنه ليس من المستبعد أن تكون لها يد كبيرة، هي نفسها، في هذه الحوادث التي تزعم أنها تقع لها مصادفة واتفاقاً، فإذا بها على إثر ذلك تغيّر تكتيكها إن جاز التعبير. فقد نابت مناب تلك الحوادث، في الظروف عينها، وعكات خفيفة: زكام، التهاب في اللوزتين، نزلة وافدة، تورُّم روماتزمي. وتابعتْ على هذا المنوال إلى أن صحّ عزمها على التسليم بواقع الأمر، فإذا بكل هذه العوارض تختفي.

وعندنا أنه ما عاد ثمة مجال للشك بصدد أصل الحاجة اللاشعورية إلى العقاب. فهذه الحاجة تتصرف كما لو أنها جزء من الضمير، امتداد من الضمير إلى اللاشعور، وتنبع في أرجح الظن من نفس المصدر الذي ينبع منه الضمير، أي أنها بمثابة شطر من العدوانية جرى استبطانه واستحوذ عليه الأنا الأعلى. ولولا التناقض الذي لا مفرّ من أن ينشأ بين الألفاظ، لجاز لنا الكلام عن «شعور لاشعوري بالذنب». ومثل هذا الوصف له ما يبرره من الناحية العملية. أما من الناحية النظرية فإننا لا نزال نتخبط في الشك: إذ هل يتعيَّن علينا أن نسلِّم بأن العدوانية، المشيحة عن العالم الخارجي، تُحتكر برمَّتها من قبل الأنا الأعلى الذي يؤلِّبها على الأنا؟ أما بوسعنا الافتراض أن شطراً من هذه العدوانية يمارس نشاطه الصامت، الغريب، المقلق، في شكل دافع غريزي طليق إلى التدمير، في الأنا والهذا على حدّ سواء؟ إن فرضية الانشطار تبدو لي أقرب احتمالاً، لكن لا يسعنا

أن نقول أكثر من ذلك. ومن المحقق أن شطر العدوانية الذي يسهم في تكوين الأنا الأعلى هو بالتحديد ذلك الشطر الذي كان موجَّهاً لدى الطفل ضدّ والديه والذي ما تسنى له أن يأخذ طريقه إلى التصريف خارجياً إما بسب التثبيت الحبِّي للطفل وإما بفعل موانع وعقبات خارجية. وهذا هو السبب في أن صرامة الأنا الأعلى لا تتطابق بالضرورة مع قسوة التربية. ومن المحتمل جداً أنه كلما سنحت فرصة لاحقة لكبت العدوانية، سلك الدافع الغريزي الطريق عينه الذي شُقّ له في تلك اللحظة الحاسمة.

إن الأشخاص الذين يعانون شعوراً لاشعورياً مشتطاً بالذنب يظهِرون في أثناء المعالجة التحليلية استجابة شفائية سلبية، وهذا نذير سوء وشؤم. فحين نكاشفهم بسرّ العرض الذي يعانون منه، لا يستتبع ذلك، كما في الأحوال الأخرى، زوال العرض ولو بصورة مؤقتة، بل تكون النتيجة على العكس استفحالاً مؤقتاً في العرض وفي المرض المصاحب له. وقد يكون كافياً في كثير من الأحيان أن نهنئ هؤلاء المرضى على مسلكهم في أثناء المعالجة أو أن نقول لهم بضع كلمات تشجيعية بصدد تقدم التحليل حتى تتفاقم حالتهم. وقد يقول من لا اطلاع له على التحليل النفسي إن هؤلاء المرضى تعوزهم «الرغبة في الشفاء». أما في نظر المحلل النفسي فإن هذا المسلك ينمّ عن تظاهر لشعور لاشعوري بالذنب تستجيب له عذابات المرض وما ينصبه من عقبات وعراقيل. والمشكلات التي يطرحها هذا الشعور اللاشعوري بالذنب، وصلته بالأخلاق وعلم التربية وعلم الجريمة والجنوح، تفتح للمحلل النفسي في الوقت الحاضر حقلاً للدراسة يؤْثره على كل حقل سواه. هكذا نخرج من العالم التحتي النفسي لنطلّ على حين بغتة على الساحة العامة. ولست مستطيعاً أن أمضي بكم إلى أبعد مما مضينا، لكن عليَّ قبل أن أفارقكم اليوم أن أكاشفكم بملاحظة أخرى. فقد درجنا على القول إن حضارتنا شُيِّدت على حساب الميول والنوازع الجنسية المكفوفة من قبل المجتمع. وبالفعل، كان مآل بعض من هذه الميول والنوازع إلى الكبت، بينما جرى استخدام بعضها الآخر لأهداف جديدة. وعلى الرغم من كل زهونا بما حققته الحضارة من تقدم، اعترفنا بأنه من العسير غاية العسر الإذعان لمتطلباتها كافة والعيش في كنفها

بحبور وتطلُّق؛ أفليس كبح المرء لدوافعه الغريزية مهمة تبهظه؟ وما قلناه عن الدوافع الغريزية الجنسية يصدق أكثر أيضاً على الدوافع الغريزية إلى العدوان. فهذه الأخيرة تقيم عثرات جمّة أمام الحياة في مجتمع، بل تتهددها أيضاً. وأوّل تضحية، وربما أشقّ تضحية يتوجب على المجتمع أن يتطلبها من الفرد هي الحدّ من عدوانيته ولجمها. وقد تسنى لنا أن نرى الطريقة البارعة التي يتمّ بها ترويض هذا العنصر المشاكس. فتكوين الأنا الأعلى الذي يجتذب إليه الحاثات العدوانية الخطرة يعدل، إن جاز التعبير، حشد قوات عسكرية في المنطقة المهددة باندلاع عصيان فيها. لكن لا بدّ لنا، من جهة أخرى، ومن وجهة النظر السيكولوجية الخالصة، أن نقرّ بأن الأنا لا يرتاح كل الارتياح حينما يرى نفسه وقد ضُحِّي به على هذا النحو على مذبح حاجات المجتمع، وحينما يُكره على الخضوع للنزعات العدوانية المدمِّرة التي كان يودّ أن يستخدمها هو نفسه ضد الآخرين. ولكأن الحياة النفسية تخضع هنا للخيار ذي الحدَّين الذي يهيمن على الحياة العضوية: إما أن تَفترس وإما أن تُفترس. ومن حسن الحظ أن الدوافع العدوانية لا تكون أبداً منعزلة، بل ممتزجة على الدوام بالدوافع الإيروسية؛ وإنما على عاتق هذه الأخيرة تقع، في إطار الحضارة التي خلقها بنو الإنسان لأنفسهم، مهمةُ تلطيفِ الكثير من الأشياء وتداركها واتقائها.

المحاضرة الثالثة والثلاثون

الأنوثة

سيداتي وسادتي، ما فتئت، وأنا أتهيأ لإلقاء هذه المحاضرات، أواجه داخل نفسي حرجاً وأشعر، بنوع ما، بأني لست متأكداً من الحدود التي يحقّ لي المضيّ إليها في كلامي إليكم. فلئن طرأ تبدل كبير واغتناء على التحليل النفسي خلال الخمسة عشر عاماً المنصرمة من العمل والجهد، فقد لا تكون هناك حاجة إلى إعادة النظر في هذا المدخل إلى التحليل النفسي أو إلى تكملته. وإني لأتساءل عما إذا كان لهذه المحاضرات من داعٍ ومبرر فعلاً؛ والحق أنه ليس عندي شيء أقوله للمحللين النفسيين أو جديد أطالعهم به، على حين أن ما أكاشفكم به يزيد عن حاجتكم، وربما عن قدرتكم على الفهم. والتماساً للمعذرة تذرعت لكل محاضرة بدافع مختلف. فالمحاضرة الأولى عن نظرية الحلم كان الهدف منها أن تغطسكم دفعة واحدة في جو التحليل وأن تبيِّن لكم مدى ما دلَّلت عليه تصوراتنا من صلابة وصمود. وكان موضوع المحاضرة الثانية صلات الحلم بعلم الغيب، وقد أتاحت لي الفرصة لأكلِّمكم بحرية عن مجال للبحث يدور بصدده اليوم صراع طاحن بين أنصارٍ محشوة أدمغتهم بالأحكام المسبقة وخصوم مضطرمين حماسة. وقد أبحث لنفسي أن آمل أن ترافقوني في تجوابي في هذا المجال، بعد أن أكسبكم مثال التحليل النفسي مرونة وتسامحاً. أما المحاضرة الثالثة عن تقاسيم الشخصية النفسية فقد استأدتكم في أكبر الظن عناء ومجهوداً عظيمين، بالنظر إلى أن الموضوع الذي دارت عليه كان على جانب كبير من الغرابة. على أنه كان من المتعذر عليّ أن أمسك عنكم هذه الإضافة الأولى في مجال علم نفس الأنا؛ ولو كانت المعطيات حول هذا الموضوع متوفرة لنا قبل خمسة عشر عاماً لكنت حدثتكم عنها منذ ذلك الحين. وأخيراً جاءت المحاضرة

الرابعة، التي لا أشكّ في أنكم لقيتم عنتاً شديداً في تتبّعها، ببعض تصويبات ضرورية وأزاحت لكم النقاب عن الكيفية التي نحاول أن نحلّ بها اليوم أهم المشكلات. وما كان لمدخلي هذا إلا أن يضلّكم ويخرج بكم إلى غير الطريق الصحيح فيما لو سكتُّ عن تلك النقطة. وكما ترون، فإن واحدنا حين يحاول أن يتدبر لنفسه الأعذار لا يلبث أن يداخله الاقتناع بأن كل ما فعله لم يكن منه بدّ؛ ومن ثم، إني أسألكم أن تذعنوا لما لم يكن منه مناص، مثلما فعلت أنا.

ما كان لمحاضرة اليوم أيضاً أن تجد لها مكاناً في مدخل كالذي نحن بصدده، ولكن لديّ أكثر من حافز وجيه لإلقائها عليكم. فهي ستقدِّم لكم أولاً عينة عن العمل التحليلي المفصَّل، وهي لا تشتمل ثانياً إلا على وقائع صادرة عن المشاهدة وليس فيها للنظر التأملي، إن جاز القول، أي نصيب، وستعالج ثالثاً وأخيراً موضوعاً يمكن في أرجح الظن أن يثير اهتمامكم أكثر من أي موضوع عداه. فقد كانت مشكلة الأنوثة محط تأمل الناس على مرّ العصور. قال هايني في **بحر الشمال**:

رؤوس في عمرات تغطيها الطلاسم الهيروغليفية

رؤوس في عمائم أو قلنسوات سود

رؤوس بشعور مستعارة، وآلاف أخر

يا لها من رؤوس بشرية مسكينة تنضح بالعرق![1]

إن مشكلة الأنوثة تشغل اهتمامكم باعتباركم رجالاً. أما بالنسبة إلى النساء الموجودات بينكم فالمسألة غير مطروحة، على اعتبار أنهن هنّ أنفسهن اللغز الذي نتكلم عنه. فأنتم متى ما التقيتم بكائن بشري أدركتم للحال أهو رجل أم امرأة، بل ذلك هو أول ما يثب منه إلى أنظاركم، وقد اعتدتم أن تجروا هذا التمييز بثقة

---

١ ـ هنريخ هايني: شاعر ألماني (١٧٩٨ ـ ١٨٥٦). يُعدّ أبا الرومانسية. والأبيات الأربعة جزء من سابعة قصائد **بحر الشمال** عنوانها **أسئلة**. وشاهد فرويد تسبقه في الأصل ثلاثة أبيات:

أواه! أوجدوا لي حلاً للغز الحياة

اللغز الخالد الذي لا يفتأ يبلبلنا

وفي الإجابة عنه ما فتئت أدمغة كثيرة تجترّ نفسها. «م».

ويقين تامين. والحال أن علم التشريح لا يقف موقفكم القطعي إلا بصدد نقطة واحدة لا غير. فهو ينبئنا أن الذكر هو العنصر الجنسي المذكر، الحوين المنوي وحاويه، أما الأنثى فهي البييضة والجسم الذي يحتويها. وبعض الأعضاء التي تقوم على خدمة الوظائف الجنسية دون سواها تتكون لدى كل واحد من الجنسين، وتمثّل في أرجح الظن تفريعات مختلفة لأصل واحد. أضف إلى ذلك أن الأعضاء الأخرى وهيئة الجسم والأنسجة تتأثر بالجنس، غير أن هذه الخصائص الجنسية الثانوية متحولة وغير ثابتة. وأخيراً يطالعكم العلم بواقعة غير متوقعة وقمينة بأن تزرع الارتباك في مشاعركم. فهو يلفت نظركم إلى أن أجزاء معيَّنة من الجهاز الجنسي المذكر توجد أيضاً لدى المرأة، ولو في صورة ضامرة، والعكس بالعكس. ويرى العلم في هذه الواقعة برهاناً على جنسية مزدوجة، على **ثنائية جنسية**، كما لو أن الفرد ليس ذكراً خالصاً أو أنثى خالصة، بل هو كلاهما معاً، سوى أن إحدى الخلقتين تغلب الأخرى. وليقرّ في أذهانكم أن نسبة الذكورة والأنوثة تتفاوت تفاوتاً بيِّناً من فرد إلى آخر. ومع ذلك، وفيما خلا حالات نادرة، لا ينتج كل فرد سوى نوع واحد من المنتجات الجنسية: إما بييضة وإما حوين منوي. وهذا كله من شأنه بلا ريب أن يبعث على الحيرة، ولعلكم غير واجدين مفراً من أن تخلصوا إلى الاستنتاج بأن الرجولة أو الأنوثة مردّهما إلى خاصية مجهولة لم يتوصل التشريح إلى وضع يده عليها.

فهل في قدرة علم النفس أن يحلّ هذه المشكلة؟ لقد ألفنا أن نعتبر بعض الخصائص النفسية مذكرة أو مؤنثة، فأدخلنا بذلك إلى الحقل النفسي الثنائية الجنسية. فنحن نقول عن شخص بعينه، سواء أكان ذكراً أم أنثى، إنه تصرّف تصرف الرجال في موقف محدَّد، وتصرف النساء في موقف محدَّد آخر. لكنكم سرعان ما ستفطنون إلى أننا ندلِّل على هذا النحو على احترامنا للتشريح وللعرف. والواقع أنكم لا تستطيعون أن تبتكروا لمفهومي الذكورة والأنوثة مضموناً جديداً. والتمييز الذي تجرونه بينهما ليس من طبيعة سيكولوجية. وبوجه عام، أنتم تستخدمون كلمة «مذكر» بمعنى «الفاعل» وكلمة «مؤنث» بمعنى «المنفعل»، وهو استخدام له ما يبرره أصلاً. فالخلية المذكرة نشطة، متحركة، تجدّ

في طلب الخلية المؤنثة؛ أما البييضة فثابتة وسلبية. وبالإجمال، يتطابق مسلك الفردين المذكر والمؤنث في أثناء الاتصال الجنسي مع مسلك تينك العضويتين الجنسيتين الابتدائيتين. فالذكر يطارد الأنثى التي يصبو إليها، ويمسك بها، ويلج فيها. لكنكم تختزلون على هذا النحو، من وجهة النظر السيكولوجية، خاصية الذكورة إلى عامل العدوان وحده. وليس من المحقق أن يقودكم هذا الاختزال إلى كشف ذي قيمة؛ وحسبكم أن تتذكروا أن الإناث لدى بعض الحيوانات أقوى من الذكور وأكثر عدوانية منهم، وأن هؤلاء الأخيرين لا ينشطون إلا في أثناء فعل الاتصال الجنسي وحده. على هذا المنوال تجري الأمور لدى العناكب مثلاً. ثم إن حضانة الصغار ورعايتهم، وهما وظيفتان تبدوان لنا مؤنثتين صفةً، ليستا وقفاً بالضرورة على الجنس المؤنث لدى الحيوانات. فالذكور والإناث لدى بعض الحيوانات العليا يتقاسمون الرعاية الواجبة للصغار، بل إن الذكر يكرس نفسه لهذه المهمة أحياناً دون الأنثى. أما فيما يتصل بالحياة الجنسية لدى الإنسان، فلا يشقّ عليكم أن تدركوا أنه لا يكفي أن نصف السلوك المذكر بالفاعلية والسلوك المؤنث بالانفعالية. فالأم، من جميع وجهات النظر، فاعلة حيال طفلها؛ ومتى ما تكلمتم عن الإرضاع، جاز لكم القول إنها ترضع طفلها مثلما أن طفلها يرضعها. ثم إنكم كلما ابتعدتم عن المضمار الجنسي الخالص اتضح لكم بمزيد من الجلاء خطأ الاستنتاج الذي خلصتم إليه بطريق المقايسة. فبعض النساء، اللائي لا يتوصل إلى التفاهم معهن سوى رجال من ذوي العريكة اللينة والطبع الانقيادي السلبي، قادرات على إبداء نشاط موفور وفعالية فائضة في العديد من المجالات. وربما لفتُّم نظري إلى أن هذه الوقائع عينها تثبت وجود الثنائية الجنسية النفسية لدى الرجال والنساء معاً. وهذا معناه أنكم عاقدون راسخ العزم على المماثلة بين الانفعالية والأنوثة، وكذلك بين الفاعلية والذكورة. والحال أني أرى أنكم في هذا مخطئون، وأن هذا التصور مغلوط ولامجدٍ، فهو لا يأتينا ولا يمكن أن يأتينا بشيء جديد.

قد يكون في مستطاعنا القول إن الأنوثة تتميز، من الناحية السيكولوجية، بميل نحو أهداف سلبية، لكن هذا شيء والكلام عن السلبية والانفعالية شيء آخر.

وبالفعل، قد يتحتم أحياناً بذل نشاط كبير لبلوغ أهداف سلبية. ومن المحتمل أن يوجد لدى المرأة، بحكم دورها في الوظيفة الجنسية، ميل أشد بروزاً إلى المسالك والأهداف السلبية، وهذا الميل يشتدّ أو يخفّ تبعاً لدرجة اتساع هذه السمة النموذجية من سمات الحياة الجنسية أو لدرجة انحدادها في كل حالة على حدة. لكن لنحاذر على كل حال أن نهوّن من شأن تأثير التنظيم الاجتماعي الذي يجنح، هو أيضاً، إلى وضع المرأة في مواقف سلبية. والأمر لا يزال يكتنفه إبهام كبير. ولا نغفل كلك عن الصلة الثابتة بوجه خاص بين الأنوثة والحياة الغريزية. فالقواعد الاجتماعية وجبلّة المرأة الخاصة بها يقسرانها على كبت حاثاتها العدوانية، ومن هنا تتشكل لديها نزعات مازوخية قوية لا يعزّ عليها أن تصبغ الميول المدمرة المتجهة إلى الداخل بصبغة إيروسية. إذاً فالمازوخية هي بالفعل، كما يقال، أنثية جوهراً. وعلى هذا، وحتى عندما تلتقون برجال مازوخيين (وهذا شيء غير نادر)، فلن تجدوا مفراً من القول بأنهم ينطوون في خلقهم على قسمات أنثية ظاهرة.

هأنتمذا قد أصبحتم مهيّئين للإقرار بأن علم النفس ذاته لا يقدِّم لنا مفتاح سرّ الأنوثة. وأكبر الظن أن الضوء الكشاف سيأتينا من جهة أخرى، ولكن فقط بعد أن نعرف كيف يحدث تمايز الكائنات الحية إلى جنسين، وهي سيرورة نجهل الآن كل شيء عنها. وهذا مع أن ثنائية الجنسين صفة بارزة من صفات الحياة العضوية، بل سمة تميِّز هذه الحياة تمييزاً جلياً عن الطبيعة العادمة الحياة. وثمة حقل واسع للدراسة يقدّمه لنا من الأفراد مَن يتميزون بصفات الأنوثة تميزاً بيّناً أو غالباً بحكم ما لهم من أعضاء تناسلية مؤنثة. والحال أنه ليس من طبيعة التحليل النفسي أن يصف ماهية المرأة ـ فهذه مهمة يتعذر عليه الاضطلاع بها ـ بل أن يبحث في الكيفية التي تصبح بها امرأة، أي كيف تتطور المرأة بدءاً من الطفل ذي الاستعداد الجنسي المثلي المسبق. وقد تسنى لنا في السنوات الأخيرة أن نحصل بهذا الصدد على بعض المعلومات بعد أن تصدّت بعض زميلاتنا النابهات في التحليل النفسي لدراسة هذه المسألة. وقد حظي النقاش بصدد هذا الموضوع بمدد إضافي بحكم فارق الجنسين إذ كانت هؤلاء السيدات، كلما انتهينا نحن

المحللين الذكور إلى عقد موازنة يشتمّ منها أنها في غير صالح جنسهن، يداخلهن الريب في أن رؤوسنا محشوة بأحكام مسبقة راسخة الجذور تحول بيننا وبين رؤية الأشياء على حقيقتها وتسدّ علينا طريق التجرد عن الغرض وعدم التحيُّز في كل ما يتصل بالأنوثة. وبالمقابل، كان في مستطاعنا بسهولة أن نتفادى كل خروج عن قواعد الأدب والتهذيب عندما كنا نطرق موضوع الثنائية الجنسية. إذ لم يكن علينا في هذه الحال إلا أن نقول: «أرأيتن! الأمر لا يخصّكنّ. فأنتن تعلمن حقَّ العلم أنكن من وجهة النظر هذه استثناء وأدنى إلى الرجولة منكن إلى الأنوثة!».

إننا ننطلق في دراستنا للتطور الجنسي المؤنث من توقعين. فالجبلَّة أولاً لا تخضع، هنا أيضاً، للوظيفة بدون مقاومة؛ والمنعطفات الحاسمة ثانياً يُمهَّد السبيل لها أو يتمّ اجتيازها قبل البلوغ. وهذان التوقعان سرعان ما تؤكدهما الوقائع. فلو عقدنا موازنة بين تطور كل من الصبي والبنت الصغيرة، لوجدنا أن هذه الأخيرة لا مفرّ أمامها، كيما تستوي امرأة، من أن تمرّ بتطور أشقّ وأعقد ومن أن تتغلب على صعوبتين لا معادل لهما لدى الصبي. ولنتناول الأمور من بدايتها. فمن المحقق أننا لسنا بحاجة إلى معونة التحليل النفسي لنعاين اختلاف التكوين لدى كل من الصبي والبنت. ويقترن فارق الهيئة في الأعضاء التناسلية بعلامات جسمية فارقة أخرى لا حاجة بنا إلى الكلام عنها هنا، فهي معروفة على نطاق واسع. وينطوي الاستعداد الغريزي أيضاً على فوارق تتيح لنا أن نحدس بما سيكون عليه مستقبلاً أيضاً الكائن المؤنث. فالفتاة الصغيرة تكون، إجمالاً، أقل عدوانية وعناداً، وأقل تبجحاً وغروراً بنفسها، كما تكون أمسَّ حاجةً إلى العطف والحنان، وأدنى إلى الوداعة، وأكثر تبعية من الصبي الصغير. وهي تتعلم بأسرع وأيسر مما يتعلم هذا الأخير كيف تتحكم بوظيفتي التغوط والتبول، وهذا في أكبر الظن نتيجة لوداعتها؛ فالبول والغائط هما أول هدية يقدمها الطفل إلى الأشخاص الذين يبذلون العناية له، والتحكم بهما هو أول تنازل يتمّ انتزاعه من الحياة الغريزية الطفلية. ويبدو أن الفتاة الصغيرة تكون أذكى وأكثر حيوية من الصبي الصغير الذي يناظرها عمراً، كما تكون أحسن استعداداً منه لمواجهة العالم

الخارجي، كما يبدو في الوقت نفسه أن التوظيفات الموضوعانية تكون لديها أقوى. وإني لأجهل إن تكن دراسات دقيقة قد أيّدت صحّة هذه الملاحظات، على أنه يبقى من الأكيد الثابت أن الفتاة الصغيرة لا يمكن اعتبارها من المنظور العقلي متخلفة عن الصبي الصغير. والحق أن تلك الفوارق من حيث الجنس ليست على جانب كبير من الأهمية، ومن الممكن أن تعدِّل كفَّتَها التنوعاتُ الفردية، ومن حقّنا أن نغضّ النظر عنها ولا نقيم لها وزناً فيما يتصل بالهدف المباشر الذي ننشد.

ويلوح أن الأفراد من كلا الجنسين يجتازون أطوار الليبيدو الأولى على نحو متماثل. فخلافاً لكل توقع، لا تدلل الفتاة الصغيرة، في الطور السادي - الشرجي، على درجة من العدوانية أدنى من تلك التي يبديها الصبي الصغير. وقد استدلت المحللات النساء من تحليل ألعاب الأطفال أن الاندفاعات العدوانية لدى الفتاة الصغيرة لا تقلّ حدة أو تعدداً. وفي بداية الطور القضيبي تكون أوجه الشبه أبرز وألفت للنظر بما لا يقاس من أوجه الاختلاف. ويتعيَّن علينا أن نسلِّم بأن البنت الصغيرة تكون يومئذ أشبه برجل صغير. ومعلوم لدينا أن الصبي الصغير إذا ما دخل في هذا الطور تعلمَّ كيف يظفر بأحاسيس لذيذة من قضيبه الصغير، ويكون هذا التهيج مرتبطاً ببعض التصورات عن الاتصال الجنسي. وتستخدم الفتاة الصغيرة للغرض نفسه بظرها الذي هو أضأل حجماً بعد. ويبدو أن جميع الأفعال الاستمنائية تتركز لديها على مكافئ القضيب هذا، كما يبدو أن المهبل، المؤنث في طبيعته، يظل خافياً في ذلك العهد على كلا الجنسين. صحيح أن هناك من يتحدث عن أحاسيس مهبلية مبكرة، لكن يبدو من العسير تمييز هذه الأحاسيس عن الأحاسيس الشرجية أو الأحاسيس الفرجية، وليس لها على كل الأحوال أن تلعب دوراً ذا بال. وفي مقدورنا أن نسلِّم بأن البظر هو فعلاً ما يشكل المنطقة الشهوية الغالبة عند البنت في الطور القضيبي. غير أن هذه الحالة ليست بالمستديمة: فطرداً مع تكوّن الأنوثة يفترض بالبظر أن يتخلى للمهبل عن حساسيته، وبالتالي أهميته، بصورة كاملة أوجزئية، وتلك هي إحدى الصعوبتين اللتين يتعيَّن على المرأة أن تظهر عليهما في مجرى نموها وتطورها، بينما لا يتعيَّن

على الرجل، وهو الأوفر حظاً منها من هذه الناحية، إلا أن يواصل في أثناء نضجه الجنسي ما كان بدأه في مرحلة تفتحه الجنسي الأول.

لنا عودة لاحقاً إلى دور البظر. أما الآن فلنرَ إلى الصعوبة الثانية التي يتعيَّن على البنت أن تظهر عليها في أثناء تطورها. فموضوع الحب الأول للصبي الصغير هو أمه التي يبقى مثبَّتاً إليها في أثناء تكوين عقدة أوديب، وبالإجمال طوال حياته. والموضوع الأول بالنسبة إلى البنات أيضاً هو الأم، أو من ينوب منابها: المرضع، الحاضنة، إلخ. فالتوظيفات الموضوعانية الأولى تشتق من إشباع الحاجات الحيوية الرئيسية، علماً بأن العناية التي تبذل للأطفال تكون متماثلة بالنسبة إلى الجنسين كليهما. غير أن البنت تفرغ حبها، في الموقف الأوديبي، على أبيها، ويتحتّم عليها، إذا ما سار نموها في مجراه السوي، أن تنتقل من الموضوع الأبوي إلى الاختيار الموضوعاني النهائي. وهكذا تجد نفسها مضطرة إلى تغيير المنطقة الشهوية والموضوع معاً. وهنا لا يكون أمامنا مناص من أن نتساءل: كيف يتمّ هذا التحول، ولماذا تتعلق البنت بأبيها بعد أن كانت متعلقة في الأصل بأمها، وبعبارة أخرى كيف تتطور وتتقدم من الطور الذكري إلى الطور الأنثي الذي هو قدرها المقدَّر عليها بيولوجياً؟

كم كانت الإجابة ستبدو لنا سهلة لو كان لنا أن نسلِّم بأن الانجذاب نحو الجنس الآخر يفصح عن نفسه في سن معيَّنة ويدفع بالبنت الصغيرة نحو الرجل، ويدفع بالصبي الصغير، بمقتضى القانون نفسه، نحو الأم! وفي مثل هذه الحال سنميل حتى إلى الافتراض بأنه ليس على الأطفال إلا أن يسيروا في الطريق الذي يرسمه لهم والداهما إذ يخصّ كل من هذين الوالدين بإيثاره أولاده من الجنس الآخر. لكن الواقع ليس بمثل هذه البساطة، بل إننا لنشكّ في وجود تلك القوة الغامضة، غير القابلة للتفكيك تحليلياً، التي يتكلم عنها الشعراء ويتغنون بها. فقد أمدَّتنا بحوث شاقة بمعطيات مغايرة كل المغايرة، ومن حسن الحظ أن مادتها ليست بالنادرة أو العزيزة المنال. فأنتم تعلمون بكل تأكيد أن عدداً كبيراً من النساء يبقين لأمد طويل جداً من الزمن متعلقات بحب الموضوع الأبوي، بله بالأب الواقعي ذاته. وبملاحظتنا النساء اللائي يبقين مثبّتات على مثل هذا النحو

الحادّ والمستديم، تسنى لنا أن نظفر بنتائج مدهشة. فقد كنا نعلم من قبل أن البنت مرّت في البداية بطور التثبيت على الأم، لكننا ما كنا ندرك مدى ما لهذا التعلق من أهمية، ولا كم يدوم، ولا العواقب التي يتمخض عنها من تثبيتات واستعدادات. ففي هذا الطور لا يعدو الأب في نظر البنت أن يكون منافساً مزعجاً؛ وفي بعض الأحوال يدوم التثبيت على الأم إلى ما بعد السنة الرابعة. وكل ما سنلتقيه لاحقاً في الموقف الأوديبي يكون موجوداً في هذا الطور، ويُفرغ من ثم على شخص الأب. وبالاختصار، نستطيع أن نتأكد أنه من المتعذر فهم المرأة إن لم نأخذ في حسابنا ذلك الطور من **التثبيت ما قبل الأوديبي على الأم**.

إننا نتوق الآن بلا ريب إلى معرفة ماهية تلك المشاعر الليبيدوية التي تكنّها البنت لأمها. والحق أنها متعددة ومتنوعة للغاية، وتدوم خلال الأطوار الثلاثة للجنسية الطفلية، وتتلبس خصائص كل طور منها فتفصح عن نفسها في رغبات فموية، وسادية ـ شرجية، وقضيبية. وتعبِّر هذه الرغبات عن انفعالات إيجابية أو سلبية؛ وإذا نحن أرجعناها إلى تمايز الجنسين اللاحق (وهذا ما يخلق بنا أصلاً أن نتحاشاه إذا ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً)، كنا في حِلٍّ من أن ننعتها بأنها إما ذكرية وإما أنثية. وفضلاً عن ذلك فإنها على جانب كبير من الازدواجية وجدانياً: فهي في آن معاً حبية وعدائية. وفي كثير من الأحيان لا تظهر الرغبات العدائية إلا بعد أن تكون تحولت إلى تمثلات وأفكار باعثة على الحصر. وليس من اليسير على الدوام أن نبيِّن ما كنه هذه الرغبات الجنسية الأولى. وأظهرها وأيسرها إدراكاً رغبة البنت في أن تنجب الأم طفلاً منها وفي أن تنجب هي نفسها منها طفلاً. وترجع هاتان الرغبتان زمنياً إلى المرحلة القضيبية؛ ومهما بدا لنا وجودهما باعثاً على الاستغراب، فإن المشاهدة التحليلية تقدِّم الدليل القاطع عليه. وجاذبية هذه المباحث نابعة من غرابة الكشوف التي تزيح لنا النقاب عنها. ففي مقدورنا، على سبيل المثال، أن نفترض أن الخوف من الموت غيلة أو بالتسمم ـ وهذا الخوف نواة لإصابة لاحقة بالهذاء البارنويائي ـ يرجع تاريخه إلى ذلك العهد ما قبل الأوديبي ويكون مرتكزه إلى الأم. ولنذكر مثالاً آخر بعد، ولنقبسه من واقعة طريفة عرضت لنا في أثناء تلك المرحلة من تاريخ البحث التحليلي النفسي التي اقتضت

مني ساعات طوالاً ومضنية. فيوم كان جلّ اهتمامي منصباً على اكتشاف الرضات الجنسية الطفلية، كانت مريضاتي جميعهن تقريباً يسررنَّ إليَّ بأنهن كنَّ موضع إغواء من آبائهن. وقد خلصت آخر الأمر إلى الاستنتاج أن هذه المزاعم كاذبة، وتبيَّن لي بالتالي أن الأعراض الهستيرية تنبع من تخييلات واستيهامات، لا من وقائع فعلية. ولم أفطن إلا في طور لاحق إلى أن استيهام الإغواء الأبوي هذا هو تعبير لدى المرأة عن عقدة أوديب النمطية. والحال أننا نلتقي استيهام الإغواء هذا عينه في التاريخ ما قبل الأودويبي للبنت الصغيرة أيضاً، لكن الأم تكون هي المغوية هذه المرة. هنا يحاذي الاستيهام الواقع، لأن الأم هي التي استثارت، بل ربما أيقظت، الأحاسيس اللذِّيَّة الأولى على مستوى الجهاز التناسلي، وذلك عندما كانت تبذل للأطفال العناية الجسمية اللازمة.

من المؤكد أنكم ستلصقون بي تهمة الغلوِّ والمبالغة ذاهبين إلى أن الأواصر التي تشدّ وثاق البنت الصغيرة إلى أمها ليست من القوة والكثرة ما أزعم. وستقولون إن الفرص الكثيرة التي سنحت لكم لمراقبة سلوك البنات الصغيرات لم تقُدْكم إلى ملاحظة شيء من هذا القبيل. لكن اعتراضكم لا يستند إلى أساس. إذ ينبغي أولاً أن نعرف كيف نلاحظ الأولاد حتى نتحقق من وجود أمثال هذه الأشياء لديهم. ثم لا تنسوا أن الطفل يعجز عن التعبير عن أفكاره تعبيراً قبشعورياً، وكم بالأحرى أن يكاشف غيره بها. والتحاليل التي أجريناها على أفراد تتبدى لديهم سيرورات النمو هذه بدرجة ملحوظة أو حتى مشتطّة تعطينا الحق في أن ندرس آثار تلك المشاعر وعواقبها. وعلم الأمراض، بعزله بعض الصلات وبتضخيمه إياها، يتيح لنا أن نفهمها. فصلات كهذه كانت ستظلّ خافية، مجهولة، فيما لو بقيت سوية. ومن حقنا أن نعتبر النتائج التي تمخَّضت عنها بحوثنا صحيحة، ما دامت قد أجريت على أفراد ليسوا مسرفين في شذوذهم وبعدهم عن الحالة السوية.

إننا سنوجّه الآن اهتمامنا إلى معرفة الكيفية التي يؤول بها إلى زوالٍ هذا التعلق القوي من جانب البنت الصغيرة بأمها. ونحن نعلم أن ذلك هو مصيره المعتاد، إذ لا محيص له عن أن يخلي مكانه للتثبيت على الأب. وثمة واقعة تعيِّن لنا الطريق

الواجب علينا سلوكه: فالأمر هنا ليس، في هذه المرحلة من التطور، أمر محض تغيير للموضوع. فالتحوُّل عن الأم يتمّ في جو من العداء، إذ ينقلب التعلُّق بها إلى كراهية. وقد تكون هذه الكراهية قوية للغاية أحياناً، فتستمر مدى الحياة، أو يجري التعويض عنها لدى بعض البنات بقدر من الغلو. وبالإجمال يبقى شطر من العداء قائماً، بينما يتمّ التغلب على الشطر الآخر، غير أن الأحداث التي تقع في مجرى الحياة اللاحق لها بطبيعة الحال دور كبير. وسنكتفي هنا بتركيز اهتمامنا على الفترة التي يحدث فيها التحول نحو الأب وسنبحث عن العلة التي يمكن أن تكون حافزاً لكراهية الأم. والحق أن مريضاتنا لا يقصِّرن أبداً في تزويدنا بلائحة طويلة من التشكيات والاتهامات ضد أمهاتهن. والغرض من هذه التظلمات المتفاوتة في القيمة تبرير المشاعر العدائية لدى الطفلة، وعلينا أن نحاذر من إهمالها وإسقاطها من حسابنا. والحال أن بعضها لا يعدو أن يكون تبريرات وتمحُّكات سافرة، ومن ثم يظل مطلوباً أن نبحث عن المصدر الفعلي للعداء. وآمل ألا تعرضوا عني إذا ما أخذت بيدكم هذه المرة عبر منعرجات البحث التحليلي ومساربه.

إن أقدم المآثم المعزوّة إلى الأم عهداً اتهامها بأنها لم تعطِ طفلها قدراً كافياً من الحليب، ولم تدلل من ثم على أنها كانت تحبه كما ينبغي. وهذا المأخذ، والحق يقال، له ما يسوِّغه في كثير من الأحيان في الأسر العصرية. فالأمهات، إن لم يكن لديهن ما فيه الكفاية من الحليب، وهذه ليست حالةً نادرة، يكتفين بإرضاع أطفالهن لفترة قصيرة من الزمن، من ستة أشهر إلى تسعة. أما لدى الأقوام البدائية فيرضع الأطفال ثدي الأم حتى نهاية السنة الثانية أو الثالثة. وغالباً ما يختلط شخص المرضع بشخص الأم؛ فإن لم يحدث هذا الاندماج، لام الطفل أمه على أنها صرفت المرضع في وقت مبكر مع أنها كانت على استعداد للمضيّ في إرضاعه عن طيبة خاطر. غير أن تكرر هذه المآخذ وتواترها يجعلاننا نشكّ في أن يكون لها على الدوام ما يبررها. بل نحن أميل إلى الاعتقاد بأن الطفل يبقى مقيماً على جوع لا يهدأ له أوار إلى غذائه الأول، وأنه لا يسلى ولا يتعزى أبداً عن فقدان ثدي الأم. وقد قلنا إن النساء لدى الأقوام البدائية يواصلن إرضاع أطفالهن

حتى بعد أن يقتدر هؤلاء على المشي والكلام. والحال أنه لو قُيِّض لي أن أحلِّل واحداً من هؤلاء البدائيين لسمعته بلا ريب يتلفظ بالمآخذ عينها. وأرجح الظن أن الخوف من التسمم ذو صلة بالحرمان من ثدي الأم. فسمّ هو كل غذاء يسبِّب المرض. وربما عزا الطفل الأمراض الأولى التي يصاب بها إلى الحرمان الذي تكلمنا عنه. والحق أنه لا بدّ للإنسان من بلوغ درجة محددة من المران العقلي ليعتقد بالمصادفة. أما في نظر البدائي والإنسان الجاهل وكذلك الطفل بكل تأكيد فإن كل ما يحدث ويقع لا بدّ أن يكون معللاً؛ ولعل مثل هذا التعليل كان هو وراء ظهور الأرواحية Animisme عند البدائيين. وإلى يومنا هذا لا يزال يسود الاعتقاد لدى الناس في بعض طبقات السكان أن الموت الطبيعي لا وجود له، وأن الطبيب في العادة هو المسؤول عن الموت. وردّ الفعل العصابي الذي يعقب على الدوام وفاة شخص قريب لا يعدو أن يكون اتهاماً، تأنيباً ينهال به الإنسان على نفسه باعتباره علة هذا الموت.

وولادة طفل جديد هي ثاني المآخذ التي توجَّه إلى الأم، غير أن هذا المأخذ يرتبط في الغالب من الأحيان بمأخذ الحرمان الفموي. فالأم لم تشأ أو لم تستطع إرضاع الطفل الأكبر لأنها في حاجة إلى لبنها لإرضاع المولود الجديد. وفي الحالات التي يتقارب فيها عمر الطفلين تقارباً كبيراً، فيتأثر درّ اللبن بالحمَل الجديد، يكون لتلك الشكوى أساس من الواقع؛ والعجيب في الأمر أنه حتى إذا كان الطفل لا يكبر المولود الجديد إلا بأحد عشر شهراً، فإن صغر سنه لا يحول بينه وبين إدراك هذه الواقعة. هكذا يضمر الطفل للمولود الدخيل، المنافس، كرهاً غيوراً. أفلم يخلع المولود الجديد أخاه الأكبر منه عن عرشه ويسرقه ويجرِّده مما يملك؟ وتنصبّ ضغينة هذا الطفل المتأججة الأوار على أمه الخائنة كذلك، لأنها توزِّع بين طفليها لبنها وعناياتها. وغالباً ما تفصح جميع هذه المشاعر عن نفسها في تعديل مؤسف يطرأ على سلوكه. فالطفل يغدو «شريراً»، صعب المراس، مشاكساً، وينتكس إلى الوراء فلا يعود يتحكم بوظائفه الإخراجية. وهذا كله معروف ومسلَّم به منذ زمن بعيد، لكننا لا نكوّن فكرة صحيحة ووافية عن شدة تلك الانفعالات الغيرى وعن جسامة الدور الذي تلعبه في نموّ الطفل وتطوره

اللاحق. وإن ولد أطفال جدد آخرون، تأججت مشاعر الغيرة من جديد وتكرر الانفعال كل مرة بشدة مماثلة. ولا يغيِّر في هذه الحال شيئاً أن يبقى الطفل أثير أمه، وذلك لأن الحب عند الكائن الصغير لا حدود له، وهو **حصري** لا يقبل أية مشاركة.

إن رغبات الطفل الجنسية تتعدل تبعاً لمختلف الأطوار التي يمرُّ بها الليبيدو؛ ونظراً إلى استحالة إشباعها بوجه عام، فإنها تقدم ذرائع شتى لظهور العداء تجاه الأم. على أن ذروة الإحباط تحدث في الطور القضيبي حين تحظر الأم على الطفل الاستمناء، ذلك المصدر اللذّي الذي هَدَتْه بنفسها إليه. وكثيراً ما يترافق هذا الحظر بجميع علامات الاستياء الحادّ، وكذلك بتهديدات صارمة. وقد يذهب الظنّ إلى أن هذه الدوافع تكفي لتفسير سبب إعراض البنت الصغيرة عن أمها. والحال أننا نعتقد أن طبيعة الجنسية الطفلية بالذات، وشطط مطالب الحب لدى الطفل، واستحالة إشباع الرغبات الجنسية هي التي تجعل من ذلك الارتداد أمراً محتوماً. وقد يذهب الظن إلى أن صلة الحب الأولى لا بدّ أن تنفصم، وذلك على وجه التحديد لأنها الأولى، على اعتبار أن التوظيفات الموضوعانية المبكرة هي على الدوام متناقضة عاطفياً بحيث أن الحب القوي لا مناص من أن يقترن على الدوام بميل عدواني جامح. ومن ثم، إن حساسية الطفل بخيبات الحب والحرمان مقيَّض لها أن تزيد كلما أحبّ بهوى عاصف. ولا مناص في خاتمة المطاف من أن ترجح كفة العدوانية المتراكمة على كفة الحب. وقد ينكر بعضهم أيضاً التناقض العاطفي البدائي في التوظيفات الحبية ويؤكد أن الزوال المحتوم للحب الطفلي مردّه إلى الطبيعة الخاصة للعلاقة بين الأم والطفل، على اعتبار أن التربية لا يسعها، مهما تكن سمحة، أن تتفادى اللجوء إلى القسر والإكراه وفرض بعض التقييدات. والحال أن أي مساس بحرية الطفل لا بدّ أن يستثير ردّ فعل يفصح عن نفسه بالنزوع إلى التمرد والعدوان. وأعتقد أن مناقشة هذه الاحتمالات كانت ستكون على جانب كبير من الطرافة والفائدة لولا أن اعتراضاً معيَّناً لا يعتم أن ينهض في ذهننا. ذلك أن العوامل المشار إليها جميعاً، من نبذ وخيبة حب وغيرة وإغراء يعقبه حظر ونهي، تكون موجودة أيضاً في

علاقة الصبي الصغير بأمه من دون أن تستتبع عزوفه عن الموضوع الأموي. إذاً، لا بدّ أن يكون لدى البنت الصغيرة عامل نوعي خاص لا يتظاهر لدى الصبي إطلاقاً، أو لا يتظاهر إلا بكيفية مغايرة. وما لم نعرف طبيعة هذا العامل، فلن يتأتى لنا أن نفهم كيف يؤول الأمر بالبنت إلى الإعراض عن أمها.

والحال أننا اكتشفنا، على ما أعتقد، هذا العامل النوعي الخاص حيث كنا نتوقع أن نكتشفه تحديداً، ولكن في شكل يبعث على بعض الدهشة. وأما هذا المكان المتوقع فهو عقدة الخصاء، إذ لا غرابة أن يكون للفارق التشريحي أصداؤه وانعكاساته النفسية. وأما ما بدا لنا مستغرباً فهو ما لاحظناه من أن البنت تحقد على أمها لأنها لم تمنحها قضيباً وتعدّها مسؤولة عن ذلك.

أنتم ترون أننا نعزو إلى الأنثى أيضاً عقدة خصاء، وإن تكن بطبيعة الحال مختلفة عن عقدة الذكر. فعقدة الخصاء تظهر عند الصبي حين يلاحظ، متى وقع نظره على أعضاء تناسلية أنثية، أن عضو الذكورة، العظيم القيمة في نظره، ليس جزءاً لازماً من كل جسم بشري. عندئذ يتذكر ما وُجِّه إليه من تهديدات يوم فوجئ متلبساً بجرم معابثة قضيبه، وينتابه إشفاق من أن توضع هذه التهديدات موضع تنفيذ، ويعرف من ثم **خوف الخصاء** الذي يغدو مذّاك أقوى محرِّك لتطوره اللاحق. وعند البنت أيضاً تنشأ عقدة الخصاء لدى مرآها الأعضاء التناسلية للجنس الآخر، فتفطن للحال إلى الفارق، وتفهم أيضاً ـ لا مفرَّ لنا من الإقرار بذلك ـ كل مدلوله وأهميته. وتكون حساسيتها بما أصابها من إجحاف كبيرة، وقد تصرِّح برغبتها في أن يكون لها هي أيضاً «شيء كهذا». ويستبدّ بها **الحسد القضيبي**، ويترك هذا الحسد في تطورها وتكوين طبعها آثاراً لا تمحى. وحتى في الحالات الموائمة لا تستطيع البنت أن تتغلب على هذا الحسد إلا بعد بذل مجهود نفسي كبير. فحين تكتشف البنت الصغيرة ما أصابها من إجحاف لا تستسلم له بسهولة؛ بل على العكس: فهي تظل لفترة طويلة من الزمن تأمل أن ينبت لها قضيب، وقد يدوم هذا الأمل أحياناً إلى طور متأخر من الحياة. وحتى عندما تقطع معرفة الواقع كل رجاء لها في تحقُّق رغبتها يوماً، يميط التحليل اللثام عن أن هذه الرغبة تبقى متأججة في لاشعورها ومحتفظة بشحنة كبيرة من

الطاقة. ومن جملة الدوافع التي قد تحضّ المرأة الراشدة على طلب العلاج التحليلي، ينبغي أن ندرج الرغبة في امتلاك القضيب. وما ترجوه من خير من المعالجة، وعلى سبيل المثال اقتدارها على ممارسة مهنة فكرية ـ وهو رجاء معقول ـ، لا يعدو في الكثير من الأحيان أن يكون تخريجاً إسمائياً[٢] لهذه الرغبة المكبوتة.

إن لهذا الحسد القضيبي أهمية لا تنكر. فمن الأمثلة التي تساق على تحيُّز الذكور ومجافاتهم للإنصاف ما يأخذونه على المرأة من أن الحسد والغيرة يلعبان في حياتها النفسية دوراً أكبر مما في حياة الرجل. ولا مراء في أن هذين العيبين يتظاهران أيضاً لدى الرجل، كما لا مراء في أنهما قد يتخلّقان لدى المرأة بفعل عامل آخر غير هذا الحسد القضيبي، لكننا نميل إلى الاعتقاد بأن شططهما لدى المرأة إنما مردُّه إلى هذا الحسد. إن بعض المحللين يتقصدون أن يهوِّنوا من شأن الاندفاعة الأولى للحسد القضيبي. وعندهم أن عقابيل هذا الموقف لدى المرأة تنشأ بصورة رئيسية عن تكوين ثانوي، وأن هذا التكوين ينجم بدوره، بفعل بعض الصراعات اللاحقة، عن نكوص نحو تلك الانفعالات المبكرة. ولكن هذه مشكلة من المشكلات العامة لعلم نفس الأعماق. ففي العديد من المسالك الغريزية المَرَضية ـ أو غير المألوفة فحسب ـ كما في الانحرافات الجنسية قاطبة مثلاً، ثمة مجال للتساؤل عن مدى الدور الذي تضطلع به قوة التثبيتات الطفلية المبكرة من جهة أولى، أو تأثير الأحداث والخبرات والتطورات اللاحقة من الجهة الثانية. ولا يخرج الأمر عن أن يكون هنا واحدة من تلك السلاسل المتتامَّة التي عرفناها في أثناء دراستنا لأسباب نشوء الأعصبة. فلكل عامل من هذين العاملين قسطه من المسؤولية في ظهور المرض، فأي تناقص في أحدهما تعوِّضه زيادة في الآخر. وعلى كل حال، إن العنصر الطفلي هو الذي يعيِّن الطريق مسبقاً، وقد يكون تأثيره حاسماً أحياناً. وإني لعلى يقين من أن أهمية العامل الطفلي راجحة الكفة ولها الغلبة فيما يتصل بالحسد القضيبي تحديداً.

إن اكتشاف الخصاء يمثِّل، لدى البنت الصغيرة، نقطة انعطاف حاسمة. وثمة منافذ ثلاثة تنفتح أمامها: الأول يفضي إلى الكف الجنسي أو إلى العصاب،

---

٢ ـ من الإسماء: Sublimation. «م».

والثاني إلى تغير في الطبع وإلى تكوين عقدة رجولة، والثالث أخيراً إلى الأنوثة السوية. وهذه الكيفيات الثلاث للاستجابة باتت معروفة لنا بما فيه الكفاية. ففي الحالة الأولى تكون البنت الصغيرة قد عاشت وكأنها صبي صغير، ثم لم تلبث أن تعاطت الاستمناء البظري، رابطةً الإشباع الذي يتحصل لها على هذا النحو برغباتها الموجبة التي غالباً ما تكون الأم محورها. ثم لا تعود، تحت تأثير الحسد القضيبي، تلقى لذتها في الجنسية القضيبية. فمقايستها نفسها مع الصبي، الأوفر حظّاً منها من هذا المنظور، تجرح كبرياءها وعزّة نفسها، فتعزف عن المتعة الاستمنائية البظرية، وفي الوقت نفسه عن حبّها لأمّها، وينتهي بها الأمر في كثير من الأحيان إلى كبت شطر غير يسير من ميولها الجنسية. والإعراض عن الأم لا يتمّ دفعة واحدة، لأن البنت الصغيرة تعتبر بتر عضوها مصيبة شخصية في بادئ الأمر، ولا تفطن إلا في زمن لاحق إلى أن غيرها من الكائنات الأنثية، بمن فيهن أمها بالذات، يشبهنها من هذه الناحية. والحال أن حبّها كان منصباً على أم قضيبية، لا على أم مخصيَّة. ومن ثم يصبح في المجال متسع لها للإشاحة عنها ولإسلاس القياد لمشاعرها العدائية، المتراكمة منذ عهد بعيد، لكي تغلب وتسود. زبدة القول: إن فقدان القضيب يخفض من قيمة المرأة في نظر البنت الصغيرة كما في نظر الصبي، وربما حتى في نظر الرجل لاحقاً.

ليس منكم من يجهل الأهمية الإتيولوجية التي يعلّقها العصابيون على أونانيتهم. فهم يحمّلونها مسؤولية متاعبهم وأدوائهم جميعاً؛ ولكم يشقّ علينا أن نثبت لهم أنهم مخطئون. على أن العدل والإنصاف يقتضيان منا أن نعترف بأنهم مصيبون، لأن الأونانية هي شكل تظاهر الجنسية الطفلية وأداة تعبيرها، هذه الجنسية التي يعاني هؤلاء المرضى أشد المعاناة من غيّها. لكن العصابيين لا يجرِّمون في معظمِ الأحيان سوى الاستمناء في طور البلوغ، ويضربون الصفح عن الاستمناء المبكِّر، مع أنه المسؤول الأوحد في الواقع. وبودّي لو أستطيع أن أبيّن لكم يوماً كم هو كبير أثر هذا الاستمناء ـ سواء أافتضح أمره أم لم يفتضح ـ ومدى أهمية ردّ فعل الوالدين أو تسامحهم، وردّ فعل الشخص المعني نفسه سواء أتوصل أم لم يتوصل إلى التغلب على أونانيته، في ظهور العصاب لاحقاً وفي

تكوين طبع كل فرد. فكل ذلك يترك عقابيل لا تمحى ولا تزول. لكني في الحق مغتبط إذ أعفي نفسي من هذا المجهود الشاق الطويل. فأنتم ما كنتم ستمسكون عن الزجّ بي في موقف شديد الإحراج بطلبكم مني نصائح ذات طابع عملي، وبسؤالي عن الموقف الذي يجدر بالمرء وقوفه إزاء استمناء الأولاد الصغار، سواء أكان من والديهم أم من مربيهم. ونمو البنت الصغيرة، كما تقدم وصفه، يعطيكم مثالاً للجهود ـ غير المثمرة في كثير من الأحيان ـ التي تتكلفها الطفلة لتفكّ نفسها من إسار الاستمناء. فحين يستثير الحسد القضيبي لدى البنت الصغيرة ردّ فعلٍ حاداً ضد الأونانية، ولكن من دون أن يضع لها حداً، ينشب في داخلها صراع عنيف بهدف التحرر؛ صراع تضطلع فيه، إن صحّ التعبير، بدور أمها المخلوعة عن عرشها، وتفصح، بعزوفها عن اللذة التي يتيح لها البظر أن تظفر بها، عن كل استيائها من حبوها بمثل ذلك العضو الدون. وحتى بعد مضيّ سنوات عديدة، يكون النشاط الاستمنائي في أثنائها قد خمد منذ عهد بعيد، نظل نعاين لديها آثاراً من ذلك الصراع ضد الإغراء الذي لا تزال تخافه وتهابه؛ ومن هذه الآثار التعاطف مع الأشخاص الذين تفترض أنهم يعانون صعوبات تشابه ما تعانيه، أو عقدها النية على الزواج، بلٍ حتى اختيارها لزوجها أو عشيقها. والحق أن الإقلاع عن الاستمناء الطفلي المبكر ليس فعلاً هيّناً أو عديم الأهمية.

حين تقلع البنت الصغيرة عن ممارسة الاستمناء البظري، تعزف عن شطر من قدرتها على النشاط. فترجح عندئذ كفة السلبية، ويغدو الميل إلى الأب، بمعونة الحاثات الغريزية السالبة، هو الغالب. وأنتم تدركون أن مثل هذا التبدّل الذي يطرأ في أثناء النمو، والذي ينحّي جانباً النشاط القضيبي، من شأنه أن يمهّد الطريق أمام تظاهر الأنوثة. وهذه الأنوثة تأخذ بالفعل شكلاً سويّاً إذا لم يكن الكبت مغالى فيه. وأكبر الظن أن رغبة البنت في أبيها ترجع في أصلها إلى رغبتها في امتلاك قضيب، ذلك القضيب الذي ضنّت أمها به عليها والذي تأمل الآن أن تحصل عليه من أبيها. على أن الموقف الأنثي لا يتوطد فعلاً إلا حين تحلّ محلّ شهوة القضيب الرغبة في إنجاب طفل، علماً بأن الطفل، بموجب تكافؤ رمزي قديم، يغدو بديل القضيب. ولا ننسين أن البنت الصغيرة كانت، حتى قبل

أن يضطرب لديها الطور القضيبي، قد تاقت إلى امتلاك طفل، وهذا ما يبرهن عليه إيثارها للدمى. غير أن هذه اللعبة ليست في الحق تعبيراً عن الأنوثة، وإنما تعبّر بالأحرى عن التماهي مع الأم بغية استبدال السلبية بالإيجابية والفاعلية. فالبنت الصغيرة كانت تلاعب الدمية، وما كانت الدمية إلا هي نفسها. وكان بوسعها أن تفعل بالدمية كل ما كانت الأم تفعله بها. وإنما عندما تظهر شهوة القضيب يغدو الطفل/ الدمية طفلاً من الأب، ويتوصل على هذا النحو إلى تجسيم الهدف الذي تنشده البنت الصغيرة بتوق عظيم. وما أعظمها من سعادة حين تتحقق هذه الرغبة الطفلية في زمن لاحق، وعلى الأخص إذا كان المولود الجديد صبياً يحمل القضيب الذي طالما اشتهته! والمرأة، إذ ترغب في إنجاب طفل، تفكر في أغلب الأحيان بالطفل أكثر مما تفكر بالأب الذي يُنحّى منذئذ إلى المرتبة الثانية. هكذا تبقى الرغبة الذكَرية القديمة في امتلاك قضيب قائمة حتى عندما تدرك الأنوثة أوج تفتحها. لكن أما كان يجدر بنا بالأحرى أن نعتبر شهوة القضيب هذه شهوة أنثية في جوهرها؟

تدخل البنت الصغيرة في الموقف الأوديبي حين تحوِّل إلى الأب رغبتها في الطفل ـ القضيب. عندذاك يتأجج عداؤها، الذي لا حاجة بها إلى خلقه من جديد، تجاه الأم. فتغدو أمها منافسة لها، المرأة التي تظفر من الأب بكل ما كانت البنت الصغيرة تودّ أن تحصل عليه منه. وقد حجبت عنا عقدة أوديب الأنثية لأمد طويل من الزمن تعلق البنت ما قبل الأوديبي بأمها، وهو تعلق له شأنه الكبير ويترك تثبيتات على درجة كبيرة من الصلابة والثبات! إن الموقف الأوديبي يعني للبنت الصغيرة نهاية تطور شاقّ وطويل، ضرباً من حلّ مؤقّت، وضعاً مريحاً لن تتخلى عنه لأمد طويل من الزمن، وبخاصة أن بداية مرحلة الكمون لم تعد بعيدة. وهنا نلحظ وجود فارق، مثقل بالعواقب في أرجح الظن، بين الجنسين من حيث علاقة عقدة أوديب بعقدة الخصاء. فعقدة أوديب، التي تدفع بالصبي إلى اشتهاء أمه وإلى الرغبة في التخلص من منافسه، الأب، تتطور تطوراً طبيعياً في أثناء الطور القضيبي. غير أن التهديد بالخصاء يرغم الذكر الصغير على التخلي عن هذا الموقف؛ فالخوف من فقدان القضيب يحكم على عقدة أوديب بالزوال،

فتتلاشى بالفعل تلاشياً تاماً في الحالات السوية، ويخلفها أنا أعلى متشدد. وعكس ذلك هو ما يحدث لدى البنت الصغيرة. فبدلاً من أن تدمر عقدةُ الخصاء عقدةَ أوديب، تساعدها على البقاء والاستمرار؛ فشهوة القضيب تدفع بالبنت الصغيرة إلى الإشاحة عن أمها والالتجاء إلى الموقف الأوديبي كما لو أنه مرفأ الأمان. ثم إنه بزوال خوف الخصاء يزول أيضاً الدافع الرئيسي الذي كان أرغم الصبي على الظهور على عقدة أوديب. وبالمقابل، تحتفظ البنت الصغيرة بهذه العقدة لأجل غير محدود، ولا تتغلب عليها إلا في زمن متأخر وعلى نحو غير كامل. وشروط كهذه لا بدّ أن تؤثر في تكوين الأنا الأعلى، فلا يتوصل إلى تلك الدرجة من القوة والاستقلال التي تسبغ عليه دلالته الحضارية. ولا يرتاح أنصار المرأة إلى إبرازنا أهمية هذا العامل في تكوين الطبع الأنثي بوجه عام.

لنعد أدراجنا إلى الوراء قليلاً. فقد قلنا إنه كان من المحتمل أن تتشكل، بموجب ردّ الفعل الثاني الذي قد ينشأ إثر اكتشاف الخصاء الأنثي، عقدة ذكورية قوية. ففي هذه الحالة ترفض البنت الصغيرة قبول الواقع القاسي، وتثابر على نشاطها البظري، وتنشد خلاصها في التماهي مع الأم القضيبية أو مع الأب. فما العامل الذي يدفع باتجاه هذا الحلّ؟ إنه في أكبر الظن عامل جِبِلّي: فاعلية كبيرة شبيهة بفاعلية الذكر. والشيء الجوهري في هذه السيرورة هو غياب السلبية في تلك المرحلة من التطور، هذه السلبية التي تدشّن المنعطف نحوالأنوثة. وحينما يتأثر الاختيار الموضوعاني بجنسية مثلية سافرة، نعتبر هذه الواقعة نتيجة مشتطة لعقدة الذكورة تلك. غير أن التجربة التحليلية تفيدنا أن الجنسية المثلية الأنثية لا تكون إلا فيما ندر (أو لا تكون على الإطلاق) استمراراً مباشراً للذكورة الطفلية. ويبدو أن هؤلاء البنات يتخذن، هنّ أيضاً، أباهن موضوعاً لهن لحين من الزمن، ويتورطن بدورهن في الموقف الأوديبي. غير أن الخيبات المحتَّمة التي يمنين بها عندما يصدُّهن الأب تدفع بهن نكوصاً نحو عقدة الذكورة القديمة. ولا يجوز لنا أن نغلو في أهمية هذه الخيبات، فهي كذلك من قسمة البنات اللائي يؤول بهن تطورهن إلى الأنوثة السوية بدون أن تستثير لديهن ردود فعل مماثلة. صحيح أن العامل الجِبِلّي يلعب هنا، بلا مراء، دوراً رفيع الأهمية، غير أن طوري نمو الجنسية

المثلية ينعكسان على أجلى نحو في سلوك الجنسيات المثليات. فواحدتهن تضطلع دونما تمييز إزاء الأخرى بدور الأم والطفل أو بدور الزوج والزوجة.

إن ما سردته على مسامعكم لا يعدو أن يكون، إن جاز التعبير، ما قبل تاريخ المرأة. ونحن لم نفلح إلا في السنوات الأخيرة فحسب في تحصيل هذه المعطيات الجديدة، وفي مقدوركم أن تعتبروها عينة من المجهود التحليلي المدقق. وما دام الأمر يتعلق بالمرأة، فسأبيح لنفسي هذه المرة أن أذكر لكم أسماء بعض النساء اللائي ندين لهن بأبحاث هامة حول الموضوع الذي نحن بصدده. فالدكتورة **روث ماك برونشفيك** Brunswick[٣] هي أول من وصف حالة من حالات العصاب قابلة للإرجاع إلى تثبيت ما قبل أوديبي حال دون قيام الموقف الأوديبي. وكانت الحالة من حالات بارانويا الغيرة، ولم تكن مستعصية على العلاج. كما برهنت الدكتورة **حنة لامبل دي غروت** Lampl De Groot[٤]، بالاستناد إلى ملاحظات ومشاهدات لا يرقى إليها الشك، وجود النشاط القضيبي الذي يصعب تصديقه لدى البنت الصغيرة. أما الدكتورة **هيلين دويتش** Deutch فقد أوضحت أن أفعال الحب التي تصدر عن الجنسيات المثليات من النساء تكرر علاقات الأم بطفلها.

---

٣ ـ روث ماك برانشفيك: محللة نفسية أمريكية (١٨٩٧ ـ ١٩٤٦). واجهت مشكلات في حياتها الزوجية مع طبيب قلبي أمريكي فقررت الهجرة والسفر إلى فيينا ليتولى فرويد تحليلها. وتزوجت بعد ذلك من مارك برانشفيك الذي كان فرويد تولى تحليله هو الآخر. وقد أقر فرويد فيما بعد بأنه أخطأ إذ تولى تحليل الزوجين في آن واحد. وقد صارت روث صديقة لأسرة فرويد ومثاراً لغيرة بنته آنا. وتحت تأثير نظرية فرويد عن الدور القضيبي للبظر عند النساء أجرت عملية جراحية لتقريب بظرها من فتحة الفرج بهدف التغلب على برودتها الجنسية. وقد كان لها إسهام مميَّز في النظرية التحليلية النفسية من خلال صياغتها مفهوم العقدة ما قبل الأوديبية في بحث لها عام ١٩٢٩ بعنوان «**تحليل هذاء غيرة**»، وإليه يحيل فرويد في النص، وهو البحث الذي طورته لاحقاً في بحث إضافي عام ١٩٤٠ تحت عنوان: **المرحلة القبأوديبية في تطور الليبيدو**. «م».

٤ ـ حنة لامبل دي غروت: طبيبة ومحللة نفسية هولاندية (١٨٩٥ ـ ١٩٨٧). تمرست بالتحليل النفسي على يد فرويد، وعملت في معهد برلين للتحليل النفسي. ولكن أصلها اليهودي أجبرها على مغادرة ألمانيا النازية إلى هولندا. أولت اهتماماً خاصاً في أبحاثها لموضوع الأنوثة والنرجسية والمازوخية. من مؤلفاتها: **الألم والمتعة، الرجل والعقل**. والإحالة في النص إلى بحثها المنشور عام ١٩١٧ تحت عنوان: **حول تاريخ تطور عقدة أوديب لدى المرأة**. «م».

لا أزمع أن أصف لكم كل تطور الأنوثة عبر البلوغ ووصولاً إلى سن النضج. والمعطيات المتوفرة لدينا لا تكفي أصلاً لذلك. وسأكتفي بأن أسرد لكم في ما سيلي بعض التفاصيل. فبالعودة إلى ما قبل التاريخ، أريد أن أوضح هنا أن تفتح الأنوثة يظل عرضة للاضطرابات الناجمة عن التظاهرات الرسوبية للمرحلة التمهيدية الذكورية. فالنكوص نحو تثبيتات هذا الطور ما قبل الأوديبي كثير التواتر. ونستطيع أن نلاحظ في حياة بعض النساء تناوباً متكرراً لفترات تغلب فيها الذكورة تارة والأنوثة طوراً. ولعل ما نسميه نحن الرجال بـ«لغز المرأة» مردّه إلى هذه الثنائية الجنسية في الحياة النسوية. غير أن هذه الأبحاث أتاحت لنا أن نجد حلاً لمسألة أخرى: فقد كنا أطلقنا اسم الليبيدو على القوة الغريزية الدافعة للحياة الجنسية. والحياة الجنسية تهيمن عليها القطبية: الذكورة/ الأنوثة؛ ولا عجب من ثم إن درسنا موقع الليبيدو من هذا التعارض. وما كان ليفجؤنا في هذه الحال لو ظهر لنا أن كل جنسية يناظرها ليبيدو خاص بها، بحيث يرمي أحد نوعي الليبيدو إلى أهداف الجنسية المذكرة، والنوع الثاني إلى أهداف الجنسية المؤنثة. لكن ليس هذا واقع الحال. فلا وجود هناك إلا لليبيدو واحد يقوم على خدمة الوظيفة الجنسية، الذكرية والأنثية على حدّ سواء. ولئن استندنا إلى المماثلة المتعارف عليها بين الذكورة والفاعلية، فوصفنا هذا الليبيدو بأنه ذكري، فليس يجوز لنا أن ننسى أنه يمثّل أيضاً ميولاً ذات أهداف سلبية. ومهما يكن من أمر، فإن المزاوجة بين هاتين الكلمتين «الليبيدو الأنثوي» لا يمكن أن يكون له ما يبرره. ويبدو، ناهيك عن ذلك، أن الليبيدو يتعرض لكبح أكبر حين يُكره على خدمة الوظيفة الأنثية، وأن الطبيعة، إذا شئنا أن نستخدم مفردات النظرية الغائية Téléologie[٥]، لا تحفل بمتطلبات الأنوثة بقدر ما تحفل بمتطلبات الذكورة. وربما كان علينا أن نعزو السبب في ذلك إلى أن تحقيق الهدف البيولوجي موكل إلى عدوانية الرجل ومستقلّ، إلى حدّ ما، عن موافقة المرأة.

إن شيوع البرودة الجنسية لدى النساء يؤكد، فيما يبدو، هذا الإجحاف من جانب الطبيعة بحقّ المرأة، ويشكل ظاهرة لم تجد بعد تفسيرها الكافي. فهذه

٥ ـ هي النظرية التي تقول إن كل ما هو في الطبيعة ما وجد إلا لغاية معيّنة. «م».

البرودة إن كانت نفسية المنشأ أمكن علاجها. لكنها تحملنا في أحوال أخرى على افتراض وجود عامل جِبِلّي ما، فضلاً عن مساهمة عامل تشريحي.

لقد وعدتكم بإطلاعكم على بعض خصائص الأنوثة كما تتبدى لنا، حال اكتمالها، على ضوء التحليل النفسي. وسأقتصر هنا على سوق بعض الحقائق ذات الصفة العامة. وليس من اليسير أصلاً أن نميّز دوماً بين ما يمكن إرجاعه إلى تأثير الوظيفة الجنسية وبين ما يمكن ردّه إلى النظام الاجتماعي. وإننا لنعزو إلى الأنوثة نرجسية أكثر تطوراً تؤثر على الاختيار الموضوعاني، بحيث تكون حاجة المرأة إلى أن تُحَبّ أكبر من حاجتها إلى أن تُحِبّ. والحسد القضيبي هو الذي يحفز أيضاً المرأة على التباهي بجسمها، إذ تعتبر مفاتنها تعويضاً متأخراً عن دونيتها الجنسية الأصلية. أما الحياء، الذي يعدّ من الفضائل التي اختصت بها النساء والذي يخضع في الواقع للأعراف والمواضعات أكثر مما يُظن، فهدفه الأصلي في ما نعتقد ستر النقص في أعضائهن التناسلية. وليس لنا أن ننسى أنه يضطلع بوظائف أخرى في وقت لاحق. ومن الآراء الشائعة أن النساء لم يسهمن إلا بقسط واهن في الاكتشافات والاختراعات في تاريخ الحضارة[٦]. لكن ربما إليهن يعود الفضل في اكتشاف تقنية محددة، هي تقنية النسج والضفر؛ فإن صحّ ذلك، نجدنا ميالين إلى تخمين الدافع اللاشعوري وراء هذا الاختراع. فالطبيعة نفسها قدّمت، في ما نتصور، نموذج هذا الابتكار إذ جعلت وبر العانة ينمو حول الأعضاء التناسلية ليغطيها ويسترها. أما الخطوة المتقدمة التالية التي كانت تبحث عمن يقوم بها فكانت ضفر الألياف المغروزة في الجلد والمتداخلة في بعضها بعضاً في كتل متلبدة. وإن نَعَتُّم فكرتي هذه بالإغراب، وداخلكم الاعتقاد بأن وقوعي ضحية فكرة ثابتة هو ما يجعلني أعزو مثل تلك الأهمية القصوى إلى أثر فقدان القضيب في تكوين الأنوثة، فإني أعلن لكم مقدّماً أني أعزل من السلاح.

إن المواضعات الاجتماعية غالباً ما تموّه شروط الاختيار الموضوعاني عند المرأة

٦ ـ من الممكن لأنصار المرأة ونصيراتها أن يردّوا هنا على فرويد ـ ولطالما وجدوا في بضع آرائه ما يدعو إلى الردّ ـ بأن أعظم اكتشاف على الإطلاق في تاريخ الحضارة كان من مآثر المرأة: الزراعة. «م».

حتى ليشقّ علينا تعرّفها. فحيثما تتأتَّ للاختيار الحرية، نجده يتم غالباً وفق المثال النرجسي، فيكون الرجل الذي وقع عليه الاختيار شبيهاً بذاك الذي كانت البنت قد تمنّت في حينه أن تكونه. وإن ظلت الفتاة متعلقة بأبيها، أي إذا لم تكن قد تحررت من عقدتها الأوديبية، جاء اختيارها وفق النموذج الأبوي. والحال أنها عندما أشاحت عن أمها لتستدير نحو أبيها، لم تتحرر من مشاعر العداء تجاه أمها، بل بقي هذا العداء جزءاً لا يتجزأ من صلاتها العاطفية المتناقضة وجدانياً؛ ومن ثم، إن المفروض بذلك الاختيار أن يكفل لها زواجاً سعيداً. لكن الأغلب أن يأتي مآل الحال على غير هذه الصورة الموفقة، إذ نادراً ما تتم تصفية الصراع بلا عثرات ومصادمات، فإذا بالبقية المتبقية من العداء تنصب على التعلق الإيجابي وعلى الموضوع الجديد. وإذا بالزوج، الذي ورث في بادئ الأمر عن الأب، يغدو في زمن لاحق وريث الأم أيضاً. وليس من المستبعد من ثم أن تمضي المرأة الشطر الثاني من حياتها في صراع تخوض غماره ضد زوجها، بعد أن تكون قضت الشطر الأول ـ والأقصر ـ منها في عصيان وتمرد على أمها. ومن المحتمل، بعد استنفاد رد الفعل هذا، أن يأتي الزواج الثاني أكثر توفيقاً. ومن الممكن، فضلاً عن ذلك، ومن دون أن يتوقع الزوجان المتحابان شيئاً من الأمر، أن يتغيَّر موقف المرأة بعد ولادة طفلها الأول، فتتماهى من جديد مع أمها التي كانت قد تمردت عليها إلى حين زواجها. وقد تستخدم أيضاً من أجل هذا التماهي كل الليبيدو المتاح لها، فإذا بها تعيد من جديد، بفعل آلية التكرار، تمثيل زواج والديها التعيس. واختلاف ردود الفعل التي تصدر عن المرأة بحسب ولادتها ابناً أو ابنة ينمّ عن أن الدافع القديم: فقدان القضيب، لم يفقد شيئاً من قوته. فوحدها علاقات الأم بابنها يمكن أن توفِّر للأم إشباعاً مليئاً، لأن هذه العلاقات هي من بين سائر العلاقات الإنسانية أدناها إلى الكمال وأبعدها عن التناقض الوجداني. فالأم يسعها أن تصبّ على ابنها كل العجب بالذات الذي ما أبيح لها أن تعامل به نفسها، كما تأمل أن تجد لديه إشباعاً لمطالب ما تبقّى من عقدة الذكورة لديها. وتبقى السعادة الزوجية غير ثابتة الدعائم ما لم تفلح الزوجة في أن تتخذ زوجها طفلاً لها وتتصرف إزاءه تصرف الأم.

يمرّ تماهي المرأة بأمها بطورين. ففي الطور الأول، ما قبل الأوديبي، ترجح كفة التعلق الحبّي بالأم ويغلب الميل إلى اتخاذ الأم نموذجاً وقدوة؛ وفي الطور الثاني، الأوديبي، ترجح كفة الرغبة في موت الأم كيما تحلّ البنت محلّها لدى الأب. ويترك الطوران كلاهما آثاراً عديدة نستطيع أن نقول بصددها بحق إنها لا تمحي أبداً امحاء كاملاً في مجرى النمو اللاحق. على أن الطور ما قبل الأوديبي، طور التعلق الحبّي بالأم، هو الذي يكون له أعظم الأثر في مستقبل المرأة. ففي ذلك الطور، بالفعل، تكتسب المرأة الصفات التي ستؤهلها مستقبلاً لأداء وظيفتها الجنسية وللاضطلاع بدورها الاجتماعي الذي يندّ عن التقدير. وهي بتماهيها مع أمها تغدو موضوع جذب للرجل، لأن التثبيت الأوديبي لهذا الأخير على الأم هو ما يشعل فيه الحالة الحبّية. ومع ذلك، إن الابن هو الذي يفوز في أغلب الأحيان بما لم يستطع الرجل أن يظفر به. ولهذا يتراءى لنا أن حب المرأة وحب الرجل يباعد بينهما فارق المرحلة النفسي.

إن المرأة ـ لا مناص لنا من التسليم بذلك ـ لا تملك حسّ العدل في درجته الرفيعة، وأكبر الظن أن مردّ ذلك إلى غلبة الحسد في حياتها النفسية. فحسّ العدل ينبع، بالفعل، من القدرة على التحكم بالحسد، ويعيّن الشروط التي يباح فيها اعتمال الحسد في النفس. ونقول أيضاً إن الاهتمامات الاجتماعية للنساء هي دون اهتمامات الرجال الاجتماعية، وإن القدرة لديهن على الإسماء الغريزي أوهن وأضعف. أما فيما يتصل بالاهتمام الاجتماعي فدونية المرأة ترجع، في أرجح الظن، إلى ذلك الطابع اللااجتماعي الذي يغلّف العلاقات الجنسية كافة. فالمتحابان يكتفيان واحدهما بالآخر، والأسرة بدورها تضع العراقيل أمام احتمال مبارحة هذه الحلقة الضيقة إلى حلقة أوسع. أما القدرة على الإسماء الغريزي فرهن باختلافات فردية لا حدّ لها. وبالمقابل، لا أستطيع ألا أتكلم عن انطباع يساورني دوماً من جديد كلما قمت بتحليل. فالرجل البالغ من العمر ثلاثين حولاً يتبدى كائناً فتياً، غير مكتمل، قابلاً بعد للتطور. وفي مقدورنا أن نأمل في قدرته على أن يستخدم على أرحب نطاق إمكانيات التطور التي يتيحها له التحليل. وبالمقابل، إن المرأة التي في مثل سنّه تخيفنا بما نلقاه غالباً من ثبات

وجمود لديها؛ فليبيدوها الذي اتخذ له مواقع نهائية يبدو عاجزاً عن الانتقال إلى مواقع أخرى. وهنا ينعدم كل أمل في أن نراها تحقق أي تقدم. فكل شيء يجري لديها كما لو أن سيرورة التطور قد اكتملت وباتت مستعصية على أي تأثير؛ فلكأن المسيرة الشاقة نحو الأنوثة كانت كافية لتستنفد كل إمكانيات المرأة. وإننا، نحن المعالجين، نبتئس لهذه الحالة، حتى ولو توصلنا إلى وضع حدٍّ للألم بتصفيتنا الصراع العصابي.

هذا كل ما كان عليَّ أن أقوله لكم بصدد الأنوثة. ولا مراء في أن عرضي جاء ناقصاً، جزئياً، وبعيداً عن كل إمتاع أحياناً. لكن لا تنسوا أننا لم ندرس المرأة إلا بصفتها كائناً متحدداً بوظيفته الجنسية؛ ودور هذه الوظيفة كبير بلا جدال، لكن لا يغيب عنا أن هذه المرأة أو تلك هي أيضاً كائن إنساني. وإن شئتم معرفة المزيد عن الأنوثة، فما عليكم إلا أن تسائلوا تجربتكم الخاصة، أو أن تتوجهوا بسؤالكم إلى الشعراء، أو أن تنتظروا أن يقتدر العلم على تزويدكم بمعلومات أعمق وأكثر تماسكاً وتناسقاً.

المحاضرة الرابعة والثلاثون

إيضاحات، تطبيقات، توجُّهات

سيداتي سادتي، أيباح لي الآن أن أذر المواضيع العويصة التي أرهقتني بعض الشيء لأطرق مواضيع أخرى لا تتسم، في الحقيقة، بسمة نظرية عميقة، لكنها قمينة مع ذلك بأن تثير اهتمامكم باعتباركم أصدقاء للتحليل النفسي؟ لنفرض مثلاً أنكم انتهزتم سانحة من وقت الفراغ لتطالعوا رواية إنكليزية أو أمريكية تأملون أن تجدوا فيها وصفاً للإنسان المعاصر ولشروط حياته ووجوده. فما إن تقلِّبوا بضع صفحات حتى تقعوا على تلميح من المؤلف إلى التحليل النفسي؛ ثم ترونه يعود بعد بضع صفحات أخرى إلى الكلام عنه، حتى ولو كان السياق غير موائم لذلك. ولا تحسبوا أن قصده من ذلك أن يلجأ إلى استخدام علم نفس الأعماق كيما يزداد القارئ فهماً لشخصيات الرواية وسلوكها. صحيح أن محاولات من هذا القبيل جرت في بعض الأعمال الأدبية الجادة؛ لكن ما تقعون عليه في العادة لا يعدو أن يكون ملاحظات ساخرة، قمينة بأن تثبت سعة اطلاع الكاتب وتفوّقه الفكري فيما يتراءى له. ويساوركم أحياناً شعور بأن المؤلف ليس ضليعاً بالمسألة التي يعالجها على هذا النحو. أو لنفرض أيضاً أنكم حضرتم، قصد التلهي وتزجية الوقت، حفلاً اجتماعياً (ليس من الضروري أن يكون مكانه في فيينا). فما هي إلا هنيهة من الزمن حتى يدور الحديث عن التحليل النفسي، فإذا بالحضور على مختلف فئاتهم وألوانهم يدلون بآرائهم في الموضوع، وفي غالب الأحيان بيقين وثقة لا يتزعزعان. واللهجة التي تُبدى بها هذه الآراء تكون في العادة مزدرية، بل مهينة، أو على الأقل متهكمة. فإن شاءت لكم قلة فطنتكم أن تتدخلوا لتظهروا أن لكم بالموضوع بعض الإلمام، أحاط بكم الحاضرون من كل جانب يسألونكم إيضاحات وتفاسير، وسرعان ما تقتنعون بأن جميع تلك الأحكام الصارمة قد أصدرها أصحابها قبْلياً، من دون أن يكون لهم أي اطلاع على

الموضوع. ولربما اتفق لواحد منهم أن قلَّب كتاباً في التحليل النفسي، لكن هذا لا يعني أنه استطاع بالضرورة أن يتغلب على المقاومة التي يستثيرها اللقاء الأول مع موضوع مجهول.

لعلكم تتوقعون أن يقدِّم لكم مدخل إلى التحليل النفسي حججاً كفيلة بإفحام خصومنا، ويشير عليكم بالمطالعات التي يجدر بكم أن تنصحوا بها من يريد الاستزادة، أو حتى بالأمثلة التي يمكن لكم أن تقبسوها من الأدب أو من تجربتكم الشخصية لتردّوا عليهم حججهم، فأرجوكم في هذه الحال أن تستنكفوا عن بذل مثل هذه الجهود التي لا جدوى تجتدى منها؛ وخير لكم أن تخفوا معلوماتكم، فإن تعذر ذلك أن تكتفوا بالتصريح، على قدر ما تعرفون، بأن التحليل النفسي فرع خاص من العلم يعسر كل العسر فهمه وتقديره بحقّ قدره، وأنه يعالج مواد على جانب كبير من الخطورة، وأن المعابثة بصدده لا تجدي فتيلاً. وعليكم أن تضيفوا أن ثمة تسليات أخرى يمكن للمجتمع أن يتلهى بها. ولا تحاولوا بطبيعة الحال أن تفسروا الأحلام لمن يرويها لكم من المتهورين من الناس، وحاذروا أيضاً أن تتخذوا من حالات الشفاء التي وُفِّق التحليل النفسي إليها وسيلة لكسب أنصار جدد له.

لكنكم قد تتساءلون لماذا يقف الناس الذين يكتبون تلك الكتب أو يتلفظون بذلك الكلام هذا الموقف المتجني حيال التحليل النفسي. وستميلون عندئذ إلى الافتراض بأن مردّ ذلك ليس إلى الناس فحسب، بل إلى التحليل النفسي بحدّ ذاته. وذلكم هو أيضاً رأيي. فالظن المسبق الذي يفصح عن نفسه على هذا النحو في عالمي الأدب والمجتمع هو محض نتيجة متأخرة للحكم القديم الذي أصدره على التحليل النفسي ـ وهو لا يزال ناشئاً ـ أحبار العلم الرسمي. وبالنظر إلى أنه سبق لي أن شكوت من ذلك في عرض تاريخي لي[1]، فلا أبغي العودة إليه ثانية، ولا سيما أن الاحتجاج الأول الذي بدر مني لم يكن له في أرجح الظن من طائل. فخصومي العلميون لم يتركوا إهانة إلا وانهالوا بها عليّ، وقد جرحوا

---

١ ـ يشير فرويد هنا إلى النص الذي نشره عام ١٩١٤ والذي ترجمناه إلى العربية بعنوان **مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي**، ويجد القارئ نصه في هذا المجلد الثاني من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».

بأذاهم المنطق واللياقة والذوق السليم على حدّ سواء. لقد كان المسيء، أو حتى الخصم السياسي، يُشدّ في القرون الوسطى إلى آلة التعذيب ويعرض على الدهماء ليصبّوا عليه شتائمهم؛ وكذلك عوملت. وأكبر الظن أنكم لا تتصورون المدى الذي يمكن أن يذهب إليه في عصرنا الحاضر الحقد الغوغائي، والشطط الذي يمكن أن يندفع إليه الناس إذا ما كانوا جزءاً من جمع وشعروا أن يد المسؤولية الشخصية لم تعد تطالهم. لقد كنت في مستهل تلك الفترة من حياتي في شبه عزلة ووحدة؛ وسرعان ما اتضح لي أنه لا جدوى من الخوض في غمار المجادلة والمساجلة، ولا فائدة من الاحتجاج أو الاحتكام إلى حكم أصحاب العقول الراجحة. وبالفعل، إلى أية محكمة كان يمكنني أن ألتجئ؟ إذّاك سلكت طريقاً أخرى: فقد فسّرتُ سلوك الجموع على أنه تظاهر لنفس تلك المقاومة التي كان عليَّ أن أتغلب عليها لدى مختلف مرضاي، وكان هذا التفسير أول تطبيق أقوم به للتحليل النفسي[2]. ومذّاك أمسكت عن كل مجادلة وأقنعت أنصاري - وكان عددهم يتزايد رويداً رويداً - بوقوف الموقف نفسه. ولم يتأخر هذا النهج عن إتيان ثماره. فإذا بالحِرْم الذي أُنزل بحقِّ التحليل النفسي يرفع؛ ولكن بما أن كل عقيدة قديمة تبقى على قيد الحياة في شكل خرافة، وبما أن كل نظرية يهجرها العلم تدوم في صورة معتقد شعبي، فإن الازدراء الذي أحيط به التحليل النفسي فيما غبر لدى الأوساط العلمية لا يزال باقياً إلى اليوم في أدب الأدباء وكلام المتكلمين وسواهم من غير أهل الاختصاص. فلا داعي إذاً للعجب.

لكن لا تتوقعوا الآن أن يُزفّ إليكم نبأ سعيد يفيدكم أن المعركة من أجل التحليل النفسي قد انتهت وتُوِّجت بالاعتراف به علماً وباعتماده مادة للتعليم في الجامعة. فهيهات وهيهات! وكل ما هنالك أن المعركة متواصلة ولكن في أشكال أكثر تهذيباً. والجديد في الأمر أنه تكوّن في الأوساط العلمية نوع من حاجز فاصل بين التحليل وخصومه. فقد بات هناك بالفعل من يسلِّم ببعض معطيات التحليل، وإن أحاطها بتقييدات لا تخلو من طرافة؛ كما أنه ينبذ معطيات أخرى

٢ - يشير فرويد هنا إلى مناقشته لآراء غوستاف لوبون حول **سيكولوجيا الجموع** (١٩٢١). وقد ترجمنا كتاب فرويد إلى العربية بعنوان **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**. «م».

منه ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد. ويشقّ علينا أن نحزر الدوافع التي أملت عليهم اختيارهم، والأقرب إلى الاحتمال أن المسألة عندهم مسألة تعاطف شخصي. فواحدهم تصدمه الجنسية، وواحد آخر يصدمه اللاشعور؛ غير أن واقعة الرمزية هي التي تثير فيما يبدو أشد النفور. فهؤلاء الانتقائيون يأبون التسليم بأن التحليل النفسي، ولو لم يكتمل بناءً بعد، يؤلف كلاً واحداً يستحيل تجريده من عنصر ما من عناصره. ولم يساورني قط انطباع بأن الاختيار أو الرفض يرتكز، عند هؤلاء الأنصار الجزئيين، إلى فحص دقيق رصين. فهم يكرّسون وقتهم واهتمامهم لفروع أخرى من النشاط، فروع أصابوا فيها نجاحاً باهراً، وهذا ما يفسّر موقفهم. ولكن ما الداعي في هذه الحال إلى أن يدخلوا طرفاً في المعركة بمثل ذلك الوثوق؟ أوَما كان أولى بهم أن يحتفظوا بحكمهم لأنفسهم؟ لقد توصلت ذات يوم إلى تغيير رأيِ واحدٍ من هؤلاء المشاهير. فقد كان ناقداً ذائع الصيت في العالم قاطبة، وقد درس بأتم تفهم جميع التيارات الفكرية في عصره، ودلل على رؤية نبوية. وكان في حوالي الثمانين من العمر حين تعرفت إليه، وكان لا يزال محدِّثاً لامعاً. ولا أعتقد أنه يشقّ عليكم أن تخمِّنوا اسم هذا الرجل المشهور[٣]. ومن دون أي تحريض من قبلي بادر هو إلى الخوض في موضوع التحليل النفسي. قال لي بتواضع جمّ: «ما أنا إلا أديب، أما أنت فعالم ومبتكر. ومع ذلك فثمة شيء واحد أريد أن أقوله لك، وهو أني لم أشتهِ قط أمِّي جنسياً». فأجبته: «لكن ليس من الضروري أن تعي ذلك، فهذه عند الراشدين ظاهرات لاشعورية». فقال وقد سُرّي عنه: «آه، هكذا تفهم إذاً الأمر»، ثم شدّ على يدي. وثرثرنا لعدة ساعات بمودة كبيرة. وعلمت فيما بعد أنه راح في السنوات الأخيرة من حياته يتكلم بتعاطف عن التحليل النفسي، وأنه كان يطيب له أن يستخدم كلمة «الكبت» التي كانت جديدة بالنسبة إليه.

ثمة قول سائر يقول إن أعداءنا يمكن أن يفيدونا بعلم كثير. وإني لأقولها بصراحة إن هذا لا ينطبق عليّ. ولربما كان مفروضاً بي أن أتفحص هنا جميع الاعتراضات

٣ ـ هو الكاتب الدانمركي جورج بيراندس (١٨٤٢ ـ ١٩٢٧) الذي كان فرويد يكنّ له إعجاباً. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

وجميع المآخذ التي وُجِّهت إلى التحليل النفسي والتي قد يكون لكم فيها علم وفائدة. وكان المفروض بي أيضاً أن أحدِّثكم عن كل الأباطيل والأخطاء المنطقية التي تورط فيها أصحاب تلك الاعتراضات والمآخذ. لكني لما أعدت التفكير كرة أخرى وجدتني أقول بين وبين نفسي إن هذا التمحيص لن يكون شائقاً أو مفيداً، بل على العكس شاقاً ومملاً ومعاكساً للسنّة التي استننتها لنفسي حتى اليوم. لذا أستميحكم عذراً إن أمسكت عن ذلك وأعفيتكم من ثم من سماع آراء خصومنا العلميين المزعومين. والحق أنهم في الغالب من الأحوال أشخاص لا يبيح لهم شيء أن يصدروا أحكامهم، اللهم خلا غرارتهم المطلقة التي أتاحت لهم أن يبقوا في منأى عن مكتسبات تجربة التحليل النفسي. لكني أعلم حقَّ العلم أني لن أبرئ ذمتي أمامكم بمثل هذه السهولة، ومن المحقَّق أنكم ستردّون عليّ قائلين: «هناك أشخاص لا تنطبق عليهم ملاحظتك الأخيرة؛ فبعضهم اكتسب قدراً من الخبرة التحليلية، ولربما أجراها على نفسه. ثم إن العديدين منهم كانوا في يوم من الأيام من معاونيك. ولما انتهوا إلى اعتناق تصورات أخرى ونظريات أخرى، بادر هؤلاء المنشقون في وقت لاحق إلى تأسيس مدارس تحليلية نفسية مستقلة. اشرح لنا إذاً علة هذه الانشقاقات التي يزخر بها تاريخ التحليل النفسي وأسبابها ومدلولها».

على رسلكم، هذا ما سأحاول أن أفعله، ولكن بإيجاز، لأن هذا الشرح ليس مفيداً إلى الحدّ الذي تتصورون. أنا أعلم أن الفكر يتجه بكم بوجه خاص إلى علم النفس الفردي لآدلر(٤). ففي أمريكا مثلاً يضعون هذا العلم على مستوى

٤ ـ ألفريد آدلر: طبيب ومعالج نفسي نمساوي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧). ولد في أسرة يهودية ولكنه اعتنق البروتستانتية عام ١٩٠٤ واشتهر كمؤسس لعلم النفس الفردي. عمل في أول الأمر كطبيب عيون، ثم كطبيب عام. شارك في جلسات يوم الأربعاء التي كان يديرها فرويد، لكنه لم يلبث أن بدأ بالابتعاد عن الحلقة التحليلية النفسية عندما نشر عام ١٩٠٧ دراسة ربط فيها نفسية الفرد وردّ فعله التعويضي بالدونية والقصور في بعض أعضائه. وبعد القطيعة مع فرويد أنشأ مدرسته الخاصة لعلم النفس الفردي مؤكداً أن الفرد هو على الدوام كائن مفرد أوحد، ولا بدّ بالتالي أن تتغير طريقة علاجه تبعاً لفرديته. وقد صار يتردد منذ العام ١٩٢٦ على الولايات المتحدة الأمريكية التي اكتسب فيها مذهبه شهرة واسعة بسبب منزعه التفاؤلي وتوكيده على الكينونة الاجتماعية للفرد وعلى تحويل عقدة نقصه إلى تفوق، وعلى قدرة البشر على بناء مجتمع مثالي. وقد عمّد مذهبه باسم علم نفس الأعماق الذي التأم حوله أنصار كُثُر في ألمانيا والنمسا قبل أن يهاجروا بدورهم بعد أن عانوا ما عانوه من الاضطهاد النازي. من أهم مؤلفاته: **معرفة الإنسان، المزاج العصبي، معنى الحياة**. «م».

واحد والتحليل النفسي، ويستشهدون به جنباً إلى جنب معه. وفي الواقع ليس ثمة بين النظريتين نقاط مشتركة تذكر؛ لكن نظرية آدلر، بحكم بعض الظروف التاريخية الخاصة، تعيش على حساب نظرية التحليل النفسي عيشة طفيلية، والأوصاف التي عزوناها إلى هذه الفئة من الخصوم تبدو وكأنها لا تنطبق إلا ضمن أضيق الحدود على مؤسس علم النفس الفردي. بل إن الاسم الذي يتسمى به هذا المذهب غير موائم، ويبدو أنه لم يُأخذ به إلا لصعوبة العثور على اسم آخر؛ وليس يسعنا أن نسمح بأن يُستخدم بصفة مشروعة كنقيض لعلم نفس الجموع. فما ندرسه نحن أيضاً هو بصفة شبه دائمة، وقبل كل شيء، علم نفس الفرد البشري. ولا أزمع البتة هنا أن أقدِّم لكم نقداً موضوعياً لعلم النفس الفردي الآدلري، فمثل هذا النقد لا مكان له في خطة هذا المدخل. وفضلاً عن ذلك، لا أجد داعياً إلى إجراء أي تعديل في الأفكار التي كنت أفصحت عنها بصدد هذا الموضوع من قبل[٥]. غير أني سأمثِّل لكم على الانطباع الذي يتركه علم النفس الفردي هذا في النفس بنادرة يرجع تاريخها إلى السنوات السابقة لظهور التحليل.

بجوار البلدة المورافية الصغيرة التي رأيت فيها النور والتي غادرتها وأنا في الثالثة من العمر[٦] يقع منتجع متواضع للاستشفاء بالمياه وسط طبيعة خضراء جميلة. وكثيراً ما كنت أقضي فيه العطلة المدرسية في أثناء دراستي الثانوية. وقد سنحت لي الفرصة لرؤية هذا المكان من جديد بعد مرور نحو من عشرين عاماً عندما سقط قريب لي طريح الفراش؛ وفي أثناء المحادثة التي دارت بيني وبين الطبيب الذي تعهد قريبي بالمعالجة، استعلمته عن الصلات التي يعقدها مع فلاحي المنطقة، وهم من السلوفاكيين فيما أعتقد، ولم يكن له غيرهم من الزبائن في فصل الشتاء. فشرع يصف لي طريقة ممارسته لنشاطه المهني. فالمرضى الذين يأتون إليه طلباً للاستشارة يصطفّون في طابور أمام مكتبه، ثم يتقدمون واحداً بعد الآخر وكل منهم يصف له داءه: ألم في الظهر، تشنج في المعدة، تعب في

٥ - في: **مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي** (١٩١٤). «م».

٦ - ولد فرويد سنة ١٨٠٦ في بلدة فرايبرغ في مورافيا، وتعرف اليوم باسم بريبور. «م».

الساقين، إلخ. وكان الطبيب يفحصه، ويعاين حالته، ثم يطالعه بتشخيصه الذي كان في جميع الحالات واحداً لا يتبدل ويتلخص في هذه الكلمة: «مسحور». فسألته وقد أخذت مني الدهشة كل مأخذ: ألا يعجب المرضى لكونك تجد لهم جميعهم مرضاً واحداً؟ فأجابني: كلا، بل يسرّهم ذلك، فهذا بالتحديد ما كانوا يأملونه؛ وكان كل واحد منهم إذا ما ترك الطابور أخبر الباقين بالإشارة والإيماء أن الطبيب «شخص ممتاز متقن لمهنته». وما كان ليخطر لي ببال يومئذ أني سأجدني يوماً في وضع يتيح لي أن أواجه موقفاً مماثلاً وإن في ظروف مختلفة.

فالواحد من أتباع علم النفس الفردي الآدلري، سواء أوجد نفسه أمام جنسي مثلي أم مولَّه بالموتى أم مصاب بالهستيريا الحصرية أم عصابي وسواسي منغلق على نفسه أم مخبول هائج، يشخّص المَرض بقوله إن المريض يرغب في توكيد ذاته، والتعويض عن دونيته، والتحليق والارتفاع من مستوى الأنوثة إلى مستوى الذكورة. والحق أنه يوم كنا طلاباً في مقتبل العمر، نتمرس في المستشفى، كانت تطرق آذاننا تفاسير من أشباه هذه حينما تعرض علينا حالات هستيرية، فلكأن جوامع الكلم القديمة لا تفنى ولا تبلى أبداً! كان يقال لنا يومذاك إن المهسترين يصطنعون أعراضهم ليثيروا اهتمام الآخرين بهم وليلفتوا أنظارهم إليهم. ومع ذلك، ما كان لمثل هذا العلم النفسي البدائي أن يبدو لنا كافياً، حتى في ذلك العهد، لتفسير لغز الهستيريا. كنا نتساءل، مثلاً، لماذا يصطنع المرضى هذه الوسيلة، وليس سواها، لبلوغ غايتهم؟ إن مذهب علماء النفس الفرديين ذاك ينطوي بطبيعة الحال على بعض المعطيات الصحيحة، وبالإجمال على شذرة من الحقيقة. فغريزة البقاء تحاول أن تستغل كل موقف من المواقف، مثلما يسعى الأنا كذلك إلى الإفادة من الحالة المَرَضية. وهذا ما نسمّيه في التحليل النفسي «المكسب الثانوي للمرض». لكن ما مآل المازوخية، الحاجة اللاشعورية إلى العقاب، الأذى الذي ينزله العصابي بنفسه، وجميع الوقائع التي تحملنا على التسليم بوجود دوافع غريزية تناهض غريزة البقاء، ما مآل ذلك كله في نظرية آدلر؟ وإذا أنعمنا النظر في الأمر، انتابنا لا محالة الشك في الأساس الذي تنهض عليه الحقيقة المبتذلة التي يتمحور حولها مذهب علم النفس الفردي بتمامه. ومع

ذلك، إن مذهباً كهذا يحظى بطبيعة الحال بقبول الغالبية العظمى من الناس، لأنه يتحاشى التعقيدات، ويستبعد كل فكرة جديدة يصعب إدراكها، ويجهل اللاشعور، ويلغي بضربة واحدة مشكلة الجنسية التي تبهظ كل إنسان، ويكتفي بالبحث عن المنعطفات الواجب سلوكها كيما تغدو الحياة أسهل مأتى وأيسر منالاً. ذلك أن الناس هم في غالبيتهم من اللامبالين، الذين يكفيهم سبب واحد ليفسّروا به ما يطلبون تفسيراً له من الأشياء، ولا يعنيهم أن يكون للعلم باع طويلة. إنهم ينشدون التفاسير البسيطة ويطيب لهم أن تجد مشكلاتهم حلها دفعة واحدة. وحينما نلاحظ مدى تجاوب علم النفس الفردي مع هذه المطامح، لا نملك إلا أن نتذكر تلك العبارة التي وردت في **فالنشتاين**[٧]:

لو لم تكن هذه الفكرة غاية في الأرابة.

لمِلْنا إلى اعتبارها غاية في السخافة.

إن النقاد اللوذعيين، الذين يقسون كل القسوة في التعامل مع التحليل النفسي، يتناولون بالإجمال علم النفس الفردي بأظافر مخملية. غير أن واحداً من أشهر أطباء الأمراض النفسية في أمريكا نشر، تحت عنوان **كفى**، مقالاً ضد آدلر، عبّر فيه بعبارات تنبض بالقوة عن اشمئزازه من «النزوع القهري إلى التكرار» عند أنصار علم النفس الفردي. ولئن أبدى غيره قدراً كبيراً من التلطف في موقفه، فلا بدّ أن مردّ ذلك في أرجح الظن إلى العداء أصلاً للتحليل النفسي.

لست بحاجة إلى الإفاضة في الكلام عن المذاهب المنشقة الأخرى. وهذا الانشقاق ليس بحدّ ذاته حجة للتحليل النفسي أو عليه. وحسبكم أن تقلّبوا في فكركم العوامل العاطفية القوية التي تجعل من العسير على الكثيرين من الناس الانضواء تحت لواء مذهب من المذاهب والانصياع لانضباطه. وأعملوا فكركم أيضاً في الصعوبة - الأكبر بعد - التي يفصح عنها هذا القول السائر: **بقدر ما تتعدد الرؤوس تتعدد الآراء**[٨]. وحين تجاوزت الاختلافات في الآراء حداً

٧ - مسرحية ثلاثية للشاعر الألماني فريدريش شيلر (١٧٥٩ - ١٨٠٥).

٨ - باللاتينية في النص. والقول هو للشاعر الهزلي الروماني تيرنسيوس (نحو ١٩٠ - ١٥٦ ق.م) في مسرحيته **فورميون**. «م».

معلوماً، كان خيرَ حلٍّ الافتراقُ وسيرُ كل واحد في الطريق الذي اختطّه لنفسه، ولا سيما أن هذه الخلافات النظرية كانت تستتبع تعديلاً في خطة المعالجة العملية. افترضوا، مثلاً، أن محللاً من المحللين[9] ينكر تأثير الأحداث والخبرات الماضية ويعزو الأعصبة إلى العوامل الراهنة وحدها وإلى ارتقاب الأحداث القادمة. فهذا المحلل سيهمل تحليل الطفولة، وسيعتمد تقنية مغايرة، وسيجد نفسه مكرهاً على التعويض عن انعدام النتائج المتأتية من تحليل أحداث الطفولة بزيادة تأثيره البيداغوجي الشخصي ومكاثرة توجيهاته المباشرة التي تحدِّد للمرضى الأهداف التي يتوجّب عليهم أن يضعوها نصب أعينهم في حياتهم. وقد تكون هذه مدرسة للحكمة، لكنها لن تعود في هذه الحال مدرسة للتحليل النفسي.
وقد يذهب محلل آخر إلى أن نواة جميع الأمراض العصابية اللاحقة تكمن في الحصر الذي نجم عن الولادة، ومن ثم سيتراءى له أن من الطبيعي أن يُحَدّ التحليل بآثار هذا السبب الأوحد وأن يَعِد المريض بأن شفاءه آتٍ لا محالة خلال ثلاثة أو أربعة أشهر من المعالجة[10]. وأرجو أن تلحظوا أن الفرضيات التي يرتكز إليها المذهبان الآنفا الذكر متعارضة تعارضاً جذرياً. وما يكاد يميّز جميع هذه الحركات الانشقاقية هو أن كلاً منها وضع يده على معطى بعينه من معطيات التحليل النفسي، سواء أكان هو غريزة القوة أم الصراع الأخلاقي أم عقدة الأم أم الوظيفة التناسلية، إلخ، ثم تسلح بما استحوذ عليه واستظهر به ليعلن استقلاله.
وقد تعترضون عليّ بالقول إن هذه الانشقاقات هي من الآن أكثر شيوعاً في تاريخ التحليل النفسي مما في أية حركة فكرية أخرى. وإني لأجهل هل الحال كذلك فعلاً، لكن يخلق بنا، إن كان كذلك هو الواقع، أن نلقي التبعة في هذا على الصلات الوثيقة التي تربط في التحليل النفسي بين الآراء النظرية والطريقة العلاجية. فلو اقتصر الأمر على خلافات في الآراء، لما شقّ احتماله. والحق أن الناس تميل إلى اتهامنا، نحن أصحاب التحليل النفسي، بالتصلب وعدم التسامح. لكن متى بدر منا هذا العيب المنفِّر؟ فقط عندما انفصلنا عمن يخالفوننا في

٩ - المقصود كارل غوستاف يونغ. «م».

١٠ - نقدة موجهة إلى أوتو رانك مؤلف **رضة الميلاد**. «م».

التفكير، ومن دون أن ينالهم منا أي اقتصاص آخر. والحال أن انفصالنا عنهم قد عاد عليهم بالفائدة. فالمنشقّون، بابتعادهم عنا، يلقون عن عاتقهم واحداً من الأعباء التي ننوء بحملها نحن: ومن ذلك أنهم يتخلصون، مثلاً، من شناعة الجنسية الطفلية أو من سخف الرمزية. وهم يصيبون بذلك غنماً كبيراً، إذ يستردّون احترامهم شبه كامل في نظر الناس، بينما يُنظر إلينا، نحن الثابتين في مواقعنا، على أننا مشعوذون. وعلى كل، وفيما خلا حالة استثنائية واحدة جديرة بالاعتبار[١١]، فإن المنشقين جميعاً هم الذين بادرونا بالقطيعة.

ماذا تبغون منا أكثر من ذلك باسم التسامح؟ أتريدوننا أن نقول لمن يتلفظ برأي خاطئ مطلق الخطأ في نظرنا: «شكراً جميلاً لك على إثارتك هذه المسألة. فأنت تقينا بذلك من خطر الغرور والعجب بالذات وتتيح لنا الفرصة لنثبت للأمريكان أن لنا نحن أيضاً من **سعة الأفق**[١٢] أقصى ما يأملون. إننا لا نصدق كلمة واحدة مما تقول، لكن ليس لذلك من أهمية، فأكبر الظن أنك على حقّ بقدر ما نحن على حقّ. وهل لنا أن نعرف أصلاً من منا على حقّ؟ اسمح لنا إذاً، رغم اختلافنا في الرأي، بأن نناصر مذهبك في منشوراتنا، آملين بالمقابل أن تنبري للذود عن مذهبنا، حتى وإن كنت تنكره». هذا ما سيكونه لا شك في المستقبل الموقف المعمول به في المجال العلمي يوم يكون التطبيق العشوائي لنظرية آينشتاين في النسبية قد فرض نفسه وشاع. لكننا لم نبلغ بعد هذا الطور. ومن ثم يتعيَّن علينا، وفق النهج القديم، أن نكتفي بالذود عن معتقداتنا الخاصة، حتى وإن عرّضنا أنفسنا، مثلنا في ذلك مثل غيرنا، لاحتمال الوقوع في الخطأ. ولن نتوانى بعد ذلك عن أن نستخدم على سعة حقّنا في تعديل آرائنا في مضمار النظرية التحليلية النفسية متى ما اهتدينا إلى شيء أفضل.

لقد كان واحد من أولى تطبيقات التحليل النفسي أنه علَّمنا كيف نفهم علَّة العداء الذي قابلَنا به المعاصرون لنا لأننا نمارس التحليل النفسي. غير أن ثمة تطبيقات أخرى له، ذات طبيعة موضوعية، يمكن أن يكون لها فائدة أعمّ. فقد

١١ ـ هي على الأرجح الحالة المتعلقة بفلهلم شتيكل. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٢ ـ بالإنكليزية في النص. «م».

كان قصدنا الأول أن ندرس اضطرابات الحياة النفسية الإنسانية، إذ كانت تجربة مرموقة قد أثبتت لنا أن فهم هذه الاضطرابات يكاد يعني شفاءها، وأن ثمة طريقاً سالكاً يقود من الأول إلى الثاني. ولردح طويل من الزمن لم نضع نصب أعيننا غير هذا الهدف، لكننا ما لبثنا أن انتبهنا، في زمن لاحق، إلى الصلات الوثيقة، بله إلى وحدة الهوية الداخلية، بين السيرورات المَرَضية وتلك التي يقال إنها سوية. ويومئذ تحول التحليل النفسي إلى علم نفس للأعماق. وبما أنه ما من سبيل إلى فهم شيء مما يفعله أو يبدعه الإنسان بدون معونة علم النفس، فسرعان ما فرض استخدام التحليل النفسي نفسه في العديد من العلوم، وعلى الأخص العلوم المعنوية، وكان حافزاً على إجراء بحوث جديدة ودراسات جديدة. ومن سوء الحظ أنه لم تلبث أن برزت بعض العقبات، ذات الصلة بطبيعة الوضع، وظلت قائمة إلى اليوم. فاستخدام التحليل في ميادين أخرى غير ميدان العلاج يستلزم معارف تقنية لا تتوفر للمحلل، بينما المختصون في التقنيات الأخرى يجهلون، بطوع إرادتهم أحياناً، كل شيء عن التحليل النفسي. وقد نجم عن ذلك أن بعض المحللين، ممن لهم بعض الاطلاع في الميدان الذي يريدون استكشافه، تصدوا كهواة، وأحياناً على عجل وتسرع، لفروع علمية شتى كتاريخ الحضارة والإثنولوجيا وتاريخ الأديان، إلخ. فكان أن قابل الباحثون المتخصصون في هذه الميادين المتنوعة القادمين الجدد وكأنهم دخلاء، ونبذوا في غالب الأحيان مناهجهم ونتائجهم، هذا إذا ما قُدِّر لها أصلاً أن تلفت انتباههم. على أن الموقف اليوم أحسن منه بالأمس في الميادين كافة، ولا يني يتزايد باطراد عدد الذين يدرسون التحليل النفسي ابتغاء الإفادة منه في مضمار العلم الذي نذروا أنفسهم له، مثلهم في ذلك مثل المستوطنين الذين يحلّون محلّ من تقدّمهم من الرواد. وهذا ما يبشرنا بحصاد وفير من الأفكار الجديدة. أضف إلى ذلك أن معطيات التحليل النفسي تثبُت صحتها يوماً بعد يوم بفضل تطبيقاته. على أنه حيثما ابتعد البحث العلمي عن النشاط العملي خفّت بالضرورة حدّة معارك الاختلاف في الرأي.

يراودني ميل شديد إلى أن أعرض عليكم شتى تطبيقات التحليل النفسي في

مضمار العلوم المعنوية، وهذا من شأنه أن يثير اهتمام كل من له رغبة في تهذيب عقله بالمعرفة. ولقد آن لنا، فضلاً عن ذلك، أن نستجمّ لهنيهة من الزمن ونرتاح من حديث الانحرافات والأمراض! لكن لا يجوز لي الانسياق وراء هذا الإغراء، لأن عرضاً كذاك من شأنه هو الآخر أن يشطّ بنا بعيداً، وإني لأصارحكم بأني لا أشعر بأن هذه المهمة في طاقتي. صحيح أني أنا من خطا الخطوة الأولى في بعض هذه الميادين، لكنني أعجز في يومنا الحاضر عن أن أستوعب بنظري وساعة هذه الميادين، ولا مناص لي من أن أتغلب على صعاب وعقبات شتى ومن أن أستكمل دراستي فيما لو أردت أن أطّلع على كل ما استجدّ في الموضوع منذ عهد بداياتي الأولى. ومن ساءه منكم إحجامي هذا وأخلف ظنه، فما عليه إلا أن يعوِّض عن ذلك بمطالعته مجلتنا **إيماغو** Imago، المخصصة للتطبيقات غير الطبية للتحليل النفسي(١٣).

بيد أن هناك موضوعاً لا مناص لي من التوقف عنده هنيهة من الزمن، لا لأني أَلِفْته وأشبعته درساً، بل على العكس فأنا لم أولِه إلى اليوم اهتماماً يذكر؛ وإنما لأن هذا الموضوع هو بين سائر المواضيع التي شغل التحليل النفسي نفسه بها أعظمها أهمية إطلاقاً، بالنظر إلى ما يفتحه من آفاق مستقبلية: أعني به تطبيق التحليل النفسي في مضمار علم التربية وتنشئة الأجيال القادمة. وإنه ليغبطني على كل حال أن أخبركم بأن ابنتي آنا **فرويد**(١٤) قد نذرت نفسها لهذه المهمة، وفي هذا كفارة عن إحجامي وإهمالي. ولا يصعب علينا أن نتبين كيف تسنى لنا أن ندرك الأهمية التربوية للتحليل. فكلما كنا نتوصل، في أثناء معالجتنا لمعصوب راشد، إلى تخمين سبب أعراضه، كنا نجدنا وقد عدنا أدراجنا لا محالة إلى عهد

١٣ ـ **إيماغو**: مجلة تحليلية نفسية أسسها في عام ١٩١٢ كل من هانز ساكس وأوتو رانك، واختصت بالمباحث غير الطبية، ونالت شهرة لدى القراء، وبعد فترة من التوقف أعيد إصدارها في عام ١٩١٩ من قبل **المنشورات الدولية للتحليل النفسي**. «م».

١٤ ـ آنا فرويد: ابنة فرويد من زوجته مارتا التي أنجبت منه قبلها خمسة أولاد. ولدت في النمسا حيث لم تستطع أن تدرس في الجامعة بحكم كونها أنثى. تولى فرويد نفسه تحليلها وانتمت إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**، ثم هاجرت إلى إنكلترا حيث تجنست وتخصصت بتحليل الأطفال. من مؤلفاتها: **الأنا وآليات الدفاع**، **التحليل النفسي للأطفال**. «م».

طفولته الأولى. وما كانت معرفة الإتيولوجيا[١٥] اللاحقة تكفي لفهم المرض ولا لشفائه. وباضطرارنا على هذا النحو إلى الإحاطة بالخصائص النفسية للطفولة، ظفرنا بجملة عظيمة من الأشياء ما كان لغير التحليل أن يزيح لنا النقاب عنها. وبذلك اقتدرنا على تصحيح طائفة من الآراء الشائعة عن الطفولة. فقد وجدنا أن السنوات الأولى من الطفولة (حتى السنة الخامسة تقريباً) حاسمة الأهمية لعدة أسباب. ففي ذلك العهد المبكر تتفتح الجنسية، ويكون لهذا التفتح أثر حاسم في حياة الراشد الجنسية. ثم إن الانطباعات التي يتلقاها الطفل في ذلك العهد يكون لها أثر كأثر الرضات على أناه الذي لا يزال واهناً غير مكتمل التطور. وهذا الأنا لا يجد سبيلاً إلى الذود عن نفسه والاحتماء من الهجمات الانفعالية غير سبيل الكبت، وبذلك تتخلق منذ الطفولة جميع الاستعدادات المهيّئة لاضطرابات وظيفية لاحقة ولأمراض مقبلة. ووجدنا أيضاً أن الطفولة مرحلة من الحياة عسيرة الاجتياز بالنظر إلى أن الطفل مُطالَب بأن يتمثّل في أجل وجيز من الزمن ويستوعب كل محصلة الحضارة التي تم بناؤها على امتداد آلاف من السنين. فعليه أن يتعلم أو يبدأ بأن يتعلم كيف يتحكم بدوافعه الغريزية ويتكيّف مع الوسط الاجتماعي. ولا يتوصّل الطفل من تلقاء نفسه إلى هذا التبدُّل، بل لا بدّ من أن تقسره التربية عليه قسراً إلى حدّ بعيد. ولا غرو ألا تصيب هذه المهمة في كثير من الأحيان إلا نجاحاً جزئياً. فلدى العديدين من الأطفال، وبالتحقيق لدى جميع الراشدين المرضى، تُلحظ منذ الطفولة، وقبل سن البلوغ، بعض الاضطرابات العصابية التي تقلق الأهل وتربك الأطباء.

ولم نتردد في تطبيق العلاج التحليلي على هؤلاء الأطفال، سواء أبدت لديهم أعراض عصابية موصوفة أم ظهر لديهم جنوح إلى تطور طبعي غير موائم. ولم يحجم خصوم التحليل عن الشكوى من الخطر الذي يزعمون أن الأطفال يتعرضون له من جراء التحليل، لكن ثبت أن هذا التخوف لا يستند إلى أساس. فبفضل هذه التحاليل تسنى لنا أن نؤكد، عن طريق دراسة الموضوع الحيّ، ما كنا استدللنا عليه من الوثائق التاريخية، إن جاز التعبير، لدى الفرد الراشد. وفضلاً عن

١٥ ـ الإتيولوجيا: علم أسباب المرض. «م».

ذلك، كانت النتائج المتحصلة عميمة النفع بالنسبة إلى الأطفال. وقد أمكن لنا أن نلاحظ أن المعالجة التحليلية تصلح للطفل إلى أبعد الحدود، والنجاح فيها يكون تاماً ودائماً. ومن الضروري ـ هذا غني عن البيان ـ استخدام تقنية معدَّلة تعديلاً بيِّناً، لأن الطفل يختلف عن الراشد اختلافاً كبيراً من وجهة النظر السيكولوجية: فهو لا يملك بعد أنا أعلى، وطريقة التداعيات الحرة لا يمكن أن تتمخض معه عن نتائج مرموقة، والتحويل لا يضطلع لديه بالدور نفسه، إذ إن والديه الفعليين لا يزالان على قيد الحياة. وأما المقاومات الداخلية التي نواجهها ونتصدى لها لدى الراشدين فتقوم مقامها لدى الأطفال صعوبات خارجية. وإن يكن الوالدان هما علة هذه المقاومة، فإن هدف التحليل، بله التحليل نفسه، يحيق به الخطر؛ ولهذا يخلق بنا، عندما نحلل الطفل، أن نؤثِّر تحليلياً في الوقت نفسه على والديه. وبالمقابل، إن الاختلافات المحتومة بين تحليل الأشخاص الكبار وتحليل الأطفال تخفّ حدَّتها من جراء كون العديد من مرضانا يحتفظون بجوانب طبعية طفلية، مما يضطر المحلِّل، المكره على التكيُّف مع مريضه، إلى أن يعتمد في معالجتهم على جوانب معيَّنة من تقنية تحليل الأطفال. وقد أضحى تحليل الأطفال بطبيعة الحال، وسيبقى كذلك دوماً في أرجح الظن، من اختصاص المحللات النساء.

لقد فهمنا أن أكثرية أطفالنا يمرون، في أثناء نموهم، بطور عصابي، مما يوجب علينا بالتالي اتخاذ تدابير ذات صلة بالصحة النفسية. ولن نجني إلا فائدة كبيرة في أرجح الظن إذا ما مددنا يد العون للطفل وأخضعناه للتحليل، حتى ولو لم يظهر عليه أي عرض. وهذا، في الحق، إجراء وقائي يشابه ذاك الذي نلجأ إليه في الوقت الحاضر حينما نلقِّح الأطفال ضد الخناق من دون أن ننتظر أن يفصح المرض عن نفسه. ومناقشة هذه المسألة ليس لها اليوم غير أهمية أكاديمية ونظرية خالصة؛ ومع ذلك أراني مبيحاً لنفسي أن أكلِّمكم عنها. فالعدد الأكبر من المعارضين لنا سيرون في هذا المشروع انتهاكاً منقطع النظير للقدسيات؛ وإذا ما أضفنا إلى ذلك موقف غالبية الأهلين من التحليل، لم نجد مناصاً من أن نقطع كل أمل في إخراج فكرتنا إلى حيِّز التنفيذ. ناهيك عن أن هذه الوقاية من الأمراض العصبية، القمينة في أرجح الظن بأن تثمر خير النتائج، تفترض مسبقاً

تنظيماً اجتماعياً مبايناً جداً للتنظيم القائم اليوم. أما استخدام التحليل في علم التربية فحريّ بنا في الوقت الحاضر أن ننظر إليه من زاوية مغايرة. ولنسلِّم بادئ ذي بدء بأن الهدف الرئيسي لكل تربية تعليم الطفل ضبط دوافعه الغريزية: إذ يستحيل بالفعل أن نطلق حبل الحرية له على غاربه، وأن نأذن له بإطاعة اندفاعاته ونوازعه بلا قيد. صحيح أن من شأن هذه الإباحة أن تتيح لعلماء نفس الطفولة تجربة فذة غنية بالتعليم، لكن حياة الأهل ستغدو في هذه الحال مستحيلة لا تطاق، كما أن الأطفال سيلحق بهم، راهناً أو مستقبلاً، ضرر كبير. لا مفر للتربية إذاً من أن تنهى وتحظر وتكبح، وهذا ما وضعته بالفعل موضع التطبيق العملي على امتداد القرون. غير أن التحليل النفسي أبان لنا أن قمع الدوافع الغريزية هذا هو تحديداً علة الأعصبة. وقد درسنا آلية تكوين الأعصبة بكل تفاصيلها، كما تذكرون. على التربية إذاً أن تشقّ طريقها بين محذورين: الإباحة والقمع. ولئن تكن هذه المشكلة غير مستعصية على الحلّ، فحري بنا أن نطلب من هذه التربية خير ما يمكن أن تعطيه، أي أن نعيِّن لها الطريقة التي تتيح لها أن تكون أكثر نفعاً وأقل ضرراً. وبيت القصيد في هذه الحال أن نقرر ما ينبغي حظره، ثم في أية ظروف وبأية وسائل نطبِّق هذا الحظر. ولا يغب عنا، فضلاً عن ذلك، أن الأطفال الذين نريد التأثير عليهم لهم استعدادات جِبِلِّية مختلفة، ومن ثم لا يجوز أن يكون موقف المربِّي من جميع الأطفال واحداً. وتدلّ المشاهدة أن التربية أدت رسالتها حتى يومنا هذا على وجه معيب للغاية، وأنها أنزلت بالأطفال ضرراً بليغاً. فإن أمكن اكتشاف التربية الفضلى التي تستطيع أن تقوم بدورها على أمثل وجه، ففي المستطاع عندئذ أن نأمل في توصُّلها إلى إلغاء أحد عاملي المرض: مفعول الرضات العارضة في الطفولة. أما العامل الآخر: متطلبات الجِبِلّة الغريزية الجامحة، فلن يُقيَّض للتربية أبداً أن تذلِّله. وإن تكن مهمَّة المربي العسيرة أن يعرف خصائص جِبِلَّة الطفل، وأن يحزر، من خلال مؤشرات وقرائن صغيرة، ما يجري في نفسه التي لم تكتمل تكويناً بعد، وأن يحيطه بلا شطط بالقسط المتوجِّب له من الحب مع حفاظه على الهيبة الضرورية، فلن نجد مناصاً من القول إن الدراسة المعمقة للتحليل النفسي هي وحدها القادرة على توفير الإعداد الكافي

لممارسة مثل هذه المهنة التربوية. وخير ما يمكن فعله أن يخضع المربي نفسه للتحليل، إذ لا سبيل إلى استيعاب التحليل وتمثُّله بدون خبرة شخصية. وربما كان تحليل المعلمين والمربين أجدى نفعاً كإجراء وقائي حتى من تحليل الأطفال، كما أن تطبيقه في الوقت الحاضر يصطدم بصعوبات أقل.

ولنذكر عابرين، ناهيك عما تقدم، أن تربية الأطفال يمكن أن تجني، بطريق آخر، فائدة أخرى من التحليل، وهي فائدة لن تني تتعاظم شأناً في المستقبل. فالوالدون، الذين خضعوا للتحليل، فأفادوا منه ولمسوا حسن مفعوله، سيدركون ولا ريب مساوئ تربيتهم الخاصة. وسيدللون من ثم على تفهم أكبر حيال أولادهم، وسيجنِّبونهم عثرات ومحناً كثيرة عانوا منها هم أنفسهم. وبالتوازي مع الجهود التي يبذلها المحللون في المضمار التربوي، تتوالى أبحاث أخرى حول أسباب الجنوح والجريمة وطرق الوقاية منهما. وهنا أيضاً سأكتفي بأن أفرج الباب حتى أتيح لكم أن تلقوا نظرة على الشِقَق التي يفضي إليها، ولكن من دون أن أدعكم تلجون إليها. وأنا أعلم أنكم إذا ما واصلتم الاهتمام بالتحليل النفسي، فسيتسنى لكم أن تعرفوا الكثير من الأشياء الجديدة والنفيسة بصدد هذه المواضيع. على أننا لن نترك موضوع التربية من دون أن نشير إلى وجهة نظر محددة. فقد قيل ـ بحق ـ إن كل تربية هي بالضرورة متحيِّزة، وإنها ترمي إلى حمل الطفل على التكيُّف مع النظام الاجتماعي القائم، من دون أن تكترث بمعرفة ما قيمة هذا النظام وما المصير الذي يمكن أن ينتظره. فإن ثبت لدينا الاقتناع بعيوب تنظيماتنا الاجتماعية الراهنة ونقائصها، عزَّ علينا أن نوظّف المعطيات التربوية للتحليل النفسي في خدمة المؤسسات المشار إليها. والأولى بنا في هذه الحال أن نجعل للتربية هدفاً مغايراً، أكثر سمواً، لا يخضع للمواضعات الاجتماعية السائدة. غير أني أعتقد أن هذه الحجة ليس محلها هنا. فهذا المطلب يتعدى صلاحيات التحليل النفسي. فالطبيب الذي يُستدعى لمعالجة مريض مصاب بالتهاب رئوي لا يشغل نفسه بمعرفة وضع مريضه: أهو رجل صالح أم طالب انتحار أم شرير مجرم، وهل يستحق الحياة أم هل ينبغي أن نريد له البقاء على قيد الحياة. وحتى لو وضعت التربية نصب عينيها الهدف الجديد الذي يراد

تعيينه لها، فإنها ستبقى متحيِّزة شأنها حاضراً، والتحليل النفسي ليس مطالباً بأن ينحاز إلى جانب ضد آخر. ولم أتكلم هنا عن الرفض الذي سيقابل به استخدام التحليل في التربية فيما لو كان يرمي إلى أهداف معاكسة للنظام الاجتماعي القائم. والحق أن التربية التحليلية النفسية ستضطلع بمسؤولية ليست من شأنها فيما لو نزعت إلى أن تجعل ممن يتلقونها متمردِّين. إنما مهمة هذه التربية أن توفر للأطفال الصحة والقدرة على العمل بقدر المستطاع. ومهما يكن من أمر، فإن التحليل النفسي يحوي في طياته من العوامل الثورية ما يبيح لنا أن نطمئن إلى أن الطفل الذي سيتكون على يده لن يصطفّ لاحقاً إلى جانب الرجعية أو القمع. بل سأضيف أيضاً أنه ليس أمراً يرتجى من جميع وجهات النظر أن يكون هناك أطفال ثوريون.

سيداتي وسادتي، أريد بعدُ أن أفضي إليكم ببعض الكلام عن التحليل النفسي من حيث هو طريقة علاجية. وكنت قد عرضت لكم قبل خمسة عشر عاماً نظرية العلاج، ولن أجري على عرضي تحويراً أو تعديلاً. لكننا سنتكلم بالمقابل عن التجارب والخبرات التي عرضت لنا خلال الفترة المنصرمة. فأنتم تعلمون أن التحليل النفسي الذي كان يعدّ، في أول الأمر، محض طريقة علاجية، تجاوز بكثير هدفه الأولي وإن لم يبارح الميدان الذي رأى فيه النور، كما أن تطوره وتوسعه لا يزالان مرهونين بالتواصل مع المرضى. والحق أنه لا سبيل أمامنا غير هذا السبيل للظفر بالمشاهدات والملاحظات الكثيرة التي نستخلص منها نظرياتنا. والإخفاقات العلاجية التي نمنى بها أحياناً تحثّنا بلا انقطاع على القيام بأبحاث جديدة، كما أن متطلبات الحياة الواقعية تمسكنا عن السقوط في شرك التأمل النظري الخالص، وهو خطر يتربص بنا عند كل منعطف. ولقد كنا أوضحنا قبل سنوات كثيرة كيف وبأية وسائل يرفد التحليل النفسي المرضى بالعون والمساعدة. أما اليوم فلننظر في النتائج التي يظفر بها.

لعلكم تعلمون أني لم أكن في يوم من الأيام نصيراً متحمساً للمعالجة، فلا تخشوا إذاً أن أقلب محاضرتي هذه إلى مديح وتقريظ. وإني لأؤثر أن أنتقص من نتائجي بدل أن أضخّمها. ويوم كنت بعد الممارس الوحيد للتحليل، كان

بعض الأشخاص، ممن زعموا التعاطف مع ما أنا في سبيل إنجازه، يقولون لي مراراً وتكراراً: «كل ذلك جيد وينمّ عن ذكاء، لكن دلّنا على حالة شفاء واحدة أحرزها التحليل!». هذه صيغة من الصيغ العديدة التي كانت تُشهَر، الواحدة تلو الأخرى، في وجه كل تجديد مربك، وقد أصابها في زمننا هذا ما أصاب غيرها من التقادم والبلى. ذلك أن الرسائل التي يعرب فيها المرضى المتعافون عن عرفانهم بالجميل تملأ اليوم أدراج المحللين النفسيين. على أن المقايسة لا تقف عند هذا الحدّ: فالتحليل النفسي هو حقاً طريقة في العلاج كغيره من الطرق. فله سجله من الانتصارات كما من الهزائم، مثلما أن له صعوباته وحدوده وتوجهاته. وقد راج في بعض الأزمان رأي يزعم أن المعالجة التحليلية النفسية لا يمكن أن تُحمل على محمل الجِدّ، لأن المحللين النفسيين لا يجرؤون على نشر لائحة إحصائية بالحالات التي وفِّقوا فيها إلى النجاح. وقد نشر بعدئذ الدكتور ماكس آيتنغون Eitingon[١٦]، مؤسس معهد التحليل النفسي ببرلين، النتائج التي تحصلت له على مدى عشر سنوات من الممارسة. ولم يكن عدد حالات الشفاء مما يدعو إلى التباهي والتبجح ولا إلى الاحمرار خجلاً. غير أن الرأي عندي أن هذه الإحصائيات ليست ذات قيمة كبيرة، إذ إن مادة العمل متنافرة وبعيدة غاية البعد عن التجانس، مما لا يمكن معه استخلاص نتيجة ما من الأرقام ما لم يكن عدد الحالات كبيراً. وخير للمرء وأجدى أن يجعل عماده على تجربته الخاصة. ولا أعتقد بحال أن نجاحاتنا العلاجية يمكن أن تقارن بنجاحات مدينة لورد[١٧]. فالناس الذين يؤمنون بعجائب العذراء مريم أكثر تعداداً بكثير من الذين يؤمنون بوجود اللاشعور. غير

١٦ ـ ماكس آيتنغون: طبيب ومحلل نفسي روسي يهودي (١٨٨١ ـ ١٩٤٣). هاجرت أسرته إلى ألمانيا فتخرّج من جامعة الطب في لايبزغ وعمل في مستشفى بورغولزلي في قسم يوجين بلولر. تولى فرويد نفسه تحليله لفترة قصيرة من الزمن. خَلَف كارل أبراهام في رئاسة **الرابطة التحليلية النفسية الدولية**. ثم هاجر إلى فلسطين حيث أسس **الرابطة التحليلية النفسية الفلسطينية** التي تحولت لاحقاً إلى **الرابطة التحليلية النفسية الإسرائيلية**. وكانت وفاته في القدس عام ١٩٤٣. وله مراسلات مع فرويد استمرت بين ١٩٠٦ و١٩٣٩.«م».

١٧ ـ لورد: مدينة فرنسية، فيها محجّ كبير للعذراء يؤمّها المرضى طلباً للشفاء العجائبي. «م».

أننا لو لم نأخذ بعين الاعتبار سوى المنافسة الأرضية لتعيَّن علينا أن نقيم موازنة بين المعالجة التحليلية النفسية وبين سائر طرائق العلاج النفسي. فقد باتت الحاجة شبه منعدمة اليوم إلى الكلام عن المعالجة الفيزيائية ـ العضوية للحالات العصابية. والتحليل، من حيث أنه طريقة علاجية، لا يتعارض مع طرائق العلاج النفسي الأخرى: فهو لا يغضّ من شأنها ولا يحكم علها بالبطلان. وليس ثمة ما يمنع، من الناحية النظرية، طبيباً يصف نفسه بأنه معالج نفسي من أن يستخدم التحليل إلى جانب طرائق علاجية أخرى، تبعاً لخصائص الحالة وللشروط الخارجية المؤاتية أو غير المؤاتية. غير أن الضرورات التقنية ترغم عملياً الطبيب على أن يتخصص. وعلى هذا المنوال نفسه كان قد وقع في الماضي انشقاق بين الجراحة والتجبير. إن العمل التحليلي النفسي دقيق وشاق؛ ومن المتعذر استخدامه كما تستخدم النظارة التي توضع على العينين للقراءة وترفع عند التنزه. وبوجه عام ينتمي الطبيب بكليته إلى التحليل النفسي أو لا ينتمي إليه على الإطلاق. والمعالجون النفسيون الذين يستخدمون التحليل النفسي عرَضاً لا يقفون، في رأيي، على أرض ثابتة؛ فهم لا يقبلون التحليل في جملته، بل يوهنون قرنه، ويبطلون «سُمِّيته»؛ ولا سبيل بالتالي إلى تصنيفهم في عداد المحللين. وهذا شيء يدعو إلى الأسف فيما أرى: فالتعاون من وجهة النظر الطبية بين المحلِّل وبين المعالج النفسي الذي لا يستخدم، في إطار اختصاصه، إلا الطرائق الأخرى، أمر يرجى كل الرجاء.

إن التحليل النفسي هو بلا أدنى مراء الأنجع والأقوى مفعولاً بالمقارنة مع سائر الطرائق المعتمدة في العلاج النفسي. وهذا في الأصل عدل، لأن التحليل يقتضي أيضاً زمناً أطول وجهوداً أكبر، ولا يطبَّق في الحالات الطفيفة. والنتائج التي يتوصل إليها التحليل في بعض الحالات المؤاتية، كزوال الأعراض وإحداث تبدل في الحالة، ما كانت معقد رجاء أحد قبل عهد التحليل. غير أن للتحليل النفسي حدوده، وهي ظاهرة للعيان، وإن يكن بعض الطموحين من أتباعنا قد كلَّفوا أنفسهم جهداً وعناء ليتخطّوها بقصد التوصُّل إلى شفاء جميع الأمراض العصابية. وقد حاولوا أن يختصروا مدة العمل التحليلي وأن يعضدوا التحويل

ويعززوه كيما يتاح له أن يظهر على المقاومات جميعاً، وأن يخضِعوا مرضاهم لمؤثرات أخرى غير التحليل، وكل ذلك بهدف انتزاع الشفاء غلاباً، إن جاز القول. وهذه جهود محمودة بكل تأكيد، لكنها عقيمة لامجدية فيما أرى. ثم إن المحلل يجازف على هذا النحو بالخروج على حدود التحليل وركوب مغامرة التجريب اللامحدود[١٨]. وأما الأطروحة القائلة بأن جميع الأعصبة قابلة للشفاء فتنبع، فيما أظن، من اعتقاد رائج بين غير أهل الاختصاص ومفاده أن هذه الأعصبة ظاهرة فائضة عن الحاجة ولا حقّ لها على الإطلاق في الوجود. وهذا مع أنها في الواقع إصابات خطيرة، منقوشة في جِبِلّة الإنسان، ويندر أن تقتصر على بضع نوبات، بل تدوم في أغلب الأحيان سنوات طوالاً، بل في بعض الأحوال مدى العمر. وقد اتضح لنا، بفضل التحليل، أن ثمة سبيلاً إلى التأثير عليها إذا ما توصلنا إلى اكتشاف الدافع التاريخي إليها وعللها العارضة الثانوية. وهذا ما حملنا على أن نهمل في المعالجة العامل الجِبِلّي الذي لا حيلة لنا فيه، وإن كان يجدر بنا ألا نسقطه من حسابنا أبداً من الناحية النظرية. وليس للمعالجة التحليلية بوجه عام أي تأثير على الأذهنة، وهذه الواقعة وحدها كافية لإقناعنا بقصر جهودنا على الأعصبة التي تمتّ إليها أصلاً بصلة قربى وثيقة. ومما يعيق المفعول العلاجي للتحليل النفسي ويحدّ منه طائفة بأسرها من العوامل الهامة التي يكاد يستحيل التصدي لها. فلدى الطفل، الذي يحقّ لنا أن نتوقّع الوصول إلى خير النتائج معه، نصطدم بصعاب خارجية ترجع إلى موقف الأهل، وإن تكن لصيقة بالطفولة ذاتها. أما لدى الراشد فترجح كفة عاملين: درجة التصلُّب النفسي، وشكل المرض مع كل ما يستتر وراءه من تعيينات أبعد غوراً. وإننا لنخطئ خطأ جسيماً إذ نستهين في كثير من الأحيان بأول ذينك العاملين. فمهما تكن مرونة الحياة النفسية وقابليتها للتشكيل كبيرة، ومهما تكن الحالات القديمة قابلة بدورها للانبعاث، فلا يجوز أن يغيب عنا أن ليس كل شيء يعاود ظهوره. فبعض التغييرات تبدو أحياناً نهائية ومناظرة لندوب متخلفة عن سيرورات قديمة. وفي أحيان أخرى تبدو الحياة النفسية متجمدة، فلا يعود في مقدور السيرورات

١٨ ـ الأرجح أن هذه نقدة لساندور فيرنزي. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

النفسية، التي كنا نستطيع في غير هذه الشروط توجيهها نحو مسالك جديدة، أن تفارق مسالكها القديمة. ولكن ربما كانت طريقة النظر هي وحدها التي تغيرت. وغالباً ما يخالجنا شعور بأن ما يفتقده العلاج كيما يحدِث التغيير المطلوب هو القوة الدافعة. وهذا معناه أن ما يعانيه المريض من ارتهان وتبعية لبنية غريزية جامحة يغلب مفعول القوى المضادة التي بوسعنا تحريكها ويظهر عليه. وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان في الأذهنة. فنحن نعرفها بما فيه الكفاية لنعرف أيضاً أين ننصب روافعنا، غير أن هذه الأخيرة لا تكون قوية أبداً بما فيه الكفاية لترفع الحمل. ولنشر بالمناسبة إلى أن اكتشاف الهرمونات وطراز عملها يلوّح لنا بأمل كبير للمستقبل. وأنتم تفهمون ما أعنيه. فلربما اقتدرنا ذات يوم، بفضل الهرمونات، أن نكافح بنجع وفعالية العوامل الكمية في المرض، لكن هذا اليوم لم يذر قرنه بعد. وإني لأدرك أن يكون الشك الذي نقيم فيه بصدد هذه الوقائع حافزاً للمحللين لتحسين تقنيتهم وتجويدها باستمرار، وفي المقام الأول تقنية التحويل. ولا مناص للمحلل المبتدئ بوجه خاص من أن يتساءل، في حال إخفاقه، هل مردّ هذا الإخفاق إلى خرَقه وعدم حذقه هو في تطبيق العلاج التحليلي أم إلى خصائص الحالة التي يعالجها. على أني أعتقد، كما سبق أن ذكرت، أنه لا يجوز لنا أن نتوقع إحراز نتائج كبيرة من الجهود المبذولة في هذا الاتجاه.

ومما يحدّ، ثانياً، من حقل عمل التحليل النفسي شكل المرض بالذات. فأنتم تعلمون أن المعالجة التحليلية تعطي خير ثمارها في الأعصبة التحويلية[١٩] والأرهبة والهستيريا والأعصبة الوسواسية، وكذلك في ألوان الشذوذ الطبعي التي يكون تظاهرها أحياناً بديلاً عن هذه الأمراض. وبالمقابل، إن التحليل النفسي غير

---

١٩ ـ الأعصبة التحويلية Névroses de Transfert: اسم عام يطلقه فرويد على فئة من الأعصبة (الهستيريا الحَصرية، الهستيريا الاستبدالية أو الاستبدانية، العصاب الوسواسي)، وهي الأعصبة التي يتركز فيها الليبيدو على مواضيع واقعية أو خيالية بدلاً من أن ينصب على الأنا كما في الأعصبة النرجسية. وبخلاف الأعصبة الأخيرة فإن الأعصبة التحويلية في رأي فرويد قابلة للمعالجة التحليلية النفسية التي تستطيع ردّها إلى العصاب الطفلي. وهي إذ توصف بأنها تحويلية فلأن المريض بها يحوِّل نحو الطبيب المعالج مشاعره الحبّية الإيجابية أو مشاعره العدائية السلبية. «م».

مشار به، بقدر كبير أو قليل، في غير هذه الأمراض، كما في الحالات النرجسية والذهانية، إلخ. من المسوغ إذاً أن نبتعد عن هذه الحالات الأخيرة إذا شئنا تحاشي إخفاق محقَّق. غير أن الأمر ليس بمثل هذه السهولة على الدوام؛ ففي بعض الحالات لا يمكن أن نقطع بنتيجة التشخيص قبل إجراء التحليل، وهذا ما يذكرنا بالقصة التي رواها فكتور هيغو عن ملك إسكتلندا والساحرة[٢٠]. فقد زعم هذا الملك أن لديه طريقة لا تخطئ لتعرّف الساحرات جميعاً: فهو يأمر بأن تُسلق الساحرة في قدر من الماء، ثم يذوق المرق ويعلن: «أجل، لقد كانت بالفعل ساحرة!» أو «كلا، لم تكن ساحرة!». وكذلك الأمر في حالتنا، سوى أننا نحن الذين نُسلق. فنحن لا نستطيع أن نعرف حالة مريض يطلب العلاج أو حالة مرشح يبغي أن يصير محللاً إلا بعد أن ندرسه تحليلياً على مدى عدة أسابيع أو عدة شهور. وإننا لنشتري السمك في الماء فعلاً. ففلان من المرضى يشكو، مثلاً، من اضطرابات مبهمة، عامة غير محددة، لا تفسح أمامنا في المجال للنطق بتشخيص مؤكد. وبعد فترة تطول أو تقصر من الدراسة والتجريب ندرك أن هذه الحالة ليست مما يمكن أن يعالج بالتحليل. فإن كان مرشحاً للتحليل النفسي صرفناه، وإن كان مريضاً كررنا المحاولة وثابرنا على التحليل لأجل من الزمن حتى نستبصر في حالته. ويثأر المريض في هذه الحال لنفسه بالإضافة الجديدة التي يضيفها إلى لائحة إخفاقاتنا. أما طالب التحليل النفسي فينتقم، إذا كان يعاني من البارانويا، بتأليفه هو نفسه كتباً في التحليل النفسي. ومن ذا ترون أن احتياطاتنا لا تجدي فتيلاً.

أخشى أن أكون أضجرتكم برواية كل هذه التفاصيل لكم، لكن لا تتصوروا بحال ـ فهذا يحزّ في نفسي ـ أني أردت أن أنتقص في نظركم من شأن التحليل النفسي كطريقة علاجية. وإن يكن هذا انطباعكم، فمعنى ذلك أني كنت أخرق في عرضي، إذ كان كل قصدي أن أثبت لكم أن التحليل النفسي، إن لم يكن مشاراً به في بعض الحالات، فليس ثمة ما يغني غناءه في حالات أخرى. ولهذا الغرض نفسه سأتكلم عن مأخذ آخر يوجَّه إلى المعالجة التحليلية: وهو

٢٠ ـ قصة رواها فكتور هيغو في روايته **شغّيلة البحر** التي كتبها أثناء منفاه ونشرها عام ١٨٦٦. «م».

طولها المسرف. وجوابنا عن هذا أن التبدلات النفسية تتم ببطء وتؤدة؛ فإن حدثت بسرعة وعلى نحو مباغت، فهذا نذير شؤم. إننا لا ننكر أن معالجة عصاب خطير تدوم عدة سنوات في كثير من الأحيان، لكن إذا ما قُيِّض لها النجاح فعليكم أن تضعوا في اعتباركم طول الفترة التي دامها المرض: عشر سنوات في أكبر الظن مقابل سنة واحدة من العلاج، مما يعدل القول إن الحالة المرضية ما كانت لتنقطع أبداً عن التظاهر لولا العلاج، وهذا ما نشاهده بالفعل في الحالات التي تُترك بلا علاج. وقد يتوجّب علينا في بعض الأحيان أن نعاود التحليل بعد عدة سنوات من الانقطاع، وذلك إذا أدت ظروف الحياة إلى تجدد الاستجابات المَرَضية. لكن المريض يكون قد عاش في أثناء ذلك بتمام عافيته. وفي مثل هذه الحال لا يكون التحليل الأول قد أفلح في الكشف عن جميع الاستعدادات المرضية لدى الشخص المعالج، ويكون العلاج قد أوقف بطبيعة الحال حالما تمّ الظفر بالنجاح. ومن الواجب أن يبقى بعض الأشخاص، ممن يعانون من إصابات خطيرة، تحت رقابة المحلِّل مدى حياتهم وأن يعاودوا العلاج من جديد بين الحين والآخر. ونضيف إلى هذا قولنا إن هؤلاء الأشخاص لن يقتدروا على الحياة بدون هذه المساعدة. ومن حسن التوفيق بالتالي أن يتاح لهم، بفضل ذلك الاستشفاء المجزّأ والمكرّر، أن يبقوا على أقدامهم يسعون. وتحليل الاضطرارات الطبعية يتطلب هو الآخر وقتاً مديداً، غير أن النتائج تأتي في كثير من الأحيان غاية في التوفيق. وهل لكم أصلاً أن تذكروا لي أية طريقة أخرى تسمح بالقيام بمثل هذه المحاولة؟ لعل هذه المؤشرات لا ترضي غرور المعالج، لكن مثال السلّ والقرّاض[٢١] قد علّمنا أن لا سبيل إلى الظفر بالنجاح إلا إذا كان العلاج متكيِّفاً مع طبيعة الداء.

قلت لكم إن التحليل النفسي لم يكن، في بداياته، إلا طريقة علاجية. لكني لا أريد أن ينصبَّ كل اهتمامكم على هذا الجانب العملي وحده، بل ينبغي أن يطال أيضاً الحقائق التي ينطوي عليها علمنا، والاستنتاجات التي يتيح لنا أن نستخلصها بصدد ما يمسّ الإنسان في صميمه، أي كيانه الخاص، وأخيراً

٢١ - القرّاض Lupus: مرض جلدي التهابي يصيب الوجه ويطول تظاهره وعلاجه. «م».

العلاقات التي يميط اللثام عن وجودها بين مختلف وجوه النشاط الإنساني. وصحيح أنه، من حيث هو طريقة للعلاج، طريقة بين جملة طرائق أخرى، ولكنه **الأول بين نظائره**[٢٢]، ولولا قيمته الشفائية لما تسنى اكتشافه من خلال معالجة المرض، ولما توالى نمّوه وتقدُّمه على مدى ثلاثين عاماً ونيِّف.

٢٢ ـ باللاتينية في النص: Pares Inter Prima. «م».

المحاضرة الخامسة والثلاثون
حول تصور للعالم

سيداتي سادتي، تكلمنا في لقائنا الأخير عن شواغلنا اليومية وأجرينا، إن جاز التعبير، بعض الترتيب في شؤون منزلنا الصغير المتواضع. أما اليوم فلنقفز قفزة جريئة ولنحاول أن نردّ على جميع أولئك الذين يسألوننا إن كان التحليل النفسي يقود إلى تصور خاص للعالم، وإن يكن الأمر كذلك فما هذا التصور؟

تصور للعالم Weltanschauung: إنها لفكرة ألمانية نوعياً، وعسيرة الترجمة إلى لغة أجنبية؛ وأي تعريف نتدبره لها يبدو غير وافٍ. وأعتقد أن تصور العالم إنشاء ذهني قادر افتراضياً على أن يُحِلّ، تبعاً لمبدأ واحد أوحد، جميع المشكلات التي يطرحها وجودنا. فهو يجيب عن جميع الأسئلة المحتملة ويتيح لنا أن نعيِّن مكاناً محدداً لكل ما يمكن أن يثير اهتمامنا. وطبيعي أن يحاول بنو الإنسان تكوين مثل هذا التصور لأنفسهم عن العالم، وأن ينزلوه من ثم منزلة المثل الأعلى. والإيمان الذي يحيطونه به يتيح لهم أن يشعروا بقدر أكبر من الأمان واليسر في حياتهم، وأن يعرفوا ما ينبغي لهم أن يسعوا من أجله، وما أنجع السبل إلى تثمير طاقاتهم الوجدانية واهتماماتهم في ما يعود بأقصى الخير والنفع.

إن يكن ذلك هو المقصود بعبارة «تصور للعالم»، فالجواب سهل فيما يخص التحليل النفسي. فالتحليل النفسي، من حيث هو علم متخصص، فرع من علم النفس ـ علم نفس الأعماق أو علم نفس اللاشعور ـ لا يملك بتاتاً أن ينشئ تصوراً خاصاً للعالم، ولا خيار له إلا في أن يتقيَّد بالتصور الذي يقدمه له العلم. والحال أن التصور العلمي للعالم يختلف بحدّ ذاته اختلافاً بيِّناً عن التعريف الذي قدمناه. صحيح انه يسلِّم بمبدأ **واحدية** تفسير العالم، ولكن باعتبار هذا المبدأ برنامجاً مرجأ التنفيذ إلى ما بعد. وهو يتميز أيضاً ببعض السمات السلبية إذ يحدّ

نفسه بما هو قابل للمعرفة في الوقت الحاضر ويرفض جميع العناصر الغريبة عنه. وهو يزعم أن معرفة العالم لا يمكن أن تتأتى إلا من مجهود فكري، من مشاهدات وملاحظات تُضبط ويُتحقَّق منها بحرص وبعناية، أي بالتالي من مباحث دقيقة، وليس من وحي أو حدس أو تنجيم. ويبدو أن هذا التصور كاد أن يحظى بالقبول العام في القرن الماضي أو القرنين الماضيين. ولم يبقَ لمعاصرينا إلا أن يرفعوا اعتراضاً مبطَّناً بالغرور فيزعموا أن تصوراً كهذا بائس بقدر ما هو مقنط، وأنه لا يقيم وزناً لمطالب الروح البشري ولا لحاجات النفس البشرية.

والحال أنه لا يكفي أن يُردّ على مثل هذا الاعتراض بأكبر قدر ممكن من القوة. فهو متهافت أتم التهافت، إذ إن الروح والنفس هما موضوعان للبحث العلمي، مثلهما في ذلك مثل أي شيء غريب عن الإنسان. والتحليل النفسي بوجه خاص مؤهل لأن يكون الناطق بلسان التصور العلمي للعالم، إذ لا سبيل إلى مؤاخذته بإهمال العنصر النفسي في صورة العالم. أفليس التحليل النفسي هو الذي نقل الأبحاث العلمية إلى المضمار النفسي؟ ولولا مثل هذا العلم النفسي لبقي العلم ناقصاً أبتر. ولكن لئن أدرجنا في إطار العلم دراسة وظائف الإنسان (والحيوان) العقلية والانفعالية، فإننا مكرهون على أن نلاحظ أنه لم يطرأ تغيير ما في الموقف العام للعلم، وأن ما من مصير جديد للمعرفة قد انبجس، وما من منهج جديد للبحث قد ظهر. وذلك ما كان يمكن أن يكونه دور الحدس والتنجيم لو كان لهما وجود فعلاً، ولولا أننا نستطيع، بغير ما تردد، أن نصنِّفهما في باب الأوهام وأن ندرجهما في عداد التحقيق الخيالي للأماني. ولا يشقّ علينا أيضاً أن ندرك أن هذه المطالب المطروحة على تصور ما للعالم لا علة لها تصدر عنها سوى العاطفة. فالعلم يلاحظ أن الحياة النفسية البشرية تخلق مثل هذه المطالب، وهو على استعداد لأن يبحث عن أصلها ومصدرها، وإن لم يكن لديه أي سبب على الإطلاق لأن يعتبر تلك المطالب مبررة. بل هو يرى نفسه ملزماً على العكس بأن ينحّي عن العلم كل ما هو وهم وخداع وكل ما يصدر عن مثل تلك المطالب العاطفية.

وليس من شك في أننا لا نزعم بحال من الأحوال أن هذه الرغائب ينبغي أن

تهمل بازدراء أو أن يهوّن من دورها في الحياة البشرية. بل نحن على أتمّ استعداد للإقرار بمساهمتها في الإنجازات الفنية وفي المذاهب الدينية والفلسفية. بيد أننا نلاحظ أنه ليس من الجائز ولا من المشروع بحالٍ إباحة نقل هذه المطالب إلى ميدان المعرفة العلمية. فلو سلكنا هذا المسلك لفتحنا الباب على مصراعيه أمام مملكة الذهان ـ سواء الذهان الفردي أو الذهان الجماعي ـ ولجعلنا تلك الطاقات الثمينة تنصرف عن الواقع وما يتيحه من إشباع فعلي للرغبات والحاجات.

كيف لنا، من وجهة نظر العلم، أن نمسك هنا عن النقد والإنكار والدحض؟ وليس يجوز بحال أن نزعم أن العلم فرع واحد من فروع النشاط النفسي الإنساني وأن الدين والفلسفة فرعان آخران منه، لا يقلان أهمية عن العلم وليس لهذا الأخير أن يتدخل في شؤونهما. فمن هذا المنطلق يغدو للعلم والدين والفلسفة حقوق وأنصبة متعادلة في الحقيقة، وسيكون في مستطاع كل إنسان أن يختار معتقداته وأن يوظف إيمانه بملء الحرية. وهذا بلا ريب رأي في غاية الظرف والتسامح وسعة الأفق، ومنزّه عن الظنون والأحكام المسبقة الحقيرة؛ لكنه ويا للأسف لا سند له ولا أساس، ومنه تتأتى جميع مساوئ التصور اللاعلمي للعالم؛ وهو في الواقع، ومن الناحية العملية، مكافئ هذا التصور اللاعلمي ومعادله. وبالفعل، إن الحقيقة لا يمكن أن تكون متسامحة، ولا يجوز لها أن تقبل بتسويات أو تقييدات. والعلم يرى أن جميع الميادين التي يمكن للإنسان أن يزاول فيها نشاطه وقف موقوف عليه، وهذا ما يوجب عليه أن يتخذ موقفاً نقدياً صارماً حالما تحاول قوة أخرى أن تسلبه شطراً منه.

إن الدين هو وحده الخطَر الجدِّي بين القوى الثلاث التي تنازع العلم على حقوقه ومكانته. أما الفن فيكاد يكون على الدوام مفيداً لا أذى له، ولا يدّعي أنه أكثر من وهم، ولا يحاول أبداً أن يتعدى على الواقع، فيما خلا قلّة استحوذ عليها، كما يقال، «شيطان» الفن. وأما الفلسفة فلا تعارض العلم؛ بل تتصرف هي نفسها كما لو أنها علم، وقد تقتبس أحياناً مناهجه وطرائقه، غير أنها تبتعد وتفترق عنه من حيث أنها تتعلق بأوهام وتدعي أنها تقدم صورة ملتئمة لا ثغرات فيها عن العالم، وهو ادعاء يتيح لنا كل تقدم جديد في المعرفة أن نتحقق من

بطلانه. وتضلّ الفلسفة عن سواء السبيل، من وجهة نظر المنهج، بمغالاتها في القيمة المعرفية لعملياتنا المنطقية، وبتسليمها بوجود مصادر أخرى للمعرفة، كالحدس مثلاً. وكثيراً ما يجد المرء نفسه مدفوعاً إلى موافقة الشاعر (هـ. هايني) في ما ذهب إليه حين قال عن الفيلسوف هازلاً:

«تراه، وهو في طاقية النوم ومبذله الممزَّق، يعمل على سدّ الثقوب في بنيان العالم».

غير أن الفلسفة عادمة التأثير على الجماهير ولا يأبه لأمرها إلا نفر قليل من الأشخاص، حتى بين تلك الأقلية التي تتألف منها عصبة المثقفين. أما بالنسبة إلى سائر الآخرين فهي حبر على ورق ليس إلا. وبالمقابل، إن الدين قوة هائلة تتحكم كيفما شاءت بأقوى انفعالات الكائنات البشرية. ومعلوم أن نطاق الدين كان يشمل في الماضي كل ما يلعب دوراً، من وجهة النظر الروحية، في الحياة البشرية. وكان الدين يحتل مكان العلم في عصر ما كان فيه لهذا الأخير من وجود فعلي، وقد أنشأ تصوراً للعالم متلاحماً في منطقه ومتساوقاً إلى حدٍّ لا يضاهى؛ وهذا التصور لا يزال قائماً إلى اليوم، وإن يكن قد تزعزع وماد بقوة.

حتى نفهم على الوجه الصحيح الدور الهائل الذي يضطلع به الدين، لا بدّ أن نأخذ في اعتبارنا كل ما تعهّد بتقديمه لبني الإنسان: فهو يوضح لهم أصل الكون وخلقه، ويضمن لهم، وسط صروف الحياة وتقلباتها، الحماية الإلهية والسعادة النهائية، ويقدِّم أخيراً معياراً ضابطاً لآرائهم وأفعالهم بوصاياه التي يعضدها بكل سلطانه. بذا نرى أنه يضطلع بوظيفة مثلثة. فهو يلبي أولاً، مثله مثل العلم وإن بطرائق أخرى، فضول الإنسان وحبَّ الاستطلاع لديه؛ ومن هنا بالذات يدخل في صراع مع العلم. غير أن ثانية وظائفه في أرجح الظن هي التي تفسّر، إلى حدّ كبير، ما يحظى به الدين من نفوذ. فالعلم لا يملك أن ينافسه في مضمار تبديد مخاوف الإنسان من أخطار الحياة وصروفها، كما لا يملك أن يمدّ الإنسان بأسباب العزاء في المحن. صحيح أن العلم يعلِّم الإنسان أن يتحاشى بعض الأخطار وأن يصارع صراعاً مظفراً بعض الأدواء والشرور؛ ولكن إن كان لا يصحّ أن ننكر ما يبذله من عون ومساعدة لبني البشر، فلا يصحّ أن نماري في أنه

يعجز في العديد من الحالات عن التصدي للألم، فلا يكون أمامه مناص من أن يكتفي بنصحهم بالخضوع والتسليم. أما وظيفته الثالثة، التي قوامها أن يصوغ تعاليم ويفرض قيوداً ومحظورات، فهي التي تباعد الشقة بين الدين والعلم؛ ذلك أن هذا الأخير يكتفي بالكشف عن الوقائع وتقريرها؛ ولئن كان يضع قواعد للسلوك شبيهة بتلك التي يستنّها الدين، فإنه يفعل ذلك لعلل ودوافع مغايرة.

إن الرابطة التي تربط بين مضامين الدين الثلاثة هذه ليست شفافة البتة. فما الصلة بين قصة خلق العالم وبين وجوب الامتثال لبعض القواعد الأخلاقية؟ والواقع أن هذه القواعد أوثق صلة بالوعود التي يجزلها الدين بتوفير الحماية والسعادة مستقبلاً، إذ المفروض بالحماية والسعادة أن تكونا بمثابة مكافأة وتعويض عن الامتثال للقوانين الأخلاقية المشار إليها: فمن تقيّد بها حقَّ له وحده الهناء الأبدي، أما العاصي فمآله إلى عقاب وعذاب. والحق أن العلم يعرض لنا شيئاً من هذا القبيل؛ فلسان حاله يقول: إن من يزوّر عن توجيهاتي يعرِّض نفسه لأذى وضرر جسيم.

إن تحليلاً نشوئياً هو وحده الذي يتيح لنا أن نفهم كيف جمع الدين هذا الجمع اللافت للنظر بين التعاليم والعزاء والمطالب. ومن الممكن أن يطال هذا التحليل في المقام الأول الجانب الأغرب من جوانب النظم الدينية، وأعني به كيفية تصور خلق العالم. وبالفعل، لمَ تحتل نظرية نشأة الكون مكاناً لها بالضرورة في النظم الدينية؟ لكن لننظر أولاً في كنه هذا المذهب؛ فمؤداه أن الكون فطره كائن يشبه الإنسان، لكنه أعظم منه في كل شيء، وأقوى وأكثر حكمة وأشدّ حميَّة، وبالاختصار، ضرب من إنسان أعلى أمثل. ولئن ساد لدى الإنسان اعتقاد بأن حيواناً من الحيوانات هو الذي خلق العالم، فهذا من أثر سيادة الطوطمية التي لنا عودة إلى الكلام عنها لاحقاً. والجدير بالتنويه أن خالق العالم هذا هو على الدوام واحد، حتى في حال الشرك والإيمان بتعدد الآلهة. ثم إنه يكاد يكون على الدوام كائناً ذكراً، وإن تعددت الإشارات إلى إلهات من الإناث. وفي بعض الميتولوجيات يحلّ الإله الذكر محلّ الإلهة الأنثى، فتنخفض هذه الأخيرة في المرتبة وتمسخ مسخاً، وبذلك تبدأ قصة العالم. ومن سوء الحظ

أننا لا نستطيع أن نتعمق هنا في تفاصيل هذه المسائل التي هي على جانب كبير من الطرافة والأهمية. غير أن ثمة قرينة تيسّر لنا أن نهتدي إلى طريقنا في بحثنا هذا: فالله الخالق يلقَّب بـ«الأب». ويستخلص التحليل النفسي من ذلك أن المقصود به هو فعلاً الأب ذو الجلال، كما كان تبدى في عين الطفل الصغير. فالمؤمن يتصور خلق العالم على صورة ولادته هو.

من هنا يسهل تفسير الرابط الذي يربط الوعود العزائية ومتطلبات الأخلاقية الصارمة بنظرية نشأة الكون. فالشخص الذي يدين له الطفل بحياته، أي الأب (وبتعبير أصح، الهيئة الوالدية المؤلفة من الأب والأم)، قد سهر على الطفل الضعيف الهزيل، المعرّض لكل أخطار الوجود، وتعهّده بالعناية؛ وفي كنف هذه الحماية شعر الكائن الصغير أنه في أمان وطمأنينة. وعندما يكبر الإنسان ويدرك سن الرشد يعي تعاظم قوته، لكنه يعي أيضاً جميع الأخطار التي تعرّضه لها الحياة، ويشعر عن دراية وخبرة أنه لا يزال ضعيفاً وقليل الحيلة بقدر ما كان عليه في طفولته، وأنه باقٍ إزاء الكون ـ كما كان دوماً ـ طفلاً. لذا نراه يأبى أن يتخلى عن تلك الحماية التي نعم بها يوم كان طفلاً صغيراً. ولكن بما أنه يكون قد أدرك في وقت مبكر أن أباه محدود السلطان وأنه ليس ذلك الكائن الأعلى والأقوى الذي تخيَّله في بادئ الأمر، فإنه يعود إلى الصورة القديمة للأب المعظَّم ـ وهي صورة بقيت محفورة في ذاكرته ـ ويرفعها إلى مقام الآلهة ويردّها من الماضي والخيال إلى الحاضر والواقع. والقوة العاطفية لهذه الصورة الذاكرية وديمومة الحاجة إلى الحماية هما الحافز المشترك للإيمان بهذا الإله الأب.

والبند المركزي الثالث في البرنامج الديني، بند القواعد الأخلاقية، يرتبط بدوره بهذا الموقف الطفلي. لقد قال الفيلسوف كانط في جملة مشهورة له إن مثول النجوم في السماء ومثول القوانين الأخلاقية في صدورنا هما أقوى دليل على عظمة الله. صحيح أن هذه المقارنة ـ وهذا أقلّ ما يقال فيها ـ غريبة: إذ ما الصلة التي يمكن أن توجد بين الأفلاك في السماء وبين ما قد يراود واحداً من بني الإنسان تجاه إنسان آخر من شعور بحبّ أو بكراهية قاتلة؟ غير أن قولة كانط تمسّ مع ذلك حقيقة سيكولوجية كبرى. فذلك الأب (الهيئة الوالدية) الذي

أنجب الطفل ووقاه شرّ الأخطار جميعاً، علّمه أيضاً أن يميّز الأشياء المباحة من الأشياء المحظورة، ودرّبه على ضبط رغائبه الغريزية، وأفهمه ما ينبغي أن يكنّه من احترام لوالديه وإخوته وأخواته، وأوضح له أخيراً أنه إذا ما تقيّد بهذه التعاليم فسيلقى قبولاً وتقديراً، أول الأمر في وسط أسرته، ثم في حلقة أوسع منها. ويتعلم الطفل، من خلال منظومة بكاملها من المكافآت والعقوبات، واجباته الاجتماعية؛ ومما يُلقى في ذهنه أن أمنه الخاص مرهون بحبّ والديه له، وبحبّ الغرباء لاحقاً، وكذلك بتصديقهم لحبّه إياهم. ولا يعتم الإنسان في زمن لاحق أن يحوِّل إلى الدين، بغير ما تعديل، جميع هذه العلاقات. فالمحظورات والالتزامات التي فرضها والداه عليه ستبقى فيه في صورة الضمير. والله يسوس العالم بمنظومة مماثلة من العقوبات والمكافآت: فما ينعم به كل فرد من حماية وتلبية لمتطلباته يتناسب مع مقدار امتثاله للقوانين الأخلاقية. وما يساوره من محبة لله ومن يقين بأنه محبوب من الله هو ما يهبه القوة لمقارعة الأخطار التي يتهدده بها أقرانه والطبيعة. وأخيراً، إن للصلاة تأثيراً مباشراً على المشيئة السماوية وتكفل للإنسان نصيباً من كلية القدرة الإلهية.

أعلم أن جملة من الأسئلة تزدحم في ذهنكم وأنتم تستمعون إلى هذا العرض. لكن ليس لي في هذا المكان ولا في هذه الساعة أن أروي غليل فضولكم. وإن يكن ثمة شيء واحد يبدو لي ثابتاً محققاً فهو أن ما من بحث، مهما أوغل في التدقيق والتفصيل، بقادر على زعزعة يقيننا بأن التصور الديني للعالم يتحدد بوضعنا في عهد الطفولة. وإنه لمما يبدو أبعث على الاستغراب أن نكتشف أن هذا الوضع، رغم طابعه الطفلي، قد سبقه وضع آخر. فلا مراء في أنه في زمن من الأزمان لم يكن ثمة وجود لآلهة ولأديان؛ ذلك هو عهد الأرواحية Animisme، يوم كان العالم معموراً بكائنات روحية تشبه الإنسان: الجنّ. كانت أشياء العالم الخارجي ومواضيعه تمتلئ أو تختلط بها، ولكن ما كان الناس يعرفون خالقاً للكون أو قوة عليا أو رباً يسألونه العون والحماية. وكان جنّ الأرواحية يقابلون الإنسان بالعداء بوجه عام، لكن يبدو أن هذا الإنسان كان آنذاك أكثر وثوقاً بنفسه منه فيما بعد. لا شكّ أنه كان يشعر حيال تلك الأرواح الشريرة بذعر دائم

وممضّ، لكنه كان يذود عن نفسه شرَّها ببعض الأفعال التي كان يعزو إليها قدرة على وقايته. وفضلاً عن ذلك، كان يعتبر نفسه حائزاً على قدر من القوة. فكان إذا أراد من الطبيعة أن تحقق له أمنية من الأماني، كأن تهطل السماء مثلاً، لا يصلي ويبتهل لإله الطقس، بل كان يؤدي طقساً خاصاً من الطقوس السحرية، قميناً في اعتقاده بالتأثير مباشرة على الطبيعة: فكان يعمل هو نفسه شيئاً يحاكي المطر، وكان سلاحه الأول في صراعه هذا ضد القوى الخارجية هو السحر، الرائد الأقدم عهداً لتقنيتنا المعاصرة. ونحن نعتقد أن الإيمان بالسحر ينبع من التهويل من شأن العمليات العقلية التي يقتدر عليها الإنسان، وينبثق عن ذلك الاعتقاد بـ«كلية قدرة الفكر» الذي نلتقيه أصلاً لدى مرضانا الوسواسيين. ومن المباح لنا أن نفترض أن أهل ذلك الزمان قد طاب لهم ما أحرزوه من تقدم في مضمار اللغة، مما سهَّل بلا ريب التفكير ويسَّر له السبيل. وقد خلعوا على الكلمة المنطوقة قدرة سحرية اعترف بها لاحقاً الدين. «وقال الله ليكن نور فكان نور»[1]. وتدلّ الأفعال السحرية، فضلاً عن ذلك، أن الإنسان الأرواحي ما كان يركن إلى قوة أمانيه وحدها، بل كان بالأحرى يتوقع تحقيق رغباته من أداء فعل محدد قمين بأن يحمل الطبيعة على محاكاته. فإذا أراد المطر، سكب بنفسه ماء، وإذا أراد الخصب للأرض أشهد الطبيعة على فعل مجامعته الجنسية وسط الحقول.

أنتم تعلمون كم يعزّ ويصعب أن يزول ويضمحلّ كل ما أوتي له يوماً أن يحظى بتعبير نفسي؛ لذا لن يفجأكم أن تعلموا أن ظاهرات أرواحية كثيرة لا تزال تلحظ في يومنا الحاضر، وعلى الأخص في صورة خرافات وأباطيل، سواء إلى جانب الدين أو من ورائه. بل هل لنا أن نماري في أن فلسفتنا حافظت على بعض السمات الرئيسية من نمط التفكير الأرواحي: المغالاة في تقدير سحر الألفاظ، والاعتقاد بأن فكرنا يوجّه ويسوس الظاهرات الواقعية؟ وهذه، بالبداهة، أرواحية بلا أفعال سحرية. ومن جهة أخرى، ليس ثمة ما يمنعنا من الاعتقاد بأنه وجدت، حتى في ذلك العصر، بعض ضوابط أخلاقية، بعض قواعد محدِّدة للعلاقات المتبادلة بين الناس؛ لكن ليس ثمة ما يدلّ على أن هذه الضوابط

١ ـ **سفر التكوين**، الإصحاح الأول، الآية ٣. «م».

الأخلاقية وهذه القواعد كانت مرتبطة وثيق الارتباط بالإيمان الأرواحي. وأكبر الظن أنها كانت تعبيراً مباشراً عن علاقات القوة وعن الحاجات العملية.

لكم نتوق إلى أن نعرف ماذا حمل الإنسان على الانتقال من الأرواحية إلى الدين، غير أن إبهاماً كبيراً ـ لا يعزّ عليكم تصوّر ذلك ـ لا يزال يكتنف تلك الحقب البدائية من تاريخ النفس الإنسانية. وقد ثبت، فيما يبدو، أن الدين اتخذ باديءَ الأمر شكل عبادة للحيوانات: الطوطمية التي أعقبتها القوانين الأخلاقية الأولى: التابوات[٢]. ولقد كنت صادرت في كتابي **الطوطم والتابو** على أن السبب في ذلك التحول يرجع إلى ما طرأ من انقلاب على العلاقات ضمن نطاق الأسرة البشرية. وبفضل الدين ـ وهذه مأثرته الكبرى بالمقارنة مع الأرواحية ـ تمّت نفسياً السيطرة على الخوف من الجنّ. غير أن الأرواح الشريرة، المتخلفة عن العصور البدائية، حافظت على مكان لها في النظام الديني.

لنسلِّم بأن هذا هو فعلاً ما قبل تاريخ التصور الديني للكون، ولننظر الآن في ما جرى عقب ذلك وفي ما يحدث على مرأى منا ومشهد في أيامنا هذه. إن الروح العلمي، المعزّز بملاحظة الظاهرات الطبيعية، قد طفق، على مرّ الزمن، يعالج الدين على أنه مسألة إنسانية ويخضعه لتمحيص نقدي. وما أفلح الدين في الصمود أمام هذا التمحيص. وقد كانت المعجزات أول ما قوبل بالدهشة وعدم التصديق، لأنها تخالف كل ما تعرَّفنا به الملاحظةُ البسيطة ولأنها تحمل بجلاء خاتم الخيال الإنساني. ثم تقوضت بعدئذ جميع العقائد المتصلة بخلق العالم، إذ كان قصورها في المعرفة يعكس كل سذاجة العصور البائدة. وقد جاء تقدم المعرفة بالقوانين الطبيعية ليختم تلك المرحلة ويحكم عليها بالفوات. وقد أضحت الأرواحية البدائية بحكم المستحيلة يوم تحتم على الفكر أن يميِّز بين الكائنات الحيّة المتحركة وبين الطبيعة الهامدة. ولم تعد الفكرة القائلة بأن العالم خلق خلقاً أو توليداً، نظير البشر أنفسهم، بديهية من البديهيات. وفضلاً عن ذلك، إن الدراسة المقارنة ـ هذا أمر لا يجوز نسيانه ـ لمختلف النظم الدينية وما خلفته من انطباع بأن

٢ ـ Tabou: كل ما تنهى عنه الأعراف وتهدد مرتكبه بصارم العقوبة. وقد أُخذت كلمة تابو عن الديانة البولينيزية، وهي تفيد القداسة والتحريم معاً، نظير كلمة «حُرمة» بالعربية. «م».

هذه النظم تنفي بعضها بعضاً ولا تطيق التعايش مع غيرها، كان لا بدّ أن تلعب في هذا المضمار دوراً ما.

لما اشتدّ ساعد الروح العلمي بهذه التمارين التمهيدية، اجترأ في آخر الأمر على التصدي لدراسة أهم الأجزاء وأنفس العناصر من وجهة النظر العاطفية في التصور الديني للعالم: أعني الحماية والسعادة الموعود بهما الإنسان مقابل امتثاله لبعض القوانين الأخلاقية. لقد كان من الممكن التحقق في أي زمن من الأزمان من لاواقعية هذه الوعود التي قطعها الدين وعدم قابليتها للتصديق، لكن أحداً لم يجترئ على الشكّ فيها وعلى الإفصاح عن هذا الشك إلا في زمن متأخر جداً. ومما لا يساغ ولا يُصدَّق، فيما يبدو، أن تكون في الكون قوة مفعمة بالرعاية الأبوية تسهر على كل فرد وشاغلها الشاغل أن تمضي بكل ما يتصل به إلى حسن ختامه. بل يظهر بالأحرى أن فكرة طيبة كونية وفكرة عدالة محايثة ـ والثانية تتناقض جزئياً مع الأولى ـ ليستا مما يمكن القبول به. فالهزات الأرضية والفيضانات والحرائق لا تميِّز أفاضل الناس وورعاءهم من أراذلهم وفاسقيهم. وحتى عندما لا تتدخل الطبيعة غير الحية، وبقدر ما يرتهن مصير الإنسان بصلاته بأقرانه، لا نجد البتة أن القاعدة السائدة هي إثابة الفضيلة ومعاقبة الرذيلة. فغالباً ما يضع الفرد العنيف، المكار المحتال، الذي لا يردعه وازع من ضمير، يده على الخيرات الأرضية التي يسيل لها لعاب الناس، بينما يبقى الإنسان الصالح صفر اليدين. إن قوى خفية، غامضة، قاسية، عديمة الإحساس هي التي تتحكم بالمصير الإنساني؛ أما نظام الثواب والعقاب، الذي يقول الدين إنه يحكم العالم، فجميع الدلائل تشير إلى أنه لا وجود له. وهذا سبب آخر يدعو إلى اطراح جزء من تلك الروحانية التي انتقلت من مضمار الأرواحية لتجد لها في الدين ملتجأ ومعتصماً.

لقد أمدّ التحليل النفسي نقد التصور الديني للعالم بآخر مساهمة إذ أبان أن الدين يرتدّ في أصله إلى خوف الطفل وعزا مضمونه إلى الرغبات والحاجات الطفلية التي تظل قائمة حتى في سنّ الرشد. وليس في هذا، بحصر المعنى، دحض للدين، بل إكمال ضروري لمعارفنا فيما يتصل به. ونحن لا نتناقض معه

إلا بصدد نقطة يتيمة حين يدّعي لنفسه أصلاً إلهياً. وهو في الحق لا يخطئ في دعواه هذه إذا ما جرى التسليم بتفسيرنا للألوهية.

إن الحكم الإجمالي الذي يصدره العلم على التصور الديني للعالم هو التالي: فعلى حين تتنازع الأديان المختلفة في ادعاء كل منها انه يحتكر الحقيقة، نرى نحن أنه من الأسلم التغاضي عن نصيب الحقيقة الذي يمكن أن يحتويه الدين وإهماله إطلاقاً. فالدين محاولة للسيطرة على العالم الحسّي الذي نعيش بين ظهرانيه، عن طريق عالم التمنّي الذي حملتنا ضرورات بيولوجية وسيكولوجية على خلقه في داخل أنفسنا. غير أن الدين لا يحالفه التوفيق في محاولته هذه. فتعاليمه تحمل ميسم الأزمنة التي رأت النور فيها: عهود طفولة البشرية وجهلها. أما العزاء الذي يقدّمه الدين فليس خليقاً بالثقة. والتجربة تعلمنا أن العالم ليس دار حضانة للأطفال. وإذا شئنا بعد ذلك أن نجعل للقواعد الأخلاقية القوة التي يودّ الدين أن يخلعها عليها، فلا بدّ لنا والحال هذه أن نجد لها حوافز ودعائم مغايرة؛ والحق أن هذه القواعد ضرورية للمجتمع الإنساني ولا غنى له عنها، ومن الخطر ربط التقيّد بها بالإيمان الديني. فالدين، متى ما حاولنا أن نعيّن مكانه في تاريخ التطور البشري، لا يتبدى على أنه كسب دائم، وإنما على أنه عديل للعصاب الذي لا مفرّ لكل إنسان حضاري من أن يمرّ به في طريق تطوره من الطفولة إلى النضج.

لكم بطبيعة الحال ملء الحرية في أن تنقدوا العرض الذي قدّمته لكم، وبوسعي أنا نفسي أن أمدّكم ببعض الحجج. فأنا مثلاً لم أقدّم لكم إلا خلاصة مقتضبة وناقصة عن التفتّت التدريجي للتصور الديني للعالم. كذلك لم أعيّن بدقة الترتيب الزمني لمختلف هذه التطورات، ولم أدرس الكيفية التي تضافرت بها مختلف القوى على إيقاظ الروح العلمي. وقد أهملت أيضاً الكلام عن التعديلات التي طرأت على الرؤية الدينية للعالم، في العهد الذي كانت سائدة فيه بلا منازع، ثم تحت تأثير الروح النقدي الوليد. وأخيراً قصرت نقاشي على شكل واحد من الدين: دين الشعوب الغربية. بوسعكم إذاً أن تؤاخذوني على أني اصطنعت اصطناعاً ضرباً من شبح، إن جاز القول، قميناً بأن يجعل عرضي

للموضوع سريعاً وباهر التأثير إلى أقصى حدّ مستطاع. وبصرف النظر عن مسألة معرفة ما إذا لم يكن في مستطاعي أن أحصل على نتائج أفضل وأكمل، فإني أعلم أن كل ما قلته لكم يمكنكم أن تجدوه لدى غيري معروضاً ومشروحاً على نحو أفضل، كما أعلم أني لم أطالعكم بأية فكرة جديدة. لكني مقتنع ـ دعوني أقل لكم ذلك ـ بأنه ليس لأدقّ دراسة للمشكلات الدينية أن تجعلنا نحيد عن النتيجة التي خلصنا إليها.

تعرفون أن النضال الذي يخوض الروح العلمي غماره ضد التصور الديني للعالم لما يتم فصولاً بعد؛ فهو لا يزال مستمراً على مرأى منا ومشهد في الساعة الراهنة. وعلى الرغم من أن التحليل النفسي لم يألف الخوض في المجادلات، فإننا لا نتردد في اتخاذ موقف في هذه الخصومة. وربما كان من شأن مسلكنا هذا أن يزيد موقفنا من تصور العالم جلاء ووضوحاً. وسترون أن بعض الحجج التي يشهرها أتباع الدين ليست مما يعسر تفنيده، بينما يعصى بعضها الآخر على الدحض.

لنفحص بادئ ذي بدء أول اعتراض نُجابه به: فالعلم على ما يقال يدلل على قدر كبير من الادعاء والغرور إذ يتخذ الدين موضوعاً لبحوثه. فهذا الأخير شيء له جلاله، وهو يتعالى على حدود قدرة العقل البشري على الفهم، ولا يملك النقد العقلي أي حق في التصدي له. وبعبارة أخرى، إن العلم عادم الصلاحية فيما يختص بالدين. ولا شك في أن العلم نافع ونفيس ما دام يحصر نفسه في مضماره الخاص به، ولكن بما أن الدين لا يدخل ضمن هذا المضمار فما على العلم إلا أن يمسك عن محاولة ريادة المضمار الديني. فإن لم نقم وزناً لهذا التعالي الفجّ وتساءلنا لماذا يختصّ الدين نفسه بمكانة استثنائية بين سائر الشؤون البشرية، جاءنا الجواب ـ هذا إن كان لنا أن نتلقى جواباً ـ بأن الدين ذا الأصل الإلهي لا يقاس بمقاييس بشرية، وأنه أوحي لنا به من قبل روح قدسٍ يعجز العقل البشري عن إدراك كنهه. وليس أسهل، فيما يبدو، من دحض هذه الحجة التي فيها مصادرة واضحة على المطلوب، أي قياس دائر[٣] (ليس لهذا التعبير ما يقابله

---

٣ ـ باللاتينية وبالإنكليزية في النص:

Petitio Principii, Begging The question. «م».

بالألمانية بتمام معناه). أفليس بيت القصيد أن نعرف إن كان هناك بالفعل روح إلهي منه يتنزل الوحي؟وهل بإمكاننا أن نعدّ جواباً قول من يقول إن هذا السؤال ليس مما يجوز طرحه نظراً إلى عدم جواز المنازعة بصدد الإلوهية؟ هذا كله من شأنه أن يوجّه تفكيرنا نحو واقعة قد يتكرر حدوثها في أثناء العمل التحليلي، وذلك عندما يرفض المريض، على تعقله وحصافته في العادة، تأويلاً بعينه ويبرر رفضه بأسباب غير معقولة البتة. وهذا المنطق المبتور ينمّ عن وجود دافع بالغ القوة إلى المناقضة والإنكار، وهو دافع لا يمكن إلا أن يكون من طبيعة وجدانية، والأرجح أنه يتصل برابطة عاطفية ما.

هذا الدافع عينه يُجهر به بلا لبس في نمط آخر من الإجابة: فالدين لا يجوز أن يُخضع لفحص نقدي لأنه أسمى وأثمن وأروع ما تمخَّض عنه الروح الإنساني، ولأنه يتيح لأعمق العواطف أن تفصح عن نفسها، ولأنه وحده القادر على أن يجعل العالم محتملاً وعلى أن يرقى بالحياة إلى مستوى لائق بالإنسان. ولا جدوى إطلاقاً من مناقشة هذا التقييم للدين، والأجدى لنا أن نركِّز المناقشة على مظهر آخر للأشياء: إذ ليس الروح العلمي هو من يحاول أن يتعدى على مضمار الدين، وإنما الدين هو الذي يقتحم دائرة الفكر العلمي. ومهما يكن للدين من قيمة وأهمية، فليس له على كل حال الحقّ في تقييد الفكر وحدِّه ولا أن يطالب لنفسه بحقٍّ استثناء نفسه من رقابة هذا الفكر.

لا يختلف الفكر العلمي، في جوهره، عن النشاط السوي العادي للفكر، عن الفكر الذي نستخدمه جميعنا، أمؤمنين كنا أم غير مؤمنين، في مختلف ظروف حياتنا. إنه لا يتميَّز عنه إلا ببعض سمات خاصة، ومنها انكبابه على دراسة مواضيع ليس لها نفع ملموس ومباشر، وحرصه على استبعاد كل عامل فردي وكل تأثير عاطفي؛ وهو يتحقق من صدق الإدراكات الحسية التي منها يستخلص نتائجه، ويتدبر لنفسه إدراكات جديدة لا سبيل إلى الظفر بها بالوسائل المتاحة في الحياة اليومية، ويدرس، من خلال تجارب ينوِّعها عن قصد، شروط هذه الخبرات الجديدة وعواملها. وجهوده كلها ترمي إلى الوصول إلى تطابق مع الواقع، أي مع ما هو موجود خارجنا مستقلاً عنا، ومع ما يتحكم، كما علّمتنا

التجربة، بتحقيق رغائبنا أو إحباطها. هذا التطابق مع العالم الواقعي الخارجي هو ما نسمّيه بالحقيقة، وهذه الحقيقة هي ما ينشده كل بحث علمي، حتى وإن تكن غير ذات قيمة عملية. وعليه، إن ادعى الدين أنه في مستطاعه أن يقوم مقام العلم، وأنه لا بدّ أن يكون هو الآخر مطابقاً للحقيقة لما ينطوي عليه من خير للإنسان وعزاء له، فإن ادعاءه هذا، في الحق، تجاوز غير معقول، وانتباذه واجب بداعي الصالح العام. فالإنسان تعلّم أن يصرِّف شؤونه اليومية وفق القواعد التي أمدّته بها التجربة وعلى أساس من مراعاة الواقع. ومن ثم، إنه لشطط وإسراف من جانب الدين حينما يبغي أن يقسر الإنسان على إخضاع أخصّ شؤونه لسلطة تدَّعي أن لها امتياز عدم الوقوع تحت سلطان أحكام الفكر العقلاني. أما فيما يتصل بالحماية التي يعد الدين أتباعه بتوفيرها لهم، فأعتقد أن ما من أحد منا يقبل بأن يركب سيارة يقول سائقها إنه لا يريد أن يربك نفسه بأنظمة المرور، وإنه لا يطيب له أن يصدع إلا بأمر نزوات خياله وإلهامه.

إن الحظر الذي يفرضه الدين على التفكير، حفاظاً على ذاته، ليس يخلو من أذى للفرد ومن ضرر للمجتمع. وقد بيّنت لنا التجربة التحليلية أن هذا الحظر، المقصور في بادئ الأمر على مضمار محدد، ينزع إلى الامتداد والتوسع ليغدو علة ألوان خطيرة من الكفّ في سلوك الفرد. ونُلاحظ هذه الظاهرة أيضاً لدى النساء اللائي حُرِّم عليهن الانشغال بجنسيتهن حتى في خيالهن. وسِيَر النابهين من الناس في الماضي تشهد على مدى الدور الضارّ الذي لعبه في حياتهم جميعهم تقريباً الحظر الديني للتفكير. ومن جهة أخرى، إن ملكة الفهم ـ أو العقل كما نقول ـ واحدة من تلك القوى التي نستطيع أن نعقد عليها الرجاء في أن يكون لها تأثير توفيقي وتوحيدي بين الناس، هؤلاء الناس الذين نادراً ما تجتمع كلمتهم وتعسر بالتالي منتهى العسر سياستهم. فلنتصور ما سيكون عليه حال المجتمع البشري لو استخدم كل فرد جدول ضرب خاصاً به، وكذلك وحدات خاصة للمقاييس والأوزان! فهل لملكة الفهم ـ الروح العلمي، العقل ـ أن تكون يوماً صاحبة الأمر والنهي في حياة البشر النفسية! هذه في الحق أحرّ أمانينا. فالعقل ـ وطبيعته بالذات تضمن لنا ذلك ـ لن يقصّر في أن يحدد للعواطف

الإنسانية ولكل ما يتعيَّن بها المكانة التي هي بها لائقة. ويوم يُكره الناس على الخضوع لسلطان العقل فسيرون أنه الرابطة الأقوى بين سائر الروابط التي تربط بينهم، الرابطة التي يحقّ لنا أن نتوقع منها تحقيق المزيد من التوافق بينهم. وكل ما ينهض حجر عثرة أمام هذا التطور، نظير الحجْر الديني على التفكير، هو خطر على مستقبل الإنسان.

لكن أما آن لنا الآن أن نتساءل لماذا لا يضع الدين حداً لهذه المساجلة العقيمة بالنسبة إليه بإعلانه بمنتهى الصراحة: «هذا صحيح، لست في وضع يؤهلني لأن أقدِّم لكم ما يسمى في العادة بالحقيقة؛ فسبيلكم إليها هو العلم. غير أن ما يسعني أن أهبكم إياه أجمل وأبعث على العزاء وعلى التسامي بما لا يقاس مما يمكن للعلم أن يمنحكم إياه. ولهذا إن ما أقوله حقّ، لكنه بمعنى مغاير وأسمى». إن الجواب في هذه الحال ميسور: فلو أدلى الدين بهذ الاعتراف لفقد كل نفوذ له على الجماهير. فالعامي لا يعرف سوى حقيقة واحدة، وهذا بالمعنى العادي للكلمة. ومن المتعذر عليه أن يتصور حقيقة أسمى وأرفع. والحقيقة في نظره، كالموت، غير قابلة لأن تكون متدرِّجة، وهو يعجز عن خطو الخطوة التي تفصل ما هو جميل عما هو حقّ. وربما ارتأيتم مثلي أنه في ذلك لعلى صواب.

المعركة لم تنتهِ إذاً، وأنصار التصور الديني للعالم ينشطون وفق المبدأ القديم القائل إن «الهجوم خير وسيلة للدفاع». إنهم يتوجهون إلينا بالسؤال: «بأي حق يُحِلّ العلم لنفسه أن يتنطع لتقويض ديننا الذي وفّر لملايين الناس السعادة والعزاء؟ وأين إنجازات هذا العلم ومآثره؟ وماذا بوسعنا أن ننتظر منه؟ إنه هو نفسه يقرّ بعجزه عن تفريج كربنا وعن التسامي بنفوسنا. وحتى لو ضربنا صفحاً عن هذه النقطة، على الرغم من أن ذلك ليس باليسير الهيِّن، فهل لكم أن تكاشفونا بمذاهبه وتعاليمه؟ أبوسعه أن يزيدنا علماً عن خلق العالم ومستقبله، وأن يعطينا صورة متلاحمة عن الكون، وأن يعرّفنا إلى ماهية ظاهرات الحياة التي لا تفسير لها، وأن ينبئنا كيف تؤثر القوى الروحية في المادة الهامدة؟ فإن توصَّل إلى تفسير لهذا كله، ما ضننَّا عليه بطبيعة الحال بتقديرنا. غير أنه لم يجد حلاً بعد لأية مشكلة من هذه المشكلات، وكل ما يقدِّمه لنا نتف من معلومات ومعارف

مزعومة لا يملك حتى أن يوائم وينسّق بينها. وكل شأن العلم أن يجمع ملاحظات عن الظاهرات التي تصاحب الأحداث والوقائع، وأن يستخلص منها قوانين، ثم أن يخضِعها لتأويلاته الجزافية. ولكن ما أضعف درجة اليقين في نتائجه! فتعاليمه كافة مؤقتة، وما يقول اليوم إنه حقّ سيلفظه في الغد ويستعيض عنه بشيء آخر مؤقت هو الآخر. وهكذا، إن الخطأ الأحدث عهداً هو ما يسمّيه بالحقيقة. وتريدنا بعد هذا كله أن نضحّي بأثمن ما نملكه على مذبح مثل هذه الحقيقة!».

سيداتي سادتي، أعتقد أن هذا النقد لن يزرع فيكم، أنتم أنصار التصور العلمي للعالم، بلبلة أكبر مما ينبغي. وسأعيد إلى أذهانكم هنا جملة طالما ترددت على الأفواه في عهد النمسا الإمبراطورية[4]. ففيما كان السيد العجوز[5] يستقبل مندوبي حزب معارض للحكومة صاح بهم قائلاً: «هذه لم تعد معارضة عادية، بل هي معارضة مشاغبة!». إن اللوم الذي يوجّه إلى العلم لأنه لم يحلّ إلى اليوم ألغاز الكون يذكّرنا بتلك العبارة، وهو على كل حال لوم يغلو في الإجحاف والحقد. فالعلم لم يتسنَّ له الوقت لتحقيق مثل تلك المآثر الباهرة؛ فهو لا يزال فتياً جداً، ولا يعدو أن يكون بين سائر أوجه النشاط الإنساني من أحدثها عهداً. ولنستذكر بعض التواريخ، ومنها أنه لم يمضِ على اكتشاف كبلر لقوانين حركة الأفلاك سوى ما يقارب ٣٠٠ سنة. أما نيوتن، الذي حلل الضوء إلى عناصره، فقد توفي عام ١٧٢٧، أي قبل زهاء مئتي سنة تقريباً. وقبيل الثورة الفرنسية بقليل اكتشف لافوازييه الأوكسجين. وحياة الإنسان تبدو قصيرة للغاية إذا ما قيست بديمومة تطور الإنسانية. وأنا اليوم طاعن في السن، لكنني كنت على قيد الحياة يوم نشر ش. داروين مؤلَّفه عن نشوء الأنواع. وفي العام نفسه، أي ١٨٥٩، ولد بيير كوري الذي اكتشف الراديوم. وحتى لو عدتم في الزمن إلى أبعد من ذلك، إلى بدايات العلوم الدقيقة لدى الإغريق، إلى أرخميدس

---

٤ ـ دامت الإمبراطورية النمساوية ـ المجرية من ١٨٦٧ إلى ١٩١٨. «م».

٥ ـ السيد العجوز: هو اللقب الذي كان يطلقه الشعب على الأمبراطور فرانسوا جوزيف (١٨٣٠ – ١٩١٦). «م».

وأرسطارخوس الساموسي[٦] (نحو ٢٥٠ ق.م)، السلف الرائد لكوبرنيكوس، أو حتى إلى عهد الكشوف الفلكية الأولى للبابليين، فلن تكونوا قد أخذتم في اعتباركم سوى نزر يسير للغاية من الزمن الذي تقول الأنتروبولوجيا إنه كان ضرورياً للإنسان كيما يصل إلى حالته الحاضرة. فقد استغرق هذا التطور، ابتداء من شكل القرود البدائي، ما ينيف بكل تأكيد على مئة ألف سنة[٧]. ولا ننسَ بعد ذلك أن الاكتشافات في القرن التاسع عشر كانت من الوفرة، وأن توالي التقدم العلمي كان من السرعة ما يبيح لنا أن ننظر بملء الثقة إلى مستقبل العلم.

أما فيما يتصل بالاعتراضات النقدية الأخرى فلنقرَّ بأن لها ما يبررها جزئياً. أجل، إن العلم يتقدم بتؤدة ومشقة، متلمساً طريقه تلمساً؛ وهذا شيء لا ننكره ولا حيلة لنا فيه. وليس من عجب أن يسخط لذلك السادة خصومنا وأن يظهروا استياءهم؛ فهم نفر مدلَّلون، سهَّل لهم الوحي الأمور تسهيلاً كبيراً. والحق أن التقدم الذي يتحقق في أحد ميادين البحث العلمي يذكِّرنا من الوجوه كافة بما يجري في التحليل النفسي. فالتوقعات الابتدائية تخيب، والملاحظة تشفّ هنا وهناك عن شيء جديد، غير أن هذه الكشوف لا تتفق فيما بينها أول الأمر. ويلجأ المحلّل إلى صوغ فروض وتخمينات، لكنه لا يلبث أن يهدمها حين لا تثبت صحتها؛ ويتعيَّن عليه دوماً أن يكون على استعداد لمواجهة الاحتمالات كافة، وأن يتذرع بقدر كبير من الصبر، وأن يذر الاستنتاجات السابقة لأوانها حتى لا تحجب عنه العوامل الجديدة واللامتوقعة. غير أنه لا مفرّ في آخر الأمر من أن يكلَّل الجهد بالنجاح، فإذا بالمعطيات المبعثرة تلتئم في كل واحد متماسك، وإذا بشطر بكامله من السيرورات النفسية ينجلي للعيان؛ وهذا معناه انتهاء العمل التحليلي، والانتقال إلى معالجة الحالة التالية. كل ذلك مع فارق وحيد، وهو أن

٦ - أرسطارخوس الساموسي: رياضي وفلكي يوناني من المدرسة الإسكندرانية (٣١٠ - ٢٣٠ ق.م). كان حدَس بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. «م».

٧ - هذه معطيات العلم في الزمن الذي كتب فيه فرويد هذا النص (١٩٣٢). غير أن المعطيات المستجدة تقدر ديمومة هذا التطور بأكثر من ذلك بكثير. وقد اكتشفت في عام ١٩٦٠ في تانغانيقا عظام إنسان عاش قبل أكثر من ٦٠٠ ألف سنة، وبجانبها حجارة مصقولة صقلاً فجاً هي بمثابة أول أداة اصطنعها لنفسه لتحصيل قوته ولمواجهة الكواسر. «م».

التحليل النفسي مجبر على الاستغناء عن المعونة التي يمكن أن يقدمها التجريب للبحث.

إن هذا النقد للعلم لا يخلو هو الآخر من قدر من الغلو والإسراف. فليس صحيحاً أن العلم ينتقل خبط عشواء من تجربة إلى أخرى وأنه اعتاد أن يقايض خطأً بخطأ آخر. فهو بالإجمال يعمل كما يعمل الفنان الذي يشكّل الصلصال ويتناول قالبه بالتهذيب المستمر: ينقص منه، يزيد عليه، إلى أن يحصل على الشبه المطلوب مع الموضوع المنظور أو المتخيَّل. أضف إلى ذلك أن العلوم الأقدم عهداً والأكمل تطوراً تنعم بقاعدة ثابتة لا سبيل إلى هدمها بعد الآن وإن تكن قابلة للتعديل والتعضيد. إذاً فشروط النشاط العلمي ليست رقيقة الحال إلى الحدّ الذي يظن.

لكن ما الهدف الذي ينشده، أخيراً، هؤلاء المشنّعون المتأججون حماسة على العلم؟ أليس من الواضح الذي لا يحتاج إلى بيان أن العلم، بالرغم مما هو عليه من نقص في الوقت الحاضر وبالرغم من الصعاب التي هي وقف عليه دون سواه، يبقى ضرورياً لا غنى عنه ولا بديل؟ والعلم قابل لأن تطرأ عليه تحسينات لامتوقعة، بينما التصور الديني للعالم غير قابل ذلك؛ فهذا التصور ثابت لا يتغير في أقسامه الأساسية المكتملة، وإن كان مغلوطاً فسيبقى كذلك أبداً. ومهما لحق العلم من قدح وتشهير، فلن ينثني أبداً عن محاولته إعطاء تبعيتنا للعالم الواقعي الخارجي حقها من الاعتبار، بينما الدين وهم يستمد قوته من مراعاته ومجاملته رغباتنا وحاجاتنا الغريزية.

ينبغي الآن أن أحدّثكم عن تصورات أخرى للعالم، معاكسة هي الأخرى للتصور العلمي. وأفعل ذلك بلا حماسة لعلمي بأني غير كفؤ في هذا الموضوع. وأريدكم أن تضعوا هذا الاعتراف نصب أعينكم وأنتم تقرؤون الصفحات التي ستلي، فإن استيقظ اهتمامكم فاطلبوا تكملة معرفتكم من مصادر أخرى.

كان يجدر بي أن أذكر هنا بادئ ذي بدء مختلف المذاهب الفلسفية التي حاولت أن تصف العالم كما ينعكس في دماغ المفكر، هذا المفكر البعيد في العادة غاية البعد عن الواقع. وقد سبق لي أن حاولت وصف الطابع العام للفلسفة

ولمنهاجها. ولكن بما أني أكاد أكون آخر من هو أهل لتقييم هذه المذاهب كلاً على حدة، فلنكتفِ بأن نمحِّص معاً ظاهرتين لا يجوز أن تغيبا عن اهتمامنا، في عصرنا هذا تخصيصاً.

إن أول هذين التصورين للعالم هو، إن جاز التعبير، ندٌّ وعديل للفوضى السياسية، وربما عنها نشأ. ولقد وجد في الماضي عدميون مثقفون، لكن يبدو أن النظرية النسبية في الفيزياء الحديثة قد طغت على أذهانهم. فهم، وإن كانوا يتخذون العلم منطلقاً لهم، يدفعونه إلى تدمير ذاته بذاته، أي إلى الانتحار؛ وبإنكارهم لمطالبه يفرضون عليه كمهمة أن يتنحَّى بمحض إرادته عن الطريق. وكثيراً ما يساورنا انطباع بأن هذه العدمية لا تعدو أن تكون موقفاً حينياً تنتفي الحاجة إليه حالما يتمّ إدراك الغاية المتوخاة. فالعلم متى ما نُحّي وأزيل قام مقامه مذهب صوفي ما أو حلّ محله التصور الديني القديم للكون. وبمقتضى المذهب الفوضوي لا وجود البتة لشيء اسمه الحقيقة ولا لمعرفة أكيدة بالعالم الخارجي. وما نحسبه أنه الحقيقة العلمية ليس إلا نتاج حاجاتنا ورغباتنا كما تفصح عن نفسها في الشروط الخارجية الدائمة التبدل، ومن ثم لا يعدو أن يكون وهماً. وخلاصة القول: إننا لا نجد إلا ما نحن في حاجة إلى أن نجده، ولا نرى إلا ما نودّ أن نراه، ولسنا نملك أن نفعل غير ذلك. وبانتفاء معيار الحقيقة، أي مطابقة العالم الخارجي، لا يعود من المهم أن نعرف أي رأي نأخذ به، إذ الآراء جميعها صائبة ومغلوطة على حدّ سواء. ولا يحق لأحد أن يحكم على آراء غيره بالبطلان.

لا شك أن كل مهتم بنظرية المعرفة يشوقه أن يعرف ما الحيل وما السفسطات التي يفلح الفوضويون بواسطتها في أن ينتزعوا من العلم مثل تلك الاستنتاجات. وسيجد نفسه في هذه الحال حيال مواقف شبيهة بتلك التي يشير إليها هذا المَثل المشهور: «واحد من أهل كريت قال إن جميع أهل كريت كذابون، إلخ»[8]. غير أني لا أريد ولا أستطيع أن أطيل المكوث هنا. فلنقنع بالقول إن المذهب

---

٨ ـ مفارقة مشهورة في تاريخ الفكر اليوناني معزوة إلى إيبمانيدس الكريتي من القرن السابع ق.م. ومغزى هذه المفارقة أن ما صدقها يلغي نفسه بنفسه نظراً إلى أن قائلها يكذب بالضرورة ما دام يقول، وهو الكريتي، إن جميع الكريتيين كذابون. «م».

الفوضوي يبدو رائعاً متفوقاً ما دام يتناول تأملات مجردة، لكنه يتهاوى متهافتاً حالما يمسّ الحياة العملية. والحال أن الآراء والمعارف هي التي تعيِّن للناس أفعالهم؛ والفكر العلمي الذي ينشئ فرضيات بصدد بنية الذرة أو أصل الإنسان هو عينه الذي يضع تصميم جسر متين. فلو كان الرأي الذي نعتقده لا أهمية له على الإطلاق حقاً، ولو لم يكن ثمة وجود لمعرفة تتميَّز، بين سائر آرائنا، بتطابقها مع الواقع الفعلي، لما كان ليمنعنا شيء في هذه الحال من أن نبني، لا جسوراً من الحجر، بل جسوراً من الورق المقوى، وأن نحقن المريض بُعشر غرام من المورفين بدلاً من جزء من مئة من الغرام، وأن نخدِّره بالغاز المسيل للدموع بدلاً من الأثير. ولكن لا شك أن أنصار الفوضوية أنفسهم يعارضون بقوة مثل هذا التطبيق العملي لنظريتهم.

غير أن ثاني خصومنا هو الذي يبدو لنا الأجدر بأن نرى إليه بعين الجد؛ وإنما بهذا الخصوص حصراً آسف أشدّ الأسف لنقص معلوماتي. وأعتقد أن معرفتكم بهذا الموضوع تبذّ معرفتي، وأنتم اتخذتم منذ زمن بعيد موقفاً إلى جانب الماركسية أو ضدها. ولا مراء في أن أبحاث كارل ماركس بصدد بنية المجتمع الاقتصادية وتأثير مختلف أشكال الاقتصاد السياسي على جميع وجوه النشاط البشري لها اليوم وزنها ونفوذها الأكيدان. وأنا أجهل بطبيعة الحال ما نصيب كل عنصر من عناصرها من الصحة أو الخطأ. ولقد تناهى إليَّ أن الفصل في هذا الأمر يشقّ حتى على من هم أطول مني باعاً وأكثر اطلاعاً في الموضوع. وثمة في النظرية الماركسية أطروحات وقعت مني موقع الاستغراب، ومنها على سبيل المثال الفكرة القائلة إن تطور الأشكال المجتمعية هو مظهر من مظاهر التاريخ الطبيعي، أو إن التحولات التي تطرأ على التناضد الطبقي الاجتماعي تنبع من بعضها بعضاً نتيجة لسيرورات جدلية. ولست متيِّقناً البتة من أني أحسنت فهم هذه التوكيدات التي لا تبدو لي «مادية النزعة»، بل تشكّل بالأحرى رسابة من الفلسفة الهيغيلية الغامضة التي وقع ماركس تحت تأثيرها حيناً من الزمن. والحق أني لا أدري كيف أتخلص من رأيي الأقرب إلى أن يكون رأياً أمياً، إذ درجت على اعتبار تشكيل طبقات المجتمع المختلفة نتيجة للصراع الذي تخوض غماره، منذ الأزمنة الأولى، التحشدات

البشرية البدائية التي لا تختلف عن بعضها بعضاً اختلافاً يذكر. وكنت أرى أن التفاوتات الاجتماعية هي في الأساس تفاوتات بين القبائل أو الأعراق. وكان النصر يتقرر بفعل بعض العوامل النفسية، كدرجة اللذة العدوانية الجِبِلِّية أو حسن تنظيم العشيرة الداخلي، وبفعل بعض العوامل المادية، كامتلاك أسلحة أنجع وأمضى. وبما أن الغالبين والمغلوبين كانوا يعيشون في أرض واحدة، فقد صار الأوائل سادة والثانون أرقاء. وليس في هذا ما ينمّ عن وجود قوانين طبيعية أو تطور أفكار ومفاهيم. وبالمقابل، كان لازدياد تحكم الإنسان بعناصر الطبيعة أثر متزايد في العلاقات الاجتماعية. فقد سخّر البشر فتوحاتهم العلمية الجديدة لأمر حاجتهم إلى العدوان، واستخدموها في حربهم بعضاً ضد بعض. وجاء اكتشاف المعادن، كالبرونز والحديد، ليختم عصوراً معيَّنة في الحضارة وليقضي على المؤسسات الاجتماعية العائدة إليها. وإني لأعتقد حقَّ الاعتقاد أن البارود والأسلحة النارية قتلت الفروسية والنبالة، وأن الاستبداد الروسي كان قُضِيَ عليه بالهلاك، حتى قبل اندلاع الحرب الجائحة، بالنظر إلى أن التزاوج الداخلي بين أفراد الأسر المالكة في أوروبا ما كان له، مهما انتشر وعمَّ، أن ينجب سلالة من القياصرة قادرة على الصمود أمام قوة الديناميت المتفجرة[٩].

بل ربما كانت الأزمة الاقتصادية الراهنة[١٠]، التي أعقبت الحرب، هي نتيجة لظفرنا الأخير والرائع على الطبيعة: غزو الجو[١١]. إن هذه الواقعة لا تبدو للوهلة الأولى بديهية، غير أن الحلقات الأولى، على الأقل، في هذا التسلسل ليست عصية على الإدراك. فإنكلترا، المطمئنة إلى الحماية التي توفِّرها لها عزلتها وسط البحار، بنت كل سياستها على أساس هذه العزلة. ويوم اجتاز بليريو[١٢] بحر

٩ ـ كأن فرويد يريد أن يقول هنا إن الثورة البلشفية ذات الأيديولوجيا الماركسية لم تكن إلا العامل الظرفي الذي أسقط في عام ١٩١٧ النظام القيصري الروسي، إذ إن سقوطه مع حاضنته، الطبقة النبيلة والفروسية، كان قد بات محتوماً بعد اختراع السلاح الناري والديناميت. «م».

١٠ ـ يقصد الأزمة الاقتصادية الكبرى التي اجتاحت العالم بين ١٩٢٩ و ١٩٣٣. «م».

١١ ـ أي اختراع الطيران. «م».

١٢ ـ لويس بليريو: طيار فرنسي (١٨٧٢ ـ ١٩٣٦). كان أول من قطع المانش بالطائرة في ٢٥ تموز/يوليو ١٩٠٩. «م».

المانش بطائرته انقشع وهم هذا الأمن. ثم لما حلّق فوق لندن منطاد زبلن[١٣] في عزّ عهد السلم، ولا لغرض غير القيام برحلة تجريبية، باتت الحرب ضد ألمانيا بحكم المحتمة[١٤]. ولا يغرب عن بالنا أيضاً تهديد الغواصات.

إني لأشعر ببعض الحرج إذ أعالج على هذا النحو الناقص المقتضب موضوعاً بمثل هذه الأهمية ومثل هذا التعقيد. ثم إني أعلم أني لم أفدكم شيئاً جديداً. غير أن هدفي كان أن ألفت انتباهكم فقط إلى أن الإنسان إن طوّع الطبيعة واستمد منها أسلحة لا غنى له عنها في صراعه ضد أقرانه، فإن هذا التطويع لا بدّ أن يؤّثر بالضرورة في المؤسسات الاقتصادية. وها نحنذا قد ابتعدنا كثيراً، فيما يبدو، عن مشكلات تصور العالم؛ لكننا سنعود إليها حالاً. وبديهي أن الماركسية لا تدين بقوتها لتصورها للتاريخ ولا لتنبؤاتها المستقبلية التي تستخلصها من هذا التصور، وإنما لبيانها الحاذق للتأثير الحاسم الذي يمارسه الوضع الاقتصادي على نشاط البشر الفكري والأخلاقي والفني. وهكذا أميط اللثام عن جملة من العلاقات والترابطات السببية التي كانت شبه مجهولة حتى ذلك الحين. غير أنه من المستحيل التسليم بأن العوامل الاقتصادية هي العوامل الوحيدة التي تحدد مسلك الناس في المجتمعات. فمن الحقائق التي لا سبيل إلى إنكارها أن الأشخاص والأعراق والأقوام المختلفة لا تسلك سلوكاً متشابهاً إذا ما عاشت في ظل شروط اقتصادية واحدة، وهذا كافٍ لتفنيد فكرة طغيان مزعوم للعوامل الاقتصادية على كل ما عداها من العوامل. ولا يجوز بحالٍ الإغضاء عن دور العوامل السيكولوجية حين يتعلق الأمر بردود فعل الكائنات البشرية الحية. فهذه العوامل لا تضطلع بدور في بناء الشروط الاقتصادية فحسب، بل تعيّن أيضاً جميع أفعال الناس، إذ إن هؤلاء الأخيرين لا يستجيبون لهذه الشروط إلا من خلال دوافعهم الغريزية البدائية: كغريزة البقاء، والعدوانية، والظمأ إلى الحب، والحاجة إلى التماس اللذة وتفادي الكدر. وكنا قد أوضحنا،

---

١٣ ـ فرديناند فون زبلن: ضابط وصناعي ألماني (١٨٣٨ ـ ١٩١٧). شاد المنطاد الموجّه المعروف باسمه. «م».

١٤ ـ هذا على الأقل ما قاله لي في السنة الأولى من الحرب شخص جدير بالثقة.

في محاضرة سابقة[١٥]، أهمية متطلبات الأنا الأعلى الذي يمثل التقاليد ومُثل الماضي العليا، والذي سيقاوم لمدة من الزمن الاندفاعات المتعينة بوضع اقتصادي جديد. ولا يغرب عن بالنا أخيراً أن سيرورة التطور الثقافي - التي يسميها بعضهم بالحضارة - تواصل تقدمها وسط الجماعة البشرية الخاضعة للضرورات الاقتصادية، وأنها، وإن كانت تتأثر بجميع العوامل الأخرى، لا تدين لها البتة بأصلها. والحق أن هذا التقدم قابل للتشبيه بسيرورة عضوية. فهو يحوِّل الدوافع الغريزية عن الأهداف التي تنزع نحوها ويحمل الناس على التمرد على ما كان يبدو لهم إلى ذلك الحين محتملاً. وفضلاً عن ذلك، يبدو أن التوطد المطرد للروح العلمي هو نتيجة من نتائجه الأساسية. ومن يتطلع إلى أن يجعل من الماركسية مذهباً اجتماعياً حقيقياً، يفترض فيه أن يكون قادراً على بيان دور كل عامل من هذه العوامل المتباينة بالتفصيل؛ ومن ثم يتعيَّن عليه أن يدرس الاستعداد الجِبِلّي العام للإنسان، وتنوعاته العرقية، والتعديلات التي تطرأ عليه بفعل الظروف الاجتماعية والنشاط المهني وطرق كسب الرزق، وأن يفحص كيف تتصادم هذه العوامل جميعاً أو تتضافر. ولا يملك حتى علم الاجتماع، وهو العلم الذي يدرس سلوك الإنسان في المجتمع، أن يكون شيئاً آخر غير علم النفس التطبيقي. وإذا شئنا الدقة في الكلام قلنا إنه لا وجود بالفعل لغير علمين اثنين: علم النفس، البحت والتطبيقي، وعلم الطبيعة.

حالما فطن الناس إلى الأهمية الجلّى للشروط الاقتصادية جنحوا إلى استعجال التغيير بالثورة بدل أن يتركوا أمر تغيير تلك الشروط الاقتصادية للتطور الطبيعي. وقد لبست الماركسية النظرية، لدى وضعها موضع التطبيق على يد الثورة البلشفية الروسية، لبوسَ تصورٍ للعالم، وهذا ما أكسبها قوة وتلاحماً ونزعة حصرية، وكذلك تشابهاً غريباً مع ما تحاربه. فمع أنها تدين بأصلها وتطبيقها للعلم، ومع أنها شيدت على أساسه ووفق سننه، فقد فرضت على الفكر حظراً لا يقلّ صرامة عن ذاك الذي كان فرضه في حينه الدين. فمن المحرَّم نقد النظرية الماركسية، والشك في صحة الأسس التي تقوم عليها جريمة تجازى بالقصاص،

١٥ - انظر المحاضرة الحادية والثلاثين. «م».

على نحو ما كانت الهرطقة تعاقب من قبل الكنيسة الكاثوليكية قديماً. وقد حلت كتب كارل ماركس، باعتبارها مصادر وحي، محل النصوص المنزلة، مع أنها لا تقلّ تناقضاً وغموضاً في أرجح الظن عن تلك الكتب المقدسة الأقدم عهداً.

إن الماركسية المطبقة، إذ ألغت وحظرت بلا شفقة جميع المذاهب والأوهام المثالية، خلقت بنفسها أوهاماً جديدة لا تقلّ عن سابقتها شبهة واستعصاء على البرهان. فهي تأمل أن تتمكن، خلال بضعة أجيال، من تحويل الطبيعة البشرية على نحو يتأتى معه للبشر أن يعيشوا معاً في ظل تنظيم جديد من دون أن يعودوا إلى التصادم، وأن يؤدوا فيه العمل الضروري من غير ما إكراه. وحتى تكبح الغرائز ـ وهذا أمر لا غنى عنه في مجتمع منظم ـ تحوِّلها عن أهدافها، وتوجِّه نحو الخارج الميول العدوانية التي تتهدد كل تجمع بشري، وتجعل عمادها أخيراً على كراهية الفقراء للأغنياء وعداوة سواد الناس لمن كانت بيدهم مقاليد السلطة. ولكن تحويل الطبيعة الإنسانية على هذا المنوال هو في الحقيقة هدف بعيد الاحتمال. والحماسة التي تبتعثها الحركة البلشفية في أوساط الجماهير في الوقت الحاضر، أي في وقت لما يكتمل فيه بعد بناء التنظيم الجديد وما زال يحيق به الخطر من الخارج، لا تبيح لنا أن نتنبأ باليوم الذي سينتهي فيه بناء هذا التنظيم ويستقرّ. والبلشفية، شأنها في ذلك شأن الدين، لا تجد من سبيل إلى تعويض المؤمنين بها عن عذابهم وحرمانهم الراهن غير أن تعدهم بعالم آخر أفضل تُقضى فيه الحاجات جميعاً بلا استثناء. وصحيح أنها تجعل مقرّ هذا الفردوس على الأرض نفسها، وتقول إن أبوابه ستنفتح للناس في مستقبل غير بعيد، لكن لنتذكر هنا أن اليهود، الذين لا تقول ديانتهم بحياة أخرى، ترجّوا هم أيضاً ظهور المسيح المنتظر على هذه الأرض؛ ولنتذكر أيضاً أن العصر الوسيط المسيحي كان دائم الاعتقاد بأن ملكوت الله قريب.

نحن نعلم ما سيكونه جواب البلشفية على هذه المآخذ. فهي ستردّ «أنه ما دامت طبيعة البشر على حالها لم تتبدل، فلا مناص من الاستمرار في استخدام الوسائل القمينة اليوم بالتأثير عليهم؛ ومن ثم لا مجال لتحاشي القسر التربوي والحظر الفكري، ولا غنى عن استخدام العنف، بل حتى القمع الدموي؛ وإذا لم

نوقظ فيهم أوهاماً، فسيتعذر علينا أن نحملهم على الإذعان لهذا الإكراه». وربما دعانا البلشفي بعد هذا بكل تهذيب إلى أن نشير عليه بطريقة أخرى غير هذه، وربما وجدنا أنفسنا مكرهين في هذه الحال على الاعتراف بأن الأمر يسقط في أيدينا. وبالفعل، أية نصيحة نسديها إليه؟ إني لن أجد بداً من التسليم بأن شروط مثل هذه التجربة تمنعني، أنا ومن هم على شاكلتي، من الإقدام على هذا العمل، لكن ليس في أيدينا وحدنا حسم الأمر. فهناك رجال عمليون، لا يتزعزعون عما يؤمنون به، ولا يعرف الشك سبيلاً إلى نفوسهم، ولا تمسّ شغاف قلوبهم آلام الآخرين إن كان من شأنها أن تقف حجر عثرة بينهم وبين تحقيق مقاصدهم؛ وأمثال هؤلاء الرجال هم الذين يتصدون اليوم لإنجاز تلك التجربة المهيبة في روسيا. وفي زمن تعلن فيه الأمم الكبيرة أنها لا تنتظر خلاصها إلا من تمسكها بأهداب العقيدة المسيحية، يلوح لنا أن الانقلاب الذي وقع في روسيا يشير بمستقبل أفضل بالرغم من كل ما صاحبه من وقائع أليمة. ومن سوء الطالع أن ريبيَّتنا وتعصب الآخرين لا يسمحان لنا باستشفاف مآل هذه المحاولة؛ والمستقبل هو الذي سيفصل فيها، وربما أبان أن المحاولة كانت سابقة لأوانها، وأن التغيير الجذري للنظام القائم ليس له حظ كبير في النجاح ما لم تتم اكتشافات جديدة تتيح لنا مزيداً من السيطرة على القوى الطبيعية وتسّهل بالتالي إشباع حاجاتنا. وربما أمكن يوماً تصحيح التنظيم الاجتماعي وتحرير الجماهير من البؤس المادي، مع احترام متطلبات الفرد الثقافية. غير أن الطبيعة الإنسانية لا ترضخ بسهولة لكل ضرب من ضروب التنظيم الاجتماعي؛ ويبدو من ثم أن الكفاح لا بدّ أن يدوم بعد ردحاً لا يمكن حسابه من الزمن.

سيداتي سادتي، اسمحوا لي في الختام أن أُلخِّص ما أردت قوله عن صلات التحليل النفسي بمسألة تصور العالم. والرأي عندي أن التحليل النفسي غير قادر على أن يصطنع لنفسه نظرة خاصة إلى العالم، وليس به أصلاً حاجة إليها؛ فهو جزء من العلم، وبوسعه بالتالي أن يأخذ بالتصور العلمي للعالم. غير أن هذا الأخير يكاد لا يستأهل هذا النعت المفخَّم؛ فهو لا يزال بعيداً غاية البعد عن الكمال، كما أنه يعجز عن اكتناه الأسرار والمعضلات قاطبة؛ وهو ليس جامعاً

مانعاً، ولا يهفو إلى أن يكون نظاماً شاملاً ومنغلقاً على نفسه. والتفكير العلمي لا يزال يحبو خطاه الأولى عند البشر، والمشكلات التي لا يزال عليه أن يجد لها حلاً كثيرة كثرة هائلة. إن تصوراً للعالم، مبنياً على العلم، يبقى متسماً ـ باستثناء تركيز اللهجة على العالم الخارجي الواقعي ـ بسمات سلبية جوهرياً كالخضوع للحقيقة والاكتفاء بها ونبذ الأوهام. ولئن وجد بين معاصرينا من لا يرضى عن هذا الوضع ومن يطالب بالمزيد ليسكن له كل روع حالاً، فليبحث عن هذه السكينة في مكان آخر، حيثما يتسنى له أن يجدها. أما نحن فلا نحفظ له من ضغينة، لكننا لا نستطيع أيضاً أن نمدّ له يد العون ولا أن نغيِّر من أجله طريقتنا في التفكير.

خمسة دروس في التحليل النفسي

تقديم

في أيلول/ سبتمبر ١٩٠٩ زار فرويد لأول - وآخر - مرة في حياته الولايات المتحدة الأمريكية برفقة ثلاثة من أصدقائه وتلامذته، هم كارل غوستاف يونغ[١] وساندور فيرنزي وإرنست جونز. وفي جامعة كلارك، بمدينة ورسستر بولاية ماساشوستس، ألقى خمس محاضرات، قدَّم فيها، بوضوح نكاد نفتقد نظيره في أي نص آخر، خلاصة مكثفة لاكتشافات مدرسة التحليل النفسي على امتداد الفترة ما بين ١٨٩٠ و١٩٠٩. وهذه المداخلات هي التي اشتهرت باسم **خمسة دروس في التحليل النفسي**، وقد نشرت لأول مرة بالإنكليزية في **المجلة الأمريكية لعلم النفس**. وقد منحت جامعة كلارك فرويد في حينه شهادة الدكتوراه الفخرية في القانون تقديراً لفتوحاته العلمية.

وقد كنا ترجمنا هذه الدروس الخمسة نقلاً عن الترجمة الفرنسية الصادرة عام ١٩٧٣ عن مكتبة بايو بقلم كل من صمويل يانكيليفتش وإيف لو لاي. وقد أخضعنا ترجمتنا للمراجعة بالإحالة إلى الترجمة الفرنسية الجديدة الصادرة عام ١٩٩٣ عن المنشورات الجامعية الفرنسية بقلم رينيه لينه وجوهانا ستويت كاديو في المجلد العاشر من **أعمال سيغموند فرويد الكاملة**.

ج. ط

١ ـ الذي سينشقّ عنه عام ١٩١٣. «م».

- ١ -

سيداتي سادتي، لا يعود إليّ الفضل - هذا إذا كان ثمة من فضل - في إنجاب التحليل النفسي. فأنا لم أشارك في بداياته الأولى. كنت لا أزال طالباً جامعياً، مستغرقاً في تحضير امتحاناتي الأخيرة، حين طبّق طبيب من فيينا، هو د. جوزيف بروير[١]، لأول مرة هذه الطريقة في علاج فتاة تشكو من الهستيريا (يرجع ذلك إلى الأعوام ما بين ١٨٨٠ و١٨٨٢). يخلق بنا إذاً أن نولي اهتمامنا قبل كل شيء لقصة تلك المريضة وما طرأ على معالجتها من تقلبات. لكن قبل ذلك لا بدّ أيضاً من أن أقول كلمة. لا تخشوا أن يكون التأهيل الطبي ضرورياً لمن يريد أن يتابع عرضي هذا. فسوف نسير مع الأطباء شوطاً يسيراً من الطريق، ثم لن نلبث أن نستأذنهم بالافتراق لكي نتابع د. بروير في طريق جديد كل الجدّة.

كانت مريضة د. بروير فتاة في الحادية والعشرين من العمر، وعلى قدر كبير من الذكاء، وقد أظهرت خلال سنتين من مرضها جملة من اضطرابات نفسية وعقلية متفاوتة الخطورة. كانت تشكو من تخشب في الطرفين الأيمنين مع خُدار، وبين الحين والحين كان عضوا الجانب الأيسر يعانيان من الداء ذاته، وهذا بالإضافة إلى اضطراب في حركات العينين وتشوشات شتى في الطاقة البصرية، وصعوبة في الحفاظ على استقامة وضعية الرأس، وسعال عصبي حاد، وقرف من

---

١ - جوزيف بروير: طبيب وفيزيولوجي نمساوي (١٨٤٢ - ١٩٢٥). أولى اهتماماً خاصاً لدراسة الهستيريا واشتهر بالمعالجة التي أجراها لبرتا بابنهايم التي اشتهرت باسمها المستعار آنا أو.. وقد أطلع فرويد على حالتها، ونشر معه عام ١٨٨٣ دراسة أولية عن آلية الهستيريا. وبعد قدر من الخلاف بينهما عادا فنشرا معاً عام ١٨٩٥ **دراسات في الهستيريا**. وقد تضاربت الآراء لاحقاً حول صحة شفاء آنا أو.. أو مداه. وقد شجّع فرويد نفسه عام ١٩٠٩ التشكيك في صحة الشفاء، وإن يكن تلميذه وصديقه إرنست جونز قد جعل لاحقاً من فرضية شفائها بمثابة أسطورة في صالح فرويد والتحليل النفسي معاً. «م».

كل طعام، وعدم قدرة على الشرب طوال أسابيع رغم الظمأ المضني. وكانت تشكو أيضاً من اضطراب في وظيفة النطق، فتعجز عن التكلم أو فهم الكلام بلغتها الأصلية. وأخيراً، كانت عرضة للشرود، ولأحوال من الخبل والهذيان والتغيُّر في كل الشخصية. وهذه اضطرابات سيكون واجباً علينا أن نوليها لاحقاً كامل اهتمامنا.

يبدو أنه من الطبيعي أن يتصور المرء، حتى لو لم يكن طبيباً، أن أعراضاً كتلك التي عددناها تنمّ عن إصابة خطيرة، ربما في المخ، إصابة لا كبير أمل في شفائها وقمينة في أغلب الظن بأن تقود بسرعة إلى الموت. بيد أن الأطباء لن يترددوا في القول بأن التشخيص يمكن أن يأتي أكثر إيجابية بكثير في العديد من الحالات المترافقة بمثل تلك الظواهر الخطيرة. فحين تظهر أعراض من هذا النوع لدى امرأة شابة، تعمل أعضاؤها الداخلية الرئيسية كالقلب والرئتين، إلخ، بصورة طبيعية تماماً عند الفحص الموضوعي، وإن تكن تعرضت من قبل لارتجاجات انفعالية عنيفة، وحين تتطور هذه الأعراض اعتباطياً وعلى نحو غير متوقع، يخالج الأطباء ضرب من الاطمئنان والثقة. فهم يدركون، بالفعل، أن الحالة التي بين أيديهم غير ناشئة عن إصابة عضوية في المخ، وإنما هي عين تلك الحالة الغريبة والملغزة التي كان أطباء الإغريق قد أطلقوا عليها من القدم اسم **الهستيريا**[٢]. وهي حالة قمينة بأن تصطنع جملة من الاضطرابات الخطيرة، ولكن من دون أن تقطع حبل الأمل بشفاء كامل. وليس من السهل على الدوام التمييز بين هستيريا كهذه وبين إصابة عضوية بالغة. لكن لا يهمّنا هنا أن نعرف كيف يقوم الأطباء بهذا التشخيص التمييزي، ولنلحظ فقط أن حالة فتاة بروير هي من تلك الحالات التي لن يتردد أي طبيب بارع في تصنيفها في عداد الهستيريا. ويجدر بنا أن نذكر هنا بأن أعراض المرض ظهرت فيما كانت الفتاة تعتني بأبيها المولهة به (أثناء مرضه الذي أودى بحياته في خاتمة المطاف)، ثم اضطرها مرضها بدورها إلى وقف ما كانت تبذله له من عناية.

٢ ـ الهستيريا مشتقة لفظاً من «هوستيرا»، وهي باليونانية القديمة الرحم، وقد كان الاعتقاد يسود بأن الهستيريا مرض موقوف على النساء. «م».

إن المعلومات الآنفة تستنفد ما كان يمكن للأطباء أن يطلعونا عليه بخصوص الحالة موضع اهتمامنا. وقد آن الأوان لنفارقهم. إذ لا يجوز لكم أن تتوقعوا أن تقدماً كبيراً قد يحرز على طريق الشفاء حينما يُستبدل تشخيص الإصابة المخية العضوية بتشخيص الهستيريا. ففنّ النطاسيين هو في غالب الأحيان على قدر متماثل من العجز في كلتا الحالتين. ومتى ما كانت الحالة عبارة عن هستيريا، فليس في يد الطبيب من حيلة غير أن يترك للطبيعة الرؤوف مهمة أخذ القرار اللازم وفي الوقت المناسب لإثبات صحة التشخيص المتفائل الذي كان صدر عنه[٣].

إذا كان تشخيص الهستيريا لا يؤثر إلا قليلاً في المريض، فإنه يؤثر بالمقابل كثيراً في الطبيب. فموقفه من المريض الهستيري مغاير تماماً لموقفه من المريض العضوي. فهو لا يولي ذاك من الاهتمام بقدر ما يولي هذا، لأن داءه أقل خطورة بكثير، رغم الظواهر التي تؤكد العكس. ولا ننسَ أيضاً ـ وهذا أيضاً عامل آخر ينبغي أخذه بعين الاعتبار ـ أن الطبيب قد تعلَّم أثناء دراسته كيف يكوِّن لنفسه تصورات تتمتع بقدر كبير من الصحة (في حالات السكتة الدماغية Apoplexie أو الأورام على سبيل المثال)، وذلك بقدر ما تتيح له أن يتفهم خصائص اللوحة السريرية للمرض. وبالمقابل، وإزاء الأعراض الهستيرية الغريبة، إن معرفته وعلمه التشريحي والفيزيولوجي والباتولوجي يتركانه في حيرة تامة من أمره. فهو لا يستطيع للهستيريا فهماً، ولا يملك إزاءها حيلة، مثله مثل المرء الجاهل بأمور الطب. وهذا ما قد لا يطيب له، وبخاصة إذا كان معتاداً على النظر بعين التقدير العالي إلى علمه الشخصي. وهكذا يخسر المهسترون تعاطف الطبيب، فينظر إليهم نظرته إلى أناس ينتهكون حرمة القوانين (كنظرة المؤمن إلى الهراطقة). ويصدر عليهم حكمه بأنهم أهل لارتكاب شتى ضروب الدناءة والخسة، ويتهمهم بالمبالغة والتصنع القصديين، ويعاقبهم بأن يكفّ عن الاهتمام بهم.

أما الدكتور بروير فلم يسلك مثل هذا المسلك. وبالرغم من أنه عجز في البدء

٣ ـ أعلم أن هذا التوكيد لم يعد صحيحاً اليوم، لكنه كان صحيحاً في الزمن الذي عنه نتحدث. وإن تكن الأمور قد تغيرت منذئذ، فإن الدراسات التي أرسم هنا الخطوط العريضة لتاريخها قد ساهمت بقسط لا بأس به في هذا التغيُّر.

عن تسكين آلام مريضته، فإنه لم يضنّ عليها بعنايته واهتمامه. وأرجّح أن مما سهَّل عليه مهمته الصفات العقلية والطبعية المرموقة التي كانت تتمتع بها على نحو ما أوضحه في روايته لقصة مرضها. وسرعان ما أتاح له التعاطف الذي أحاط به مراقبته إياها أن يقدم لها إسعافاً أول.

كان قد لوحظ أن المريضة اعتادت، أثناء الأحوال النفسية التي تنتابها من شرود وتغيُّر نفسي وتخليط، أن تتمتم ببعض ألفاظ توحي بأنها ذات صلة بمشكلة متماسكة التفاصيل تشغل فكرها. وبعد أن استفهم الطبيب عن الكلمات التي تتلفظ بها جعل مريضته، بعد أن وضعها في حالة من النوام المغنطيسي، ترددها على مسامعه كلمة كلمة، متأملاً بذلك أن يطلق العنان للأفكار التي تشغل بالها. وقد لبّت المريضة طلبه وطفقت تروي له القصة التي كانت الكلمات التي تتمتم بها أثناء شرودها قد كشفت النقاب عن وجودها. وكانت هذه القصة عبارة عن أخاييل بالغة الحزن والكآبة، وتتشح في كثرة من الأحيان بمسحة شاعرية من الجمال، وقد لا نتردد في أن نصفها بأنها **أحلام يقظة**، يدور موضوعها حول فتاة تجلس قرب سرير والدها المريض. وبعد أن أفصحت عن بعض من تلك الأخاييل، ساورها شعور بالخلاص واستعادت لهنيهة من الزمن حياتها النفسية السوية. غير أن التحسن، الذي طرأ لبضع ساعات، زال في اليوم التالي لينوب منابه شرود جديد، وما أمكن لها أن تتحرر من هذا الشرود إلا بعد أن عادت، بالطريقة نفسها، إلى سرد تفاصيل الأخاييل المكوَّنة حديثاً. ولا ريب البتة في أن التبدل النفسي الذي كان يطرأ أثناء الشرود كان نتيجة للتنبيه الذي مصدره تلك التشكيلات التخييلية المشحونة وجدانياً شحناً عالياً. وقد أطلقت المريضة بنفسها، وكانت في ذلك الطور من مرضها لا تتكلم ولا تفهم ـ على ما في الأمر من غرابة ـ سوى الإنكليزية، على هذا النوع الجديد من العلاج اسم Talking Cure[٤]، كما كانت تسمِّيه مازحة باسم Chimney Sweeping[٥].

٤ ـ العلاج بالكلام.

٥ ـ تنظيف المداخن. «م».

وسرعان ما لوحظ، كما لو من قبيل المصادفة، أن مثل هذا «التنظيف» للنفس له أثر أبعد بكثير من مجرد إخراج المريضة لحين من الزمن من حالة الخبل المتجددة باستمرار. كذلك اختفت الأعراض المرضية حينما تذكرت المريضة، وهي لا تزال منوَّمة مغنطيسياً، ومن خلال تظهيرها عواطفها، ما المناسبة التي ظهرت فيها تلك الأعراض لأول مرة. «لقد مرّت، في ذلك الصيف، حقبة اشتدّ فيها القيظ، وعانت المريضة عناء شديداً من العطش، لأنه استحال عليها على حين غرة، ومن غير أن يكون في وسعها تحديد السبب، أن تشرب وتروي غلّتها. كانت تستطيع الإمساك بكأس الماء، لكنها لا تكاد تلامس شفتيها حتى تدفعها عنها وكأنها مصابة برهاب الماء Hydrophobie. وبديهي أنها كانت تسقط، في أثناء تلك اللحظات، في حالة من الشرود. وصارت لا تقتات إلا بالثمار لتطفئ الظمأ الذي تحرقها ناره. ودام الأمر على هذا المنوال زهاء أسابيع ستة، إلى أن اشتكت ذات يوم، في نوامها المغنطيسي، من مربيتها الإنكليزية التي ما كانت تكنّ لها حباً. وروت عندئذ، مفصحة عن ازدراء عميق، أنها كانت قد قصدت غرفة تلك المربية، وأن كلب هذه الأخيرة الصغير ـ وكان حيواناً كريهاً ـ قد شرب من كأس. ولم تنبس ساعتئذ ببنت شفة، تأدباً ومجاملة. وما إن انتهت من سرد قصتها حتى أفصحت بعنف عن غضبها المكظوم، ثم طلبت كأس ماء لتشرب، وجرعت بدون تقزز مقداراً كبيراً منه، ثم أفاقت من نوامها والكأس بين شفتيها. وزال الاضطراب نهائياً»[٦].

اسمحوا لي أن أستوقفكم هنيهة عند هذه التجربة. لم يكن أحد من قبل قد أزال عرضاً من أعراض الهستيريا بمثل هذه الطريقة، كما لم يكن قد توغّل بمثل هذا العمق في تفهُّم مسبباتها. وما كان أعظمه من اكتشاف حافل بالنتائج فيما لو كان في المستطاع إلغاء معظم تلك الأعراض بمثل هذه الطريقة! ولم يدَّخر بروير جهداً لإقامة البرهان على ذلك. فقد انكبّ يدرس دراسة منهجية المنشأ الإتيولوجي لأعراض مرَضية أخرى أفدح خطورة بعد. وقد لاحظ، في كل حالة تقريباً، أن الأعراض أشبه ما تكون، إذا صحّ التعبير، برسابات من تجارب

٦ ـ **دراسات في الهستيريا**، الطبعة الرابعة، ص ٢٦.

مشحونة شحناً وجدانياً عالياً أطلقنا عليها فيما بعد، ولهذا السبب، اسم **الرضات النفسية** Traumatismes بعد أن انجلت خصوصيتها على ضوء المشهد الرضّي الذي تسبَّب في حدوثها. وبحسب المصطلح الفني المعتمد، كانت الأعراض **تتحدَّد** بالمشاهد التي تمثل هذه الأعراض رساباتها الذاكرية، ولم يعد من الضروري أن تُعتبر مفرزات عسفية ملغزة للعصاب Névrose. لكن، وخلافاً لما كان متوقعاً، ما كان العرض ينجم على الدوام عن حادث واحد، بل في غالب من الأحيان عن **رضات عدة**، متشابهة فيما بينها ومتكررة في كثرة من الأحوال. وبناء عليه، كان لا بدّ من أن يعاد بناء كل تلك السلسلة من الذكريات الإمراضية[٧] بحسب تسلسلها الزمني، ولكن عكسياً، بحيث تأتي الذكرى الأخيرة في المقدمة والأولى في النهاية. وكان من المتعذر النفاذ إلى الرضة الأولى، التي هي أبعد الرضات غوراً في كثرة من الأحوال، إذا ما قفز المرء فوق الرضات التي تحدث لاحقاً.

أنتم تتمنون بلا ريب أمثلة أخرى على أعراض هستيرية غير عرض رهاب الماء الناجم عن قرف من كلب شوهد وهو يلغ الماء في كأس. لكني، وفاءً مني لخطتي، سأحدّ شواهدي بأمثلة قليلة جداً. يروي بروير أن الاضطرابات البصرية لدى مريضته كانت ترتبط بعوامل ظرفية كالتالية: «كانت المريضة تجلس، وعيناها مغرورقتان بالدموع، بجانب سرير والدها، حين سألها هذا الأخير على حين غرة كم هي الساعة. كانت الدموع تحول بينها وبين الرؤية بوضوح، فكلَّفت نفسها جهداً، وقرّبت الساعة من عينيها، وبدا لها ميناؤها كبيراً جداً (تضخم في الرؤية وحوَل في آن معاً)، ثم حاولت أن تمسك دموعها حتى لا يراها المريض»[٨]. ولنلاحظ أن جميع هذه الانطباعات الإمراضية ترجع إلى العهد الذي كانت تعتني فيه بوالدها. «ذات مرة، استيقظت ليلاً، والقلق يهصرها هصراً، لأن حرارة المريض كانت مرتفعة، وكانت مستوفزة الأعصاب إذ كانت تنتظر قدوم جراح

٧ ـ الإمراضية Pathogène: صفة ما يسبِّب مرضاً، كالجرثوم في الأمراض العضوية، أو الصدمات في الأمراض النفسية. «م».

٨ ـ **دراسات في الهستيريا**، الطبعة الرابعة، ص ٤١.

من فيينا لإجراء عملية. لم تكن أمها حاضرة، وكانت آنا جالسة عند سرير المريض، وقد أسندت ذراعها اليمنى إلى مسند الكرسي. وأخذتها إغفاءة في ما يشبه الحلم، ورأت ثعباناً أسود يخرج من الحائط ويدنو من المريض ليعضّه (من المحتمل جداً أن البستان، الذي خلف المنزل، كانت فيه ثعابين سبق لها أن أرعبت الفتاة، وقدَّمت للهلوسة موضوعها). وأرادت أن تطرد الحيوان، ولكنها كانت كالمشلولة؛ فذراعها اليمنى، المتدلية فوق مسند الكرسي، كانت «جامدة»، أي مخدَّرة ومخذولة[9]. وحين نظرت إليها تحولت الأصابع إلى ثعابين صغيرة ذات جماجم (الأظافر). وأرجح الظن أنها بذلت جهداً لطرد الثعبان بيدها اليمنى المشلولة. وهكذا اقترن الخدر والشلل بالهلاس Hallucination الثعباني. وحين اختفى هذا الأخير أرادت، والقلق يهصرها هصراً، أن تصلي، لكن الكلام أعياها، بأية لغة على الإطلاق. وما أمكنها أن تعاود النطق إلا عندما تذكرت أخيراً قصيدة أطفال إنكليزية، فأمكنها عندئذ أن تفكر وتصلي بهذه اللغة[10]. وجاء استذكار هذا المشهد، أثناء النوم المغنطيسي، ليحرر الذراع اليمنى من تخشُّبها الذي أصيبت به منذ بداية المرض، وليكون خاتمة العلاج.

لما شرعتُ، بعد ذلك بعدد من السنين، أطبِّق على مرضاي منهج بروير في البحث والعلاج، جاءت حصيلة تجاربي مطابقة لحصيلة تجاربه.

كانت سيدة في حوالي الأربعين من العمر تشكو من عرّة[11]، إذ كان اصطفاق غريب في نوعه يحدث في لسانها دونما سبب ظاهر. وكان أصل هذه العرّة يرجع إلى حادثين متباينين تجمع بينهما نقطة مشتركة وهي أن هذا الاصطفاق صدر عن السيدة، مدفوعة إليه بضرب من روح المناقضة، في وقت كانت ترغب فيه بقوة ألا تعكِّر صفو السكون: مرة كيلا توقظ طفلها النائم، ومرة أخرى، أثناء نزهة في العربة، كيلا تثير الحصانين اللذين كانت العاصفة قد أذعرتهما. وأنا أضرب هذا المثال من بين أمثلة عديدة أخرى وردت في **الدراسات في الهستيريا**.

٩ ـ الصفة من الخذل Parsie، وهو الشلل الناقص. «م».

١٠ ـ المصدر نفسه، ص ٣٠.

١١ ـ العرّة Tic: تشنج عضلي، وبخاصة في الوجه أو الفم، وقد ترجمها بعضهم بالخلجة. «م».

سيداتي سادتي، إذا سمحتم لي أن أعمِّم، وهذا أمر محتوم في عرض مقتضب كهذا، نستطيع، بوجه الإجمال، أن نلِّخص كل المعرفة التي توفَّرت لنا حتى الآن بالصيغة التالية: إن **المهسترين يعانون من تذكرات**. وأعراضهم هي رسابات من بعض الحوادث (الرَضِّية) ورموز لها. رموز ذاكرية، والحق يقال. ولعل التشبيه التالي قمين بتسهيل فهم ما نقصده بذلك. فالأنصاب التي نجمّل بها مدننا الكبيرة هي رموز ذاكرية من النوع نفسه[١٢]. وهكذا تشاهدون في لندن، وأمام واحدة من أكبر محطات المدينة، عموداً قوطياً غني الزخرفة: Charing Cross[١٣]. ففي القرن الثالث عشر أمر أحد الملوك القدامى من سلالة بلانتاجنيه[١٤] ـ بعد أن كان أمر بنقل جثمان الملكة إليانورا[١٥] إلى وستمنستر[١٦] ـ بنصب صلبان قوطية عند كل محطة وضع فيها النعش أرضاً. وتشارينغ كروس هو آخر تلك النصُب التي أقيمت تخليداً لذكرى تلك المسيرة الجنائزية[١٧]. وفي موقع آخر من المدينة، غير بعيد عن جسر لندن London Bridge، يمكنكم أن تلحظوا عموداً حديثاً شاهق الارتفاع يعرف باسم النصب The Monument. والغرض منه التذكير بالحريق الكبير الذي اندلع عام ١٦٦٦ على مقربة من ذلك المكان والتهم قسماً كبيراً من المدينة. إن هذه النصب هي «رموز ذاكرية» نظير الأعراض الهستيرية. التشبيه إذاً له ما يسوِّغه لحدّ الآن. لكن ماذا سيكون رأيكم في ساكن من سكان لندن لا يحجم، حتى في يومنا هذا، عن الوقوف بحزن واكتئاب أمام

١٢ ـ وليس من الصدفة أن تسمى هذه الأنصاب بـ «التذكارية». «م»

١٣ ـ تشارنغ كروس: واحد من أهم تقاطعات الشوارع في وسط لندن، وفيه ينتصب اليوم تمثال فروسي للملك تشارلز الأول. «م».

١٤ ـ بلانتاجنيه: لقب الكونت جيوفرا الخامس، وبه يشار غالباً إلى سلالة ملوك إنكلترا التي حكمت بين ١١٥٤ و١٤٨٥. «م».

١٥ ـ إليانورا الأكيتينية: دوقة وكونتيسة، تزوجت من لويس السابع، ملك فرنسا، عام ١١٣٧؛ ولما هجرها تزوجت ثانية سنة ١١٥٢ من هنري بلانتاجنيه الذي أصبح ملك فرنسا. «م».

١٦ ـ وستمنستر: حيّ ودير في لندن، فيه مقبرة تضمّ أضرحة ملوك إنكلترا وعظمائها. «م».

١٧ ـ أو نسخة لاحقة لذلك النصب. واسم «تشارينغ» يعني، على ما ذهب إليه إ. جونز، الملكة العزيزة.

نصب القافلة الجنائزية للملكة إليانورا، بدل أن ينصرف لشؤونه بكل العجلة التي تقتضيها شروط العمل العصرية، أو بدل أن يمتّع نظره بمرأى الملكة الشابة الجميلة المتربعة اليوم على عرش قلبه؟ أو ماذا سيكون رأيكم في لندني آخر يبكي أمام «نصب» دمار مدينة آبائه[١٨]، بعد أن بعثت هذه المدينة من رمادها منذ أمد طويل من الزمن وباتت تسطع بألق أشد بهراً للأنظار مما كانت عليه في الماضي الغابر؟ والحال أن المهسترين وغيرهم من العصابيين يتصرفون تصرُّف صاحبينا اللندنيين الفاقدين للحسّ العملي في مثالنا المستبعد الحدوث. فهم لا يتذكرون فحسب خبرات مؤلمة مضى زمن طويل على وقوعها، بل يبقون مرتبطين بها وجدانياً. إنهم لا يتحررون من الماضي، بل يضربون صفحاً لأجله عن الواقع والحاضر. وهذا التثبيت للحياة النفسية على الرضات الإمراضية هو واحدة من أهم سمات العصاب، ومن أبلغها دلالة عملياً.

وأرجح الظن أنكم ستوجّهون إليّ هنا، إذ يذهب بكم الفكر إلى مريضة بروير، اعتراضاً هو بكل تأكيد معقول ومقبول. فجميع رضات تلك الفتاة ترجع إلى الزمن الذي كانت تعتني فيه بوالدها المريض، وما أعراضها سوى علائم الذكرى التي احتفظت بها عن مرض أبيها ووفاته. ولسوف تقولون لي: إن الاحتفاظ بذكرى الراحل حيَّة، بعد وفاته بزمن قليل، أمر بعيد أن يكون مَرَضياً، بل إنه يتطابق على العكس مع سيرورة وجدانية طبيعية وسوية تماماً. وأنا أنزل بكل طيبة خاطر عند رأيكم: فذلك التثبيت لمريضة بروير على الرضات لا ينطوي على شيء خارق للمألوف. لكن في أحوال أخرى، ومن أمثلتها تلك العرة التي عالجتُها والتي ترجع أسبابها إلى خمس عشرة سنة أو عشر سنوات إلى الوراء، يبرز للعيان بجلاء الطابع المَرَضي لهذه التبعية للماضي. ومن المرجح أن مريضة بروير كانت ستقع هي الأخرى في براثن هذه التبعية، لولا أنها أُخضعت للمعالجة **التطهيرية** Cathartique بعيد التجربة الرضِّية التي عاشتها وظهور أعراضها.

١٨ ـ معلوم أن المدن، التي كان بناها الرومان، نهبت وأحرقت بتمامها على يد القبائل الكلتية في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد. «م».

لم نتكلم حتى الآن عن الأعراض الهستيرية إلا من خلال علاقاتها بتاريخ حياة المرضى. لكن لا يزال علينا أن نولي اهتمامنا لظرفين آخرين ورد ذكرهما لدى بروير، ومن شأنهما أن يمكّنانا من فهم آلية ظهور المرض وآلية زواله. ولنلحّ بادئ ذي بدء على واقع أن مريضة بروير كانت مضطرة، في جميع المواقف الإمراضية، إلى قمع انفعال جامح، بدل أن تفسح له طريقاً إلى التصريف من خلال الإشارات الانفعالية والكلمات والأفعال المناظرة. فلدى وقوع الحادث الطفيف الشأن مع كلب مربيتها، قمعت، مراعاة منها لهذه الأخيرة، علائم قرف شديد؛ كذلك، فيما كانت تسهر قرب سرير والدها، كان شاغلها الشاغل ألا تدع المريض يتبيّن شيئاً من قلقها ومن حالتها النفسية المضنية. وحين أعادت في وقت لاحق تصوير هذين المشهدين أمام طبيبها، انبعث الانفعال المكبوت آنفاً بحدّة وعنف، كما لو أنه لبث مصاناً بكامله طوال تلك المدة. بل أكثر من ذلك: فالعرض الذي تبقى من ذلك المشهد أفصح عن أعلى درجات شدّته وحدّته حينما سعى الطبيب إلى اكتشاف أصله، ثم ما لبث أن زال بعد إماطة اللثام كاملاً عن هذا الأخير. كما أمكن، من جهة أخرى، التنبّه بالتجربة إلى أن تذكُّر المشهد في حضور الطبيب كان يبقى بلا مفعول إذا لم تصحبه في اللحظة عينها، ولسبب من الأسباب، انفعالات عاطفية. وظاهر للعيان أن الوقوع في المرض واستتباب العافية على حدّ سواء منوطان بهذه الانفعالات العاطفية Affects. وهكذا كان لا بدّ من التسليم بأن الوقوع في براثن المرض ما كان ليحدث لولا انسداد الطريق إلى مخرج سويّ للانفعالات العاطفية الناجمة عن الموقف الإمراضي، وهذا ما حكم على هذه الانفعالات «المكظومة» بأن تستخدم استخداماً غير سويّ، إذ لا يكون لها سوى واحد من مآلين. فتارة تستمر كما هي وتثقل بوطأتها على كل الحياة النفسية، وتكون لها بمثابة مصدر دائم للتنبيه والإثارة؛ وطوراً تتحول إلى سيرورات نفسية غير سوية، **تعصيبات** Innervations **وكفوف** Inhibitions بدنية غير معتادة تتظاهر كما لو أنها مجرد أعراض بدنية للحالة. وهذا ما أطلقنا عليه اسم **الهستيريا**

الاستبـــدالية Hysterie de conversion[١٩]. ففي الحياة السوية، تستخدم كمية محددة من طاقتنا الانفعالية في التعصيب[٢٠] البدني، ومنها تتأتى ظاهرة التعبير عن الانفعالات العاطفية، وهي ظاهرة معروفة لدينا جميعاً. وما الهستيريا الاستبدالية سوى تعبير مبالغ فيه عن الانفعالات بالاعتماد على وسائل وطرائق غير مألوفة. فالنهر إذا ما سال في قناتين امتلأت واحدتهما وفاضت، بمجرد أن يصطدم التيار بعقبة في القناة الأخرى.

أنتم ترون أننا على وشك الوصول إلى نظرية سيكولوجية خالصة عن الهستيريا، نظرية نعطي فيها مكانة الصدارة للسيرورة الانفعالية العاطفية. وثمة ملاحظة ثانية لبروير ترغمنا على أن نعلق أهمية كبيرة، في تحديد مواصفات ما يحدث في السيرورة المرَضية، على حالات الوعي. فقد كانت مريضة بروير تفصح، إلى جانب حالتها السوية، عن حالات نفسية متباينة من شرود وتخليط وتغيّر في الطباع. وحينما تكون في حالتها السوية، لا تعرف شيئاً عن تلك المشاهد الإمراضية وعن علاقتها بأعراضها. فهي تنساها أو لا تقيم من صلة بينها وبين مرضها. وحين تُنوَّم مغنطيسياً، كان لا بدّ من بذل جهود كبيرة لإرجاع تلك المشاهد إلى ذاكرتها، وكان عمل التذكر هذا هو الذي يلغي الأعراض. ولقد كنا سنتلبك في إيجاد تعليل لهذه الملاحظة لولا أن التجارب والعمليات التنويمية قد أشارت إلى الطريق الواجب اتباعه. فقد عوّدتنا دراسة الظاهرات النوامية على تصوُّر لا يخلو من غرابة للوهلة الأولى، ومؤداه أنه يمكن أن تتواجد في الفرد الواحد عدة تكتلات نفسية، مستقلة بما فيه الكفاية لتجهل بعضها بعضاً. ومثل هذه الأحوال، التي تسمى بـ «الوعي المزدوج»[٢١]، يمكن أن تقع عفوياً تحت الملاحظة في بعض الأحيان. وإذا ما بقي الوعي، في ازدواج

١٩ ـ توصف الهستيريا بأنها استبدالية لأن أعراضها النفسية تُستبدل بأعراض بدنية. ومن ثم جاز أيضاً أن يقال لها الهستيريا الاستبدانية. «م».

٢٠ ـ التعصيب Innervation: طريقة انتشار الأعصاب في عضو من الأعضاء، أو تزويده بالطاقة النفسية بواسطة الأعصاب.«م».

٢١ ـ بالفرنسية في النص Double conscience. «م».

الشخصية هذا، مرتبطاً باستمرار بواحدة من الحالتين، سُمِّيت هذه الحالة بالحالة النفسية **الواعية**، وسُمِّيت الحالة المنفصلة عنها **باللاواعية**[٢٢]. والظاهرة المعروفة باسم الإيحاء ما بعد التنويمي، وهي الظاهرة التي يعطى فيها أثناء النوام أمر كيما يتمّ تنفيذه لاحقاً لا محالة في الحالة الطبيعية، تقدم لنا صورة باهرة عن مدى التأثير الذي يمكن أن يمارسه اللاشعور على الحالة الواعية، وبمقتضى هذا النموذج يتاح لنا أن نفهم الظاهرات الملحوظة في الهستيريا. وقد قرّ قرار بروير على التسليم بأن الأعراض الهستيرية إنما تنجم تقديراً عن أحوال نفسية خاصة أسماها بالحالة **النوامية**[٢٣]. فالتنبيهات التي تحدث في هذا النوع من الحالات النوامية تغدو بسهولة إمراضية، لأن تلك التنبيهات لا تجد في هذه الحالات الشروط اللازمة القمينة بأن تقودها إلى مآلها السوي. وعندئذ يحدث ذلك الشيء الخاص الذي نسمِّيه بالعرض، والذي ينفذ إلى الحالة السوية وكأنه جسم غريب، ولا سيما أن المنوَّم لا يعي طبيعة الموقف الإمراضي النوامي. وحيثما يكن عرض، يكن أيضاً فقدان للذاكرة Amnésie، فراغ، فجوة في التذكر. وإذا ما أفلحنا في ردم هذه الثغرة، نكون قد ألغينا العرض.

أخشى ألا يبدو لكم هذا الجزء من محاضرتي في غاية من الوضوح. لكن حلمكم عليّ! فهذه نظرات ورؤى جديدة، وقد يكون من المتعذر عرضها بمزيد من الوضوح، في الساعة الراهنة على الأقل. ومهما يكن من أمر، فإن فرضية بروير عن الحالات النوامية قد ثبت أنها مربكة وفائضة عن الحاجة، وقد تخلى عنها التحليل النفسي الحديث. وسوف تطلّعون لاحقاً على كل ما تمّ اكتشافه أيضاً وراء ستار الحالات النوامية التي قال بها بروير. وسوف يخالجكم في أرجح الظن، وعن حقّ، شعور بأن أبحاث بروير ما كان لها أن تعطيكم إلا نظرية ناقصة

٢٢ ـ لنلاحظ أن طاقات اللغة العربية تتيح لنا أن نترجم Conscient وInconscient إلى واعٍ ولاواعٍ كما إلى شعوري ولاشعوري. وسنعتمد مصطلح الوعي ومشتقاته في الحالات الوصفية، بينما سنعتمد مصطلح الشعور ومشتقاته في الحالات المفهومية المتعلقة بالتحليل النفسي. «م».

٢٣ ـ النوامية Hypnoïde: نسبة إلى النوام، أي وضعية الوعي كما يكون في حالة التنويم المغناطيسي، ولكن بدون أن تكون هناك حالة نوم فعلية. «م».

وتفسيراً غير كافٍ للوقائع الملحوظة. بيد أن النظريات الكاملة لا تسقط إذا صحّ التعبير من السماء، ومن حقّكم أن تأخذكم الريبة تجاه ذلك الإنسان الذي قد لا يحجم عن أن يقدم لكم، من أول ملاحظاته، نظرية مكتملة، ناجزة، بلا فجوات. فنظرية كهذه لا يمكن إلا أن تكون من نتاج مضارباته النظرية، لا ثمرة دراسة غير متحيِّزة للواقع.

- ٢ -

سيداتي سادتي، في الوقت الذي كان بروير منصرفاً إلى تطبيق «المعالجة بالكلام Talking Cure» كان شاركو[١] يتابع في سالبترير[٢] أبحاثه عن الهستيريا، هذه الأبحاث التي تمخضت في نهاية الأمر عن تصور جديد لهذا العصاب. ولم تكن النتيجة التي توصل إليها قد ذاع أمرها في فيينا بعد. لكن حين نشرنا، أنا وبروير، بعد عشرة أعوام بحثنا التمهيدي عن الآلية النفسية للظاهرات الهستيرية - وقد استوحيناه من نتائج المعالجة التطهيرية لمريضة بروير الأولى - كنا واقعين تحت التأثير المباشر لأبحاث شاركو. وقد افترضنا يومئذ أن رضاتنا النفسية هي معادل الرضات البدنية التي أزاح شاركو النقاب عن دورها في ظاهرات الشلل الهستيري. وما فرضية الحالات النوامية كما صاغها بروير إلا صدى لتجارب شاركو في مسعاه إلى استحداث أعراض شللية بفعل التنويم مشابهة كل المشابهة للأعراض الشللية الرضّية.

لم يكن النطاسي الفرنسي الشهير، الذي تتلمذت عليه في ١٨٨٥ - ١٨٨٦، ميالاً إلى الأخذ بالتصورات السيكولوجية. وتلميذه بيير جانيه[٣] هو الذي حاول

---

١ - جان مارتن شاركو: طبيب فرنسي، اشتهر بأبحاثه في مضمار الأمراض العصبية (١٨٢٥ - ١٨٩٣). واشتهر أيضاً بلقب زعيم مدرسة سالبترير للدراسات عن الهستيريا والنوام. وقد تتلمذ فرويد عليه لمدة خمسة أشهر، واستحصل منه على الأذن بترجمة بعض أعماله إلى الألمانية. «م».

٢ - سالبترير: مستشفى باريسي مشهور، بني في القرن السابع عشر. «م».

٣ - بيير جانيه: من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩ - ١٩٤٧). كان أول من صاغ مفهوم ما دون الشعور. تولى في عهد شاركو إدارة مختبر علم النفس في مستشفى سالبترير، ودرَّس في الوقت نفسه الفلسفة في الكوليج دي فرانس، وعارض نظرية فرويد عن دور الجنسية في الاضطرابات النفسية وكمحرك للنشاط الإنساني. من أشهر مؤلفاته: **الآلية النفسية، الأعصبة، حالة الهستيريين العقلية، الحب والكره**. «م».

أن يحلل بتعمق السيرورات النفسية للهستيريا، وقد اقتدينا بمثاله إذ جعلنا من الانفلاق النفسي وانفصام الشخصية محور نظريتنا. إن نظرية جانيه ترتكز إلى المذاهب المقبولة والمسلَّم بها في فرنسا بصدد دور الوراثة والانحلال في نشوء الأمراض. وفي اعتقاده أن الهستيريا شكل من التغيُّر الانحطاطي للجهاز العصبي، يتجلى في ضعف فطري في التركيب النفسي. وهاكم ما يقصده بذلك: فالمهسترون، بحسب تصوره، عاجزون عن الإمساك بالسيرورات النفسية الكثيرة العدد في حزمة واحدة، فتكون نتيجة ذلك ظهور ميل إلى الانفصام النفسي. ولو سمحتم لي بتشبيه لا يخلو من فجاجة، لكنه يتميَّز بالوضوح، لقلت إن المهستر كما يتصوره جانيه أشبه بامرأة خرجت لتتسوق وتتبضع، ثم آبت محمَّلة بالعلب والرزم. لكن ذراعيها وأصابعها العشر ما كانت تكفيها لتمسك كما ينبغي بكل حملها، فإذا برزمة من الرزم تسقط منها أرضاً. وعندما تنحني لتلتقطها، تنزلق منها رزمة أخرى. وهكذا دواليك.

بيد أن ثمة وقائع لا تتفق تمام الاتفاق وهذه النظرية عن الضعف النفسي لدى المهسترين إذ نلاحظ لديهم تناقصاً في طاقات معيَّنة وتزايداً في طاقات أخرى، تماماً كما لو أنها تبغي أن تعوِّض من جانب عن النقص الذي يطرأ على الجانب الآخر. فمثلاً، حين نست مريضة بروير لغتها الأصلية، ومعها سائر اللغات خلا الإنكليزية، صارت تنطق بهذه الأخيرة بإتقان عظيمٍ حتى إنها باتت قادرة، إذا ما وضع بين يديها كتاب ألماني، على ترجمته ارتجالاً ترجمة ممتازة.

حين أخذت على عاتقي في وقت لاحق أن أواصل بمفردي الأبحاث التي كان قد بدأها بروير، انتهيت سريعاً إلى تكوين رأي مغاير بصدد أصل الانفصام الهستيري (ازدواج الوعي). وكان من المحتم أن أنتهي إلى مثل هذا الاختلاف في الرأي بالنظر إلى أنني لم أنطلق من تجارب مخبرية، كما كان فعل جانيه، وإنما من جهود علاجية.

كانت الممارسة هي همّي الأول. وكانت المعالجة التطهيرية كما طبّقها بروير تقتضي تنويم المريض تنويماً عميقاً، إذ إن الحالات النوامية هي وحدها التي كانت تتيح لهذا الأخير أن يتذكر الأحداث الإمراضية التي تغيب عن وعيه في الحالة

الطبيعية. والحال أنني ما كنت أحب التنويم المغنطيسي: فهو طريقة غير موثوقة وتنطوي على شيء من الروحانية. ولما لاحظت أنني، رغم جهودي كافة، لا أتمكن إلا من تنويم عدد ضئيل من مرضاي، قرَّ عزمي على التخلي عن هذه الطريقة وعلى تطبيق المعالجة التطهيرية بالاستقلال عنها. وعليه، فقد قرّ قراري على محاولة مواصلة المجهود العلاجي بدون أن أخرِج المرضى من حالتهم الطبيعية. وقد بدا المشروع للوهلة الأولى أخرق ومنعدم الفرص في النجاح. وكان المطلوب أن أطَّلع من المريض على شيء لا أعرفه، وهو نفسه به جاهل. فهل كان لي من أمل في الفلاح؟ عندئذ تذكرت تجربة غريبة ومفيدة كنت شاهداً عليها لدى برنهايم[٤] في مدينة نانسي. فقد كان برنهايم بيّن لنا أن الأشخاص الذين وضعهم في حالة سرنمة نوامية[٥] والذين جعلهم يأتون أفعالاً شتى لم يفقدوا إلا ظاهرياً ذكرى ما رأوه وعاشوه تحت تأثير التنويم، وأنه من الممكن إيقاظ هذه الذكريات فيهم وهم في حالتهم الطبيعية. فلو سألنا هؤلاء الأشخاص، لدى استيقاظهم، عما حدث، لزعموا في بادئ الأمر أنهم لا يعرفون شيئاً، لكن لو أصررنا وألحفنا عليهم بالسؤال وأكدنا لهم أن ذلك في مقدورهم، لعاودت الذكريات عندئذ ظهورها بلا توانٍ.

سلكت المسلك نفسه مع مرضاي. فحين كانوا يزعمون أنهم ما عادوا يدرون شيئاً، كنت أؤكد لهم أنهم يعرفون، وأنه ما عليهم إلا الكلام، بل كنت أجزم لهم بأن الذكرى التي سترجع إليهم لحظة أضع يدي على جبينهم ستكون هي الذكرى الصحيحة. بهذه الطريقة أفلحت، من غير أن أستخدم التنويم، في الاطِّلاع من المرضى على كل ما هو ضروري لتبيُّن العلاقة بين المشاهد الإمراضية المنسية وبين الأعراض التي هي بمثابة رسابات لها. لكن هذه الطريقة كانت صعبة ومضنكة على المدى الطويل، وما كانت مؤهلة لأن تفرض نفسها كتقنية نهائية.

---

٤ ـ هيبوليت برنهايم: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٤٠ ـ ١٩١٩). كان مع أمبرواز ليبيو من أطباء مدرسة نانسي الذي يعالجون المرضى العصبيين بالإيحاء بالتعارض مع مدرسة شاركو التنويمية الباريسية. وقد درس عليه فرويد سنة ١٨٨٩ وترجم إلى الألمانية كتابه عن **الإيحاء وتطبيقاته العلاجية**. «م».

٥ ـ السرنمة أو الروبصة Somnambulisme: السير والتكلم أثناء النوم. «م».

بيد أنني لم أتخلَّ عنها من غير أن أستخلص منها، مع ذلك، نتائج حاسمة: فالدليل قد قام على أن الذكريات المنسية لا تضيع ولا تتبدد، وعلى أنها تبقى في حوزة المريض، متأهبة للانبجاس، مقترنة بما لا يزال معروفاً له. لكن توجد قوة تمنعها من أن تغدو واعية. ووجود هذه القوة يمكن أن يعدّ بحكم المؤكد، إذ إننا نشعر بأننا نبذل مجهوداً حينما نحاول أن نعيد إلى الوعي الذكريات اللاواعية. وهذه القوة، التي تبقي على الحالة المرَضية قائمة، نستشعرها على أنها مقاومة صادرة عن المريض.

على فكرة المقاومة هذه بنيت إذاً تصوري عن السيرورات النفسية في الهستيريا. وقد اتضح أن انتفاء هذه المقاومة أمر لا غنى عنه لاستعادة المريض عافيته. وبحسب آلية الشفاء، نستطيع أن نكوِّن من الآن فكرة واضحة ودقيقة عن تتابع الوقائع في مسار المرض. فالقوى التي تعارض اليوم عودة المنسي إلى الشعور هي عينها بكل تأكيد القوى التي تسببت، لحظة الرضة، بذلك النسيان وكبتت في اللاشعور الأحداث الإمراضية. وقد أطلقت اسم **الكبت** على هذه السيرورة التي كانت من افتراضي، واعتبرت أن وجود **المقاومة** الذي لا سبيل إلى نكرانه هو خير برهان على وجودها هي.

لقد كان في وسع المرء أيضاً أن يتساءل عن كنه تلك القوى، وعن شروط ذلك الكبت الذي نرى فيه اليوم الآلية الإمراضية للهستيريا. إن المعلومات التي زوّدتنا بها المعالجة التطهيرية تسمح لنا بالإجابة عن هذا السؤال. ففي جميع الحالات المرصودة لاحظنا أن ثمة رغبة عنيفة قد راودت الفرد، رغبة جاءت متعارضة مطلق التعارض مع سائر رغباته ومتنافية مع الصبوات الأخلاقية والجمالية لشخصه. وقد أعقب ذلك تنازع قصير الأمد؛ وفي نهاية هذه المعركة الداخلية أضحت الرغبة الناشزة مكبوتة، فطُردت خارج مجال الوعي وطوتها يد النسيان. وما دامت الفكرة المذكورة غير متوافقة مع «أنا» المريض، فقد كانت هي الدافع إلى الكبت، وكانت المطالب الأخلاقية وغيرها من مطالب الفرد هي القوى الكابتة. وفي هذه الحال ما كان قبول الرغبة الناشزة أو تطاول أمد الصراع ليؤديا إلا إلى شعور حادّ بالكدر، وهذا الكدر يتم تحاشيه عن

طريق الكبت الذي يبدو بالتالي وكأنه وسيلة لحماية الشخصية النفسية.

سأقتصر في عرضي هذا على حالة واحدة من العديد من الحالات التي عالجتها تظهر فيها للعيان بأتم الوضوح شروط الكبت وفائدته. ولكن لا بدّ لي أيضاً من التزام الإيجاز حتى في عرض هذه الحالة ومن صرف النظر عن فرضيات هامة. فقدت فتاة والدها[٦] من زمن غير بعيد، وكانت تكنّ له حباً حانياً، وكانت قد ساعدت في السهر عليه ومعالجته، على نحو ما رأيناه في حالة مريضة بروير. ولما تزوجت أختها الكبرى، تعلقت عاطفياً بصهرها تعلقاً شديداً، ولكن هذا التعلق اعتبر في حينه مجرد مودّة من النوع الذي يكثر قيامه بين أفراد الأسرة الواحدة. ولم يمضِ زمن طويل حتى سقطت تلك الأخت طريحة الفراش وقضت نحبها أثناء غياب فتاتنا وأمها. وتمّ استدعاء هاتين على عجل، بدون إبلاغهما نبأ الحادث الأليم بتمامه. وحينما دنت الفتاة من سرير أختها الميتة انبجست في ذهنها، لهنيهة من الزمن، فكرة يمكن تلخيصها على النحو التالي: **إنه الآن حرّ وبوسعه الزواج مني**. ومن المؤكد أن هذه الفكرة، التي فضحت أمام وعي الفتاة حقيقة الحب الشديد الذي كانت تكنّه لصهرها بدون علمها ودرايتها، قد أثارت اشمئزازها فكبتتها للحال. ومرضت الفتاة بدورها، وانتابتها أعراض هستيرية خطيرة. وحينما شرعتُ بعلاجها اتضح أنها نسيت تماماً ذلك المشهد أمام سرير موت أختها وشعور الأنانية البغيض الذي كان استحوذ عليها. وقد عادت إلى تذكُّر الحادث أثناء العلاج، واسترجعته بكامل تفاصيله، وظهرت عليها أمارات انفعال بالغ العنف، ووجدت المعالجة السبيل إلى شفائها.

سأمثّل على سيرورة الكبت وعلاقته المحتومة بالمقاومة بتشبيه فجّ. افترضوا أنه يوجد في قاعة المحاضرات هذه، وبين جمهور المستمعين الهادئين والمتنبهين، فرد يحلو له مع ذلك أن يسلك سلوكاً مزعجاً بالنسبة إليّ وأن يشوّش عليّ الجو بإطلاقه قهقهات غير لائقة، أو بثرثرته وهذره، أو بطرطقته بقدميه. وعليه، سأعلن

٦ - هي الآنسة إليزابيث فون ر. وقد تولى فرويد تحليلها ابتداء من عام ١٨٩٢. وكانت أول حالة يكتشف من خلالها استعصاء التنويم. وقد ساق بعض التفاصيل عن حالتها في **دراسات في الهستيريا**. «م».

أنني لا أستطيع أن أواصل على هذا النحو إلقاء محاضرتي. وعلى الأثر ينهض بعض الأشدّاء من المستمعين، وبعد عراك وجيز يطردون الشخص المزعج. لقد كان مصيره إذاً «الكبت»، وبات بوسعي الآن مواصلة محاضرتي. لكن كيلا يتكرر تعكير الصفو، في حال ما إذا خطر للمطرود أن يعاود الدلوف إلى القاعة، يبادر الأشخاص الذين هبّوا لنجدتي إلى إسناد كراسيهم إلى الباب، ويشكّلون على هذا النحو «مقاومة» بعد نجاح عملية «الكبت». فإذا ما نقلنا الآن إلى المستوى النفسي أحداث مثالنا، فافترضنا أن قاعة المحاضرات هي الشعور، بينما الرواق هو اللاشعور، نكون قد مثّلنا على عملية الكبت بصورة لا بأس بها.

بهذا تحديداً يتأتى لكم أن تدركوا الفارق بين تصورنا وتصور جانيه. ففي نظرنا لا يأتي الانفصام النفسي من عجز فطري في الجهاز النفسي عن التركيب، بل نفسّره دينامياً بصراع قوتين نفسيتين، ونرى فيه نتيجة تمرد فعال لهيئتين نفسيتين، الشعور واللاشعور، واحدتهما على الأخرى. ويثير تصورنا هذا بدوره تساؤلات جديدة كثيرة. فالموقف الصراعي النفسي كثير التواتر بكل تأكيد، وغالباً ما يتأتى لنا أن نلحظ ميلاً لدى «الأنا» إلى حماية نفسه من الذكريات المضنية، لكن بدون أن ينجم عن ذلك انفصام نفسي. لذا فنحن مرغمون على التسليم بأنه لا بدّ من توفر شروط أخرى كيما يحدث انفصام. وأنا أقرّ عن طواعية بأن فرضية الكبت تشكل البداية، لا النهاية، لنظرية سيكولوجية، لكن لا يسعنا التقدم إلا خطوة خطوة، ولا بدّ من أن نتيح لأنفسنا الوقت الكافي لتعميق معارفنا.

لنحاذر أيضاً من محاولة تعليل حالة مريضة بروير الشابة على ضوء نظرية الكبت. فقصة هذه المريضة لا تصلح لذلك، لأن معطياتها قد تمّ الحصول عليها عن طريق التأثير التنويمي. ولا بدّ لنا، على العكس من ذلك، من أن ننحّي التنويم جانباً كيما نتمكن من رصد المقاومات والكبوتات، ومن تكوين تصور صحيح عن السيرورة الإمراضية الفعلية. فالتنويم يحجب عن النظر المقاومة ويترك الباب مفتوحاً على مضمار محدد من السريرة النفسية؛ بيد أن التنويم يراكم أيضاً المقاومة عند تخوم هذا المضمار، ويحوّلها إلى سور محصّن يغدو معه كل الباقي

منيعاً لا يقرب. وإن أثمن نتيجة قادتنا إليها الحالة التي درسها بروير هي اكتشاف صلة الأعراض بالأحداث الإمراضية المعاشة أو الرضات النفسية، وعلينا من الآن فصاعداً ألا نتوانى عن أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الكشوف من منظور نظرية الكبت. وقد لا نتبيَّن للوهلة الأولى كيف يمكن، ابتداء من الكبت، تكوين العرض. لكن بدلاً من أن أعكف هنا على القيام باستنباط نظري معقد، سأعود ثانية إلى تشبيهنا الآنف الذكر بصدد الكبت. فمن المؤكد أن إبعاد العنصر المشاغب الذي كان يعكر صفو المحاضرة عن طريق وضع حرس على الباب لا يعني أن كل شيء قد انتهى. فليس من المستبعد أن يتسبب المطرود، وقد زادته مرارته تصميماً، في إحداث المزيد من البلبلة. صحيح أنه لم يعد موجوداً في القاعة، وصحيح أننا تخلصنا من حضوره، من قهقهته الساخرة، من ملاحظاته بعالي صوته، لكن الكبت بقي، من زاوية محددة، غير مجدٍ، وها هوذا المطرود يحدِث في الخارج ضجة وجلبة لا تطاقان، فيصرخ ويضرب على الباب بقبضة يده، ويعكر على هذا النحو صفو المحاضرة أكثر مما كان يفعل سابقاً. ومن المحبذ في مثل هذه الحال أن يتفضل رئيس الاجتماع الدكتور الموقّر ستانلي هال[٧] فيقوم بدور الوسيط والمهدِّئ. وعلى هذا الأساس سيتفاوض مع الشخص المشاغب، ثم سيتوجَّه بالخطاب إلى جمهور المستمعين وسيقترح عليهم أن يسمحوا له بالدخول من جديد، آخذاً على عاتقه ضمان تحسين سلوكه. وثقةً بسلطة الدكتور هال، سيتخذ جمهور الحضور قراراً جديداً يلغي القرار السابق بالطرد، ومن ثم يستتب من جديد الهدوء والسلام. وهذه ليست في الحقيقة إلا صورة تقريبية عن المهمة التي تقع على عاتق الطبيب في المعالجة التحليلية النفسية لضروب العصاب.

لنقل الآن ما نريد قوله مباشرة وبلا صور: إن فحص مرضى هستيريين آخرين وعصابيين آخرين قادنا إلى الاقتناع بأنهم لم يفلحوا في كبت الفكرة التي بها

---

٧ ـ غرانفيل ستانلي هال: فيلسوف وعالم نفسي أميركي (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤). من رواد علم النفس التجريبي في الولايات المتحدة. وقد استضاف في عام ١٩٠٩ سيغموند فرويد لإلقاء المحاضرات الخمس التي يتألف منها هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ. «م».

ترتبط رغبتهم التي لا يطيقون لها احتمالاً. صحيح أنهم طردوها من وعيهم وذاكرتهم، وأنهم وفَّروا على أنفسهم، في ظاهر الأمر، قدراً كبيراً من الآلام والأوجاع، **لكن الحاثة الرغبية المكبوتة تواصل وجودها في اللاشعور**، وهي تترقب فرصة ما لكي تتظاهر، وسرعان ما تعاود بالفعل ظهورها إلى حيِّز النور، ولكن في ثوب تنكري يتعذر معه تعرّفها. وبعبارة أخرى، إن الحاثة الرغبية المكبوتة يتم استبدالها في الوعي بتشكيل آخر يكون لها بمثابة بديل أو وكيل، وبها تعود إلى الارتباط جميع أحاسيس الكدر المزعجة التي يكون المرء قد تصوَّر أنه نحّاها جانباً بواسطة الكبت. وهذا التشكيل البديل عن الفكرة المكبوتة ـ العرض ـ يكون محمياً من أية هجمات جديدة من جانب «الأنا» الدفاعي؛ وبدلاً من صراع قصير الأمد، ينشب الآن عذاب متواصل. وإلى جانب علامات التحريف، ينطوي العرض على رسابة أو بقية من التشابه مع الفكرة المحرَّفة. والطرق التي يكون قد تمَّ من خلالها تكوين التشكيلات البديلة تكشف عن نفسها أثناء المعالجة التحليلية النفسية للمريض، والشفاء يستلزم أن يتم إرجاع العرض بهذه الطريق عينها إلى الفكرة المكبوتة. وإذا ما أمكن إرجاع ما هو مكبوت إلى وضح النور ـ وهذا يفترض أنه قد تمَّ التغلب على مقاومات لا يستهان بها ـ فعندئذ يمكن للصراع النفسي الناجم عن هذا الإرجاع، والذي كان المريض يبغي تحاشيه، أن يجد، بإشراف الطبيب، حلاً أفضل من الكبت. وعديدة هي أشباه هذه التصفيات الموفَّقة التي تقود الصراع والعصاب إلى نهاية سعيدة، والتي قد يمكن في هذه الحالة أو تلك أن يتمّ التوصل إليها بالتركيب بين بعضها بعضاً. فتارة يوافق المريض على أنه أخطأ إذ كبت الرغبة الممرِضة، ويقبل من ثمّ جزئياً أو كلياً هذه الرغبة؛ وطوراً توجِّه هذه الرغبة نفسها نحو هدف أعلى وأسمى، وبالتالي أقلّ عرضة للنقد (وهذا ما أطلقُ عليه اسم الإسماء)؛ وتارة ثالثة يكون هناك إقرار بأن نبذ الرغبة كان عملاً صائباً، لكن يتمّ استبدال آلية الكبت الأوتوماتيكية، وبالتالي غير الكافية، بحكم إدانة يصدر عن أعلى سلطة نفسية في داخل الإنسان، وبذلك تتم السيطرة على الرغبة بكامل الوعي.

اعذروني إذا لم أكن قد نجحت في أن أصف لكم على نحو أوضح وأكثر

قابلية للفهم وجهات النظر الرئيسية للطريقة العلاجية المسماة من الآن فصاعداً **بالتحليل النفسي**. والصعوبات لا ترجع إلى جدّة الموضوع فحسب. إذ ما طبيعة الرغبات التي لا تطاق والتي تتمكن، رغم الكبت، من إسماع صوتها من أعماق اللاشعور؟ وفي أي شروط يخفق الكبت ويتكون بديل أو عرض؟ هذا ما ستقدّم عنه بعضَ الإيضاحات مداخلتُنا التالية.

- ٣ -

سيداتي سادتي، ليس من السهل على الدوام أن يكون المرء دقيقاً، ولا سيما إذا كان ملزماً بالاقتضاب. لذا أراني مرغماً على أن أصحّح اليوم خطأ اقترفته في مداخلتي السابقة. فقد قلت لكم إننا عندما ندع التنويم جانباً ونسعى إلى إيقاظ الذكريات التي يمكن أن تكون موجودة لدى الفرد عن أصل مرضه، فنسأله أن يفصح عما يمرّ بخاطره، فإن أولى الأفكار التي تنبجس تكون ذات صلة بتلك الذكريات الأولى. والواقع أن هذا غير صحيح في الحالات جميعاً. وأنا لم أصوِّر الأمور بمثل هذه البساطة إلا طلباً للإيجاز. وبالفعل، كان مجرد الإلحاح والضغط من جانبي كافيين في المرات الأولى لإماطة اللثام عن الحدث المنسي. وكان الاستمرار بهذه الطريقة قميناً باستيلاد أفكار جانبية أخرى، ولكن من المشكوك فيه جداً في هذه الحال أن تكون مطابقة فعلاً للحدث المنشود: بل كان يبدو وكأنها غير ذات صلة البتة به، وكان المرضى أنفسهم ينحّونها جانباً باعتبارها غير مطابقة. وما كان الضغط يجدي في هذه الحال نفعاً، وما كان من المستبعد أن يخالج المرء شعور بالندم لأنه تخلى عن طريقة التنويم.

ولما أعياني الخروج من هذا المأزق، تشبّثت بحبل مبدأ أثبت مشروعيته العلمية في وقت لاحق ك. غ. يونغ[1] وتلاميذه في زوريخ. ولعله ينبغي عليّ هنا أن أؤكد أنه من المفيد جداً أحياناً أن يكون للمرء أحكام مسبقة. فقد كنت على اقتناع تام من البداية بصحة مبدأ الجبرية النفسية، وما كان لي أن أتصور أن الفكرة التي تنبجس بصورة عفوية في وعي المريض، وهو في حالة قصوى من

١ - كارل غوستاف يونغ: طبيب نفسي سويسري (١٨٧٥ - ١٩٦١). كان مع فرويد من مؤسسي التحليل النفسي، وقد تبادل وإياه مراسلات مطولة إلى أن كانت القطيعة بينهما عام ١٩١٤. «م».

تركيز الانتباه، يمكن أن تكون عسفية أو اعتباطية مئة بالمئة وغير ذات صلة بالتصور المنسيّ الذي نجدّ في إثره. وإن لم تكن مطابقة له، فعلّة ذلك ترجع إلى الحالة النفسية المفترضة. فثمة قوتان في المريض تمارس الواحدة منهما مفعولها ضد الأخرى. فهناك من جهة أولى المجهود المتبصِّر الذي يبذله ليُرجِع إلى الوعي الأشياء المنسية، لكن الكامنة في لاشعوره، وهناك من الجهة الثانية المقاومة التي وصفتها لكم والتي تعترض سبيل عودة العناصر المكبوتة إلى الشعور. فإن كانت هذه المقاومة معدومة أو واهنة جداً، صار الشيء المنسي شعورياً بدون أن يتشوه، وهذا ما كان يبيح لنا الافتراض بأن تشويه العنصر المنشود يكون أعظم كلما كانت معارضة انتقاله إلى الشعور أقوى. وعليه، إن الفكرة التي تخطر في ذهن المريض بدلاً من الفكرة التي نسعى إلى تذكيره بها لها بحدّ ذاتها دلالة العرَض. فهي بديل جديد، مصطنع وعابر، عن الشيء المكبوت، وشبهها به يكون أكثر ضآلة كلما كان تشويهها، بفعل المقاومة، أكبر. ولكن لا محيص من أن يكون هناك بعض الشبه بينها وبين العنصر المنشود، وذلك ما دامت بمثابة عرض؛ وإذا لم تكن المقاومة أقوى مما ينبغي فلا بدّ أن يكون في الإمكان التكهن، انطلاقاً من الفكرة العارضة، بطبيعة العنصر المنشود المصرّ على التواري. فالفكرة العارضة التي تبزغ في ذهن المريض هي، بالنسبة إلى العنصر المكبوت، أشبه بكناية، أشبه بترجمة له إلى لغة أخرى.

إننا نعرف في الحياة النفسية السوية أوضاعاً مشابهة تفضي إلى نتائج مشابهة. ومن هذا القبيل، على سبيل المثال، **النكتة**. وقد أرغمتني مشكلات التقنية التحليلية النفسية على الاهتمام أيضاً بتكوين النكتة[٢]. وسأضرب لكم على ذلك مثالاً.

يروى أن تاجرين عديمي الذمة، كانا قد وفِّقا إلى تحصيل ثروة طائلة عن طريق مضاربات مشبوهة، رغبا في أن يشقّا طريقهما إلى المجتمع الراقي. وقد تراءى لهما أنه من المفيد أن يقوم بتصويرهما رسام مشهور جداً ويتقاضى أعلى أجر في

---

٢ - يشير فرويد هنا إلى كتابه **النكتة وصلاتها باللاشعور**، الذي كتبه سنة ١٩٠٥. «م».

المدينة وتُعدّ لوحاته حدثاً جللاً من الأحداث. ونظّم المضاربان حفلة ساهرة كبرى لعرض تينك اللوحتين المرتفعتي الكلفة لأول مرة، واقتادا بنفسيهما ناقداً فنياً جهبذاً ونافذ القول إلى أمام جدار البهو الذي عُلِّقت فيه اللوحتان، واحدتهما بجانب الأخرى لينتزعا منه حكم إعجاب وتقدير. وتأمّل الناقد اللوحتين ملياً، ثم هزّ رأسه كما لو أنه يأسف لافتقاد شيء ما، ثم اكتفى بأن يتساءل وهو يشير إلى المكان الفارغ بين اللوحتين: «أين هو المخلِّص؟»[٣].

إنني أرى أن هذا الدعابة قد أضحكتكم، فلنحللها إذاً. بديهي أن الناقد المتضلع بالفن قصد أن يقول: «ما أنتما إلا لصان، مثلكما مثل ذينك اللذين صُلب بينهما يسوع المسيح». يبدو أنه لم يقل ذلك. بل قال شيئاً آخر قد يبدو للوهلة الأولى غريباً تماماً، غير مفهوم، ولا صلة له بالباقي. بيد أن المرء لا يلبث أن يستشفّ في ذلك التساؤل الصادر عن الناقد الفني دلائل ازدرائه. فهو ينوب مناب مسبّة، وله قيمتها ودلالتها نفسها: إنه بديل عنها.

صحيح أننا لا نستطيع أن نغلو في مقايستنا بين النكتة وبين تداعيات الخواطر لدى مرضانا، لكن من اللزام علينا أن ننوّه بصلة القربى التي يمكن أن نلحظها بين الحوافز العميقة لنكتة ما وبين البواعث التي تدفع بفكرة عارضة ما إلى الانبجاس في وعي المرضى أثناء استجوابهم. لماذا لم يوجّه صاحبنا الناقد كلامه إلى المحتالين ليقول لهما ما كان يريد قوله مباشرة؟ لأنه كانت لديه، بالإضافة إلى رغبته في مصارحتهما القول، دوافع معاكسة وجيهة كانت تفعل فعلها فيه. فالأمر لا يخلو من خطر أن يهين المرء أناساً وهو نازل في ضيافتهم، وعندهم ما عندهم من الخدم من ذوي السواعد المفتولة. وقد رأينا في محاضرتنا السابقة أن المشاغبين ومثيري الجلبة والخارجين على المواضعات الاجتماعية سرعان ما يتمّ «كبتهم». لهذا يحاذر ناقدنا الفني أن يكون صريح القول، فيعمد إلى تمويه إهانته في شكل تورية. وكذلك الحال، لدى مرضانا، بالنسبة إلى تلك **الخواطر العارضة** التي ترد إلى خاطرهم بدلاً عن العنصر المنسي المنشود والتي لا تعدو أن تكون تنكيراً وتمويهاً لهذا الأخير.

٣ ـ بالإنكليزية في النص. «المخلِّص» هو لقب المسيح. وموضع النكتة هنا أن المسيح كان صُلب، طبقاً للرواية المعتمدة في التراث المسيحي، بين لصّين. «م».

سيداتي سادتي، لنحذُ حذو مدرسة زوريخ (بلولر، يونغ، إلخ)[٤] ولنطلق اسم **العقدة** على كل مجموعة من العناصر التصورية المترابطة فيما بينها والمشحونة **وجدانياً**. فإذا ما انطلقنا، في بحثنا عن عقدة مكبوتة، من آخر الذكريات التي لا تزال في جعبة المريض، أمكننا أن نصل إلى مبتغانا بشرط أن يزوِّدنا بعدد كافٍ من تداعياته العارضة الحرة. ونحن ندع المريض يتكلم كما يحلو له، طبقاً لفرضيتنا التي تقول إنه لا يمكن أن يخطر في باله شيء بدون أن تكون له صلة ولو غير مباشرة بالعقدة المنشودة. قد تبدو لكم هذه الطريقة لاكتشاف العناصر المكبوتة معقدة أكثر مما ينبغي، لكن بوسعي أن أؤكد لكم أنها وحدها القابلة للتطبيق.

قد يحدث أحياناً أن تبدو هذه التقنية وكأنها أخفقت: فالمريض يتوقف فجأة، ويتردّد، ويزعم أنه ليس لديه ما يقوله، وأنه لا يخطر في ذهنه خاطر البتة. ولو صحّ أن الأمر لكذلك حقاً، لكان هذا معناه أن طريقتنا متعذرة التطبيق. بيد أن الملاحظة الدقيقة تبيِّن أن مثل ذلك التوقف في التداعيات العارضة لا يحدث أبداً. وكل ما هنالك أن هذه التداعيات تظهر وكأنها قد عُلِّقت لأن المريض يمسك أو يحذف الفكرة التي خطرت له، تحت تأثير مقاومات تلبس شكل أحكام نقدية على قيمة هذه الفكرة. ومن الممكن تحاشي هذه العقبة بتنبيه المريض مقدماً إلى احتمال صدور مسلك كهذا عنه والطلب إليه ألا يقيم اعتباراً لمثل هذا النقد. فعليه أن يتخلى عن كل اختيار نقدي من هذا القبيل وأن يجهر بكل ما يرد إلى خاطره، حتى ولو تراءى له أنه غير صحيح، أو خارج عن الموضوع، أو بله سخيف ولامعقول، وعلى الأخص إذا كان من المستكره عليه أن يشغل فكره بمثل تلك الفكرة العارضة. فإذا ما صدع لهذه القواعد، زوّدنا بالمادة التي ستفتح لنا الطريق إلى العقد المكبوتة.

إن هذه الخواطر العارضة العفوية التي يردّها المريض باعتبارها تافهة، إذا ما قاوم

---

٤ ـ مدرسة زوريخ: هي المدرسة الطبية النفسية التي أسسها يوجين بلولر وضمّت كلاً من كارل غوستاف يونغ وكارل أبراهام ولودفيغ بنسفانغر والتي تحولت لاحقاً، بعد انشقاق يونغ، إلى مدرسة لعلم النفس التحليلي. «م»

الطبيب بدل أن ينصاع له، تمثّل بالنسبة إلى المحلل النفسي، بنوع ما، الفلزات التي سيستخلص منها المعدن الثمين بمحض تقنيات تأويلية. وإذا شاء أحدكم أن يكوّن بسرعة فكرة مؤقتة عن العقد التي يكبتها المريض، بدون أن يهتمّ بعد بترتيبها وبعلاقاتها، فبوسعه اللجوء إلى **اختبار التداعيات** كما وضع قواعده يونغ وتلاميذه[٥]. وهذا النهج يؤدي للمحلل النفسي من الخدمات بقدر ما يؤديه منها للكيمياوي التحليلُ النوعي. وقد يكون من الممكن الاستغناء عنه في معالجة الأمراض العصابية، لكن لا غنى عنه في البرهنة الموضوعية على العقد وفي دراسة ضروب الذهان Psychose، هذه الدراسة التي كانت قد شرعتْ بها بقدر كبير من النجاح مدرسة زوريخ.

ليس تمحيص الخواطر العارضة، التي ترد إلى ذهن المريض عفواً في حال انصياعه لقاعدة التحليل النفسي الرئيسية، هو الوسيلة التقنية الوحيدة المتاحة لنا لسبر غور اللاشعور. فثمة نهجان آخران يؤديان الهدف عينه: تأويل أحلامه وتأويل هفواته.

أعترف لكم، أيها المستمعون الأعزاء والمبجّلون، بأنني تساءلت مطوّلاً بيني وبين نفسي عما إذا كان لا يحسن بي، بدل أن أقدِّم لكم في خطوط عريضة لمحة إجمالية عن التحليل النفسي، أن أعرض لكم بالتفصيل **تأويل الحلم**[٦]. وقد أمسكت عن ذلك لدافع شخصي وثانوي الأهمية ظاهرياً. فقد بدا لي أنه من غير المناسب أن أقدِّم نفسي على أنني «مفسِّر منامات» في هذا البلد المشغول بأهداف عملية، قبل أن تعرفوا مدى الأهمية التي يمكن أن يرتديها هذا الفن الزريّ المتخلف. وفي الواقع، إن تأويل الأحلام هو أسهل طريق إلى معرفة اللاشعور، وأوثق ركيزة لأبحاثنا وآمن أساس لها، ودراسة الأحلام هي التي ستقنعكم أكثر من أي دراسة أخرى بقيمة التحليل النفسي وستؤهلكم لمزاولته. حين يسألني سائل كيف يمكن للمرء أن يصبح محللاً نفسياً أجيبه: عن طريق

---

٥ - يونغ: **دراسات حول التداعيات برسم التحليل**، م١، ص ١٩٠٦.

٦ - **تأويل الحلم**: من أشهر كتب فرويد وأضخمها، كتبه سنة ١٩٠٠. وقد اشتهر في العربية بـ «**تفسير الأحلام**» مع أنه في الأصل الألماني بصيغة المفرد. «م».

دراسة الأحلام التي يحلمها هو نفسه. إن المشنِّعين علينا لم يولوا قط تأويل الأحلام الانتباه الذي يستأهله، أو حاولوا إدانته بحجج هي من السطحية في منتهاها. والحال أنكم لو تقبلتم، على العكس، بالحلول المقترحة لمعضلة الحلم، لما عادت المستجدات التي يجابه بها التحليل النفسي فكركم تنطوي على أي إشكال.

يجدر بكم هنا أن تلاحظوا أن منتجاتنا الحلمية الليلية تدلل من جهة أولى على أكبر قدر من التشابه الخارجي وعلى أكبر قدر من القرابة الداخلية مع منتجات الأمراض النفسية، ولكن من دون أن تتنافى من جهة مقابلة مع الصحة والعافية التامة في حياة اليقظة. أما ذاك الذي يكتفي بإبداء دهشته وعدم تفهمه إزاء الأوهام الحسية والأفكار الهذائية والتقلبات «السوية» التي تطرأ على طبع النائم أثناء الحلم، فلن تتاح له أي فرصة لفهم الإنتاجات غير السوية للأحوال النفسية المرضية إلا كما يفهمها العامة. وقد يكون من حقكم اليوم أن تدرجوا بكل ثقة في عداد هؤلاء العامة جميع الأطباء النفسيين بلا استثناء تقريباً.

تابعوني الآن في إلقاء نظرة سريعة على مضمار مشكلات الحلم.

لقد جرت بنا العادة، عندما نستيقظ، على معاملة أحلامنا بازدراء مماثل لذاك الذي يساور المريض إزاء الخواطر العارضة التي يستثيرها المحلل النفسي لديه. فنحن نحكم عليها بتناسٍ سريع وتام، كما لو أننا نريد التخلص بأسرع ما يمكن من ذلك الركام من الأفكار المفككة المتنافرة. ويتأتى ازدراؤنا من الطابع الغريب الذي تتلبسه لا الأحلام السخيفة واللامعقولة فحسب، بل أيضاً الأحلام التي ما هي بكذلك. ونفورنا من الاهتمام بأحلامنا يمكن تعليله بالميول الفاسقة واللاأخلاقية اللامكبوتة التي تتظاهر جهاراً في بعض هذه الأحلام ـ ومعلوم أن الأقدمين ما كانوا يبدون مثل هذا الازدراء، وإلى اليوم لا تزال الطبقة الدنيا من شعبنا فضولية إزاء الأحلام فتطلب منها، نظير ما كان يفعل الأقدمون، أن تكشف حجب المستقبل.

أسارع إلى تطمينكم إلى أنني لن أستنجد بالمعتقدات الروحانية لسدّ الثغرات في معرفتنا الراهنة بمسألة الحلم، وأنا على كل حال لم ألحظ قط ما يؤيد القيمة

التنبؤية للمنامات. لكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نقول عن الأحلام أشياء كثيرة من نوع آخر، قد تكون مدهشة هي الأخرى.

بادئ ذي بدء ليست الأحلام جميعها غريبة بالنسبة إلى الحالم وغامضة وغير مفهومة. ولو جشَّمتم أنفسكم مشقّة تمحيص أحلام الأطفال الصغار، بدءاً بمن هم في العام ونصف العام من العمر، لوجدتموها بسيطة منتهى البساطة وقابلة للتفسير بسهولة. فالطفل الصغير يحلم على الدوام بتحقيق رغبات ولَّدها فيه النهار السابق بدون أن يشبعها. ولا حاجة بنا إلى أي فن من فنون العرافة لنهتدي إلى هذا الحل البسيط، بل حسبنا أن نعرف ما عاشه الطفل في النهار السابق. وسننتهي إلى حلٍّ مرضٍ للغز إذا ما تمكَّنا من أن نثبت أن أحلام الراشدين ما هي، نظير أحلام الأطفال، إلا تحقيق لرغبات اليقظة. والحال أن هذا بالضبط ما يحدث. والاعتراضات التي تثيرها هذه الرؤية للأمور تتلاشى في حال تعميق تحليلنا للأحلام.

هاكم أول هذه الاعتراضات وأهمّها: إن أحلام الراشدين هي في غالب الأحيان ذات مضمون غير مفهوم ولا تشبه من قريب أو بعيد تحقيقاً لرغبة. لكن جوابنا على ذلك هو أنها تعرضت لتشويه، لتنكير. وأصلها النفسي **مختلف** جدّ الاختلاف عن تعبيرها عن نفسها في الحلم. واجب علينا إذاً أن نميِّز بين أمرين: من جهة أولى الحلم كما يتبدى لنا، كما نستذكره صباحاً، بإبهامه الشديد الذي كثيراً ما يشقّ معه علينا أن نرويه وأن نترجمه إلى كلمات، وهذا ما نسمِّيه **المضمون الظاهر للحلم**، ومن الجهة الثانية، هناك مجمل **الأفكار الحلمية الكامنة** التي لا مفرّ لنا من التسليم بوجودها في اللاشعور. وهذا التحريف في الحلم هو عملية مطابقة تماماً لتلك التي بتُّم تعرفونها الآن من خلال ما تقدَّم بنا إيضاحه عن تكوين الأعراض الهستيرية. ينجم إذاً تكوين الأحلام عن تناحر بين القوى النفسية مماثل لذاك الذي يؤدي إلى تكوين الأعراض المرَضية. فـ «المضمون الظاهر» للحلم هو البديل المحرَّف لـ «الأفكار الكامنة»، وهذا التحريف هو من صنع قوى «الأنا» الدفاعية، وهو ينشأ عن مقاومات تحظِّر على كل حال تحظيراً باتاً على رغبات اللاشعور المكبوتة أن تجتاز عتبة الوعي في حياة اليقظة. لكن هذه

القوى تبقى، بالرغم من الوهن الذي يطرأ في أثناء النوم، مقتدرة بما فيه الكفاية لتفرض على الرغبات قناعاً يحجبها ويخفيها. وهكذا يعجز الحالم عن فكّ معنى أحلامه عجز المهستر عن النفاذ إلى مدلول أعراضه المرَضية.

حتى يقتنع المرء بوجود «أفكار الحلم الكامنة» وبواقعية صلتها بـ «المضمون الظاهر للحلم»، لا بدّ له أن يزاول تحليل الأحلام، وتقنية هذا التحليل هي عينها التقنية التحليلية النفسية التي تقدم الكلام عنها. ومؤداها، أولاً، أن يصرف المحلل النظر تماماً عن ترابطات الأفكار التي يبدو «المضمون الظاهر» للحلم وكأنه ينطوي عليها، وأن يعكف من ثم على اكتشاف «الأفكار الكامنة» من خلال تجميع الأفكار العارضة التي تنبثق، وفق مبدأ التداعي الحرّ كما تنصّ عليه قاعدة العمل في التحليل النفسي، عن كل عنصر من عناصر الحلم على حدة. وانطلاقاً من هذه المادة يتأتّى لكم أن تحزروا فحوى أفكار الحلم الكامنة، تماماً كما يتأتّى لكم أن تحزروا، انطلاقاً من أفكار المريض العارضة كما تتظاهر في أعراضه وذكرياته، طبيعة عقده الخفيّة. إن تلك «الأفكار الحلمية الكامنة»، التي تؤلف المعنى العميق والواقعي للحلم، تظهِر للعيان، متى ما أميط اللثام عنها، مدى مشروعية إرجاع أحلام الراشدين إلى نمط أحلام الأطفال. وبالفعل، حسبنا أن نستبدل «مضمون الحلم الظاهر» الشديد التنافر بمعناه العميق الحقيقي حتى يتوضح كل شيء ويستبين؛ وعندئذ نتبين أن شتى تفاصيل الحلم ترتبط بالانطباعات الحياتية لليوم السابق، ويتبدى مجمل الحلم على أنه تحقيق لرغبة غير مشبعة. من الممكن إذاً اعتبار «مضمون الحلم الظاهر» تحقيقاً **منكّراً** لرغبات **مكبوتة**.

بوسعكم الآن أن تتوصلوا، عن طريق ضرب من عمل تركيبي، إلى فهم المسار الذي تأدى إلى تحريف أفكار الحلم اللاشعورية لتأخذ شكل مضمون ظاهر للحلم. فأنا أطلق اسم «عمل الحلم» على مجمل هذه العملية. وهي تستأهل استقطاب كامل اهتمامنا النظري، لأننا نستطيع أن ندرس فيها تحديداً، على نحو لا يتاح لنا نظيره في أي مضمار آخر، ما السيرورات النفسية اللامتوقعة التي يمكن أن تدور في اللاشعور، أو بتعبير أدق بين نسقين نفسيين متمايزين نظير الشعور واللاشعور. ويجدر التنويه هنا

بسيرورتين اثنتين من بين سائر تلك السيرورات: **التكثيف والإزاحة**. وعمل الحلم هو حالة خاصة من الفعل المتبادل لمختلف المجموعات النفسية، أي كنتيجة لانفلاق نفسي. وهذا العمل مماثل في جوهره لعمل التشويه والتحريف الذي يحوّل العقد المكبوتة إلى أعراض في حال إخفاق الكبت.

علاوة على ذلك، ستأخذكم الدهشة متى ما اكتشفتم في تحليل الأحلام، وبخاصة تحليل أحلامكم، الأهمية اللامنتظرة التي ترتديها الانطباعات والتجارب المعاشة في السنوات الأولى من الطفولة. فعن طريق الحلم، يواصل الطفل حياته في الراشد، بخصوصياته ورغائبه، بما فيها تلك الرغائب التي باتت غير ذات نفع أو جدوى. فمن الطفل، الذي كانت ملكاته تختلف أيما اختلاف عن طاقات الراشد السوي، خرج هذا الأخير. ولكن كم كان الثمن الذي يتعيَّن على هذا الإنسان السوي أن يدفعه، من خلال شتى ضروب التطور والكبت والإسماء وردود الفعل النفسية، لكن يكوِّن نفسه رويداً رويداً، هو المستفيد ـ وكذلك، وإلى حدٍّ ما، الضحية ـ من تربية وثقافة لم يكتسبهما إلا ببالغ العسر والمشقة!

أودّ أيضاً أن ألفت انتباهكم إلى الواقعة التالية: فلقد وجدنا، من خلال تحليل الأحلام، أن اللاشعور يستخدم، وعلى الأخص في تمثيل العقد الجنسية، رمزية معينة قد تختلف وتتنوع أحياناً من شخص إلى آخر، لكنها تتميز أيضاً بسمات عامة وترتدّ إلى أنماط بعينها من الرموز، تبدو لنا مطابقة للرمزية التي تكمن، على ما يتبدى لنا، في أساس أساطيرنا وحكاياتنا. وليس من المستحيل أن تجد منتجات خيال الشعوب هذه تفسيرها بدورها انطلاقاً من الحلم.

لقد اعترض بعضهم على نظريتنا القائلة بأن الحلم تحقيق لرغبة متذرعاً بأحلام الحصر. وأني لألحف عليكم بالرجاء بألا تولوا هذا الاعتراض بالاً. فعلاوة على أن هذه الأحلام الحصرية تحتاج إلى التأويل قبل أن يغدو في المستطاع الحكم عليها، لا بدّ أن نقول إن الحَصَر Angoisse بوجه عام لا يقتصر على مضمون الحلم فقط، كما قد يخيَّل للمرء إذا ما كان جاهلاً بطبيعة الحصر العصابي. فالحصر عبارة عن رفض يجابه به «الأنا» الرغبات المكبوتة وقد أضحت قوية عاتية، لهذا يكون مثوله في الحلم قابلاً كل القابلية للتفسير إذا كان تشكيل الحلم

قد وضع نفسه على أتمّ نحو في خدمة تحقيق تلك الرغبات المكبوتة.

أنتم ترون أن استكشاف ماهية الحلم يجد تبريره سلفاً بما يقدمه من توضيحات بصدد الوقائع التي كان سيصعب، لولا ذلك، فهمها. والحال أننا ما توصّلنا إلى ذلك الاستكشاف إلا في سياق المعالجة التحليلية النفسية للعصابيين. وبموجب ما قلناه حتى الآن، يسهل عليكم أن تدركوا أن تأويل الحلم، إذا لم تنصب دونه مقاومات المريض عقبات كأداء، يفضي إلى اكتشاف الرغبات الخفية والمكبوتة، وكذلك العقد التي تغذّيها. بوسعي إذاً الانتقال إلى الفئة الثالثة من الظاهرات النفسية التي غدت دراستها بالنسبة إلى التحليل النفسي أداةً تقنيةً.

أعني هنا جميع أفعال الحياة اليومية التي لا تقع تحت عدّ والتي نصادفها سواء لدى الأفراد الأسوياء أو لدى العصابيين والتي لا نوليها في العادة أية دلالة أو أهمية، كنسيانهم أشياء يُفترض أن تكون لهم بها معرفة أو هم على معرفة فعلية بها (على سبيل المثال، النسيان المؤقت لأسماء الأعلام) وزلات اللسان الكلامية[٧] التي كثيراً ما نقع فيها نحن أنفسنا، وكبوات القلم[٨]، وأخطاء القراءة، والأفعال الخرقاء في النشاط اليومي، وفقدان الأشياء أو كسرها، إلخ، وكلها أمور لا يعزى إليها عادة أي سبب سيكولوجي بل تُعدّ مجرد نتائج للمصادفة وعواقب للشرود وعدم الانتباه، إلخ. وإلى ذلك تنضاف أيضاً الأفعال والحركات التي يأتيها الناس من غير أن ينتبهوا لها، ومن غير أن يعزوا إليها بالأولى دافعاً نفسياً: كأن يلعب المرء بالأشياء بصورة آلية، وأن يدندن بالألحان، وأن يعبث بأصابعه أو بملابسه، إلخ[٩]. هذه الأمور الصغيرة، أي **الهفوات والأفعال الأعراضية والأفعال العارضة** على حدّ سواء، ليست عارية من الأهمية إلى الحدّ الذي يميل الناس إلى التسليم به بموجب ما يشبه الاتفاق الضمني. ذلك أن لها معنى، ومن اليسير في معظم الأحيان تأويلها بدءاً من الموقف الذي تطرأ فيه. وعندئذ نكتشف أنها تعبّر، هي الأخرى، عن حفزات وعن

٧ - Lapsus Linguae.

٨ - Lapsus Calami.

٩ - من الممكن الرجوع إلى تفاصيل ذلك في كتاب فرويد: **علم النفس المرضي للحياة اليومية**، وقد كتبه سنة ١٩٠١. «م».

نيات ومقاصد يريد الإنسان أن يحجبها ويواريها عن وعيه، أو أنها نابعة من نفس تلك النوازع الرغبية والعقد المكبوتة التي تأتّى لنا أن نتعرَّفها كخالقة للأعراض المَرضية وصائغة للأحلام. إنها تستأهل إذاً أن نعتبرها أعراضاً، ومن شأن الاهتمام الذي نوليها إياه، كمثل ذاك الذي نوليه للأحلام، أن يقودنا إلى أن نكتشف ما هو خبيء في الحياة النفسية. فعن طريقها يفصح الإنسان بصفة عامة عن أسراره وخفاياه الحميمة. وإن تكن مألوفة ومتواترة حتى لدى أصحاء الناس الذين أفلحوا في كبت نوازعهم اللاشعورية، فمردّ ذلك إلى طفافتها وخفّتها الظاهرية. لكن قيمتها النظرية كبيرة، وذلك ما دامت تثبت لنا وجود الكبت وتشكيل البدائل، حتى لدى الأشخاص المعافين.

لقد لاحظتم، ولا بدّ، أن المحلل النفسي يتميز بإيمانه بجبرية الحياة النفسية. فليس في هذه الحياة عسف أو مجانية في نظره، بل هو يتخيَّل سبباً خاصاً حيثما لا يخطر لأحد غيره عادة أن يفترض وجوده. بل أكثر من ذلك: فهو كثيراً ما يستعين بأسباب عدة، **بتعليل متعدد**، ليفسِّر ظاهرة نفسية ما، بينما جرت العادة لدى غيره على المجاهرة بالقناعة والرضى متى ما وجد علة واحدة لكل ظاهرة سيكولوجية.

اجمعوا الآن جميع الوسائل التي بحوزتنا والتي من شأنها أن تساعدنا على اكتشاف المخفي والمنسي والمكبوت في الحياة النفسية: دراسة التداعيات التي تبزغ عفوياً في ذهن المريض، دراسة أحلامه وفلتاته وهفواته، ودراسة أفعاله الأعراضية بشتى أنواعها، ثم أضيفوا إليها الفائدة التي يمكننا استخلاصها من دراسة ظاهرات أخرى تحدث أثناء المعالجة التحليلية النفسية ـ وسأبدي بصددها بعض ملاحظات لاحقاً حين سأتكلم عما سنطلق عليه اسماً عاماً هو «التحويل». فإذا فعلتم ذلك خلصتم إلى الاستنتاج معي بأن تقنيتنا هي الآن ناجعة بما فيه الكفاية لإعادة العناصر النفسية الإمراضية إلى الوعي ولإزالة الأدواء والأوصاب الناشئة عن تكوين أعراض بديلة. ونحن نرى بأمِّ عيننا، وهذا ما يغبطنا، أن جهودنا العلاجية أدت أيضاً إلى إغناء معارفنا النظرية حول الحياة النفسية، السوية والمَرضية على حدّ سواء.

لست أدري إن كان خالجكم شعور بأن التقنية التي وصفت لكم ترسانتها

بالغة الصعوبة. وما أعتقده شخصياً هو أنها متلائمة كل التلاؤم مع موضوعها. غير أن هذه التقنية ليست جليّة بيّنة بحدّ ذاتها، بل لا بدّ من تعلّمها، شأنها شأن التقنية الهستولوجية[١٠] أو الجراحية. وقد يدهشكم أن تعلموا أنها قوبلت بالإدانة من قبل بعض الأشخاص ممن لا يعرفون شيئاً عن التحليل النفسي ولا يستخدمونه، وممن يطالبوننا، على سبيل السخرية والتهكم، بأن نثبت لهم صحة نتائجنا. صحيح أنه يوجد بين هؤلاء الأخصام أناس اكتسبوا عادة التفكير العلمي، ومن ثم إنهم لن يبادروا، على سبيل المثال، إلى رفض نتائج بحث مجهري لمجرد أنه يستحيل التحقق من صحتها عن طريق فحص المستحضر التشريحي بالعين المجردة، ولن يقدموا على كل حال على إبداء رأي قبل أن يدرسوا بأنفسهم الشيء بواسطة المجهر. لكن صحيح أيضاً أن التحليل النفسي يجد نفسه في وضع خاص، مما يعقّد السبيل أمامه إلى الفوز بالاستصواب والاستحسان. وبالفعل، ماذا يريد المحلل النفسي؟ أن يرجِع إلى سطح الشعور كل ما طُرد منه وكُبت. والحال أن كل واحد منا قد كبت كثيراً من الأشياء، ولعله لا يمسكها في لاشعوره إلا بلأي ومشقة. لذا نرى التحليل النفسي يستثير، لدى أولئك الذين يطرق اسمه أسماعهم، عين المقاومة التي يستثيرها لدى المرضى. ذلك هو، في أرجح الظن، مصدر المعارضة العنيفة، الغريزية، التي قُيِّض لعلمنا أن يستثيرها. وهذه المقاومة لا تلبث أن تتقنع بقناع المعارضة العقلية، فتتمخض عن حجج مشابهة لتلك التي ندفعها عنا لدى مرضانا بواسطة القاعدة التحليلية النفسية الأساسية. وبالفعل، ليس من الصعب أن نلاحظ أن ملَكة الحكم لدى أخصامنا، كما لدى مرضانا، غالباً ما تتأثر بدوافع عاطفية محض، ومن هنا كان ميلهم إلى القسوة والصرامة. وغرور الوعي، الذي ينبذ باحتقار شديد الحلم على سبيل المثال، هو واحدة من العقبات الكأداء التي تحول دون استكناه العقد اللاشعورية. لهذا كان من بالغ العسر أن نقنع الناس بواقعية اللاشعور وأن نعلمهم شيئاً جديداً يناقض معرفتهم الشعورية.

---

١٠ ـ الهستولوجيا: علم الأنسجة البيولوجية. «م».

- ٤ -

سيداتي سادتي، لننظر الآن في ما أتاحته لنا الطرائق التقنية التي تقدم وصفي لها من معلومات عن العقد الإمراضية Pathogènes وعن الحاثات الرغبية المكبوتة لدى العصابيين.

أول اكتشاف يقودنا إليه التحليل النفسي هو أن الأعراض المرَضية ترتبط، بصورة مطردة، بحياة المريض الحبية، وهو يبيِّن لنا أن الحاثات الرغبية الإمراضية هي من نفس طبيعة المقوِّمات الإيروسية، ويرغمنا على اعتبار اضطرابات الحياة الجنسية علة من أخطر علل المرض.

أعرف أن هذا الرأي لن يلقي القبول بيسر. وحتى العلماء الذين يهتمون بأعمالي السيكولوجية يميلون - بعضهم على الأقل - إلى الاعتقاد بأنني أبالغ في الدور الإتيولوجي للعامل الجنسي. إنهم يقولون لي: لماذا لا تؤدي تنبيهات نفسية أخرى أيضاً إلى حدوث ظاهرتي الكبت وتشكيل البدائل على نحو ما وصفت؟ وجوابي عليهم أنني لا أنكر احتمال ذلك ولا أنفيه مسبقاً، لكن التجربة تدل أن ليس كذلك هو واقع الحال. التجربة تثبت أن النوازع التي من أصل غير جنسي لا تلعب دوراً كهذا، وأن أقصى ما بمستطاعها هو أن تعزز أحياناً تأثير العوامل الجنسية، لكن من غير أن تنوب منابها أبداً. إنني لا أؤكد هنا مسلَّمة نظرية؛ فحين نشرت في عام ١٨٩٥ مع الدكتور ج. بروير **دراسات في الهستيريا**، ما كنت أعتنق بعد هذا الرأي! بل وجدتني محمولاً على الأخذ به لاحقاً بعد العديد من التجارب المفحمة.

أيها السادة، إن بعضاً من أصدقائي وأقرب أتباعي إلى نفسي، ممن هم حاضرون في صفوفكم، قد رافقوني في الرحلة إلى ورسستر[1]. فاستعلموا منهم

---

١ - ورسستر: هي المدينة الأميركية (ولاية ماساسوشتس) التي تقع فيها جامعة كلارك التي دعي فرويد إلى إلقاء محاضراته الخمس فيها. وكان في عداد من رافقوه كارل غوستاف يونغ وساندور فيرنزي وإرنست جونز.«م».

لتروا أنهم جميعاً بدؤوا في أول الأمر بالتدليل على عدم تصديق مطبق تجاه ما أذهب إليه من دلالة حاسمة للإتيولوجيا الجنسية - وهم لم يغيّروا موقفهم ويتبنوا بدورهم هذا الرأي إلا بعد أن أرغمتهم على ذلك تجاربهم التحليلية المفحمة. والحق أن موقف المرضى لا يكاد يسمح بإثبات صحة ادعائي. فبدلاً من أن يساعدونا على فهم حياتهم الجنسية يسعون، على العكس، إلى إخفائها بكل الوسائل. والناس بوجه عام غير صادقين مع أنفسهم في هذا المضمار. ومظهرهم ليس كباطنهم، بل هم يتدثرون بمعطف سميك من الأكاذيب لتغطية أنفسهم كما لو أن الطقس رديء في عالم الحياة الجنسية. وهم في ذلك غير مخطئين: فالشمس والريح لا توائمان النشاط الجنسي في مجتمعنا. وبالفعل، لا يستطيع أي منا أن يميط اللثام لأقرانه، بملء الحرية، عن إيروسيته. لكن حين يبدأ المرضى بالاعتياد على المعالجة التحليلية النفسية ويرتاحون إليها، ينفضون عنهم معطفهم المنسوج من الأكاذيب، ويغدو في مستطاعهم عندئذ أن يكوّنوا رأياً عن المسألة موضوع بحثنا. ومن دواعي الأسف أن الأطباء ليسوا في وضع أفضل من سائر بني البشر من منظور الطريقة التي ينبغي أن تعالج بها أمور الحياة الجنسية، والكثيرون منهم واقعون تحت تأثير الموقف الذائع في الأوساط المسماة بـ«المثقفة»، وهو موقف لحمته التحشم وسداه التهتك.

اسمحوا لنا بمتابعة عرض نتائجنا. في مجموعة أخرى من الحالات يقوم المبحث التحليلي النفسي بإرجاع الأعراض لا إلى أحداث جنسية، بل إلى أحداث رضّية عادية. لكن هذا التمييز تنعدم دلالته نتيجة لظرف خاص. فالعمل التحليلي اللازم لتفسير مرض من الأمراض ولإزالته لا يتوقف أبداً عند التجارب المعاشة في زمن الدخول في المرض، بل يواصل التنقيب وصولاً إلى سنّ البلوغ وإلى طفولة المريض الأولى حيث يلتقي الخبرات والانطباعات التي تأدت إلى تظاهر المرض لاحقاً. وإنما باكتشاف خبرات الطفولة هذه يمكن تفسير الحساسية إزاء الرضات اللاحقة، كما أننا عندما نعيد إلى الوعي هذه الذكريات المنسية بوجه عام نفلح في إزالة أعراضها. وبذلك نتوصل هنا إلى عين النتائج التي نتوصل إليها عند دراسة الأحلام، أعني أن الحاثات الرغبية

المكبوتة في الطفولة وغير القابلة للزوال هي التي تكون قد أعارت قوتها لتكوين الأعراض التي لولاها لسلك ردّ الفعل على الرضات اللاحقة مساراً سوياً. والحق أنه من حقنا أن نصف هذه الحاثات الرغبية القوية العائدة إلى زمن الطفولة بأنها، بصفة عامة، جنسية.

بيد أنني أحزر هنا ما ينتابكم من دهشة، وهي على كل حال دهشة طبيعية. فأنتم ستتساءلون: هل ثمة وجود إذاً **لجنسية طفلية؟** أليست الطفولة بالأحرى تلك المرحلة من الحياة التي ينعدم فيها كل دافع غريزي من هذا النوع؟ عن هذا السؤال سأجيبكم، سادتي: كلا، إن الدافع الغريزي الجنسي لا يدلف إلى الأولاد في زمن البلوغ (كما يدلف الشيطان في الإنجيل إلى الخنازير)[٢]. بل تتبدى لدى الطفل منذ نعومة أظفاره تظاهرات هذه الدوافع الغريزية وأنشطتها الجنسية، وهو يحمل معه هذه النوازع ساعة يُنجَب فيها؛ وإنما من هذه البذور الأولى تخرج جنسية الراشد المسماة بالسوية عبر تطور كثير التقلبات ومتعدد المراحل. وليس من العسير أصلاً ملاحظة تظاهرات هذا النشاط الجنسي الطفلي، ولا بدّ أن يكون لدى المرء مقدار غير قليل من الاستعداد المسبق كي يمتنع عن رؤية تلك التظاهرات أو كي يتخلص منها عن طريق التأويل.

لقد شاءت محاباة القدر أن تتاح لي الإمكانية للاعتماد، في تأييد أطروحاتي، على شهادة شاهد متحدِّر من وسطكم بالذات. وأنا أحيلكم هنا إلى بحث نشره د. سانفورد بل Bell، في **المجلة الأميركية لعلم النفس** سنة ١٩٠٢، أي قبل ثلاثة أعوام من نشر كتابي **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**. وكاتبه هو أستاذ مكلَّف بالدروس في جامعة كلارك، أي عين المعهد الذي نحن متواجدون في حَرَمه الآن. ففي هذا البحث، الذي عنوانه **دراسة تمهيدية لانفعال الحب بين**

٢ ـ جاء في إنجيل مرقس، الإصحاح الخامس، أن المسيح لقيه عند القبور إنسان مجنون به روح نجِس، وطلب إليه أن يعتقه من الشيطان الذي يسكن في داخله، فخاطبه يسوع بقوله: «اخرج من الإنسان يا أيها الروح النجس». ولكن الشيطان لم يكن واحداً، بل كثرة، فطلبوا من يسوع أن يرسلهم إلى قطيع كبير من الخنازير كان يرعى هناك ليدخلوا فيها بدل الرجل. فلبى يسوع طلبهم للحال: «فخرجت الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر وكان نحو ألفين، فاختنق في البحر». وعاد المجنون، كما جاء في الإنجيل، إنساناً عاقلاً. «م».

الجنسين[٣]، انتهى مؤلفه إلى استنتاجات مماثلة لتلك التي عرضتها عليكم للتو. ألا فلنستمع إليه: «إن انفعال الحب الجنسي... لا يظهر للمرة الأولى في أثناء المراهقة، كما ساد الاعتقاد حتى الآن»[٤]. وقد اشتغل المؤلف، كما نقول نحن في أوروبا، وفق الطريقة الأميركية وجمع زهاء ٢٥٠٠ ملاحظة إثباتية على مدى فترة ١٥ عاماً، و٨٠٠ ملاحظة منها رصدها بنفسه. وبصدد أمارات تظاهر هذه النوازع قال: «إن العقل اللامتحيّز، إذ يرصد هذه الظاهرات لدى مئات الأزواج من الأطفال من كلا الجنسين، لا يملك إلا أن يردّها إلى أصل جنسي. ومهما يكن العقل شكاكاً، فلا بدّ أن يقتنع عندما تضاف إلى هذه التظاهرات اعترافات الأفراد الذين عرفوا في طفولتهم هذا الضرب من الانفعال، وبدرجة ما من الشدة، والذين حافظت ذكرياتهم عن طفولتهم على قدر من جلائها»[٥]. ولعل أولئك الذين لا يريدون من بينكم أن يؤمنوا بالجنسية الشهوية الطفلية سيدهشون أكثر من غيرهم فيما لو علموا أن عدداً لا بأس به من أولئك الأطفال الذين عرفوا الحب في زمن مبكر لا تزيد أعمارهم على ثلاث أو أربع أو خمس سنوات.

لقد أفلحت أنا نفسي، منذ فترة وجيزة، وبفضل تحليل غلام في الخامسة من العمر كان يشكو من الحصر (تحليل قام به والده بالذات بحسب القواعد)، أفلحت في الحصول على صورة ـ يمكن القول عنها إنها كاملة ـ عن التظاهرات البدنية والتعابير النفسية للحياة الحبية عند الطفل في واحد من الأطوار الأولى[٦]. وأبيح هنا لنفسي أن أذكّركم بأن صديقي الدكتور ك.غ. يونغ عرض لكم في هذه القاعة نفسها قبل بضع ساعات حالة طفلة أصغر عمراً أيضاً أفصحت، في مناسبة مماثلة لمناسبة مريضي (ولادة أخت صغيرة)، عن ميول شهوية وتشكيلات من الرغبات والعقد مماثلة. وأنا لا يخامرني شك في أنكم ستألفون هذه الفكرة، التي قد تبدو مستغربة للوهلة الأولى، فكرة الجنسية الطفلية، وسأضرب لكم مثالاً

٣ ـ بالإنكليزية في النص. «م».

٤ ـ بالإنكليزية في النص. «م».

٥ ـ بالإنكليزية في النص. «م».

٦ ـ تحليل **رهاب لدى صبي في الخامسة من العمر** [هانز الصغير] في **الأعمال الكاملة**، م ٧. «م».

على ذلك مثال الطبيب النفساني الزوريخي، ي. بلولر، الذي كان يردد علناً وجهاراً، قبل بضع سنوات لا أكثر، أنه «لا يفهم البتة نظرياتي الجنسية»، والذي ما لبث، بما توفَّر له من ملاحظات رصدها بنفسه، أن أكَّد وجود الجنسية الطفلية بكامل مداها[٧].

لئن أبى معظم الناس، من أطباء وغير أطباء، التسليم بهذه الجنسية، فإن تفسير ذلك ليس بالعسير عليّ. فتحت ضغط التربية نسوا التظاهرات الإيروسية لطفولتهم بالذات، وباتوا لا يرغبون في أن يذكِّرهم كائن من كان بما جرى كبته. ولقد كانت نظرتهم إلى الأمور ستختلف تماماً فيما لو جشَّموا أنفسهم مشقة استعادة ذكرياتهم الطفلية بواسطة التحليل النفسي، وفيما لو عادوا إلى استعراضها وحاولوا تأويلها.

كفاكم إذاً شكاً، وانظروا معي بالأحرى كيف تتظاهر هذه الجنسية الطفلية منذ السنوات الأولى[٨]. إن الدافع الغريزي الجنسي لدى الطفل بالغ التعقيد، وبوسعنا أن نميِّز في تركيبه عناصر عدة تنبع من مصادر متنوعة. وبادئ ذي بدء يكون مستقلاً عن الوظيفة التناسلية التي سيضع نفسه في خدمتها لاحقاً. وهو يفيد في تأمين ضروب شتى من الأحاسيس اللاذّة التي نصنِّفها في باب اللذة الجنسية قياساً على تشابهات وترابطات شتى. والمصدر الرئيسي للذة الجنسية الطفلية هو تنبيه بعض أجزاء الجسم البالغة الحساسية، خلا الأعضاء التناسلية، ومنها: الفتحات الفموية والشرجية والإحليلية، وكذلك البشرة ومساحات

٧ ـ ي. بلولر(*): **الانحرافات الجنسية لدى الأطفال** في مجلة الأبحاث السويسرية للعناية بالصحة المدرسية، العدد ٩، ١٩٠٨.

(*) يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩). اشتهر بإدخاله إلى المعجم الطبي النفسي مصطلح الفصام والتوحُّد الانطوائي. درس على جان مارتن شاركو في مستشفى سالبتريير بباريس وعمل في عيادة بورغولزلي للطب النفسي في زوريخ بسويسرا قبل أن يصير لاحقاً مديراً لها، حيث كان في عداد معاونيه كارل أبراهام وكارل يونغ. التقى فرويد عام ١٩٠٤ وحضر المؤتمر الأول للتحليل النفسي عام ١٩٠٨، وشارك في إنشاء **الجمعية التحليلية النفسية الدولية** عام ١٩١٠. من مؤلفاته: **الخبل المبكر لدى فئة الفصاميين، اكتشاف التوحُّد الانطوائي، التاريخ الطبيعي للنفس**. «م».

٨ ـ انظر: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، ١٩٠٥.

حساسة أخرى. هذا الطور من الحياة الجنسية الطفلية، الذي يلتذ فيه الطفل بواسطة جسمه بالذات ولا يكون فيه بحاجة إلى أي وسيط، نسمِّيه، بموجب المصطلح الذي نحته هافلوك إلِّيس Ellis[٩]، طور **الإيروسية الذاتية** Autoérotisme. أما تلك الأجزاء من الجسم المهيَّأة لتوفير اللذة الجنسية فنطلق عليها اسم **المناطق الشهوية** Zones Erogènes. ولنا في المصّ عند الأطفال الصغار أو الرضاعة مثال جيِّد على الإشباع الإيروسي الذاتي انطلاقاً من منطقة شهوية ما. وكان الراصد العلمي الأول لهذه الظاهرة، طبيب الأطفال لندنر Lindner[١٠] من بودابست، قد أوَّل هذه الوقائع من الأساس تأويلاً صائباً باعتبارها إشباعاً جنسياً، ووصف وصفاً شاملاً انتقال هذا الفعل الأولي إلى أشكال عليا أخرى من النشاط الجنسي[١١]. ومن مصادر الإثارة الجنسية الأخرى في ذلك الزمن المبكِّر الإثارة الاستمنائية للأعضاء التناسلية، هذه الإثارة التي تحافظ في الأطوار التالية من الحياة على أهمية كبرى والتي لا يتغلب عليها، بصورة عامة، بعض الأفراد تغلُّباً نهائياً بالمرة. وبالإضافة إلى هذه الأنشطة الإيروسية الذاتية، وإلى أنشطة أخرى مماثلة، تتظاهر لدى الطفل في زمن مبكر جداً تلك المقومات الغريزية للذة الجنسية، أو **الليبيدو** كما يحلو لنا أن نسمِّيها، التي تتطلب تدخل شخص آخر كموضوع. وتنقسم هذه الدوافع الغريزية إلى مجموعتين اثنتين، واحدتهما معاكسة للأخرى؛ الأولى منهما إيجابية والثانية سلبية؛ وأخصّ بالتسمية هنا من هذه الدوافع الغريزية: لذة الإيلام (السادية) ونقيضها السلبي (المازوخية)، لذة النظر ولذة الاستعراء (من

---

٩ ـ هافلوك إلِّيس: طبيب وعالم نفسي بريطاني (١٨٥٩ ـ ١٩٣٩). من مؤسسي العلم الجنسي. عانى من تزمت الأخلاق الفكتورية فنذر نفسه منذ السادسة عشرة من العمر لدراسة الحياة الجنسية، وكانت له مراسلات ودية مع فرويد الذي اقتبس منه مفهوم الإيروسية الذاتية. له كتاب ضخم في ثمانية مجلدات بعنوان: **دراسات في علم الجنسية**، أثار مناقشات حادة في مختلف الثقافات الأوروبية. «م».

١٠ ـ صموئيل لندنر: طبيب أطفال مجري استشهد فرويد في كتابه **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** بنظريته عن الدلالة الجنسية لمصّ الأطفال لأصابعهم كما عرضها في محاضرته عام ١٨٧٩ أمام أعضاء **جمعية بودابست الملكية**. «م».

١١ ـ في **حولية طب الأطفال**، ١٨٧٩: «مصّ الأصابع والشفتين، إلخ، لدى الأطفال».

الأولى ستتفرع لاحقاً لذة المعرفة ومن الثانية النزوع إلى الاستعراء الفني والمسرحي). وللطفل أنشطة جنسية أخرى تنتمي منذ ذلك العهد إلى طور **الاختيار الموضوعاني**[١٢]، وهو اختيار يغدو فيه شخص غريب هو الموضوع الرئيسي. وفي الآونة الأولى من الحياة يكون اختيار هذا الشخص الغريب مرتهناً بغريزة البقاء. ولا يلعب اختلاف الجنسين دوراً فاصلاً في هذه المرحلة الطفلية. ومن غير أن نخشى أن نكون من الجائرين، نستطيع أن نعزو إلى كل طفل ميلاً خفيفاً إلى الجنسية المثلية Homosexualité.

إن حياة الطفل الجنسية المفككة، المعقدة، المنفصمة هذه، التي تنزع فيها كل حاثة على حدة إلى تأمين اللذة، تتكثف وتنتظم في اتجاهين رئيسيين، بحيث تكون الشخصية الجنسية للفرد قد تكونت واكتملت، في أكثر الأحيان، عند انتهاء فترة البلوغ. فمن جهة أولى تخضع الدوافع الغريزية واحدة تلو الآخر لزعامة «المنطقة التناسلية»، وهذه السيرورة تجعل الحياة الجنسية برمتها تدخل في خدمة التناسل، ولا يعود لإشباع تلك الدوافع الأولى من أهمية إلا بقدر ما يعدّ العدة ويمهد السبيل للاتصال الجنسي بحصر المعنى. ومن جهة ثانية، يطرد الاختيار الموضوعاني الإيروسية الذاتية، بحيث تنزع جميع المقومات الغريزية الجنسية، في الحياة الحبية، إلى أن تجد إشباعها لدى الشخص المحبوب. لكن لا يسمح لجميع المقومات الغريزية البدائية بالمساهمة في هذا التثبيت النهائي للحياة الجنسية. فقبل سن البلوغ، وتحت تأثير التربية، تحدث عمليات كبت بالغة الشدة لبعض الميول والنوازع، وتنتصب قوى نفسية محددة، كالخجل والقرف والأخلاق، حارسةً تلجم وتحبس ما تمّ كبته. وحين يندفق، مع البلوغ، المدّ الكبير للحاجات الجنسية، تلقى هذه الحاجات في تلك المقاومات وردود الأفعال حواجز ترغمها على سلوك الطريق المسماة بالسوية وتمنعها من أن تحيي من جديد الميول

١٢ ـ ننحت هذا النعت للتمييز بين الموضوعي Objectif وبين الموضوعاني Objectal. فالموضوعي هو محض نعت تشير به اللغة إلى ما هو نقيض الذاتي. أما الموضوعاني فهو مصطلح تحليلي نفسي مستحدث يشار به إلى طبيعة اختيار الموضوع الجنسي: أهي جنسية غيرية أو مثلية، سوية أو منحرفة، إلخ. «م».

والنوازع التي كان مآلها إلى كبت. وأعني بها أولاً اللذّات الطفلية **التغوطية**[١٣]، أي اللذات ذات الصلة بالبراز، ويليها ثانياً التعلق بالأشخاص الذين وقع عليهم الاختيار الموضوعاني الأولي.

سادتي، من مبادئ علم الأمراض العام مبدأ ينبهنا إلى أن كل سيرورة نمو تشتمل على بذور استعداد باتولوجي، وذلك من حيث أن هذه السيرورة قابلة لأن تُكفّ أو تؤخّر أو يعاق مسارها. وهذا المبدأ ينطبق أيضاً على التطور البالغ التعقيد للوظيفة الجنسية. فهذا التطور لا يتحمله الأفراد كلهم بلا منغصات، فتراه يخلّف وراءه أشكالاً من الشذوذ أو استعدادات لأمراض لاحقة عن طريق التراجع إلى الوراء (النكوص). وقد يحدث ألا تخضع الدوافع الغريزية الجزئية جميعها لسيطرة «المناطق التناسلية»، فإذا بالدافع الغريزي الذي بقي مستقلاً يؤلف ما يسمى **بالانحراف** Perversion، ويستبدل الهدف الجنسي السوي بهدفه الخاص. وكما سبق لنا التنويه، كثيراً ما يحدث ألا يتم التغلب على الإيروسية الذاتية بتمامها، وهذا ما تنمّ عنه شتى أنواع الاضطرابات التي يمكن لنا أن نلحظ ظهورها في مجرى الحياة لاحقاً. وقد يستمر التكافؤ الأولي بين الجنسين من حيث صلاحيتهما كليهما لأن يكونا موضوعاً جنسياً، وهذا ما سينجم عنه في حياة الإنسان الراشد ميل إلى الجنسية المثلية التي قد تتطور، بالمناسبة، إلى جنسية مثلية كاملة وحصرية. وهذه المجموعة من الاضطرابات يقابلها توقف في تطور الوظائف الجنسية، وتشمل هذه الاضطرابات **الانحرافات** وكذلك **الطفالة** Infantilisme العامة للحياة الجنسية، وما هي بالنادرة أصلاً.

إن الاستعداد للأعصبة ينجم عن نوع آخر من الاضطرابات في التطور الجنسي. فنسبة الأعصبة إلى الانحرافات هي كنسبة السالب إلى الموجب؛ ففيها تتواجد عين المقوّمات الغريزية التي تتواجد في الانحرافات لتكون بمثابة ركائز للعقد وصانعة للأعراض، ولكنها تفعل فعلها هنا من أعماق اللاشعور. وعليه، تكون قد تعرضت للكبت، لكن أمكنها، رغم الكبت، أن تؤكد ذاتها في اللاشعور. ويفيدنا التحليل النفسي أن التظهير المشتط لهذه الدوافع الغريزية، في

١٣ ـ اللذة التغوطية: ترجمة للمصطلح المنحوت من اليونانية «كوربوفيليا»، أي حبّ البراز. «م».

أزمنة مبكرة جداً، قد أحدث ضرباً من تثبيت **جزئي** يمثّل مذّاك فصاعداً نقطة ضعف في بنية الوظيفة الجنسية. فإن اصطدم الأداء السويّ للوظيفة في سنّ الرشد بعقبات، فعند تلك النقاط التي حدثت فيها التثبيتات الطفلية تحديداً سينقطع حبل الكبت الذي جدلته مختلف ظروف النمو والتربية.

قد يعترض عليّ معترض منكم فيقول إن هذا كله لا ضلع له بالجنسية. وأنا أستخدم الكلمة، بالفعل، بمعنى أوسع بكثير من الاستعمال الدارج. ولكن المسألة، كل المسألة، هي أن نعرف إن لم يكن الاستعمال الدارج هو الذي يستخدمها بمعنى أضيق مما ينبغي، إذ يحدّها بالمضمار التناسلي. وبذلك يضع نفسه في وضع يتعذّر معه أن يفهم الانحرافات، وكذلك العلاقة بين الانحراف والعصاب والحياة الجنسية السوية، ويقف عاجزاً عن فهم مدلول بدايات الحياة الحبية البدنية والنفسية لدى الأطفال، بالرغم من أن هذه البدايات قابلة بسهولة كبيرة للرصد والملاحظة. لكن كائناً ما كان المعنى الذي يقرّ قراركم عليه، فلا بد أن تأخذوا في اعتباركم أن المحلل النفسي يفهم كلمة الجنسية بمعناها الشمولي الذي قاده إليه أخذه بعين الاعتبار الجنسية الطفلية.

لنرجع مرة أخرى إلى النمو الجنسي لدى الطفل. علينا الآن أن نستدرك العديد من الأمور التي تكون قد غابت عنا، بحكم من أننا ركّزنا انتباهنا على التظاهرات البدنية أكثر مما على التظاهرات النفسية للحياة الجنسية. إن الاختيار الموضوعاني البدئي لدى الطفل (وهو اختيار يتحدد بضعف وسائله) مثير جداً للاهتمام. فالطفل يلتفت أولاً نحو أولئك الذين يعتنون به، لكن سرعان ما يختفي هؤلاء وراء الأهل. وعلاقات الطفل بالأهل لا تخلو البتة من عناصر جنسية، كما تثبت ذلك الملاحظة المباشرة والدراسة التحليلية للراشد لاحقاً. فالطفل يتخذ والديه، ولا سيما واحداً بعينه منهما، موضوعاً لرغباته. وهو ينصاع عادة لمنازع الأهل بالذات، إذ إن حنانهم يرتدي طابعاً جنسياً شبه صريح، وإن يكن مكفوفاً من حيث أهدافه. فالأب يفضّل عادة البنت، والأم تؤثر الابن. ويأتي ردّ الطفل كالتالي: فالصبي يرغب في أن يضع نفسه مكان الأب، والبنت مكان الأم. والعواطف التي تستيقظ في علاقات الأهل هذه بالأولاد، وفي

العلاقات التي تتفرع منها بين الإخوة والأخوات، ليست موجبة فقط، أي حُبِّية، بل سالبة أيضاً، أي عدائية. ومتى ما تشكلت العقدة على هذا النحو قُضي عليها بكبت سريع، لكنها تظل تمارس من أعماق اللاشعور مفعولاً هاماً ودائماً. وبوسعنا الافتراض أنها تؤلف، مع مشتقاتها، **العقدة النووية** لكل عصاب، ونحن نتوقع أن نجدها على قدر مماثل من الفاعلية في سائر ميادين الحياة النفسية. وما **أسطورة الملك أوديب** الذي يقتل أباه ويتزوج أمه إلا تظاهرة لم يطرأ عليها كبير تعديل للرغبة الطفلية التي ينتصب ضدها في وقت لاحق، بغية ردعها، **حاجزُ المحارم** Inceste. وفي صميم مأساة **هملت** الشعرية لشكسبير، تتكرر الفكرة عينها، أي عقدة العلاقة بمحرَّم، ولكن على نحو أفضل تنكيراً.

في العهد الذي يكون الطفل فيه واقعاً تحت سطوة تلك العقدة النووية غير المكبوتة بعد، يكرِّس قسماً هاماً من نشاطه العقلي لخدمة رغباته الجنسية. فنراه يشرع بالتساؤل من أين يأتي الأولاد، وبفعل ما يتاح له من قرائن يحزر الحقيقة أكثر مما يتصور الراشدون. وبوجه العموم، إن أول ما يوقظ فضوله هو التهديد الذي يتمثل في قدوم طفل جديد لا يرى فيه في بادئ الأمر سوى منافس ينازعه على الخيرات المادية. وتحت تأثير دوافع غريزية جزئية يطفق يبني عدداً من **النظريات الجنسية الطفلية**، فينسب إلى الجنسين أعضاء متماثلة، ويتصور أن الأطفال يُحبل بهم أثناء الأكل وأنهم يأتون من نهاية المعي، كما يتصور العلاقة بين الجنسين فعلاً عدائياً، ضرباً من السيطرة العنيفة. بيد أن تكوينه الجنسي الذي يكون لا يزال غير بالغ، وجهله على الأخص بالأعضاء المؤنثة، يرغمان الباحث الغضّ العود على نفض يده من مهمة لا أمل فيها يرتجى. لكن هذا البحث، بمختلف ما ينتجه من نظريات، يؤثر مع ذلك تأثيراً حاسماً على طبع الطفل وعلى استعداده للوقوع فريسة العصاب لاحقاً.

إنه لأمر محتوم ومنطقي تماماً أن يتخذ الطفل من والديه موضوعاً لاختياراته الحبية الأولى. بيد أنه لا يجوز أن يبقى **الليبيدو** عنده مثبتاً على هذه المواضيع الأولى، بل لا بدّ أن يكتفي هذا الليبيدو باتخاذها لاحقاً نماذج له، وأن ينتقل في زمن الاختيار الموضوعاني النهائي من هذه النماذج إلى أشخاص غرباء. على

الطفل أن ينفصل عن أهله: هذا أمر لا بديل عنه كيلا تتعرض للخطر طاقاته الاجتماعية الفتية. وفي الزمن الذي يقوم فيه الكبت بالاختيار بين الدوافع الغريزية الجنسية الجزئية، ثم حين يتوجب لاحقاً أن يتم الانعتاق من تأثير الأهل (وهو التأثير الذي كان لعب الدور الرئيسي في هذا الكبت)، تترتب على المربي واجبات خطيرة، لا تؤدى في الوقت الراهن بذكاء على الدوام.

سيداتي سادتي، هذه التأملات عن الحياة الجنسية والنمو النفسي الجنسي لدى الطفل لم تبعدنا كما قد يتبدى لكم عن التحليل النفسي وعن مهمة معالجة الاضطرابات العصبية. بل على العكس من ذلك: فبوسعنا تعريف المعالجة التحليلية النفسية بأنها تربية متدرجة للتغلب على رسابات الطفولة لدى كل واحد منا.

- ٥ -

سيداتي سادتي، قادنا اكتشاف الجنسية الطفلية، وإرجاع الأعراض العصابية إلى مقومات غريزية إيروسية، إلى بعض صيغ غير متوقعة حول ماهية الاضطرابات العصبية ونوازعها. فالناس يمرضون حين لا يجدون من سبيل، بفعل عقبات خارجية أو تكثّف ناقص، إلى إشباع حاجاتهم الإيروسية في **الواقع**. عندئذ نراهم **يلوذون بالمرض** كيما يتأتى لهم بفضله الحصول على الملذّات التي تضنّ بها عليهم الحياة. وقد لاحظنا أن الأعراض المرضية تمثّل جزءاً من نشاط الفرد الحبّي، بله حياته الحبية بأسرها؛ ونحن نفترض أن الابتعاد عن الواقع يمثّل المنزع الرئيسي للحالة المرضية، ولكن كذلك خسارتها الكبرى. وإننا لنرهص بأن مقاومة مرضانا للشفاء لا تتأتى من سبب بسيط بل من عدة دوافع. فليس «أنا» المريض هو وحده الذي يرفض بكل ما أوتي من طاقة التخلي عن كبوتات تساعده على التملص من استعداداته ونوازعه الأصلية، بل إن الدوافع الغريزية الجنسية ذاتها لا تبدي أي حرص على التخلي عن الإشباع الذي يوفره لها البديل الذي يصطنعه المرض، وذلك ما دامت تجهل إن كان الواقع سيقدّم لها شيئاً أفضل.

إن الهرب خارج الواقع الشاق على النفس لا يمكن إلا أن يتمخض عن شيء من الهناء، حتى ولو أفضى إلى تلك الحالة التي نسمّيها بالمرض لما تنزله من ضرر وأذى بالشروط العامة للحياة. ويتم الهرب عن طريق التراجع إلى الوراء (**النكوص**)، والعودة إلى أطوار سابقة من الحياة الجنسية كانت وفّرت في حينه للفرد شيئاً من المتعة. وللنكوص مظهران: فهو من جهة أولى نكوص **زمني** وذلك بقدر ما ينقل الفرد **إلى الماضي**، باعثاً إلى الحياة من جديد مراحل سابقة من طاقته الليبيدوية، من حاجته الإيروسية، وهو من الجهة الثانية نكوص **شكلي** بقدر

ما تُستخدم، إفصاحاً عن هذه الحاجة، وسائلُ التعبير النفسية الأصلية والبدائية. لكن هذين المظهرين من النكوص يرتدان إلى صيغة واحدة هي التالية: العودة إلى الطفولة وإحياء مرحلة طفلية من الحياة الجنسية.

كلما تعمقنا في أسباب نشوء المرض العصبي، استبانت لنا العلاقات التي تربط الأعصبة بسائر ظاهرات حياة الإنسان النفسية، بما فيها تلك الظاهرات التي نعزو إليها أسمى قيمة. وإن واحدنا ليدرك مدى تقتير الواقع في تلبية رغباتنا رغم كل ادعاءاتنا؛ لذا ترانا نبتعث في داخل أنفسنا، وتحت ضغط كبوتاتنا الداخلية، حياة منسوجة بتمامها من الخيال تحقق لنا رغباتنا وتعوّضنا عن نواقص الوجود الحقيقي. والإنسان القوي الشكيمة، والذي يصيب نجاحاً وفلاحاً، هو ذاك الذي يتوصل إلى تحويل أخاييله الرغبية، عن طريق العمل، إلى واقع. لكن إذا ما أخفق هذا التحويل نتيجة لمعاكَسة الظروف الخارجية ولضعف الفرد، أشاح هذا الأخير عن الواقع ولاذ بحمى عالم حلمه الذي يوفِّر له قدراً أكبر من السعادة، وفي حال المرض يحوِّل مضمونه إلى أعراض. وقد يجد أيضاً، فيما إذا توفرت له شروط موائمة، سبيله إلى الانتقال من أخاييله إلى الواقع بدل أن يبتعد عنه بصورة نهائية نكوصاً إلى عالم الطفولة. فإذا كان مثل هذا الشخص، المتوتر العلاقة مع الواقع، يحوز **هبة الفن**، التي لا تزال لغزاً غامضاً بالنسبة إلينا من وجهة النظر السيكولوجية، كان في مستطاعه أن يحوِّل أحلامه إلى إبداعات جمالية عوضاً عن أعراض مرَضية. وهكذا يفلت من مصير العصاب، ويعاود عن هذا السبيل عقد علاقته بالواقع[1]. أما إذا كانت هذه الملَكة الثمينة منعدمة الوجود أو غير كافية، فمن المحتم عندئذ أن يفضي الليبيدو، بطريق النكوص، إلى بعث الرغبات الطفلية، وبالتالي إلى ظهور العصاب. والحق أن العصاب ينوب، في عصرنا، مناب الدير حيث اعتاد أن يعتزل كل شخص خيّبت الحياة آماله أو كل شخص لا تتوفر له القوة الكافية لتحمل أعبائها.

اسمحوا لي بالتنويه هنا بالنتيجة الرئيسية التي توصلنا إليها، بفضل الفحص

١ ـ انظر: أ. رانك: **الفنان**، فيينا ١٩٠٧.

التحليلي النفسي للعصابيين، وهي التالية: ليس للأعصبة أي مضمون نفسي خاص لا يتواجد أيضاً لدى أصحاء الناس؛ أو إن العصابيين، كما قال ك. غ. يونغ، يكابدون من نفس العقد التي نصارع ضدها، نحن الأصحاء أيضاً. وأن يؤدي الصراع إلى الصحة أو إلى العصاب، أو إلى تجليات تعويضية من مستوى أعلى، فهذا رهن بالنِسَب الكمية وبميزان القوى المتصارعة فيما بينها.

سيداتي سادتي، لم أحدثكم حتى الآن عن أهم تجربة تؤكد فرضيتنا عن القوى الغريزية الجنسية التي تتحكم بالعصاب. ففي كل مرة نعالج فيها عصابياً على أساس التحليل النفسي، نجد هذا العصابي وقد وقع في إسار تلك الظاهرة المدهشة التي نطلق عليها اسم **التحويل** Transfert. ونعني بذلك أنه يسفح على الطبيب طفحاً من الحفزات العاطفية الحبية التي تمتزج في كثير من الأحيان بالعداء، والتي ليس لها من مصدر أو مبرر للوجود في أية تجربة واقعية. والكيفية التي تظهر بها هذه الحفزات تنمّ عن أنها مشتقّة من رغبات دفينة قديمة للمريض أمست لاشعورية. هذا الجزء من الحياة العاطفية الذي ما عاد في مستطاع المريض استحضاره إلى ذاكرته يعيشه هذا الأخير من جديد من خلال علاقته بالطبيب. وإنما بعد هذا الإحياء بواسطة «التحويل» يقتنع بوجود رغباته الجنسية اللاشعورية وبقوتها. كذلك، إن الأعراض التي هي، إذا ما قبسنا التشبيه من الكيمياء، مترسبات لتجارب حب قديمة (بأوسع معاني كلمة الحب)، لا يمكن أن تنحلّ وأن تتحوّل إلى منتجات نفسية بديلة إلا في الدرجة المرتفعة من حرارة تجربة «التحويل». ويلعب الطبيب في هذا التفاعل، بحسب التعبير الموفق لفيرنزي[٢]، دور **عامل وسيط** يجذب إليه مؤقتاً الطاقات العاطفية التي تم تحريرها[٣].

إن دراسة «التحويل» يمكن أن تعطيكم أيضاً مفتاح الإيحاء التنويمي الذي كنا استخدمناه في بداية الأمر كوسيلة تقنية لاستكشاف اللاشعور لدى مرضانا. وقد

٢ - د. ساندور فيرنزي: طبيب مجري (١٨٧٣ - ١٩٣٣). تلميذ وصديق لفرويد، وإن كان قد اختلف لاحقاً مع غيره من المحللين النفسيين. من مؤلفاته: **طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية، والمذكر والمؤنث.** «م».

٣ - س. فيرنزي: **الاستبطان والتحويل**، في **مجلة الدراسات التحليلية والطبية النفسية**، المجلد ١.

قدَّم لنا التنويم يومئذ مساعدة علاجية، لكنه نصب أيضاً عقبة في وجه المعرفة العلمية للوقائع، على اعتبار أنه كان يخلي منطقة بعينها من المقاومات النفسية ليكدِّس هذه المقاومات في شكل سور حصين منيع عند حدود تلك المنطقة بالذات. ولا يجوز لنا أن نتصور أن ظاهرة «التحويل»، التي لا يسعني للأسف أن أطيل في الحديث عنها هنا، قد خلقها التأثير الذي يمارسه التحليل النفسي. فـ«التحويل» يتم تلقائياً في جميع العلاقات الإنسانية، كما في علاقة المريض بالطبيب، وهو الحامل الحقيقي في كل مكان للتأثير العلاجي، ويكون مفعوله أقوى كلما سها الوعي عن وجوده. إذاً، فالتحليل النفسي لا يخلق التحويل، بل يميط اللثام عنه فقط للوعي ويضع يده عليه ليوجِّه السيرورات النفسية نحو الهدف المنشود. غير أنه لا يسعني أن أتخطّى مسألة «التحويل» من غير أن أنوِّه بأن هذه الظاهرة تسهم أكثر من أي ظاهرة أخرى في إقناع المرضى والأطباء على حدّ سواء بقيمة التحليل النفسي. أنا أعلم أن أنصاري لم يسلِّموا جميعهم بصواب مفترضاتي عن المنشأ المرضي للأعصبة إلا بفضل تجارب «تحويلية»، وبوسعي أن أفهم تماماً ألا يقتنع المرء بذلك ما لم يمارس هو نفسه التحليل النفسي ويلحظ مفاعيل «التحويل».

سيداتي سادتي، أعتقد أن ثمة عقبتين رئيسيتين من طبيعة عقلية يمكن أن تعترضا الاعتراف بنجع النظريات التحليلية النفسية. فأولاً، لم تجرِ العادة على النظر بعين الجدّ إلى الحتمية الصارمة التي تتحكم بلا استثناء بالحياة النفسية؛ وثانياً، ثمة جهل بالسمات التي تتميَّز بها السيرورات النفسية اللاشعورية عن السيرورات الشعورية المألوفة لدينا. وأولى المقاومات التي يصطدم بها العمل التحليلي النفسي لدى المرضى كما لدى الأشخاص الأصحاء إنما ترجع إلى ثاني هذين العاملين. فهناك خوف من أن يتسبب التحليل النفسي بأذى وضرر، خوف من استحضار الدوافع الغريزية الجنسية المكبوتة إلى وعي المريض، وكأن ذلك يهدد بأن يعقد إزار النصر لهذه الدوافع الغريزية على أسمى الصبوات الأخلاقية والمكتسبات الحضارية. كذلك، وما دام من الواضح للعيان أن المريض يعاني في داخل نفسه من جراح حيّة نازفة، فثمة من يخشى مسَّها خوفاً من مضاعفة

آلامه. وبوسعنا القبول بهذه المماثلة. فصحيح أن حسن التدبير يقضي بألا تُمسّ المواضع المريضة إذا كانت النتيجة الوحيدة هي تفاقم الوجع. لكن الطبيب الجراح لا يتوانى عن مهاجمة الداء في عقر داره، إذا ما تولّد لديه الاقتناع بأن تدخُّله سيأتي بالشفاء. ولا يخطر في بال أحد أن يلوم الجرّاح على أوجاع العملية متى ما كُلِّلت بالنجاح. وهكذا ينبغي أن تكون الحال بالنسبة إلى التحليل النفسي، ولا سيما أن ردود الفعل المستكرهة التي يمكن أن يتسبب فيها حينياً أضأل حجماً بما لا يقاس من ردود الفعل التي تعقب العملية الجراحية. ثم إن هذه المنغِّصات غير ذات وزن بالمقارنة مع عذابات المرض. وغني عن البيان أن التحليل النفسي يجب أن يُمارس وفق جميع أصول الطب. أما الدوافع الغريزية التي كانت مكبوتة والتي يحررها التحليل النفسي، فهل ثمة من داعٍ للخوف من أن تلحق الأذى، متى ما عاودت ظهورها على المسرح، بالميول الحَضارية والاجتماعية المكتسبة بالتربية؟ على الإطلاق، فقد دلتنا ملاحظاتنا، على نحو يقطع دابر كل شك، أن القوة النفسية والبدنية لحاثّة من الحاثات الرغبية تكون أكبر بكثير إذا كانت لاشعورية بدل أن تكون شعورية. وفهم ذلك ميسور إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الرغبة اللاشعورية تكون بمنأى عن كل سلطان، فلا تستطيع الصبوات المعاكسة أن تؤثر فيها بأي صورة من الصور. والأمر على العكس حين تكون الرغبة شعورية؛ فعندئذ يمكن لكل ما هو شعوري أيضاً ومعارض لها أن يؤثِّر فيها ويكبتها. والعمل التحليلي النفسي، إذ يمثِّل خير بديل عن الكبت الذي لا يكون أصاب فلاحاً، يستجيب لأسمى صبوات الحياة الحضارية وأثمنها.

لنرَ الآن إلامَ تؤول الرغبات اللاشعورية التي يزيح التحليل النفسي الستار عنها، وما السبل التي نزمع أن نسلكها لنشلّ قدرتها على إلحاق الأذى بحياة الفرد؟ ثمة أكثر من طريق إلى ذلك. وأكثر ما تصيب المعالجة من نجاح عندما يتمكن النشاط النفسي الصحيح للحاثات المعارضة من التغلب على تلك الرغبات اللاشعورية وتجفيف منبعها. فالكبت يخلي مكانه **لحكم نقد وإدانة** يتم تنفيذه بخير الوسائل. ومما يتيح إمكانية ذلك أن التحليل النفسي غير مطالب إجمالاً إلا بتصفية العواقب المتخلفة عن المراحل السابقة من نمو الأنا. فالفرد يوم

كان ضعيفاً وناقص النمو وعاجزاً عن أن يكافح بنجع وفعالية ميلاً يتعذر إشباعه، ما كان في مقدوره إلا أن يكبته. أما اليوم، وهو في أوج نضجه وقوّته، فقد يكون بوسعه السيطرة عليه والتحكم به. وثمة مخرج ثانٍ يتيحه لنا العمل التحليلي النفسي ويتمثل بأن الدوافع الغريزية اللاشعورية التي يميط عنها اللثام يمكن في هذه الحال إرجاعها إلى الوظيفة السوية التي كانت ستكون وظيفتها لو لم يطرأ خلل على نمو الفرد. وبالفعل، ليس الهدف الأمثل للنمو أن يستأصل شأفة الحاثات الرغبية الطفلية. فالعصابي، بكبوتاته، يكون قد خسر الكثير من مصادر الطاقة النفسية التي كان يمكن لتدفقها أن يكون له عظيم الأثر والنفع في تكوين طبعه وتفتيح نشاطه في الحياة. ونحن نعرف سيرورة أخرى للنمو قد تكون أنسب بكثير نطلق عليها اسم **الإسماء** Sublimation، وهي سيرورة لا تسدّ الطريق على طاقة الحاثات الرغبية الطفلية، بل على العكس تبقيها أمامها سالكة إذ تحدد لكل منها، بدلاً من الهدف غير القابل للتحقيق، هدفاً أرفع وأسمى، وليس من الضروري أن يكون جنسياً. ومقوّمات الدوافع الغريزية الجنسية هي، على وجه التحديد، التي تتميز بهذه القابلية للإسماء وبالقدرة على مقايضة هدفها الجنسي بهدف أبعد وأثمن من المنظور الاجتماعي. وأنبل منجزات الفكر الإنساني وأسمى نجاحاته الحضارية إنما تدين بوجودها لهذا المصدر من مصادر الطاقة المستحصل عليها على هذا النحو. أما الكبت الذي قد يطرأ مبكراً فيسدّ الطريق على إسماء الدافع الغريزي المكبوت؛ وإنما بعد إلغاء الكبت يعود الطريق إلى الإسماء سالكاً من جديد.

وليس لنا أن نهمل أخيراً الخاتمة الثالثة الممكنة للعمل التحليلي النفسي: فمن المشروع أن يتم إشباع شطر معيَّن من الحاثات الليبيدوية المكبوتة بصورة مباشرة وأن يكون ذلك بالوسائل المعهودة في الحياة. والواقع أن متطلبات حضارتنا تجعل الحياة بالغة الصعوبة بالنسبة إلى أكثرية الناس، وتتسبب، بحكم الخوف من الواقع، بأعصبة من غير أن تأمل في تحقيق مكسب حضاري إضافي من هذا الشطط في الكبت الجنسي. يجدر بنا إذاً ألا نتغاضى تغاضياً تاماً عما في طبيعتنا الأصلية من حيوانية. كما لا يجوز لنا أن ننسى أن مطلب السعادة لا يمكن

شطبه، من منظور الفرد، من أهداف حضارتنا. ومن المؤكد أن المرونة التشكيلية لمقوّماتنا الجنسية، كما تتجلى في قابليتها للإسماء، من شأنها أن تمارس إغراء كبيراً: إغراء الاعتقاد بأن التمادي أكثر فأكثر في إسمائها من شأنه أن يؤتي مفاعيل حضارية أكبر فأكبر. ولكن كما أنه يستحيل، على صعيد الآلة، تحويل كل الحرارة المستهلكة إلى عمل ميكانيكي قابل للاستعمال، كذلك يتعذر أن نأمل في تغيير وجهة طاقة الدوافع الغريزية الجنسية بصورة جذرية عن أهدافها الحقيقية. هذا شيء غير ممكن. ولو حرمنا الدوافع الغريزية من غذائها الطبيعي، لجاءت العواقب وخيمة.

لست أدري إن كنتم، من جهتكم، ستحكمون بالعجرفة على مدّعاي هذا الذي به أختم. وسأجازف فقط بأن أعبّر عن دعواي هذه بطريقة غير مباشرة فأروي لكم حكاية قديمة أترك لكم أن تستخلصوا مغزاها العملي. فالأدب الألماني يحدثّنا عن مدينة صغيرة تدعى شيلدا اشتهر سكانها ببراعتهم في إيجاد الحلول لكل مشكلة تطرأ. وقد كان لدى الشيلديين[٤]، فيما يُروى، حصان كانت تجلياته في العمل تثير إعجابهم. وما كان لهم عليه من مأخذ سوى أن تغذيته بالشوفان كانت تكلِّفهم غالياً. فقرّ قرارهم على أن ينقصوا كل يوم حبة من وجبة الشوفان كيما يعتاد في نهاية الأمر على الاستغناء استغناء تاماً عن القوت. وقد سارت الأمور على أحسن ما يرام في الأيام الأولى إذ أقلع الحصان عن عادته وصار لا يقتات إلا بذُرارة واحدة في اليوم الواحد. وطبقاً لما كان يتوقع السكان، فقد كان يفترض به أن يؤدي عمله في اليوم التالي بدون علف البتة. ولكن في صبيحة ذلك اليوم نفسه وُجد الحصان الخؤون ميتاً. وما استطاع البورجوازيون الشيلديون أن يفسِّروا سبب موته.

أما نحن فسنميل إلى الافتراض بأن الحصان مات جوعاً، وبأنه ليس في مستطاع أي حيوان أن يعمل ويكدّ إذا لم تقدَّم له الوجبة الضرورية من العلف.

أشكركم على دعوتكم وعلى ما أعرتموني من انتباه.

---

٤ ـ «**الشيلديون**»: رواية ألمانية شعبية ساخرة من القرن السادس عشر، تتألف من مجموعة من القصص التي تسخر من سكان بلدة شيلدا الصغيرة في مقاطعة ساكس. «م».

مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي

تقديم

حرر فرويد هذه المساهمة عن تاريخ حركة التحليل النفسي في مطلع عام ١٩١٤، وكان يومئذ يرزح تحت وطأة انشقاق معاونه الأول كارل غوستاف يونغ بعد أن كان سبقه إلى الانشقاق ألفريد آدلر. وقد أراد من خلالها تمييز موقفه عن موقف تلميذيه السابقين وإعادة التوكيد على الماهية الأصلية للتحليل النفسي الذي كان هذان الأخيران لا يزالان يشهران انتماءهما إليه قبل أن يفترقا عنه افتراقاً نهائياً.

وقد كنا ترجمنا هذه المساهمة عن الترجمة الفرنسية التي قام بها المختص الكبير بالنص الفرويدي صموئيل يانكيليفتش والتي ظلت معتمدة في الثقافة الفرنسية على مدى نحو ثلاثة أرباع القرن إلى أن ظهرت في عام ١٩٩١ ترجمة جديدة بقلم كورنيليون حاييم، وأخرى أحدث عهداً بعد بقلم بيير كوتيه ورينيه لينه صدرت عام ٢٠٠٥ في المجلد الثاني عشر من **مؤلفات فرويد الكاملة** الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية بإشراف الاختصاصي بالمصطلح الفرويدي جان لابلانش. وقد أدخلنا على ترجمتنا التعديلات الواجبة.

ج. ط

- ١ -

«الأمواج تضربه، لكنه لا يغرق»[١]

بودِّي، في الصفحات التي تلي، أن أقدِّم مساهمة في تاريخ الحركة التحليلية النفسية. وتتسم هذه المساهمة بطابع ذاتي، آمل ألا يقابل بدهشة من أحد، مثلما آمل ألا يُدهش أحد من كوني أتكلم فيها عن الدور الذي لعبته بنفسي في هذا التاريخ. آية ذلك أن التحليل النفسي هو من صنعي: فعلى مدى عشر سنوات لم يكن أحد غيري يهتم به، وعلى مدى عشر سنوات كانت على رأسي تنهال الانتقادات التي بها عبَّر المعاصرون عن نفورهم من التحليل النفسي وعن تبرمهم منه. بل يخيَّل إليّ أنه بوسعي أن أجزم بأن ما من أحد، إلى يومنا، يعرف خيراً مني ما كنه التحليل النفسي، وما موضع اختلافه عن سائر أشكال استكشاف الحياة النفسية، وما الذي يمكن أن يعنيه هذا المصطلح أو ما الذي يناسبه أن يسمَّى بغير هذا الاسم. وإذ أنتبذ جانباً على هذا النحو ما يتبدى لي على أنه فعل تعدٍّ متهوِّر، فإني سأقدِّم بصورة غير مباشرة لقرائنا معلومات عن الأحداث والوقائع التي استتبعت تغيير هيئة تحرير هذه الحولية وعنوانها[٢].

لقد كانت سنحت لي الفرصة، في عام ١٩٠٩، للكلام لأول مرة أمام جمهور عام، من على منبر جامعي أميركي، عن التحليل النفسي[٣]؛ وقد

١ - باللاتينية في النص: شعار مدينة باريس التي يرمز إليها مركب. «م».

٢ - هي **حولية التحليل النفسي** التي حلَّت ابتداء من عام ١٩١٤ محل **حولية الأبحاث التحليلية النفسية والسيكولوجية المَرَضية** التي كان يديرها يوجين بلولر وسيغموند فرويد ويرأس تحريرها كارل غوستاف يونغ. وقد انفرد فرويد برئاسة تحرير **الحولية الجديدة** وصار محرراها الرئيسيان كارل أبراهام وإدوارد هيتشمان. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٣ - يشير فرويد هنا إلى محاضراته الخمس التي ألقاها في جامعة كلارك الأميركية. راجع أعلاه ترجمتنا لهذه المحاضرات في **خمسة دروس في التحليل النفسي**. «م».

صرحت يومئذ، إدراكاً مني لما يمكن أن يكون لهذا الحدث من تأثير على الأهداف التي أنشد، أنني لست أنا الذي ابتكر التحليل النفسي، وأن هذا الفضل إنما يعود إلى جوزيف بروير Breuer[٤]، فيما كنت أنا لا أزال طالباً، شاغلي اجتياز امتحاناتي (من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٢). غير أن بعضاً من الأصدقاء ممن يحدبون عليّ لفتوا انتباهي إلى غلوّي وإسرافي في التعبير عن عرفاني بالجميل، وإلى أنه كان عليّ، نظير ما فعلت في فرص سابقة، أن أوضح أن «طريقة بروير التطهيرية» تشكل طوراً تمهيدياً ليس إلا من أطوار التحليل النفسي، وأن هذا الأخير رأى النور يوم نحّيتُ جانباً تقنية التنويم المغنطيسي لأحِلَّ محلها تقنية التداعي الحرّ. والحق أنه ليس أمراً بذي بال أن تكون بدايات التحليل النفسي مرتبطة بالطريقة التطهيرية أو بالتعديل الذي أدخلته على هذه الطريقة؛ ولئن أتيت هنا بذكر هذه النقطة التاريخية، العديمة الأهمية، فلأن بعض خصوم التحليل النفسي لا يحجمون، بالمناسبة، عن الإعلان بأنه إنما إلى بروير، لا إليّ، يعود الفضل في خلق هذا الفن. غير أنه لا بدّ لي من أن أضيف أن أسبقية بروير لا ينوّه بها إلا أولئك الذين يعزون قيمة ما إلى التحليل النفسي؛ أما أولئك الذين ينكرون عليه كل قيمة فلا يترددون في عزو أبوّته إليّ بلا شريك. وعلى حدّ علمي، فإن القسط الوفير الذي أسهم به بروير في ابتكار التحليل النفسي لم يفز ولو بنزر يسير من الشتائم وضروب الملامة التي هيلت عليّ. وبما أنني أقررت منذ زمن بعيد بأن التحليل النفسي يتميَّز بقدرة لا تقاوم على إثارة سخط الناس وعلى دفعهم إلى وقوف موقف

٤ - جوزيف بروير: زميل لفرويد. عمل معه في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور برك واشترك معه في عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان **دراسات في الهستيريا**. وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاماً، وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج المرضى النفسانيين، ثم ما لبث أن استعاض عنه بمنهج التطهير (كاثارسيس) الذي يقوم على انتزاع الأسرار التي ترهق المريض من أفكار وعواطف مكبوتة. ولكن فرويد لم يقف عند الحدّ الذي كان قد وصل إليه بروير، فانفصمت عرى التعاون بين الاثنين، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيداً. وقد كتب عن بروير في «**حياتي والتحليل النفسي**» يقول: «لقد كلفني نموّ التحليل النفسي صداقته. لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن، لكن لم يكن في مقدوري أن أتفادى ما كان». «م».

المناقضة، فقد انتهيت إلى استنتاج مؤداه أنه لا مانع يحول دون أن أكون الصانع الحقيقي لكل ما يميّزه وما يجعل منه هو التحليل النفسي. وإنه ليطيب لي أن أضيف القول إن بروير لم يسعَ قط إلى الخفض من شأن دوري في ابتداع التحليل النفسي الذي هو موضع تشنيع المشنّعين، وأنه لم يبدِ قط أية مساندة للمحاولات التي يبذلها في هذا الاتجاه أخصامي.

لقد سبق أن سُلِّطت الأضواء على مضمون اكتشاف بروير وجرى عرضه مراراً وتكراراً، مما يغنيني هنا عن كل مناقشة مفصَّلة بصدد هذا الموضوع. وسأعيد إلى الأذهان فقط أن الواقعة الأولى التي ينطلق منها هي أن أعراض الهستيريين ترتبط بخبرات من حياتهم (رضات Traumatismes) طوتها يد النسيان بعد أن تركت فيهم وقعاً عظيماً، وأن ملاحظة هذه الواقعة قد أملت طريقة علاجية تقوم على استحضار ذكرى تلك الخبرات المعاشة، تحت تأثير التنويم، وعلى إعادة إنتاجها (التطهير Catharsis). لذا تراءى له أنه يسعه أن يصوغ استنتاجاً نظرياً مؤداه أن الأعراض المذكورة تنجم عن استعمال غير سويّ لكميات تنبيهية غير محرَّرة (= الاستبدال Conversion)[٥]. وفي كل مرة تسنح فيها الفرصة لبروير للحديث عن الاستبدال في مساهمته النظرية في **الدراسات في الهستيريا**، لا يتوانى عن ذكر اسمي بين قوسين، وكأن تلك المحاولة الأولى للتعليل النظري هي ملكي الفكري. وأعتقد أن هذه الملكية لا تتعدى اللفظة، أما التصور ذاته فقد انبثق في ذهنينا في آن معاً وهو ملكنا المشترك.

معلوم أيضاً أن بروير هجر، بعد تجربته الأولى، طريقته التطهيرية، ولم يرجع إليها إلا بعد مرور سنوات عدة، يوم يُخيِّل إليّ، لدى عودتي من باريس حيث تابعت دروس شاركو[٦]، أن من واجبي أن ألحّ عليه وألحف ليفعل ذلك. كان آنئذ مولياً اهتمامه كله للطب الداخلي، وكان كثرة زبائنه تستغرق وقته كله. أما أنا فما أصبحت طبيباً إلا على كره مني، وكان عندي سبب وجيه للغاية يحفزني

٥ ـ الاستبدال: توصيف أساسي للأعراض الهستيرية يشار به إلى تحوُّلها من أعراض نفسية إلى أعراض بدنية. ولهذا جاز أن يطلق على الأعصبة الهستيرية الاستبدالية اسم الأعصبة الاستبدانية. «م».

٦ ـ جان مارتن شاركو: طبيب فرنسي (١٨٢٥ ـ١٨٩٣). اشتهر بأبحاثه في مضمار الأمراض العصبية، ودرس عليه فرويد بين ١٨٨٥ و ١٨٨٦، وترجم له **دروس في أمراض الجهاز العصبي ودروس يوم الثلاثاء** سنة ١٨٨٨. «م».

على محاولة مدّ يد المعونة للناس المصابين بالأمراض العصبية، أو على الأقل على محاولة النفاذ بقدر أو بآخر إلى طبيعة حالاتهم.

في بادئ الأمر كنت قد وضعت ثقتي في المعالجة الفيزيائية؛ لكني ما عتمت أن وجدت نفسي عاجزاً ومفلول السلاح أمام الخيبات التي سبَّبها لي كتاب **المعالجة الكهربائية**، بقلم و. إرب ERB[٧]، الثرّ بالنصائح والإرشادات. ولئن لم يخطر لي ببال يومئذ رأي موبيوس Moebius[٨] القائل بأن نجاحات المعالجة الكهربائية إنما مردها إلى الإيحاء، فذلك لسبب في منتهى البساطة: إذ لم أحرز حتى نجاحاً واحداً. وقد تهيأ لي لوهلة من الزمن أن المعالجة بالإيحاء أثناء النوم العميق ـ وكنت قد حضرت جلسات لمثل هذه المعالجة لدى ليبو Liébault وبرنهايم Bernheim[٩] فشدهت لفاعليتها ـ تقدِّم لي تعويضاً واسعاً عن هجري لطريقة المعالجة الكهربائية. لكن السبر النفسي أثناء التنويم، كما علّمني بروير قواعده، مارس عليّ، بفاعليته الآلية وبإشباعه فضولي العلمي، جذباً أعظم بما لا يقاس من التحظير الإيحائي، الرتيب، العنيف، المنافي لأي مسعى علمي.

إننا نعلم اليوم ـ وهذا من أحدث ما توصل إليه التحليل النفسي ـ أن علينا أن نعطي مكانة الصدارة، أثناء التحليل، للصراع الراهن وللعلة المحدِّدة للمرض. والحال أن هذا بالضبط ما فعلناه، بروير وأنا، منذ تطبيقاتنا الأولى للطريقة التطهيرية. فقد كنا نلفت مباشرة انتباه المريض إلى المشهد الرضّي الذي ظهر

---

٧ ـ فلهلم إرب: طبيب ألماني (١٨٤٠ ـ ١٩١٢). من أشهر الاختصاصيين في أمراض الأعصاب في عصره، ومن أوائل من استخدم تقنية التشخيص الكهربائي. اكتشف دور الأمراض الزهرية في خراع النخاع الشوكي، وله أكثر من ٢٥٠ مؤلفاً وبحثاً طبياً. وقد رُبط عدد من الظاهرات المرضية العصبية باسمه. «م»

٨ ـ بول يوليوس موبيوس: طبيب أعصاب ألماني (١٨٥٣ ـ ١٩٠٧). كان له سبق إلى تعريف الهستيريا. وكانت له دراسات عن أدباء وفلاسفة من أمثال غوته وروسو وشوبنهاور ونيتشه. من مؤلفاته: **النظام العصبي عند الإنسان، داء بازدوف، حول بلاهة النساء الفيزيولوجية، حول الأمراض العصبية الوراثية، مساهمات في نظرية الفوارق بين الجنسين.** «م».

٩ ـ ليبو وبرنهايم: طبيبان من مدينة نانسي الفرنسية كانا يعالجان المرضى بالإيحاء التنويمي، وقد درس عليهما فرويد لفترة وجيزة من الزمن سنة ١٨٨٩، وترجم لثانيهما كتاباً عن **الإيحاء وتطبيقاته العملية** سنة ١٨٨٨. «م».

أثناءه العَرَضَ، وكنا نسعى إلى اقتصاص أثر الصراع النفسي في ذلك المشهد وإلى إطلاق الانفعال المقموع من عقاله. وبنهجنا هذا النهج أفلحنا في اكتشاف السيرورة النفسية المميِّزة للأعصبة Névroses، وهي السيرورة التي أطلقنا عليها فيما بعد اسم **النكوص** Régression. وكانت تداعيات المريض ترتدّ من المشهد الذي نعمل على إعادة بنائه إلى خبرات معاشة سابقة، وترغم التحليل الذي يبغي تصحيح الحاضر على الاهتمام بالماضي. وكان هذا النكوص يعود بنا القهقرى إلى الوراء أكثر فأكثر، وبوجه عام إلى زمن البلوغ، على ما خُيِّل إلينا في بادئ الأمر؛ لكن بعض الإخفاقات وبعض الثغرات دفعت بالتحليل إلى متابعة النكوص وصولاً إلى سنوات الطفولة الأولى التي لبثت إلى ذلك الحين عصية على كل سبر. وما عتم هذا التوجه أن غدا واحدة من السمات المميزة للتحليل. وقد تحقق لنا أن هذا التحليل عاجز عن فكّ أسر الحاضر من دون إرجاعه إلى ماضٍ ليس بحدّ ذاته ممرِضاً Pathogène، ولكنه هو الذي يضفي مع ذلك على الحدث اللاحق طابعه الممرِض.

على أن إغراء التمسك بالعلة الراهنة المعروفة كان شديداً إلى حدّ ما أمكنني معه الإفلات من شباكه طيلة سنوات عديدة أخرى. وأثناء معالجة المريضة المعروفة باسم «دورا»[١٠] سنة ١٨٩٩، كان تأتّى لي أن أعرف ما طبيعة المشهد الذي تسبّب في ظهور المرض الراهن. وكنت قد حاولت مراراً وتكراراً أن أضع في متناول التحليل تلك الخبرة المعاشة من دون أن أحصل قط، بالرغم من إلحاحي المباشر، على شيء آخر غير الوصف المجمل والمليء بالثغرات عينه. وإنما بعد التفافة طويلة، قادتنا القهقرى إلى الطفولة الأولى للمريضة، وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام حلم أمكن، بواسطة تحليله، استعادة تفاصيل المشهد المنسية، وهذا ما هيأ الإمكانية لفهم الصراع الراهن وحلّه معاً.

١٠ ـ دورا: اسم مستعار أطلقه فرويد على فتاة في الثامنة عشرة عالجها من آفة عصبية، وسجّل تفاصيل العلاج في نص جعل عنوانه **الحلم والهستيريا**. وقد نشره في وقت لاحق (سنة ١٩٠٥) بعنوان **نبذة من تحليل إصابة هستيرية**. وانظر ترجمتنا لهذا النص في: **التحليل النفسي للهستيريا: حالة دورا**. «م».

هذا المثال وحده يكفي لبيان ما الأخطاء التي يعرِّض المرء نفسه للوقوع فيها فيما لو أخذ بالنصيحة التي أشرنا إليها أعلاه، وما مدى إذنابه بحق التقدم العلمي فيما لو أهمل النكوص في التقنية التحليلية.

نشب أول خلاف في وجهات النظر بيني وبين بروير بصدد مسألة مرتبطة بالآلية النفسية الباطنة للهستيريا. فقد كان يحبذ نظرية لا تزال فيزيولوجية، إن جاز القول، مؤداها أن علة الانفصام النفسي للمريض بالهستيريا انعدام التواصل بين شتى الحالات النفسية (أو كما كنا نقول آنئذ بين «شتى حالات الوعي»)؛ وعلى هذا فقد صاغ فرضية «الحالات النوامية» التي يُفترض بمنتجاتها أن تنبجس في «الوعي اليقظ». ولما كنت أقل تزمتاً من وجهة النظر العلمية، وأرتاب في أن المسألة مسألة ميول ونوازع مشابهة لميول الحياة اليومية ونوازعها، فقد رأيت في الانفصام النفسي عينه معلولاً لسيرورةِ إقصاءٍ ونبذٍ أطلقت عليها يومئذ اسم سيرورة «الدفاع» أو لاحقاً «الكبت». وقد حاولت جهدي أن أبقي على تينك الآليتين واحدتهما بجانب الأخرى. لكن بما أن التجربة كانت تهديني على الدوام إلى الشيء نفسه، لذا لم أتأخر عن معارضة نظرية بروير النوامية بنظريتي في الدفاع.

غير أنني متأكد من أن هذه المعارضة لم يكن لها من ضلع في الانفصال الذي ما عتم أن وقع بيننا. فقد كان وراء هذا الانفصال أسباب أعمق وأبعد غوراً، لكنه حدث على نحو ما أمكنني معه التنبه له من البداية ولا فهمه إلا في زمن لاحق وطبقاً لبيِّنات لا يتطرق إليها الشك. تذكرون ولا بدّ أن بروير كان يقول عن مريضته المشهورة الأولى[١١] إن العنصر الجنسي لديها يمثل درجة من التطور غير كافية على الإطلاق وإنه لم يسهم قط من قريب أو بعيد في الغنى الملحوظ للوحتها السريرية. ولطالما استغربت ألا يكون قد خطر للنقاد أن يقيموا ـ أكثر مما فعلوا ـ موازنة بين تصريح بروير ذاك وبين تصوري الخاص للإتيولوجيا الجنسية للأعصبة[١٢]، وما زلت

١١ ـ هي تلك التي اشتهرت باسم آنا أو. «م».

١٢ ـ الإتيولوجيا: علم الأسباب، وعلى الأخص علم أسباب نشوء المرض. «م».

إلى يومنا هذا أجهل إن كان هذا الإغفال قد أملاه عليهم حسن التقدير أو قلة الانتباه. ولو أعاد المرء قراءة ملاحظة بروير على ضوء التجارب المكتسبة خلال العشرين سنة الأخيرة، لوجد أن كل تلك الرمزية الممثلة بالثعابين[١٣]، وبنوبات التخشب، وبشلل الذراع، شفافة إلى حدّ لا مستزاد عليه، ولو ربط الوضع بالسرير الذي كان الأب المريض ممددا عًليه لحصل على تأويل للأعراض يتبخر معه كل شك بصدد مدلولها. وبذلك يتوصل إلى تكوين فكرة عن دور الجنسية Sexualité في الحياة النفسية لتلك الفتاة مغايرة تماماً لفكرة الطبيب الذي كان يعالجها. لقد كان في متناول بروير، من أجل شفاء مريضته، «تقرير» إيحائي باهر، تقرير نستطيع أن نرى فيه بالتحديد نموذجاً لما نسميه بـ«التحويل»[١٤]. ولي من الأسباب الوجيهة ما يحملني على الاعتقاد بأن بروير، بعد أن أزال الأعراض جميعاً، قد وجد نفسه، ولا بدّ، أمام دلائل جديدة تؤيد التحفيز الجنسي لذلك التحويل، لكنه أوقف سبره عند هذا الحدّ كما لو أمام «حادث مزعج» لأنه ما استطاع فهماً للطابع العام لهذه الظاهرة اللامتوقعة. وهو لم يطلعني بصورة مباشرة على شيء بهذا الخصوص، لكنه قدم إلي، في أكثر من مناسبة، نقاط استدلال كافية لتبرير هذا الافتراض. ويوم تبنَّيت بصورة نهائية التصور عن الدور الرئيسي الذي تلعبه الجنسية في نشوء الأعصبة، اصطدمت من جانبه تحديداً بردود الفعل الأولى التي أخذت شكل استهجان ساخط ما لبث أن صار مألوفاً لديّ لاحقاً، مع أنني ما كنت، في الفترة الزمنية التي أتحدث عنها، لأتوقع أن يلاحقني طوال حياتي كالقدر.

إن التحويل الودّي أو العدائي، ذا المنزع الجنسي الفجّ، واقعة ملحوظة دوماً أثناء علاج العصاب من دون أن يرغب فيها أو يحضّ عليها أي طرف من

١٣ ـ كان بروير قد شرع سنة ١٨٨٠ بمعالجة فتاة مهسترة أسماها آنا أو (واسمها الحقيقي مارتا بابنهايم)، وكان من جملة الأحلام التي رأتها أنها كانت جالسة بقرب سرير والدها المريض، فرأت ثعباناً أسود يخرج من الحائط ويدنو من المريض ليعضّه. وأرادت أن تطرده، ولكنها كانت كالمشلولة. وكانت ذراعها اليمنى، المتدلية فوق الكرسي، شبه مخدرة، وحين نظرت إليها تحولت الأصابع إلى ثعابين صغيرة ذات جماجم (الأظافر). «م».

١٤ ـ التحويل Transfert: آلية نفسية يحوِّل المريض العصابي من خلالها جملة من المشاعر والعواطف الإيجابية أو السلبية (حب أو كراهية) نحو المحلل أو الطبيب الذي يعالجه. «م».

الطرفين المتواجهين. وواقعة هذا التحويل قد بدت لي على الدوام بمثابة دليل لا يدحض على الأصل الجنسي للقوى الغريزية الكامنة في أصل العصاب. وهذا الدليل لم يحظَ بعد بكل الانتباه الذي يستأهله، ولم يُحمل قط على مجمل الجدّ الكافي، إذ لو حصل ذلك لكان الرأي بصدد هذا الموضوع انعقد له الإجماع بلا مزيد من التأخير. أما أنا فقد اعتبرته على الدوام قاطعاً، مثله في ذلك (وربما أكثر) مثل العديد من المعطيات الأخرى التي يمدّنا بها العمل التحليلي.

لقد كان إيماني بأنني أكافح في سبيل فكرة جديدة ومبتكرة هو بمثابة عزاء لي عن سوء الاستقبال الذي قوبل به تصوري عن المنشأ الجنسي للأعصبة، وهذا حتى في حلقة أصدقائي الضيقة (إذ ما عتمت دائرة من الفراغ السلبي أن تشكلت حول شخصي). بيد أن ذكريات محددة استيقظت فيّ ذات يوم لتعكّر عليّ صفوي، ولتكشف لي في الوقت نفسه بعض التفاصيل المثيرة للغاية بصدد الكيفية التي يتمّ بها نشاطنا الخلاق وبصدد طبيعة معرفتنا. فالفكرة التي أخذت مسؤوليتها على عاتقي لم تكن بحال من الأحوال فكرة شخصية. وإنما أدين بها لثلاثة أشخاص كانت آراؤهم تحظى مني بأعظم احترام: بروير نفسه، وشاركو، والاختصاصي في الأمراض النسائية في جامعتنا، شروباك[١٥] الذي هو من ألمع أطبائنا في فيينا. فقد أورثني هؤلاء الرجال الثلاثة تصوراً ما كان ملكاً لهم بحصر معنى الكلمة. وقد أنكر اثنان منهم هذا الإرث عندما ذكّرتهم به لاحقاً؛ أما ثالثهم (الأستاذ شاركو) فقد كان سيحذو حذوهما فيما لو أتيح لي أن ألتقيه ثانية. وهذه المواريث المتماثلة، التي تمثلتها من دون أن أفهمها، هي التي تناومت فيّ لسنوات عديدة لتستيقظ ذات يوم في صورة تصور مبتكر، كان لا فضل فيه لأحد غيري على ما يلوح لي.

لقد رافقت ذات يوم، وأنا طبيب مستشفيات غرّ، بروير في نزهة عبر المدينة، فإذا بسيد يعترض سبيله ويطلب إليه بإلحاح أن يكلمه. تأخرت عنهما، ولما

١٥ ـ رودولف شروباك: طبيب نسائي نمساوي (١٨٤٣ ـ ١٩١٠). شغل وظائف جامعية عليا. وكان يرسل مرضاه إلى فرويد منوهاً بدور الإحباط الجنسي في مرضهم. «م».

انتهت محادثاتهما رجع بروير نحوي وأفادني، بطريقته المحببة في الإفضاء بالمعلومات، أن الرجل هو زوج مريضة من مريضاته وأنه أطلعه على أخبارها. وأضاف يقول إن المرأة كانت تتصرف في المجتمع تصرفاً غريباً حمل ذويها، وقد عدّوها مريضة عصبية، على أن يعهدوا بها لعنايته. وختم قائلاً إن الأمر يتعلق هنا أيضاً بأسرار **مخدع النوم**. فسألته، وقد أخذتني الدهشة، ما قصده بقوله هذا؛ فشرح لي عندئذ ما يعنيه بالضبط، مستبدلاً عبارة «مخدع النوم» بعبارة «الفراش الزوجي»، وأبدى عجبه لاستغرابي التعبير الأول.

بعد بضع سنوات حضرت حفل تكريم لشاركو. كنت واقفاً على مقربة من الأستاذ الجليل، وكان يروي لبروارديل Brouardel[١٦] واقعة، مثيرة للاهتمام جداً في أرجح الظن، من الوقائع التي مرت به في ممارسته. وما كنت أصغيت بانتباه إلى بداية القصة، لكنها ما عتمت أن أثارت اهتمامي حتى شدت انتباهي كله. كان موضوعها زوجين من الشرق البعيد؛ الزوجة تعاني وتكابد الأمرّين، بينما الزوج عاجز أو أخرق تماماً. وسمعت شاركو يردد: «حاول، حاول وستنجح، أؤكد لك». وأعرب بروارديل على ما يبدو ـ وكان أخفت صوتاً ـ عن دهشته من أن تكون أعراض كأعراض المرأة المعنية قد ظهرت في مثل تلك الظروف. وبالفعل، أجابه شاركو بحدة: «بلى، في مثل هذه الأحوال، المسألة تناسلية دوماً.. دوماً.. دوماً». وفيما هو يردّد ذلك صلّب ذراعيه على صدره وطفق ينطنط بحيويته المعهودة. أذكر أنني لبثت مذهولاً لبضع ثوان، ولما تمالكت أمري طرحت على نفسي هذا السؤال: «ما دام يعلم ذلك، فلمَ لم يقله قط؟». لكني سرعان ما نسيت هذا الانطباع؛ واستغرق تشريح الدماغ والاصطناع الاختباري للشلل الهستيري من جديد انتباهي كله.

بعد ذلك بعام واحد ـ وكنت لا أزال أستاذ خصوصياً بالأمراض العصبية[١٧] ـ بدأت بامتهان الطب، وأنا جاهل كأي جامعي غرّ تعمر الآمال

١٦ ـ بول برواردیل: طبيب فرنسي مختص بالطب الشرعي (١٨٣٧ ـ ١٩٠٦). عميد كلية الطب في جامعة باريس. «م».

١٧ ـ أستاذ خصوصي Privat - Docent: أستاذ جامعي حرّ في ألمانيا يتقاضى مكافأته من الطلاب مباشرة. «م».

فؤاده بعلم منشأ الأعصبة وأسبابها. وذات يوم رجاني شروباك أن أتولى معالجة إحدى مريضاته بالنظر إلى عدم توفر الوقت له للاعتناء بها بعد أن صار أستاذاً بكرسي. وهرعت إلى المريضة، ووصلت إليها قبله، وعلمت أنها تعاني من نوبات حصَرية لا تعليل لها ولا تستطيع لها تسكيناً إلا إذا علمت بالضبط أين طبيبها موجود في كل آن من آناء النهار. ووصل شروباك بدوره، وانفرد بي ليعلمني أن حصَر المريضة متأتٍ من كونها لا تزال عذراء رغم مرور ١٨ سنة على زواجها، وذلك لأن زوجها مصاب بعنّة تامة. وأضاف قوله: في مثل هذه الأحوال لا يبقى أمام الطبيب إلا أن يغطي بما له من سلطة وهيبة على المأساة العائلية، وأن يكتفي بهزّ كتفيه إذا ما تناهى إلى علمه أن الناس تصدر بحقّه تقييمات من هذا النوع: «إنه ليس أشطر من غيره، فهو لم ينجح في شفاء المريضة رغم أنه يعالجها منذ سنوات عديدة». فهذا الداء ليس له إلا دواء واحد؛ ونحن نعرفه جيداً، لكننا، ويا للأسف، لا نستطيع وصفه. وهو: RP. Penis Normalis Dosim Repetatur[١٨].

ما كنت قد سمعت قط بمثل هذه الوصفة، ووجدتني بيني وبين نفسي ألوم راعيَّ على مجونه.

لئن أفشيت بالأصل الشهير لهذه الفكرة الفاسقة، فليس ذلك كيما ألقي تبعتها على عاتق الآخرين. وأنا أعلم أن التعبير عن فكرة ما مرة أو مرات عدة في شكل نبذة سريعة شيء، وأن حملها على محمل الجدّ، بمعناها الحرفي، وتطويرها من خلال تفاصيل شتى، مناقضة لها في كثير من الأحيان، وانتزاع مكان لها بين الحقائق المعترف بها، شيء آخر. وهذا فارق يشبه الفارق بين غزل خفيف وزواج مستوفٍ لكل الشروط الرسمية، وبكل ما يترتب عليه من واجبات ومصاعب. يقول الفرنسيون، وهذا تعبير دارج: «تزوج أفكار فلان...»[١٩].

بين العناصر الأخرى التي قيِّض لها، بفضل أبحاثي، أن تنضاف إلى الطريقة

---

١٨ ـ باللاتينية في النص: «من طبيعة القضيب الطبيعي أن يعاود الكرة». «م».

١٩ ـ بالفرنسية في النص Epouser Les idées De. «م».

التطهيرية لتحوِّلها إلى تحليل نفسي، سأخص بالذكر: نظرية الكبت والمقاومة، وتصور الجنسية الطفلية، وتأويل الأحلام والتوسل بها لمعرفة اللاشعور.

أما فيما يتعلق بنظرية الكبت، فقد وصلت إليها بكل تأكيد بجهودي الخاصة، من دون أن يلعب أي تأثير دوراً في اقتيادي إليها. وعليه، داخلني الاعتقاد لزمن طويل بأنها مبتكرة، إلى أن وضع أوتو رانك[٢٠] ذات يوم تحت ناظريَّ مقطعاً من **العالم كإرادة وتصور**، يحاول فيه شوبنهاور أن يجد تفسيراً للجنون[٢١]. وما يقوله الفيلسوف في هذا المقطع حول ما يساورنا من نفور من الاعتراف بهذا الجانب الصعب أو ذاك من جوانب الواقع يتفق كل الاتفاق مع فكرة الكبت، كما أتصورها، إلى حدّ يبيح لي أن أكرر القول مرة أخرى بأنني لا أدين باكتشافي إلا لنقص مطالعاتي. ومع ذلك، فقد قرأ غيري هذا المقطع وأعاد قراءته من دون أن يتوصل إلى الاكتشاف المذكور، ولعل الشيء نفسه كان سيحدث لي لو وجدت في نفسي، في شبابي، مزيداً من الميل إلى القراءات الفلسفية. وقد ضننت على نفسي فيما بعد بمتعة قراءة نيتشه[٢٢]، وقد امتنعت عن ذلك وأنا على أتمّ وعي بأسباب استنكافي: فقد كان مقصدي ألا أقع تحت أي تأثير خارجي وأنا أدوّن وأطوّر الانطباعات التي يمدّني بها التحليل النفسي. وعليه، إنني أعلن استعدادي، عن طيب خاطر، للتخلي عن كل دعوى بالأسبقية في

٢٠ ـ **العالم كإرادة وتصور**: أشهر كتب الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠). و«في الجنون» هو عنوان الفصل ٣٢ من الكتاب الثاني. «م».

٢١ ـ أوتو رانك OTTO RANK: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). متحدر من أسرة يهودية من البورجوازية المتوسطة. اصطدم مع أبيه الذي كان سكيراً فغيّر كنيته من روزنفلد إلى رانك تيمناً باسم الطبيب الطيِّب القلب في مسرحية هنريك إبسن **بيت الدمية**. قرأ وهو في العشرين من العمر **تأويل الحلم** لفرويد، فانتمى مبكراً إلى حركة التحليل النفسي وصار أمين سر **الجمعية الفيناوية للتحليل النفسي**. حصل، بدعم من فرويد، على شهادة الدكتوراه واهتم بمسائل الدين والفلسفة والأسطورة. من أشهر مؤلفاته: **رضة الميلاد، إرادة السعادة، الفن والفنان، مساهمة في النرجسية**. «م».

٢٢ ـ فريديك نيتشه: فيلسوف وشاعر ألماني (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). نقد القيم الأخلاقية والدينية والفلسفية والسياسية للحضارة الغربية، وقال بإرادة القوة وأنكر أولوية الوعي قائلاً بما يشبه علم نفس الأعماق. من مؤلفاته: **ولادة التراجيديا، غروب الآلهة، هكذا تكلم زرادشت**. «م».

الحالات ـ وهي كثيرة ـ التي يكون فيها كل دور الأبحاث التحليلية النفسية الشاقة توكيد صحة كشوف الفلاسفة الحدسية.

إن نظرية الكبت هي الأسّ الذي يقوم عليه بنيان التحليل النفسي؛ وهي الجزء الأكثر جوهرية منه وإن كانت لا تمثل سوى التعبير النظري عن تجربة يمكن للمرء تكرارها بقدر ما يرغب كلما أخضع للتحليل مريضاً عصابياً من دون أن يلجأ إلى التنويم. ففي لحظة محددة يصطدم بمقاومة تُعارض العمل التحليلي، إذ يتذرع المعالَج بفجوة في الذاكرة ليبطل فاعلية ذلك العمل. ولو لجأ الطبيب إلى التنويم لما أفلح إلا في إخفاء تلك المقاومة وفي حجبها؛ ولهذا إن تاريخ التحليل النفسي بحصر المعنى لم يبدأ إلا يوم ظهور التجديد التقني المتمثّل في هجر التنويم. والتأويل النظري للتطابق بين تلك المقاومة وبين نساية ما يقود حتماً إلى تصور النشاط النفسي اللاشعوري، وهو التصور الذي يقول به التحليل النفسي والذي يختلف، على كل حال، اختلافاً بيّناً عن تأملات الفلاسفة بصدد اللاشعور. وعليه، يمكن القول إن النظرية التحليلية النفسية تمثّل محاولة لتعليل تجربتين غريبتين ولامتوقعتين يلاحظهما المرء حينما يسعى إلى ردّ أعراض العصابي الرضّية المؤلمة إلى مصدرها في حياة المريض السابقة: أي واقعة التحويل وواقعة المقاومة. وكل توجه يتخذ من هاتين الواقعتين نقطة انطلاق له يحقّ له تسمية نفسه تحليلاً نفسياً، حتى ولو خلص إلى نتائج مغايرة لتلك التي حصلت عليها أنا نفسي. بيد أن من يتصدى لجوانب أخرى من المشكلة ويضرب صفحاً عن هاتين المقدمتين، لن يكون بوسعه، إذا ما أصرّ على اعتبار نفسه محللاً نفسياً، أن يفلت من تهمة المساس بحق الملكية بمحاولة التزوير.

إنني لن أتردد في رفع صوتي بقوة احتجاجاً على كل من قد يعّن بباله أن يزعم أن نظرية التحويل ونظرية المقاومة مقدمتان للتحليل النفسي، لا نتيجتان له. فللتحليل النفسي مقدماته، لكنها ذات طابع سيكولوجي وبيولوجي بوجه عام، ولا مجال للحديث عنها. أما نظرية الكبت فهي نتاج للعمل التحليلي ونتيجة محرزة بوسائل مشروعة وتمثل الخلاصة النظرية لتجارب لا تقع تحت حصر. وقد توصلنا إلى إنجاز مماثل، وإن متأخر، في تصور الجنسية الطفلية الذي ما ورد له ذكر خلال السنوات الأولى من تلمس التحليل النفسي لطريقه. والواقعة الوحيدة

التي وقعت من البداية تحت المعاينة هي وجوب اعتبار التجارب النفسية الراهنة معلولات للماضي. لكن «الباحث كثيراً ما يهتدي إلى أكثر مما كان يريد الاهتداء إليه»[٢٣]. وهكذا وجدنا أنفسنا ننساق إلى أزمنة أنأى فأنأى من الماضي، وتراءى لنا في وقت من الأوقات أنه في مستطاعنا التوقف عند البلوغ، أي زمن اليقظة التقليدية للحاثات الجنسية. بيد أن هذا الأمل كان باطلاً، إذ إن اقتفاءنا للآثار قادنا إلى ما قبل ذلك العهد، وصولاً إلى الطفولة، بله إلى السنوات الأولى من هذه الطفولة. وفي أثناء ذلك وجدنا لزاماً علينا أن نذلِّل خطأً كان يمكن أن يكون قاضياً بالنسبة إلى ذلك الاتجاه العلمي الفتي. فتحت تأثير النظرية الرضية عن الهستيريا، ذات الصلة بتعاليم شاركو، كنا نجد في أنفسنا نزوعاً قوياً إلى عزو واقع ومدلول إتيولوجيين إلى روايات المرضى التي يرجِعون فيها أعراضهم إلى تجارب جنسية كانوا هم موضوعها السلبي في إبان السنوات الأولى من طفولتهم، وبعبارة أخرى، إلى ما جرت العادة على تسميته بـ «التغرير بالقُصَّر». ولما اضطررنا بعد ذلك إلى العزوف عن هذه الإتيولوجيا، لعدم مطابقتها للواقع ولتناقضها مع البيِّنات الثابتة، وقعنا في حيرة شديدة من أمرنا. فهل اتَّبع التحليل النفسي الذي أفضى إلى هذه الرضات الجنسية الطفلية طريقاً خاطئاً، إذاً، بعد أن اتضح أن هذه الرضات تفتقر إلى أي أساس واقعي؟ ما كنا ندري بأي مستند نتمسك. وكنت على استعداد للتضحية بكل العمل الذي أنجزته، على نحو ما فعل سلفي الموقّر بروير في أعقاب اكتشافه غير المرغوب فيه. ولئن لم أفعل ذلك، فذلك في الأغلب لأنه لم يكن لي من خيار، ولم أكن أملك أن أسلك أية وجهة أخرى. وفي نهاية المطاف قلت بيني وبين نفسي إنه ليس من حقي أن أترك عزيمتي تتثبط لمجرد أن الآمال التي كنت أعلل النفس بها لم تتحقق، وإنه أولى بي بالأحرى أن أعيد النظر في هذه الآمال عينها. فحين يربط المهسترون أعراضهم برضات مختلقة، فإن الواقعة المستجدة تتمثل على وجه التحديد في كونهم يتخيَّلون تلك المشاهد تخيُّلاً، مما يرغمنا على أن نأخذ بعين الاعتبار الواقع

---

٢٣ ـ الإحالة هنا إلى مسرحية **الكذّاب** للشاعر الفرنسي بيير كورناي، الفصل الرابع، المشهد الأول. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

النفسي إلى جانب الواقع الفعلي على حد سواء. وما عتمت أن استخلصت من ذلك أن الغرض من تلك الأخاييل إخفاء النشاط الإيروسي الذاتي للطفولة الأولى، وإحاطته بهالة ما، ورفعه إلى مستوى أعلى. وما إن تأكدت لي هذه الواقعة، حتى أبصرت بحياة الطفل الجنسية تجري على مرأى مني بكل اتساعها.

لقد كان يمكن أصلاً، بالإحالة إلى هذا النشاط الجنسي لسنوات الطفولة الأولى، أن تستعيد الجِبِلّة الفطرية Constitution Innée مشروعيتها كاملة. فقد كان كل شيء يبيح لنا الافتراض بأن الاستعدادات الفطرية والتجارب النفسية اللاحقة تتراكب هنا لتؤلف كلاً واحداً غير قابل للقسمة: فمن جهة تحوِّل الاستعدادات الفطرية الانطباعات البسيطة إلى رضات، إلى مصادر إثارة ونقاط تثبيت، مع أنه لولا الاستعدادات الفطرية لبقيت الانطباعات، ذات الطابع العادي بوجه عام، بلا مفعول؛ ومن الجهة الثانية تستحضر التجارب النفسية اللاحقة عناصر من الاستعداد الجِبِلّي المسبق، علماً بأن هذه العناصر كانت ستظل غافية لأمد طويل من الزمن أو ما كانت لتتظاهر على الإطلاق لولا تلك التجارب. وأبراهام[٢٤] هو الذي كان (١٩٠٧) صاحب القول الفصل في مسألة الإتيولوجيا الرضِّية، بإيضاحه أن خصوصية جبلَّة الطفل الجنسية هي بالتحديد التي تستثير لديه تجارب جنسية معاشة من نوع خاص، أي ذات صفة رضِّية[٢٥].

---

٢٤ ـ كارل أبراهام: طبيب ومحلل نفسي ألماني (١٨٧٧ ـ ١٩٢٥). عمل في أول الأمر في مستشفى للطب النفسي في زوريخ تحت إشراف يوجين بلولر. التقى فرويد عام ١٩٠٧ وحرّر أول مقالين تحليليين نفسيين له أولى فيهما مكانة مركزية للرضة الجنسية. وأسس **الجمعية البرلينية للتحليل النفسي** عام ١٩١٠. عمل أثناء الحرب العالمية الأولى كطبيب عسكري وجراح وتعامل مع العديد من حالات الإصابة بالرضة الفيزيقية والنفسية. وترأس لمرتين على التوالي **الرابطة التحليلية النفسية الدولية**. وأولى اهتماماً خاصاً لمراحل تطور الجنسية الطفلية وميّز في المرحلة الشفوية طورين: طور لذة المص وطور لذة العض الذي أسماه بالطور السادي، وميّز بين العصاب والذهان بالانتقال من الطور الشرجي الهادف إلى التبرز إلى الطور الشرجي الهادف إلى الإمساك. من أشهر مؤلفاته: **حول الأعصبة الحربية** (بالاشتراك مع فرويد وساندور فيرنزي)، **الهوس والسويداء، الحلم والأسطورة، رمزية لغة الحلم، الأخاييل الطفلية في الحلم والأسطورة، أمنحوتب الرابع (أخناتون): مساهمة تحليلية نفسية في دراسة شخصية آتون والعبادة التوحيدية**. «م».

٢٥ ـ هامش أضيف سنة ١٩٢٤: **مساهمات سريرية في التحليل النفسي عن السنوات ١٩٠٧ ـ ١٩٢٠ في: المكتبة الدولية للتحليل النفسي**، المجلد ١٠، ١٩٢١.

كانت ملاحظاتي بصدد جنسية الطفل لا تستند في بادئ الأمر إلا إلى نتائج التحاليل المجراة على راشدين والمتوغلة إلى أحداث نائية زمنياً من حياتهم الماضية. ولم تسنح لي الفرصة يومئذ للقيام بمعاينات مباشرة على الأطفال. ولهذا كان ظفر عظيم لي حين أفلحت، بعد انقضاء عدد لا بأس به من السنوات، في الحصول على توكيد لصحة معظم استنتاجاتي عن طريق إخضاع أولاد صغار جداً للملاحظة والتحليل المباشر. بيد أن ما أفسد عليّ إلى حدّ ما هذه الفرحة فكرة تسلطت عليَّ ومؤداها أن الأمر لا يعدو أن يكون في خاتمة المطاف أمر اكتشاف يخلق بمن اكتشفه أن يخجل من نفسه. وكلما رحت أتابع ملاحظة الأطفال وأتعمق فيها، وكلما كانت الواقعة المذكورة تتبدى لي بمزيد من الوضوح والفهم، كنت أزداد استغراباً لما جشَّمنا أنفسنا من مشقَّة حتى لا نتبيَّنها.

حين يصل المرء إلى مثل هذا الاقتناع الأكيد بوجود الجنسية الطفلية وبأهميتها، لا بدّ أن يسلك طريق التحليل، وأن يعود القهقرى من أعراض المعصوبين وغرائبها إلى منابعها الأولى؛ فإذا ما اكتشف هذه المنابع حصل على تفسير لما هو قابل للتفسير واقتدر على تعديل ما هو قابل للتعديل. وأنا أدرك أنه من الممكن للمرء أن يصل إلى نتائج أخرى إذا ما بدأ، كما فعل ك.غ يونغ[٢٦] مؤخراً، بتكوين فكرة نظرية لنفسه عن طبيعة الدافع الغريزي الجنسي، ليسعى من ثم إلى فهم الحياة الطفلية على ضوء هذه الفكرة. فمثل هذه الفكرة لا يمكن إلا أن تكون عسفية أو أن تستجيب لاعتبارات لا دخل لها بالموضوع قيد البحث؛

٢٦ - كارل غوستاف يونغ: طبيب نفسي وكاتب سويسري (١٨٧٥ - ١٩٦١). لعب كمفكر دوراً نافذاً وكتب بالألمانية في مجالات سيكولوجية وفلسفية. ارتبط أولاً بحركة التحليل النفسي الفرويدي قبل أن ينشقّ عنها ليؤسس تيار علم النفس التحليلي. كان رائداً لما سُمِّي بعلم نفس الأعماق الذي يؤكد على الترابط بين النفس البشرية وتظاهراتها الثقافية، وتعامل في العلوم الإنسانية بمصطلحات تجمع بين الميتولوجيا والأنتروبولوجيا والخيمياء والأحلام والدراسة المقارنة للأديان. وأوجد مفهوم اللاشعور الجمعي الذي اعترض عليه فرويد. من أهم مؤلفاته: **علم نفس اللاشعور، علم النفس والخيمياء، دراسات في علم النفس التحليلي، مدخل إلى ماهية الميتولوجيا، تحولات النفس ورموزها، الأنماط النفسية، النظرية التحليلية النفسية، حياتي، الإنسان واكتشاف نفسه، جذور الوعي.** «م».

ومن هنا يجازف المرء بأن يجد نفسه في موقف غير مطابق في المضمار الذي يطبِّقها فيه. ولا ريب في أنه ستواجهنا، حتى لو اتبعنا الطريق التحليلي، صعوبات ونقاط غامضة فيما يتعلق بالجنسية وصلاتها بحياة الفرد الشاملة؛ لكن ليس بالتأملات المجردة سنفلح في تذليل هذه الصعوبات وإيضاح هذه النقاط الغامضة. وخير ما نفعله في هذه الحال أن ننتظر أن تأتينا الملاحظات والمعاينات المجراة في مضمار آخر بحلّ آخر للألغاز.

سألزم جانب الاقتضاب فيما يتعلق بتأويل الحلم. فقد كان هذا التأويل النتيجة الأولى، إن صح القول، للتجديد التقني الذي تبنيته، يوم قرَّ قراري، نزولاً عند حدس مبهم، على أن أستبدل التنويم بالتداعي الحرّ. وليس الفضول العلمي هو أول ما دفعني إلى طلب فهم الأحلام. وعلى حدّ علمي، لم يكن لأي تأثير دور في توجيه اهتمامي هذا الاتجاه، كما لم يتح لي آنئذ أن أستشفّ أية نتائج خصبة في هذا المضمار. وحتى قبل قطع صلاتي ببروير، ما تسنّت لي الفرصة لإعلامه، ولو باقتضاب، بأنني شرعت بتأويل الأحلام. وبالنظر إلى الكيفية التي توصلت بها إلى الاكتشاف الأخير هذا، فإن رمزية لغة الأحلام لم تتكشف لي إلا في آخر المراحل، وذلك لأن تداعيات الحالم لا تعلمنا إلا النزر اليسير عن الرموز. ولما كنت قد حافظت على عادة دراسة الأشياء مباشرة، قبل أن أنهل العلم من الكتب، فقد أمكنني أن أقرر وجود رمزية الأحلام قبل أن يجذب عمل شرنر Scherner[٢٧] انتباهي إليها. لكن في وقت لاحق فحسب أمكن لي أيضاً أن أقدِّر وسيلة الأحلام هذه في التعبير حقَّ قدرها، وهذا تحت تأثير أبحاث ف. شتيكل Stekel[٢٨] الذي كان له في البداية فضل كبير قبل أن يؤول به الحال إلى هذر لا مزيد عليه. كذلك لم أكتشف إلا بعد انقضاء بضع سنوات أخرى الروابط الوثيقة القائمة بين التأويل التحليلي النفسي للأحلام وبين فن تفسير الأحلام الذي كان رائجاً للغاية في العصور القديمة. أما الشطر الأهم والمبتكر من نظريتي في

---

٢٧ ـ كارل ألبرت شرنر: طبيب نفسي ألماني (١٨٢٥ ـ ١٨٨٩). كان سباقاً إلى دراسة الرمزية في الحلم. وقد استشهد فرويد مراراً باجتهاداته في كتابه **تأويل الحلم**. مؤلفه الشهير هو **حياة الحلم**. «م».

٢٨ ـ فلهلم شتيكل: طبيب ومحلل نفسي وأديب نمساوي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٠). تولى فرويد نفسه تحليله وأسس **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي** (١٩٢٠). من مؤلفاته: **الاستمناء والجنسية المثلية، الرجل العنين، المرأة الباردة، الحياة المعاشة في الحلم وتأويل الأحلام، رسائل إلى أمي**. «م»

الأحلام، أعني الشطر الذي يربط التشويهات الطارئة في الأحلام بصراع باطني، وبعبارة أخرى، الشطر الذي يرى في هذه التشويهات ضرباً من النقص في الصراحة الداخلية، فقد التقيته لاحقاً لدى مؤلف غريب عن الطب، ولكن ليس عن الفلسفة، هو المهندس الشهير ج. بوبر Popper[٢٩] الذي نشر في عام ١٨٩٩، تحت اسم لنكوس Lynkeus المستعار، **تخيلات إنسان واقعي**.

لقد وجدت في تأويل الأحلام مصدر عزاء وتشجيع في إبان السنوات الأولى من عملي التحليلي، وقد كانت من أصعب السنوات وأشقّها على النفس، وقد كان عليّ فيها أن أجمع بين العيادة والتقنية وعلاج الأعصبة. وكنت أخشى، وأنا ما أنا فيه من عزلة، وإزاء المشكلات العديدة التي كانت تلاحقني والصعوبات البالغة التعقيد التي كنت أواجهها، أن أضلّ طريقي وأن أفقد ثقتي بنفسي. وكان عليّ في كثير من الأحيان أن أنتظر مدة لامتناهية الطول من الزمن حتى يتجلى لدى المريض ما يثبت صحة مسلمتي التي مؤداها أن العصاب لا بدّ أن يغدو قابلاً للفهم بواسطة التحليل؛ غير أن الأحلام، التي يمكن اعتبارها مماثلة للأعراض، كانت تقدم لي بصفة شبه مستديمة، وفي الأحوال جميعاً، توكيداً لصحة هذه المسلّمة.

وإنما من معين النجاحات التي وفّرها لي تأويل الأحلام استمددت القوة على الانتظار والشجاعة للمثابرة. وقد درجت بي العادة على تقدير تفهُّم العاملين في الحقل السيكولوجي بحسب موقفهم من المشكلات ذات الصلة بالأحلام، وتأكد لي، بما يبعث على الرضى والسرور، أن معظم خصوم التحليل النفسي يتحاشون المجازفة بطرق هذا الميدان أو يتصرفون فيه تصرفاً شديد الخرق إذا ما عنَّ لهم الولوج إليه. وقد قمت بتحليل نفسي بنفسي، بعد أن تأكدت لي ضرورة ذلك، وكانت وسيلتي إلى ذلك مجموعة من أحلامي أتاحت لي أن أقتفي أثر جميع

٢٩ - جوزيف بوبر: مهندس وفيلسوف اجتماعي نمساوي (١٨٣٨ - ١٩٢١). كانت له اختراعات علمية. ولكنه أصاب شهرة ككاتب وفيلسوف في كتابه: **الحق في التغذية وفي حق الحياة وواجب الموت**. وقد كتب عنه فرويد مقالين، أولهما بعنوان: **جوزيف بوبر/لينكوس ونظرية الحلم**، وثانيهما بعنوان: **لقائي مع جوزيف بوبر/لينكوس**. وله من المؤلفات: **النظام الأخلاقي العالمي، الدلالة الأخلاقية والحضارية للتقدم التقني، فولتير، العاهل بسمارك واللاسامية الفييناوية**. «م».

أحداث سنيّ طفولتي؛ وأنا لا أزال أعتقد إلى اليوم بأن هذا الضرب من التحليل يمكن أن يكون كافياً إذا ما كان الشخص المعني كثير الأحلام ولا يشذّ كثيراً عن سواء الناس.

يُخيَّل إليّ، بعد أن عرضت لأنظار القراء جميع أطوار تاريخ التحليل النفسي هذه، أنني أوضحت ما كنه التحليل النفسي بأحسن مما كنت سأفعل فيما لو لجأت إلى عرضٍ منهجيٍّ له. ولأذكر أني، بادئ ذي بدء، لم أتنبه للطبيعة الخاصة لاكتشافاتي. وقد ضحيت عن عمد بسمعتي الطبية البادئة؛ ومن دون أن أخشى من تنفير المرضى الذين شرعوا بالتدفق إلى عيادتي أصررت على تحري العِلّية الجنسية لأعصبتهم، الأمر الذي أتاح لي أن أجمع كمية كبيرة من الملاحظات والمشاهدات التي وفرت ركيزة نهائية لاقتناعي بالأهمية العملية للعامل الجنسي. ولغير ما غرض في نفس يعقوب رحت أتكلم في جلسات الجمعية التي كانت تضم الاختصاصيين الفييناويين[٣٠] والتي كان يترأسها آنذاك كرافت - إيبينغ Krafft - Ebing[٣١]. وكان كل أملي أن ألقى في اهتمام زملائه بأفكاري وتعاطفهم معها تعويضاً عن الأضرار المادية التي كنت أتحملها بطيبة خاطر. وقد تكلمت عن اكتشافاتي بوصفها مساهمات موضوعية في العلم، وكان معقد رجائي أن يرى إليها الآخرون أيضاً بصفتها هذه. لكن الصمت الذي كان يعقب مداخلاتي، والفراغ الذي راح يضرب أطنابه حواليّ شيئاً فشيئاً، والتلميحات والتعريضات التي طفقت تتناهى إلى مسامعي، كل ذلك جعلني أفهم في النهاية أنه لا يمكن للمرء أن يتوقع أن تحظى التصريحات بصدد دور الجنسية في إتيولوجيا الأعراض بنفس الاستقبال الذي تقابل به غيرها من التصريحات. وأدركت في خاتمة المطاف أنني أمسيت مندرجاً مذّاك

٣٠ ـ الإشارة هنا إلى محاضرة ألقاها فرويد عام ١٨٩٦ بعنوان: **حول إتيولوجيا الهستيريا** أمام **رابطة الطب النفسي وطب الأمراض العصبية الفييناوية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٣١ ـ ريشارد فون كرافت ـ إيبنغ: طبيب نفسي نمساوي مجري (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢). أصدر عام ١٨٨٦ دراسة أصابت شهرة كبيرة في عصره عن الانحرافات الجنسية تحت عنوان: **الأمراض النفسية الجنسية، وبخاصة منها السادية والمازوخية**. وكان من القائلين بقدرة التنويم المغنطيسي، وقد قدَّم عنه عروضاً علمية. «م».

فصاعداً في عداد أولئك الذين «يعكرون صفو سبات العالم»، بحسب تعبير هيبل Hebbel[٣٢]، وأنه ليس لي أن أعتمد على الموضوعية والتسامح. لكن بما أن اقتناعي بالصوابية العامة لمعايناتي واستنتاجاتي كان يزداد ترسخاً، وبما أنه كانت تتوفر لي في الوقت نفسه ثقة كبيرة بأحكامي الذاتية وشجاعة معنوية كافية، فإن المخرج النهائي للوضع الذي كنت أتخبط فيه ما كان مشكوكاً فيه. واستقرّ عزمي على الاعتقاد بأنني وُفِّقت إلى اكتشاف علاقات لها دلالتها البليغة، وكنت على استعداد لتحمل المصير الذي لا بدّ أن يعود به عليّ هذا الاكتشاف لحين من الزمن.

وهاكم كيف كنت أتصور هذا المصير: فأنا سأنجح في أرجح الظن في صمودي بفضل النتائج العلاجية لطريقتي، لكنني سأبقى مجهولاً ـ ما حييت ـ من قبل العلم. وبعد مرور بضعة عقود من السنين على وفاتي سيعيد شخص آخر، لا محالة، اكتشاف الأشياء ذاتها، غير ذات الطابع الراهن في الوقت الحاضر، وسيتمكن من فرضها بحيث تحظى بالقبول العام، وسيرفعني إلى مقام رائد لم يحالفه التوفيق. وبانتظار ذلك لن يكون لي من همّ، اقتداءً بمثال روبنسون[٣٣]، غير تدبر إقامتي بالقدر المستطاع في جزيرتي المنفردة. وحين أرجع بالفكر إلى سنوات العزلة تلك، ضارباً الصفح عن فوضى الزمن الحاضر وبلبلته، يتراءى لي أنه كان زمناً بطولياً حلواً: فـ «العزلة الرائعة»[٣٤] كانت لها مزاياها وما كانت تخلو من سحر وفتنة. فلم يكن عليّ أن أصيخ سمعاً لاعتراضات الخصوم غير

---

٣٢ ـ فريدرش هيبل: شاعر ومسرحي ألماني (١٨١٣ ـ ١٨٦٣). كان مصاباً بالاكتئاب. له ديوان بعنوان **أم وولد**، وتراجيديات عدة، ومنها **يهوديت**، **هيرودوس ومريم**، وثلاثية **آل نيبلونجن**. وفرويد يحيل هنا إلى مقطع من مسرحيته **جيغس وحلقته**:

مهما ارتفعت بك موجة الحياة

فلتكن لك بها ثقة ولا تتراجع مذعوراً حتى أمام التيجان

ولكن حذارِ فقط من تعكير صفو سبات العالم. «م».

٣٣ ـ روبنسون كروزو: بطل رواية دانييل دوفو المشهورة المنشورة عام ١٧١٥. «م».

٣٤ ـ بالإنكليزية في النص: Splendid Isolation. والإحالة هنا إلى عزلة روبنسون كروزو في جزيرته. «م».

المطلعين على الأمر، ولم أكن واقعاً تحت أي تأثير، ولم يكن شيء يزحمني ويضغط عليّ. وكنت قد تعلمت كيف ألجم الميل إلى التأمل المجرد؛ وطبقاً لنصيحة معلمي شاركو التي لا تنتسى، كنت قد اعتدت على الرجوع مراراً وتكراراً إلى المسائل عينها، إلى أن تتكلم من تلقاء نفسها. وكان بوسع كتاباتي المنشورة ـ التي ما كنت أفلح في نشرها إلا بعد لأي ـ أن تبقى متأخرة عن حالة معرفتي، بل كان من الممكن إرجاء نشرها بلا محذور، إذ لم يكن ثمة من وجود لـ «أسبقية» مشكوك فيها ومستوجبة للدفاع عنها. وعلى سبيل المثال، كان **تأويل الحلم**[٣٥] جاهزاً، في أقسامه الرئيسية، منذ بداية عام ١٨٩٦، لكنني لم أكتبه إلا في عام ١٨٩٩. وكان علاج «دورا» قد انتهى في عام ١٨٩٩، وقد حررت معاينتها في الأسبوعين التاليين لنهاية علاجها، لكن النص لم ينشر إلا في عام ١٩٠٥[٣٦]. وفي أثناء ذلك كانت الصحافة المتخصصة تهمل عرض كتبي، وإذا ما حدث وفعلت ذلك فإنما لتنفض يدها منها بسيماء من التعالي الساخر. وبالمناسبة أشير إلى أن زميلاً، مختصاً مثلي في الأمراض العصبية، تنازل وخصّني في بعض كتاباته بملاحظة مقتضبة ليس فيها من الإطراء لي شيء، إذ وصف نظرياتي بأنها غريبة، متطرفة، بل شاذة. وذات يوم سألني مساعد في العيادة الفييناوية[٣٧] التي كنت ألقي فيها دروسي نصف السنوية الإذن بحضور محاضراتي. وقد أصاخ السمع بانتباه عظيم، ولم ينبس ببنت شفة؛ لكنه اقترح، بعد المحاضرة الأخيرة، أن يرافقني بضع خطوات. وأثناء تلك الجولة اعترف لي بأنه كتب، بموافقة رئيسه، كتاباً موجهاً ضد نظرياتي، وأضاف القول إنه نادم على فعلته هذه بعد أن أتيح له، من خلال دروسي، أن يكوّن فكرة أصحّ عن هذه النظريات. فلو كان عرفها من قبل كما بات يعرفها الآن، لما كتب كتابه. وكان

٣٥ ـ **تأويل الحلم** Traum Deutung: من أشهر كتب فرويد وأضخمها، أنجزه سنة ١٨٩٨، وطبعه سنة ١٨٩٩، وجعل تاريخ نشره سنة ١٩٠٠. وقد اشتهر بالعربية بعنوان **تفسير الأحلام**، ولكنه في الأصل الألماني بالمفرد. «م».

٣٦ ـ **نبذة عن تحليل إصابة هستيرية**. «م».

٣٧ ـ هو إميل ريمان الذي نشر عام ١٩٠٤ رداً ضمنياً على فرويد بعنوان: **المرض العقلي الهستيري**. «م».

قد سأل الجهاز الإداري في العيادة عما إذا لمن يكن من المناسب، قبل أن ينكبّ على تحرير كتابه، أن يقرأ **تأويل الحلم**، لكن جاءه الجواب بأن الأمر لا يستأهل هذه المشقة. وقد شبّه بنفسه متانة البنية الداخلية لبنياني النظري، كما بات يعرفه الآن، بمتانة الكنيسة الكاثوليكية. ولخلاص روحي، لا بدّ لي من الاعتراف هنا بأن هذا التشبيه كان ينطوي على استحسان لبنياني النظري. لكنه ختم كلامه مع ذلك بالقول بأن الأوان قد فات، وبأنه ما عاد في مستطاعه أن يغيِّر شيئاً في كتابه، إذ إن طباعته أنجزت. وهو لم يرَ على كل حال من ضرورة لاحقاً ليقرّ علناً بالتحول الذي طرأ في فكره حيال التحليل النفسي؛ بل آثر، في خلاصاته التي كان ينشرها في دورية طبية، أن يرافق تطور التحليل النفسي بتعليقات ساخرة.

من حسن الحظ أن حساباتي الشخصية كانت قد فقدت الكثير من حدّتها في إبان تلك السنوات. بيد أن ظرفاً بالغ الخصوصية، لم يعرفه الكثير من المجدِّدين المعزولين الآخرين، ساعدني على تحمل حظي العاثر، دونما مرارة أو ضغينة مجاوزة للحدّ. فالمجدِّد الذي لم يُقدَّر حقَّ قدره يجشِّم نفسه بوجه العموم مجهوداً كبيراً ليبحث عن أسباب لامبالاة معاصريه به أو عدائهم له، وهو يرى في هذه اللامبالاة وفي هذا العداء تحدياً حقيقياً لقناعاته التي يتراءى له أنها ترقى إلى مستوى اليقين المطلق. والحال أنني لم أتجشم مجهوداً من هذا القبيل، إذ لم يشقَّ عليّ أن أجد تفسيراً تحليلياً نفسياً صرفاً لموقف معاصريَّ السلبي من نظرياتي. فقد قلت بيني وبين نفسي: إذا صحّ أن الوقائع المكبوتة التي اكتشفتُ وجودها لا يمكن أن تصل إلى وعي المريض، إذ تعارض ذلك مقاومات وجدانية وعاطفية، فلا بدّ أن يكون صحيحاً أيضاً أن ثمة مقاومات مماثلة تتظاهر لدى الإنسان المعافى كلما شاء أحدهم أن يضعه في مواجهة وقائع كان قد خُيِّل له، لسبب أو لآخر، أن من واجبه أن يطردها من وعيه. وأرجح الظن أنه سيسعى إلى تبرير هذا النفور العاطفي في جوهره بأسباب عقلية. وليس لذلك أن يدهشنا، ما دمنا نلتقي مجهود العقلنة Rationalisation[٣٨] هذا نفسه لدى الإنسان

٣٨ ـ العقلنة: ظاهرة نفسية يلجأ بواسطتها الفرد إلى التبرير المنطقي أو العقلي تحاشياً لمعرفة السبب الحقيقي لسلوك بعينه. «م».

المريض الذي يلجأ إلى استخدام الحجج ذاتها على قلة حذاقتها (كان فالستاف[٣٩] يقول: لا شيء أكثر شيوعاً من الحجج خلا التوت البري). والفارق الوحيد إنما يكمن في أنه تتوفر لنا، في حال الإنسان المريض، وسائل ضغط يمكننا معها أن نكشف له عن وجود المقاومات وأن نتيح له إمكانية تذليلها والتغلب عليها، بينما تعوزنا هذه الوسائل في حال الإنسان المعتبر معافى. هل سيكون في مستطاع هؤلاء الأشخاص ذات يوم، وعن أي سبيل، أن يجدوا لزاماً عليهم إخضاع نظرياتي لامتحان هادئ، رائق، موضوعي علمياً؟ كانت هذه لا تزال بالنسبة إليّ معضلة محفوفة بالغموض؛ ولقد قلت بيني وبين نفسي إن خير ما أفعله هو أن أجعل اتكالي على الزمن، وأن أنتظر حلّ المشكلة بفعل التطور الطبيعي للعقول. فكثيراً ما لوحظ في تاريخ العلوم أن توكيداً من التوكيدات، كان اصطدم من الوهلة الأولى بمعارضة عنيفة، لا يلبث في وقت لاحق أن يلقى قبولاً، من دون أن تقوم أدلة جديدة في صالحه.

مهما يكن من أمر، فلن أُدهِش في أرجح الظن أحداً فيما لو ذكرت أن موقف معاصريَّ، في السنوات التي كنت فيها الممثل الوحيد للتحليل النفسي، ما كان من شأنه أن يوحي إليّ بكبير احترام لأحكام الأنام، أو أن يحثّني على التخفيف من صلابتي الفكرية.

٣٩ ـ فالستاف: تحريف لاسم فاستولف، وهو قبطان إنكليزي (نحو ١٣٧٨ ـ ١٤٥٩) انتصر في معارك فرنوي وأورليان في حرب المائة عام، واتخذه شكسبير نموذجاً لبطله فالستاف في مسرحية **هنري الرابع**. «م».

- ٢ -

ابتداء من عام ١٩٠٢ تشكلت حولي مجموعة أطباء شبان، كان هدفهم المعلن تعلم التحليل النفسي لتكريس أنفسهم له، ومن ثم العمل على نشره. وكانت مبادرة هذا التجمع تعود إلى زميل اختبر في شخصه بالذات المفاعيل الحسنة للمعالجة التحليلية[1].

كنا نجتمع في بعض الأماسي في منزلي، ونتناقش متقيدين ببعض القواعد، ونسعى إلى تعرف مواطئ أقدامنا في مضمار الأبحاث الجديد كل الجدة هذا، وإلى إثارة اهتمام الآخرين به[2]. وذات يوم زارنا فتى كان قد أنهى لتوه دراسته في مدرسة مهنية. وكان يحمل مخطوطة نمّت عن تفهم مدهش للتحليل النفسي. فدعوناه إلى متابعة دراسته الثانوية، ثم إلى تسجيل نفسه في الجامعة وإلى تكريس ذاته للتطبيقات غير الطبية للتحليل النفسي. وهكذا صار لمجموعتنا الصغيرة أمين سر مندفع وموثوق، ولم يلبث أوتو رانك Rank[3] أن أصبح، بالنسبة إليّ شخصياً، مساعداً ومعاوناً يصمد في تفانيه وإخلاصه لكل امتحان.

لم تلبث حلقتنا الصغيرة أن توسعت، لكن تركيبها تبدّل غير مرة في إبان السنوات التالية. على أنه يمكنني القول، إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، إنها ما كانت تقلّ شأناً، من حيث تنوع المواهب وغنى القابليات، عن هيئة أعوان أي أستاذ مختص بالدروس السريرية. فقد كانت جماعتنا تضمّ من البداية جميع

١ ـ هو فلهلم شتيكل الذي تقدم التعريف به. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢ ـ على هذا النحو رأت النور **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي** التي صارت لاحقاً **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**: هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٣ ـ ملاحظة أضيفت سنة ١٩٢٤: الذي صار مديراً لدار **المنشورات الدولية للتحليل النفسي**، ومحرراً في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ومجلة **إيماغو** منذ تأسيسهما.

أولئك الذين سيلعبون فيما بعد، في تاريخ الحركة التحليلية النفسية، دوراً مهماً، بل لا غبار عليه في أكثر الأحوال. لكن كان من المتعذر وقتئذ توقع هذا التطور. وما كان لي إلا أن أشعر بالرضى والحبور، وعندي يقين بأنني فعلت كل ما هو منوط بي لكي أضع في متناول الآخرين كل ما كنت أعرفه وما عرفته شخصياً عن طريق التجربة. واقعتان اثنتان فقط ما كانتا تبشِّران بخير، وقد حملتاني في نهاية المطاف على الابتعاد معنوياً عن هذه الحلقة. فأنا لم أفلح في أن أنشر بين أعضائها ذلك الوفاق الودّي الذي ينبغي أن يقوم بين أناس ينذرون أنفسهم لعمل واحد، قاسٍ وشاقّ، كما لم أفلح في استبعاد المناقشات بصدد الأسبقية، تلك المناقشات التي تقدم لها شروط العمل المشترك العديد من الذرائع. وكانت الصعوبات التي ينطوي عليها تعليم التحليل النفسي وتطبيقه العملي - وهي صعوبات جسيمة للغاية وعلّة لمعظم الاختلافات والخلافات الراهنة - قد بدأت مفاعيلها تظهر للعيان منذ ذلك الحين في الاجتماعات الخاصة **للجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. أما أنا، فبالنظر إلى أن التقنية لم تكن قد اكتملت بعد وإلى أن النظرية كانت قيد التطور، لم أجرؤ على تعليم أي منهما بحزم كافٍ؛ وهذا ما أخطأت فيه، لأنني لو فعلت لكنت وفّرت على الآخرين أكثر من خطأ في أغلب الظن ولكنت تداركت أكثر من حيَدان عن الصراط المستقيم. والحق أن المرء يخالجه على الدوام شعور عظيم بالرضى كلما رأى تلاميذه وقد امتلكوا المقدرة على العمل المستقل وانعتقوا من تبعيتهم لمعلمهم. لكن هذا الاستقلال وهذا الانعتاق لا يكونان خصبين من وجهة النظر العلمية إلا إذا ارتبطا ببعض السجايا الشخصية التي غالباً ما يندر وجودها، ويا للأسف. والحال أن التحليل النفسي يقتضي بالتحديد انضباطاً طويل الأمد وصارماً، كيما يتمكن المرء من السيطرة التامة على نفسه. وتقديراً مني للشجاعة التي كانوا يبدونها بانكبابهم على هذا العمل المرذَّل من الآخرين وغير الواعد بكسب مادي في المستقبل، كنت أميل إلى غضّ النظر عن أشياء كثيرة من جانب أعضاء اجتماعاتنا، مع أنها كانت ستصدمني بقوة فيما لو اختلفت الظروف. وعلى كل، لم يكن ينتمي إلى حلقتنا أطباء فحسب، بل كذلك أشخاص مثقفون آخرون شاموا في التحليل النفسي

شيئاً ذا مغزى: كتّاب، فنانون، إلخ. وكان «**تأويل الحلم**» والكتاب عن «**النكتة**»[٤]، إلخ، قد أظهرا أن نظريات التحليل النفسي ليست من طبيعة نظرية حصراً، بل قابلة أيضاً للتطبيق على الفروع البالغة التنوع للعلوم المعنوية.

وخلافاً لكل توقع، طرأ على الوضع في عام ١٩٠٧ تغيُّر مباغت بقدر ما هو شامل. فقد تناهى إلى علمنا أن التحليل النفسي قد أيقظ، بلا ضجيج، اهتمام بعض الأشخاص، وأنه اكتسب أصدقاء، وأن ثمة شغيلة علميين على استعداد للانتساب إليه. وكانت رسالة من بلولر Bleuler قد أعلمتني من قبل أن أبحاثي تُدرس وتستخدم في بورغولزلي[٥]. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٠٧، قدِم د. آيتنغون Eitingon[٦]، من عيادة زوريخ، إلى فيينا، وسرعان ما أعقبت زيارته زيارات أشخاص آخرين كثيرين، مما شرع الأبواب أمام تبادل واسع ونشيط للأفكار. وأخيراً، وبناء على دعوة من ك. غ. يونغ، الذي كان آنئذ طبيباً مساعداً في بورغولزلي، انعقد في سالزبورغ، في ربيع ١٩٠٨، أول اجتماع لأصدقاء التحليل النفسي المقيمين في فيينا وزوريخ وغيرهما. وفي ذلك المؤتمر التحليلي النفسي الأول تقرر تأسيس مجلة، وشرعت فعلاً بالصدور سنة ١٩٠٩ باسم **حولية الأبحاث التحليلية النفسية والسيكولوجية المرضية** بإشراف بلولر وفرويد، وأُسندت رئاسة تحريرها إلى يونغ. وكان المفروض بهذه النشرية أن تكون بمثابة صلة وصل بين فيينا وزوريخ وأن تشجع العمل المشترك للمحللين النفسيين في هاتين المدينتين.

لقد أشدت مراراً وتكراراً بالأفضال الكبيرة لمدرسة الطب النفسي في زوريخ، وعلى الأخص ببلولر ويونغ لمساهمتهما في نشر التحليل النفسي، وليس في نيتي

---

٤ - يشير فرويد هنا إلى كتابه **النكتة وصلاتها باللاشعور**، الصادر عام ١٩٠٥. «م».

٥ - هو مستشفى زوريخ للطب النفسي، وكان مديره يوجين بلولر. «م».

٦ - ماكس آيتنغون: طبيب ومحلل نفسي روسي يهودي (١٨٨١ - ١٩٤٣). هاجرت أسرته إلى ألمانيا فتخرج من جامعة الطب في لايبزغ وعمل في مستشفى بورغولزلي في قسم يوجين بلولر. تولى فرويد نفسه تحليله لفترة قصيرة من الزمن. خلف كارل أبراهام في رئاسة **الرابطة التحليلية النفسية الدولية** ثم هاجر إلى فلسطين حيث أسس الرابطة **التحليلية النفسية الفلسطينية**. وكانت وفاته في القدس عام ١٩٤٣. وله مراسلات مع فرويد استمرت بين ١٩٠٦ و١٩٣٩. «م».

الرجوع اليوم عن هذه النقطة وإن اختلفت الظروف أشد الاختلاف. ومن المؤكد أنه ليس بفضل تدخل مدرسة زوريخ وحده شُدّ انتباه العالم العلمي إلى التحليل النفسي. بل كان التطور طبيعياً في الواقع: فقد كانت مرحلة الكمون قد انتهت وصار التحليل النفسي في كل مكان موضوع اهتمام متزايد باستمرار. لكن يقظة الاهتمام هذه بالتحليل النفسي لم تفضِ في كل مكان آخر إلا إلى شجب محموم في أكثر الأحيان، بينما لم يُسجل سوى التأييد والانتساب له في زوريخ. وفي أي مكان آخر ما كان أنصار التحليل النفسي يشكلون، كما في زوريخ، جماعة متلاحمة، وإن ضئيلة التعداد؛ كذلك لم تكن تتوفر في أي مكان آخر عيادة رسمية موضوعة في خدمة التحليل النفسي، مثلما ما كان أي أستاذ مختص بالدروس السريرية في أي مكان آخر ليجرؤ على إدراج النظريات التحليلية النفسية في المنهاج التعليمي للطب النفسي. هكذا شكّل الزوريخيون نواة الفيلق الصغير المكافح في سبيل الاعتراف بالتحليل النفسي. وهم وحدهم الذين سنحت لهم الفرصة للتبحر في الفن الجديد ولإغنائه بالأبحاث. وأكثر أنصاري ومعاونيّ الحاليين جاؤوا إليّ مروراً بزوريخ؛ وهذا ينطبق حتى على أولئك الذين كانوا، من وجهة النظر الجغرافية، أبعد عن سويسرا منهم عن فيينا. إن فيينا تشغل موقعاً منحرفاً عن المركز في أوروبا الغربية التي تضم غالبية المراكز الكبرى لحضارتنا؛ وقد لحق بسمعتها أذى كبير منذ العديد من السنوات لما أحاق بها من أحكام مسبقة خطيرة؛ بينما يتدفق على سويسرا، حيث الحياة الفكرية في منتهى النشاط، ممثلو جميع الأمم الكبيرة، وأية بؤرة عدوى تتشكل في هذا البلد لا يمكن إلا أن تسهم بأوفر قسط في نشر ما أسماه هوش Hoche[7]، من مدينة فريبورغ، بالوباء النفسي.

٧ ـ ألفريد هوش: طبيب نفسي ألماني (١٨٦٥ ـ ١٩٤٣). كان من دعاة تحسين النسل. درَّس في جامعة فريبورغ حيث تولى إدارة مستشفى الطب النفسي فيها. قابل التحليل النفسي الفرويدي بمعارضة شرسة، وألقى في أيار/ مايو ١٩١٠ في بادن بادن محاضرة بعنوان «وباء نفسي في الأوساط الطبية» اتهم فيها التحليل النفسي بأنه أقرب إلى الخزعبلات الروحانية وأنصاره بأنهم «ناضجون للإحالة إلى مستشفى الأمراض العقلية». وفي سياق دعوته شبه النازية إلى تحسين النسل أصدر عام ١٩٢٢ دراسة بعنوان: **«تحرير الحياة عن طريق تدمير الحياة»** أجاز فيها التصفية الجسدية للمرضى العقليين الميئوس من شفائهم. «م».

طبقاً لشهادة زميل تابَع عن كثب التطور الذي تم في بورغولزلي، فإن الاهتمام فيه بالتحليل النفسي بدأ من وقت مبكر. وقد تضمن بحث ليونغ عن الظاهرات الغيبية، ظهر عام ١٩٠٢[٨]، أول إحالة إلى **تأويل الحلم**. وبدءاً من ١٩٠٣ أو ١٩٠٤، حسبما يروي شاهدي، أفلح التحليل النفسي في احتلال المكانة الأولى. وبعد إقامة علاقات شخصية بين زوريخ وفيينا، تكونت في بورغولزلي في أواسط عام ١٩٠٧، على حدّ ما ذُكر لي، رابطة خاصة كان أعضاؤها يجتمعون دورياً ليناقشوا المسائل المتعلقة بالتحليل النفسي. ولم يكن دور السويسريين، في الاتحاد الذي انعقد بين مدرسة فيينا ومدرسة زوريخ، يقتصر على التلقي والاستقبال فحسب. بل كانوا قد نشروا أبحاثاً علمية محترمة، كانت نتائجها ثمينة للغاية بالنسبة إلى التحليل النفسي. وكانت لهم المبادرة إلى تأويل امتحان التداعيات، الذي قالت به مدرسة فونت[٩]، باتجاه التحليل النفسي، وهذا ما أتاح لهم إمكانيات تطبيقية لامتوقعة. وبذلك صار بالإمكان الحصول على توكيدات اختبارية سريعة للأطروحات التحليلية النفسية، وتقديم عروض برهانية لكل من يريد الإلمام بأصول التحليل النفسي، علماً بأن مثل هذه البرهنة كانت تتم في السابق كلامياً فحسب. والحق أن ذلك كان أول جسر يقام بين علم النفس التجريبي والتحليل النفسي.

إن امتحان التداعيات يتيح الإمكانية، في أثناء المعالجة التحليلية النفسية، للقيام بتحليل كيفي مسبق للحالة المرضية، لكنه لا يغني التقنية بأية مساهمة جوهرية؛ بل من الممكن إنجاز التحاليل بدون اللجوء إليه. وأهم منه كانت المساهمة الأخرى لمدرسة زوريخ، أو بالأحرى لاثنين من قادتها: بلولر ويونغ. فقد بيّن الأول وجود مجموعة كاملة من الحالات الطبنفسانية التي لا سبيل إلى تفسيرها إلا على ضوء سيرورات من نوع السيرورات التي يفسّر بها التحليل

٨ ـ وعنوانه: **حول سيكولوجيا وباتولوجيا الظاهرات المسماة بالغيبية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٩ ـ فلهلم فونت: عالم نفس وفيلسوف ألماني (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠). مؤسس علم النفس التجريبي. من أشهر مؤلفاته: **الوجيز في علم النفس وعناصر لعلم نفس الشعوب**. «م».

النفسي الأحلام والأعصبة (الآليات الفرويدية)[١٠]. واستطاع يونغ من جهته، بتطبيق منهج التأويل التحليلي على ظاهرات الخبل المبكر الأكثر شذوذاً وغموضاً، أن يبرهن على وجود الروابط التي تربطها بحياة المريض السابقة وباهتماماته الحيوية[١١]. وبدءاً من ذلك اليوم ما عاد مباحاً للأطباء النفسانيين الاستمرار في تجاهل التحليل النفسي. ومن الممكن أن يُعد المؤلَّف الكبير لبلولر عن فصام الشخصية (١٩١١)[١٢]، وفيه تحظى النظرة التحليلية النفسية بتقدير مماثل لذاك الذي تحظى به الطريقة السريرية النظامية، تتويجاً للتطور موضوع بحثنا هنا.

لا يسعني إلا أن أغتنم الفرصة السانحة لأنوّه بالفارق الذي كان قائماً، منذ ذلك الحين، بين المدرستين من حيث اتجاه العمل العلمي. فقد كنت نشرت، في عام ١٨٩٧، تحليلاً لحالة فصامية[١٣]، لكن بما أن هذه الحالة كانت تتسم بطابع شبه بارانوئي Paranoide حادّ، فإن شفاءها لا يمكن أن يعدّ استباقاً للنتائج المحرزة بعد تحليل يونغ لها. بيد أن ما كان يهمني في المقام الأول ليس تأويل الأعراض، بل آلية المرض النفسية، وقبل كل شيء التشابه، بله التطابق المحتمل، بين هذه الآلية وبين آلية الهستيريا، المعروفة والمثبَتة. وما كنا نعرف من شيء بعد عن الفروق بين الآليتين. وكان الهدف الذي وضعته منذ ذلك الحين نصب عينيّ إرساء الأسس لعلاج الأعصبة بالارتكاز إلى تصور مؤداه أن جميع الظاهرات العصابية والذهانية قابلة للتفسير بمصائر الليبيدو غير السوية وبانحرافاته عن اتجاهه الطبيعي. وكانت وجهة النظر هذه غريبة عن العلماء السويسريين. وعلى حدّ علمي، لا يزال بلولر إلى اليوم نصيراً متحمساً للعلّية العضوانية لجميع أشكال الخبل المبكر. وقد أعلن يونغ ـ الذي كان كتابه حول هذا الموضوع قد صدر عام

١٠ ـ الإحالة هنا إلى مقال بلولر: «**الآليات الفرويدية في علم أعراض الأعصبة**» المنشور عام ١٩٠٦. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١١ ـ الإحالة هنا إلى كتاب يونغ: **حول سيكولوجيا الخبل المبكر** (١٩٠٧). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٢ ـ الإحالة هنا إلى كتاب يوجين بلولر: **الخبل المبكر أو فئة الفصاميين**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٣ ـ الإحالة هنا إلى مقال فرويد: **تحليل حالة بارانويا مزمنة** (١٨٩٧). «م».

١٩٠٧[١٤] - في مؤتمر سالزبورغ عام ١٩٠٨ أنه يؤيد نظرية العلّية السُمّية لهذا المرض؛ وهذه النظرية إن كانت لا تنفي النظرية التي عمادها الليبيدو فإنها تستأهل مع ذلك الأولوية في رأي يونغ. وقد تعثر لاحقاً (١٩١٢)[١٥] عند النقطة عينها، فاستنجد على نحو لا يخلو من غلو وإسراف بالمواد التي كان قد تأبّى كل التأبي آنفاً عن استخدامها.

كان للمدرسة السويسرية مساهمة ثالثة، ولعله ينبغي أن ننسب الفضل الوحيد فيها إلى يونغ، وإن كانت لا تتميز بتلك الأهمية التي يعزوها إليها الأشخاص الغرباء عن التحليل النفسي. أعني بها نظرية العُقَد كما تتجلى في **دراسات في التداعيات برسم التشخيص**[١٦] (١٩٠٦ - ١٩١٠). فهي لا تشكل نظرية سيكولوجية مستقلة ولا تحتل مكاناً لها بصورة طبيعية ومنطقية في مجمل النظريات التحليلية النفسية. وبالمقابل، إن كلمة «عقدة» - وهي مصطلح مناسب ولا غنى عنه في كثير من الأحيان لوصف مجمل الأوضاع النفسية - قد اكتسبت حق المواطنة في التحليل النفسي[١٧]. ومن العسير علينا أن نجد بين سائر المصطلحات والتسميات المبتدعة لتلبية حاجات التحليل النفسي مصطلحاً واحداً يتمتع بمثل تلك الشعبية وجرى استخدامه بمثل ذلك الإسراف، وإن لحق من جراء ذلك ضرر كبير بوضوح المصطلحات ودقة المفاهيم. فكثيراً ما يدور الكلام في الأوساط التحليلية النفسية عن «عودة العقد»، مع أن المقصود في الواقع «عودة الميول» أو «الذكريات المقموعة»؛ كما جرت العادة على القول: «إنني أشعر إزاءه بعقدة»، مع أن الأصح القول: «أشعر إزاءه بمقاومة».

بدءاً من عام ١٩٠٧، أي في السنوات التالية لإقامة علاقات دائمة بين فيينا وزوريخ، عرف التحليل النفسي تلك الانطلاقة المدهشة التي لا نزال نعيش إلى

١٤ - انظر الهامش رقم ١١. «م».

١٥ - الإحالة هنا إلى كتاب يونغ: **تحولات الليبيدو ورموزه**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٦ - كتاب لكارل غوستاف يونغ أشاد به فرويد مراراً.

١٧ - يقرّ فرويد هنا بمديونية التحليل النفسي ليونغ في اعتماد مفهوم العقدة. «م».

اليوم تحت تأثيرها؛ انطلاقة يقوم الدليل عليها في كثرة التآليف عن التحليل النفسي أو ممارسته، وكذلك في تواتر الحملات عليه في الجمعيات العلمية ومؤتمراتها. وقد ذاع أمر التحليل النفسي حتى في أنأى الأمصار، موقظاً الأطباء النفسانيين من سباتهم وجاذباً إليه انتباه المثقفين من غير أهل الاختصاص وممثلي فروع أخرى من العلم. وقد كتب هافلوك إلِّيس Havelok Ellis[18]، الذي تتبع تطوره بتعاطف لكن من غير أن يعلن مناصرته له، كتب في مقال له سنة ١٩١١ يقول: «إن لمذهب فرويد في التحليل النفسي أنصاراً اليوم، وهو قيد الممارسة لا في النمسا وسويسرا فحسب، بل كذلك في الولايات المتحدة وإنكلترا والهند وكندا، وكذلك في أوستراليا في أرجح الظن[19]». وجهر طبيب تشيلي (من أصل ألماني على الأرجح)[20] في مؤتمر بيونس آيرس الدولي (١٩١٠) بتأييده لوجود الجنسية الطفلية، وأثنى على النتائج التي تحرزها المعالجة التحليلية النفسية للأعراض الوسواسية[21]. وأبلغني اختصاصي إنكليزي في الأمراض العصبية، يقيم في الهند الوسطى (بركلي هيل)[22]، بوساطة زميل شهير كان يقصد أوروبا، أن الأعصبة لدى الهنود المسلمين،

١٨ ـ هافلوك إلِّيس: طبيب نفسي بريطاني (١٨٥٩ ـ ١٩٣٩). من مؤسسي علم الجنس. كانت له مراسلات ودية مع فرويد الذي اقتبس منه مفهوم الإيروسية الذاتية. له كتاب ضخم في ثمانية مجلدات بعنوان **دراسات في علم النفس الجنسي** أثار في حينه مناقشات حامية في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية. وقد نشر أيضاً كتاباً بعنوان **عالم الأحلام** اعترضت عليه الرقابة البربطانية فنشره في الولايات المتحدة. وقد صدمت كتاباته النزعة الطهرانية البريطانية، وأكد مثله مثل فرويد ـ الذي كثيراً ما استشهد به ـ على دور الجنس في الهستيريا. «م».

١٩ ـ هافلوك إليس: **مذاهب مدرسة فرويد** The Doctrines of the Freud School.

٢٠ ـ هو ج. غريف، وكنيته الألمانية شليغل. «م».

٢١ ـ G. Greve: Sobre Psicologia Y Psicoterapia De Ciertos Estados Angustiosos: انظر **المجلة المركزية للتحليل النفسي**، المجلد١، ص ٥٩٤.

٢٢ ـ أوين بركلي هيل: طبيب بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٤٤). تخرج من أوكسفورد وعمل في مكتب الخدمات الطبية في الهند ابتداء من عام ١٩٠٧. وقد بقي مقيماً في الهند حتى وفاته حيث عمل على نشر التحليل النفسي بصفته طبيباً مسؤولاً في مستشفى رانشي للطب النفسي. وكانت له مراسلات مع فرويد ومع إرنست جونز الذي تولى تحليله لحقبة أولى. تزوج من امرأة هندوسية، ولكن من دون أن يخرج على التقاليد البريطانية فيما يتصل بالمعالجة النفسية. له سيرة ذاتية بعنوان: **إنسان أكثر من اللازم**. «م».

الذين يطبَّق التحليل النفسي عليهم، ترتبط إتيولوجياً بنفس الأسباب التي ترتبط بها لدى المرضى الأوروبيين.

ودخل التحليل النفسي إلى أميركا الشمالية تحت رعاية كريمة حقاً. ففي خريف ١٩٠٩ دعانا السيد ستانلي هال Hall[٢٣]، رئيس جامعة كلارك، إلى ورسستر (قرب بوسطن)، أنا ويونغ، بمناسبة الذكرى العشرين لتأسيس هذه الجامعة، إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات باللغة الألمانية. وقد تأكد لنا بالمشاهدة، وعلى دهش عظيم منا، أن أعضاء هذه الجامعة الفلسفية ـ التربوية الصغيرة، لكن المحترمة، أشخاص متحررون من الأحكام المسبقة، ومطلعون على الأبحاث التحليلية النفسية التي اتخذوها مادة لتثقيف تلامذتهم بها في دروسهم. والحق أنه في أميركا المحتشمة، البادية الحياء تلك، كان يمكن للدوائر الأكاديمية مع ذلك أن تتكلم بحرية وأن تبحث في ما يُعدّ مستهجناً في الحياة الجارية. والمحاضرات الخمس التي ارتجلتُها في ورسستر قد نشرت فيما بعد، بترجمتها الإنكليزية، في **المجلة الأميركية لعلم النفس** American Journal of Psychology، وبعيد ذلك بنصها الألماني بعنوان **عن التحليل النفسي** Ueber Psychoanalyse[٢٤]. أما محاضرات يونغ فقد درست التداعيات من وجهة نظر التشخيص، وكذلك صراعات النفس لدى الطفل. وقد مُنحنا كلانا لقب LLD الفخري (دكتور في القانونين). وفي ذلك الأسبوع الاحتفالي كان التحليل النفسي ممثلاً في ورسستر، بالإضافة إلى يونغ وإليّ، بفيرنزي[٢٥] الذي حرص على مرافقتي في سفرتي، وبإرنست جونز الذي كان آنئذ أستاذاً في جامعة تورنتو

٢٣ ـ غرانفيل ستانلي هال: فيلسوف وعالم نفسي أميركي (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤). من رواد علم النفس التجريبي في الولايات المتحدة. وقد استضاف في عام ١٩٠٩ سيغموند فرويد لإلقاء محاضرات عن التحليل النفسي.«م».

٢٤ ـ راجع ترجمتنا لهذه المحاضرات في **خمسة دروس في التحليل النفسي**. «م».

٢٥ ـ ساندور فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). صار صديقاً لفرويد بعد أن تولى هذا الأخير تحليله. وتولى بنفسه تحليل ميلاني كلاين وجيزا روهايم. ندد برياء معاصريه من المحللين النفسيين الذين كانوا يبررون فشلهم في معالجة مرضاهم بحجة المقاومة والتحويل السلبي. من أشهر مؤلفاته: **الرضة، تأملات حول المازوخية، الأعصبة الحربية، طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية**، فضلاً عن مراسلات مع فرويد في ثلاثة أجزاء. «م».

(كندا)، وحالياً في لندن، وبـ أ. بريل Brill[٢٦] الذي كان قد شرع بممارسة التحليل النفسي في نيويورك.

لقد عقدنا في ورسستر صلات ـ ارتدت بالنسبة إلى التحليل النفسي أهمية كبرى ـ مع السيد جيمس ج. بوتنام Putnam[٢٧]، أستاذ علم الأمراض العصبية في جامعة هارفارد. وكان هذا قد جاهر قبل بضع سنوات بمعارضته للتحليل النفسي، لكنه غيّر رأيه فيه على حين غرة وطفق يعرضه، بروح ودية، على مواطنيه وزملائه، في أحاديث ثرة المضمون بقدر ما هي جميلة الشكل. وما كان للاحترام الذي يتمتع به في أميركا، لما عرف عنه من سمو في الأخلاق ومن حب متجرد وشجاع للحقيقة، إلا أن يعود بالفائدة على التحليل النفسي، إذ وفّر له درعاً تقيه شرَّ حملات التشهير التي كان من المحتم أن تنال عاجلاً من سمعته. غير أن السيد بوتنام ارتأى من واجبه، صدوعاً منه للمطالب الأخلاقية والفلسفية لطبيعته الكريمة، أن يسأل التحليل النفسي أكثر مما يمكن أن يعطيه، وابتغى أن يضعه في خدمة تصور أخلاقي ـ فلسفي معيَّن للعالم. على أنه يبقى المدافع والسند الرئيسي للحركة التحليلية النفسية في بلاده[٢٨].

وليس لنا، مهما أفضنا، أن نحصر كل ما تدين به هذه الحركة لجونز وبريل. فتعريفاً بها وتسهيلاً لذيوعها وانتشارها عكفا في كتاباتهما، بحماسة لا تعرف الكلل، على تنوير أبناء وطنهما بصدد الوقائع الأساسية للحياة اليومية والأحلام والأعصبة. وقد تميَّز بريل، من هذه الزاوية، بنشاطه الطبي وبترجمته لأعمالي،

---

٢٦ ـ أبراهام بريل طبيب ومحلل نفسي أميركي نمساوي الأصل (١٨٧٤ ـ ١٩٤٨). ترجم أهم مؤلفات فرويد إلى الإنكليزية. ومن مؤلفاته: **التحليل النفسي: نظرياته وتطبيقاته العملية**، **والتصورات الأساسية للتحليل النفسي**. «م».

٢٧ ـ جيمس جاكسون بوتنام: طبيب ومحلل نفسي أميركي (١٨٤٦ ـ ١٩١٨). طبيب أعصاب. شارك في تأسيس **الرابطة الأميركية للتحليل النفسي** وترأسها لمرتين على التوالي وروّج في الولايات المتحدة الأميركية لفكر فرويد. وله عنه مقال مطوّل بعنوان: **انطباعات شخصية حول سيغموند فرويد** مع إحالة خاصة إلى محاضراته التي ألقاها في جامعة ورسستر الأمريكية. «م».

٢٨ ـ هامش أضيف سنة ١٩٢٤: S.J.J. Putnam, Adresses On Psychoanalysis, Internat. Psycho - Analyt. Library, Ni, 1921. وقد توفي بوتنام سنة ١٩١٨.

بينما استهدف جونز الهدف عينه من خلال محاضراته العظيمة الفائدة ومداخلاته الكفاحية في المناقشات التي كانت تنشب في المؤتمرات حول موضوع التحليل النفسي[٢٩].

إن غياب التقاليد العلمية العريقة وعدم تزمت السلطات الرسمية كان من شأنهما تشجيع الحركة لصالح التحليل النفسي في أميركا، بعد أن أعطاها ستانلي هال زخمها الأول. وقد لوحظت في تلك البلاد واقعة خاصة مميّزة تجلّت في أن الأساتذة ومدراء المصحّات العقلية أبدوا تلهفاً إلى تجريب التحليل النفسي يعادل ذاك الذي أبداه النطاسيون العاديون. بيد أن هذه الواقعة هي بذاتها التي تبيِّن لنا أن الكفاح في سبيل التحليل النفسي ما كان يمكن أن يتمخض عن قرار حاسم إلا في الأقطار التي اصطدم فيها بأضرى مقاومة، أي في بلدان المركز القديمة للحضارة.

إن فرنسا، بين سائر البلدان الأوروبية، هي التي أبدت حتى الآن عن أعتى مقاومة للتحليل النفسي، بالرغم من أن الزوريخي أ. مايدر Maeder[٣٠] نشر أبحاثاً ثاقبة قمينة بأن تفتح للقراء الفرنسيين المدخل إلى النظريات التحليلية النفسية. وقد جاءت أولى تظاهرات التعاطف من الأقاليم الفرنسية. وكان موريشو ـ بوشان Morichau - Beauchant[٣١] (من بواتييه) أول من انتسب

٢٩ - بريل: Psychoanalysis, Its Theories And Practical Applications (**التحليل النفسي: نظرياته وتطبيقاته العملية**)، ١٩١٢، وإ. جونز: Papers On Psychoanalysis (**أوراق في التحليل النفسي**)، ١٩١٥. وقد صدرت طبعة ثانية لأول هذين المؤلفين سنة ١٩١٤؛ أما السيد جونز فقد نشر في عام ١٩١٨ طبعة ثانية (مزيدة جداً) من «أوراقه» وأعقبها سنة ١٩٢٣ بثالثة.

٣٠ ـ ألفونس مايدر: طبيب ومعالج نفسي سويسري (١٨٨٢ ـ ١٩٧١). عمل طبيباً مساعداً ليوجين بلولر في عيادة بورغولزلي النفسية التابعة لجامعة زوريخ. وبعد حقبة من الانتصار لأفكار فرويد والترويج لها وترجمة بعض كتاباته إلى الفرنسية افترق عنه لينضوي تحت لواء الحركة الانشقاقية التي قادها كارل غوستاف يونغ. وقد انتقده فرويد على نزعته الروحانية في تفسير الأحلام. من أهم مؤلفاته: **رمزية الأسطورة، مساهمات في علم النفس المرضي للحياة اليومية، الإنسان ومشكلاته، الشفاء والتطور في حياة النفس.** «م».

٣١ ـ رينيه موريشو ـ بوشان: طبيب وأستاذ جامعة الطب في مدينة بواتييه الفرنسية. اشتهر بالرسالة التضامنية التي وجهها عام ١٩١٣ إلى فرويد والتي ندد فيها بموقف بيير جانيه في مؤتمر لندن وأعلن عن استغرابه لتأخر الثقافة الفرنسية في الانفتاح على مذاهب التحليل النفسي. ولكنه بدوره ابتعد عن الحركة الفرويدية غداة الحرب العالمية الأولى. «م».

علناً وجهاراً إلى التحليل النفسي. وفي وقت لاحق (١٩١٣) حاول كل من السيدين إ. ريجيس Régis[٣٢] وهينار Hesnard[٣٣] (من بوردو)، من خلال عرض افتقر في كثير من المواضع إلى الوضوح وكان صادقاً بوجه خاص برمزيته، أن يبددا الأحكام المسبقة لأبناء وطنهما والمناهضِة للنظرية الجديدة. وفي باريس بالذات، يبدو أنه لا يزال يسود رأي شائع، عبّر عنه أفصح تعبير السيد جانيه Janet[٣٤] في مؤتمر لندن (١٩١٣)، ومؤداه أن كل الأشياء الجيدة التي ينطوي عليها التحليل النفسي إنما هي نسخة معدلة عن الأفكار الجانيتية، على اعتبار أن كل ما لا يتفق مع هذه الأفكار إنما هو رديء. وكان جانيه قد اضطر، في أثناء المؤتمر بالذات، إلى تحمُّل سلسلة من التصحيحات

٣٢ ـ إيمانويل ريجيس: طبيب فرنسي (١٨٥٥ ـ ١٩١٨). درّس الطب في عدد من المدن الفرنسية ثم صار أستاذاً في مستشفى سانت آن للطب النفسي ورئيساً لفرع الأمراض العقلية. درس الأعصبة، وبخاصة الهستيريا، مع زميله أنجيلو هينار. وكانت تلك هي الفرصة لاكتشاف أفكار فرويد وللتعاطف معها من موقف نقدي إلى حدّ ما، ولا سيما منها فرضية الإتيولوجيا الجنسية للهستيريا الحَصَرية. وكان كتابه **التحليل النفسي للأعصبة والأذهنة** (١٩١٤) بمثابة تدشين رسمي للمذهب التحليلي النفسي في فرنسا رغم ما تضمَّنه من تشكيك في قيمته العلمية المحضة. «م».

٣٣ ـ أنجيلو هينار: طبيب ومحلل نفسي فرنسي (١٨٨٦ ـ ١٩٦٩). كان لإيمانويل ريجيس تأثر كبير عليه وقد أهداه أول أطروحة له عن اضطرابات الشخصية، وصار مساعداً له في عيادة الطب النفسي بجامعة بوردو. اطلع على كتابات فرويد من خلال ترجمات أخيه أوسفالد هينار لها. وكان أول من قدّم عرضاً لها في فرنسا في مقال مطوّل له تحت عنوان **مذهب فرويد ومدرسته** (١٩١٣). وشارك أستاذه إ. ريجيس في تحرير **التحليل النفسي للأعصبة والأذهنة**، وإن يكن قد حمَّل هذا الأخير بعد وفاته مسؤولية الانتقادات الموجَّهة في هذا الكتاب إلى النظرية الفرويدية. ومن ثم أصدر عام ١٩٢٩ طبعة معدَّلة من هذا الكتاب حذف منها تلك الانتقادات. ولكنه ما لبث بدوره أن انشقّ عن الفرويدية لينضوي تحت لواء الماركسية كما صاغها جورج بوليتزر وليكتشف بعدئذ الفينومينولوجيا والمدرسة التحليلية النفسية اللاكانية Lacane. من مؤلفاته: **نسبية وعي الذات**، **الأرهبة والعصاب الرهابي**، **حياة الغرائز وموتها**، **علم النفس الجنسي المثلي**، **أخلاق بلا خطيئة**، ونُشر له بعد وفاته: **من فرويد إلى لاكان**. «م».

٣٤ ـ بيير جانيه: فيلسوف وعالم نفس وطبيب فرنسي (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧). عمل في مختبر علم النفس في مستشفى سالبترير تحت إشراف جان مارتن شاركو، ودرَّس الفلسفة في جامعة السوربون. وكانت له صلات مع وليم جيمس وهنري برغسون. ونشر نحواً من ثلاثين كتاباً ومئة وعشرين مقالاً. من أشهر مؤلفاته: **مالبرانش والأرواح الحيوانية**، **الآلية النفسية**، **الأعصبة والأفكار الثابتة**، **التطور السيكولوجي للشخصية**، **الحب والكراهية**. «م».

والتقريعات من جانب جونز الذي أظهر له أنه غير متبحِّر تبحُّراً كافياً في المسألة. بيد أننا، إذ نردّ مزاعمه، نجدنا ملزمين بالإقرار بما أداه من مساهمات جدية في مضمار علم نفس الأعصبة.

في إيطاليا، توقفت الحركة دفعة واحدة، بعد بدايات بدت حافلة بالوعود. وفي هولندا وجد التحليل النفسي منفذاً له في زمن مبكر بفضل علاقات شخصية: إذ قام فان إمدن Emden[٣٥] وفان أوفويزن Ophuijsen[٣٦]، وفان رنترغم Rentergem[٣٧] (Freud En Zijn School) والأخوان شتارك Starcke[٣٨] بنشاط نظري وعملي مرموق في هذا المجال[٣٩]. أما في إنكلترا فلم يستيقظ اهتمام الدوائر العلمية بالتحليل النفسي إلا رويداً رويداً، بيد أن بعض الدلائل تبيح لنا أن نأمل أن يصل فيها

٣٥ ـ يان فان إمدن: طبيب ومحلل نفسي هولندي (١٨٦٨ ـ ١٩٥٠). التقى فرويد عام ١٩١٠ وصارا صديقين. انتمى إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** وترأس **الجمعية الهولندية للتحليل النفسي** من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٩، ومن بعدها، وبعد حدوث انشقاق، **الجمعية الهولندية الجديدة للتحليل النفسي**. ترجم إلى الهولندية كتابين لفرويد: **خمسة دروس في التحليل النفسي وتأملات راهنة حول الحرب والموت**. «م».

٣٦ ـ يوهان فان أوفويزن: طبيب ومحلل نفسي هولندي الأصل (١٨٨٢ ـ ١٩٥٠). عمل في عيادة يوجين بلولر في زوريخ، وأسس مع يلجرسما **الجمعية الهولندية للتحليل النفسي**، وانتخب نائب رئيس **للرابطة التحليلية النفسية الدولية**. وعلى إثر حدوث خلافات وانشقاقات أسَّس جمعية جديدة هي **جمعية المحللين النفسيين في هولاندا**. ثم هاجر إلى نيويورك ودرَّس في معهدها التحليلي النفسي، وبقي على التزامه بالتحليل النفسي وممارسته إلى نهاية حياته. «م».

٣٧ ـ ألبرت فان رنترغم: من أوائل من انتمى من الأطباء الهولنديين إلى التحليل النفسي (١٨٤٦ ـ ١٩٣٩). تولى تحليله كارل غوستاف يونغ وراسل فرويد وترجم إلى الهولندية كتابه **مدخل إلى التحليل النفسي**. «م».

٣٨ ـ أوغست شتارك: طبيب ومحلل نفسي هولندي (١٨٨٠ ـ ١٩٥٤). راسل فرويد وكان أول من أدخل التحليل النفسي إلى هولندا. اشتهر بقولة له: «إن ما هو مكبوت في المدينة يعاود ظهوره في المستشفى النفسي». وقد تلقى من فرويد جائزة شرفية. وله نص بعنوان **نواة الهذاء**. وأخوه يوهان شتارك (١٨٨٢ ـ ١٩١٧) مارس الطب في أمستردام وترجم إلى الهولندية كتابين لفرويد: **تأويل الحلم وعلم نفس الحياة اليومية**. «م».

٣٩ ـ جاء أول اعتراف رسمي بتأويل الأحلام والتحليل النفسي في أوروبا على لسان الطبيب النفساني يلجرسما(*) Jelgersma رئيس جامعة لايدن، في خطابه الافتتاحي في ٩ شباط/ فبراير ١٩١٤:
Unbewusstes Geis-Tes Leben, "Beihefte Der Internat, Zeitschr. F.Pschoanal", NI.
(**الحياة النفسية اللاواعية**، في: **من دفاتر المجلة الدولية للتحليل النفسي**).

(*) ـ جربراندوس يلجرسما: أستاذ الطب النفسي وعميد جامعة لايدن في هولندا (١٨٥٩ ـ ١٩٤٢). «م».

التحليل النفسي إلى درجة متقدمة جداً من التطور لما عرف عن الإنكليز من حسّ عملي ومن حب مضطرم للعدالة.

في السويد تخلى ب. بيير Bjerre[٤٠]، الخليفة العلمي لفيتر ستراند Westterstrand[٤١]، مؤقتاً على الأقل، عن الإيحاء التنويمي لصالح المعالجة التحليلية النفسية. وأقرّ ر. فوغت Vogt[٤٢]، (من كريستيانا)[٤٣]، في كتابه Psykiatriens grundtraek الصادر سنة ١٩٠٧، بفضل التحليل النفسي، بحيث يمكن القول إن أول مبحث في الطب النفسي حمل التحليل النفسي على محمل الجدّ قد ظهر باللغة النرويجية. وفي روسيا، لم يطل الوقت بالتحليل النفسي كي ينتزع الاعتراف به ويعرف رواجاً واسعاً: فجميع مؤلفاتي تقريباً، وكذلك العديد من مؤلفات تلاميذي، قد ترجمت إلى الروسية. لكن هذا لا يعني أن الروس قد أفلحوا في الوصول إلى فهم معمّق لنظرياتي. فمساهمات الأطباء الروس في التحليل النفسي لا يزال في الإمكان اعتبارها غير ذات شأن. وحدها مدينة أوديسا تملك في شخص السيد وولف Wulff[٤٤] محللاً نفسياً كفؤاً. وكان إدخال التحليل النفسي إلى العلم والأدب

---

٤٠ ـ بول كارل بيير: طبيب نفسي سويدي (١٨٧٦ ـ ١٩٦٤). أدخل التحليل النفسي الفرويدي إلى الطب السويدي. ولكنه ما لبث لاحقاً أن ابتعد عن المذهب الفرويدي وأكد على أن العقل الواعي أهم شأناً من اللاشعور. قال بـ «الموت النفسي والبعث». وله كتاب بهذا العنوان. «م».

٤١ ـ أوتو جورج فيتر ستراند: طبيب ومعالج نفسي سويدي (١٨٤٥ ـ ١٩٠٧). فتح عيادة نفسية في ستوكهولم ويعدّ أول طبيب سويدي مارس الإيحاء التنويمي. وله في ذلك كتاب بعنوان: **التنويم وتطبيقه في الطب العملي**. «م».

٤٢ ـ رانيار فوغت: طبيب نفسي نرويجي (١٨٧٠ ـ ١٩٤٣). أول من كتب في النرويج عن نظريات فرويد. وكان من دعاة تحسين النسل من منطلق عرقي. وكان نشطاً في حركة مقاومة تعاطي الكحول. وله كتاب عن **التحليل النفسي الفرويدي وسياقه التاريخي**. «م».

٤٣ ـ كريستيانا: الاسم القديم لمدينة أوسلو. «م».

٤٤ ـ موشي وولف: طبيب روسي ألماني الأصل (١٨٧٨ ـ ١٩٧١). تتلمذ على كارل أبراهام وأسس بعد الثورة البلشفية **جمعية موسكو للتحليل النفسي**، وعمل كمحلل نفسي في العيادة الطبية الثانية التابعة لجامعة موسكو. ولكن بعد موت لينين شرعت روسيا تدير ظهرها للتحليل النفسي، فهاجر وولف إلى برلين أولاً، ثم إلى تل أبيب عام ١٩٣٣ حيث شارك في إنشاء **الجمعية الفلسطينية للتحليل النفسي** التي صار اسمها ابتداء من عام ١٩٤٨ **الجمعية الإسرائيلية للتحليل النفسي**. من مؤلفاته بالألمانية: **مساهمات في الجنسية الطفلية**. كما كتب بالإنكليزية والعبرية، فضلاً عن ترجمته بعض مؤلفات فرويد إلى الروسية التي أعيد طبعها مؤخراً. «م».

البولونيين من صنيع ل. جيكلز Jekels[٤٥] في المقام الأول. أما هنغاريا، القريبة غاية القرب من النمسا جغرافياً والبعيدة عنها غاية البعد مع ذلك علمياً، فلم تقدم بعد للتحليل النفسي سوى معاون واحد؛ لكن هذا المعاون يدعى س. فيرنزي ويعدل وحده جمعية بكاملها[٤٦].

---

٤٥ ـ لودفيغ جيكلز: طبيب نمساوي بولوني الأصل (١٨٦٧ ـ ١٩٥٤). أنشأ عيادة في سيليزيا، ثم اطلع على كتابات فرويد وشارك في مؤتمر سالزبورغ للتحليل النفسي، واستقر به المطاف في فيينا حيث تعزز التزامه بالحركة التحليلية النفسية. وعلى إثر قيام النازية في النمسا هاجر إلى السويد ثم إلى الولايات المتحدة حيث انضم إلى **جمعية نيويورك للتحليل النفسي**. من مؤلفاته: **بعض ملاحظات حول نظرية الدوافع الغريزية وعلم نفس الملهاة**. «م».

٤٦ ـ ليس في نيتي أن أستكمل هذا الوصف، الذي وضعت معالمه الأولية سنة ١٩١٤، وصولاً إلى اليوم Up To Date. بل سأضيف فقط بعض ملاحظات مقتضبة بغية التعريف بالتغيرات الطارئة على هذه الصورة في فترة التوقف المتمثلة بالحرب العالمية. ففي ألمانيا تسربت النظريات التحليلية شيئاً فشيئاً إلى الطب النفسي السريري، وإن لم يعترف أحد بذلك؛ كما أفلحت الترجمات الفرنسية لمؤلفاتي، التي صدرت مؤخراً، في إيقاظ اهتمام متزايد بالتحليل النفسي، أكثر توقداً في الأوساط الأدبية منه في الأوساط العلمية. وفي إيطاليا اشتهر السيد ليفي بيانكيني(*) (نوسيرا العليا)(**) وإدواردو فايس(***) (تريستا) كمترجمين للتآليف التحليلية النفسية وكنصيرين للتحليل النفسي (Biblioteca Psicanalitica Italiana). وتشهد طبعة لأعمالي الكاملة في مدريد بترجمة (لويز بالستروز) على الاهتمام الذي تبديه بلدان اللغة الإسبانية بالتحليل النفسي (الأستاذ هـ. دلغادو، في ليما). أما فيما يتعلق بإنكلترا فإن النبوءة التي أفصحت عنها أعلاه تبدو وكأنها تتحقق شيئاً فشيئاً، وقد أنشئ مركز للثقافة التحليلية النفسية في كالكوتا (الهند البريطانية). وفي أميركا الشمالية يُدرَّس التحليل النفسي بجدّ وعمق يتجاوزان من بعيد شعبيته. وفي روسيا يتواصل العمل التحليلي النفسي بنشاط، في عدد كبير من المراكز، منذ نهاية الثورة. وفي بولونيا تصدر في الوقت الراهن المكتبة التحليلية النفسية البولونية Polska Biblioteka Psychoanalytyczna. وأسست في هنغاريا مدرسة زاهرة للتحليل النفسي على يد فيرنزي (انظر Festchrift Zum, 50 Geberstag Von Dr S. Ferenczi). «**الكتاب التذكاري للذكرى الخمسين لولادة د.س. فيرنزي**». والبلدان الاسكندنافية هي التي تبدي اليوم أكبر التحفظ حيال التحليل النفسي (حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣).

(*) ـ ماركو ليفي بيانكيني: طبيب نفسي إيطالي (١٨٧٥ ـ ١٩٦١). عمل في الكونغو، ثم في نوسيرا في إيطاليا. ترأس الجمعية الإيطالية للتحليل النفسي. ورغم تأييده للفاشية فقد أجبر على الاستقالة من إدارة مصحّ نوسيرا بسبب القوانين العنصرية، وعمل بعد نهاية الحرب على إعادة تأسيس الجمعية الإيطالية للتحليل النفسي التي انتخب رئيساً شرفياً لها. مؤلفه الرئيسي: **نبع الحياة أو حاجة الإنسان إلى أن يكون محبوباً**. «م».

(**) ـ نوسيرا: مدينة صغيرة في مقاطعة كمبانيا الإيطالية. ويبدو أن فرويد سماها سهواً نوسيرا العليا، وهي في الواقع نوسيرا الواطئة.

فيما يتعلق بألمانيا، يمكن القول إن التحليل النفسي يشكّل فيها مركز المناقشات العلمية ويقابل من جانب الأطباء وغير أهل الاختصاص في آن معاً بحملات الشجب والاستهجان اللامتحفظة التي، بدلاً من أن تهدأ، تعود فتستعر بين الحين والآخر بعنف متزايد. وما من مؤسسة رسمية فيها مفتوحة لتعليم التحليل النفسي أو لمزاولته، وقليلون هم الأطباء الذين يمارسونه بنجاح. ومؤسسات نظير مؤسسة بنسفانغر Binswanger(٤٧) في كيروزلنجن (في الأراضي السويسرية) ومؤسسة ماركينوفسكي Marcinowski(٤٨) في هولشتاين، هي وحدها التي فتحت أبوابها للتحليل النفسي. ويتولى الدفاع عن التحليل النفسي في برلين ك.أبراهام الذي هو من أبرز ممثليه والذي كان فيما مضى مساعداً لبلولر. وقد يستغرب المرء أن يستمر هذا الوضع على ما هو عليه دونما تغيير منذ سنوات عديدة إذا كان لا يعلم أن الصورة التي رسمناها لا تعبِّر إلا عن المظهر الخارجي للأشياء. ويخطئ هذا المرء فيما لو بالغ في أهمية الموقف السلبي لممثلي العلم الرسميين ولمدراء المؤسسات، وكذلك لأولئك الذين يؤلفون حاشيتهم. فمن الطبيعي أن يتكلم الخصوم بعالي عقائرهم، بينما يلزم الأنصار غير المرتعدي الفرائص رهبةً جانبَ

(***) ـ إدواردو فايس: محلل نفسي إيطالي (١٨٨٩ ـ ١٩٧٠). درس على فرويد وعلى تلميذه بول فيدرن في فيينا وأدخل مذهب التحليل النفسي إلى إيطاليا، وعمل في مصح تريستا العقلي. ولكنه اضطر إلى الاستقالة تأبياً منه عن الانتساب إلى الحزب الفاشي. ولكن استقالته رُفضت، فبقي يعمل حتى عام ١٩٢٩ يوم جدَّد طلب الاستقالة وتخلى عن راتبه التقاعدي وأنشأ مجلتين على التوالي مختصتين بالتحليل النفسي. وبعد سريان مفعول القوانين العنصرية الجديدة اضطر إلى الهجرة مع عائلته إلى شيكاغو. من مؤلفاته: **الطب النفسي والتحليل النفسي، الرمزية التحليلية النفسية، رهاب الخلاء على ضوء سيكولوجيا الأنا، بنية العقل البشري وديناميته**. «م».

٤٧ ـ لودفيغ بنسفانغر: طبيب نفسي سويسري (١٨٨١ ـ ١٩٦٦). تعرَّف إلى التحليل النفسي من خلال بلولر ويونغ، ثم التقى فرويد وانعقدت بينهما مراسلة. لكنه لم يلبث أن ابتعد رويداً رويداً عن التحليل النفسي ليقول بالتحليل الوجودي تحت تأثير فينومينولوجيا إدموند هوسرل ومارتن هايدغر. من مؤلفاته: **الحلم والوجود، الماليخوليا والهوس، التحليل الوجودي، الهذاء، مشكلة الخلاء في طب الأمراض النفسية**. «م».

٤٨ ـ يوهان ماركينوفسكي: طبيب أعصاب ألماني (١٨٦٨ ـ ١٩٣٥). انتمى إلى حركة التحليل النفسي عام ١٩١٠، ثم نزع إلى الاستقلال بنفسه ابتداء من عام ١٩٢٠. له مراسلات مع فرويد نشرت بالألمانية في كتاب مستقل. من مؤلفاته: **طرق جديدة لشفاء الحالات العصبية وشجاعة أن يكون الإنسان ذاته**. «م».

الهدوء. وقد اضطر عدد من هؤلاء الأخيرين، مما كانت مساهماتهم الأولى في التحليل حافلة بالوعود، إلى الانسحاب من الحركة تحت ضغط الظروف. بيد أن هذه الحركة تابعت شقّ طريقها في صمت، مجنِّدة بين الأطباء النفسانيين وغير أهل الاختصاص على حدّ سواء أعداداً متجددة من المنتسبين؛ وقد جذبت إلى المنشورات التحليلية النفسية أعداداً متزايدة باستمرار من القراء، مما اضطر الخصوم بالتالي إلى مضاعفة وسائل هجومهم وتعزيزها. وكثيراً ما سنحت لي الفرصة في إبان الأعوام الأخيرة لآخذ علماً، وأنا أطالع التقارير عن بعض المؤتمرات أو عن جلسات بعض الجمعيات العلمية أو عن بعض المنشورات التحليلية النفسية، بأن التحليل النفسي قد لفظ أنفاسه الأخيرة ودُحض وتمّت تصفيته بصورة نهائية. وبوسعي أن أقتدي، رداً على مثل هذه الإعلانات، بمقال مارك توين TWAIN(٤٩) عندما قرأ في إحدى الصحف نبأ وفاته فوجّه إلى مديرها برقية يعلمه فيها أن «**نبأ وفاتي مبالغ فيه**». فبعد كل إعلان من إعلانات الوفاة تلك، كان التحليل النفسي يدلل على حيوية أعظم من أي وقت سبق، وعلى غنى أكبر بالأنصار والمعاونين، ويجهِّز نفسه بمزيد من وسائل التعبير. والحق أن الإعلان عن موت أحدهم أفضل في كثير من الأحوال من مقابلته بصمت الأموات.

بالتوازي مع توسع التحليل النفسي وانتشاره هذا في المكان، كانت وجهات نظره تطبَّق على علوم أخرى، بفضل دراسة ضروب العصاب والذهان. ولن أتوقف عند هذا المظهر من مظاهر تطور علمنا: فهناك حول هذا الموضوع بحث ممتاز لرانك وساكس Sachs(٥٠) (ظهر في سلسلة

---

٤٩ ـ مارك توين: من أشهر الكتاب الأميركيين (١٨٣٥ ـ ١٩١٠). اسمه الحقيقي صمويل لانغورن كليمانس. ولكنه استعار اسمه الذي اشتهر به من لغة سائقي المراكب البخارية: Mark Twain، أي سجِّلْ باعين، أي طول ذراعين. اشتهر بروحه الساخرة وبروايته **مغامرات توم ساوير**، وبتتمتها **مغامرات هاكلبري فِن**. «م».

٥٠ ـ هانز ساكس: محلل نفسي نمساوي (١٨٨١ ـ ١٩٤٧). وهو غير الشاعر الألماني المعروف بالاسم نفسه (١٤٩٤ ـ ١٥٧٦). تخرج من الجامعة محامياً، ولكنه لما قرأ **تأويل الحلم** لفرويد انتمى حالاً إلى حركة التحليل النفسي، وصار مساعداً لفرويد في اجتماعات **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي**. ثم هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٢ حيث مارس التحليل النفسي الحرّ. اشتهر بكتابه: **معلمي وصديقي فرويد**. والإحالة في النص إلى كتابه المشترك مع أوتو رانك بعنوان **دلالة التحليل النفسي بالنسبة إلى العلوم الفكرية** الصادر عام ١٩١٣. «م».

Grenzfragen للوفنفلد Lowenfeld[٥١] يتضمن عرضاً مفصلاً لهذه المساهمات الجديدة للعمل التحليلي. بيد أنه يجدر بنا القول إننا لا نملك بعد، في هذا المضمار، سوى بدايات ومسوّدات، بل في أكثر الأحيان مجرد مشاريع ونيات. وأولئك الذين أعطي لهم أن يكونوا من العادلين في أحكامهم لن يروا في هذا التقييم أي مأخذ. فعديدة هي المشكلات، لكنه ضئيل للغاية عدد العاملين المستعدِّين لمواجهتها، ناهيك عن أن أكثرهم مضطر إلى تعاطي أشغال أخرى، هي أشغاله الرئيسية، ولا يتصدى للمشكلات التي تخرج عن نطاق اختصاصه إلا بصفته من الهواة. وبالأصل، إن هؤلاء العاملين الآتين إلى التحليل النفسي لا يتقصدون إخفاء كونهم من الهواة، إذ إن مطمحهم الوحيد دلُّ الاختصاصيين على الطريق والاحتفاظ لهم بمكانهم والتمني عليهم باستخدام تقنيات التحليل النفسي ومسلَّماته، يوم يعنّ لهم أن ينكبّوا على العمل. وإن تكن النتائج المحرزة حتى اليوم ليست، بالرغم من كل شيء، مما يستهان به، فمردّ ذلك، من جهة أولى، إلى خصب المنهج التحليلي النفسي، ومن الجهة الثانية، إلى وجود عدد من العلماء الذين نذروا أنفسهم من الآن، ومن دون أن يكونوا في عداد الأطباء، لتطبيقات التحليل النفسي على العلوم الإنسانية.

وليس من العسير تخمين الأمر: فأكثر هذه التطبيقات يرتبط بأعمالي التحليلية الأولى. فقد كشف الفحص التحليلي للعصابيين وتحليل الأعراض العصابية للأفراد الأسوياء عن وجود شروط سيكولوجية لا ينحصر مدلولها بالمضمار الذي اكتشفت فيه. وهكذا أزاح لنا التحليل النفسي، في معرض تفسيره للظاهرات المرضية، النقاب عن الروابط التي تربط هذه الظاهرات بالحياة النفسية السوية، وكذلك عن الصلات القائمة بين الطب النفسي وسائر العلوم المعنية بقدر أو بآخر بدراسة النشاط النفسي. وعلى هذا المنوال قدَّمت بعض

٥١ ـ ليوبولد لوفنفلد: طبيب نفسي ألماني (١٨٥٧ ـ ١٩٢٣). نشر أبحاثاً حول كتاب فرويد **تأويل الحلم** في السلسلة المعروفة باسم **مسائل عن الحدود الفاصلة بين الحياة العصبية والحياة النفسية**. من مؤلفاته: **منهج فرويد التحليلي النفسي والظاهرات النفسية الوسواسية**. «م».

الأحلام النمطية، مثلاً، تفسيراً لبعض الأساطير والحكايا. وبسلوكهما هذا الطريق، كان ركلن Ricklin[٥٢] وأبراهام[٥٣] سباقين إلى دراسة الأساطير، هذه الدراسة التي توجها رانك بأبحاثه عن الميتولوجيا[٥٤]، الملبّية على أتمّ وجه لجميع مقتضيات هذا الفرع العلمي الخاص. ومع تعمق دراسة رمزية الأحلام برزت مشكلات ذات صلة بالميتولوجيا والفولكلور (جونز، ستورفر Storfer)[٥٥] والتصورات الدينية. وأني لأذكر الانطباع العميق الذي ساور أعضاء مؤتمر التحليل النفسي وهم يستمعون إلى تلميذ ليونغ[٥٦] يسلط الضوء على التشابهات القائمة بين الإنشاءات الخيالية للفصاميين وبين أساطير نشأة الكون لدى الشعوب والأزمنة البدائية. وقد وجدت المواد التي قدمتها الميتولوجيا إعادة بناء مثيرة للاهتمام، وإن أكثر قابلية للنقاش، في كتابات يونغ الرامية إلى إقامة صلة بين التظاهرات العصابية من جهة أولى، وبين إبداعات الخيال في المضمارين الديني والميتولوجي من جهة ثانية.

وأفضى استكشاف الأحلام، عن طريق آخر، إلى تحليل الإبداعات الشعرية أولاً، ثم إلى تحليل الشعراء والفنانين أنفسهم. وكانت المعاينة الأولى أن الأحلام

٥٢ ـ فرانز ركلن: طبيب نفسي سويسري (١٨٧٨ ـ ١٩٣٨). عمل أولاً في عيادة بورغولزلي للطب النفسي في زوريخ التي كان يشرف عليها يوجين بلولر. وفي عام ١٩١٠ انتخب أميناً أول **للرابطة التحليلية النفسية الدولية**. نشر مع ابن عمته كارل غوستاف يونغ كتاباً عن ترابط الألفاظ لدى الأصحاء من الناس. وله أيضاً دراسة هامة عن تحقيق الأماني والرمزية في حكايا الجنيات. «م».

٥٣ ـ الإحالة هنا إلى كتاب كارل أبراهام: **الحلم والأسطورة**، لايبزغ ١٩٠٩. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥٤ ـ الإحالة هنا بوجه خاص إلى كتاب أوتو رانك: **أسطورة ميلاد البطل**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥٥ ـ أدولف ستورفر: محام وصحافي وناشر روماني (١٨٨٨ ـ ١٩٤٤). انتمى إلى **الجمعية الفيناوية للتحليل النفسي** ثم تولىّ إدارة **المكتبة التحليلية النفسية الدولية** في فيينا وساهم في نشر أعمال فرويد الكاملة. هرب من النمسا بعد سيطرة النازيين عليها ولجأ إلى أوستراليا. له كتابان عن اللغة: **الكلمات ومصائرها** و**في غاب اللغة**. «م».

٥٦ ـ هو يان نلكن، وهو طبيب نفسي بولوني (١٨٧٨ ـ ١٩٤٠). طرد من جامعة وارسو بسبب ميوله الاشتراكية، فأتم دراسته في كازان في روسيا. عمل في الجيش البولوني وأسر في معسكر للاعتقال في الاتحاد السوفييتي وقتل غيلة. من مؤلفاته: **الدراسة التحليلية النفسية للأمراض العصبية، الثمل والإجرام، أنسنة الحرب على ضوء مسائل الصحة العقلية**. «م».

التي يتخيّلها الشعراء تسلك في كثير من الأحيان، إزاء التحليل، مسلكاً مماثلاً للأحلام الحقيقية (**غراديفا**)(٥٧). وأفسح تصور النشاط النفسي اللاشعوري في المجال لتكوين فكرة أولية عن طبيعة الإبداع الشعري. وفتحت الحاثات الغريزية، التي اضطررنا إلى الاعتراف بدورها في تشكيل الأعراض العصابية، المنافذ إلى ينابيع الخلق الشعري؛ وكانت المسائل التي انطرحت عندئذ هي معرفة رد فعل الفنـان على هذه الدوافع الغريزية وما الثوب الذي يلبِسه لردود فعله (انظر رانك: Der Kunstler(٥٨)؛ وتحاليل سادجر Sadger(٥٩) ورايك Reik(٦٠) وغيرهما للشعراء؛ وكتيِّبي عن **ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي**(٦١)؛ وتحليل

٥٧ ـ **غراديفا**: رواية قصيرة للكاتب الألماني فلهلم جنسن (١٩٠٣)، حللها فرويد في كتابه **الهذيان والأحلام والفن**. «م».

٥٨ ـ **الفنان**. وهو عنوان كتاب لأوتو رانك صدر عام ١٩٠٧ وحاول فيه تفسير الفن بالاعتماد على مبادئ التحليل النفسي. وقد أعجب فرويد بالكتاب، فكلّف رانك بأمانة سر الجمعية الفيينَاوية للتحليل النفسي. «م».

٥٩ ـ إيزيدور سادجر: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٧ ـ ١٩٤٢). أشاد فرويد بدراسته عن الجنسية المثلية في كتابه **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**. كان أول محلل نفسي فييناوي يستخدم مصطلح النرجسية الذي كان سبقه إلى نحته بول ناكه. وقد كتب سيرة حياة فرويد في كتاب ثار حوله فيما بعد جدل كثير ولم يتم العثور إلا على نسخة فريدة منه في مكتبة جامعية يابانية. ومما أخذ عليه أنه وصف فرويد في الفصل الثالث بأنه «سادي رهيب.. قادر على أن يدمِّر شخصاً ما بكلمة واحدة سواء أكان صديقاً أم عدواً». ولكنه ختم كتابه بقوله إن فرويد «كان ملاكاً زرع بذرة فكرة جديدة كيما يكون الناس أكثر سعادة». وقد مات سادجر في أرجح الظن في معسكر اعتقال نازي عام ١٩٤٢. «م».

٦٠ ـ تيودور رايك: طبيب نفسي نمساوي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٩). كان من أوائل أنصار فرويد في فيينا. وكانت أطروحته عن رواية فلوبير **تجربة القديس أنطونيوس** أول أطروحة تحليلية نفسية أدبية في نوعها. وقد دعمه فرويد مالياً أثناء دراسته للتحليل النفسي. وبعد الهيمنة النازية هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية، ولكن المحللين النفسيين الأميركيين رفضوا ضمّه إلى صفوفهم لأنه غير حائز على شهادة دكتوراه، فعمل بمفرده على تأسيس **الرابطة القومية للتحليل النفسي** التي باتت تعدّ من أشهر معاهد نيويورك. من مؤلفاته: **الحاجة القسرية إلى الاعتراف، القاتل المجهول، المازوخية لدى الإنسان المعاصر**. وأشهر كتاب له يحمل عنواناً غريباً هو: **السمع بأذن ثالثة**، ويعني بها الأذن اللاشعورية التي يستمع بها المحللون النفسيون إلى رغبات مرضاهم وأخاييلهم اللاشعورية. ومشهورة أيضاً دراسته عن الأسطورة والشعور بالذنب التي سلَّط فيها الضوء على دور المازوخية في التدين. «م».

٦١ ـ نشرت الترجمة العربية لكتاب فرويد: **ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي**، بالإضافة إلى دراسته عن دستويفسكي، في كتاب واحد بعنوان **التحليل النفسي والفن**، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت (الطبعة الأولى، نيسان ١٩٧٥).

أبراهام لسيغانتيني[٦٢]. وبالنظر إلى أن معظم المحللين يهتمون بمسائل ذات صفة عامة، فقد أسهموا بأبحاثهم في حلّ تلك المشكلات التي هي، من بين سائر المشكلات التي تصلح لتطبيقات التحليل، أدعاها إلى الإغراء بدراستها. وغنيّ عن البيان أنه كان لا بد، في هذا المضمار أيضاً، من التصدي لمعارضة أولئك الذين لم يطلعوا على التحليل النفسي، ومن مواجهة نفس أشكال سوء الفهم وحملات الاستهجان المسعورة التي قوبل بها التحليل النفسي في مضماره الخاص بحصر المعنى. ولقد كان يسع المرء، بالفعل، أن يتوقع أن يتعرض التحليل النفسي، حيثما حاول الدلوف، لهجمات أصحاب الشأن والقيّمين على الأمر. لكن لا بدّ من القول، على كل حال، أن المحاولات الاقتحامية للتحليل النفسي لم توقظ بعد في كل مكان اهتماماً متماثلاً، وأن ثمة صراعات أخرى تنتظره مستقبلاً. ومن بين التطبيقات العملية الصارمة للمنهج التحليلي على النقد الأدبي يجدر بنا أن نخص بالذكر مؤلف رانك الأساسي عن زنا المحارم[٦٣]، وهو مؤلَّف ينتظره بكل تأكيد استقبال لن يكون بحال من الأحوال ودياً. أما تطبيقات التحليل النفسي على اللغة والتاريخ فلا تزال ضئيلة التعداد. وقد كنت أول من حاول، في سنة ١٩١٠[٦٤]، التطرق إلى المشكلات المرتبطة بعلم النفس الديني، من خلال التشابه الذي أثبتُّ وجوده بين الطقوس الدينية وطقوس العصابيين. وقد حاول د. بفستر Pfister[٦٥]، وهو قسّ من

٦٢ ـ الإحالة هنا إلى كتاب كارل أبراهام: **جيوفاني سيغانتيني**(*): **دراسة تحليلية نفسية**، لايبزغ وفيينا ١٩١١. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

(*) ـ جيوفاني سيغانتيني: رسام إيطالي (١٨٥٨ ـ ١٨٩٩)، ذو منزع رمزي، رسم مشاهد جبلية مهيبة كما كان يراها في معزله في الجبال السويسرية.. «م».

٦٣ ـ الإحالة هنا إلى كتاب أوتو رانك: **موضوع زنا المحارم في الإبداع الأدبي والأسطورة**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٦٤ ـ سهو من فرويد أو خطأ مطبعي، والتاريخ الصحيح هو ١٩٠٧، وهو العام الذي نشر فيه فرويد مقاله: **الأفعال القهرية والممارسة الدينية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٦٥ ـ أوسكار بفستر: قسّ ومربٍّ سويسري (١٨٧٣ ـ ١٩٥٦). بتأثير من كارل غوستاف يونغ اهتم بمعرفة فكر فرويد وراسله مطولاً بصدد علاقة التحليل النفسي بالدين والتربية. وكان أحد المبادرين إلى تأسيس **الجمعية السويسرية للتحليل النفسي**. وأولى اهتماماً خاصاً لعقدة أوديب ولحَصَر الخصاء وللجنسية الطفلية. ولكن عندما كتب فرويد كتابه عن الدين: **مستقبل وهم** (١٩٢٧) ردّ عليه بكتاب بعنوان **وهم مستقبل**. «م».

زوريخ، في كتابه عن **ورع الكونت زنزندورف**[٦٦] (وفي تآليف أخرى)، أن يربط الهواجس الدينية بالإيروسية المنحرفة؛ ونلاحظ في آخر أبحاث مدرسة زوريخ[٦٧] مجهوداً يرمي، من قبيل المعارضة المقصودة، إلى إقحام تصورات دينية على التحليل.

في الفصول الأربعة التي يتألف منها كتابي **الطوطم والتابو**، حاولت أن أطبق المنهج التحليلي على مشكلات ذات صلة بعلم نفس الشعوب، تعيدنا في الزمن إلى أصول أهم مؤسسات حضارتنا: التنظيم السياسي والأخلاق والدين، وكذلك تحظير زنا المحارم وتوبيخ الضمير. فإلى أي حدّ ستقتدر الفرضيات التي خُيِّل إليّ أن بمقدوري صياغتها بصدد هذا الموضوع على الصمود في مواجهة هجمات النقد؟ هذا ما يتعذر التكهن به في الوقت الحاضر.

يمثل كتابي عن **النكتة** أول محاولة لتطبيق المنهج التحليلي على مسائل من علم الجمال. وهذا، في الحق، مضمار لم يتمّ سبره بعد، وهو يعد عاملي الغد باكتشافات ثرة. ونحن نفتقر إلى علماء متخصصين في الفروع المناظرة لهذه المسائل، وإنما طلباً لمعونتهم أسس هانس ساكس Sachs مجلة **إيماغو** Imago التي يديرها منذ عام ١٩١٢ بالتعاون مع رانك. وقد دشّن هتشمان Hitschmann[٦٨] وفون فنترشتاين[٦٩] في

٦٦ - نيقولاس فون زنزندورف: نبيل ومترهب ألماني، مجدد رهبانية الإخوة المورافيين (١٧٠٠ - ١٧٦٠). و العنوان الكامل لكتاب القس بفستر: **ورع الكونت لودفيغ فون زنزندورف، مساهمة تحليلية نفسية في معرفة سيرورات الإسماء الديني وتفسير التقوى.** «م».

٦٧ - مدرسة زوريخ: هي المدرسة التي ارتبطت باسم كارل غوستاف يونغ قبل انشقاقه عن التحليل النفسي الفرويدي. «م».

٦٨ - إدوارد هيتشمان: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٧١ - ١٩٥٧). كان من أوائل تلامذة فرويد وبقي على وفائه له طول حياته. انتسب إلى **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي** التي ضمت الرعيل الأول من المحللين النفسيين، وصار فيما بعد طبيب أسرة فرويد. من مؤلفاته: **نظريات فرويد حول الأذهنة والرجال العظام: دراسات تحليلية نفسية.** «م».

٦٩ - ألفريد فون فنترشتاين: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٥ - ١٩٥٨). بعد أن قرأ **تأويل الحلم** اتصل بفرويد وحضر محاضراته وانتمى عام ١٩١٠ إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. تولى تحليله كارل غوستاف يونغ، ومن بعده إدوارد هيتشمان، ثم مارس التحليل بنفسه. اهتم بتطبيق الأفكار التحليلية على الأدب. ومع الهيمنة النازية على النمسا مُنع من ممارسة التطبيب النفسي بحجة أنه ليس من عرق آري خالص. شارك بعد الحرب في إعادة تأسيس **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** وترأسها عام ١٩٤٩. له كتاب عن **التخاطر** وآخر عن **أصل المأساة**. «م».

هذه المجلة التفسير التحليلي النفسي للمذاهب والشخصيات الفلسفية، من خلال أبحاث نتمنى لو قُيِّض لها الاستمرار والمزيد من التبحر.

إن الاستنتاجات ذات المفعول الثوري التي تراءى للتحليل النفسي أنه مستطيع صياغتها بصدد حياة الطفل النفسية، والدور الذي تلعبه فيها الحاثات الجنسية (فون هوغ ـ هلموت V.Hug Hellmuth)[٧٠]، والمصير المقيَّض للعناصر المكوِّنة للجنسية، وهي العناصر التي لا تعود صالحة للاستعمال بهدف الإنجاب، إن هذه الاستنتاجات والكشوف قد جذبت إليها بالضرورة انتباه علماء التربية وشجّعتهم على محاولة تطبيق وجهات النظر التحليلية النفسية على التربية. ولقد كان من فضل القس بفستر أنه قام بهذه المحاولة بحماسة صادق، وأنه أراد أن يشاطره حماسته هذه جميع المربِّين ووزراء النفوس[٧١] (Die Psychoanalytische Methode)، ١٩١٣، المجلد الأول من **الوجيز في علم التربية** لمويمان[٧٢] ومسمر[٧٣]). ولقد أفلح على كل حال في كسب تأييد عدد كبير من المربين السويسريين. وقد آثر بعض زملائه أن يبقوا، بداعي الحذر، بعيدين عن الأضواء، وإن صرحوا بمشاطرتهم آراءه. ويبدو أن بعض المحللين الفييناويين هجروا التحليل النفسي لصالح نـوع من علـم التربية الطبية (آدلر

---

٧٠ ـ هرمين فون هوغ ـ هلموت: الاسم المستعار للمحللة النفسية للأطفال هرمين فلهلمين هوغ فون هوغنشتاين (١٨٧١ ـ ١٩٢٤). حللها إيزودور سادجر ونشرت مقالات في مجلة **إيماغو** عن التطبيق الطفلي للتقنية التحليلية النفسية. نشرت عام ١٩١٩، وتحت اسم مستعار (غريت لينر)، **يوميات تحليلية نفسية لفتاة صغيرة**، فعرف نجاحاً كبيراً. ولكن شكوكاً نقدية أحاطت لاحقاً بمصداقية هذا النص الذي اعتبر سيرة ذاتية. وقد لقيت المؤلفة مصرعها خنقاً على يد ابن أخيها رولف هوغ الذي لم يكن له من العمر سوى ١٨ عاماً. وبعد أن قضى فترة عقوبته في السجن رفع دعوى على **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** مطالباً إياها بتعويض مادي باعتباره «ضحية للتحليل النفسي». «م».

٧١ ـ وزراء النفوس: Seelsorger: تعبير شائع بالألمانية يطلق على القساوسة ورجال الدين المكلفين برعاية نفوس المؤمنين. «م».

٧٢ ـ إرنست مويمان: مربٍّ ألماني (١٨٦٢ ـ ١٩١٥). يعتبر مؤسس علم التربية التجريبي في ألمانيا. درّس الفلسفة في جامعة زوريخ، ثم أنشأ «مختبر علم النفس». ارتبط اسمه بـ «العريضة اللاهوتية» التي طالب فيها بتطبيق الخدمة العسكرية الإلزامية على طلبة اللاهوت البروتستانتي. من مؤلفاته: **محاضرات مدخلية إلى التربية التجريبية والذكاء والإدارة**. «م».

٧٣ ـ أوسكار مسمر: مربٍّ سويسري وشريك إرنست مويمان في إصدار **الوجيز في علم التربية**. «م».

Adler وفورتمولر Fortmuller[٧٤]، Heilen Und Bilden، ١٩١٣)[٧٥].

لقد حاولت، في هذا التعداد غير الكامل، أن أبرز للعيان الوشائج العديدة القائمة بين التحليل النفسي الطبي وبين فروع أخرى من العلم. والحق أن ثمة عملاً ينتظر جيلاً بكامله من الباحثين، وإني لعلى يقين بأن هذا العمل لن يكون في المستطاع التصدي له وإنجازه على الوجه الواجب إلا متى ما انهارت المقاومات التي يصطدم بها التحليل النفسي في مسقط رأسه بالذات[٧٦].

لن يكون عملنا إلا عقيماً وفائتاً أوانه فيما لو عرضنا هنا تاريخ هذه المقاومات. وليس في هذا التاريخ ما يدعو إلى التباهي بالنسبة إلى ممثلي العلم في زمننا الحاضر. بيد أنني أحرص على أن أضيف القول إنه لم يخطر لي ببال أن أعدّ خصوم التحليل النفسي أناساً جديرين بالازدراء، جميعهم بلا تمييز، لمجرد أنهم خصوم، ما خلا بعض الدجالين الساقطين والمصطادين في المياه العكرة، ممن لا يخلو منهم كلا المعسكرين. ولقد كنت قادراً على تفسير موقف هؤلاء الخصوم، وكانت التجربة قد علمتني فضلاً عن ذلك أن التحليل النفسي يصعّد إلى السطح أسوأ ما في الإنسان. لكنني كنت قد اتخذت قراراً بعدم الردّ، وقد استخدمت كل نفوذي لردع الآخرين عن الانخراط في حرب كلامية. وكانت فائدة المناقشات العامة أو على صفحات الصحف تبدو مشكوكاً فيها للغاية، بالنظر إلى الشروط الخاصة التي يدور فيها الصراع تأييداً للتحليل النفسي أو معاداة له؛ وكنا على يقين دوماً بأن الغالبية في المؤتمرات وجلسات الجمعيات ستقف ضدنا، وما كنت أسرف في وضع ثقتي في نبل مشاعر خصومي وحبِّهم للعدل. وتدلّ المشاهدة المباشرة على ندرة الأشخاص القادرين على التزام جانب التهذيب أو الموضوعية على الأقل في أثناء النقاش العلمي، وما كان لي أن أفكر بهذا النوع

---

٧٤ - كارل فورتمولر: مدرِّس نمساوي للغات والفلسفة (١٨٨٠ - ١٩٥١). مناضل اشتراكي وعضو **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** بين ١٩٠٩ و١٩١١، ثم صار من أكبر أنصار ألفريد آدلر بعد انشقاقه عن الحركة التحليلية النفسية. «م».

٧٥ - **الشفاء والتأهيل**، منشورات راينهارد، ميونيخ ١٩١٤.

٧٦ - انظر أيضاً مقاليَّ المنشورين في Scientia (المجلد الرابع عشر، ١٩١٣): **حول الاهتمام بالتحليل النفسي**.

من المشاحنات من دون أن ينتابني الاشمئزاز. هذا الموقف الذي خُيِّل إليّ أنه من واجبي أن أقفه قد أسيء تفسيره على الأرجح؛ فقد تصور المتصورون أنني طيب القلب إلى حدّ الضعف أو أنني خائف إلى حدّ يبيح لهم ألا يحسبوا لي حساباً. وهذا خطأ منهم، لأنني أستطيع بدوري أن أستشيط غضباً وأن أشتم، مثلي مثل غيري، لكني أنفر من إعطاء تعبير أدبي للمشاعر التي تضطرم في أعماق نفسي وأؤثر أن أبقى ملتزماً جانب الاستنكاف التام.

لعلي حسناً كنت سأفعل، من وجهة نظر ما، لو أطلقت العنان لأهوائي ولأهواء معشر من حولي. وقد سمعنا جميعاً بالنظرية التي حاولت أن تفسر التحليل النفسي بالشروط الخاصة المميِّزة للوسط الفييناوي. وهي في الحق نظرية مثيرة للاهتمام، لم يحجم جانيه عن استخدامها حتى في عام ١٩١٣، على الرغم من أنه فخور بكل تأكيد بكونه باريسياً وعلى الرغم من أن باريس لا تملك من حق في أن تعتبر نفسها متفوقة على فيينا من وجهة نظر النقاء الخلقي[٧٧]. تزعم هذه النظرية أن التحليل النفسي، وعلى وجه الخصوص التوكيد الذي ينصّ على أن الأعصبة مرتبطة باضطرابات في الحياة الجنسية، ما كان ليرى النور إلا في مدينة كفيينا، في جو من الشهوانية والفساد الأخلاقي لا تعرفه مدن أخرى، وأنه يمثل فقط صورة، بل قل الإسقاط النظري لهذه الظروف الخاصة المميِّزة للوسط الفييناوي. والحال أنني لم أكن في يوم من الأيام أصدر عن تحزُّب محلّي، لكني استسخفت هذه النظرية من البداية وكدت أسلِّم أكثر من مرة بأن ذلك المأخذ الموجَّه إلى الوسط الفييناوي ما هو إلا تورية غرضها مواراة مأخذ آخر لا يجرؤ أصحابه على الجهر به على الملأ[٧٨]. والحق أن المناقشة غير ممكنة ما لم تتحقق شروط معاكسة. لنفترض أنه توجد مدينة يفرض سكانها على أنفسهم

٧٧ - في المؤتمر الدولي للطب في لندن عام ١٩١٣ أعرب بيير جانيه عن معارضته للتحليل النفسي وأورد في خطابه رأي خصمين من خصوم فرويد خلاصته أنه «يسود في فيينا مناخ جنسي خاص، ضرب من جنّ محلي يهيمن كالوباء على سكانها.. وفي وسط كذاك لا يجد مراقب بعينه مناصاً من أن يعلّق أهمية استثنائية على المسائل المتعلقة بالجنس» (نقلاً عن كورنيليوس حاييم في كتابه: **عن تاريخ الحركة التحليلية النفسية**، باريس ١٩٩١). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٧٨ - تلميح على الأرجح إلى الأصول اليهودية لفرويد. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

قيوداً خاصة من منظور إشباع الحاجات الجنسية ويظهرون في الوقت نفسه قابلية مفرطة للإصابة بالأعصبة: ففي حال كهذه الحال يمكن أن تراود المراقب فكرة الربط بين هاتين الواقعتين وتفسير واحدتهما بالأخرى. ولكن ليس في فيينا شيء من هذا القبيل. فما الفييناويون بأكثر تعففاً ولا أكثر عصابية من سكان أية مدينة أخرى. وكل ما هنالك أن العلاقات بين الجنسين أكثر تحرراً فيها بمقدار طفيف مما في مدن الشمال والغرب الفخورة بتزمتها، كما أنها أقل تحرزاً من هذه الأخيرة. وخصائص الوسط الفييناوي هذه قمينة بأن تضلِّل مراقبنا المفترض أكثر مما تصلح لأن تقدِّم له تفسيراً إتيولوجياً للأعصبة.

على أن مدينة فيينا فعلت كل ما في مستطاعها لتوحي بأنه لم يكن لها من ضلع في ولادة التحليل النفسي. ففي أي مكان آخر من العالم لم تعامل الأوساط المثقفة والعلمية المحللين النفسيين بمثل تلك اللامبالاة العدائية السافرة التي عوملوا بها في فيينا.

لعل تبعة ذلك تقع جزئياً على نفوري من الدعاية. فلو شئت أو قبلت أن تعقد حول التحليل النفسي، في جمعيات فيينا الطبية، جلسات عاصفة، يطلق فيها العنان للأهواء كافة وتنهال فيها على الرؤوس المآخذ والشتائم، فلربما كانت سُحبت اليوم الآراء المسبقة واللعنات المنصَّبة على التحليل النفسي، ولربما ما كان هذا الأخير بقي غريباً في المدينة التي رأى فيها النور. لكن شيئاً من هذا لم يحدث، وكما يقول الشاعر على لسان فالنشتاين Wallenstein: «لم يغفر لي الفييناويون كوني قد حرمتهم من مشهد مسرحي»[٧٩].

إن إفهام خصوم التحليل النفسي، بأقصى ما يمكن من المجاملة، ما ينطوي عليه موقفهم من جور وعسف، ما كان بالمهمة التي أستطيع أنا أداءها. لكن بلولر هو الذي تكفل بها سنة ١٩١١ في نصه: Die Psychoanalyse Freuds Verteidigung Und Kritische Bemerkungen[٨٠] وأوفى بها على نحو

٧٩- **فالنشتاين:** ثلاثية مسرحية كتبها شيلر سنة ١٧٩٨ - ١٧٩٩، واستوحاها من حياة ألبريخت فالنشتاين، القائد الذي حارب أثناء حرب الثلاثين عاماً تحت إمرة إمبراطور النمسا؛ لكنه طمعاً منه في تاج بوهيميا فاوض العدو، فجرى اغتياله بأمر من الإمبراطور. «م».

٨٠ - **التحليل النفسي الفرويدي، دفاع وملاحظات نقدية.**

يستأهل كل تقدير. وكَيْلُ الثناء لهذا العمل، الذي يسدد فيه مؤلفه وانتقاداته إلى كلا الطرفين، أمر طبيعي جداً من جانبي، إلى حدّ أنني سأسارع إلى الجهر بمآخذي عليه. فأنا أجد أنه لا يخلو من بعض التحيُّز، لأن مؤلفه يفرط في تسامحه إزاء أخطاء الخصوم وأغلاطهم، ويغلو في صرامته إزاء نظائرها عند الأنصار. وهذا ما يفسّر في رأيي أن يكون الحكم الذي صدر عن طبيب نفسي من مستوى بلولر، عن عالم مثله لا يرقى الشك إلى كفاءته واستقلاله الفكري، قد بقي بلا تأثير البتة على زملائه. وأنا بكل تأكيد لن أضيف شيئاً إلى علم مؤلف **الانفعالية**[٨١] (١٩٠٦) لو قلت له إن التـأثير الذي يمارسه عمل ما ليس رهناً بقيمة الحجج التي يشتمل عليها بقدر ما هو منوط بطبيعة لهجته الانفعالية. أما التأثير الذي كان يمكن لبلولر أن يمارسه، لا على الأطباء النفسيين الخلّص، وإنما على أنصار التحليل النفسي، فقد بدّده بنفسه في وقت لاحق عندما كشف في نصه Kritik Der Freudschhen Theorie[٨٢] (١٩١٣) عن الوجه الآخر لموقفه من التحليل النفسي. ففي هذا المؤلف لم يترك إلا أقل القليل قائماً من بنيان النظرية التحليلية النفسية، مما أثلج صدور خصوم هذه النظرية الذين اغتبطوا، ولا بدّ، بما أتاهم به من مدد. والحال أن بلولر، في الإدانات التي صدرت عنه، لم يتذرع بحجج جديدة أو بملاحظات أفضل، بل اعتمد على مستوى معرفته الشخصية بالموضوع، هذه المعرفة التي ما عاد يفكر اليوم، خلافاً لما فعله في كتاباته السابقة، بالاعتراف بنقصها وعدم كفايتها. والحق أن التحليل النفسي كان مهدداً هذه المرة بأن يمنى بخسارة مؤلمة. لكن بلولر، في آخر مؤلفاته (Die Kritiken Der Schizophrenie)[٨٣] (١٩١٤)، وهو المؤلف الذي أخِذ فيه عليه أنه أدخل التحليل النفسي إلى كتاب عن الفصام، يحتمي بما يسميه هو نفسه بـ«الاعتداد» فيقول: «لقد قرّ قراري على إبداء اعتدادي بنفسي: فأنا أقدّر

---

٨١ ـ العنوان الكامل لكتاب بلولر: **الانفعالية والإيحاء والبارانويا**. «م».

٨٢ ـ **نقد النظرية الفرويدية**. «م».

٨٣ ـ **انتقادات حول الفصام**. والواقع أن العنوان الأصلي لكتاب بلولر هو **انتقادات حول الأفصمة**، أي بصيغة الجمع. «م».

أن جميع علوم النفس التي اقترحت علينا إلى يومنا هذا لتفسير الروابط التي تربط الأعراض والأمراض النفسية المنشأ بعضها ببعض قد أخفقت في مهمتها، بينما يؤلف علم نفس الأعماق TIEFENPSYCHOLOGIE جزءاً من علم النفس الذي لا زال مطلوباً إنشاؤه والذي يحتاج إليه الطبيب ليفهم مرضاه ويعالجهم عقلانياً. بل إني لأعتقد بأنني، في كتابي عن الفصام، قد خطوت خطوة (وإن لم تحظَ بالتقدير بعد) نحو هذا الفهم. والتصريحان الأولان الصادران عني هما بكل تأكيد صحيحان؛ لكن ليس من المتعذر أن أكون قد ارتكبت خطأ بإدلائي بهذا الأخير».

وبما أن «علم نفس الأعماق» لا يعني شيئاً في واقع الحال سوى التحليل النفسي، ففي مقدورنا راهناً أن نكتفي بهذا الإقرار.

- ٣ -

«عليك بالإيجاز، فما يوم الدينونة إلا قبض ريح»

غوته

بعد سنتين من المؤتمر الخاص الأول للمحللين النفسيين، انعقد المؤتمر الثاني في نورمبرغ[1] هذه المرة (آذار/ مارس - ١٩١٠). وفي الفترة الفاصلة ما بين هذين المؤتمرين، وتحت تأثير الاستقبال الذي قوبلت به في أميركا، وإزاء العداء المتزايد الذي كان يواجَه به التحليل النفسي في أقطار اللغة الألمانية والمدد اللامتوقع الذي جاءه من زوريخ، كنت قد صممت مشروعاً، وأفلحت، في أثناء ذلك المؤتمر الثاني، في وضعه موضع التنفيذ بمساعدة صديقي س. فيرنزي. وكان هذا المشروع يرمي إلى تزويد الحركة التحليلية النفسية بتنظيم، وإلى نقل مركزها إلى زوريخ، وإلى إيكال قيادتها إلى قائد قادر على تأمين مستقبلها. وبالنظر إلى ما أثاره هذا المشروع من اعتراضات كثيرة من قبل أنصاري فسوف أعرض هنا دوافعه بشيء من التفصيل. وأملي أن أفلح في تبرير موقفي، حتى ولو حكم القارئ بأن فكرتي ما كانت مناسبة. لقد كان تراءى لي أن الإبقاء على مركز التحليل النفسي في فيينا لا يمكن إلا أن يعيق الحركة بدلاً من أن ييسرها. وكانت مدينة كزوريخ، تقع في قلب أوروبا وفيها افتتح أستاذ جامعي معهداً للتحليل النفسي، تبدو لي مهيأة أكثر من غيرها لأداء دور مركز الحركة التحليلية النفسية. وقد قلت بيني وبين نفسي، علاوة على ذلك، إن ثمة عقبة أخرى تكمن في شخصي بالذات: إذ كانت محاباة الأنصار وكراهية الخصوم قد شوهتاه إلى درجة بات متعذراً معها تعرفه على حقيقته. ولئن كان بعضهم قد شبهني

١ - ثاني أكبر مدينة في مقاطعة بافاريا الألمانية بعد ميونيخ. وتُلفظ بالألمانية نومبرغ. «م».

بكريستوف كولومبو[٢] وداروين[٣] وكبلر[٤]، فقد عاملني بعضهم الآخر بكل بساطة على أنني مصاب بشلل عام. ولهذا أردت أن أتنحى جانباً وأبتعد عن الأضواء، مثلما أردت أن أبتعد بالتحليل النفسي عن المدينة التي رأى النور فيها. ثم إنني ما عدت أشعر بأنني في مقتبل من العمر؛ ولما كنت أرى أنه لا يزال أمامي طريق طويل، فقد رحت أنظر بهمة فاترة وعزيمة مثبطة إلى القادم من أيامي التي سيتوجب عليّ فيها، وأنا ما أنا فيه من كهولة، أن أتولج بدور القائد والمرشد. ومع ذلك، يبقى القائد ضرورياً، هذا ما كنت أردِّده بيني وبين نفسي. كنت أعلم جيِّد العلم ما الأخطاء التي تترصّد أولئك الذين يتعاطون التحليل النفسي، وكنت آمل أن يتمّ تحاشي قدر كبير من هذه الأخطاء فيما لو وجدت سلطة مؤهّلة لأن تنصح وتحذِّر. وكانت هذه السلطة قد وقعت على عاتقي في بادئ الأمر، لما لي من سبق أدين به لخمسة عشر عاماً من التجربة. وقد تطلعت إلى نقل هذه السلطة إلى رجل أقلّ تقدماً مني في السن، بحيث يتمّ تعيينه خلفاً لي بصورة طبيعية بعد وفاتي. هذا الرجل ما كان يمكن إلا أن يكون ك.غ. يونغ، لأن بلولر كان في مثل سني. وكان من مزايا يونغ، من جهة أخرى، تعدد مواهبه، ومساهماته التي سبق له الإسهام بها في التحليل النفسي، ومركزه المستقل، ومقدرته الأكيدة التي كانت تفرض نفسها على كل من يقربه. وكان يبدو عليه، ناهيك عن ذلك، الاستعداد لعقد أواصر صداقة معي ولغضّ النظر تجاهي عن الأحكام العرقية المسبقة التي كان من معتنقيها إلى ذلك الحين. وما كان لي أن أتوقع، إزاء كل ما كان يشهد لصالحه، أن يتضح أن اختياري كان في غير محلّه لأنه وقع على شخص عاجز عن تحمُّل سلطة شخص آخر وأشدّ عجزاً أيضاً عن فرض سلطته على الآخرين؛ شخص يبدّد طاقته كلها في ملاحقة مصالحه الشخصية دونما أي اعتبار آخر.

٢ ـ أضاف فرويد اسم كريستوف كولومبو نحو (١٤٥١ ـ ١٥٠٦) عام ١٩٢٤. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٣ ـ تشارلز داروين: مبدع نظرية النشوء والارتقاء (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢). «م».

٤ ـ يوهان كبلر: كبير الفلكيين الألمان في القرن السابع عشر (١٥٧١ ـ ١٦٣٠). مطوِّر نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض حول الشمس. «م».

كنت قد ارتأيت وجوب اعتماد شكل رابطة رسمية، تحاشياً للتجاوزات التي يمكن أن ترتكب باسم التحليل النفسي ما إن تتوطد شعبيته. كان من الضروري أن يوجد مركز له سلطة الإعلان عن أن كل تلك السخافات لا تمتّ بصلة إلى التحليل النفسي، وأنها ليست من التحليل النفسي في شيء. أما الجماعات المحلية التي كانت ستتألف منها الرابطة الدولية فرسالتها تعليم طريقة مزاولة التحليل النفسي وتأهيل الأطباء، بحيث تكون هي الضامنة لكفاءتهم. وكنت أرغب أيضاً في أن تقوم بين أنصار التحليل النفسي علاقات صداقة وتآزر، رداً على اللعان الذي كان العلم الرسمي قد استنزله على التحليل النفسي وعلى مقاطعته للأطباء الممارسين للتحليل النفسي وللمؤسسات التي يُزاول فيها.

لهذا، ولا لأي شيء آخر، كنت أرغب في قيام **الرابطة الدولية للتحليل النفسي**، لكن ذلك كان يتجاوز في أغلب الظن حدود ما هو قابل للتحقيق. وكما وجد خصومي أنفسهم مكرهين على الاعتراف باستحالة احتواء هذه الحركة، كذلك كان لزاماً عليّ بدوري أن أنتهي إلى التحقق من استحالة توجيه هذه الحركة في الوجهة التي كنت أريد تعيينها لها. صحيح أن اقتراح فيرنزي جرى الأخذ به في نورمبرغ، وأن يونغ، بعد أن سميّ رئيساً، اختار ركلن أميناً للسر. ثم إنه تقرر، فضلاً عن ذلك، إصدار «صحيفة مراسلة»، الغرض منها تأمين الاتصال بين التجمع المركزي والجماعات المحلية. كما جرى الإعلان عن أن هدف **الرابطة** «دراسة وتطوير العلم التحليلي النفسي الذي أسسه فرويد، سواء أمن حيث أنه علم نفس أم في تطبيقاته على الطب والعلوم المعنوية»، و«تشجيع تبادل المساعدة بين أعضائها في جهودهم لحيازة المعارف التحليلية النفسية ونشرها». غير أن الفييناويين قابلوا المشروع بمعارضة عنيفة. وعبَّر آدلر، بعبارات محتدمة، عن خشيته من أن تقوم على الحرية العلمية رقابة تقيِّدها. ولكن الأمر انتهى بـ «الفييناويين» إلى تأييد المشروع، بعد أن استحصلوا على أن يكون مركز الرابطة لا في زوريخ، بل حيث يكون مكان إقامة الرئيس الذي كان يفترض أن ينتخب لمدة سنتين.

في أثناء المؤتمر بالذات تكونت ثلاث مجموعات محلية: مجموعة برلين

برئاسة أبراهام، ومجموعة زوريخ التي وُضع رئيسها على رأس القيادة المركزية للرابطة، ومجموعة فيينا التي تخليت عن قيادتها لآدلر. وما أمكن لمجموعة رابعة، هي مجموعة بودابست، أن تتكون إلا لاحقاً. كما ما أمكن لبلولر حضور المؤتمر نظراً إلى مرضه؛ وقد ثارت بعض اعتراضات مبدئية على دخوله إلى الرابطة، لكن جرى تنسيبه في نهاية المطاف بعد تدخلي الشخصي، إلا أنه عاد فخرج منها على إثر خلافات نشبت في زوريخ. وبذلك انفصمت الصلة التي كانت تربط مجموعة زوريخ المحلية بمؤسسة بورغولزلي.

كان من النتائج الأخرى لمؤتمر نورمبرغ تأسيس مجلة Zentralblatt Fur Psychoanalyse[٥] التي تولى إدارتها آدلر وشتيكل. وكان لهذه المجلة في الظاهر ميل إلى المعارضة في بادئ الأمر، وقد دافعت عن هيمنة فيينا التي بدا انتخاب يونغ وكأنه يضعها موضع تهديد. لكن لما جاءني مديرا المجلة ـ وقد تعذر عليهما إيجاد ناشر ـ يطمئنانني إلى نياتهما السلمية بإقرارهما لي سلفاً بحق النقض فيما يتعلق بمقالاتهما، قبلت بأن أتكفل بإصدار هذه الدورية التي ظهر عددها الأول في أيلول/سبتمبر ١٩١٠ والتي شاركت فيما بعد مشاركة فعالة في تحريرها.

سأتابع الآن تاريخ المؤتمرات التحليلية النفسية. فثالثها قد انعقد في فايمار[٦] في أيلول/ سبتمبر١٩١١، وتجاوز المؤتمرين الأولين من حيث قوامه وأهميته العلمية. وقد أعرب ج. بوتنام، الذي حضر هذا المؤتمر، لدى عودته إلى أميركا، عن رضاه واحترامه **للموقف العقلاني**[٧] لمن شاركوا فيه واستشهد بالحكم الذي قال إنني أصدرته عليهم: «لقد تعلموا أن يتحملوا الحقيقة»[٨]. وبالفعل، إن جميع أولئك الذين اعتادوا

٥ ـ **النشرة المركزية للتحليل النفسي.**

٦ ـ بلدة ألمانية ذات عراقة فنية. «م».

٧ ـ بالإنكليزية في النص: The Mental Attitude. «م».

٨ ـ On Freud's Psycho - Analytic Method And Its Evolution. "Boston Medical And Surgical Journal". 25 Jan 1912. (**حول منهج فرويد التحليلي النفسي وتطوره، في مجلة بوسطن الطبية والجراحية**، ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩١٢.

على حضور المؤتمرات العلمية ما استطاعوا إلا أن يخرجوا بانطباع إيجابي عن اجتماع المحللين النفسيين ذاك. ولما كنت أنا الذي تولى إدارة المؤتمرين الأولين، فقد منحت يومئذ كل واحد الزمن المطلوب لإلقاء كلمته، وتركت المناقشة تتخذ شكل تبادل حميم للأفكار. أما يونغ، الذي ترأس مؤتمر فايمار، فقد ترك المناقشة تحتدم إثر كل مداخلة، الأمر الذي لم تترتب عليه مع ذلك محاذير جلى في تلك الفترة.

لكن الأمور جرت غير هذا المجرى في المؤتمر الرابع الذي انعقد في ميونيخ في أيلول/ سبتمبر١٩١٣ والذي لا تزال ذكراه حية في أذهان كل من شارك فيه. وقد ترأسه يونغ الذي لم يدلل على قدرٍ كافٍ من الكياسة واللباقة؛ فأصحاب الكلمات ما أُعطوا إلا وقتاً محدّداً، وبالمقابل إن المناقشات ما كانت، لطولها، إلا لتعتِّم على المداخلات الرئيسية. وقد شاءت المصادفة، التي كثيراً ما ترتِّب الأمور على نحو لا يخلو من خبث، أن يختار هوش Hoch السيئ النية[٩]، مسكنه في نفس البيت الذي كان المحللون يعقدون فيه اجتماعاتهم. وهكذا أمكن له أن يقتنع إلى أي حدّ كان باطلاً تعريفه للمحللين النفسيين بأنهم «شيعة متعصبة منصاعة لأمر رئيسها». وبعد مفاوضات شاقة ولا تدعو إلى الاغتباط، أعيد انتخاب يونغ رئيساً **للرابطة الدولية للتحليل النفسي**، وهو منصب لم يتردد في قبوله بالرغم من أن خمسي المقترعين حجبوا عنه ثقتهم. وهكذا تفرّق شمل المجتمعين، دونما رغبة كبيرة في معاودة اللقاء.

كان تركيب **الرابطة الدولية للتحليل النفسي**، في زمن المؤتمر، كالتالي: كانت مجموعات فيينا وبرلين وزوريخ المحلية قد تكونت منذ مؤتمر نورمبرغ (١٩١٠)، وفي أيار/ مايو ١٩١١ تأسست مجموعة في ميونيخ برئاسة د.ل. سيف Seif[١٠]؛ وفي

٩ ـ في المخطوط الأصلي: الروح الخبيث. ولكن فرويد عدل عن هذا الوصف بناء على اقتراح من كارل أبراهام. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٠ ـ ليونار سيف: من أشهر رواد علم النفس الفردي الآدلري في ألمانيا (١٨٦٦ ـ ١٩٤٩). ردّ العديد من الأمراض العضوية إلى أسباب عصابية. ولكن إزاء عدم نجاح الطرائق الحديثة من تنويم وإيحاء انتمى إلى الحركة التحليلية النفسية. وكصديق لألفريد آدلر شاركه في وجهة نظره عن الأسباب الاجتماعية للأعصبة، وأسّس أول جمعية ألمانية لعلم النفس الفردي المقارن في ميونيخ. وبعد أن ذاع صيته ألقى سلسلة من المحاضرات في جامعات لندن وبرمنغهام ويورك وهارفارد وبوسطن. ولكنه اضطر، تحت ضغط النازية، إلى تنحية اسم ألفرد آدلر عن الجمعية. من مؤلفاته: **السلطة والتربية وعلم النفس الفردي والطفلي** «م».

مجرى العام نفسه تألفت أول مجموعة محلية أميركية باسم: The New York Psychoanalytic Society[١١]، وبرئاسة بريل. وفي أثناء انعقاد مؤتمر فايمار تمت الموافقة على تأسيس مجموعة أميركية ثانية، وتشكلت بالفعل في مجرى العام التالي باسم: American Psychoanalytic Association[١٢] وضمّت أعضاء يقيمون في كندا ومناطق شتى من أميركا، وتولى رئاستها ج. بوتنام وأمانة سرها إ. جونز. وقبيل مؤتمر ميونيخ (١٩١٣) تأسست مجموعة بودابست المحلية برئاسة فيرنزي. وبعيد هذا المؤتمر أسّس جونز - وقد قدم للإقامة في لندن - أول مجموعة إنكليزية. وغني عن القول أننا إذا شئنا تكوين فكرة دقيقة عن الأهمية العددية لأتباع التحليل النفسي وأنصاره، فلا بدّ من أن نأخذ في حسابنا أيضاً أولئك الذين ما كانوا ينتسبون - وهم كثرة - إلى أي من تلك المجموعات المحلية الثماني.

يستأهل تطور الأدب التحليلي النفسي الدوري هو الآخر إشارة مقتضبة. فأول نشرية وضعت في خدمة التحليل النفسي كان عنوانها Schriften Zur Angewandten Seelenkunde[١٣]. وكانت عبارة عن نشرية تصدر على فترات غير منتظمة ابتداء من عام ١٩٠٧. وقد ظهرت في هذه السلسلة أبحاث لفرويد (العددان ٧ و١)، وركلن، ويونغ، وأبراهام (العددان ٤ و١١)، ورانك (العددان ٥ و١٣)، وسادجر، وبفستر، وم. غراف Graf[١٤] وجونز (العددان ٥ و١٤)، وستورفر، وفون هوغ - هلموت[١٥]. وجاء تأسيس مجلة **إيماغو** Imago، التي

---

١١ - **جمعية نيويورك للتحليل النفسي.**

١٢ - **الرابطة الأميركية للتحليل النفسي.**

١٣ - **أوراق في علم النفس التطبيقي.**

١٤ - ماكس غراف: صحفي وموسيقي نمساوي (١٨٧٣ - ١٩٥٨). اهتم بالتحليل النفسي على إثر معالجة فرويد لابنه هربرت غراف من رهابه (هانز الصغير). ولكنه ما لبث أن ابتعد عن التحليل النفسي بعد أن تزوج من مريضة لفرويد تدعى أولغا هونيغ. له كتابات عن فاغنر وبتهوفن وشوستاكوفتش فضلاً عن كتاب بعنوان **المرسم الداخلي للموسيقى** درس فيه علاقات الإبداع الموسيقي بالجنس. «م».

١٥ - هامش أضيف سنة ١٩٢٤: في السلسلة نفسها ظهرت لاحقاً أبحاث لسادجر (العدد ١٦، ١٨) وكيهلوز[*] (العدد ١٧).

(*) - آرثر كيلهوز: طبيب نفسي سويسري (١٨٧٩ - ١٩٦٢). حصل على الدكتوراه من قسم الطب النفسي في زوريخ بإشراف يوجين بلولر. له دراسة مشهورة عن التصوف والمتصوف الألماني جاكوب بومه. «م».

سنتحدث عنها لاحقاً، ليلحق بعض الأذى بذلك الشكل من أشكال النشر. وعقب اجتماع سالزبورغ (١٩٠٨) أُنشئت مجلة Jahrbuch Fur Psychoanalytische Und Psychopathologische Forschungen[١٦]، وقد بقي يونغ رئيساً لتحريرها لمدة ٥ سنوات؛ ثم عاودت صدورها بإدارة جديدة وبعنوان معدَّل بعض الشيء: Jahrbuch Der Psychoanalyse[١٧]. وبعد أن كانت عبارة عن ملف مفتوح للأبحاث التعليمية صار هدفها تسليط الأضواء على الأهمية والإمكانيات التطبيقية لجميع مراحل التحليل النفسي ولجميع منجزاته.

أما **النشرة المركزية للتحليل النفسي**، التي صمم مشروعها آدلر وشتيكل عقب تأسيس **الرابطة الدولية** (نورمبرغ ١٩١٠)، فما عرفت إلا وجوداً مقلقلاً. فالعدد العاشر من المجلد الأول أعلن، على الصفحة الأولى، أنه بالنظر إلى الخلاف العلمي الذي نشب بين د. ألفريد آدلر والناشر، اتخذ الأول قراراً بالانفصال بمحض إرادته عن التحرير. وهكذا بقي د. شتيكل المحرر الوحيد لها (صيف ١٩١١). وفي مؤتمر فايمار، رفعت النشرة إلى مقام اللسان الرسمي **للرابطة الدولية**، وتقرر إرسالها إلى جميع أعضاء هذه الرابطة، على أن يُرفع رسم الاشتراك السنوي. وبدءاً من العدد ٣ من السنة الثانية (شتاء ١٩١٢) صار شتيكل المحرر المسؤول الوحيد عن مضمون الأبحاث المنشورة في النشرة. ونظراً إلى موقفه، الذي لا يسعني الكلام عنه جهاراً، اضطررت إلى التخلي عن دوري كناشر وإلى المبادرة إلى تزويد التحليل النفسي على عجل بناطق جديد بلسانه بعنوان: Internationale Zeitschrift Fur Arztliche Psychoanalyse[١٨]. وبفضل جهود جميع المساهمين تقريباً، وكذلك بفضل جهود الناشر الجديد، هـ. هيلر Heller، أمكن للعدد الأول من هذه الدورية أن يصدر في كانون الثاني/ يناير ١٩١٣، كما أمكن لها أن تفرض نفسها لساناً رسمياً **للرابطة الدولية للتحليل النفسي**، بدلاً من الـ Zeitschrift.

١٦ ـ المجلة السنوية للبحوث في التحليل النفسي وعلم النفس المرضي. «م».

١٧ ـ حولية التحليل النفسي.

١٨ ـ المجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي.

في أثناء ذلك، أسس الدكتور هانس ساكس والدكتور أوتو رانك، في بحر عام ١٩١٢، مجلة جديدة، هي **إيماغو**، المخصصة فقط لتطبيقات التحليل النفسي على العلوم المعنوية. وقد حظيت **إيماغو** باهتمام متعاظم، وتابعها حتى القراء الغرباء عن التحليل النفسي بحصر المعنى[١٩].

بالإضافة إلى هذه الدوريات الأربع (**أوراق في علم النفس التطبيقي، الحولية، المجلة الدولية، إيماغو**) نشرت دوريات ألمانية وأجنبية أخرى أبحاثاً تستأهل التصنيف في عداد الأدب التحليلي النفسي. فمجلة Journal Of Abnormal Psychology[٢٠]، التي يصدرها مورتون برانس Prince[٢١]، تشتمل بصفة عامة على أبحاث تحليلية ممتازة تجعل منها الممثل الرئيسي للأدب التحليلي الأميركي. وفي شتاء ١٩١٣ أنشأ وايت White[٢٢] وجلّيف Jelliffe[٢٣]، من نيويورك، مجلة موقوفة على التحليل النفسي (The Psycho

١٩ ـ هامش أضيف سنة ١٩٢٤: أعيد في ١٩١٩ إصدار هاتين المجلتين من قبل **المنشورات التحليلية النفسية الدولية**. وبدءًا من المجلد ٦ ألغيت كلمة «الطبي» من عنوان **المجلة الدولية للتحليل النفسي**.

٢٠ ـ **مجلة علم النفس المرضي** «اللاسوي».

٢١ ـ مورتون برانس: طبيب أعصاب أميركي (١٨٥٤ ـ ١٩٢٩). كان لجان مارتن شاركو، رئيس مدرسة سالبتريير، تأثير كبير عليه، وأسس عيادة هارفارد الطبية النفسية التي صارت مركزاً كبيراً للبحث ولتخريج الاختصاصيين. ورغم تأكيده على أهمية الظاهرات اللاشعورية في الهستيريا، فإنه لم ينتم إلى المدرسة الفرويدية. من مؤلفاته: **انفصام الشخصية، حياتي كشخصية منفصمة، سيكولوجيا قيصر: دراسة في مشاعره وهواجسه.** «م»

٢٢ ـ وليم ألانسون وايت: طبيب نفسي أميركي (١٨٧٠ ـ١٩٣٧). أدار مستشفى للأمراض العقلية في واشنطن ودرَّس في جامعتي جورج تاون وجورج واشنطن وترأس **الجمعية الأميركية للطب النفسي**. من مؤلفاته: **الآليات العقلية، أمراض الجهاز العصبي، دلالة المرض.** «م».

٢٣ ـ سميث إيلي جليف: طبيب أعصاب ومحلل نفسي أميركي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٥). درَّس الطب والصيدلة في جامعة كولومبيا وترأس عدة جمعيات طبية نفسية. نشر مع وليم وايت أول مجلة مخصصة للتحليل النفسي في أميركا، ونشر دراسات عدة لكارل غوستاف يونغ وألفريد آدلر بعد انشقاقهما عن الفرويدية. كتب أكثر من ١٤٠ بحثاً ومقالاً، فضلاً عن الترجمات الأولى لفرويد بالإنكليزية. وتعدّ مكتبته، التي قُدِّر وزنها بأكثر من عشرة أطنان، واحدة من أكبر المكتبات الأميركية الخاصة. من مؤلفاته: **أمراض الجهاز العصبي، التحليل النفسي والمأساة، تقنية التحليل النفسي**. ومن ترجماته: **أسطورة ميلاد البطل** لأوتو رانك. «م».

(Analytic Review)[٢٤]، وهي مجلة كانت تمسّ إليها الحاجة، على اعتبار أن معظم الأطباء الأميركيين المهتمين بالتحليل يجهلون اللغة الألمانية أو لا يتقنونها إتقاناً كافياً[٢٥].

يبقى عليّ الآن أن أتكلم عن ارتدادين حدثا في صفوف المحللين النفسيين، الأول بين تأسيس **الرابطة** (١٩١٠) ومؤتمر فايمار (١٩١١)، والثاني بعد هذا المؤتمر، وإن لم يأخذ صفة عامة إلا في ميونيخ (١٩١٣). ولقد كان من الممكن تجنب الخيبة التي سبّباها لي، لو كنت أخذت بعين الاعتبار، أكثر مما فعلت، ما يحدث لدى الأفراد الخاضعين للمعالجة التحليلية. فلقد آمنت من البداية بأن أول احتكاك مع الحقائق الشاقة التي يزيح التحليل النقاب عنها من شأنه أن يصدّ وينفّر ويثير رغبة في الهرب؛ وما ونيت أعلن أن درجة تفهم كل فرد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمكبوتاته (وبالمقاومات التي تبقي عليها مكبوتة) التي تمنعه من تخطي نقطة معلومة في التحليل. لكن ما لم أتصور قط إمكانيته هو أن يعدل الفرد، بعد أن يكون قد أوغل بتفهمه للتحليل إلى عمق معيَّن، عن كل ما توصَّل إليه، بله أن يخسره. ومع ذلك، إن تجربة المرضى اليومية قد أظهرت لنا احتمال الخسران الكامل للمعرفة التحليلية، تحت تأثير مقاومة قوية بعض الشيء، صادرة عن طبقة أعمق. وهكذا نلاحظ أننا بعد أن نكون، من خلال عمل شاق، قد جعلنا المريض يتفهم بعض المعطيات التحليلية المتفاوتة في أهميتها، وبعد أن نكون قد أفلحنا في تعليمه كيف يتعامل وإياها وكأنها من الأشياء المألوفة التي تخصّه وحده، نلاحظ في إحدى المراحل أنه يفقد، تحت تأثير مقاومة جديدة، كل ما اكتسبه وتعلمه، ويضع نفسه في حالة دفاعية كما في عزّ أيام تدربه. وقد سنحت لي الفرصة لأتبيّن أن المحللين النفسيين يمكن أن يتصرفوا، من وجهة النظر هذه، تصرف المرضى الخاضعين للتحليل.

---

٢٤ ـ **المجلة التحليلية النفسية**.

٢٥ ـ هامش أضيف سنة ١٩٢٤: في سنة ١٩٢٠ أنشأ جونز **المجلة الدولية للتحليل النفسي** (International Journal Of Psycho - Analysis) وهي دورية مخصصة لأميركا وإنكلترا.

إن سرد تاريخ هذين الارتدادين ليس بالمهمة السهلة أو المشتهاة، إذ لا تدفعني إلى ذلك، من جهة أولى، دوافع شخصية قوية بما فيه الكفاية (فأنا ما كنت أنتظر عرفاناً بالجميل، كما أنني لست بالحقود الذي يحفظ الضغينة)، وأنا أعلم حقَّ العلم، من الجهة الثانية، أنني أعرِّض نفسي، بكتابتي لهذا التاريخ، لتخرصات الخصوم ممن لا يتحرجون، وأقدمّ للأعداء المشهد الذي طالما تمنّوا رؤيته: مشهد «المحللين النفسيين وهم يفترسون بعضهم بعضاً». ولقد كنت آليت على نفسي (وهذه قاعدة حاولت جهدي أن أتقيّد بها قدر الإمكان) ألا أناقش خصومي في غير مسائل التحليل؛ وهأنذا أجدني مضطراً إلى خوض المعركة ضد خصوم قدامى أو ضد أولئك الذين لا يزال بودِّهم إلى اليوم أن يتظاهروا بأنهم من الأنصار. لكن لا خيار لي: فلزومي الصمت سيعني وقوف موقف كسل أو جبن وسيلحق بالقضية قدراً من الأذى أكبر من ذاك الذي قد يلحقه بها نَكْء الجراح وتعريتها. وأنا، بكل تأكيد، لن أضيف شيئاً إلى علم الأشخاص المطلعين إذا ما قلت لهم إن نظير هذه البلبلة وسوء التفاهم هذا يحدث أيضاً في داخل حركات علمية أخرى. وكل ما هنالك أن الحركات الأخرى أقدر على إخفاء الأمر، بينما لا يسع التحليل النفسي، الذي يرفض كل الأكاذيب المتواضع عليها، إلا أن يلزم جانب الصدق والصراحة حتى في ظروف كهذه الظروف.

ثمة محذور آخر، أفدح خطورة، يتمثل في أنني لا أستطيع أن أمسك نفسي عن اللجوء إلى التحليل لتوضيح علة موقف المنشقين. والحال أن التحليل لا يصلح للاستخدام كسلاح في المجادلة وحرب الكلام؛ فهو يفترض ارتضاء الشخص المراد تحليله، كما يفترض، بين المحلِّل والمحلَّل، علاقة رئيس بمرؤوس. ينجم عن ذلك أن من يتصدى للتحليل بهدف الجدال لا بدّ له أن يتوقع أن يرتدّ سلاح التحليل إلى نحره، وأن ينحو النقاش منحى يغدو من رابع المستحيلات معه على شخص ثالث غير متحيِّز تكوين اقتناع راسخ. إذاً، سأقلص إلى أدنى حدّ استعمال التحليل، وسأحرص في الوقت نفسه على تحاشي إفشاء الأسرار والموقف الهجومي إزاء خصومي، وسأحذّر قرائي ـ ناهيك عن ذلك ـ من أنني لا أعتبر البتة النهج الذي أزمع اللجوء إليه نقداً علمياً. فأنا لا أكترث بأن أعرف

الجوانب الصائبة التي يمكن أن تنطوي عليها النظريات التي أهاجم واضعيها، كما لا يدخل في نيتي أن أنبري لها بالتفنيد. بل أترك هذه المهمة لمحللين نفسيين أكفاء آخرين، ولقد سبق لهم على كل حال أن أوفوا بشطر منها. وإنما كل بغيتي أن أبيِّن (وبصدد أي النقاط) أن هذه النظريات تمثل نفي التحليل النفسي ولا تملك الحقَّ في الاختباء وراء هذا الاسم. ولئن لجأت إلى التحليل، فلأبيِّن ما الكيفية التي يمكن أن تحدث بها هذه الانحرافات لدى المحلِّلين.

على أنني سأجد لزاماً عليّ، فيما يتعلق بالنقاط التي حولها يدور الخلاف، اللجوء إلى ملاحظات نقدية للدفاع عن الحقوق المشروعة للتحليل النفسي. فلقد كان الهدف الأول للتحليل النفسي الوصول إلى تفسير للأعصبة. وقد نجحنا، بعد أن جعلنا نقطة انطلاقنا واقعتي المقاومة والتحويل، وأخذنا بعين الاعتبار واقعة ثالثة تتمثل بالنسيان، نجحنا في بناء نظرية الكبت، وفي بيان الدور الذي تلعبه الدوافع الغريزية الجنسية واللاشعور في الأعصبة. والتحليل النفسي لم يزعم في يوم من الأيام أنه يقدِّم نظرية كاملة عن الحياة النفسية للإنسان بوجه عام، بل كان كل مطلبه أن تُستخدم معطياته لتكملة وتصحيح المعطيات التي تمّ إحرازها بوسائل أخرى. والحال أن نظرية ألفريد آدلر تتعدى هذا الهدف من بعيد، إذ إنها تطمح إلى أن تقدم، إلى جانب تفسير أعصبة الإنسان وأذهنته، تفسير سلوكه وطبعه. بل سأقول إنها لا تمتّ بصلة إلى نظرية الأعصبة، وإن تعمَّدت، بحكم أصولها، أن تبوِّئها على الدوام مكانة الصدارة. لقد سنحت لي الفرصة، على مدى سنوات عديدة، لدراسة د. آدلر، وما تأبيت في يوم من الأيام أن أتعرف فيه إنساناً موهوباً للغاية، وإن كان فكره ينزع بوجه خاص إلى التأمل المجرد. وكيما أعطي فكرة عن «الاضطهادات» المزعومة التي يدعي أنه عانى منها من قبلي، سأعيد إلى الأذهان أنني عهدت إليه، عقب تأسيس **الرابطة الدولية**، بقيادة المجموعة الفييناوية. ولم أقرر أن أتولج من جديد رئاسة الجلسات العلمية إلا نزولاً عند إلحاف جميع أعضاء الرابطة. ولما تبيَّن لي أنه غير مؤهل كثيراً للتعاطي مع المواد التي يقدمها اللاشعور ولاستعمالها، تأسيت عن ذلك بقولي بيني وبين نفسي إنه حقيق على كل حال باكتشاف العلاقات القائمة بين التحليل النفسي

من جهة وبين علم النفس والأسس البيولوجية للسيرورات الغرائزية من الجهة الثانية؛ وكان مثل هذا التوقع تبرره إلى حدّ ما الدراسات الثمينة التي قام بها عن الدونية العضوانية[٢٦].

وبالفعل، كان شرع بدراسة ما من هذا القبيل، ولكنه فعل ذلك على نحو يوحي (أستخدم هنا رطانته بالذات) وكأنه يستهدف في المقام الأول أن يثبت أن التحليل النفسي جانَبَ الصواب بصدد المسائل كافة، وأن تصديقه الساذج للقصص التي يرويها العصابيون هو الذي جعله يعلِّق مثل تلك الأهمية على الدوافع الغريزية الجنسية. وبوسعي أيضاً أن أفشي سر الدوافع الشخصية لموقفه، على اعتبار أنه حرص بنفسه على إطلاع عدد من أعضاء الجماعة الفييناوية عليها: «أتعتقدون أنه يطيب لي أن أحيا طوال حياتي خامل الذكر في ظلكم؟». وأنا لا أرى ما يستوجب اللوم في موقف فتى يقرّ علناً وجهاراً بطموحه الذي كانت كتاباته قد نمّت عنه. لكن مبلغاً ما بلغ طموح المرء، فلا بدّ له من أن يحاذر أن يغدو ما يسميه الإنكليز Unfair[٢٧] (وهي لفظة تصف موقفاً يملك له الألمان نعتاً أكثر غلظة بكثير). ومن سوء الحظ، لم يتمكن آدلر من تحاشي هذا الموقف، والدليل على ذلك تقدِّمه لنا الخباثات الصغيرة العديدة التي تربل بها كتاباته وادعاءاته المجاوزة الحدّ في الأسبقية. ألم نسمعه مباشرة، في جلسات **الرابطة الفييناوية للتحليل النفسي**، يدَّعي لنفسه الأسبقية إلى القول بتصور «وحدة الأعصبة» وبالتصور «الدينامي» لهذه الأخيرة؟ ولقد كانت دهشتي عظيمة يومئذ، إذ كان يُخيَّل إليّ على الدوام أنني أنا الذي اكتشف هذين المبدأين، في وقت ما كنت أعرف فيه آدلر بعد.

إن ظمأ آدلر هذا إلى احتلال مكان له تحت الشمس ترتبت عليه بالأصل نتيجة لا يملك التحليل النفسي إلا أن يغبط نفسه عليها. فيوم أضحت خلافاتنا العلمية متعذرة التسوية، دعوت آدلر إلى التخلي عن منصبه كمحرر لمجلة

٢٦ ـ الإحالة هنا إلى كتاب ألفريد آدلر: **دراسات حول الدونية العضوانية** (١٩٠٧). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢٧ ـ غير مخلص، سيء النية، إلخ.

النشرة Zentralblatt فاستقال كذلك من **الرابطة** وأسس جمعية جديدة أطلق عليها في البداية اسماً لا ينمّ عن ذوق رفيع هو: «**جمعية التحليل النفسي الحر**». والحال أن الناس العاديين، الغرباء عن التحليل النفسي، يعجزون عن تمييز الفوارق القائمة بين محللين اثنين عجزَنا، نحن الأوروبيين، عن تعرُّف الفروق الدقيقة التي تميِّز بين سحنتين صينيتين. وهكذا بقي التحليل النفسي «الحرّ» يقيم في ظل التحليل النفسي «الأرثوذكسي»، «الرسمي»، واعتبره الناس استطالة له. ولكن آدلر ما عتم أن خطا خطوة أخرى إلى الأمام ـ ونحن لها من الشاكرين ـ فقطع آخر صلاته بالتحليل النفسي وميَّز مذهبه عنه بتسميته «علم النفس الفردي». والحق أن في كوكبنا متسعاً لكل إنسان، ومن المباح لكل واحد أن يتحرك فيه بحرية إذا ما استشعر في نفسه القدرة على ذلك؛ لكن من المستحيل الاستمرار في العيش تحت سقف واحد إذا ما انعدم التفاهم وصار الواحد لا يطيق وجود الآخر. و«علم النفس الفردي» الآدلري يمثل اليوم واحداً من الاتجاهات السيكولوجية العديدة المعارضة للتحليل النفسي، وتطوره اللاحق يقع خارج نطاق اهتمامنا.

لقد كانت نظرية آدلر من البداية عبارة عن «مذهب»، وهذا ما سعى التحليل النفسي على الدوام إلى تحاشيه. وهي تقدم لنا في الوقت نفسه مثالاً ممتازاً على «الصياغة الثانوية» التي يجريها الفكر الصاحي على المواد التي تقدمها الأحلام. وفي حالة آدلر تم استبدال مواد الأحلام بالمواد التي تقدمها الدراسات التحليلية النفسية، منظوراً إليها في المقام الأول من وجهة نظر الأنا، ومختزلة إلى المقولات الملازمة للأنا، ومترجمة ومستخدمة وفقاً لهذه المقولات، وتماماً كما في تكوين الحلم، مُساء فهمها. وعليه، إن نظرية آدلر ذاتها تتميز بما تنفيه أكثر منها بما تثبته، وهي تتألف من عناصر ثلاثة، متفاوتة القيمة: من مساهمات جيدة في علم نفس الأنا، ومن ترجمات لا لزوم لها، لكن مقبولة عند الاقتضاء، للوقائع التحليلية إلى رطانة جديدة، ومن تشويهات وتأويلات عسفية لهذه الوقائع كلما انعدم التوافق بينها وبين مقدمات الأنا. أما عن عناصر أولى هذه المقولات، فإن التحليل النفسي لم يخطر له ببال قط أن يتجاهلها، وإن لم يتراءَ له أنه ملزم بأن يعيرها انتباهاً

خاصاً: بل كان يهمه قبل ذلك أن يبيّن أن ثمة عناصر ليبيدوية تلازم جميع صبوات الأنا. أما نظرية آدلر فتلحّ، على العكس، على العناصر الأنوية الملازمة للحاثات الليبيدوية، وهي وجهة نظر كان يمكن أن تكون خصبة لولا أن آدلر يستخدمها في كل لحظة وآن لينكر الحاثة الليبيدوية لصالح عناصر المقوِّمات الغريزية الأنوية. وهو يسلك، بعمله هذا، مسلك مرضانا جميعاً، ومسلك فكرنا الشعوري بوجه عام، أي باللجوء إلى ما يسمِّيه جونز بالعقلنة[٢٨]، بغية إخفاء الحافز اللاشعوري. ومن هذه الزاوية، إن آدلر منطقي مع نفسه إلى حدّ التصريح بأن نية الوقوف أمام المرأة موقف السيد، أي مجيئها من أعلى، تشكل النابض الرئيس للفعل الجنسي. وإني لأجهل إن كان جرؤ على التعبير عن هذه الفواحش في كتبه أيضاً.

لقد اعترف التحليل النفسي مبكراً بأن كل عرض عصابي لا يظهر إلى حيز الوجود إلا نتيجة لتسوية. ومن ثم لا بدّ للعرض من أن يستجيب بصورة من الصور لمطالب الأنا الذي يتحكم بالكبت، وأن يكون ذا فائدة ما، وأن يتيح إمكانية استخدام ناجع له، وإلا لكان مصيره مصير الحاثة الغريزية الأصلية التي تعرضت للكبت. وعبارة «الكسب من المرض» تعبر كافي التعبير عن هذا الوضع؛ ومباح لنا، فضلاً عن ذلك، أن نجري تمييزاً بين كسب أولي ينتفع به المريض ساعة ظهور العرض وكسب «ثانوي» يتأتى من أن العرَض مرغم، إذا كان يريد توكيد ذاته، على التراكب مع مقاصد أخرى للأنا، وعلى الاعتماد عليها. أما أن تناقص هذا الكسب أو تلاشيه، عقب تغيُّر فعلي، يشكل إحدى الآليات التي يشفى بها المريض من عرضه، فهذه أيضاً واقعة معلومة لدى التحليل النفسي منذ زمن بعيد. والحال أن نظرية آدلر تشدد تشديداً خاصاً على هذه التفاصيل، السهل تبيُّنها ومعاينتها، من دون أن تنتبه البتة إلى أن الأنا يجعل، في العديد من الحالات، من الضرورة فضيلة، فيستطيب العرَض الذي فرض نفسه عليه - وإن يكن في الأصل مستكرهاً - لما يستتبعه من كسب وفائدة، تماماً كما يفعل عندما يقبل بالحصَر

---

٢٨ - الإحالة هنا إلى مقال إرنست جونز: **العقلنة في الحياة اليومية** (١٩٠٨). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

كوسيلة أمان. ويلعب الأنا في هذه الحالات عين الدور الذي يلعبه مهرج السيرك الذي يسعى، بحركاته، إلى إقناع الحضور بأن جميع التغيرات التي تحدث على الحلبة هي من فعل إرادته وأوامره. إلا أنه لا يفلح في أن يقنع أحداً من الحضور سوى الأطفال.

أما العنصر الثاني من العناصر المكوّنة للنظرية الآدلرية فلا يسع التحليل النفسي إلا تبنيه بوصفه شطراً منه. وبالفعل، لا يعدو الأمر أن يكون معطيات تحليلية نفسية استقاها المؤلف، خلال السنوات العشر من العمل المشترك، من المصادر المتاحة للجميع، ويبغي مع ذلك أن يصوِّرها وكأنها من اكتشافه الشخصي، متوسلاً إلى ذلك بمحض تغيير في المصطلحات. وأنا على أتمّ استعداد للإقرار بأن كلمة «ضمانة أمان» أفضل من عبارة «تدبير حمائي» التي كنت أستخدمها شخصياً، لكنني لا أجد أن هذا الاستبدال للفظة بأخرى يترتب عليه تغيُّر في المدلول. بل إننا سنهتدي، في توكيدات آدلر، إلى طائفة من الأشياء المعروفة منذ زمن بعيد فيما لو وضعنا محل كلمتي «استيهام» و«استيهامي»، والفعل المبني من الجذر نفسه، كلمات أقدم عهداً مثل «تخييل» و«تخييلي». ومن حق التحليل النفسي أن يلح على هذا التماثل، حتى ولو كنا نعلم أن المؤلف لم يساهم في العمل المشترك على مدى سنوات عديدة.

إن النظرية الآدلرية، من حيث هي «علم نفس فردي»، لا تنفصل بصورة نهائية عن التحليل النفسي إلا بجزئها الثالث، أي بالتأويلات الجديدة والتحريفات للوقائع التحليلية المحرجة. فالفكرة التي يقوم عليها مذهب آدلر هي أن ميل الفرد إلى توكيد ذاته و«نزوعه إلى التسلط» هما اللذان يتترجمان في شكل «احتجاج رجولي» آسر في المسلك الحياتي وفي الطبع وفي العصاب. والحال أن هذا الاحتجاج الرجولي، الذي يعزو إليه آدلر دور المحرك الرئيسي، ما هو في واقع الأمر سوى الميول المكبوتة التي يفصلها آدلر عن آليتها السيكولوجية، عن طريق تجنيسها SEXUALISATION، وهذا بالضبط ما يتنافى ودعواه بأنه جرَّد الجنسية من الدور الذي يقلِّدها إياه التحليل النفسي في الحياة النفسية. إن الاحتجاج الرجولي له وجود بكل تأكيد، لكن حتى يجعل المرء منه محرك

الصيررورة النفسية، فلا بدّ له أن يكون قبل ذلك قد اعتبر الملاحظة العلمية مجرد مقفز للوثوب إلى أعلى. لنأخذ، على سبيل المثال، أحد التعديلات الرئيسية التي تطرأ على الرغبة الطفلية، نقصد التعديل الذي ينجم عن مراقبة الطفل للعلاقات الجنسية بين الراشدين. فتحليل الأشخاص الذين اضطروا لاحقاً إلى طلب المعالجة الطبية يكشف النقاب عن رغبتين اثنتين استبدَّتا بالمراقب الغضّ العود ساعتئذ: الرغبة (إذا كان صبياً) في أن يكون محل الرجل الذي يلعب الدور الفعال، والرغبة المضادة في التماهي مع المرأة التي لا خيار لها إلا في دور منفعل. إن هاتين الرغبتين تستنفدان معاً إمكانيات اللذة المرتبطة بالموقف. ووحدها الرغبة الأولى قابلة للربط بالاحتجاج الرجولي، وهذا على افتراض أن هذا المفهوم له، بوجه عام، معنى ما. أما الرغبة الثانية، التي لا يكترث آدلر بمصيرها أو يتجاهله، فهي المدعوة مع ذلك إلى أن تلعب دوراً أهم بكثير في العصاب المرشح للظهور مستقبلاً. إن آدلر يسجن الأنا في أنانية شرسة ويقضي عليه بعزلة مستوحشة، بحيث يخيَّل إليه أنه غير ملزم بأن يأخذ بعين الاعتبار سوى الحاثات الغريزية التي تناسبه والتي عليها يوافق؛ ومن ثم إن الحالة العصابية، التي تنتصب فيها هذه الحاثات في مواجهة الأنا وتعارضه، تتجاوز أفق مؤلفنا.

غير أن آدلر لا يبتعد أخطر الابتعاد عن الواقع الذي تشفّ عنه الملاحظة العلمية ولا يقع في أسوأ ضروب التخليط بين المفاهيم كما يحدث له عندما يحاول، طبقاً لإحدى قواعد التحليل النفسي الأساسية، أن يربط مبدأ نظريته بالذات بحياة الطفل النفسية. فهو يخلط هنا على نحو بالغ التعقيد ولا مسوغ له على الإطلاق بين المعنى البيولوجي والمعنى الاجتماعي والمعنى السيكولوجي لكلمتي «المذكر» و«المؤنث». وإنه لمن المتعذر التسليم (والملاحظة تعارض ذلك عند الاقتضاء) بأن الطفل، أذكراً كان أم أنثى، يقيم كل تصوره عن الحياة على أساس الخفض من قيمة المرأة، ويتخذ من الرغبة التالية خطاً هادياً له: «أريد أن أصبح رجلاً بملء معنى الكلمة». ففي البداية، لا يكون لدى الطفل أي فكرة عن الفوارق الجنسية؛ بل يكون راسخ الاقتناع بالأحرى بأن الجنسين كليهما يملكان عضواً تناسلياً واحداً (مذكراً)؛ ولا تطال تأملاته الجنسية الأولى بصورة من الصور الفروق الجنسية، وتكون فكرة دونية المرأة الاجتماعية غريبة

عنه كل الغربة. وعديدات هن النساء اللواتي لا تلعب الرغبة في أن يكنّ من الرجال أي دور في عصابهن. أما الاحتجاج الرجولي فهو قابل لأن يُردّ بسهولة إلى الاضطرابات الطارئة على نرجسية البدايات الأولى بفعل التهديد بالخصاء؛ وبعبارة أخرى، بفعل العقبات الأولى التي تعترض النشاط الجنسي. ولسوف تنتهي جميع المناقشات بصدد أسباب نشوء الأعصبة يوم يتقرر نقلها إلى صعيد الأعصبة الطفلية. وحسبنا أن نقوم بتحليل دقيق ومفصّل لعصاب من الطفولة الأولى حتى تتبدد على مرأى منا جميع الأخطاء المتعلقة بأسباب نشوء الأعصبة وجميع الشكوك المحوِّمة حول دور الدوافع الغريزية الجنسية. لذا وجد آدلر نفسه مضطراً، في نقده لبحث يونغ Konflikte Der Kindlichen Seele[٢٩]، إلى الغلوّ إلى حدّ التلميح بأن مواد هذه الحالة «قد جرى في أرجح الظن توجيهها من قبل الأب» لإكسابها نوعاً من الوحدة[٣٠].

لن ألحّ أكثر من ذلك على الجانب البيولوجي من نظرية آدلر، ولن أسعى إلى أن أتحرى هنا عما إذا كان المذهب الآدلري يقوم في أساسه على الدونية العضوانية الموضوعية أو على الشعور الذاتي بهذه الدونية (يتعذر إبداء رأي قاطع بصدد هذه المسألة). لنقلْ فقط إن العصاب، في تصور آدلر، لا يظهر إلا كمعلول ثانوي لانحطاط عام، بينما تعلّمنا الملاحظة أنه يوجد عدد لا يقع تحت حصر من أناس قبيحين، شائهين، مسيخي الخلقة، هم في أدنى الحضيض من البؤس الفيزيولوجي، لكنهم لا يخطر لهم ببال مع ذلك أن يردوا على ضمور نموّهم بعصاب ما. وأنا أترك جانباً أيضاً الحيلة المثيرة للاهتمام التي تتعمد الخلط بين الشعور بالدونية والشعور بالطفالة Infantilisme. وتظهر لنا هذه الحيلة ما طبيعة القناع الذي يتنكر به عامل «الطفالة»، الذي يلعب دوراً بالغ الأهمية في التحليل النفسي، ليعاود ظهوره في علم النفس الفردي. لكني أحرص بالمقابل على بيان أن جميع المكتسبات السيكولوجية للتحليل النفسي تتبخر وتتلاشى لدى آدلر. ففي كتابه **المزاج العصبي**[٣١] يبدو اللاشعور وكأنه طرفة من طرائف علم

٢٩ ـ **صراعات النفس الطفلية.**

٣٠ ـ **النشرة المركزية للتحليل النفسي**، م١، ص١٢٢.

٣١ ـ المنشور عام ١٩١٢. «م»

النفس، ومبتوت الصلة بمجمل المذهب. وقد صرح فيما بعد، انسجاماً مع منطقه، بأنه لا يهتم كثيراً إن كان هذا التمثل أو ذاك شعورياً أو لاشعورياً. أما فيما يتعلق بالكبت، فلم يفقه فيه شيئاً على الإطلاق قط. نقرأ في تلخيص لكلمة ألقاها في **الجمعية الفيناوية** في شباط/ فبراير (١٩١١): «يبيِّن المؤلف أن المريض، في إحدى الحالات، لم يكبت طاقته الليبدوية التي كان يسعى باستمرار إلى اتقائها، كما لم.. إلخ»[٣٢]. وبعيد ذلك حاجج على النحو التالي في مناقشة دارت في فيينا: «لو سألتم من أين يأتي الكبت، لجاءكم الجواب بأنه معلول للحضارة؛ ولكن لو سألتم في هذه الحال من أين تأتي الحضارة، لجاءكم الجواب بأنها نتاج للكبت. وكما ترون، هذه شعبذة لفظية لا تضاهى». ولو أن آدلر استخدم جزءاً فقط من الأرابة التي راح يدافع بها عن «مزاجه العصبي»، لوجد بكل تأكيد السبيل إلى الخروج من ذلك الإحراج، ولكان أدرك أن الحضارة، من جهة أولى، ترتكز إلى كبوتات الأجيال السالفة، وأنه تقع، من الجهة الثانية، على عاتق كل جيل جديد مهمة صون هذه الحضارة والحفاظ عليها بفرضه على نفسه الكبوتات ذاتها. وأنا أعرف حالة طفل كان يعتبر نفسه مخدوعاً ويرفع عقيرته بالزعيق لأنه إذا ما سأل: «من أين يأتي البيض؟» جاءه الجواب: «من الدجاجات»، وإذا ما سأل من أين تأتي الدجاجات جاءه الجواب: «من البيض». ومع ذلك، لم يكن في الأمر شيء من الشعبذة اللفظية، بل لأن ما قيل للطفل كان هو الحقيقة بعينها.

إن كل ما كتبه آدلر عن الحلم، كلمة سر التحليل النفسي[٣٣]، يبقى هو أيضاً بائساً وخاوياً. فقد اعتبر، في بادئ الأمر، أن الحلم هو استبدال للخط المؤنث بالخط المذكر، مما لا يعني في واقع الأمر سوى ترجمة، بتعابير

٣٢ ـ **مجلة التراسل** Korrespondenzblatt، العدد ٥، زوريخ، نيسان، ١٩١١.

٣٣ ـ في النص الألماني كما في الترجمة الفرنسية والإنكليزية Schibboleth، وهي كلمة عبرية توراتية باتت ترادف في اللغات الحديثة كلمة السر. ومرادفها العربي الحرفي هو سبّلة أو سنبلة. وقد جاء في سفر القضاة أن بني جلعاد استخدموا هذه اللفظة ليميّزوا بها أعداءهم من حلفائهم. فعلى إثر هزيمة بني إفراييم ومحاولة الناجين منهم عبور نهر الأردن كان بنو جلعاد يقفون للواحد منهم بالمرصاد ويسألونه: هل أنت إفرايمي؟ فإذا حاول التهرب وأجابهم «كلا»، كانوا يطلبون إليه أن يلفظ كلمة «شبّلة». ولكن نظراً إلى عدم وجود حرف الشين في لغة الإفرايميين فقد كانوا يلفظون الشين سيناً فيقول «سبّلة» فكانوا يذبحونه. وتقول التوراة إنه ذُبح على هذا النحو اثنان وأربعون ألفاً من الإفرايميين. «م».

«الاحتجاج الرجولي»، للنظرية التي عرّفت الحلم بأنه يمثل تحقيقاً لرغبات. وفي وقت لاحق وجد أن ما يؤلف جوهر الحلم هو حصول الإنسان لاشعورياً في الحلم على ما هو مضنون عليه به في الحالة الشعورية. وإلى آدلر أيضاً تعود الأسبقية في الخلط بين الحلم وأفكار الحلم الكامنة، وهو الخلط الذي تقوم عليه نظريته في الحلم كـ «استشراف للمستقبل». ولقد سار مايدر Maeder من بعده في الطريق نفسه[٣٤]. ومن يخلط مثل هذا الخلط يغمض عينيه عن عمد عن واقع أن كل تأويل لحلم من الأحلام (والحلم لا يكون قابلاً للفهم بصورة من الصور إذا لم يؤخذ بعين الاعتبار سوى مضمونه الظاهر) يستند إلى عين القواعد والمبادئ التي يماري في قيمتها ونتائجها. أما فيما يتعلق بالمقاومة، فلا يجد آدلر ما يقوله سوى أنها تفيد المريض في معارضة الطبيب. وهذا صحيح، لكنه من باب قولك: المقاومة تفيد في تأمين المقاومة. لكن من أين تأتي المقاومة وكيف نفسّر أن تظاهراتها تأتي على الدوام في محلّها وفي الوقت المناسب لتخدم مقاصد المريض؟ إن المؤلف يدع هذه الأسئلة جانباً، وكأنها عديمة الأهمية بالنسبة إلى الأنا. كذلك، إنه لا يبدي اهتماماً أكبر بالآليات التفصيلية للظاهرات والأعراض، وبالعلل التي تكمن وراء تنوع الأمراض والتظاهرات المرَضية: فهذه الآليات وهذه العلل لا تستأهل من اهتمام في نظره إلا بقدر ما تفيد، كائنة ما كانت طبيعتها، في توليد الاحتجاج الرجولي وتوكيد الذات وتسامي الشخصية. والحق أن المذهب مكتمل ناجز في أجزائه جميعاً، وقد استأدى واضعه مجهوداً ضخماً لإعادة تأويل المعطيات، لكنه لم يأتِ بأي معطى جديد. وأعتقد أنني أوضحت بما فيه الكفاية أنه لا يمتّ بصلة إلى التحليل النفسي.

إن فكرة الحياة، كما تتجلى في مذهب آدلر، ترتكز بكليتها إلى الاعتراف بالدور الراجح، بله الحصري، للدافع الغريزي العدواني، ولا تفرد أي مكان للحب. وقد تأخذنا الدهشة إذا ما وجدنا تصوراً للعالم مثبّطاً كهذا للعزائم

٣٤ ـ الإحالة هنا إلى بحث نشره ألفونس مايدر عام ١٩١١ بعنوان: **مساهمة في نظرية المقاومة**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

يحظى باستقبال جيِّد؛ لكن لا يجوز أن ننسى أن البشرية، الرازحة تحت نير حاجاتها الجنسية، مستعدة للقبول بأي شيء كان، بشرط أن يلوِّح لها باحتمال «التغلب على الجنسية».

لقد حدث الانشقاق **الآدلري** قبل مؤتمر فايمار في سنة ١٩١١. وبعد هذا التاريخ حدث الانشقاق **السويسري**[٣٥]. ولقد كانت مؤشراته الأولى ـ وهذه واقعة تبعث على الاستغراب ـ بعض تلميحات ضمَّنها ركلن مقالات تبسيطية له نشرت في سويسرا، وبفضل هذه التلميحات أمكن لغير أهل الاختصاص أن يعلموا، قبل الاختصاصيين، أن التحليل النفسي أفلح في التخلص من بعض الأخطاء المؤسفة التي ما كانت إلا لتسيء إلى حظوته. وفي رسالة وجهها إليّ يونغ من أميركا، سنة ١٩١٢، تباهى بأنه تغلب، بما أدخله من تعديلات على التحليل النفسي، على المقاومة التي كان هذا الأخير يلقاها من جانب عدد من الأشخاص ممن كانوا يأبون إلى ذلك اليوم أن يعيروه أي أذن صاغية[٣٦]. وقد أجبته بأنني لا أرى في ذلك ما يدعو إلى الفخر، وأنه كلما ضحّى بالمزيد من الحقائق التي ما أحرزها التحليل النفسي إلا بشقّ الأنفس، زاد من مقبوليته لدى الجمهور الواسع. والحال أن التعديل الذي تباهى السويسريون به أعظم التباهي كان يتمثل تحديداً في الانتقاص النظري من قيمة العامل الجنسي وأهميته. وإنني لأقرّ وأعترف بأنني رأيت من البداية في هذا «التقدم» تنازلاً مسرفاً وخطراً أمام مطالب الساعة الراهنة.

إن الحركتين الارتداديتين، المنشقتين عن التحليل النفسي، واللتين يتوجب عليّ الآن أن أقارن بينهما، تتشابهان أيضاً من حيث سعيهما إلى اكتساب عطف الجمهور بتذرعهما باعتبارات ذات مرمى أعلى وبتظاهرهما بالنظر إلى الأمور من

---

٣٥ ـ أي الانشقاق الذي قاده كارل غوستاف يونغ. «م».

٣٦ ـ في الواقع إنها رسالة وجهها يونغ إلى فرويد ليس من أميركا، بل من سويسرا بعد عودته من الولايات المتحدة في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر١٩١٢. وقد جاء فيها: «لقد وجدت هناك أن تصوري عن التحليل النفسي يكسب أصدقاء كثُراً، ممن كانوا إلى ذلك الحين في حيرة من أمرهم إزاء المظهر الجنسي للعصاب» (نقلاً عن كورنيليوس حاييم: **حول تاريخ الحركة التحليلية النفسية**، باريس ١٩٩١). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

وجهة نظر الأبدية[٣٧]. فآدلر يعلن نسبية كل معرفة وحقَّ الشخص في أن يصوغ فنياً المواد التي يزوِّده بها العلم. ويلح يونغ على الحق التاريخي للشباب في خلع القيود التي يزعم أن الشيخوخة الطاغية، المتحجرة في تصوراتها المتصلبة، تريد أن تغلّه بها. والحق أن هذه الحجج تستدعي بعض الملاحظات الاعتراضية. فنسبية المعرفة مطلب يمكن أن يقابل به أي علم كان، مثله في ذلك مثل التحليل النفسي. وهو من نتاج بعض التيارات الرجعية المعروفة في عصرنا، المعادية للعلم؛ وأولئك الذين يشهرونه إنما يريدون التظاهر بسيماء من التفوق لا تناسبنا نحن. وما من أحد منا يملك أن يتكهن بالحكم النهائي الذي ستصدره البشرية على جهودنا النظرية. ونحن نعرف أمثلة وقفت فيها ثلاثة أجيال متعاقبة موقفاً سلبياً إزاء بعض الحقائق، فإذا بالجيل الرابع يتنصل من هذا الموقف السلبي بعد طأطأته الرأس أمام هذه الحقائق عينها[٣٨]. وعليه، لا يبقى أمام كل واحد، بعد أن يكون قد أعار انتباهه كله إن لصوته النقدي الذاتي وإن لصوت خصومه، إلا أن يدافع بكل ما أوتي من قوة عن قناعاته المبنية على التجربة. وحسبنا أن نكون على وئام مع ضميرنا، وما علينا أن نقوم بدور القاضي الذي يخصّ الغد البعيد. وليس هناك أخطر من الرغبة في إقحام العسف الشخصي على أمور العلم. وإنما صدوعاً لأمر هذا العسف يريد بعضهم أن يماري في القيمة العلمية للتحليل النفسي، هذه القيمة التي تردّها أصلاً تأملاتنا السالفة إلى حجمها الحقيقي. ومن يقدِّر الفكر العلمي ويجلّه يجدر به بالأحرى أن يبحث عن الوسائل والطرائق القمينة بأن تقلِّص إلى أقصى حدّ مستطاع تأثير العسف الفني الشخصي، وذلك حيثما لا يزال هذا العامل يلعب بعد دوراً أكبر مما ينبغي. ثم إننا لا ننكر أنها مضيعة للوقت أن يبدد المرء طاقته في جهود دفاعية. فآدلر نفسه لا يحمل حججه على محمل الجِدّ؛ بل غرضه منها إفحام الخصم، لكن دون مساس في الوقت نفسه بنظرياته الخاصة. كما أنها لم تمنع أنصار آدلر من الاحتفاء به وكأنه المهدي المنتظر الذي

---

٣٧ ـ باللاتينية في النص: Sub Specie Aeternitatis. «م».

٣٨ ـ الأرجح أن فرويد يشير هنا إلى الاعتراف الذي حظيت به نظرية داروين عن أصل الإنسان بعد طول رفض وإنكار. «م».

طالما بشّر رِعالٌ من الرواد الإنسانية بقدومه. والحال أن ما من شيء أكثر نسبية من فكرة المهدي المنتظر.

أما حجة يونغ فترتكز، **إذا ما حملناها على محمل حسن**[٣٩]، إلى مقدمة متفائلة تفترض أن تقدم البشرية والحضارة والعلم قد سلك على الدوام خطاً مستقيماً متصلاً. فكأنه ما وجد قط ورثة صغار، وكأنه ما قامت قط ثورات أعقبتها رِدّات، وكأن التاريخ ما عرف قط أجيالاً نكصت، مدفوعة بحركة ارتدادية، عن منجزات الأجيال السابقة. ويونغ، بتقرُّبه من وجهة نظر الجمهور، وبنكوصه عن بعض المستحدثات التي لم يرحّب بها هذا الجمهور، إما لأنها غير محبَّبة إلى النفس وإما لأنها لا تداهن مشاعره، وبتصحيحه التحليل النفسي بالاتجاه الذي نعرف، يونغ هذا يولِّد لدينا الانطباع بأنه أراد أن يفعل شيئاً آخر غير تلك البادرة الشبابية التحريرية. وعلى كل، وإذا شئنا أن نعلم ما إذا كانت هذه البادرة أو تلك شبابية، فلا بدّ أن ننظر لا إلى عدد سنيّ القائم بها، بل إلى صفة الفعل بالذات.

وبين الحركتين اللتين تستأثران باهتمامنا هنا، فإن الحركة التي يقف وراءها آدلر هي بدون أدنى ريب أبلغهما مدلولاً؛ ولئن تكن مغلوطة في جذورها فإنها تتميز بالمقابل ببنيانها المنطقي وبتلاحمها. وهي تظل ترتكز إلى نظرية في الدوافع الغريزية. أما التعديل الذي أدخله يونغ فقد فصم، على العكس، الوشائج القائمة بين الظاهرات والحياة الغريزية؛ وهذا التعديل، علاوة على ذلك، شديد الإبهام والغموض والتشويش، كما أوضح نقاده (**أبراهام، فيرنزي، جونز**)، بحيث لا يسهل تحديد الموقف الذي ينبغي وقوفه منه. ومن أي صوب أتيته، فلا بدّ لك أن تتوقع أن يقال لك إنك أسأت فهمه، ولن تدري أبداً ما ينبغي عليك فعله وكيف يجب أن تتصرف لتفهمه على وجه صحيح ومطابق. بل إن هذا التعديل يتلبس هو نفسه مظاهر شتى ومتنوعة، فتارة يتبدى وكأنه «خلاف بسيط للغاية لا يستأهل كل الضجة المثارة حوله» (يونغ)، وطوراً كأنه إنجيل جديد، يدشن

٣٩ - باللاتينية في النص. «م».

عصراً جديداً في التحليل النفسي، بله تصوراً للعالم جديداً بالنسبة إلى سائر البشرية.

إزاء التناقضات التي نعاينها بين مداخلات وتصريحات شتى، عامة وخاصة، ليونغ، من حقنا أن نتساءل عن مدى الدور الذي يلعبه في هذا كله التخليط السائد في ذهنه بالذات كما في ذهن من يسير في ركابه، وكذلك عن مدى الدور العائد إلى نقص الأمانة العلمية. على أنه لا خيار لنا إلا في أن نسلِّم بأن أنصار المذهب الجديد يواجهون موقفاً صعباً. فهم يحاربون اليوم ما كانوا دافعوا عنه بالأمس، وهم يحاربونه، لا لأن معاينات جديدة كشفت لهم عن وقائع جديدة، وإنما بفعل تأويلات جديدة أظهرت لهم الأمور في مظهر مغاير لذاك الذي كانت قد تبدَّت لهم فيه آنفاً. ولهذا نراهم يحرصون على عدم قطع صلاتهم بالتحليل النفسي الذي كانوا من ممثليه الدائمين بمعرفة من الجميع، ويفضلون أن يعلنوا أن التحليل النفسي هو نفسه قد تبدَّل. وقد وجدتني مضطراً، في أثناء مؤتمر ميونيخ، إلى تسليط الضوء على هذه النقطة الغامضة، فصرحت أنني لا أعتبر البتة التجديدات التي أدخلها السويسريون تتمة منطقية للتحليل النفسي الذي أنا واضعه. وكان نقاد غرباء عن التحليل النفسي (فورتمولر على سبيل المثال) قد أدركوا حقيقة هذا الموقف؛ كما أصاب أبراهام إذ قال بهذا الخصوص إن يونغ على وشك الانسحاب الكامل من التحليل النفسي. وأنا على أتمّ استعداد بطبيعة الحال للاعتراف لكل إنسان بحقِّه في أن يقول ويكتب ما يشاء، لكني لا أعترف له بالحقّ في أن يصور أفكاره بغير ما هي عليه حقيقة.

وكما أن آدلر طالب، مقابل الجديد الذي أدخله بأبحاثه على التحليل النفسي - عناصر من علم نفس الأنا - بالحقّ في نبذ جميع النظريات الأساسية للتحليل النفسي، كذلك اتخذ يونغ وأنصاره من الإضافة الجديدة التي يزعمون أنهم زوّدوا بها التحليل النفسي نقطة انطلاق لهم لكفاحهم ضده. فقد تتبعوا نقطة نقطة (وهذا ما كان بفستر فعله قبلهم) التطور الذي بفضله يتمّ استخدام مادة التمثلات الجنسية، ذات الصلة بالعقدة العائلية وبالاختيار الموضوعاني المحرمي، لتكون بمثابة تعبير عن أسمى اهتمامات الإنسان الأخلاقية والدينية وسلطوا الضوء

على حالة ذات دلالة من حالات إسماء القوى الغريزية الإيروسية لتحويلها إلى ميول لا تعود تنطبق عليها صفة الإيروسية. ولقد كان ذلك يتفق أتم الاتفاق مع مقدمات التحليل النفسي، كما كان من الممكن أن يتفق مع التصور القائل بأن العصاب ـ كما الحلم ـ هو بمثابة انحلال نكوصي لذلك الإسماء ولإسماءات أخرى كثيرة. لكن الناس كان سيتعالى هتافهم في هذه الحال احتجاجاً وكانوا سيستنكرون هذا التبخيس للأخلاق والدين! ولست بمستطيع هنا أن أمسك نفسي عن التفكير، ولو لمرة واحدة، بطريقة «غائية»[٤٠] لأسلّم بأن مكتشفي الاكتشاف الذي تحدثت عنه ما كانوا أهلاً لمواجهة انفجار تلك الشحنة من الاستنكار. بل من الممكن أن يكون الاستنكار قد بدأ يعتمل في نفوسهم بصمت. والسوابق اللاهوتية للعديد من السويسريين لم تلعب، في موقفهم من التحليل النفسي، دوراً أقل شأناً من الدور الذي لعبته السوابق الاشتراكية لآدلر في تطور علمه النفسي الفردي. وإن المرء ليذهب به الفكر، غصباً عنه، إلى القصة المشهورة التي يتحدث فيها مارك توين عن مصائر ساعته وإلى ما تفصح عنه هذه القصة في ختامها من اندهاش: «ولقد دأب على التساؤل عما حلّ بكل المفكرين الخائبين وصانعي البنادق والإسكافيين والحدادين الذين ما أصابوا نجاحاً، لكن ما كان باستطاعة أحد أن يجيبه عن ذلك»[٤١].

سألجأ هنا إلى تشبيه. لنفترض أننا أمام محدث نعمة يتباهى بأنه سليل أسرة عريقة في نبلها، لكنها غريبة عن المجتمع الذي بين ظهرانيه يحيا هو نفسه. ولنفترض أننا أثبتنا له أن أهله يسكنون في الجوار، وانهم أناس من أصل متواضع للغاية. عندئذ لا يبقى أمامه سوى سبيل واحد، لا يعتم أن يلجأ إليه بلا تردد. فهو لا يستطيع أن ينكر أهله هذه المرة، لكنه يزعم أنهم من النبلاء الساقطين، ويستحصل من موظف مرتشٍ على وثائق تشهد على نبلهم. وفي رأيي، أن

---

٤٠ ـ الإحالة هنا إلى المذهب الغائي كما قال به آدلر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٤١ ـ الشاهد بالإنكليزية في النص. والإحالة هنا إلى قصة مارك توين القصيرة: **ساعتي، حكاية قصيرة تعليمية**، وفيها يحكي قصة ساعة بدأت بعد ثمانية عشر شهراً من العمل بدقة تتأخر أربع دقائق. وقد عهد بها إلى مصلح تلو الآخر، وفي كل مرة كانت الساعة تصاب بعطب جديد. وهو يستنتج من ذلك حكمة أشبه ما تكون بالمثل العربي القائل: لا يصلح العطار ما أفسد الدهر. «م».

السويسريين لم يسلكوا غير هذا المسلك. فالأخلاق والدين لا يجوز تجنيسهما، على اعتبار أن كلاً منهما ذو أصل «أعلى» على زعمهم. لكن من المستحيل، من جهة ثانية، نفي واقع أن التمثلات ذات الصلة بالأخلاق والدين تنجم عن العقدة العائلية والأوديبية. فكيف السبيل إلى التوفيق بين المطلب المتقدم ذكره وبين هذه الواقعة؟ بطريقة بسيطة غاية البساطة: بالزعم بأن العقدتين المشار إليهما لا تعنيان من البداية ما يمكن أن نتصور أنهما تعنيانه عندما نؤولهما حرفياً، بل تشتملان على معنى باطني أعلى (بحسب اصطلاح سلبرر Silberer)[٤٢] يتيح لهما إمكانية التكيُّف مع الأفكار المجردة للأخلاق والروحانية الدينية.

أتوقع أن يعترض عليّ معترض بأنني أسأت فهم معنى النظرية الزوريخية الجديدة وقصدها، لكن عليّ أن آخذ احتياطاتي مقدماً، حتى لا يخطر ببال أحد أن يعزو إليّ الاستنتاجات (المتناقضة مع رؤيتي للأشياء) التي ترشح بها منشورات هذه المدرسة. وأنا لا أستطيع أن أتمثل على غير هذا النحو مجمل تجديدات يونغ، كما أعجز عن تكوين فكرة متلاحمة عنها. فالتعديلات التي أدخلها يونغ على التحليل النفسي إنما أملتها عليه جميعها الرغبة في استبعاد كل ما من شأنه أن يجرح المشاعر في العقد العائلية، حتى لا تعاود هذه العناصر الجارحة ظهورها في الدين والأخلاق. وهكذا استبدل الليبيدو الجنسي بفكرة مجردة، كل ما يمكن أن يقال عنها هو أنها تبقى غامضة وعصية على الفهم سواء بالنسبة إلى الحكماء أو بالنسبة إلى بسطاء النفوس. فعقدة أوديب تلقت مدلولاً «رمزياً» إذ صارت الأم ترمز إلى ما هو غير قابل للتحقيق، الذي تقضي مصلحة الحضارة بالعزوف عنه، بينما يغدو الأب، الذي يسقط في أسطورة أوديب ضحية جريمة، ممثلاً للأب «الداخلي» الذي لا بدّ للإنسان أن يتحرر منه حتى يفوز بالاستقلال والحرية. ولا ريب في أن مواد أخرى من التمثلات الجنسية ستخضع مع مرّ الزمن لإعادات تأويل مماثلة. وبدلاً من النزاع بين الميول الإيروسية المعارضة للأنا وبين ميول الأنا إلى توكيد ذاته، نشهد ظهور نزاع بين «المهمة الحيوية» و«العطالة النفسية»؛ وفي

٤٢ ـ الإحالة هنا إلى كتاب هربرت سلبرر: **مشكلات التصوف ورمزيته** (١٩١٤). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

هذه الحال لا يعود الشعور بالذنب الملاحَظ لدى العصابيين إلا بمثابة تأنيب ضميري لاشعوري يوجِّهه الفرد إلى ذاته لعدم وفائه بالمهمة الحيوية. وهكذا يكون قد تمّ تشييد مذهب أخلاقي ـ ديني جديد لم يجد أمامه بداً، مثله مثل المذهب الآدلري، كيما يوفِّر لنفسه أسباب التلاحم والصلابة، من أن يخلع على المعطيات العينية للتحليل معنى تأويلياً جديداً أو أن يشوِّهها ويحرّفها أو أن ينحيِّها جانباً. وفي الواقع، لم يقع تحت الإدراك من كل سنفونية الصيرورة الكونية سوى بعض الأنغام الحضارية، بينما بقيت الآذان صماء دون لحن الدوافع الغريزية رغم قوته البدائية.

وحتى يُقيَّض لهذا المذهب أن يتماسك، لم يكن هناك مناص من الإشاحة نهائياً عن الملاحظة وعن تقنية التحليل النفسي. وبالمناسبة، وباسم القضية الكبرى، استبيح ضرب المنطق العلمي بعرض الحائط، فإذا بيونغ، الذي ارتأى أن عقدة أوديب، على سبيل المثال، ليست «نوعية» بما فيه الكفاية من حيث دورها في نشوء الأعصبة، إذا به يعزو هذه النوعية إلى العطالة، أي إلى الخاصية الأعمّ للأجسام الحية أو الهامدة على حدّ سواء! ويجدر بنا أن نلاحظ، بهذا الخصوص، أن «عقدة أوديب» لا تعود تمثِّل، في رأي هذه المدرسة، سوى معيار يسمح للفرد بتكوين فكرة عن قواه، ولكن من دون أن تشكِّل هي نفسها قوة كتلك التي تشكلها «العطالة النفسية». وقد دلّ سبر مختلف الحالات الفردية وسيدلّ دوماً أن العقد الجنسية، بالمعنى الأصلي للكلمة، تبقى على الدوام حية وفاعلة في الفرد. ولكن أية أهمية لذلك! فليس أسهل من العزوف عن السبر الفردي ومن السعي إلى صياغة استنتاجات بحسب المعطيات التي يوفرها السبر الإثنولوجي. وما دامت العودة إلى طفولة الإنسان الأولى تنذر بأن تضعنا وجهاً لوجه أمام المدلول الحقيقي، غير المقنَّع، للعقد التي نسعى إلى إعادة تأويلها، لذا فستتبنى المدرسة الجديدة كقاعدة علاجية عدم التوقف بقدر الإمكان عند هذا الماضي، والتعجيل بالرجوع إلى النزاع الراهن الذي ليس مداره، ويا للعجب، على ما هو عارض وشخصي، والمتحمور على العكس على العنصر العام، الأساسي: عدم إنجاز المهمة الحيوية. وهذا مع أننا سمعنا من يقول إن الصراع الراهن الذي يرزح تحت وطأته

العصابي لا يغدو قابلاً للفهم وللحلّ إلا متى رُبط بالتاريخ السابق للمريض، على أن تُسلك هنا الطريق التي سلكها ليبيدوه عند دخوله في المرض.

وبما أن المذهب العلاجي الزوريخي الجديد قد تكوَّن تحت تأثير مثل تلك التوجهات فقد يكون في مستطاعي أن أصفه بناء على معطيات أدلى بها مريض امتحن في شخصه بالذات مفاعيل ذلك العلاج. قال هذا المريض: «هذه المرة لم يأتِ ذكر لأي اعتبار للماضي وللتحويل. وفي كل مرة كان يخيَّل إليّ فيها أنني أكاد أفهم هذا الأخير، كان يقال لي إنه محض رمز لليبيدو. ولقد كانت النصائح جميلة للغاية، وكنت أتقيَّد بها بدقة، لكن من دون أن أتقدم مع ذلك خطوة واحدة إلى الأمام. وكان الأمر أشد إزعاجاً لي منه له، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟... كانت كل جلسة، بدل أن تحررني تحليلياً، تفرض عليّ مطالب عجيبة جديدة، ولم يكن أمامي مفرّ، على ما يقال لي، من الرضوخ لها إذا كنت أبغي التغلب على العصاب: تركيز داخلي عن طريق الاستبطان، تأمل ديني، استئناف الحياة المشتركة مع زوجتي من خلال الاستسلام لعاطفة الحب، إلخ. وكان ذلك يكاد يتجاوز طاقتي إذ إن ما كنت أطالَب به هو تغيير جذري لأناي الصميم. كنت أخرج من الجلسة التحليلية وكأني خاطئ مسكين، كلي ندم وتوبة، تعمر قلبي أطيب النيات، ولكن مثبط العزيمة حتى أعماقي. وكل ما يوصيني به لا يختلف عما كان يوصيني به أي قسّ؛ لكن من أنى لي أن أستمد القوة لاتباع توصياته؟». والمريض نفسه هو من يبلغنا ما قيل له من أنه من الضروري أن تعطى الأولوية لتحليل الماضي وللتحويل. لكن الجواب الذي جاءه هو أنه قد حُلِّل بما فيه الكفاية من هذين المنظورين[٤٣]. وما دام التحليل لم يثبت نجعه، لذا يبدو لي مبرراً الاستنتاج بأن المريض لم يخضع **للقدر الكافي** من الضرب الأول من التحليل. ومهما يكن من أمر، فإن المعالجة اللاحقة بقيت بلا

٤٣ ـ أنا أعلم بالطبع أننا لا نستطيع أن نثق على الدوام بما يرويه المرضى؛ لكنني أحرص على الجزم القاطع بأن مُخبري شخص جدير بالثقة قادر على أن يفهم ويحكم. وقد قدّم لي كل تلك المعلومات من دون أن أطلبها منه، وأنا أستخدم هنا ما أنبأني به من دون أن أستحصل على أذنه لأنه لا يمكنني التسليم بأن التقنية التحليلية النفسية بحاجة إلى الحماية عن طريق السر المهني.

مفعول، وأنا لا أتردد في الجزم بأنها ما كانت تستأهل بحال من الأحوال تسميتها بأنها «تحليلية نفسية». وإني لأعجب أن يكون الزوريخيون قد تراءى لهم أن من واجبهم أن يلفّوا لفة طويلة ليمروا بفيينا قبل أن يعودوا إلى مدينة بيرن القريبة حيث يعالج ديبوا Dubois[٤٤] الأعصبة بمزيد من التدبُّر والعناية بواسطة التشجيع المعنوي.

إن القطيعة المطلقة بين هذا الاتجاه الجديد وبين التحليل النفسي تتجلى أيضاً في كيفية معالجة الكبت الذي ما عاد يرد له ذكر في كتابات يونغ، وفي الجهل بطبيعة الحلم الذي يخلط هذا الاتجاه، على مثال آدلر، بينه وبين الأفكار الحلمية الكامنة، وفي انعدام القدرة التام على فهم اللاشعور، أو، باختصار، سائر النقاط التي أمكنني أن أردّ إليها ماهية التحليل النفسي بالذات. وحين نسمع يونغ يجزم أن عقدة حب المحارم ليس لها سوى قيمة **رمزية** وليس لها أي وجود **فعلي**، وأن المتوحش لا يشعر بالانجذاب إلى والدته العجوز أو إلى جدته، بل يفضل امرأة شابة وجميلة، نجدنا ميالين إلى الإقرار، كيما نفسر التناقض الظاهر بين نظرة يونغ وبين التحليل النفسي، بأن كلمة «رمزية» وعبارة «أي وجود فعلي» إنما تعنيان ما يشار إليه في التحليل النفسي باسم «الوجود اللاشعوري»، آخذين بعين الاعتبار التظاهرات والمفاعيل الممرضة التي يعبر بها هذا «الوجود اللاشعوري» عن نفسه.

وإذا ما دخل في اعتقاد المرء أن الحلم هو أيضاً شيء آخر غير الأفكار الحلمية الكامنة التي يصوغها بنفسه، فلن يدهشه البتة أن يحلم المرضى بأشياء حُشيت بها أدمغتهم أثناء المعالجة من أشباه «المهمة الحيوية» و«الوجود في الأعلى» و«الوجود في الأسفل». ولا جدال في أنه يمكن توجيه أحلام الأفراد الخاضعين

٤٤ ـ بول ديبوا: أستاذ الأمراض العصبية في جامعة برن (١٨٤٨ ـ ١٩١٨). يعدّ من رواد المعالجة النفسية. رفض التنويم المغنطيسي والتحليل النفسي على حدّ سواء واعتمد في المعالجة ما يشبه الحوار السقراطي بحيث يقنع المريض بأنه ليس مريضاً. وقد ربطته بفرويد علاقة سلبية؛ فالمريض الذي اشتهر في تاريخ التحليل النفسي باسم رجل الذئاب ـ واسمه سيرج بانكيجف ـ كان يفترض به أن يعالجه بول ديبوا، ولكنه قصد فيينا ليتولى فرويد معالجته. له مؤلفان مشهوران: **عن تأثير الروح في الجسم**، **والأعصبة النفسية**. «م».

للتحليل، مثلما يمكن التأثير على الأحلام بتحفيزات اختبارية. وبوسعنا أن نتحكم بحسب رغبتنا بجزء من المواد التي يتألف منها الحلم؛ لكننا لا نغيِّر شيئاً، بعملنا هذا، في طبيعة الحلم ولا في آليته. وأنا لا أعتقد على كل حال أن الأحلام المسماة بـ «السِيرية»[٤٥] تحدث خارج نطاق التحليل. بل لو حللنا على العكس أحلاماً حدثت قبل المعالجة، ولو محّصنا ما يضيفه الحالم إلى ما أوحي به إليه أثناء المعالجة، ولو أمكننا أخيراً أن نمتنع عن فرض مهام جديدة عليه، للاحظنا لا محالة أن الحلم أبعد ما يكون عن أن يمثِّل محاولة لتقديم حلول للمهمة الحيوية. فالحلم ما هو إلا شكل من أشكال التفكير؛ ولا سبيل إلى فهم هذا الشكل البتة إذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى مضمونه من الأفكار؛ إذ ينبغي أن نأخذ في حسابنا أيضاً أولاً وأساساً عمل الحلم.

ليس من العسير أن ندحض بواسطة الوقائع تأويل يونغ الخاطئ للتحليل النفسي ومواقفه المعارضة له. فكل تحليل، إذا ما أجري وفق الأصول، وعلى الأخص كل تحليل يُجرى على طفل، لا بدّ أن يعزز القناعات التي عليها يرتكز التحليل النفسي وأن يميط اللثام عن كل تهافت التأويلات الجديدة التي على أساسها شاد كل من آدلر ويونغ مذهبهما. ولقد مارس يونغ بنفسه ونشر، قبل ارتداده، تحليلاً لطفل[٤٦]. فهل علينا أن ننتظر أن يعطينا عن هذا التحليل تأويلاً جديداً مبنياً (بحسب تعبير آدلر) على «تصور تركيبي جديد للوقائع»؟

إن الرأي القائل إن التمثيل الجنسي للأفكار «العليا» في الحلم وفي العصاب لا يعدو أن يكون وسيلة تعبيرية قديمة أكل الدهر عليها وشرب يتنافى، بطبيعة الحال، مع كون هذه العقد الجنسية تتجلى، في الأعصبة، بصفتها حاملة لكميات من الليبيدو جرى سحبها من الحياة الواقعية. ولو كان الأمر لا يعدو أن يكون رطانة جنسية، لما نجم عنه أي تغيير في اقتصاد الليبيدو. ولقد كان يونغ نفسه لا يزال يوافق على ذلك في كتابه Darstellong Der

٤٥ ـ أو البيوغرافية، أي المتعلقة بسيرة الحياة. «م».

٤٦ ـ الإحالة هنا إلى بحث يونغ المنشور عام ١٩١٠ «تجارب بخصوص الحياة النفسية للطفل». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

Psychoanalytischen Theorie[٤٧]، الذي حدّد فيه مهمة العلاج بوجوب سحب التوظيف الليبيدوي من تلك العقد. لكن هذه النتيجة لن نصل إليها أبداً فيما لو أشحنا عن هذه العقد ودفعنا بها صوب الإسماء. وإنما شرط النجاح أن نولي العقد كامل عنايتنا وأن نجعلها شعورية تماماً. وأول ما ينبغي على المريض أن يأخذه في حسابه هو مرضه بالذات. والطبيب الذي سيركز جهده على صرفه عن هذه المهمة سيثبت عجزه عن مساعدة المريض على قهر مقاوماته، أو لن يدلّل إلا على خوفه هو نفسه إزاء النتائج المحتملة لهذا العمل.

ختاماً سأقول إن تحليل يونغ النفسي يشبه سكين ليختنبرغ[٤٨] المشهورة: فبعد أن غيّر المقبض وبدّل النصل، يريدنا أن نقتنع أن بحوزته الأداة عينها، وذلك ما دامت تحمل اسم الأداة القديمة.

إني أعتقد، على العكس، أنني بيّنت أن المذهب الجديد ينطوي على هجران للتحليل وعلى انفصال عنه. وارتداد كهذا من شأنه أن يوحي إلى بعضهم بمخاوف على مستقبل التحليل النفسي، على اعتبار أن المعنيين أشخاص لعبوا دوراً كبيراً للغاية في حركتنا. لكنني لا أشاطر المتخوّفين تخوفهم هذا.

* * *

إن البشر يبقون أقوياء ما داموا يدافعون عن أفكار قوية؛ ويمسون بحكم العاجزين متى ما أرادوا الوقوف في وجهها. ولسوف يتمكن التحليل النفسي من تحمل هذه الخسارة، ومن العثور على أنصار جدد للتعويض عنها. ولن يسعني إلا أن أختم بأن أتمنى رحلة ميمونة في الأعالي لأولئك الذين لم يتحملوا، على المدى الطويل، الإقامة في العالم السفلي للتحليل النفسي. وكل رجائي أن يتمكن الآخرون من إنجاز عملهم في الطبقات العميقة من هذا العالم بدون أن يضايقهم أحد.

---

٤٧ - **عرض للنظرية التحليلية النفسية.**

٤٨ - جورج كرستوف ليختنبرغ: كاتب وفيلسوف وفيزيائي ألماني (١٧٤٢ - ١٧٩٩). مشهور بكتابه **مرآة النفس** الذي يعدّ نموذجاً في مضمار جوامع الكِلَم. «م».

حياتي والتحليل النفسي

تقديم

كتب فرويد ترجمة حياته هذه تلبية لدعوة وجهها إليه ناشر المجموعة المتعددة الأجزاء التي تعرف باسم **الطب في الوقت الحاضر من خلال السيرة الذاتية** DIE MEDIZIN DER GEGEN WART IN SELBSTDARSTELLUNGEN. وقد صدر النص في المجلد الرابع من هذه المجموعة، لايبزغ ١٩٢٥.

وإن يكن عنوان هذه السيرة **حياتي والتحليل النفسي**، فسوف يلحظ القارئ أن فرويد يقدم اللحظة الموضوعية على اللحظة الشخصية، فيولي الاعتبار الأول في سيرته للتحليل النفسي، لا لحياته. ومن ثم، إن قارئ هذه الشهادة لواحد من كبار صانعي القرن العشرين لن يقرأ وقائع حياته وتفاصيلها بقدر ما سيقرأ قصة التحليل النفسي وتطوره وتطور مفاهيمه الرئيسية.

وقد كنا ترجمنا في حينه هذا النص عن الترجمة الفرنسية التي قامت بها ماري بونابرت والتي راجعها فرويد بنفسه والتي صدرت عن منشورات غاليمار عام ١٩٢٨. وإذ صدرت بالفرنسية ترجمتان لاحقتان، الأولى بقلم فرنان كانبون عن منشورات غاليمار أيضاً عام ١٩٨٤، والثانية بقلم بيير كوتيه ورينيه لينه عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ١٩٩٢ في المجلد ١٧ من **مؤلفات فرويد الكاملة**، فقد أدخلنا على ترجمتنا كل التعديلات الواجبة.

ج. ط

إن الكثيرين من المشاركين في هذه السلسلة من السير الذاتية يستهلون سيرتهم ببعض أفكار عن الطابع الخاص للمهمة التي أخذوها على عاتقهم وعن صعوبتها. وأعتقد أنه في وسعي أن أقول إن مهمتي تبدو أشدّ تعقيداً بعد بحكم من أنني كنت نشرت في مناسبات شتى مقالات شبيهة بالمقال المطلوب مني هنا، وكانت طبيعة الموضوع بالذات قد اقتضت أن أبرز دوري الشخصي متجاوزاً في ذلك الحدّ المألوف أو الحدّ اللازم في العادة.

لقد ألقيت عام ١٩٠٩، في جامعة كلارك في ورسستر (ولاية ماساشوستس)، خمس محاضرات ضمَّنتها عرضاً أول لتطور التحليل النفسي وموضوعه[١]. وكنت قد دعيت إلى إلقائها بمناسبة الذكرى العشرين لتأسيس تلك الجامعة. ومؤخراً لبّيت الدعوة إلى المشاركة بمقال ذي مضمون مشابه في نشرية أميركية جماعية عن بدايات القرن العشرين أقرّ ناشروها بأهمية التحليل النفسي بأن أفردوا له فصلاً خاصاً[٢]. وفي الفترة الفاصلة بين هذين التاريخين نشرت في عام ١٩١٤ نصاً بعنوان: **مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي**[٣] يتضمن في الحقيقة جوهر ما يمكن أن أقوله هنا. وبما أنه لا يحقّ لي أن أناقض نفسي ولا أن أسرف في تكرار ما سبق لي قوله، فسيكون لزاماً عليّ أن أحاول الوصول إلى صيغة جديدة تجمع بين العرضين الذاتي والموضوعي، أي بين السيرة الذاتية والتاريخ.

---

١ ـ أنظر **أعلاه** ترجمتنا لهذه المحاضرات بعنوان: **خمسة دروس في التحليل النفسي**. «م».

٢ ـ **تلك الأعوام الزاخرة بالأحداث** (القرن العشرون قيد الصنع كما يرويه العديد من صانعيه). مجلدان. لندن ونيويورك. شركة الموسوعة البريطانية. ومقالي، الذي ترجمه د. أ. أ بريل، يشغل الفصل الثالث والسبعين من المجلد الثاني.

٣ ـ انظر أعلاه ترجمتنا لهذا النص. «م».

(١)

ولدت في ٦ أيار/ مايو ١٨٥٦ في فرايبرغ بمورافيا، وهي بلدة صغيرة موجودة في ما يعرف الآن باسم تشيكوسلوفاكيا. وكان والداي يهوديين، وبقيت أنا نفسي يهودياً. وقد أقامت أسرة أبي، على حدّ ما تناهى إلى علمي، ردحاً طويلاً من الزمن عند نهر الراين (في كولونيا). ثم هربت نحو الشرق الأوروبي في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر في أعقاب حملة اضطهاد ضد اليهود، وفي بحر القرن التاسع عشر آبت من ليتوانيا، عن طريق غاليسيا، نحو الشطر الألماني من النمسا[1].

في الرابعة من عمري قدمت إلى فيينا، حيث تلقيت تعليمي كله. وفي المدرسة كنت على مدى سبع سنوات الأول في صفي، مما وفّر لي وضعاً متميزاً. إذ قلما أُلزمت باجتياز الامتحانات. ومع أن أحوالنا المعيشية كانت في منتهى الرقة، فقد شاء والداي ألا يكون لي من رائد في اختيار مهنتي سوى ميولي الخاصة. وما كنت أشعر في تلك السنوات الغضة من عمري بميل خاص إلى مهنة الطب ومشاغله، وما استشعرت قط ميلاً كهذا فيما بعد. بل كنت مدفوعاً بالأحرى بضرب من التعطش إلى المعرفة، لكنه كان ينصّب على ما يتصل بالعلاقات الإنسانية أكثر منه على موضوعات العلوم الطبيعية؛ ولم أكن، في تعطشي هذا إلى المعرفة، قد فطنت بعد حتى إلى قيمة الملاحظة بوصفها الوسيلة الرئيسية لإروائه. وكان لمعرفتي بقصص التوراة (حتى قبل أن أتقن القراءة) أثر دائم في توجيه اهتماماتي، كما اكتشفت ذلك بعد زمن طويل. وقد تطلعت في بادئ الأمر إلى دراسة القانون وتكريس نفسي للشؤون الاجتماعية تأثراً مني

١ ـ لا ننسَ أن النمسا كانت تشكل في حينه مع المجر إمبراطورية مزدوجة لغوياً وقومياً. «م».

بزميل ربطتني به أواصر صداقة مدرسية متينة، وكان أكبر مني سناً بقليل، وقد صار فيما بعد من أعلام السياسة[٢]. على أن نظرية داروين، التي عرفت يومئذ رواجاً كبيراً، كانت تجتذبني بقوة، لما وجدت فيها من وعد بالتقدم بخطى جبارة نحو فهم أمور الكون. وإني لأذكر أن استماعي في محاضرة عامة، قبيل انتهاء دراستي الثانوية، إلى فحوى رائعة غوته عن «**الطبيعة**» هو الذي جعلني أحزم أمري على الانتساب إلى كلية الطب.

عرفت أول عهدي بالجامعة، التي التحقت بها عام ١٨٧٣، قدراً من الخيبة المريرة. فقد واجهت فيها هذا المطلب الغريب: كان لزاماً عليّ أن أشعر بأنني أدنى من الآخرين، و بأنني لا أنتمي قومياً إلى سواد الشعب لأنني يهودي. ولم أرضخ على الإطلاق لأول هذين الأمرين اللذين كان يراد فرضهما عليّ. فأنا لم أفهم قط لماذا يتعيّن عليَّ أن أخجل من أصلي، أو كما شرع الناس يقولون: من عِرقي. وبالمقابل، تنازلت بغير ما أسف كبير عن الانتماء القومي إلى سواد الشعب. فقد كنت أعتقد بأنه من الممكن للمرء على الدوام أن يجد لنفسه مكاناً صغيراً في إطار المجتمع الإنساني إذا ما بذل تعاونه بإخلاص، حتى وإن استبعد من مثل ذلك التجنيد. غير أن نتيجة هذه الخبرات الجامعية الأولى كانت ـ وقد تأكدت أهميتها فيما بعد ـ أنني تآلفت منذ زمن مبكر مع المصير المكتوب لي، وهو أن يكون مكاني في صفوف المعارضة وأن أُستبعد من نطاق «الغالبية الكتيمة»[٣]. وبذلك تهيأ لي قدر من الاستقلال في مواجهة الرأي السائد.

علاوة على ذلك، كان لا بدّ لي من ان أتحقق بالتجربة، منذ سنواتي الجامعية الأولى، من أن خصوصية مواهبي الطبيعية ومحدوديتها تسدان أمامي أبواب

---

٢ ـ هو هنريخ براون: صحفي وسياسي ألماني (١٨٥٤ ـ ١٩٢٧). انتمى إلى الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية وشغل منصب وزير عام ١٩٠٩. «م».

٣ ـ الإحالة هنا إلى مسرحية **عدو الشعب** للكاتب النرويجي هنريك إبسن (١٨٨٢). فلأن طبيب مصح المياه المعدنية توماس ستوكمان فضح ما آلت إليه المياه من تلوث، فقد اصطدم بمعارضة «الغالبية الكتيمة» التي كانت تدعمه إلى ذلك الحين. ففي أثناء اجتماع عام وجهّت إليه تهمة إنزال الإفلاس بمالية البلدية ووُصم بأنه عدو للشعب. ويومئذ هتف بعالي صوته: «إن أقوى إنسان في العالم هو الإنسان الأوحد». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

النجاح في العديد من فروع العلم التي كنت اندفعت إليها بادئ الأمر بحميتي الفتوية المسرفة. وهكذا عرفت صدق التحذير الذي نطق به مفيستو:

عبثاً تصول وتجول في دروب العالم كلها

فكل امرئ لا يتعلم إلا ما يستطيع تعلمه[٤]

في مختبر إرنست بروك BRUCKE[٥] للفيزيولوجيا عرفت أخيراً الراحة واستشعرت رضى كاملاً، كما تعرفت إلى أشخاص كان بوسعي أن أجلّهم وأن أقتدي بهم، ومنهم بروك العظيم نفسه[٦]، ومساعداه سيغموند إكستر[٧] وإرنست فون فليشل ماركسوف[٨]. ومن حسن حظي أني ارتبطت برباط الصداقة مع هذا الأخير، وكان رجلاً نابهاً. وقد عهد إليّ بروك بمهمة تتصل بعلم أنسجة الجهاز العصبي، فتسنى لي أن أنجزها على الوجه المرام، فحزت رضاه، واستطعت من ثم أن أتابع البحث بصفة مستقلة. عملت في ذلك المختبر من عام ١٨٧٦ إلى عام ١٨٨٢، مع انقطاعات قصيرة، وبات بحكم المقرر أن أشغل أول منصب مساعد يشغر. ولم يكن الطب بحصر المعنى على اختلاف فروعه يجتذبني - فيما عدا الطب النفسي - فتابعت دراستي الطبية

٤ - غوته: **فاوست**، الجزء الأول، مفيستو والتلميذ.

٥ - إرنست فون بروك: رجل علم ألماني (١٨١٩ - ١٨٩٢). من مؤسسي التشريح المجهري أو الهستولوجي. كان من أصحاب النظرية القائلة إن القوة الكيميائية والفيزيائية هي وحدها دون سواها الفاعلة في الجسم. وقد تولى إدارة معهد الفيزيولوجيا في فيينا. «م».

٦ - المقطع الذي يبدأ بـ «ومنهم بروك العظيم» وينتهي بـ «رجلاً نابهاً» أضافه فرويد إلى نصه عام ١٩٣٥. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٧ - سيغموند إكستر: فيزيولوجي نمساوي (١٨٤٦ - ١٩٢٦). خلف إرنست بروك على كرسي الفيزيولوجيا في جامعة فيينا. وتأثر في كتاباته بآراء فرويد وجوزيف بروير. «م».

٨ - إرنست فون فليشل ماركسوف: طبيب وفيزيولوجي نمساوي (١٨٤٦ - ١٨٩١). له كتابات عن النشاط الكهربائي للأعصاب والدماغ. وعمل في مختبر إ. بروك في فيينا. وقد تعرّف إلى فرويد فيما كان هذا الأخير يدرس الخصائص الطبية للكوكايين. وبناء على نصيحة منه شرع بتناوله ليتحرر من إدمانه على المورفين، ولكنه ما لبث أن وقع ضحية للإدمان على الكوكايين، مما تسبب له في أوجاع وموت مبكر، إذ توفي وهو في الخامسة والأربعين من العمر. وقد عانى فرويد بعدئذ كثيراً من تبكيت الضمير. «م».

بإهمال وتهاون، ولم أفز بلقب الدكتور في الطب إلا في عام ١٨٨١، أي بتأخر ملحوظ.

حدث الانعطاف في عام ١٨٨٢ حين صحح معلمي، الذي كنت أكنّ له أجلّ الاحترام، تساهل أبي الكريم معي، وحضّني، بالنظر إلى سوء وضعي المادي، على التحول عن الدراسة النظرية. فعملت بنصحيته، وتركت مختبر الفيزيولوجيا، والتحقت كتلميذ بالمستشفى العام. وهناك رُقِّيت بعد وقت وجيز إلى طبيب معاون، وتنقلت بشتى الأقسام، وأمضيت أكثر من ستة أشهر في قسم مينرت MEYNERT(٩) الذي كان بهرني بعمله وشخصيته منذ كنت طالباً.

بيد أنني لبثت مقيماً بمعنى من المعاني على وفائي للاتجاه الذي كنت استهللت به بحوثي. فقد كان بروك عيّن لي كموضوع للبحث النخاع الشوكي لنوع من أدنى الأسماك AMMOCOETES PETROMYZON؛ وهأنذا أنتقل الآن إلى الجهاز العصبي المركزي للإنسان، هذا الجهاز الذي كانت كشوف فليشسيغ FLECHSIG(١٠) بصدد التكوين التدرجي للأغمدة النخاعية قد سلطت ضوءاً باهراً على بنيته المعقدة. ولئن اخترت البصلة السيسائية موضوعاً وحيداً لدراستي فهذا كان أيضاً استمراراً للنهج الذي كنت بدأت به. وبالتعارض مع الطبيعة المتوزعة لدراساتي في سنواتي الأولى بالجامعة، راح يتنامى فيّ الآن ميل إلى تركيز عملي وحصره بمادةٍ واحدة أو مشكلة واحدة. وقد لازمني هذا الميل، وكان السبب فيما بعد فيما أُخذ عليّ من انحياز أحادي الجانب.

لقد صرت الآن شغيلاً مُجِدّاً في معهد التشريح المخي مثلما كنت من قبل في

---

٩ ـ تيودور مينرت: (١٨٣٣ ـ ١٨٩٢): طبيب مشهور للأمراض العصبية، رئيس عيادة الطب النفسي في مستشفى فيينا العام. كان فرويد يكنّ له إعجاباً كبيراً. ولما اشتهر بدوره، تحداه مينرت أن يثبت وجود حالة واحدة من حالات الهستريا لدى الذكور. «م».

١٠ ـ بول فليشسيغ: طبيب وجراح أعصاب ألماني (١٨٤٧ ـ ١٩٢٩). تولى إدارة عيادة لايبزغ للطب النفسي. اشتهر في تاريخ التحليل النفسي بوصفه محلل رئيس القضاة دانييل شرير. «م».

المعهد الفيزيولوجي. وفي تلك السنوات التي أمضيتها في المستشفى أنجزت أبحاثي الصغيرة الأولى عن مسار الألياف وأصل النويّ[١١] في البصلة السيسائية. فاسترعت انتباه إدنغر EDINGER[١٢]. وذات يوم اقترح عليّ مينرت، وكان قد فتح لي مختبره حتى قبل أن ألتحق بقسمه، أن أتولى، إذا ما تفرغت نهائياً لتشريح المخ، إلقاء دروسه عنه، لأنه بدأ يشعر أنه بلغ من السن مبلغاً يشقّ عليه معه الأخذ بالطرائق الجديدة. لكني رفضت هذا العرض متهيباً من جسامة المهمة. ولعلني حدست أيضاً من ذلك الحين بأن هذا الرجل النابغة ما كان على الإطلاق حسن الاستعداد نحوي.

من المؤكد أن تشريح المخ لم يكن، من الناحية العملية، يمثل خطوة إلى الأمام بالمقارنة مع الفيزيولوجيا. فوضعت الاعتبارات المادية في اعتباري وشرعت بدراسة الأمراض العصبية. ولم يكن هذا الاختصاص ذائعاً في فيينا عصرئذ، وكان المرضى العصبيون يتوزعون بين مختلف أقسام في الطب الداخلي، ولم تكن هناك فرص مؤاتية للتأهل، ولم يكن ثمة بدّ من أن يكون المرء معلّم نفسه. ولم يكن نوثناغل NOTHNAGEL[١٣]، الذي عُيِّن قبيل ذلك بقليل أستاذاً بكرسي على إثر صدور كتابه عن مواضع المراكز المخية، يحبذ إفراد قسم خاص لعلم الأمراض العصبية بين جملة أقسام الطب الداخلي.

ومن بعيد كان يسطع اسم شاركو العظيمCHARCOT[١٤]، فصممت على أن أحصل أولاً على درجة أستاذ خصوصي DOZENT[١٥] في الأمراض العصبية، وأن أنتقل بعد ذلك إلى باريس لاستكمال تحصيلي.

١١ ـ النويّ: جمع نواة. «م».

١٢ ـ لودفيغ إدنغر: أستاذ التشريح العصبي في برلين (١٨٥٥ ـ ١٩١٨). «م».

١٣ ـ هرمان نوثناغل: أستاذ الطب الداخلي في برلين (١٨٤١ ـ ١٩٠٥). والكتاب الذي يشير إليه فرويد هو **التشخيص الموضعي لأمراض الدماغ**. «م».

١٤ ـ جان مارتن شاركو: طبيب فرنسي(١٨٢٥ ـ ١٨٩٣). اشتهر بدراساته في الأمراض العصبية، وبخاصة الهستيريا، وكان يعمل ويحاضر في مستشفى سالبترير بباريس. «م».

١٥ ـ في النظام التعليمي الجامعي في ألمانيا وسويسرا أستاذ يتلقى أجره من الطلاب مباشرة. «م».

في الأعوام التالية، وفي أثناء عملي كطبيب معاون في المستشفى، نشرت مشاهدات سريرية عن حالات شتى من الأمراض العضوية في الجهاز العصبي. وقد تآلفت رويداً رويداً مع هذا الميدان، وبرعت في تحديد موضع الإصابة في البصلة السيسائية بدقة لا تترك مجالاً للمسح الباتولوجي لإضافة جديد، وكنت أول من بعث في فيينا إلى المشرحة بحالة شخّصتها على أنها التهاب حادّ في الأعصاب.

تدفق عليّ، بعد أن ذاعت شهرة تشخيصاتي المؤيَّدة بتشريح الجثث، سيل من الأطباء الأميركيين، فرحت أحاضر فيهم وأقدِّم لهم المرضى من قسمي بلغة إنكليزية ركيكة. وما كنت أفقه شيئاً في الأعصبة. ففيما كنت أقدِّم ذات يوم لمستمعيَّ مريضاً من مرضى الأعصاب، يشكو من صداع دائم، واصفاً إياه بأنه حالة من حالات التهاب موضعي مزمن في السحايا، انفضوا عني جميعاً في سورة مبررة من السخط الانتقادي، وبذلك انتهت أستاذيتي السابقة لأوانها. وأذكر على سبيل المعذرة لنفسي أن ذلك حدث في زمن كان فيه كبار الثقات في فيينا يشخِّصون النوراستينيا على أنها حالة ورم في المخ.

في ربيع عام ١٨٨٥ عُيِّنت أستاذاً خاصاً في علم الأمراض العصبية استناداً إلى بحوثي الهستولوجية[١٦] والسريرية. وبعيد ذلك بقليل، وبتزكية حارة من بروك، خُصصت لي منحة مالية لا يستهان بها للسفر في دراسة. وفي خريف ذلك العام رحلت إلى باريس.

دخلت إلى مستشفى السالبترير طالباً، وفي البداية ضعت في غمرة الطلاب القادمين من شتى الأقطار الأجنبية، ولم أحظَ بالاعتبار. وذات يوم سمعت شاركو يعرب عن أسفه لانقطاع أخبار المترجم الألماني لمحاضراته منذ الحرب؛ وقال إنه يسرّه لو يجد من يتولج بترجمة «محاضراته الجديدة». فكتبت إليه عارضاً عليه شخصي. بل إني أذكر أن رسالتي كانت تتضمن

---

١٦ ـ الهستولوجيا: علم الأنسجة البيولوجية. «م».

المُلحة الإنشائية التالية: إنني لست مصاباً إلا بالحبسة الحركية باللغة الفرنسية، لا بالحبسة الحواسية[١٧]. فاعتمدني شاركو، وأدخلني في دائرة المقربين إليه، ومنذئذ صرت أشارك مشاركة كاملة في كل ما يجري في العيادة.

في الساعة التي أكتب فيها هذه السطور تردني من فرنسا مقالات وقصاصات جرائد لا يحصى لها عدّ تشهد على صراع عنيف ضد قبول التحليل النفسي، وتقدِّم عن علاقاتي بالمدرسة الفرنسية صورة كاذبة. فهأنذا أقرأ مثلاً أنني استفدت من إقامتي في باريس لأهضم نظريات ب. جانيه[١٨]، ثم لأولي الأدبار مع غنيمتي. ولهذا أودّ أن أذكر بوضوح لا يحتمل اللبس أن اسم جانيه لم يُلفظ قط طوال إقامتي في مستشفى السالبترير.

إن أكثر ما أثَّر فيَّ من كل ما رأيته لدى شاركو أبحاثه الأخيرة عن الهستيريا. وقد أجرى بعضها على مرأى مني. ومن قبيل ذلك تحققه من واقعية الظاهرات الهستيرية وانتظامها في قوانين (INTROITE ET HIC DII SUNT!)[١٩]، وإثباته تواتر الإصابة بالهستيريا لدى الرجال، وإمكانية إحداث الشلل والتشنجات الهستيرية عن طريق الإيحاء التنويمي، وإثباته كذلك أن هذه الأعراض التي تُستحدث اصطناعاً تطابق حتى في التفاصيل الأعراض التلقائية والحالات الناشئة في العادة عن الرضات. وكانت كثرة من كشوف شاركو وإثباتاته تبتعث لديّ، كما لدى غيري من الطلاب الأجانب، الدهشة والميل إلى المناقضة في أول الأمر - وكنا نحاول أن ندعم شعورنا هذا بالرجوع إلى نظرية من النظريات التي كانت شائعة عصرئذ. وكان شاركو يردّ دوماً على اعتراضاتنا بدماثة وصبر، ولكن بجزم وقطع أيضاً. وفي واحدة من تلك المناقشات قال بصدد تلك النظريات: **إنها لا**

١٧ - الحبسة (الأفازيا) هي العِيّ، وقصد فرويد من هذه التورية بالمفردات الطبية أنه يفهم الفرنسية وإن كان لا يحسن النطق بها. «م»

١٨ - بيير جانيه: من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩ - ١٩٤٧). وكانت أطروحته للدكتوراه بإشراف شاركو عن الاضطرابات العصبية للهستيريين. وشغل منصب مدير المختبر في السالبترير، واتجهت به أبحاثه الأخيرة نحو توكيد أهمية اللاشعور في الحياة النفسية. «م».

١٩ - باللاتينية في النص: ادخلوا فالآلهة هنا. قول سائر للفيلسوف اليوناني هراقليطس مؤداه أن كل ما في الوجود تنتظمه قوانين لأن الآلهة عندما خلقت العالم اعتمدت في خلقه مبدأ النظام لا الفوضى. «م».

تمنع من وجود الشيء[٢٠]. وقد انطبع هذا القول في ذهني انطباعاً غير قابل للمحو.

معروف أن ما كان شاركو يعلمنا إياه آنئذ لم يبق صرحه كله قائماً. فشطر منه أصبح محفوفاً بالشكوك، وشطر آخر لم يحتمل امتحان الزمن. بيد أن ما بقي من عمله كافٍ ووافٍ ليكون ذخيرة دائمة للعلم. وقبل أن أغادر باريس استشرت المعلم بشأن مشروع دراسي يرمي إلى المقارنة بين حالات الشلل الهستيرية والعضوية. وكانت بغيتي أن أبرهن على فرضية مؤداها أن الشلل والخدر في مختلف أجزاء الجسم في حالة الهستيريا تتعين حدودهما بحسب التصور الشائع (لا التشريحي) الذي للناس عنها. وقد وافقني على رأيي، ولكن لم يكن من العسير عليّ أن أفطن إلى أنه في صميم نفسه لا يميل ميلاً خاصاً إلى إخضاع العصاب لدراسة سيكولوجية معمقة. إذاً، فعن التشريح الباتولوجي كان صدوده.

قبل أوبتي إلى فيينا توقفت بضعة أسابيع في برلين تحصيلاً لبعض المعرفة بأمراض الأطفال العامة. وكان كاسوفتنز KASSOWITZ[٢١]، الذي يدير في فيينا عيادة لمعالجة الأطفال المرضى، قد وعدني بأن يعهد إليّ بقسم يفتتحه للأطفال المصابين بأمراض عصبية. ولقيت في برلين، لدى أد. باجنسكي BAGINSKY[٢٢]، حسن وفادة وتشجيعاً. وفي غضون الأعوام التالية نشرت، من معهد كاسوفتز، بضع مقالات مستفيضة عن حالات الشلل المخي الأحادي أو الثنائي الشقّ. ولهذا السبب أيضاً عهد إليّ نوثناغل فيما بعد، أي في سنة ١٨٩٧، بمعالجة الموضوع نفسه في مؤلَّفه الكبير: **الوجيز في فن العلاج العام والخاص**.

في خريف عام ١٨٨٦ استقر بي المقام في فيينا كطبيب، وتزوجت من الفتاة التي أقامت على انتظاري أكثر من أربع سنوات في مدينة نائية. وأعود هنا إلى

---

٢٠ ـ بالفرنسية في النص: ÇA N'Emèche pas D'exister. وهذه العبارة سيوردها فرويد في نص آخر له بالفرنسية «النظرية شيء حسن، ولكنها لا تمنع من وجود الشيء». «م».

٢١ ـ ماكس كاسوفتز: طبيب أطفال ألماني (١٨٤٢ ـ ١٩١٣). «م».

٢٢ ـ أدولف باجنسكي: طبيب أطفال ألماني (١٨٤٣ ـ ١٩١٨). «م».

الوراء لأوضح كيف أن خطيبتي كانت هي المسؤولة عن عدم ذيوع شهرتي في تلك السنوات الفتية من عمري. فقد كنت حصلت في عام ١٨٨٤، بدافع يخرج عن نطاق دراستي، لكنه بعيد الغور في نفسي، من لدى ميرك MEREK[٢٣] على قلويد لم يكن معروفاً آنئذ على نطاق واسع، هو الكوكايين، كيما أدرس مفاعيله الفيزيولوجية. وفيما أنا غارق في هذا البحث سنحت لي فرصة للسفر لرؤية خطيبتي التي كنت فارقتها قبل سنتين. وختمت على عجل أبحاثي بصدد الكوكاكين، مكتفياً بالإشارة في البحث الذي كتبته عن الموضوع إلى أن هذه المادة ستعرف عما قريب تطبيقات أخرى. بيد أنني طلبت مع ذلك إلى صديقي، طبيب العيون ل. كونيغشتاين KONIGSTEIN[٢٤]، أن يجري تجارب للتحقق من مدى قابلية استخدام الخصائص التخديرية للكوكايين في معالجة العين المريضة. وحين قفلت راجعاً من إجازتي علمت أن ليس كونيغشتاين وإنما صديق آخر يدعى كارل كولر KOLLER[٢٥] (يقيم حالياً في نيويورك) - وكنت قد كلمته أيضاًعن الكوكاكين - هو الذي قام بالتجارب الحاسمة على عيون الحيوان، وقدَّم نتائجها إلى مؤتمر طب العيون في هايدلبرغ. ومن ثم اُعتبر كولر بحقّ مكتشف التخدير الموضعي بواسطة الكوكاكين، هذا التخدير الذي بات عظيم الأهمية في الجراحة الصغرى. بيد أنني لم أنقم على خطيبتي للفرصة التي ضاعت عليّ.

أعود بالحديث إلى عام ١٨٨٦ وإلى فيينا حيث استقر بي المقام اختصاصياً في الأمراض العصبية. كان عليّ أن ألقي تقريراً أمام **جمعية الأطباء** عما شاهدته وأفدته لدى شاركو. بيد أنني لم ألقَ استقبالاً حسناً. فقد أعلن ثقات من الأطباء، ومنهم الرئيس بامبرغر BAMBERGER[٢٦]، أن ما قلته غير حقيق بالتصديق. واستحثني مينرت على أن ألتمس في فيينا حالات تضارع تلك التي وصفتها وأن

٢٣ ـ ميرك: شركة ألمانية متخصصة بالمنتجات الكيمائية والصيدلانية. «م».

٢٤ ـ ليوبولد كونيغشتاين: أستاذ في طب العيون (١٨٥٠ ـ ١٩٢٤). «م».

٢٥ ـ كارل كولر: طبيب عيون ألماني (١٨٥٧ ـ ١٩٤٤). «م».

٢٦ ـ يوجين فون بامبرغر: أستاذ ألماني في الطب الداخلي (١٨٥٨ ـ ١٩٢١). «م».

أقدِّمها إلى **جمعية الأطباء**. وهذا ما حاولته، غير أن أطباء المستشفيات في الأقسام التي وجدت فيها مثل تلك الحالات أبوا أن يسمحوا لي بملاحظتها وبدراستها معهم. وهتف بي أحدهم، وهو جراح مسنّ، متعجباً: «كيف يمكن لك، أيها الزميل العزيز، أن تنطق بمثل هذا الهذر! إن هستيرون (كذا!) معناها الرحم. فكيف يمكن إذاً لرجل أن يكون هستيرياً؟... وعبثاً اعترضت بأن ما أحتاجه هو أن تتاح لي الإمكانية لملاحظة الحالة لا المصادقة على تشخيصي. واكتشفت آخر الأمر، خارج المستشفى، حالة نموذجية لخدار نصفي هستيري لدى رجل، فقدّمتها إلى **جمعية الأطباء**. وقوبلت هذه المرة بشيء من التصفيق، ثم لم يعد أحد يعيرني اهتماماً بعد ذلك. وبقي الانطباع بأن «السلطات المختصة» قابلت الجديد الذي أتيت به بالازورار ثابتاً لدى الجميع لا يتزعزع؛ ووجدت نفسي، لقولي بوجود الهستيريا لدى الرجال وبإمكانية إحداث الشلل الهستيري عن طريق الإيحاء، منبوذاً إلى صفوف المعارضة. وبما أنه لم يمضِ زمن طويل حتى أغلق في وجهي باب مختبر التشريح المخي ولم أعد أجد طيلة فصول دراستي بكاملها مكاناً ألقي فيه محاضراتي، فقد اعتزلت الحياة الأكاديمية والطبية. ولم أضع منذئذ قدمي ثانية في **جمعية الأطباء**.

إن من يبغي أن يرتزق من علاج المرضى العصبيين مطالَب بطبيعة الحال بأن يكون قادراً على فعل شيء ما لهم. ولم تكن ترسانتي العلاجية تحتوي أيامئذ إلا على سلاحين: المعالجة الكهربائية والتنويم، لأن إرسال المريض إلى إحدى مصحات المعالجة المائية بعد استشارة واحدة يتيمة لم يكن مصدراً كافياً للربح. وكان مرجعي، في ما يتصل بالمعالجة الكهربائية، كتاب ف. إرب ERB[٢٧] الذي يتضمن تعليمات مفصّلة بصدد معالجة جميع أعراض الأمراض العصبية. ولم يكن ثمة مناص، من سوء الحظ، من أن أتبيّن سريعاً أن إذعاني في اتباع تلك التعليمات بدقة لا يجدي فتيلاً، وأن ما اعتبرته نتيجة لملاحظات ومشاهدات دقيقة لم يكن إلا صرحاً من الأوهام والأخاييل. ولقد كان مؤلماً لي أن أكتشف أن كتاباً موقعاً باسم كبير الاختصاصيين الألمان في علم

---

٢٧ - فلهلم إرب: طبيب أعصاب ألماني (١٨٤٠ - ١٩٢١). له نحو من ٢٥٠ مؤلفاً. والكتاب الذي يشير إليه فرويد هو **الوجيز في المعالجة الكهربائية**. «م».

الأمراض العصبية لا يمتّ إلى الواقع بصلة أقوى من تلك التي يمتّ بها إليه كتاب «مصري» عن مفاتيح المنامات من مثل تلك الكتب التي تباع في مكتباتنا الشعبية[٢٨]. لكن هذا الاكتشاف ساعدني على قطع شوط آخر على طريق التخلص من الإيمان الساذج بالثقات، وهو الإيمان الذي لم أكن قد تحررت منه بعد. وهكذا نحَّيت جانباً جهازي الكهربائي حتى قبل أن ينطق موبيوس MOEBIUS[٢٩] بعبارته التحريرية: إن نجاح المعالجة الكهربائية - إن يكن ثمة من نجاح - إنما مردّه إلى إيحاء الطبيب.

كانت الأمور تبدو أحسن حالاً مع التنويم. وكنت حضرت، وأنا ما زلت طالباً، جلسة لـ «المنوِّم المغنطيسي» هانس HANS[٣٠] فلاحظت أن واحداً من الأشخاص الذين أجرى عليهم تجاربه شحب شحوب الموتى لحظة سقوطه في التخشب وبقي على هذا الحال إلى أن زال التخشب. وهذا ما قدّم أساساً راسخاً لاقتناعي بواقعية الظاهرات التنويمية. وما لبثت هذه النظرة أن وجدت في هايدنهاين HEIDENHAIN[٣١] داعيتها العلمي، ولكن ذلك لم يمنع أساتذة الطب النفسي من أن يستمروا ردحاً طويلاً من الزمن متمسكين بإعلانهم أن التنويم شعبذة، بله شعبذة خطرة، ومن أن يزدروا من عالي مقامهم المنوِّمين المغنطيسيين. وكان تسنى لي في باريس أن أشاهد كيف يُستخدم التنويم بلا تردد لاستحداث الأعراض لدى المرضى، ثم لتحريرهم منها. وعندئذ وافانا نبأ مولد مدرسة في نانسي[٣٢] تستخدم الإيحاء على نطاق واسع، بتنويم أو بدون تنويم، وبنجاح مدهش، لأغراض علاجية. وهكذا صار الإيحاء بصورة طبيعية أداتي

٢٨ - كان شائعاً في الثقافة الشعبية الأوروبية أن تنسب كتب تفسير المنامات إلى مصادر فرعونية. «م».

٢٩ - بول موبيوس: طبيب أعصاب ألماني (١٨٥٣ - ١٩٠٧). كان سباقاً إلى تعريف الهستيريا بأنها ظاهرة مرضية ناجمة عن تصورات وتخيّلات. «م».

٣٠ - كارل هانسن: منوم مغنطيسي دانمركي (١٨٣٣ - ١٨٩٧). تلميذ المنوم المغطيسي الأشهر فرانز مسمر. «م».

٣١ - رودولف هايدنهاين: أستاذ الفيزيولوجيا والهيستولوجيا في جامعة وروتسوف البولونية (١٨٣٤ - ١٨٩٧). «م».

٣٢ - بلدة فرنسية اشتهرت في تاريخ التحليل النفسي بالمدرسة المنسوبة إليها والتي أسسها في عام ١٨٨٤ الطبيبان ليبو وبرنهايم لمعالجة الأمراض النفسية بالإيحاء والتنويم. «م».

الرئيسية في العمل في السنوات الأولى من مزاولتي الطب ـ بالإضافة إلى طرائق أخرى في العلاج النفسي كنت أستخدمها بين الحين والآخر بصورة غير مطردة.

كنت بذلك قد عدلت عن معالجة الأمراض العصبية العضوية، ولكن لم يكن في ذلك خسارة تذكر. ذلك أن علاج هذه الحالات لم يكن من جهة أولى يبشّر بنتائج باعثة على الرضى، ومن الجهة الثانية كان عدد هذه الفئة من المرضى الذين يترددون على العيادة الخاصة لطبيب مستقر في مدينة كبيرة ضئيلاً لا يذكر بالقياس إلى العدد الغفير من العصابيين، هذا العدد الذي كان يتضاعف أيضاً بحكم هروع هؤلاء المرضى من طبيب إلى آخر بدون أن يلقوا ما ينشدونه من عون ومساعفة. زد على ذلك أن العمل بواسطة التنويم كان ممتعاً. فلأول مرة يراود المرء الشعور بأنه تغلب على عجزه هو ذاته، وكان مما يدغدغ خيلاء الإنسان أن يذيع صيته كصانع معجزات. ولن أفطن إلى عيوب هذه الطريقة إلا فيما بعد. أما في ذلك الوقت فما كان بوسعي أن أشكو إلا من شيئين: أولهما أنني لا أفلح في تنويم المرضى جميعاً، وثانيهما أنه لا يتأتى لي أن أجعل جميع المرضى يستغرقون في تنويم عميق إلى الحدّ الذي أرتجيه. وبغية تجويد طريقتي التنويمية رحلت، في صيف ١٨٨٩، إلى نانسي حيث أمضيت بضعة أسابيع. وهناك رأيت ليبو LIEBAULT[٣٣] المسنّ المؤثر يعمل مع مرضاه من فقراء الناس وأطفال الطبقة البروليتارية؛ وحضرت التجارب المدهشة التي كان برنهايم BERNHEIM[٣٤] يجريها على مرضى المستشفى؛ وهناك أيضاً ساورتني انطباعات شبه قاهرة باحتمال وجود سيرورات نفسية تخفى، برغم قوتها، عن وعي الناس. واستزادة في العلم، كنت أقنعت إحدى مريضاتي بأن ترافقني إلى نانسي. كانت امرأة هستيرية كريمة المحتد، ومحبوّة بذكاء متفوّق. وكان أمرها قد تُرك لي بعد أن أُسقط في يد الجميع. وقد استطعت، بفضل الإيحاء التنويمي، أن أجعل الحياة أمراً يطاق بالنسبة إليها، وكان في

٣٣ ـ أمبرواز ليبو: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٢٣ ـ ١٩٠٤). مؤسس المعالجة بالإيحاء. «م».

٣٤ ـ هيبوليت برنهايم: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٤٠ ـ ١٩١٩). ارتبط اسمه بمدرسة نانسي للإيحاء التنويمي. «م».

مقدوري أن أوقفها على قدميها من جديد دوماً كلما عاودت السقوط في حالتها البائسة. وبما أنها كانت في كل مرة تعود إلى الانتكاس، فقد كنت، بحكم جهلي، أعزو هذا الانتكاس، في المقام الأول، إلى أن تنويمها لم يبلغ قط درجة السرنمة[٣٥] المصحوبة بالنساية. وقد حاول برنهايم بدوره عدة مرات أن يجعلها تستغرق في نوم عميق، بيد أنه لم يصب فلاحاً أكثر مما أصبت. واعترف لي بصريح القول بأنه لم يحقق قط نجاحاته العلاجية الباهرة عن طريق الإيحاء إلا مع المرضى من نزلاء المستشفى، لا مع مرضاه الخصوصيين في عيادته بالمدينة. ودارت بيننا مناقشات مفيدة كثيرة وتعهدت بترجمة كتابيه عن الإيحاء ومفاعيله العلاجية إلى الألمانية[٣٦].

من عام ١٨٨٦ إلى عام ١٨٩١ لم أعمل في المجال العلمي إلا قليلاً ولم أنشر شيئاً يذكر. فقد كنت مأخوذاً بضرورات تثبيت مواقع قدميّ في مهنتي الجديدة وتمتين وجودي المادي ومعيشة أسرتي الآخذة بالتنامي بسرعة. وفي عام ١٨٩١ ظهر أول أبحاثي عن الشلل المخي، وقد حررته بالتعاون مع صديقي ومساعدي الدكتور أوسكار راي RIE[٣٧]. وفي العام نفسه دعيت إلى المشاركة في معجم عن مشكلة الحُبسة APHASIE، وكانت وجهة النظر السائدة بصددها هي فرضية فرنيكيه ـ ليشتهايم WERNICKE - LICHTHEIM[٣٨] الضيقة عن وجود انجراحات في المراكز المخية. وكانت ثمرة جهودي تلك كتاباً صغيراً ذا طابع تأملي ـ نقدي: **حول مفهوم الحبسات**. ويتعين عليّ الآن أن أتابع فأبيِّن كيف عاد البحث العلمي فصار من جديد شغل حياتي الشاغل.

---

٣٥ ـ السرنمة SOMNAMBULISME: منحوتة من «سار» و«نام»، وهي عند العامة الروبصة. «م».

٣٦ ـ هذان الكتابان هما **حول الإيحاء في حالة التنويم وفي حالة اليقظة والتنويم المغنطيسي والإيحاء والمعالجة النفسية**. «م».

٣٧ ـ أوسكار راي: طبيب أطفال ألماني وصديق كبير لفرويد (١٨٦٣ ـ ١٩٣١). والكتاب الذي يشير إليه فرويد هو: **دراسة سريرية للشلل النصفي لدى الأطفال**. «م».

٣٨ ـ كارل فرنيكيه (١٨٤٨ ـ ١٩٠٥) ولودفيغ ليشتهايم (١٨٤٥ ـ ١٩٢٨): طبيبان ألمانيان تخصصا بدراسة الحبسة، أي العِيّ أو انعقاد اللسان. «م».

(٢)

استكمالاً لعرضي هذا يتعيَّن عليّ أن أقرّ بأنني استخدمت من البداية التنويم لغرض آخر غير الإيحاء التنويمي. فقد كنت ألجأ إليه لأسبر باطن المريض فيما يتصل بتاريخ مرضه ومنشأ هذا المرض، مما لم يكن في مستطاعه أن يطلعني عليه على الإطلاق إلا على نحو ناقص للغاية في حالة اليقظة. وما كانت هذه الطريقة تبدو أنجع من مجرد الإيحاء الذي يأمر أو ينهى فحسب، بل كانت تروي أيضاً العطش إلى المعرفة لدى الطبيب الذي كان من حقه بالتالي أن يعلم شيئاً عن أصل الظاهرة التي يسعى إلى شفائها بالطريقة الإيحائية الرتيبة.

لقد اهتديت إلى هذه الطريقة على النحو الذي سأبيِّنه الآن. فحين كنت لا أزال في مختبر بروك، تعرفت إلى الدكتور جوزيف بروير BREUER[1]، وكان من أبرز الأطباء الممارسين الذائعي الصيت في فيينا؛ ولكن كان له أيضاً ماضٍ علمي، إذ كان الطب يدين له بعدة بحوث دائمة القيمة عن فيزيولوجيا التنفس وعن عضو التوازن. كان رجلاً متوقد الذكاء، وكان يكبرني بأربعة عشر عاماً. وسرعان ما توثقت عرى الصلة بيننا، فصار صديقي وسندي في ظروفي الحياتية الصعبة. وقد درجت بنا العادة على المزاوجة بين اهتماماتنا العلمية، وكنت بطبيعة الحال أنا الرابح في هذه الشراكة. وقد كلَّفني تطور التحليل النفسي صداقته. ولم يكن هيِّناً عليّ أن أدفع هذا الثمن، ولكن لم يكن من ذلك بدّ.

كان بروير قد كاشفني، حتى قبل رحيلي إلى باريس، بملاحظاته عن حالة هستيريا عالجها بين ١٨٨٠ و١٨٨٢ بطريقة خاصة، مما أتاح له أن يتوغل عميقاً

١ ـ جوزيف بروير: طبيب وفيزيولوجي نمساوي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥). اشتهر في تاريخ التحليل النفسي من خلال معالجته لبرتا بابنهايم التي كانت تعاني من أعراض هستيرية والتي اشتهرت بدورها بالاسم المستعار الذي أطلقه عليها: آنا أو. «م».

في فهم الأسباب المولِّدة للأعراض الهستيرية ودلالتها. حدث ذلك إذاً في زمن كانت لا تزال فيه بحوث جانيه طيّ المستقبل. وقد قرأ عليّ في مناسبات شتى مقتطفات من تاريخ حالة مريضته، فداخلني انطباع بأنه لم يسبق قط أن خُطِيت مثل هذه الخطوة في فهم العصاب. وقرّ عزمي على إطلاع شاركو على هذه النتائج عند قدومي إلى باريس، وهذا بالفعل ما عملته. لكن المعلم لم يبدِ، منذ إلماعاتي الأولى، اهتماماً على الإطلاق، فلم يكن أمامي مناص من أن أمسك عن الموضوع وما عدت أنا نفسي أشغل نفسي به.

لدى أوبتي إلى فيينا استيقظ من جديد اهتمامي بملاحظات بروير عن الحالة، واستزدته تفصيلات أخرى عنها. كانت المريضة التي عالجها بروير صبية مثقفة، فذة المواهب، وقد سقطت مريضة حينما كانت تتولى تمريض أبيها الذي كانت تكنّ له حبّاً جمّاً. ويوم شرع بروير بالاهتمام بحالتها كانت اللوحة السريرية التي تقدِّمها مزيجاً من الشلل المصحوب بتشنجات، ومن ألوان الكفّ وحالات الخلط العقلي. وقد أتاحت ملاحظة عارضة للطبيب أن يفطن إلى أنه كان يمكن تخليصها من بعض الاضطرابات الواعية هذه إذا ما وُفِّرت لها القدرة على الإفصاح عن الأخاييل الانفعالية التي تهيمن عليها في اللحظة عينها. واستخلص بروير من هذه الملاحظة طريقة علاجية. فكان ينوِّم مريضته تنويماً عميقاً ويدعها في كل مرة تتحدث عما يبهظ نفسها. ولما تلاشت حالات الخلط الاكتئابي، عمد بروير إلى الطريقة نفسها لإزالة أنواع الكفّ ولتحرير المريضة من اضطراباتها البدنية. وحينما كانت الفتاة تفيق ما كانت تستطيع - مثلها مثل غيرها من المرضى - أن تذكر كيف نشأت أعراضها وما كانت تهتدي إلى أي رابطة بينها وبين خبرة من خبرات حياتها. أما في حالة التنويم فكانت تكتشف للحال العلاقات المطلوبة. وقد اتضح أن جميع هذه الأعراض ترجع إلى أحداث تركت في نفسها وقعاً بالغاً، وحدثت كلها في الزمن الذي كانت تعتني فيه بأبيها المريض؛ إذاً فقد كان لهذه الأعراض معنى، وكانت بمثابة متخلفات واستذكارات لتلك المواقف العاطفية. وكانت الأمور تحدث في العادة على النحو التالي: كانت تضطر، وهي عند سرير والدها، إلى قمع فكرة أو حفزة، فإذا

بالعرض يظهر فيما بعد محلَّها، بوصفه ممثِّلاً لها. وبصفة عامة، لم يكن العرض مترسباً عن مشهد واحد من هذه المشاهد «الرضّيّة»، بل نتيجة تراكم عدد كبير من المواقف المماثلة. وحين كانت المريضة تتذكر هلوسياً في أثناء التنويم موقفاً من هذا القبيل وتفلح ولو بعد تأخير في إنجاز الفعل النفسي الذي كانت قمعته فيما سبق بإفصاحها بحرية عن الانفعال، كان العرض يتلاشى ولا يعود إلى الظهور ثانية. وبهذه الطريقة وُفِّق بروير، بعد مجهود طويل وشاقّ، إلى تخليص مريضته من أعراضها كافة.

برئت المريضة واستعادت عافيتها، بل اقتدرت على الاضطلاع بنشاط فعلي ومهمّ في الحياة. لكن نهاية العلاج التنويمي ظلت مغلَّفة بغموض لم يقشعه بروير لي قط؛ كما لم يكن في مستطاعي أن أفهم لماذا تكتَّم طوال هذه الفترة المديدة على معرفة بدت لي لا تُقدَّر بثمن، بدلاً من أن يغني بها العلم. على أن السؤال الذي كان يطرح نفسه بعد ذلك هو معرفة ما إذا كان هناك مبرر لتعميم ما انتهى إليه بصدد حالة مفردة. لقد بدت لي العلاقات التي كشف عنها جوهرية إلى حدّ ما كان لي معه أن أتصور أنه يمكن أن تخلو منها أية حالة أخرى من حالات الهستيريا، ما دام قد قام الدليل على وجود هذه العلاقات في حالة واحدة. بيد أنه ما كان لغير التجربة أن تحسم المسألة. وعليه، بدأت أطبّق مع مرضاي حرفياً أبحاث بروير، بل لم أعد أفعل شيئاً آخر، وعلى الأخص بعدما أبانت لي زيارتي لبرنهايم في عام ١٨٨٩ حدود نجع الإيحاء التنويمي. وإذ رحت على مدى سنوات أتأكد مرة تلو الأخرى من صحة كشوف بروير وأجمع عدداً لا يستهان به من المشاهدات المطابقة لمشاهداته، اقترحت عليه أن نصدر كتاباً مشتركاً. فنفر أول الأمر من هذه الفكرة بقوة، ثم ما لبث أن وافق، بعد أن استبقت بحوثُ جانيه التي نُشرت في أثناء ذلك بعضاً من نتائجه، وعلى الأخص ربط الأعراض الهستيرية بخبرات من حياة المريض وإزالتها عن طريق استعادتها أثناء التنويم IN STATU NASCENDI[2]. ونشرنا عام ١٨٩٣ دراسة تمهيدية: **حول الآلية**

---

٢ ـ باللاتينية في النص: في الحالة التي ولدت بها، أي على النحو الذي ظهرت به لأول مرة. «م».

النفسية للظاهرات الهستيرية. وأعقبها في عام ١٨٨٥ كتابنا: **دراسات في الهستيريا**.

إن يكن العرْض الذي قدّمته حتى الآن قد أوحى للقارئ بأن **الدراسات في الهستيريا** كانت، بكل الجوانب الرئيسية لمضمونها المادي، مُلكاً فكرياً لبروير، فهذا على التحديد ما كنت أقوله دوماً وما أردت الإعلان عنه هنا. أما فيما يتصل بالنظرية التي يحاول الكتاب أن يشيد صرحها، فقد أسهمت فيها بقسط بات متعذراً اليوم تحديده. كانت النظرية متواضعة، ولا تتعدى كثيراً التعبير المباشر عن المعاينات. ولم تتطلع إلى التعمق في طبيعة الهستيريا، بل فقط إلى توضيح نشأة أعراضها. وقد أكدتْ من ثم على أهمية الحياة العاطفية، وعلى ضرورة التمييز بين الأفعال النفسية اللاشعورية والشعورية (أو بالأحرى القابلة لأن تصير شعورية)؛ وأدخلت عاملاً دينامياً إذ استولدت العرض من تراكم انفعال من الانفعالات العاطفية، وعاملاً اقتصادياً إذ اعتبرت هذا العرض نفسه نتيجة لتحويل كتلة من الطاقة تصرف في العادة على نحو آخر (**الاستبدال**)[٣]. وقد أطلق بروير على طريقتنا اسم **التطهير**[٤]؛ وقد جعلنا غرضها العلاجي ردَّ الشحنة الانفعالية التي سارت في مسالك خاطئة وباتت محتبسة فيها، إن جاز القول، إلى المسالك السوية كيما يتاح لها أن تأخذ طريقها إلى التفريغ (**التصريف**). وكان النجاح الفعلي للطريقة التطهيرية ممتازاً. أما العيوب التي تكشفت عنها لاحقاً فهي عيوب كل علاج بالتنويم. ولا يزال إلى اليوم نفر من المعالجين النفسيين يعتمدون التطهير كما كان يفهمه بروير طريقةً للعلاج ويجدونها باعثة على الرضى. وقد أثبتت من جديد نجعها كطريقة علاجية مختصرة في معالجة أعصبة الحرب في الجيش الألماني في أثناء

٣ ـ الاستبدال، وبخاصة في الهستيريا، انقلاب ما هو نفسي إلى ما هو بدني، وعلى حدّ تعبير فرويد: «القفزة من النفسي إلى التعصيب البدني». وهي القفزة، المجهولة آليتها، التي تتمخض عن تكوين الأعراض. «م».

٤ ـ التطهير أو الكاثارسيس: مصطلح مأخوذ من اليونانية، وبمعنى مشابه لذاك الذي استخدمه أرسطو في كلامه عن القوة التطهيرية للمأساة. «م».

الحرب العالمية، بالنحو الذي أدارها به إ. سيمل SIMMEL[٥]. ولا تقيم نظرية التطهير كبير اعتبار للحياة الجنسية. فصحيح أن العوامل الجنسية تلعب دوراً ما في تواريخ الحالات المرضية التي أسهمتُ بها في **الدراسات**[٦]، إلا أنها لا تكاد تحظى بأهمية مغايرة لما تحظى به الانفعالات العاطفية الأخرى. وعن مريضته الأولى، التي أصابت مذّاك شهرة عريضة[٧]، يذكر بروير أن الجانب الجنسي عندها كان ناقص التطور إلى حدّ يبعث على االدهشة. والحق أنه ما كان لقارئ **الدراسات في الهستيريا** أن يحدس بما تلعبه الجنسية من دور في إتيولوجيا الأعصبة[٨].

أما ما أعقب ذلك، أي الانتقال من التطهير إلى التحليل النفسي بحصر المعنى، فقد سبق لي أن وصفته بالتفصيل مراراً حتى بات يشقّ عليّ أن أضيف هنا جديداً. وكان الحدَث الذي دشّن هذه المرحلة انسحاب بروير من شراكتنا في العمل، مما جعلني المتصرف الوحيد بتراثه. وكانت خلافات في الرأي قد ظهرت بيننا في زمن مبكر، ولكنها قصّرت عن أن تتسبَّب في انفصالنا. فردّاً على هذا السؤال: متى يغدو حدث نفسي ما إمراضياً، أي متى يُنحَّى عن طريق التصريف السويّ، كان بروير يؤثر أن يجيب بنظرية ذات منحى فيزيولوجي إن جاز القول؛ فقد كان يعتقد أن السيرورات التي نشأت في ظل أحوال نفسية غير مألوفة ـ نوامية ـ هي بالتحديد السيرورات التي لا تؤول إلى مصير سويّ. ولكن كان سؤال جديد ينطرح في هذه الحال: ما أصل هذه الحالات النوامية؟ كنت أميل إلى الاعتقاد من جانبي بوجود تصارع بين القوى، أي مقاصد وميول تعمل كما تعمل مثيلاتها في الحياة العادية. وهكذا كانت «نظرية الهستيريا النوامية»

٥ ـ إرنست سيمل: طبيب ألماني (١٨٨٢ ـ ١٩٤٧). أسس عام ١٩٢٧ أول عيادة للتحليل النفسي. أشاد فرويد إشادة كبيرة بكتابه **الأعصبة الحربية والرضة النفسية**. «م».

٦ ـ يقصد كتابه المشترك مع بروير: **دراسات في الهستيريا**. «م».

٧ ـ اشتهرت في تاريخ التحليل النفسي كما تقدم بنا البيان باسم آنا أو. وكان اسمها الحقيقي برتا بانهايم. «م».

٨ ـ الإتيولوجيا: علم الأسباب بعامة، وبحث أسباب المرض بخاصة. «م».

تتعارض مع نظريتي في «العصاب الدفاعي». ولكن ما كان لذلك ولاختلافات أخرى من هذا القبيل أن تصرف بروير عن عملنا المشترك لو لم تتدخل عوامل أخرى. ومن المحقق أن واحداً من هذه العوامل أن بروير، بصفته طبيباً ممارساً وموضع إقبال شديد من الأسر، كان مشغولاً جداً، وما كان بوسعه مثلي أن يقف قواه كلها على العمل التطهيري. وناهيك عن ذلك، تأثر تأثراً بالغاً بما لاقاه كتابنا من سوء استقبال في فيينا وفي ألمانيا. ولم يكن إيمانه بنفسه وقدرته على المقاومة في مستوى طاقاته الذهنية. ومن ذلك، مثلاً، أن سترومبل STRUMPELL[٩] تهجم بقسوة على **الدراسات**. ولكن حين قوبل هذا النقد القاصر عن الفهم مني بالضحك، شعر بروير بأنه قد أهين وطعن فتثبطت عزيمته. بيد أن أكثر ما أسهم في حمله على إبرام قراره هو أن بحوثي اتجهت منذئذ وجهة شقّ عليه أن يتآلف معها.

كانت النظرية التي حاولنا تشييدها في **الدراسات** قد بقيت، كما أسلفت، بعيدة منتهى البعد عن الاكتمال. وما كانت مشكلة الإتيولوجيا بوجه خاص، أي مشكلة معرفة التربة التي تنشأ فيها السيرورة الإمراضية، قد حظيت منا بأكثر من مسّ خفيف. وقد راحت الخبرات والتجارب تتراكم منذئذ بسرعة لتظهر لي أن ما يفعل فعله خلف ظاهرات العصاب ليس أي إثارات انفعالية كانت، وإنما بصورة مطّردة إثارات من طبيعة جنسية، سواء أكانت صراعات راهنة جنسية أم ردّات على خبرات جنسية مبكرة. ولم أكن مهيأ لهذه النتيجة، ولا كنت أتوقعها على الإطلاق، إذ كنت عكفت على فحص العصابيين وأنا خالي الذهن تماماً. وفيما كنت أكتب في عام ١٩١٤ **المساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي**، استرجعت في ذاكرتي بعض عبارات تفوّه بها كل من بروير وشاركو وشروباك CHROBAK[١٠] وكان من شأنها لو استوعبتها أن تفضي بي إلى الوصول إلى هذا التصور في وقت أبكر. لكني لم أفهم آنئذ ما كان

٩ ـ أدولف فون سترومبل: طبيب أعصاب ألماني (١٨٥٣ ـ ١٩٢٥). له عدة دراسات عن الشلل النصفي الوراثي. «م».

١٠ ـ رودولف شروباك: من مشاهير أطباء الأمراض النسائية في فيينا (١٨٤٣ ـ ١٩١٠). عهد إلى فرويد بمعالجة مريضة من مريضاته بالهستيريا، مشيراً إلى وجوب البحث عن علة مرضها في حياتها الجنسية. «م».

يقصده هؤلاء الأشخاص، الذين كانت لهم كلمة نافذة، بحديثهم ذاك: فقد أطلعوني على أكثر مما كانوا يعرفونه هم أنفسهم ومما كانوا على استعداد للمنافحة عنه. وقد بقي ما تلقيته من شفاههم راقداً ساكناً في نفسي إلى أن عاود انبجاسه كمعرفة مبتكرة في ظاهرها في سياق بحوثي التطهيرية. وما كنت أدرك أيضاً آنئذ أنني بردِّي الهستيريا إلى الجنسية قد رجعت أدراجي إلى أقدم أزمنة الطب وجددت الصلة بتراث أفلاطون. وما فطنت إلى ذلك إلا بعد مطالعتي لمقال كتبه هافلوك إلِّيس HAVELOCK ELLIS[١١] في وقت لاحق.

تحت تأثير اكتشافي المدهش خطوت خطوة بعيدة العواقب. فقد خرجت من مضمار الهستيريا وشرعت أستكشف الحياة الجنسية لمن يسمّون بـ«النوراستانيين» الذين كانوا يفدون على عيادتي بأعداد كبيرة. صحيح أن هذه التجربة كلّفتني ما كان يمكن أن أتمتع به من حظوة كطبيب، بيد أنها أمدَّتني باقتناعات لم يطرأ عليها إلى اليوم، وعلى الرغم من مرور زهاء ثلاثين عاماً عليها، من وهن. لقد كان على المرء أن يتغلب على قدر كبير من الكذب والمراءاة، لكن كان يتبيّن له، حالما يتوصّل إلى ذلك، أن جميع أولئك المرضى ينطوون على ضروب خطيرة «من سوء استعمال» الوظيفة الجنسية. ونظراً، من جهة أولى، إلى التواتر الكبير لهذه الألوان من سوء الاستعمال، ومن الجهة الثانية، إلى الانتشار الواسع للنوراستانيا، فإن تلاقيهما لم يكن ينطوي بطبيعة الحال على قوة إقناعية كبيرة؛ بيد أن الأمور لم تقف عند هذه المشاهدة الأولية لا تتجاوزها. فالتدقيق في الملاحظة أتاح لي أن أفرّق، في غمرة اللوحات السريرية التي كانت تُجمع بلا تمييز تحت اسم النوراستانيا، بين نمطين مختلفين اختلافاً جوهرياً، تمكن ملاحظة كل منهما في حالته الخالصة، وإن يكن من الممكن أن يلتقيهما المرء في حالة امتزاج. في أول هذين النمطين كانت الظاهرة المركزية هي نوبة الحصر مع مكافئاتها

١١ ـ هافلوك إلِّيس: طبيب إنكليزي من أعظم علماء الحياة الجنسية في القرن العشرين (١٨٥٩ ـ ١٩٣٩). والإشارة هنا إلى مقاله «الهستيريا وعلاقتها بالانفعالات الجنسية»، وفيه إحالة إلى تعريف أحد المتحاورين في **المأدبة** لأفلاطون للطبّ بأنه العلم بألوان الحب والشهوات الجسدية. «م».

وأشكالها الابتدائية وأعراضها البديلة المزمنة؛ ولهذا السبب أسميتها **العصاب الحصري**، بينما قصرتُ اسم النوراستانيا على النمط الثاني. وقد بات متيسّراً لي الآن أن أتحقق من أن كلاً من هذين النمطين يناظره، كعامل إتيولوجي، ضرب مغاير من الشذوذ في الحياة الجنسية (الجماع المبتور، التهيج المحبط، الاستنكاف الجنسي في العصاب الحصري؛ والاستمناء المسرف وتكرار الاحتلام في النوراستانيا). وقد تسنى لي في بعض الحالات الغنية بالفائدة، وبخاصة تلك التي يحدث فيها انقلاب مفاجئ في اللوحة السريرية من نمط إلى آخر، أن أثبت أن تغيُّراً مناظراً في السلوك الجنسي هو وراء هذا الانقلاب. فإن توصلنا إلى وضع حدّ لسوء الاستعمال هذا وإلى استبداله بنشاط جنسي سويّ، كانت مكافأتنا تحسناً ملموساً في الحالة.

على هذا المنوال تأدى بي الأمر إلى اعتبار الأعصبة إجمالاً اضطرابات للوظيفة الجنسية، مع التمييز بين ما يسمى بالأعصبة الراهنة التي هي تعبير سُميٍّ مباشر عن هذه الاضطرابات، وبين الأعصبة النفسية التي هي تعبيرها النفسي[١٢]. وقد قنع ضميري الطبي بهذه النتيجة وطاب بها. وأملت أن أكون سددت ثغرة في الطب الذي ما كان يريد أن يأخذ في اعتباره، فيما يتصل بهذه الوظيفة البالغة الأهمية بيولوجياً[١٣]، الأدواء التي تنجم عن عدوى أو آفة تشريحية سافرة. وفضلاً عن ذلك، كان هذا يوافق تصوري الطبي للجنسية باعتبار أنها ليست شيئاً نفسياً خالصاً. فللجنسية أيضاً جانبها البدني، ومن حقنا أن نعزو إليها كيماوية خاصة، وأن نشتقّ التهيج الجنسي من وجود مواد محددة وإن كانت لا تزال مجهولة. ولعل هذا هو السبب في أن الأعصبة الحقة، التلقائية، لا تشبه أية فئة أخرى من الأمراض بقدر ما تشبه الظاهرات المرتبطة بالتسمم والاستنكاف، والتي تنجم عن تناول بعض المواد السمية أو

١٢ ـ الأعصبة الراهنة: وتشمل النوراستينيا والعصاب الحصري وهجاس المرض، وهي عند فرويد الأعصبة التي ينبغي البحث عن علتها في اضطرابات الحياة الجنسية في حاضر المريض، بينما ينبغي البحث عن علة الأعصبة النفسية، كالهستيريا الاستبدالية والعصاب الوسواسي، في الخبرات الجنسية الماضية للمريض. «م».

١٣ ـ أي الوظيفة الجنسية. «م».

الامتناع عن تعاطيها، أو بقدر ما تشبه داء بازدوف[١٤] الذي نعلم ارتباطه بإفراز الغدة الدرقية.

لم يُقيَّض لي أن أعود لاحقاً إلى دراسة الأعصبة الراهنة. كما أن هذا الشطر من عملي لم يواصله غيري. وإذ ألقي اليوم نظرة على النتائج التي توصلت إليها يومئذ، لا أجد مناصاً من الإقرار بأنها كانت تجريداً خطاطياً فجّاً وبدائياً لوضع هو في الحقّ أشدّ تعقيداً بكثير. غير أنها لا تزال تبدو لي في جملتها إلى اليوم صحيحة. ولكم كان بودّي لو قمت لاحقاً بإخضاع عدد آخر من حالات النوراستانيا الخالصة لدى الشباب لفحص تحليلي نفسي؛ بيد أن هذا لم يتسنَّ لي للأسف. واستباقاً مني لأي تأويل مغلوط، أريد أن أؤكد هنا أنه ليس في نيتي إطلاقاً أن أنفي وجود صراعات نفسية وعقد عصابية في النوراستانيا. وإنما أزعم فقط أن أعراض هؤلاء المرضى ليست متعيَّنة نفسياً ولا قابلة للإزالة تحليلياً، بل ينبغي أن نرى فيها نتائج سُمِّية مباشرة للكيماوية الجنسية المختلّة.

بعد أن بلغت، في السنوات التي أعقبت نشر **الدراسات في الهستيريا**، إلى هذه التصورات عن الدور الإتيولوجي للجنسية في الأعصبة، ألقيت بضع محاضرات لأعرض هذه التصورات في جمعيات طبية، لكني لم أقابل إلا بالإنكار وعدم التصديق. وقد حاول بروير لردح آخر من الزمن أن يلقي إلى كفتي في الميزان بالوزن الكبير للاعتبار الشخصي الذي كان يتمتع به، ولكن في غير طائل، وكان من السهل أن أتبيَّن علاوة على ذلك أن الإقرار بالإتيولوجيا الجنسية كان يعاكس ميوله الشخصية. وكان في مقدوره، بالإحالة إلى مريضته الأولى التي ما لعب العامل الجنسي لديها على ما يفترض أي دور، أن يفحمني أو يخذلني: بيد أنه لم يفعل ذلك قط. وبقيت زمناً طويلاً لا أفهم السرّ في ذلك - إلى أن جاء اليوم الذي اقتدرت فيه على تأويل الحالة تأويلاً صحيحاً، فاستطعت، انطلاقاً من بعض الملاحظات التي كاشفني بها، أن أعيد بناء الخاتمة التي انتهى بها علاجه لها. إذ ما كاد العمل التطهيري يكتمل فيما

١٤ - داء جحوظي ينجم عن تزايد مفرط في نشاط الغدة الدرقية. «م».

يبدو حتى ظهرت لدى الفتاة على حين غرة حالة «حب محوَّل»[١٥] ما استطاع أن يعزوها إلى مرضها، فآثر، وقد بوغت بالأمر، أن ينفض يديه من المسألة. وكان من الجليّ أنه يستصعب أن يذكِّره أحد بهذا الفشل الظاهر. وكان في موقفه مني يتأرجح بين الإقرار بصحة أفكاري وبين توجيه النقد المرير لها، ثم طرأت مصادفات من مثل تلك التي لا يخلو منها أي موقف متوتر، فافترقنا.

إن انشغالي بمختلف أشكال الاضطرابات العصبية، بصفة عامة، تمخَّض يومئذ عن نتيجة أخرى، وهي حملي على تعديل التقنية التطهيرية. فقد عزفت عن التنويم وسعيت إلى استبداله بطريقة أخرى، رغبة مني في تجاوز حدود معالجة الحالات الهستيرية وحدها. وفضلاً عن ذلك، كان اعتراضان خطيران ينهضان في ذهني، طرداً مع تقدم خبرتي، ضد استعمال التنويم، ولو في خدمة التطهير. كان أول الاعتراضين أن أروع النتائج نفسها كانت تتبخر على حين بغتة حالما تضطرب العلاقة الشخصية بالمريض. صحيح أن هذه النتائج كانت تعود إلى الظهور ثانية متى ما أمكن الاهتداء إلى طريق المصالحة، لكني تأكدت من أن العلاقة الوجدانية الشخصية أقوى من أي عمل تطهيري، وكان هذا العامل تحديداً هو الذي يفلت من زمامنا. ثم تحققت يوماً بالتجربة في صورة لا تدع مجالاً للبس مما كنت أشتبه فيه منذ زمن بعيد. فما كدت أنتهي في ذلك اليوم من تخليص واحدة من أكثر مرضاي امتثالاً وانصياعاً من أوجاعها بطريق التنويم الذي آتى في حالتها أروع نتائجه، وبردّي نوباتها المؤلمة إلى أسبابها الماضية، حتى طوقت مريضتي، حال استيقاظها، عنقي بذراعها. وقد جاء الدخول اللامتوقع لأحد الخدم ليجنِّبنا مصارحة شاقة على النفس، ولكن قرّ بنا الرأي منذ ذلك اليوم، وبالتفاهم المشترك، على عدم مواصلة العلاج التنويمي. وكنت من الاتزان ورجاحة التفكير بحيث لا أعزو هذا الحادث إلى جاذبيتي الشخصية التي لا تقاوم، وتراءى لي أنني أدركت الآن طبيعة العنصر الخفيّ الذي يفعل فعله خلف

١٥ - التحويل: TRANSFERT في التحليل النفسي: إسقاط المريض مشاعره الودية أو العدائية المكبوتة على شخص الطبيب. ومن هنا تصنيفه إلى تحويل إيجابي وتحويل سلبي. «م».

ستار التنويم. ولم يكن أمامي ثمة مناص، لكي أتحاشاه أو على الأقل لكي أعزله، من الإقلاع عن التنويم.

بيد أن التنويم كان أسدى خدمات جلّى للمعالجة التطهيرية، بتوسيعه حقل الوعي لدى المرضى وبوضعه في متناولهم معرفة لا يتيسر لهم نظيرها في حالة اليقظة. ولم يكن يبدو ميسوراً أن أجد عنه بديلاً. وفيما أنا في هذه الحيرة حضرتني ذكرى تجربة كنت قد شاهدتها تكراراً لدى برنهايم. فحين كان الشخص الذي تُجرى عليه التجربة يستيقظ من سرنمته، كان يبدو عليه وكأنه ما عاد يتذكر شيئاً على الإطلاق مما جرى وهو في تلك الحالة. بيد أن برنهايم كان يؤكد أن الشخص المعني يعرف ذلك. وحين كان يلحف عليه بأن يتذكر، جازماً له أنه يعرف كل شيء وأن عليه بالتالي أن يبوح به، ثم يضع بعد ذلك يده على جبينه، فعندئذ كانت الذكريات النفسية تعود حقاً، في تردد وتعثر أول الأمر، ثم في غزارة ووضوح تام. وعقدت العزم على أن أفعل الشيء عينه. فلا بدّ أن مرضاي يعرفون هم أيضاً كل ما لم يكن لهم من منفذ إليه عن غير طريق التنويم، ولا بدّ أن تتمكن توكيداتي وإلحافاتي، مشفوعة أحياناً بوضع يدي على جباههم، من أن تردّ إلى وعيهم الوقائع والعلاقات المنسية. صحيح أن ذلك كان يبدو أكثر مشقة من تنويم شخص من الأشخاص، ولكن ربما كان أيضاً أكثر إفادة. وهكذا تركت التنويم، ولم أحتفظ منه إلا بوضعية المريض الاستلقائية، إذ كنت أطلب إليه أن يتمدد على أريكة، فيما أجلس أنا خلفه، مما كان يتيح لي أن أراه بدون أن يراني.

(٣)

سارت الأمور كما توقعت، وتحررت من التنويم، لكن مع التغيُّر الذي طرأ على التقنية تغيَّر أيضاً وجه التطهير. فقد كان التنويم حجب عن النظر قوى متصارعة انكشف عنها الآن الستار وأمدّ فهمُها نظريتي بأساس متين.

كيف أمكن للمرضى أن ينسوا مثل ذلك القدر الكبير من وقائع حياتهم الخارجية والداخلية، وكيف تسنى لهم مع ذلك أن يتذكروها حين طبَّقتُ عليهم الطريقة التي تقدم وصفها؟ لقد أجابت الملاحظة عن هذه الأسئلة إجابة كاملة شافية. فكل ما طوته يد النسيان كان مما يشقّ على النفس احتماله، سواء أكان مرعباً أم مؤلماً أم مخزياً في عرف شخصية المريض. ومن ثم فرضت الفكرة نفسها: لهذا السبب تحديداً طوت يد النسيان ذلك، أي أنه لم يبقَ شعورياً. وكي نعيده إلى الشعور من جديد، كان لزاماً علينا أن نتغلب على شيء ما لدى المريض، على شيء يقاوم ويذود عن نفسه، مما كان يقتضي أن نبذل نحن أنفسنا جهوداً كيما نضغط عليه ونشلّه. وكان المجهود المطلوب من الطبيب يختلف باختلاف الحالات، ويتعاظم طرداً مع صعوبة الاستذكار. ومن الجلي أن كمّ مجهود الطبيب كان مقياساً **لمقاومة** المريض. ومن ثم لم يكن قد تبقى عليّ إلا أن أترجم إلى كلمات ما تأتّى لي أن أستشعره وأحدس به، وبذلك رأت النور نظرية **الكبت**.

لقد بات من اليسير الآن إعادة بناء السيرورة الإمراضية Pathogène. وحسبنا أن نسوق على ذلك مثالاً بسيطاً. لنفرض أن نازعاً ما بزغ في الحياة النفسية، فانتصبت في مواجهته نوازع أخرى على قدر من القوة. فالصراع النفسي الذي لا بدّ أن ينشأ في هذه الحال محتَّم عليه، بحسب توقعنا، أن يسلك مساراً يتاح فيه للقوتين الديناميتين ـ ولنطلق عليهما مؤقتاً اسم «الدافع الغريزي» و«المقاومة» ـ

أن تصارع واحدتهما الأخرى ردحاً من الزمن صراعاً يقع بتمامه في دائرة الوعي، إلى أن يُردّ الدافع الغريزي على أعقابه ويُجرَّد من توظيفه في الطاقة. ذلك هو الحل السوي. غير أن الصراع يؤول في العصاب ـ لأسباب لا تزال مجهولة ـ غير هذا المآل. فالأنا ينسحب لدى الصدام الأول، إن جاز التعبير، من الحاثة الغريزية المشجوبة ويسدّ عليها المنفذ إلى الشعور وإلى التصريف الحركي المباشر، ولكن بدون أن تخسر هذه الحاثة شيئاً من شحنتها من الطاقة. وهذه السيرورة هي ما أسميته بالكبت. وكان ذلك ابتكاراً غير مسبوق إليه في علم الحياة النفسية. وكان من الواضح أنه يمثل آلية دفاعية أولية، أشبه ما تكون بمحاولة للهرب، استباقاً للتصفية عن طريق تحكيم العقل.

كانت تترتب على فعل الكبت الأول هذا عواقب أخرى. فقد كان لزاماً على الأنا على الدوام أن يدفع عن نفسه خطر عودة الحاثة المكبوتة إلى شنّ هجومها، مما يقتضيه أن يبذل مجهوداً دائماً، أي **توظيفاً مضاداً** تكون نتيجته إفقاره. ومن جهة أخرى، كان في مستطاع المكبوت، وقد صار الآن **لاشعورياً**، أن يبحث لنفسه عن منصرف وإشباعات بديلة بطرق ملتوية، فيحبط على هذا النحو مقاصد الكبت. ويقود هذا الطريق الملتوي في الهستيريا الاستبدالية إلى التعصيب INNERVATION البدني، فتعلن الحاثة المكبوتة عن وجودها باقتحامها موضعاً من مواضع الجسم وباصطناعها **الأعراض** التي هي على هذا الأساس حصيلة تسوية وحلّ توفيقي، وهي بالتأكيد إشباعات بديلة، ولكنها إشباعات حُرِّفت وحُوِّلت عن هدفها بفعل مقاومة الأنا.

لقد أصبحت نظرية الكبت حجر الزاوية في فهم الأعصبة. وصار لزاماً الآن تغيير تصورنا للمهمة العلاجية، إذ لم يعد هدفها «تصريف» الانفعال الذي يكون قد اندفع في مسالك خاطئة، بل كشف الكبوتات والاستعاضة عنها بمحاكمات عقلية تنتهي إما بقبول ما نُبذ من قبل، وإما بإدانته. وقد أخذتُ هذا الوضع المستجد بعين الاعتبار فأطلقت على هذه الطريقة في التقصي والشفاء اسم **التحليل النفسي** بدلاً من **التطهير**.

من الممكن أن ننطلق من الكبت باعتباره نقطة المركز التي تتجمع عندها

جميع عناصر النظرية التحليلية النفسية. ولكن بودِّي قبل ذلك أن أبدي ملاحظة ذات صفة جدالية. فالمرأة الهستيرية كانت، بحسب تصور جانيه، مخلوقة تعيسة تعجز، بحكم ضعف في جبلّتها، عن المساوقة بين مختلف أنشطتها النفسية. ولهذا السبب تقع، على ما يفترض، ضحية الانفصام النفسي وانكماش مجال الشعور. أما بحسب نتائج التقصي التحليلي النفسي فإن مردّ هذه الظاهرات إلى عوامل دينامية، إلى الصراع النفسي والكبت الناجز. وأعتقد أن هذا الفارق بعيد الأهمية ومن شأنه أن يضع حداً للهراء المتجدد باستمرار والزاعم أن كل ما يمكن أن يكون له قيمة في التحليل النفسي إنما هو مقتبس من أفكار جانيه. ولا بدّ أن القارئ تبيَّن من عرضي أن التحليل النفسي مستقل مطلق الاستقلال، من وجهة النظر التاريخية، عن كشوف جانيه، كما أن مضمونه يتعارض معها ويتجاوزها من بعيد في دلالته ومداه. وبالفعل، ما كانت أبحاث جانيه لتتأدى قط إلى النتائج التي أكسبت التحليل النفسي الأهمية البالغة التي باتت له بالنسبة إلى علوم النفس وجعلته موضع اهتمام واسع. ولقد عاملت جانيه على الدوام باحترام، لأن كشوفه كانت موازية، إلى حدّ كبير، لكشوف بروير التي تمّت في وقت سابق ونُشرت في زمن لاحق. ولكن حينما صار التحليل النفسي في فرنسا أيضاً موضوعاً للنقاش، أساء جانيه السلوك، ولم يدلل على قدر مرموق من الكفاءة، واحتج بحجج مستهجنة. وأخيراً، سقط في نظري وانتقص بنفسه من قيمة بحوثه إذ أعلن أنه حينما تكلم عن أفعال نفسية «لاشعورية» لم يكن يقصد بهذا الكلام شيئاً، وأنه لا يجوز **أخذه بحرفه**[1].

بيد أن التحليل النفسي وجد نفسه مكرهاً، بنتيجة دراسته للكبوتات الإمراضية وغيرها من الظاهرات التي سنأتي بذكرها لاحقاً، على أن يحمل مفهوم اللاشعور على محمل الجدّ. فكل ما هو نفسي يكون في نظره في الأول لاشعورياً، وقد يكتسب بعد ذلك الصفة الشعورية أو لا يكتسبها. ومن ثم كان من المحتم أن يصطدم بمعارضة الفلاسفة الذين لا يفرقون بين «الشعوري» و«النفسي» والذين احتجوا بأنهم لا يستطيعون أن يعقلوا خُلفاً من قبيل «نفسي

١ ـ بالفرنسية في النص: UNE FAÇON DE PARLER. «م».

لاشعوري». ولم يكن للأمر من أهمية في الواقع، وما كان لنا إزاء مزاج الفلاسفة هذا إلا أن نتكلف اللامبالاة. وما كانت الخبرة التي تحصلت لنا من الاحتكاك بالمادة الإمراضية التي ليس للفلاسفة علم بها، والتي كشفت لنا عن تواتر وقوة مثل تلك الحاثات التي لا تقع تحت الإدراك المباشر والتي يتحتم مع ذلك استنتاج وجودها شأنها شأن أية واقعة من وقائع العالم الخارجي، هذه الخبرة ما كانت تدع مجالاً للاختيار. وكان من الممكن للمرء هنا أن يحتج بأنه لا يفعل من شيء في الواقع سوى أنه يطبِّق على حياته النفسية الخاصة ما كان فعله على الدوام بالنسبة إلى الحياة النفسية للآخرين. وبالفعل، ألا يعزو واحدنا إلى شخص آخر أفعالاً نفسية محددة على الرغم من أنها لا تقع تحت وعيه المباشر، وعلى الرغم من أنه لا يستدل على وجودها إلا من خلال تصاريح وأفعال معيَّنة صادرة عنه؟ وما هو مبرَّر إزاء الآخرين لا بدّ أن يصدق أيضاً على الذات. وإذا شئنا أن نمضي بهذه الحجة إلى أبعد من هذا المدى وأن نستخلص منها أن أفعالنا الخاصة الخبيئة تنتمي في الواقع إلى شعور ثانٍ، فعندئذ نجد أنفسنا في مواجهة فكرة شعور لا نعرف عنه شيئاً، فكرة شعور لاشعوري، وهي فكرة لا تفضل كثيراً فكرة «نفسي لاشعوري». وإن ذهبنا مذهب بعض الفلاسفة فأقررنا معهم بالوقائع المَرَضية، ولكننا ادعينا أن الأفعال النفسية التي تستند إليها ما هي بأفعال نفسية، وإنما هي أفعال شبه نفسية، نكون قد زججنا بالخلاف في نقاش لفظي عقيم، وفي هذه الحال يكون من المسوغ لنا أن نتمسك بتعبير «اللاشعور النفسي». أما التساؤل عن طبيعة هذا اللاشعور فليس أكثر حصافة ولا أكثر جدوى من التساؤل القديم عن طبيعة الشعور.

ربما كان من الأعسر علينا بعد أن نشرح باقتضاب كيف انتهى الأمر بالتحليل النفسي إلى تقسيم اللاشعور بدوره - بعد أن أقِرّ بوجوده - إلى **قبشعور**[2] وإلى لاشعور بحصر المعنى. وربما كانت الملاحظة التالية كافية: لقد بدا لي أمراً مشروعاً أن أستكمل النظريات التي هي بمثابة تعبير مباشر عن الملاحظة والمشاهدة بفروض تفيد في فهم أشياء وتتصل بعلاقات غير قابلة لأن تقع تحت الملاحظة

٢ - نعتمد هذا المصطلح المفرد بدلاً من شبه الجملة: ما قبل الشعور. «م».

المباشرة. وحتى العلوم الأقدم عهداً درجت على اتباع هذا النهج. وتقسيم اللاشعور يرتبط بمحاولة تصور للجهاز النفسي بوصفه يتـألف من عدد من الأنساق أو الهيئات[٣] التي نعبر عن العلاقات فيما بينها بمصطلحات مكانية ـ بدون أن يعني ذلك أننا نسعى بحال من الأحوال إلى الاستناد إلى التشريح الفعلي للمخّ (هذا ما أسميناه وجهة النظر **الطبوغرافية**). وتمثلات كهذه تنتمي في الحقيقة إلى بنية فوقية نظرية للتحليل النفسي، ومن الممكن التضحية بأي جزء منها أو استبداله بجزء آخر، بلا خسارة ولا تأسف، حالما نتثبت من عدم كفايته. ويبقى علينا بعد ذلك أن نتحدث عن أشياء أخرى كثيرة أوثق صلة بالملاحظة والمشاهدة.

لقد أسلفت القول إن استقصاء الظروف والأسباب المباشرة للعصاب يكشف، بتواتر متعاظم باطراد، عن وجود صراعات بين حاثات المريض الجنسية وبين مقاوماته ضد الجنسية. ولدى البحث عن المواقف الإمراضية التي في سياقها حدث كبت الجنسية والتي منها تنبع الأعراض كتشكيلات بديلة عن المكبوت، وجدتني أتوغل في حقب أبكر فأبكر من حياة المريض لينتهي بي المطاف أخيراً إلى السنوات الأولى من طفولته. وقد اتضح ـ وهذا ما يعلمه الروائيون والعارفون بالقلب الإنساني منذ عهد بعيد ـ أن انطباعات تلك الحقبة الأولية المبكرة من الحياة تترك، بالرغم من سقوط أكثرها طيّ النسيان، آثاراً لا تمحى في نمو الفرد، وترسي على الأخص أسس الاستعداد المسبق للعصاب اللاحق. ولكن بما أن الأمر يتعلق دوماً، في خبرات الطفولة هذه، بإثارات جنسية وبالردود عليها، فقد وجدتني في مواجهة واقعة **الجنسية الطفلية**، وكان هذا الكشف بدوره تجديداً يتناقض مع اعتقاد هو من أرسخ الأحكام المسبقة لدى البشر. فالطفولة ينبغي أن تكون «بريئة»، خلواً من الشهوات الجنسية، والكفاح ضد شيطان «الجنس» لا يفترض فيه أن يبدأ إلا مع اندفاعة البلوغ وعاصفته. أما ما لا بدّ أن يقع عرضاً تحت الملاحظة من النشاط الجنسي لدى الأطفال، فكان يُعدّ علامة على انحطاط أو فساد مبكّر أو نزوة عجيبة من نزوات الطبيعة. وقليلة هي كشوف التحليل

٣ ـ هذه الأنساق أو الهيئات سيسميها فرويد لاحقاً الأنا والهذا والأنا الأعلى. «م».

النفسي التي قوبلت بالاستهجان العام وأثارت موجة جارفة من الاستنكار مثل توكيده بأن الوظيفة الجنسية تبدأ مع بداية الحياة وتفصح عن نفسها في الطفولة بظاهرات لها شأنها وأهميتها. ومع ذلك ليس مثله بين سائر كشوف التحليل النفسي ما يمكن إثباته على أسهل نحو وأتمّه.

قبل أن أتنطع للخوض في مسألة الجنسية الطفلية، ينبغي لي أن أشير إلى خطأ قارفته لحين من الزمن، وكان قميناً بأن يرتدّ أثره سريعاً بأوخم العواقب على جهادي كله. فتحت تأثير الطريقة الفنية التي كنت أتّبعها آنئذ، كان معظم مرضاي يستعيدون مشاهد من طفولتهم يدور موضوعها حول إغوائهم من قبل شخص راشد. ولدى الإناث من المرضى كان دور المغوي يضطلع به بصورة شبه دائمة الأب. وكنت أصدِّق هذه المعلومات، وتراءى لي من ثم أنني أكتشف، في هذه الإغواءات المبكرة في عهد الطفولة، مصادر العصاب اللاحق. وقد عززت اعتقادي هذا بضعُ حالات استمرت فيها مثل هذه العلاقات بالأب أو العم أو الأخ الأكبر إلى سنّ تغدو فيها الذكريات موثوقة. وإذا ما هزّ القارئ رأسه ساخراً من سذاجتي وسرعة تصديقي هذه، فلن يسعني أن ألقي اللوم كله عليه، ولكني أريد أن ألتمس العذر لنفسي فأقول إن ذلك حدث في زمن كنت أتقصد فيه أن أعطِّل ملكة النقد عندي حتى أبقى غير متحيِّز ومنفتحاً لكل المستجدات التي كانت تتكشف لي يومياً. بيد أنني حين اضطررت إلى الإقرار بأن مشاهد الإغواء تلك لم تقع قط، وبأنها لم تكن سوى أخاييل تخيَّلها مرضاي، وربما أنا من فرضها عليهم، تخبَّطت لحين من الزمن في الحيرة والبلبة. وكابدت ثقتي بطريقتي التقنية وبنتائجها من صدمة قاسية؛ فأنا إذاً قد انتزعت الإقرار بتلك المشاهد بطريقة تقنية كنت أعتبرها صحيحة، ولا جدال في أن مضمون تلك المشاهد كان ذا صلة بالأعراض التي منها انطلق استقصائي. وحين تمالكت نفسي من جديد استخلصت من تجربتي الاستنتاجات الصحيحة، وهي أن الأعراض العصابية لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بأحداث واقعية، وإنما بأخاييل رغبية؛ فالواقع النفسي أجلّ أهمية من الواقع المادي بالنسبة إلى العصاب. ولا زلت على اعتقادي إلى اليوم بأنني لست أنا من فرض تلك الأخاييل الإغوائية على مرضاي

أو «أوحى» بها إليهم. وإنما اصطدمت هنا، لأول مرة، **بعقدة أوديب** التي ستكتسب فيما بعد أهمية فاصلة، وإن لم يتيسّر لي آنئذ أن أتعرّفها في تنكّرها الغريب ذاك. ومهما يكن من أمر فإن الإغواء في زمن الطفولة احتفظ بنصيبه في الإتيولوجيا، وإن بنسب أكثر تواضعاً. وفضلاً عن ذلك اتضح أن المغوين كانوا في أكثر الأحيان أطفالاً أكبر سناً.

لقد كانت غلطتي كغلطة من يحسب خرافة ملوك روما الأقدمين، كما يرويها لنا تيطوس ـ ليفيوس[٤]، حقيقة تاريخية، بدل أن يفهمها على حقيقتها، أي كتكوين ارتجاعي من قبيل رد الفعل على ذكرى أوضاع وأزمان بائسة لم تكن تمتّ في أرجح الظن إلى المجد بصلة. وبعد إزالة هذه الغلطة، فتح الطريق إلى دراسة الجنسية الطفلية. وبذلك بات في الإمكان تطبيق التحليل النفسي على مضمار آخر من مضامير المعرفة، والاعتماد على معطياته لاستكناه شطر كان لا يزال مجهولاً من الوقائع البيولوجية.

إن الوظيفة الجنسية ماثلة منذ بدء حياة الفرد، بيد أنها تستند أول الأمر إلى الوظائف الحيوية الأخرى ولا تستقل عنها إلا في طور لاحق. وعليها أن تجتاز سيرورة طويلة ومعقدة قبل أن تصير هي الحياة الجنسية السوية كما نعرفها لدى الراشد. إنها تفصح عن نفسها بادئ ذي بدء في صورة نشاط لمنظومة بكاملها من **المقومات الغريزية** المرتبطة بمناطق بدنية **شهوية**، وتتجلى جزئياً في أزواج من المتضادات (كالسادية/ المازوخية، أو التلصصية/ الاستعرائية) يتطلع كل زوج منها إلى الإشباع مستقلاً عن الأزواج الأخرى ويجد موضوعه، أكثر ما يجده، في جسم الفرد ذاته. وعلى هذا، لا تكون في بادء الأمر متركزة، بل **إيروسية ذاتية** في المقام الأول. وفي وقت لاحق تشرع بالتآلف والتراكب؛ فيكون أول طور تبلغه من أطوار التنظيم تحت زعامة المقومات **الفموية**؛ ثم يعقبه طور سادي/ **شرجي**، ولا تنتقل الزعامة إلى **الأعضاء التناسلية**، مما يتيح للوظيفة الجنسية أن تعمل في خدمة التناسل، إلا في الطور الثالث الذي لا يتم بلوغه إلا في زمن

٤ ـ تيطوس ـ ليفيوس: مؤرخ لاتيني (٦٤ أو ٥٩ ق.م ـ ١٧ ب. م). أرخ لتاريخ الرومان من الأصول إلى السنة التاسعة ق.م في ١٤٢ سفراً لم يصلنا منها سوى ٣٥. كان شديد الحماسة لماضي روما، وقد اعتبر التأريخ فعلاً من أفعال الوطنية، لكنه كان يفتقد الروح النقدية. «م».

متأخر[٥]. وفي مسار هذا النمو تُنحى جانباً عدة عناصر غريزية بوصفها غير صالحة للاستخدام أو تُوجَّه نحو استعمالات مغايرة، كما تتحول عناصر غريزية أخرى عن هدفها لتندمج بالتنظيم التناسلي. وقد أطلقت على طاقة الدوافع الغريزية ـ وعليها وحدها ـ اسم الليبيدو. وكان لزاماً عليّ أن أسلِّم عندئذ بأن الليبيدو لا ينجز دوماً، وعلى نحو لا غبار عليه، المسيرة الآنفة الوصف. فبالنظر إلى القوة الغالبة لبعض المقوِّمات أو بسبب فرص مبكِّرة للإشباع، تحدث تثبيتات لليبيدو عند محطات شتى من مسار نموه. فإذا ما حدث كبت لاحق صبا الليبيدو إلى أن يعود أدراجه إلى هذه المحطات (**النكوص**)، ومن هذه المحطات أيضاً سيتم الاختراق الذي يقود إلى الأعراض. ويبيح لنا ما عرفناه لاحقاً عن الظاهرات العصابية أن نضيف أن تحديد موضع التثبيت حاسم الأثر في اختيار نوع العصاب، أي الشكل الذي سيتبدى به المرض لاحقاً.

بالتوازي مع تنظيم الليبيدو تتقدم سيرورة البحث عن الموضوع، تلك السيرورة التي تضطلع بدور فائق الأهمية في الحياة النفسية. فأول موضوع للحب بعد طور **الإيروسية الذاتية** هو لكلا الجنسين الأم التي يرجَّح أن الطفل لا يميِّز في بادئ الأمر العضو الذي ترضعه به عن جسمه ذاته. وفي وقت لاحق، ولكن ضمن إطار السنوات الأولى من الطفولة أيضاً، تتكون علاقة أوديب التي يركِّز الصبي في ظلها رغباته الجنسية على شخص أمه وتتولد لديه مشاعر عدائية تجاه أبيه إذ يرى فيه غريماً. وتقف البنت الصغيرة موقفاً مناظراً[٦]. وعلى هذا النحو تغدو

---

٥ ـ معلوم أن فرويد أضاف فيما بعد وكما سيأتي البيان طوراً ثالثاً، سابقاً للتنظيم التناسلي، هو الطور القضيبي PHALLIQUE. «م».

٦ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٣٥): ـ إن المعلومات عن الجنسية الطفلية قد استمدت من دراسة الذكور، ومن ثم إن النظرية التي استخلصناها منها تصدق حصراً على الصبيان الصغار. وكان من الطبيعي أن نتوقع آنئذ وجود تناظر تام بين الجنسين، ولكن ما توقعناه ثبت خطؤه فيما بعد. فقد كشفت البحوث والتأملات اللاحقة عن وجود فروق أساسية في النمو الجنسي لدى كل من الذكور والإناث. فالموضوع الجنسي الأول للطفلة (مثلها مثل الطفل) هو أمها؛ ويتعين على الأنثى كيما تبلغ نهاية نموها السوي أن تغيِّر، لا موضوعها الجنسي فحسب، بل كذلك المنطقة التناسلية القائدة عندها ـ (يقصد تحولها من البظر إلى المهبل «م») ـ ومن هنا تواجه صعاباً واحتمالات كفّ وتعطيل لا يواجه نظيرها الذكور.

مختلف أشكال عقدة أوديب واشتقاقاتها عظيمة الأهمية، وعلى الأخص بعد أن تتوضح معالم الجِبِلّة الجنسية الثنائية الفطرية فتضاعف من عدد الميول والنوازع المتلازمة المتزامنة. ولا بدّ من انقضاء أجل معلوم من الزمن كيما تنجلي للطفل الفروق بين الجنسين؛ وإنما في أثناء فترة **التقصي الجنسي** هذه يختلق **نظريات جنسية نمطية**، مرتبطة بطبيعة الحال بعدم اكتمال تنظيمه البدني؛ نظريات يمتزج فيها الصواب بالخطأ وتعجز عن الوصول إلى حلّ معضلة الحياة الجنسية (لغز أبي الهول: من أين يأتي الأطفال؟). وعلى هذا، إن أول اختيار للموضوع لدى الطفل هو اختيار **محرمي** INCESTUEUX. وكل مسار النمو الذي تقدَّم وصفه يتمّ اجتيازه بسرعة. والسمة الأبرز للحياة الجنسية لدى الإنسان هي نموها على مرحلتين، يفصل بينهما فاصل زمني. ففي السنة الرابعة أو الخامسة من الحياة تدرك الحياة الجنسية ذروتها الأولى، ثم لا يلبث هذا الازدهار المبكر للجنسية أن يذبل، فتقع الصبوات التي كانت على قدر كبير من الشدة إلى ذلك الحين تحت نير الكبت، وعندئذ تبدأ **مرحلة الكمون** التي ستدوم إلى حين البلوغ والتي ستتكون في غضونها التشكيلات الارتجاعية: الأخلاق، الحياء، القرف[7]. ويبدو أن النمو الجنسي **على مرحلتين** ميزة موقوفة على الإنسان دون سواه من سائر الكائنات الحية، وربما كان هو الشرط البيولوجي لقابليته للإصابة بالعصاب. وعند البلوغ تدبّ الحياة من جديد في الصبوات والتوظيفات الموضوعانية[8] العائدة إلى طور الطفولة الأولى، وكذلك في الروابط العاطفية لعقدة أوديب. ويدور في الحياة الجنسية عند البلوغ صراع بين صبوات المرحلة الأولى من العمر وبين كفوف مرحلة الكمون. ويكون قد قام قبل ذلك، في أوج النمو الجنسي الطفلي،

---

٧ - (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٣٥) - إن مرحلة الكمون ظاهرة فيزيولوجية. ومع ذلك، هي لا تتسبب في كفّ تام للحياة الجنسية إلا في الأنظمة الاجتماعية التي جعلت من قمع الجنسية الطفلية هدفاً من أهدافها. وليس هذا واقع الحال لدى معظم الشعوب البدائية.

٨ - الموضوعاني: نسبة إلى الموضوع. ولم نقل «موضوعي» تحاشياً للاختلاط بين OBJECTIF وOBJECTAL. فلفظ «الموضوعي» يوحي بأننا أمام «شيء» في حين أن الموضوع في الاختيار الموضوعاني هو على الدوام (أو على الدوام تقريباً) شخص. ولئن بدا لفظ «الموضوعاني» غريب الوقع على الأذن، فإن لفظه الأجنبي OBJECTAL ليس أقل غرابة. «م».

نوع من التنظيم التناسلي يلعب فيه عضو الذكورة وحده دوراً، في حين لا يكون العضو المؤنث قد اكتشف بعد (تلك هي مرحلة الزعامة التي أسميناها **بالقضيبية**). وفي هذا الطور لا يكون التعارض بين الجنسين قد وُصف بعد بأنه تعارض بين **ذكر وأنثى**، وإنما بين من يمتلك قضيباً ومن هو **مخصي**. وإن **عقدة الخصاء** المرتبطة بهذا الطور تلعب دوراً بالغ الأهمية في التكوين اللاحق للطبع وللعصاب معاً.

لقد عمدت في هذا العرض المقتضب لما تكشَّف لي من حقائق الحياة الجنسية الإنسانية، وطلباً للوضوح، إلى الجمع بين نتائج لم أتوصل إليها إلا في آجال متباينة وقد ضمّنتها، على سبيل التكملة أو التصحيح، الطبعات المتتالية من كتابي **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، وآمل أن يكون العرض قد أوضح كنه توسعي بمفهوم الجنسية، ذلك التوسع الذي كثيراً ما قوبل بالتنويه أو بالنقد. فهذا التوسع من طبيعة مزدوجة. فقد فصلت الجنسية، من جهة أولى، عن ارتباطها الأضيق مما ينبغي بالأعضاء التناسلية، واعتبرتها وظيفة بدنية تشمل الكائن بجملته، وطلِبتُها الأولى اللذة، ولا تعمل في خدمة التناسل إلا بصورة ثانوية. وأدرجت، من الجهة الثانية، في عداد الحاثات الجنسية جميع الحاثات التي هي محض نوازع ذات صلة بالمودة والصداقة الخالصتين والتي نطلق عليها في لغتنا الدارجة اسماً متعدد المعاني، هو «المحبة». بيد أنني لا أعتبر هذا التوسع في مفهوم الجنسية بدعاً، وإنما تصحيح، الغرض منه رفع التضييقات اللامبررة التي انسقنا إلى فرضها على المفهوم. ومن مزايا فصل الجنسية بصفة عامة عن الأعضاء التناسلية بحصر المعنى أنه يتيح لنا أن نرى إلى النشاط الجنسي لدى الأطفال ولدى المنحرفين على السواء من وجهة النظر عينها التي نرى منها إليه لدى الراشدين الأسوياء، علماً بأن النشاط الجنسي لدى الأطفال قد أُهمل حتى الآن إهمالاً تاماً، في حين أن النشاط الجنسي لدى المنحرفين، الذي كان قوبل باستنكار أخلاقي صاخب، بقي بعيداً عن التفهم. أما في نظر التصور التحليلي النفسي، فإن أغرب الانحرافات وأشدها نكراً تبقى قابلة للتفسير بوصفها تظاهرات لعناصر غريزية جنسية لا تخضع للزعامة التناسلية وتصبو، كما في الأزمنة البدائية الطفلية لنمو الليبيدو،

إلى إشباعات مستقلة. وأهم هذه الانحرافات إطلاقاً، وأعني الجنسية المثلية، لا يكاد يستأهل أن يسمى انحرافاً. فهو قابل للإرجاع إلى الجنسية الثنائية الجِبِلِّية وإلى متخلفات الزعامة القضيبية؛ ففي وسعنا أن نكتشف في جلسات التحليل النفسي لدى كل إنسان أثراً من اختيار موضوعاني جنسي مثلي. وحينما قلت عن الأطفال إنهم يعانون من «انحراف متعدد الأشكال»، لم يكن هذا إلا تعبيراً وصفياً من التعابير الدارجة الاستعمال، بدون أن أرمي من ورائه إلى حكم قيمة. فأحكام القيمة بعيدة كل البعد عن روح التحليل النفسي.

أما التوسع المفترض الثاني في مفهوم الجنسية فتبرره نتائج الاستقصاء التحليلي النفسي: فهذا الاستقصاء يبيِّن بالفعل أن جميع تلك الحاثات العاطفية الودية كانت في الأصل صبوات جنسية تامة. ثم جرى فيما بعد «كفُّها من حيث الهدف» أو «إسماؤها[٩]». وعلى كل، إن قابلية الدوافع الغريزية الجنسية للتأثر ولتحويلها عن اتجاهها هي التي أفسحت في المجال أمام إمكانية استخدامها في أنشطة حضارية شتى بحيث تسهم فيها بأوفر قسط.

إن الكشوف المدهشة بخصوص جنسية الطفل تأتت في أول الأمر من تحاليل الراشدين. ولكن أمكن فيما بعد، وابتداء من حوالي العام ١٩٠٨[١٠]، التحقق من صحتها عن طريق ملاحظات مباشرة على الأطفال، وهذا بكل التفصيل والشمول المرامين. والحق أنه ليس أيسر من أن يقتنع المرء باطراد النشاط الجنسي لدى الأطفال، بحيث أنه لا يسعه إلا أن يتساءل بدهشة كيف تسنى للبشر أن يغفلوا عن هذه الوقائع السافرة وأن يتمسكوا ردحاً طويلاً من الزمن بالأسطورة التي نسجتها لهم رغائبهم، أسطورة الطفولة اللاجنسية. ولا بدّ أن لذلك صلة بالنساية AMNÉSIE التي تلقي حجاباً، بالنسبة إلى غالبية الراشدين، على طفولتهم بالذات.

---

٩ ـ الإسماء: SUBLIMATION. وهناك من ترجمها بالإعلاء أو التصعيد. «م».

١٠ ـ هو العام الذي قام فيه فرويد بأول تحليل نفسي لطفل، ويعرف هذا الطفل في تاريخ التحليل النفسي باسم هانز الصغير. «م».

(٤)

إن نظريات المقاومة والكبت، واللاشعور، والدور الإتيولوجي للحياة الجنسية، وأهمية خبرات الطفولة، هي المداميك الأساسية في بناء التحليل النفسي. ويؤسفني ألا أكون استطعت هنا غير أن أصفها فرادى، بدون أن يتيسر لي أن أوضح كيف تترابط فيما بينها وكيف يتداخل بعضها مع بعضها الآخر. وقد آن الأوان للانتقال الآن إلى التعديلات التي طرأت رويداً رويداً على تقنية الطريقة التحليلية عينها.

لم يكن أمام الطبيب مفرّ في بادئ الأمر من اعتماد طريقة في الظهور على مقاومة المريض قوامها التطمين والحضّ، وذلك بغية الوصول إلى توجُّه أول نحو ما يتوقع أن يهتدي إليه. لكن هذه الطريقة كانت تتطلب، كما تبيَّن مع مرور الزمن، جهوداً مضنية من قبل كلا الطرفين، ولم تكن بمنجى من مآخذ مباشرة محددة. ولذا كان يتعيَّن أن نستعيض عنها بطريقة أخرى تكاد تكون معاكسة لها. فبدلاً من أن ألحف على المريض لكي يخبرني بشيء يتصل بموضوع محدد، صرت أحثّه الآن على أن يسلس قياده لـ «تداعياته الحرة»، أي أن يكاشفني بكل ما يخطر بباله ممتنعاً عن وضع فكرة شعورية محددة نصب عينيه. وكان عليه في هذه الحال أن يتعهد بأن يبوح حقاً بكل ما يتبادر إلى ذهنه عن طريق حدسه الداخلي، وبألا يلقي بالاً للاعتراضات النقدية التي قد توحي له بنبذ بعض الأفكار، بوصفها عديمة الأهمية، أو غير مناسبة، أو لا معنى لها. ولن تكون بنا من حاجة إلى مطالبة المريض تكراراً وصراحة بتوخي الصدق. فذلك هو أصلاً شرط العلاج التحليلي كما نكون أوضحنا له.

قد يبدو عجيباً أن تكون طريقة التداعي الحر هذه، مقرونة بالتقيد **بالقاعدة الأساسية للتحليل النفسي**[1]، قادرة على أن تحقق ما هو مرتجى منها، أي أن تردّ

١ ـ القاعدة الأساسية للتحليل النفسي هي القاعدة التي تقدم بيانها تواً والتي تلزم المريض بتوخي الصدق المطلق. «م».

إلى الشعور المادة التي كُبتت والتي تبقي عليها المقاومات في حالة الكبت هذه. لكن ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أن التداعي الحر ليس في الواقع حراً. فالمريض يبقى تحت تأثير الموقف التحليلي، حتى عندما لا يركّز نشاطه العقلي على موضوع بعينه. ومن حقنا أن نفترض أن ما من شيء سيرد إلى ذهنه إلا وله صلة بهذا الموقف. وتتجلى الآن مقاومته لاسترجاع المكبوت على نحوين. أولاً بتلك الاعتراضات النقدية التي تنهض في مواجهتها القاعدة الأساسية للتحليل النفسي. فإن ظهر، بفضل التقيُّد بهذه القاعدة، على هذه المعوِّقات، اتخذت المقاومة لنفسها عندئذ تعبيراً آخر. فهي ستحول دون أن ترد إلى ذهن الشخص الذي نحلله المادة المكبوتة نفسها، وإنما عوضاً عنها شيء له صلة تلميحية بالمكبوت؛ وكلما تعاظمت المقاومة نأت الفكرة البديلة التي سيفصح عنها المحلَّل عما يبحث عنه المحلِّل. وهذا الأخير، إذ يصغي بروية ولكن بدون توتر، وإذ يتوقع بحكم خبرته العامة ما يمكن أن يأتي، يكون في مقدوره الآن أن يستخدم المادة التي يمدّه بها المريض وفق منحنين. فإما أن يتوصل، متى ما كانت المقاومة ضعيفة، إلى أن يحدس من التلميحات بالمكبوت؛ وإما أن يضطر، فيما إذا كانت المقاومة أقوى من أن يتعرَّف طبيعتها بالنظر إلى شطط المتداعيات في البعد عن الموضوع، إلى مكاشفة المريض بأمرها وتفسيرها له. غير أن اكتشاف المقاومة ليس إلا الخطوة الأولى على طريق التغلب عليها. فالعمل التحليلي ينطوي، في ما ينطوي عليه، على **تقنية تأويلية**؛ ومداورة هذه التقنية بنجاح تتطلب بكل تأكيد مهارة ومراساً، ولكن ليس عسيراً تعلمها.

إن لطريقة التداعي الحر مزايا كبرى بالقياس إلى الطريقة السابقة لها، وليس فقط من ناحية الاقتصاد في الجهد. فهي تجنب المحلَّل إلى أقصى حدّ ممكن كل إكراه، ولا ينقطع أبداً اتصالها بالواقع الراهن، وتعطي أوسع الضمانات لعدم إغفال أي عامل في بنية العصاب ولعدم إقحام شيء عليها من عنديات المحلِّل. واستخدام هذه الطريقة يعني الاعتماد أساساً على المريض لرسم مسار التحليل ولترتيب مادته؛ وهذا ما يجعل من المتعذر على المحلِّل أن يصرف اهتمامه كله بصورة مطردة إلى عرَض بعينه وإلى عقدة بعينها بمعزل عن بقية الأعراض والعقد.

وعلى النقيض تماماً مما يحدث في الطريقة التنويمية أو الطريقة «التحضيضية»، فإن المحلِّل لا يكتشف مختلف عناصر الحالة إلا تدرُّجاً وفي أوقات ومواضع متباينة من مجرى العلاج. وعليه، إن العلاج التحليلي لن يكون له من معنى على الإطلاق بالنسبة إلى مستمع ثالث ـ وحضوره غير مقبول على الإطلاق أصلاً.

وثمة ميزة أخرى للطريقة، وهي أنه يفترض فيها ألا تخطئ هدفها أبداً. وبالفعل، لا بدّ أن نتوصل دوماً إلى «فكرة» ما، وذلك ما دمنا لا نشترط أي شرط بصدد طبيعتها. بيد أنه قد يتفق أن تخطئ هذه الطريقة هدفها بصورة شبه دائمة في حالة واحدة بعينها ـ لكن هذه الحالة تغدو بدورها، بحكم انفرادها تحديداً، قابلة للنفاذ إلى كنهها.

سأعمد الآن إلى وصف عامل من شأنه أن يضيف إلى صورة التحليل قَسَمة رئيسية وجديرة بأن تولى أهمية كبرى من الناحيتين التقنية والنظرية. ففي كل علاج تحليلي تنعقد، بدون أي تدخل من قبل الطبيب، أواصر علاقة وجدانية بالغة القوة تشدّ المريض إلى شخص المحلِّل، وهي علاقة لا سبيل إلى تفسيرها بحال من الأحوال بالصلات الفعلية بينهما. وتكون هذه العلاقة من طبيعة موجبة أو سالبة، وقد تتراوح بين طرفي نقيض بكل تدرجاتهما، بدءاً من حالة الحب المشبوب، ذي الطابع الشهواني السافر، وانتهاء بالتعبير الأكثر تطرفاً عن السخط والكره والعداوة. هذا «التحويل»، كما اصطلحنا على تسمية هذه الظاهرة باختصار، سرعان ما يحلّ لدى المريض محل الرغبة في الشفاء ويغدو، ما دام معتدلاً وودياً، العامل الأول للعلاج والنابض الحقيقي للعمل التحليلي المشترك. وعندما يصير فيما بعد مشبوباً، أو ينقلب إلى عداء، يغدو الأداة الرئيسية للمقاومة. وعندئذ أيضاً يشلّ القدرة على التداعي لدى المريض ويعرِّض للخطر نجاح العلاج. لكن من الخرَق أن نتطلع إلى الإفلات منه: فتحليل بلا تحويل مستحيل من المستحيلات. ولا يخلق بنا أن نتصور أن التحليل هو الذي يخلق التحويل، وأن هذا الأخير لا يحدث إلا في التحليل؛ فالتحليل لا يفعل أكثر من أن يكشف عن التحويل ويميِّزه عن سواه. فالتحويل ظاهرة إنسانية عامة، وله القول الفصل في نجاح كل علاج تضطلع فيه «هيبة» الطبيب بدور ما! بل إنه

يتحكم بصفة عامة بجميع علاقات الشخص بمحيطه الإنساني. وليس من العسير أن نتعرف فيه العامل الدينامي عينه الذي أسماه المنوِّمون المغنطيسيون «القابلية لتلقي الإيحاء»، والذي هو العامل الفعال في العلاقة التنويمية الذي عانت التقنية التطهيرية من نزواته وتقلباته أشد المعاناة. وحيثما انعدم الميل إلى التحويل الوجداني أو انقلب إلى ميل سلبي تماماً، كما في الخبل المبكر أو البارانويا، تلاشت أيضاً إمكانية التأثير النفسي على المريض[٢].

لا مرية في أن التحليل النفسي يستخدم أيضاً أداة **الإيحاء**، مثله في ذلك مثل سائر طرائق العلاج النفسي. لكن الفارق أن القرار في ما يتصل بالنجاح العلاجي لا يُترك هنا للإيحاء أو للتحويل. فالإيحاء يُستخدم بالأحرى لحمل المريض على إنجاز فعل نفسي محدد: التغلب على مقاومات التحويل عنده، مما يستتبع تعديلاً دائماً في اقتصاده النفسي[٣]. ويعمد المحلِّل إلى توعية المريض بالتحويل، ويكون زوال هذا الأخير متى ما أمكن إقناع المريض بأن كل مسلكه في أثناء التحويل لا يعدو أن يكون استنساخاً لعلاقات عاطفية مصدرها توظيفاته الموضوعانية المبكرة التي تعود إلى المرحلة المكبوتة من طفولته. وهكذا يغدو التحويل، عن طريق هذا التذكير، أحسن أداة للاستشفاء التحليلي بعد أن كان أمضى أسلحة المقاومة. بيد أن مداورة هذه الأداة تبقى مع ذلك الجانب الأصعب والأهم من جوانب التقنية التحليلية.

بفضل طريقة التداعي الحر، وتقنية التأويل المرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، يفلح التحليل النفسي في الوصول إلى شيء قد لا يبدو عظيم الأهمية من الناحية العملية، ولكنه أفضى في الواقع إلى وضع جديد وإلى معيار قِيَمي جديد في النشاط العلمي. فقد صار في الإمكان إقامة الدليل على أن للأحلام معنى، والحدْس بهذا المعنى. لقد كانت الأحلام في العصور القديمة الإغريقية ـ الرومانية تقيَّم تقييماً رفيعاً بوصفها منبئة عن المستقبل؛ أما العلم الحديث فقد أعرض عن

٢ ـ أثبتت الممارسة التحليلية النفسية اللاحقة أن البارانويا لا تستعصي على كل شكل من أشكال التحويل، وأنها قابلة بالتالي للتأثير النفسي عليها ولو جزئياً. «م».

٣ ـ الاقتصاد النفسي: التوزيع الكمي للقوى النفسية. «م».

الحلم، وخفض منزلته إلى مرتبة الخرافة والأباطيل، وأعلن أنه مجرد فعل «بدني»، أو ضرب من الاختلاج الذي يطرأ على الحياة النفسية وهي في حالة النوم أصلاً. وعلى هذا كان مستبعداً تماماً أن يدلف عالِم، سبق له أن قام بعمل علمي جدّي، إلى المسرح في ثياب «مفسّر أحلام». لكن إذا لم نلقِ بالاً لمثل هذه الإدانة للحلم، وإذا اعتبرناه عرضاً عصابياً غير مفهوم، أو فكرة هذائية أو وسواسية، وإذا أشحنا عن مضمونه الظاهر لنتخذ من الصور المتتالية التي يتألف منها موضوعاً للتداعي الحر، فلا بدّ أن نبلغ عندئذ إلى نتيجة مغايرة تماماً. فمن خلال التداعيات الكثيرة التي يمدّنا بها الحالم نشقّ طريقنا إلى اكتشاف منظومة من الأفكار لا يصحّ بعد الآن أن توصف بأنها مشوشة أو مختلطة أو مجافية للعقل، إذ أنها تكافئ فعلاً نفسياً تام القيمة لا يعدو **الحلم الظاهر** أن يكون ترجمة محرفة ومبتسرة وغير مفهومة له، وفي الغالب من الأحيان ترجمة إلى صور بصرية. **وأفكار الحلم الكامنة** هذه هي التي تنطوي على معنى الحلم؛ أما مضمونه الظاهر فلم يكن إلا وهماً، إلا واجهة يمكن اتخاذها بالتأكيد منطلقاً لعملية التداعي، ولكن ليس لعملية التأويل.

لقد بات لزاماً علينا من ثم أن نجيب عن سلسلة بكاملها من الأسئلة، وفي طليعتها: هل لتشكيل الحلم من دافع، وما الشروط التي يتمّ فيها هذا التشكيل، وما الطرق التي تسلكها أفكار الحلم الكامنة الزاخرة دوماً بالمعنى لتصير إلى حلم عديم المعنى في الغالب؟ لقد حاولت في كتابي **تأويل الحلم**، الصادر عام ١٩٠٠، أن أجد حلاً لجميع هذه المعضلات. ولا يتسع المجال هنا لغير خلاصة بالغة الاقتضاب عن هذه البحوث: فحينما نتفحص الأفكار الكامنة التي تعلّمنا كيف نستخلصها من تحليل الحلم، نكتشف في عدادها فكرة تنفصل بجلاء عن الأفكار الأخرى المفهومة والمعروفة جيداً من قبل الحالم. فما هذه الأفكار الأخرى إلا بقايا من حالة اليقظة (البقايا النهارية)؛ أما تلك الفكرة المتميزة عن سواها فنتعرف فيها حاثة رغبية غالباً ما تكون جارحة، غريبة عن الحالم في حياة اليقظة، ومن ثم فهو يستقبلها بإنكار مستغرب أو مستهجن. هذه الرغبة هي العنصر المكوّن الفعلي للحلم: فهي التي توفّر الطاقة اللازمة لإنتاج الحلم، وهي التي

تستخدم البقايا النهارية مادة لها؛ والحلم الذي يتولد على هذا النحو يمثّل موقفاً تحظى فيه هذه الرغبة بالإشباع؛ فالحلم **تحقيق لهذه الرغبة**. وما كان لهذه العملية أن تتمّ لو لم يمهّد لها السبيل شيء ما في طبيعة حالة النوم. ذلك أن الشرط النفسي المسبق للنوم هو تركيز الأنا على الرغبة في النوم، مما يوجب سحب التوظيفات من سائر مشاغل الحياة الأخرى؛ وبما أن منافذ الطاقة الحركية تكون في الوقت نفسه قد سُدَّت، يكون في مقدور الأنا أن يخفض كمّ المجهود الذي ينفقه في الأحوال العادية للإبقاء على الكبت قائماً. وتغتنم الرغبة اللاشعورية سانحة هذا التراخي الليلي للكبت لتشقّ طريقها إلى الشعور بواسطة الحلم. بيد أن مقاومة الأنا الكابتة لا تنتفي في أثناء النوم. وكل ما في الأمر أنها تضعف وتبقى منها بقية، هي **رقابة الحلم** التي تمنع الآن الرغبة اللاشعورية من الإفصاح عن نفسها في الأشكال التي يمكن أن تكون مناسبة لها فعلاً. وبحكم صرامة رقابة الحلم، تضطر الأفكار الحلمية الكامنة إلى القبول بتعديلات وتخفيفات تجعل من الصعب التعرف إلى المعنى المحظور للحلم. وذلك ما يفسّر **تحريف الحلم** الذي يدين له الحلم الظاهر بأبرز خصائصه. وهذا ما يبرر لنا القول إن **الحلم تحقيق (مموَّه) لرغبة (مكبوتة)**. وهكذا يتضح لنا أن الحلم يتكون كما يتكون العرض العصابي؛ فهو تشكيل توفيقي بين مطالب حاثة غريزية مكبوتة وبين مقاومات قوة رقابية في الأنا. ونظراً إلى تشابه التكوين فإن الحلم، مثله مثل العرض، يكون غير مفهوم وبحاجة إلى تأويل بالكيفية نفسها.

ليس من العسير اكتشاف الوظيفة العامة للحلم. فهو يفيد في حمايتنا من التنبيهات الخارجية والداخلية التي من شأنها أن تؤدي إلى استيقاظنا، ووسيلته إلى ذلك تملُّقها ومداهنتها إن جاز القول، وبذلك يوفِّر للنوم الحماية مما قد يعكر صفوه. وأما التنبيه الخارجي فيكون درؤه عن طريق تجريده من معناه الأصلي وإدماجه في موقف عديم الخطورة. وأما التنبيه الداخلي، الصادر عن المطلب الغريزي، فيطلق النائم له الحرية ويتيح له الإشباع عن طريق تشكيل الحلم، وذلك ما دامت أفكار الحلم الكامنة خاضعة لنير الرقابة. ولكن إن لاحت نذر هذا الخطر وصار الحلم أوضح من اللزوم، قطع النائم الحلم واستيقظ مذعوراً **(أحلام**

الحصر). وتتعطل وظيفة الحلم أيضاً متى ما بلغ التنبيه الخارجي من القوة حداً يمسي من المتعذر معه إنكاره والتنصل منه (**أحلام الإيقاظ**). وقد أطلقتُ على العملية التي تحوِّل، بالتآزر مع رقابة الحلم، الأفكار الكامنة إلى المضمون الظاهر للحلم اسم **عمل الحلم**. وقوامها إخضاع مادة الفكر القبشعورية لمعالجة خاصة، بحيث تتكثف عناصر الأفكار التي تتألف منها، وتخضع نبراتها النفسية لعملية إزاحة، وتترجم بجملتها إلى صور بصرية، فتتشخص وتتخذ طابعاً مسرحياً، ثم يُستكمل ذلك كله **بصياغة ثانوية** يغدو من المستحيل معها تعرّفها. وعمل الحلم مثال رائع للسيرورات التي تجري في الطبقات العميقة، اللاشعورية، من الحياة النفسية، والتي تختلف اختلافاً بيّناً عن السيرورات الفكرية العادية المعروفة لدينا. ومن قبيل ذلك أنها تكشف عن عدة سمات أثرية، مثل استخدام الرمزية ذات الصفة الجنسية الغالبة هنا، هذه الرمزية التي أمكن الاهتداء إليها منذئذ في مضامير أخرى للنشاط النفسي.

إن الحاثة الغريزية اللاشعورية للحلم، إذ تعقد صلة مع بقية من البقايا النهارية، مع اهتمام لم تستنفده حياة اليقظة، تعطي الحلم الذي تشكله قيمة مزدوجة بالنسبة إلى العمل التحليلي. فالحلم المؤوَّل هو من جهة أولى، وكما رأينا، تحقيق لرغبة مكبوتة؛ ولكن من الممكن له، من الجهة الثانية، أن يكون استمراراً للنشاط الفكري النهاري القبشعوري، ومحتوياً من ثم على مضامين بالغة التنوع، فيعبر إما عن عزم أو تحذير أو تفكير أو مرة ثانية عن تحقيق لرغبة. والتحليل يستخدمه في كلا المنحيين، أي للوقوف على السيرورات الشعورية والسيرورات اللاشعورية لدى المريض على حدّ سواء. وينتفع التحليل أيضاً من احتمال ظهور معطيات الحياة الطفلية التي ما طالها النسيان في الحلم، بحيث يتسنى له في غالب الأحيان أن يتغلب بواسطة تأويل الأحلام على النساية الطفلية. هكذا ينجز الحلم شطراً من المهمة التي كان يضطلع بها التنويم في السابق. وبالمقابل، لم أزعم في يوم من الأيام، على نحو ما نسب إليّ في أحايين كثيرة، أننا نستدل من تأويل الأحلام أن لجميع الأحلام معنى جنسياً أو أنها تصدر جميعها عن قوى غريزية جنسية. فمن اليسير أن نتبين أن الجوع والعطش والحاجتين الإخراجيتين تنتج الأحلام مثلما

تنتجها أية حاثة مكبوتة، أجنسية كانت أم أنوية. ويتيح لنا صغار الأطفال إمكانية ميسورة لوضع صحة نظريتنا في الأحلام على محكّ الاختبار. فغالباً ما نلتقي لديهم، وهم الذين لا تكون مختلف الأنساق النفسية قد انقسمت بعد لديهم انقساماً واضح المعالم، ولا تكون الكبوتات قد تأصلت بعد لديهم تأصلاً عميقاً، أقول: غالباً ما نلتقي لديهم أحلاماً لا تعدو أن تكون تحقيقاً غير مقنَّع لرغبة من رغبات النهار السابق للحلم. ومن الممكن للراشدين أيضاً أن يحلموا، تحت تأثير حاجات جسمانية ملحَّة، مثل تلك الأحلام الطفلية النمط[٤].

وكما أفاد التحليل من تأويل الأحلام، كذلك يفيد من دراسة الهفوات الصغيرة والأفعال العَرَضية[٥] الكثيرة التواتر لدى الناس، وهو موضوع كرست له كتاباً على حدة بعنوان **علم نفس أمراض الحياة اليومية**، الصادر عام ١٩٠٤. وهذا الكتاب، الذي لاقى من إقبال القراء ما لم تلاقِه مؤلفاتي الأخرى، يسوق الدليل على أن هذه الظاهرات ليست بنت المصادفة، وأنها تتخطى التفسيرات الفيزيولوجية، وأنها ذات معنى وقابلة للتأويل وتسوِّغ النتيجة التي نخلص إليها من أنها تشفّ عن رغبات محتجزة أو مكبوتة. بيد أن القيمة الكبرى لتأويل الحلم كما لدراسة الهفوات والأفعال العَرَضية لا تكمن فقط في ما تقدمانه من مساندة للعمل التحليلي، وإنما أيضاً في خاصية أخرى من خصائصهما. فالتحليل النفسي لم يكن شَغَل نفسه إلى ذلك الحين إلا بإزالة الظاهرات المَرَضية، وكثيراً ما اضطر، كيما يفهمها، إلى اعتماد فرضيات ذات قيمة عامة لا تتناسب وأهمية المادة المدروسة فعلاً. غير أن الحلم، الذي تصدى بعدئذ لدراسته، لم يكن عرضاً

٤ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٣٥): نظراً إلى أن عملية إخراج الحلم قد تمنى في كثير من الأحيان بالفشل، لذا يصحّ أن نصف الحلم بأنه محاولة لتحقيق رغبة. ويبقى تعريف أرسطو القديم للحلم بأنه حياة النفس في أثناء النوم صحيحاً. وعليه، كان ثمة مبرر لأن أجعل عنوان كتابي لا **الحلم** بل **تأويل الحلم**.

٥ ـ الأفعال العَرَضية: هي الأفعال البسيطة التي يؤديها المرء آلياً، لاشعورياً، بدون انتباه، وكأنما يعبث، والتي يرفض أن يعزو إليها أية دلالة؛ ولكنها في الواقع غير مجردة من القيمة، وتفصح في الغالب عن أفكار وحاثات لاشعورية. ومن أمثلتها عبث المرء بأزرار ثيابه أو النقر بأصابعه على خشب المكتب، إلخ. «م».

مرَضياً، وإنما ظاهرة من ظاهرات الحياة النفسية السوية يمكن أن تحدث لدى كل إنسان صحيح معافى. وإن يكن بنيان الحلم كبنيان العَرَض، وإن يكن تفسيره يتطلب الفروض عينها: فرض كبت الحاثات الغريزية، وفرض التشكيلات البديلة والتوفيقية، وفرض الأنساق النفسية المختلفة التي يتوزع بينها الشعور واللاشعور، فإن التحليل النفسي لا يعود مجرد علم مساعد لعلم النفس المرضي، وإنما يكون بالأحرى بداية لعلم سيكولوجي جديد أكثر عمقاً، علم لا غنى عنه لفهم الحياة السوية أيضاً، ومن الممكن سحب فروضه ونتائجه على ميادين أخرى من الحياة النفسية والعقلية؛ فالطريق مفتوحة أمامه على سعة، ومن حقه أن يكون موضوع اهتمام العالمين.

(٥)

أوقف هنا عرض التطور الذاتي للتحليل النفسي لأنتقل إلى مصائره الخارجية. فما ذكرته حتى الآن عن النتائج التي توصّل إلى إحرازها كان بشطره الأكبر من ثمار عملي الخاص، بيد أني ضمَّنت عرضي أيضاً نتائج بحوث لاحقة ولم أفرِّق مساهماتي عن مساهمات تلامذتي ومريديَّ.

لم ينضوِ تحت لوائي على مدى أكثر من عشر سنوات بعد انفصالي عن بروير تلميذ واحد. وبقيت في عزلة تامة. وفي فيينا كنت أقابَل بالاعتراض، وفي الخارج بالتجاهل. ولم تشر مجلات الطب النفسي إلا عرضاً إلى كتابي **تأويل الحلم** الصادر عام ١٩٠٠. وفي مقالي **مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي** أشرت، كمثال على موقف أوساط الطب النفسي في فيينا مني، إلى محادثة دارت بيني وبين طبيب مساعد في المستشفى كان ألّف كتاباً يدحض فيه نظرياتي بدون أن يكون اطلع على **تأويل الحلم**[١]. فقد قيل له في المستشفى إنه لا يستأهل القراءة. وقد أباح الطبيب المذكور لنفسه، بعد أن صار أستاذاً، أن يكذّب مجرى تلك المحادثة وأن يشكك إجمالاً في أمانة ذاكرتي. بيد أنني أؤكد هنا مرة أخرى صحة كل كلمة أوردتها في ذلك المقال.

حين أدركت حتمية اصطدامي بما اصطدمت به، تضاءلت انجراحيتي كثيراً. كما أن جدران عزلتي تهاوت تدريجياً. في أول الأمر تحلّق حولي نفر ضئيل من التلاميذ؛ وبعد عام ١٩٠٦ جاءت الأخبار بأن الأطباء النفسانيين في زوريخ،

---

١ ـ طبقاً لما ذكره إرنست جونز في كتابه: **حياة سيغموند فرويد وأعماله** فإن المقصود هنا إميل رايمان، الطبيب المساعد آنئذ في عيادة الأمراض النفسية والعصبية، ومؤلف **الاضطرابات العقلية الهستيرية: دراسة سريرية**، فيينا ١٩٠٤. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

ي. بلولر BLEULER[٢] ومساعده ك. غ. يونغ JUNG[٣] وغيرهما، يولون التحليل النفسي اهتماماً جُلّى. وانعقدت بيننا أواصر علاقات شخصية: ففي عيد الفصح من عام ١٩٠٨ التقى أصدقاء العلم الجديد في سالزبورغ، وقرّ رأيهم على أن يكرروا بانتظام عقد مؤتمرات خاصة مماثلة، وعلى أن يصدروا مجلة يكون اسمها **حولية البحوث السيكوباتولوجية والتحليلية النفسية** ويرأس تحريرها يونغ. وتوليت أنا الإشراف على إصدارها، بيد أن نشوب الحرب العالمية أوقف صدورها. وفي الوقت نفسه الذي انضوى فيه السويسريون تحت لواء الحركة، استيقظ في جميع أرجاء ألمانيا الاهتمام بالتحليل النفسي، فصار موضوعاً لعدد لا يقع تحت حصر من التقييمات الأدبية والمناقشات الحادة في المؤتمرات العلمية. لكنه لم يحظَ في أي مكان باستقبال ودّي أو متسامح. فما انقضى زمن وجيز على التعرف إلى التحليل النفسي حتى كان العلم الألماني قد أجمع على نبذه.

لا أستطيع بطبيعة الحال أن أتكهن من اليوم بالحكم النهائي الذي ستصدره الأجيال على قيمة التحليل النفسي في مجال الطب النفسي وعلم النفس وعلوم الإنسان بوجه عام. لكن يتهيأ لي أنه يوم ستحظى الحقبة التي عشناها بمن يؤرخ لها، فلن يكون أمام هذا المؤرخ بدّ من الإقرار بأن موقف العلم الألماني من الذين تنطعوا لتمثيله في غضونها لن يكون موقف افتخار. ولا يذهب بي الفكر هنا إلى ما تعرَّض له التحليل النفسي من نبذ وإلى الكيفية الجازمة القاطعة التي تمّ بها هذا النبذ؛ فهاتان الواقعتان كان ميسوراً فهمهما وكانتا أمراً متوقعاً، وما كان فيهما

---

٢ - يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ - ١٩٢٩). اشتهر ببحوثه في الخبل المبكر، وأدخل إلى الطب النفسي مصطلح «الفصام»، وإليه يعود الفضل في التوكيد على أن المرضى العقليين، رغم لامبالاتهم الظاهرية، أشخاص حساسون للغاية، ولهم حياة داخلية مكثفة خلف قشرة جنونهم الوقائية. ساير التحليل النفسي فترة من الزمن ثم انفصل عنه لدى اختلافه مع تلميذه ومساعده السابق ك. غ. يونغ. «م».

٣ - كارل غوستاف يونغ: طبيب نفسي سويسري (١٨٧٥ - ١٩٦١). عمل مع جانيه وبلولر، ثم مع فرويد، ثم قاد واحداً من أهم انشقاقين عرفتهما حركة التحليل النفسي. تخصص في دراسة تظاهرات «اللاشعور الجمعي»، وهو مفهوم اعترض عليه فرويد. من مؤلفاته: **علم النفس والخيمياء، الإنسان ورموزه، جدل الأنا واللاشعور، ذكريات وأحلام وتأملات.** «م».

على أية حال ما يشين شخصية الخصوم. ولكن لا عذر على الإطلاق لفرط المكابرة، وللازدراء غير المتحرج بكل منطق، وللفظاظة وفساد الذوق في التهجم. قد يقول لي قائل إنه لمن الصبيانية من قبلي أن أطلق العنان على هذا النحو لحساسيتي الجريحة بعد تصرم خمسة عشر عاماً، والحق أني ما كنت لأفعل ذلك لو لم يكن لديّ شيء آخر أضيفه. فبعد بضع سنوات من ذلك، وحين ارتفعت عقائر جوقة من الأعداء تتهم الأمة الألمانية بالهمجية، وهي تهمة تتفق مع كل ما أسلفت ذكره، حزّ في نفسي كثيراً ألا يكون في مستطاعي، بحكم تجربتي بالذات، أن أقف منها موقف المناقض[٤].

لقد تباهى أحد خصومي بأنه يرغم مرضاه على إطباق أفواههم حال شروعهم بالكلام عن الأمور الجنسية، واستخلص كما هو واضح من هذه الطريقة الحقّ في الحكم على الدور الإتيولوجي للجنسية في الأعصبة. وإذا نحَّينا جانباً المقاومات العاطفية التي لا يعسر تفسيرها على ضوء النظرية التحليلية النفسية والتي ما كان لها أن تفتّ في عضدنا أو تبلبلنا، فإن العقبة الرئيسية التي حالت دون التفاهم بيننا وبين خصومنا بدت لي متأتية عن تصورهم بأن التحليل النفسي هو من نتاج مخيلتي التأملية وعن رفضهم تصديق ما استأداه بناؤه من مجهود مديد، مصابر، مترفع عن كل تحيُّز. وبما أن التحليل، بحسب زعمهم، لا يمتّ بأي صلة إلى الملاحظة والمشاهدة ولا إلى التجربة، فقد أباحوا لأنفسهم أيضاً نبذه بدون استناد إلى أية تجربة شخصية. أما من كان لا يشعر منهم بمثل هذا الوثوق بتلك الحجة، فقد كرر مناورة المقاومة القديمة المعهودة: إذ رفض النظر من خلال المجهر حتى لا يرى ما مارى فيه وأنكره. والحق، إنه لعجيب المسلك الخاطئ الذي يسلكه معظم الناس لدى اضطرارهم، في مواجهة شيء جديد، إلى تكوين حكم شخصي. فمنذ سنين عديدة، وإلى يومنا الحاضر، وأنا أسمع نقاداً «من ذوي النيات الطيبة» يرددون على مسمعي القول بأن التحليل النفسي مصيب في كذا وكيت، ولكنه

٤ ـ يذكر إرنست جونز في **حياة فرويد وأعماله** أنه حين طلب المحلل النفسي الروسي الأصل ماكس آيتنغون من فرويد، بعد أن اطلع على مخطوطه، أن يحذف الإشارة إلى الهمجية الألمانية أبى فرويد تلبية طلبه. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

عند هذا الحدّ أو ذاك يغلو ويشطّ، ويغدو تعميمه غير مبرر. بيد أنني أعلم أنه ليس أصعب من رسم حدود كهذه، وأن النقاد أنفسهم كانوا، قبل أيام أو أسابيع قليلة، على جهل مطبق بالمسألة.

لقد كان من نتيجة المقاطعة الرسمية للتحليل النفسي أن رصّ المحلّلون صفوفهم. وفي مؤتمرهم الثاني بنورمبرغ، سنة ١٩١٠، تنظموا، بناء على اقتراح من س. فيرنزي FERENCZI[٥]، في «**رابطة دولية للتحليل النفسي**»، مقسّمة إلى فروع محلية وتحت رئاسة واحدة. وقد اجتازت هذه الرابطة الحرب العالمية بدون أن تغوص في حمأتها، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم، ولها فروع في فيينا وبرلين وبودابست وزوريخ ولندن وهولندا ونيويورك وعموم أميركا وموسكو وكالكوتا. وقد عملتُ على أن يجري انتخاب ك.غ. يونغ أول رئيس لها، وكانت هذه خطوة بعيدة كل البعد عن التوفيق كما اتضح فيما بعد. وصار للتحليل النفسي حينئذ مجلة ثانية، هي **المجلة المركزية للتحليل النفسي** التي يحررها آدلر وشتيكل STEKEL، وبعدئذ بفترة وجيزة مجلة ثالثة، هي **إيماغو** IMAGO التي وقفها محللان غير طبيبين، هما هـ. ساكس SACHS وأ. رانك RANK، على تطبيق التحليل النفسي على العلوم الإنسانية بعامة. وبادر بلولر بعيد ذلك إلى نشر دفاعه عن التحليل النفسي (**التحليل النفسي عند فرويد**، ١٩١٠). ولئن يكن طاب لي أن أسمع لأول مرة في هذه الخصومة صوت الإنصاف والمنطق النزيه، فإنني ما استطعت بالمقابل أن أشعر بالرضى الكامل عن مقال بلولر: فقد غالى غلواً شديداً في

٥ ـ ساندور فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). كان يقيم في بودابست، وأسس فيها فرعاً لرابطة التحليل النفسي، وارتبط بصداقة حميمة مع فرويد. أسهم في تطوير التقنية التحليلية، وكان له تأثير واضح على المدرسة الإنكليزية، وبالأخص على إرنست جونز وميكائيل بالنت. صار صديقاً لفرويد بعد أن تولى هذا الأخير تحليله. وتولى بنفسه تحليل ميلاني كلاين وجيزا روهايم. ولكنه ابتداء من عام ١٩٢٠ أبدى شكوكاً بصدد الفعالية العلاجية للتحليل النفسي، وندد برياء معاصريه من المحللين النفسيين الذين كانوا يبررون فشلهم في معالجة مرضاهم بحجة المقاومة والتحويل السلبي. من أشهر مؤلفاته: **الرضة، تأملات حول المازوخية، الأعصبة الحربية، طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية**، فضلاً عن مراسلات مع فرويد في ثلاثة أجزاء. «م».

طموحه إلى تلبُّسٍ ظاهرٍ من عدم التحيُّز؛ وليس من قبيل المصادفة أن يكون علمنا قد اقتبس عنه تحديداً مفهوم **الازدواجية الوجدانية** الثمين[٦]. وفي مقالات تالية اتخذ بلولر موقفاً رافضاً من بنيان المذهب التحليلي وشكّك أو تنكّر لأجزاء أساسية فيه، حتى إني تساءلت بدهشة عما إذا كان أبقى فيه شيئاً قميناً بأن يحظى بإعجابه. ومع ذلك، إنه لم يكتفِ فيما بعد بالإدلاء بأكثر التصريحات وداً حيال «علم نفس الأعماق»[٧]، بل بنى عليه أيضاً دراسته، الوسيعة الأسس والركائز، للأمراض الفصامية. ومهما يكن من أمر فإن بلولر لم يمكث طويلاً في «**الرابطة الدولية للتحليل النفسي**»، بل غادرها على إثر خلافات مع يونغ، وبذلك خسر التحليل النفسي «بورغولزلي»[٨].

ما استطاعت المعارضة الرسمية أن توقف انتشار التحليل النفسي، لا في ألمانيا ولا في البلدان الأخرى. وكنت في غير هذا الموضع (**مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي**) تتبعت مراحل تقدمه وسمَّيت الأشخاص الذين برزوا كممثلين له. وفي عام ١٩٠٩ دعيت أنا ويونغ من قبل غ. **ستانلي هال** HALL[٩] إلى أميركا لإقامة أسبوع من المحاضرات (بالألمانية) في جامعة كلارك، بورسستر في ولاية ماساشوستس، وكان رئيساً لها، بمناسبة الذكرى العشرين لتأسيسها. وكان هال عالماً مرموقاً في النفس والتربية، وكان أدخل منذ عدة سنوات التحليل النفسي في برنامج التعليم؛ وكان فيه شيء من شمـائل «صانع الملوك» KINGMAKER الذي يطيب له أن يقلِّد المناصب أصحابها وأن يعزلهم عنها. وقد التقينا هناك ج. **بوتنام** PUTNAM[١٠]،

٦ ـ قد يكون مسوغاً لنا أن نفترض أن هذه نقدة لاذعة يوجهها فرويد إلى بلولر. فالازدواجية الوجدانية، كمفهوم أساسي في التحليل النفسي، تعني تزامن مشاعر الحب والكره لدى الشخص الواحد تجاه الموضوع الواحد. «م».

٧ ـ الاسم الذي أطلق على التحليل النفسي بوصفه علم نفس اللاشعور. «م».

٨ ـ هو المستشفى العام للأمراض العقلية بزوريخ وكان يديره بلولر. «م».

٩ ـ غرانفيل ستانلي هال: فيلسوف وعالم نفسي أميركي (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤). قال عن فرويد إنه «المفكر الأكثر أصالة والذهن الأكثر إبداعاً في جيلنا»، ولكنه ابتعد عنه لاحقاً ليقترب من ألفريد آدلر. «م».

١٠ ـ جيمس جاكسون بوتنام: طبيب أعصاب أميركي (١٨٤٦ ـ ١٩١٨). عضو مؤسس **للرابطة التحليلية النفسية الأميركية**. له كتاب بعنوان: **انطباعات شخصية عن سيغموند فرويد**. «م».

اختصاصي الأعصاب في جامعة هارفارد، فأبدى، رغم تقدمه في السن، تحمساً للتحليل النفسي وتعهّد بنصرته بالنظر إلى قيمته الثقافية وخلوص مقاصده، وذلك بكل ما لشخصيته المحترمة من قبل جميع العاملين من وزن واعتبار. وما أربكنا في هذا الرجل الممتاز ـ الذي كان يغلب عليه الميل، بحكم استعداد لديه للعصاب الوسواسي، إلى النزعة الأخلاقية ـ سوى تطلعه إلى ربط التحليل النفسي بمذهب فلسفي محدد وإلى وضعه في خدمة اتجاهات أخلاقية. وترك فيّ أيضاً لقائي بالفيلسوف **وليم جيمس** JAMES[١١] أثراً دائماً. وإن أنسَ فلن أنسى المشهد البسيط التالي: ففيما كنا نتريَّض توقَّف على حين بغتة، وناولني حقيبة يد كان يحملها، ورجاني أن أواصل سيري، قائلاً إنه سيلحق بي حالما تزول عنه نوبة الذبحة الصدرية التي أحس بوشكانها. وقد مات بعد ذلك بعام واحد بداء القلب؛ ومنذ ذلك اليوم وأنا أتمنى أن أواجه مثله النهاية القريبة بجنان ثابت.

كنت آنئذ في الثالثة والخمسين والعمر، وكنت أشعر بالشباب والعافية. ولا شك في أن الإقامة القصيرة في العالم الجديد قد أزكت في نفسي إحساسي بقيمتي الذاتية. ففي أوروبا كنت أشعر بأنني منبوذ؛ أما هنا فقد رأيتني أقابل من قبل الصفوة مقابلة الندّ للندّ. وحين اعتليت المنبر في ورسستر لألقي من عليه «**دروسي الخمسة في التحليل النفسي**»، خُيِّل إليّ وكأن حلماً لا يصدَّق من أحلام اليقظة قد تحقق. فالتحليل النفسي لم يعد إذاً من نتاج الهذيان، بل صار جزءاً ثميناً من الواقع. ومنذ زيارتنا لم يخسر موقعاً من مواقعه في أميركا، بل أصاب لدى الجمهور شعبية تكاد تكون منقطعة النظير، واعترف به العديدون من الأطباء النفسانيين الرسميين كجزء مهمّ من التعليم الطبي. ولكن من سوء الحظ أنه خالطته، هناك أيضاً، أوشاب كثيرة. ولكم من الجرائر ارتبكت باسمه، وهو منها براء. ثم إنه لا تتاح هناك فرص حقيقية لتأهيل المحللين تقنياً ونظرياً.

---

١١ ـ وليم جيمس: عالم نفس وفيلسوف أميركي (١٨٤٢ ـ ١٩١٠). يعتبر من مؤسسي علم النفس في الولايات المتحدة الأميركية. كان يحلو له أن يقول: أنا أول من ألقى محاضرة عن علم النفس في أمريكا. دافع عن مبدأ الذرائعية. «م».

علاوة على أن التحليل النفسي يصطدم في أميركا بـ«السلوكية» التي تتباهى بسذاجة بأنها أقصت نهائياً المشكلة السيكولوجية[١٢].

وقعت في أوروبا، بين عامي ١٩١١ و١٩١٣، حركتان انشقاقيتان عن التحليل النفسي قادهما شخصان كان لعبا إلى ذلك الحين دوراً مرموقاً في العلم الفتي: **ألفريد أدلر وك. غ. يونغ**. وقد بدت هاتان الحركتان بالغتي الخطورة، وسرعان ما انضوى تحت لوائهما عديد من الأنصار. بيد أنهما ما كانتا تدينان بقوتهما لجوهرهما الخاص، بل لكونهما أفسحتا في المجال ـ وهذا أمر له إغراؤه ـ للتملص من نتائج التحليل النفسي التي استشعر بعضهم أنها جارحة للمشاعر، بدون أن تكون ثمة حاجة إلى التنكر لمعطياته المستقاة من الواقع. وقد حاول يونغ أن ينتقل بالوقائع التحليلية إلى صعيد التجريد اللاشخصي، بدون أن يقيم اعتباراً لتاريخ الفرد، آملاً من وراء ذلك أن يوفّر على نفسه حتمية الاعتراف بالجنسية الطفلية وبعقدة أوديب، وضرورة تحليل الطفولة في آن معاً. أما آدلر فقد بدا أنه يشطّ إلى أبعد من ذلك عن التحليل النفسي، إذ أنكر دفعة واحدة الجنسية وأرجع تكوين الطبع والعصاب معاً إلى علة وحيدة هي إرادة القوة لدى الناس وحاجتهم إلى التعويض عن دونيتهم الجِبِلّية؛ ونفض يده بالتالي من كل الكشوف السيكولوجية للتحليل النفسي. بيد أن ما نبذه شقّ لنفسه من جديد بالقوة طريقاً إلى مذهبه المغلق، ولكن تحت اسم آخر؛ فما «الاحتجاج الرجولي»[١٣] كما قال به سوى الكبت وقد صبغ، بغير ما مبرر، بصبغة جنسية. وقد وقف النقد موقفاً رفيقاً للغاية من هذين «الهرطوقيّين»[١٤]. أما من جهتي أنا فلم أزد على المطالبة بأن يعدل آدلر ويونغ عن تسمية مذهبيهما باسم «التحليل النفسي». وبوسعي الآن، وبعد مرور زهاء عشر سنوات، أن ألاحظ أن هاتين المحاولتين قد مرتا بالتحليل النفسي بدون أن تنالاه بأذى.

١٢ ـ السلوكية BEHAVIORISM: مقاربة سيكولوجية تربط سلوك الفرد بمحيطه، ورفضت، في بادئ الأمر على الأقل، المفاهيم النفسية الخالصة مثل الشعور والاستبطان، وقالت بالتعلم المبرمج. «م».

١٣ ـ الاحتجاج الذكوري أو الرجولي هو عند آدلر المبدأ النظري الذي بموجبه تنقلب عقدة النقص لدى الفرد إلى عقدة تفوق. ومثاله الأشهر هو نابليون. «م».

١٤ ـ الهرطوقي هو النعت الذي كانت تطلقه الكنيسة على كل من تعتبره جاحداً أو منحرفاً عن العقيدة القويمة. ولهذا، وكضرب من التحفظ، وضع فرويد هذا النعت في استخدامه له بين مزدوجين. «م».

حين تقوم رابطة ما على أساس الاتفاق على بعض النقاط الرئيسية، فمن نافل القول أن ينفصل عنها من يخرج عن هذا الأساس المشترك. ومع ذلك فكثيراً ما أُلقيت التبعة في ارتداد هؤلاء التلاميذ الأوائل على ما وُصمت به من تعصبي لرأيي، أو أُعتبر هذا الارتداد تعبيراً عن قَدَر من نوع خاص يحيط بشخصي. وحسبي رداً على ذلك أن أذكر أنه في مقابل أولئك الذين هجروني، من أمثال يونغ وآدلر وشتيكل ونفر قليل غيرهم، لبث إلى جانبي عدد كبير من الرجال من أمثال أبراهام ABRAHAM[١٥] وآيتنغون EITINGON وفيرنزي ورانك[١٦] وجونز وبريل BRILL وساكس[١٧] والقس بفستر

١٥ ـ كارل أبراهام: طبيب ومحلل نفسي ألماني (١٨٧٧ ـ ١٩٢٥). عمل أول الأمر في مستشفى للطب النفسي في زوريخ تحت إشراف يوجين بلولر. التقى فرويد عام ١٩٠٧ وأولى في أول مقالين تحليليين نفسيين له مكانة مركزية للرضة الجنسية. أسس **الجمعية البرلينية للتحليل النفسي** عام ١٩١٠. عمل أثناء الحرب العالمية الأولى كطبيب عسكري وجراح وتعامل مع العديد من حالات الإصابة بالرضة الفيزيقية والنفسية. ترأس لمرتين على التوالي **الرابطة التحليلية النفسية الدولية.** أولى اهتماماً خاصاً لمراحل تطور الجنسية الطفلية وميّز في المرحلة الشفوية طورين: طور لذة المصّ وطور لذة العضّ الذي أسماه بالطور الشفوي الافتراسي أو السادي الشفوي. وميّز بين العصاب والذهان بالانتقال من الطور الشرجي الهادف إلى التبرز إلى الطور الشرجي الهادف إلى الإمساك. من أشهر مؤلفاته: **حول الأعصبة الحربية** (بالاشتراك مع فرويد وساندور فيرنزي)، **الهوس والسويداء، الحلم والأسطورة، رمزية لغة الحلم، الأخاييل الطفلية في الحلم والأسطورة، أمنحوتب الرابع (أخناتون): مساهمة تحليلية نفسية في دراسة شخصية آتون والعبادة التوحيدية.** «م».

١٦ ـ أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). متحدر من أسرة يهودية من البورجوازية المتوسطة. اصطدم مع أبيه الذي كان سكيراً فغيّر كنيته من روزنفلد إلى رانك تيمناً باسم الطبيب الطيب القلب في مسرحية هنريك إبسن **بيت الدمية.** قرأ وهو في العشرين من العمر **تأويل الحلم** لفرويد، فانتمى مبكراً إلى حركة التحليل النفسي وصار أمين سر **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي.** حصل، بدعم من فرويد، على شهادة الدكتوراه واهتم بمسائل الدين والفلسفة والأسطورة. من أشهر مؤلفاته: **رضة الميلاد، إرادة السعادة، الفن والفنان، مساهمة في النرجسية، دون جوان.** «م».

١٧ ـ هانز ساكس: محلل نفسي نمساوي (١٨٨١ ـ ١٩٤٧)، وهو غير الشاعر الألماني المعروف بالاسم نفسه (١٤٩٤ ـ ١٥٧٦). تخرج من الجامعة محامياً، ولكنه لما قرأ **تأويل الحلم** لفرويد انتمى حالاً إلى حركة التحليل النفسي وصار مساعداً لفرويد في اجتماعات **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي.** هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٣٢ حيث مارس التحليل النفسي الحرّ. اشتهر بكتابه: **فرويد معلمي وصديقي.** والإحالة في النص إلى كتابه المشترك مع أوتو رانك بعنوان: **دلالة التحليل النفسي بالنسبة إلى العلوم الفكرية** الصادر عام ١٩١٣. «م».

PFISTER[١٨] وفان إمدن VAN EMDEN[١٩] ورايك REIK[٢٠]، إلخ، يتعاونون معي منذ نحو خمسة عشر عاماً في إخلاص ووفاء، فضلاً عن أن آصرة صداقة لم يعكر صفوها معكر تربطني بأكثرهم[٢١]. ولم أسمِّ هنا سوى أقدم تلاميذي، أولئك الذين صار لهم اسم لامع في الأدب التحليلي النفسي؛ ولئن أغفلت ذكر غيرهم فإغفالي ليس انتقاصاً من قدرهم؛ فبين الشباب تحديداً، ممن انضموا إليَّ مؤخراً، مواهب يمكن أن نعلِّق عليها أعظم الآمال. لكن من المباح أن أقول دفاعاً عن نفسي إن رجلاً يستبد به التعصب لرأيه والاعتداد بمعصوميته عن الخطأ ما كان ليجمع حوله مثل هذا العدد من الأشخاص اللامعين المتفوقين بذكائهم، ولا سيما إذا كان لا يملك أكثر مما أملك من المغريات العملية لتقديمها إليهم.

إن الحرب العالمية، التي قضت على منظمات كثيرة أخرى، لم تستطع أن تنال من «أمميتنا»[٢٢]. وكان أول لقاء انعقد بعد الحرب سنة ١٩٢٠ على أرض

١٨ ـ القس بفستر: أو أوسكار بفستر: قس ولاهوتي وفيلسوف سويسري (١٨٧٣ ـ ١٩٥٦). كان أول من طبّق التحليل النفسي على علم التربية، وكان بينه وبين فرويد تعاطف وتراسل، وكان فرويد يلقبه بـ«خادم الله الحقيقي» و«رجل الله الطيب». وعندما نشر كتابه **مستقبل وهم** الذي حلل فيه الدين بوصفه عصاباً جماعياً، ردّ عليه بفستر بكتاب مضادّ بعنوان **وهم مستقبل**. «م».

١٩ ـ يان فان إمدن: طبيب ومحلل نفسي هولندي (١٨٦٨ ـ ١٩٥٠). التقى فرويد عام ١٩١٠ وصارا صديقين. انتمى إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** وترأس **الجمعية الهولندية للتحليل النفسي** من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٩، ومن بعدها، وبعد حدوث انشقاق، **الجمعية الهولندية الجديدة للتحليل النفسي**. وترجم إلى الهولندية كتابين لفرويد: **خمسة دروس في التحليل النفسي و تأملات راهنة حول الحرب والموت**. «م».

٢٠ ـ تيودور رايك: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٩). كان من أوائل تلاميذ فرويد الذي تولى مساعدته مالياً لاستكمال دراسته. وكانت أطروحته عن فلوبير أول أطروحة تحليلية نفسية في المجال الأدبي. هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية هرباً من النازية. وهناك أنشأ في نيويورك أول معهد علمي للتحليل النفسي. من مؤلفاته: **المازوخية لدى الإنسان المعاصر، القاتل المجهول، الأسطورة والذنب، خلق المرأة، السماع بالأذن الثالثة**. «م».

٢١ ـ تجدر الإشارة إلى أن بعضاً من هؤلاء، مثل رانك ورايك، قد انفصلوا بدورهم عن فرويد لاحقاً. «م».

٢٢ ـ الأممية هو الاسم الذي كان يطلق على المنظمات اليسارية العابرة للحدود القومية. وبديهي أن فرويد إذ يطلق هذا المصطلح على أنصار التحليل النفسي لا يقيم اعتباراً إلا لتعدد انتماءاتهم القومية دونما حسبان لنزعاتهم اليسارية أو اليمينية. «م».

محايدة، في لاهاي. وكان مؤثراً فعلاً الاستقبال الذي أعدّته الضيافة الهولاندية للجياع المعوزين الوافدين من أوروبا الوسطى؛ ولقد كانت المرة الأولى، على حدّ علمي، التي يجلس فيها، في عالم مخرَّب، جنباً إلى جنب إنكليز وألمان إلى طاولة واحدة وقد جمعت بينهم بمودة اهتمامات علمية مشتركة. وكانت الحرب قد أنمت بالفعل، في ألمانيا كما في بلدان الغرب الأوروبي، الاهتمام بالتحليل النفسي. فمعاينة أعصبة الحرب فتحت عيون الأطباء أخيراً على أهمية المنشأ النفسي للاضطرابات العصابية؛ وسرعان ما قُيِّضت الشهرة لبعض تصوراتنا السيكولوجية، ومنها «المكسب من المرض» و«اللواذ بالمرض». وكانت حكومات إمبراطوريات أوروبا الوسطى قد أرسلت إلى آخر مؤتمر انعقد قبل الهزيمة، وهو مؤتمر بودابست عام ١٩١٨، منتدبين رسميين وافقونا في الرأي على إنشاء أقسام للتحليل النفسي لمعالجة عصابيي الحرب. لكن الوقت لم يسمح بوضع هذا المشروع موضع التنفيذ. كذلك، إن الخطة الواسعة التي أعدّها واحد من أبرز الأعضاء في رابطتنا، وهو الدكتور **أنطون فون فرويند** FREUND[٢٣]، والتي كانت ترمي إلى إنشاء معهد مركزي في بودابست للتعليم والعلاج التحليليين، آلت إلى الفشل من جراء الانقلابات السياسية التي تتالت سراعاً، وكذلك بسبب وفاة ذلك الرجل الفذ الذي حضره الأجل قبل الأوان. بيد أن بعضاً من أفكاره وجد طريقه إلى التحقيق لاحقاً على يد ماكس آيتنغون الذي أنشا في برلين سنة ١٩٢٠ عيادة متعددة الاختصاصات للتحليل النفسي. وفي إبان الفترة القصيرة التي شهدت سيطرة البلاشفة على الحكم في المجر[٢٤] تمكن فيرنزي من بذل نشاط تعليمي، كلله النجاح، بوصفه ممثلاً رسمياً للتحليل النفسي من جامعة بودابست. وبعد الحرب طاب لأخصامنا أن يعلنوا أن التجربة قد جاءت بحجة دامغة على خطأ الأطروحات التحليلية. فأعصبة الحرب قد أثبتت أن العوامل

---

٢٣ ـ أنطون فون فرويند: صناعي مجري ثري (١٨٨٠ ـ ١٩٩٢). شجّع التحليل النفسي الفتيّ بعد أن التقى فرويد في أواخر حياته، وتبرع بمبلغ كبير من المال لبناء معهد للتحليل النفسي في بودابست. وقد ضمّه فرويد إلى اللجنة المركزية المصغَّرة للحركة التحليلية. «م».

٢٤ ـ الإشارة هنا إلى الأشهر القليلة (آذار/ مارس ١٩١٩) التي أقام في أثنائها بيلا كون سلطة ثورية بلشفية في المجر. «م».

الجنسية لا دور لها في إتيولوجيا الآفات العصابية. لكن انتصارهم هذا كان سطحياً ومتعجلاً. فمن ناحية أولى لم يتسنَّ لأحد أن يقوم بتحليل معمَّق لحالة من حالات عصاب الحرب، ومن ثم لم تتوفر معرفة أكيدة وموثوقة بمعللات هذه الأعصبة، وليس لأحد الحق في أن يستخلص من جهله بالذات نتيجة ما. ومن الناحية الثانية كان التحليل النفسي قد انتهى، منذ زمن بعيد، إلى فكرة النرجسية والعصاب النرجسي، وهو العصاب الذي يتثبت فيه الليبيدو على الأنا المعني بدل أن يتثبت على الموضوع. وهكذا، وعلى حين أن التحليل النفسي كان يُنعى عليه في العادة توسعه بغير حقّ بمفهوم الجنسية، فإن هذا المأخذ أُنتسي حالما استدعت ضرورات الجدال ذلك، وأُستبدل بآخر يستند إلى فهم ضيق للجنسية.

ينقسم تاريخ التحليل النفسي بالنسبة إليّ إلى مرحلتين: في أولاهما كنت وحيداً وأتحمل وحدي عبء كل العمل المطلوب إنجازه، وذلك كان واقع الحال من ١٨٩٥ - ١٨٩٦ إلى ١٩٠٦ أو ١٩٠٧؛ وفي المرحلة الثانية، التي تمتد منذ ذلك الحين إلى يومنا الحاضر، ما ونت مساهمات تلامذتي وأعواني تزداد أهمية بحيث يسعني اليوم، إذ ينذرني مرض خطير بنهايتي القريبة[٢٥]، أن أفكر في هدوء داخلي كبير باحتمال توقيف نشاطي الخاص. لكن لهذا السبب على وجه التحديد يتعذر عليّ أن أتناول، في هذا العرض لسيرة حياتي، ما أحرزه التحليل النفسي من تقدم في هذه المرحلة الثانية بتفصيل مماثل لذاك الذي تناولت به بناءه المتدرج في المرحلة الأولى التي شغلها بتمامها نشاطي وحده. وإني لأشعر أنه ليس من المسوّغ لي إلا أن أشير إلى تلك الكشوف الجديدة التي كان لي فيها هي الأخرى نصيب راجح، أي في المقام الأول الكشوف التي تتصل بموضوع النرجسية ونظرية الدوافع الغريزية وتطبيق التحليل النفسي على الأذهنة.

عليّ أن أضيف أنه طرداً مع تنامي خبرتنا راح يتضح أكثر فأكثر أن عقدة أوديب هي النواة المركزية للأعصبة. فهي للحياة الجنسية الطفلية بمثابة نقطة الأوج كما أنها البؤرة التي منها تنطلق جميع التطورات اللاحقة. ولكن إن يكن الأمر

٢٥ ـ هو سرطان الفكّ الذي استدعى إجراء عدة عمليات جراحية لفرويد إلى حين وفاته عام ١٩٣٩. «م».

كذلك، فهذا معناه أنه لا يعود لنا أن نتطلب من التحليل أن يكتشف عاملاً خاصاً في إتيولوجيا الأعصبة. ومن ثم لا بدّ أن نقول، كما عبَّر عن ذلك أحسن تعبير يونغ في زمن انتمائه الأول إلى التحليل النفسي، إن العصاب ليس له مضمون خاص به، موقوف عليه ومحصور به، وإن العصابيين يخفقون في مواجهة الصعاب عينها التي يفلح الأسوياء في الظهور عليها. ولم يكن هذا الفهم يعني على الإطلاق خيبة للأمل. بل كان ينسجم أتمّ الانسجام مع تصور آخر مؤداه أن «سيكولوجيا الأعماق»، التي اكتشفها التحليل النفسي، هي في الواقع سيكولوجيا الحياة النفسية السوية. وهكذا نكون قد سلكنا مسلك الكيميائيين من قبلنا: فالفروق الكيفية الكبيرة بين المنتجات لا تعدو أن تكون حصيلة لتغيُّرات كمية في نسب التراكب بين العناصر نفسها.

لقد كان الليبيدو يبدو، في عقدة أوديب، مرتبطاً بتمثُّل معيَّن عن الوالدين. ولكن كان ثمة قبل ذلك زمن لم يكن فيه وجود لأي من هذين الموضوعين. وهذا ما تأدى بنا إلى تصور ـ ذي أهمية جوهرية بالنسبة إلى نظرية الليبيدو ـ عن حالة كان فيها الليبيدو يملأ الأنا المعني ويتخذه موضوعاً له. وكان لنا أن نطلق على هذه الحالة اسم «النرجسية» أو حب الذات. وقد تبيَّن لنا من التأملات الأولى أن هذه الحالة لا تزول أبداً زوالاً تاماً؛ فعلى مدى الحياة يبقى الأنا المستودع الكبير لليبيدو: فمنه تصدر التوظيفات باتجاه المواضيع، وفيه يمكن أن يصبّ من جديد الليبيدو المرتدّ عن المواضيع. وهكذا يتحول الليبيدو النرجسي باستمرار إلى ليبيدو موضوعاني، والعكس بالعكس. وأروع مثال على المدى الذي يمكن أن يصل إليه هذا التحول تقدِّمه لنا الحالة الحبية، أجنسية كانت أم جرى إسماؤها[٢٦]، إذ تبلغ إلى حدّ التضحية بالذات. وعلى حين أننا كنا إلى ذلك الحين نحصر اهتمامنا كله، فيما يتصل بعملية الكبت، بـ «المكبوت» نفسه، فإن تلك التأملات أتاحت لنا أن نولي اعتباراً لـ «الكابت» أيضاً. كنا نقول إن الكبت يحدث بفعل غرائز البقاء الفاعلة في الأنا («الدوافع الغريزية الأنوية») وبغرض التصدي للدوافع الغريزية الليبيدوية. أما وقد تبين لنا الآن أن غرائز البقاء

٢٦ - SUBLIMATION. «م».

هي أيضاً من طبيعة ليبيدوية، أي صادرة عن ليبيدو نرجسي، فقد ظهر لنا بالتالي أن عملية الكبت عملية تجري في داخل الليبيدو بالذات؛ وبما أن الليبيدو النرجسي يقف موقف المعارضة من الليبيدو الموضوعاني، فإن داعي بقاء الأنا يوجب اتخاذ موقف مناهض ضد مطالب الجنسية بالمعنى الضيق للكلمة.

ما من حاجة تفرض نفسها بإلحاح في مجال علم النفس مثل الحاجة إلى نظرية في الدوافع الغريزية واسعة القاعدة بحيث يمكن المضيّ في البناء فوقها. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن متاحاً لنا، مما أوجب على التحليل النفسي أن يجاهد للوصول إلى نظرية كهذه وهو يتلمس طريقه تلمساً. وقد بدأ بأن قرَّر وجود تعارض بين الدوافع الغريزية الأنوية (بقاء الذات، الجوع) والدوافع الغريزية الليبيدوية (الحب)، ثم استعاض عنه بتعارض جديد بين الليبيدو النرجسي والليبيدو الموضوعاني. ولم يكن هذا بالبداهة القول الفصل والأخير في الموضوع؛ فقد بدا لنا أن اعتبارات بيولوجية تنهانا عن الاكتفاء بافتراض وجود نوع واحد من الدوافع الغريزية.

في المؤلفات التي أصدرتها في السنوات الأخيرة من حياتي (**ما وراء مبدأ اللذة - علم نفس الجماهير وتحليل الأنا - الأنا والهذا**)، أطلقت العنان للميل الذي طالما كبحته إلى التفكير التأملي وتصورت حلاً جديداً لمعضلة الدوافع الغريزية. فقد دمجت غريزة بقاء الذات والنوع في مفهوم **الإيروس**[٢٧]، وجعلت في قبالته **غريزة الهدم أو الموت** التي تعمل في صمت. وذهبت إجمالاً إلى اعتبار الدافع الغريزي ضرباً من المرونة في الكائن الحي، نزوعاً يرمي إلى ابتعاث موقف بدئي كان موجوداً في يوم من الأيام ثم لم يعد موجوداً بفعل خلل خارجي. هذه الطبيعة المحافظة في جوهرها للدوافع الغريزية تشهد عليها **آلية التكرار**. ومن عمل الإيروس وغريزة الموت، بالتضافر أو بالتعارض، تتجلى لنا صورة الحياة.

من حق المرء أن يتساءل عما إذا كانت هذه الفرضية صالحة للاستعمال. ومن

٢٧ - إيروس: هو إله الحب عند الإغريق، ومنه اشتقت لفظة الإيروسية التي تترجم خطأ بالشبقية. والأرجح أن مصطلح الإيروس اليوناني مشتق من اللغات السامية وبالمعنى نفسه. «م».

المحقق أن الدافع إلى إنشائها كان تثبيت عدد من أهم التصورات النظرية للتحليل النفسي، لكنها تتخطى بكثير التحليل النفسي. وكثيراً ما تناهى إلى مسمعي رأي يقول بازدراء إنه من المستحيل الركون إلى علم تفتقر مفاهيمه الأساسية إلى الوضوح والتحديد نظير مفهومي الليبيدو والدافع الغريزي كما يقول بهما التحليل النفسي. بيِّن أن هذا المأخذ ينهض أساساً على فهم مغلوط تماماً للوقائع. فالمفاهيم الأساسية الواضحة والتعاريف الدقيقة والمحددة ليست بممكنة في علوم الإنسان إلا إذا رمت هذه العلوم إلى أن تحبس جملة من الوقائع ضمن إطار مذهب عقلي مسلَّم به. أما في علوم الطبيعة ـ ومنها علم النفس ـ فإن مثل هذا الوضوح في المفاهيم الأساسية زائد عن المطلوب، بل مستحيل. فعلم الحيوان وعلم النبات لم يبدآ بتعاريف صحيحة ومطابقة للحيوان والنبات، وعلم الأحياء لا يزال يجهل إلى اليوم المضمون الذي ينبغي أن يملأ به مفهوم الحياة. وحتى الفيزياء ما كان لها أن تقطع أي شوط في مسار تقدمها لو كان عليها أن تنتظر حتى تبلغ مفاهيم المادة والقوة والجاذبية المستوى المرام من الوضوح والدقة. والحق أن التصورات الأساسية أو المفاهيم الرئيسية في مختلف العلوم الطبيعية تُترك في بادئ الأمر بلا تحديد، ولا توضَّح ولا يُمثَّل عليها حيناً إلا بالإحالة إلى مضمار الظاهرات الذي منه انبثقت، ولا سبيل أمامها إلى أن تغدو واضحة وممتلئة بمعنى ثابت لا يقبل جدالاً إلا عن طريق التحليل المتتابع للمادة المطلوب إخضاعها للملاحظة.

لقد كنت أشعر دائماً أنه من الحيف والظلم البيِّن أن يأبى الناس النظر إلى التحليل النفسي نظرتهم إلى أي علم آخر. وقد تجلى رفضهم هذه في ما أثاروه من اعتراضات فيها من المكابرة والتعنت قدر كبير. ولقد عابوا دوماً على التحليل النفسي نقصه وعدم اكتماله، مع أنه من الواضح أن أي علم يقوم على الملاحظة والمشاهدة لا مناص له من أن يصل إلى كشوفه واحداً تلو الآخر، ومن أن يحلّ مشكلاته خطوة خطوة. كذلك اتهموا نظرية التحليل النفسي، حينما سعيت إلى أن أحيط الوظيفة الجنسية بالعناية التي منعت عنها زمناً طويلاً، بأنها نظرية «تفسّر كل شيء بالجنس». وحينما أبرزت بعد ذلك أهمية الدور الذي تضطلع به

الانطباعات العارضة في الطفولة الأولى، وهو الدور الذي طال إغفاله، زعموا أن التحليل النفسي ينكر العوامل الجِبِلِّية والوراثية، وهو ما لم يدر لي في خلد قط. هكذا نرى أن الأمر كان أمر معارضة ومناقضة بأي ثمن ووسيلة.

لقد كنت حاولت، في الأطوار السابقة من كتاباتي، الوصول إلى وجهات نظر أعم انطلاقاً من الملاحظة التحليلية النفسية. ففي عام ١٩١١، وفي مقال قصير بعنوان **إيضاحات حول مبدئي الحياة النفسية**، كنت أشرت، وإن على نحو يخلو من الابتكار، إلى هيمنة **مبدأ اللذة ـ الكدر** على الحياة النفسية، ثم إلى حلول ما يسمى **مبدأ الواقع** محله، واجترأت بعد ذلك على وضع كتاب في «**الميتاسيكولوجيا**»[٢٨]. وكنت أقصد بهذا التعبير كيفية في الملاحظة يُنظر بمقتضاها الى كل سيرورة نفسية من خلال إحداثيات ثلاث: **دينامية وطبوغرافية واقتصادية**، ورأيت في ذلك أبعد هدف يمكن أن يصبو علم النفس إلى بلوغه. بيد أن المحاولة بقيت ناقصة بتراء؛ وقد أوقفتها بعد أن كتبت بضعة أبحاث: **الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية ـ الكبت ـ اللاشعور ـ الحداد والسويداء**، إلخ؛ وأرجح الظن أنني كنت مصيباً في ما فعلت، لأنه لم يكن قد آن الأوان بعد لإرساء مثل تلك الإنشاءات النظرية. أما في أبحاثي النظرية اللاحقة فقد عكفت على تقسيم الجهاز النفسي البشري على أساس التقييم التحليلي للوقائع الباتولوجية، فقسمته إلى **أنا وهذا وأنا أعلى**. وهذا الأنا الأعلى هو وريث عقدة أوديب وممثل مطالب الإنسان الأخلاقية.

لا أودّ أن يداخل أحد انطباع بأنني تحولت في هذه المرحلة الأخيرة من عملي عن الملاحظة الدائبة وأسلمت نفسي بتمامها للتأمل والتفكير النظريين. فقد بقيت على العكس على اتصال وثيق بالمعطيات التحليلية. ولم أتوقف إطلاقاً عن دراسة موضوعات تفصيلية، سريرية أو تقنية. وحيثما ابتعدت عن الملاحظة، حرصت على تحاشي الاقتراب من مضمار الفلسفة الخالصة. ومما سهَّل عليّ كثيراً مثل هذا الاستنكاف قصور في فطرتي بالذات. صحيح أنني وجدتني على الدوام مقتدراً

٢٨ ـ **أي ما بعد علم النفس**. «م».

على تفهم أفكار غ. ت. فخنر[٢٩]، ولقد ارتكزت في نقاط معينة إلى تصورات هذا المفكر. أما التوافق الكبير بين التحليل النفسي وفلسفة شوبنهاور[٣٠] - إنه لم يقل بأولوية الحياة العاطفية وبغلبة الجنسية فحسب، بل حدس أيضاً بآلية الكبت - فلا يجوز ردّه إلى معرفتي بمذهبه. فأنا لم أقرأ شوبنهاور إلا في طور متأخر جداً من حياتي. أما نيتشه، ذلك الفيلسوف الآخر الذي كثيراً ما تتفق حدوسه وآراؤه على نحو يبعث على أعظم العجب مع النتائج التي لم يتوصل إليها التحليل إلا بشقّ الأنفس[٣١]، فقد تحاشيته زمناً طويلاً لهذا السبب على وجه التحديد؛ فقد كان حرصي على البقاء في منأى عن كل تحيُّز وسبقِ ظنٍ أشدّ من حرصي على الأسبقية.

لقد كانت الأعصبة الموضوع الأول، ولردح طويل من الزمن الموضوع الوحيد أيضاً، للتحليل النفسي. ولم يعد ثمة شك في نظر أي محلل نفسي في أن الممارسة الطبية أخطأت إذ فصلت هذه الاضطرابات عن الأذهنة وألحقتها بالأمراض العصبية العضوية. والحال أن نظرية الأعصبة تنتمي إلى الطب النفسي[٣٢]، وهي مدخل لا غنى عنه إليه. لكن يبدو أن الدراسة التحليلية للأذهنة يقف حائلاً دونها عدم انطواء مجهود من هذا القبيل على أي أمل علاجي. فالمريض الذهاني يفتقر إجمالاً إلى القدرة على التحويل الإيجابي، وهذا ما يبطل دور الأداة الرئيسية للتقنية التحليلية. غير أنه من الممكن النفاذ إلى عالم هؤلاء المرضى من منفذ ما. فالتحويل لا يغيب في كثير من الأحيان غياباً كاملاً يحول دون قطع أي شوط برفقته؛ وقد أمكن بفضل التحليل إحراز نتائج لا مماراة

---

٢٩ - غوستاف تيودور فخنر: فيلسوف ألماني (١٨٠١ - ١٨٨٧). من مؤسسي علم النفس الفيزيائي. من أشهر كتبه: **عناصر لعلم نفس فيزيقي**. «م».

٣٠ - يفترض فرويد في بعض كتاباته أن شوبنهاور(١٧٨٨ - ١٨٦٠) كان سباقاً إلى القول بما يشبه غريزة الموت. «م».

٣١ - معلوم أن نيتشه (٨٤٤ - ١٩٠٠) كان سباقاً إلى نحت مفهوم «الهذا». «م».

٣٢ - التمييز هنا ضروري بين التحليل النفسي والطب النفسي (أو العقلي). صحيح أن التحليل النفسي هو في نهاية المطاف جزء من الطب النفسي، لكنه ما انتمى إليه إلا بعد طول معارضة. وكان انتماؤه إليه بمثابة تثوير له. «م».

فيها في الاكتئابات الدورية والإصابات الهذائية الخفيفة والحالات الفصامية الجزئية. ولقد أفاد العلم على أية حال من تردد التشخيص مدة طويلة من الزمن، في العديد من الحالات، بين افتراض وجود عصاب نفسي وافتراض وجود خبل مبكر؛ فالمحاولة العلاجية التي كانت تبذل في مثل هذه الحالات كانت تتمخض عن معلومات ثمينة قبل أن يتحتم التخلي عنها. بيد أن أول ما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار هنا أن أشياء كثيرة تكون في الأذهنة ظاهرة للعيان على السطح، في حين أنه يتعيَّن علينا في الأعصبة أن نتجشَّم مجهوداً مضنياً للبحث عنها في الأعماق. ومن ثم إن الطب النفسي السريري أمدّنا بأحسن الحالات التي تبرهن على صحة العديد من مفترضات التحليل النفسي. كان من المحتم إذاً أن يشّق التحليل النفسي طريقه عاجلاً إلى الموضوعات التي يختصها الطب النفسي بملاحظته. وكنت استطعت في زمن مبكر للغاية (١٨٩٦)[٣٣] أن أثبت، وأنا بصدد حالة خبل هذائي، وجود العوامل الإتيولوجية والعقد العاطفية عينها التي توجد في الأعصبة. كما أمكن ليونغ أن يفكّ لغز الأفعال المقولبة بقالب واحد لدى المخبولين بردِّها إلى تاريخ حياة المرضى. وكشف بلولر، في أذهنة شتى، عن وجود آليات مماثلة لتلك التي يكشف التحليل عن وجودها لدى العصابيين. ومنذ ذلك الحين لم تنقطع جهود المحللين لفهم الأذهنة. وقد أصاب التحليل فلاحاً ـ على الأخص منذ اعتماده مفهوم النرجسية ـ في إلقاء نظرات على الجانب الآخر من السور. ولعل أبراهام، في نفاذه إلى سر السويداء، هو أكثر من توغَّل بين المحللين في هذا الطريق. صحيح أن كل ما تحصل لنا من معرفة في هذا المضمار لا ينقلب في الوقت الحاضر إلى طاقة علاجية. غير أن الكسب النظري الصرف ليس مما يستهان به، ولا بدّ أن يأتي يوم يغدو فيه قابلاً للتطبيق العملي. والحق أنه بمضيّ الزمن لا يستطيع الأطباء النفسانيون هم أيضاً أن يستمروا في مقاومة القوة الإقناعية لمعطياتهم الباتولوجية. ويشهد الطب النفسي الألماني اليوم ضرباً من **التغلغل السلمي**[٣٤] لوجهات النظر التحليلية. ومع أن هؤلاء الباحثين الناشئين

٣٣ ـ الإحالة هنا إلى مقال فرويد: «**الوراثة وإتيولوجيا الاعصبة**». «م».

٣٤ ـ بالفرنسية في النص. «م».

يصرحون مراراً وتكراراً أنهم لا يريدون أن يكونوا من المحللين النفسيين، وأنهم لا ينتمون إلى المدرسة «الأورثوذكسية»[٣٥]، وأنهم لا يقرّونها على مبالغاتها، وأنهم على الأخص لا يؤمنون بغلبة العامل الجنسي، فإن غالبيتهم تتبنى هذا الجزء أو ذاك من النظرية التحليلية وتطبّقه بطريقتها الخاصة على المادة الحية. وكل الدلائل تشير إلى أن تطوراً لاحقاً على وشك أن يتمّ في هذا الاتجاه.

٣٥ ـ هنا أيضاً يعتمد فرويد مفهوماً كنسياً إذ إن الأورثوذكسية ما كانت تعني باليونانية، قبل الانشقاق المسيحي إلى كاثوليك وأورثوذكس، سوى العقيدة القويمة. «م».

(٦)

إنني أتتبع اليوم من بعيد الاستجابات وردود الفعل التي تصاحب دخول التحليل النفسي إلى فرنسا التي بقيت معْرِضة عنه فترة طويلة من الزمن. وقد يتراءى للمرء أنه يشهد من جديد أشياء عاشها من قبل، بيد أن الأمر لا يخلو من سمات خاصة. فمن الاعتراضات التي ترتفع في سذاجة لا تصدق الاعتراض بأن الرهافة الفرنسية يجرحها تحذلق المصطلحات التحليلية النفسية وثقل وطأتها (وهذا ما يذكرنا رغماً عنا بفارس ليسنغ الخالد ريكو دي لامارلينييرا)[١]. وثمة زعم آخر يتجلبب بمزيد من الجدّ، ولم يربأ حتى أحد أساتذة علم النفس بالسوربون بالذات عن الأخذ به، وفحواه أن **العبقرية اللاتينية**[٢] لا تتحمل على الإطلاق طريقة التحليل النفسي في التفكير. وفي هذا بخس وانتقاص سافر من قدر الحلفاء الأنكلو ـ ساكسونيين الذين يُعدُّون من أنصار التحليل. ومن يسمع ذلك، لا بدّ له بطبيعة الحال أن يتصور أن **العبقرية الجرمانية**[٣] احتضنت التحليل النفسي منذ ميلاده كما لو أنه ابنها الأثير.

انطلق الاهتمام بالتحليل النفسي في فرنسا من صفوف أهل الأدب. وحتى نفهم هذه الواقعة لا بدّ أن نتذكر أن التحليل النفسي تخطى، مع تأويل الأحلام، حدود الاختصاص الطبي المحض. وبين ظهوره سابقاً في ألمانيا وحالياً في فرنسا شملت تطبيقاته العديدة شتى ميادين الأدب، والفن، وتاريخ الأديان، وما قبل التاريخ، والميتولوجيا، والفولكلور، وعلم التربية، إلخ. وكل هذه الأمور واهنة

---

١ ـ من أبطال مسرحية غوتهولد ليسنغ: **مينا فون بارتلهم** (١٧٦٧). وهو جندي فرنسي هازل سخر من الفقر المزعوم للغة الألمانية التي تسمّي البراعة في لعب الورق «غشاً». «م».

٢ ـ بالفرنسية في النص. «م».

٣ ـ بالفرنسية في النص. «م».

الصلة بالطب، ولا ترتبط به إلا بواسطة التحليل النفسي وحده. ومن ثم لا أجد أنه من المسوغ لي أن أعالجها بالتفصيل ضمن إطار هذه السيرة الموضوعة أصلاً برسم سلسلة من السِيَر الطبية. بيد أنه لا يسعني إغفالها إغفالاً تاماً. لأنها من ناحية أولى لا غنى عنها في رسم صورة صحيحة لماهية التحليل النفسي وقيمته، ولأنني التزمت من الناحية الثانية بأن أقدِّم هنا بياناً بالعمل الذي أدَّيته في حياتي. فأكثر تلك التطبيقات وجدت بداياتها الأولى في أبحاثي. فقد أبحت لنفسي الخروج بين الفينة والأخرى عن الدرب المرسوم لأشبع في نفسي ميولي غير الطبية. وما لبث آخرون، لا من الأطباء فحسب بل كذلك من الاختصاصيين في شتى العلوم، أن اقتفوا إثري وتوغلوا بعيداً في كل مضمار من هذه المضامير. ولكن بما أن المنهاج الذي رسمته لنفسي يلزمني بأن أقتصر على بيان مساهمتي الخاصة في تطبيقات التحليل النفسي، فلست مستطيعاً أن أقدم للقارئ سوى صورة ناقصة للغاية عن مداها وأهميتها.

إن طائفة من الإيحاءات قد جاءتني من عقدة أوديب التي فطنت شيئاً فشيئاً إلى عمومية وجودها. وكان اختيار هذه الموضوعة المشؤومة، بل ابتداعها، قد بدا على مرّ الأزمان ملغزاً، وكان ملغزاً أيضاً التأثير العنيف الذي كانت تتركه في المشاهدين المأساة القديمة التي أُستمدت منه[٤]، وملغزة أخيراً طبيعة مآسي القدر بوجه عام. ولكن هذا كله كان قابلاً للتفسير متى ما فهمنا أن ثمة قانوناً للحياة النفسية قد تمّ استيعابه بكامل أهميته الوجدانية. فما القدر والنبوءة إلا تجسيد خارجي للضرورة الداخلية؛ فإن يكن البطل يأثم بلا علمه على الرغم من نيَّاته فذلك هو التعبير الصحيح عن الطبيعة اللاشعورية لرغائبه الإجرامية. وما كان علينا، بعد فهمنا لمأساة القدر هذه، سوى أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام لنفهم مأساة الشخصية الإنسانية المتمثلة بمسرحية **هاملت** التي ظلت تحظى بالإعجاب ثلاثمئة سنة دون النفاذ إلى معناها أو فهم حوافز الشاعر. فإنه لما يلفت النظر أن يتعثر هذا العصابي الذي خلقه الشاعر عند عقدة أوديب، مثله مثل العدد الغفير من أقرانه في العالم الواقعي، إذ كان الواجب الملقى على عاتقه أن يثأر من خلال

٤ ـ الإشارة إلى مأساة سوفوكليس. «م».

شخص آخر[٥] للفعلتين اللتين هما بمثابة المحور للرغبات الأوديبية، ولكن شعوره الغامض بالذنب شلّ ذراعه. ولقد كتب شكسبير مسرحية **هاملت** بعيد وفاة أبيه بزمن وجيز. وإشاراتي التحليلية إلى هذه المأساة هي التي حدت بإرنست جونز فيما بعد إلى اتخاذ هاملت موضوعاً لدراسة معمقة[٦]. وهذا المثال عينه هو الذي اتخذه رانك منطلقاً لبحوثه بصدد اختيار الشعراء وكتّاب المسرح لموضوعاتهم. وقد استطاع، في كتابه الضخم عن موضوعة حب المحارم[٧]، أن يبيِّن كيف أن الشعراء اختاروا في كثير من الأحيان الموقف الأوديبي تحديداً موضوعاً لهم، وأن يتتبع من خلال الأدب العالمي التعديلات والتحويرات والتخفيفات التي خضعت لها هذه الموضوعة.

على هذا النحو وجدننا وقد انسقنا إلى تحليل الإنتاج الأدبي والفني بوجه عام. فقد اتضح لنا أن مملكة الخيال «ملاذ» يجري تنظيمه لدى الانتقال، المؤلم الوقع، من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع، لكي يكون بديلاً عن الإشباع الغريزي الذي يتحتم العزوف عنه في الحياة الواقعية. فالفنان كالعصابي، ينسحب من الواقع الذي لا يبعث على الرضى إلى ذلك العالم الخيالي، ولكنه يبقى وطيد العزم، بخلاف المريض العصابي، على سلوك طريق العودة ليرسِّخ موطئ قدميه في الواقع. وما إبداعاته، أي الأعمال الفنية، إلا إشباعات خيالية لرغبات لاشعورية، مثلها مثل الأحلام التي تجمعها وإياها سمة مشتركة واحدة، وهي أنها بمثابة تسوية وحلّ توفيقي، لأنها ملزمة هي أيضاً بأن تتحاشى الصراع المكشوف مع قوى الكبت. ولكنها، بخلاف منتجات الحلم النرجسية اللااجتماعية، تستطيع أن تعتمد على تعاطف الناس الآخرين بحكم قدرتها على أن تبتعث وتشبع لديهم الصبوات الرغبية اللاشعورية عينها. وفضلاً عن ذلك تستخدم، على سبيل «المكافأة المغرية»، اللذة التي تتأتّى من الإدراك الحسي للجمال الشكلي. والشيء

---

٥ ـ هو كلوديوس، عم هملت الذي دبرّ قتل أبيه ثم تزوج أمه. «م».

٦ ـ الإشارة هنا إلى كتاب إ. جونز: **هاملت وأوديب**. «م».

٧ ـ الإشارة هنا إلى كتاب أوتو رانك الصادر عام ١٩١٢ بعنوان **موضوعة زنا المحارم في الشعر والأسطورة**. «م».

الذي يقتدر عليه التحليل النفسي، هو أن يعيد، انطلاقاً من العلاقات المتبادلة بين خبرات الفنان الحياتية وصروفه العابرة ومنتجاته، بناء نفسيته والحاثات والصبوات الغريزية التي تعتمل فيها، أي ما ينطوي عليه من قسمات إنسانية مشتركة لدى البشر قاطبة. ومن هذا المنطلق اتخذتُ مثال ليوناردو دافنشي موضوعاً للدراسة، وهي دراسة تستند إلى ذكرى واحدة كاشفنا بها من ذكريات طفولته، وترمي في المقام الأول إلى الوقوف على سر لوحة **القديسة حنة مع العذراء والطفل**[٨]. وقد عكف أصدقائي وتلامذتي منذئذ على القيام بتحليلات مماثلة للعديد من الفنانين ولنتاجهم. ولا يبدو أن المتعة التي يجنيها المرء من الأعمال الفنية قد أفسدها الفهم التحليلي المتأتي عن هذا السبيل. لكن لزام علينا أن نعترف للناس العاديين، الذين ربما كانوا ينتظرون من التحليل النفسي شيئاً أكثر من اللازم بهذا الصدد، بأن التحليل لا يسلط أي ضوء كاشف على مشكلتين قد تكونان أهم مشكلتين على الإطلاق بالنسبة إلى الجمهور. ذلك أن التحليل لا يستطيع أن يفيدنا بشيء في مجال الوقوف على سر الموهبة الفنية، كما أنه ليس من اختصاصه أن يزيح النقاب عن الوسائل التي يستخدمها الفنان في عمله، أي أن يوضِّح طبيعة التقنية الفنية.

لقد تسنى لي أن أثبت، بالاستناد إلى رواية قصيرة ليست عظيمة القيمة بحدّ ذاتها، هي **غراديفا** لمؤلفها ف. جنسن[٩]، أن الأحلام التي يختلقها الكاتب قابلة للتأويل بمثل ما تؤوَّل به الأحلام الفعلية، ومن ثم أن النشاط الإبداعي لدى الشاعر تتحكم به الآليات اللاشعورية عينها التي تعرفناها من خلال عملية عمل الحلم. ولا يعدو كتابي عن **النكتة وصلاتها باللاشعور** أن يكون تفريعاً مباشراً لكتابي **تأويل الحلم**. فقد كان الصديق الوحيد الذي يهتم آنئذ ببحوثي[١٠] قد لفت نظري إلى أن تأويلاتي للأحلام غالباً ما تترك انطباعاً بأنها تشبه النكت. وكيما ألقي ضوءاً على هذا الانطباع شرعت بتمحيص النكت ووجدت أن

٨ ـ الإشارة هنا إلى مقال فرويد: **ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي** (١٩١٠). «م».

٩ ـ انظر ترجمتنا لهذا النص في **الهذيان والأحلام في غراديفا لمؤلفها ف. جنسن**. «م».

١٠ ـ هو فلهلم فليس. «م».

جوهر النكتة يكمن في طرائقها التقنية، وأن هذه الطرائق هي عينها التي تستخدم في عملية إخراج الحلم، أي التكثيف والنقل والإزاحة وتمثيل الشيء بضده أو بجزء منه، إلخ. وتأدى بي هذا التمحيص إلى مسألة «اقتصادية»: فما مصدر ذلك الكسب الكبير من اللذة المجتناة من سماع النكتة؟ وكان الجواب: مصدره الإمساك المؤقت عن بذل المجهود الذي يقتضيه الكبت، بحكم ما تنطوي عليه النكتة من إغراء بتقديم مكافأة من اللذة (**اللذة التمهيدية**).

إنني أعلق أنا نفسي قيمة أكبر على مساهماتي في علم النفس الديني، تلك المساهمات التي استهللتها في عام ١٩٠٧ بملاحظة وجود تشابه مدهش بين الأفعال الوسواسية القهرية وبين الشعائر الدينية (الطقوس)[١١]. وقبل أن أفطن إلى ما بين الاثنين من صلات عميقة، وصفت العصاب الوسواسي بأنه دين خاص مشوَّه، والدين بأنه بمثابة عصاب وسواسي عام. وفيما بعد، حثّتني الملاحظات المقنِعة التي أبداها يونغ سنة ١٩١٢ بصدد التشابه الكبير بين المنتجات العقلية لدى كل من العصابيين والبدائيين[١٢] على توجيه اهتمامي صوب هذا الموضوع. ففي الدراسات الأربع التي جُمعت في كتاب واحد بعنوان **الطوطم والتابو**، أبنت بصورة مفصلة كيف أن الخوف من زنا المحارم لدى البدائيين أشد بروزاً بعد منه لدى المتحضرين، وكيف أدى إلى اتخاذ إجراءات دفاعية من نوع خاص؛ ومحّصت الصلات بين المحظورات التابوية - أقدم شكل تتبدى به القيود الأخلاقية الأولى - وبين ازدواجية العواطف، وكشفت في التصور **الأرواحي** البدائي للكون مبدأ المغالاة في تقييم الواقع النفسي، أي مبدأ «كلية قدرة الفكر» الذي ينهض على أساسه **السحر** أيضاً. ومضيت في المقارنة مع العصاب الوسواسي وبيّنت أن عدداً من الأسس المفترضة للحياة العقلية لدى البدائيين لا تزال ناشطة وفعالة في هذا المرض الغريب. بيد أن ما كان يجذبني أكثر من أي شيء آخر هو **الطوطمية**، ذلك الشكل الأول لتنظيم القبائل البدائية الذي تتحد

١١ ـ الإشارة هنا إلى مقال فرويد عن **الأفعال القهرية والشعائر الدينية**. انظر ترجمتنا لهذا المقال في **أفكار لأزمنة الحرب والموت ونصوص أخرى** . «م».

١٢ ـ الإحالة هنا إلى كتاب يونغ: **تحولات الليبيدو ورموزه**، ١٩١٢. «م».

فيه بدايات النظام الاجتماعي بدين أولي ساذج وبسيطرة صارمة لبعض المحرمات التابوية. فالكائن «المعبود» هنا يكون دوماً في الأصل حيواناً، ومن هذا الحيوان أيضاً تدَّعي العشيرة أنها انحدرت. وتتيح لنا دلائل متباينة أن نفترض أن الشعوب قاطبة، بما فيها الأكثر رقياً في سلم الحضارة، قد مرّت في زمن من الأزمان بطور الطوطمية هذا.

وكان المصدر الرئيسي لبحوثي في هذا المضمار مؤلفات ج. غ. فريزر frazer المعروفة (**الطوطمية والزواج الخارجي**، وكذلك **الغصن الذهبي**)[١٣]، وهي كنز من الوقائع والآراء السيكولوجية. بيد أن فريزر لم يسهم بقسط يذكر في جلاء مسألة الطوطمية؛ فكثيراً ما انتقل من رأي إلى آخر بصدد هذه المسألة، وكان غيره من علماء السلالات وما قبل التاريخ يدللون على شكّ وانقسام في الرأي بصدد هذا الموضوع. وقد كانت نقطة انطلاقي التقابل الصارخ بين التحريمين اللذين فرضتهما الطوطمية، وهما الامتناع عن قتل الطوطم والامتناع عن الاتصال الجنسي بأي امرأة من عشيرة الطوطم نفسه، وبين عنصري عقدة أوديب، وهما عدم قتل الأب وعدم اتخاذ الأم زوجة. ومن هنا ساورني الإغراء بمماثلة الحيوان الطوطم بالأب، وهو ما كان يفعله البدائيون أنفسهم صراحةً إذ يقدسونه بوصفه السلف الأول للعشيرة. ثم جاءت واقعتان من التحليل النفسي لمعونتي: أولاهما ملاحظة موفقة لحالة طفل عرضت لفيرنزي، فأباحت لنا الكلام عن **عودة طفلية إلى الطوطمية**[١٤]، وثانيتهما تحليل الأرهبة المبكرة لدى الأطفال من الحيوانات، ذلك التحليل الذي غالباً ما يدلّ على أن حيوان الرهاب بديل عن الأب، بديل حُوِّل إليه الخوف من الأب، وهو الخوف الناجم عن عقدة أوديب. وما كان علينا بعد ذلك إلا أن نخطو خطوة صغيرة أخرى إلى الأمام

١٣ ـ جيمس جورج فريزر: أنتروبولوجي إسكتلندي (١٨٥٤ ـ ١٩٤١). أول من وضع كشفاً بالأساطير والطقوس لدى شعوب الأرض في اثني عشر مجلداً بعنوان **الغصن الذهبي**، فكان بذلك سباقاً إلى تأسيس الأنتروبولوجيا الدينية والميتولوجيا المقارنة. من أهم مؤلفاته الأخرى: **الخوف من الموتى في الديانة البدائية**، **الفلكلور في العهد القديم**، **الإنسان والله والخلود**. «م».

١٤ ـ الإحالة هنا إلى مقال ساندور فيرنزي: **رجل ـــ ديك صغير**، المنشور عام ١٩١٣. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

لنقرر أن قتل الأب هو النواة المركزية للطوطمية ونقطة الانطلاق في تشييد الأديان.

ولقد وجدت ما كان يعوزني في كتاب و. روبرتسون سميث: **ديانة الساميين**[١٥]. فهذا المؤلف الموهوب، الذي جمع بين الفيزياء ونقد **الكتاب المقدس**، كان أوضح بالفعل أن «الوليمة الطوطمية» هي جزء أساسي في الديانة الطوطمية. فمرة كل عام يُقتل في احتفال رسمي الحيوان الطوطم، الذي يعدّ في العادة مقدساً، ويُلتهم، ثم يناح عليه، وهذا بمشاركة جميع أفراد القبيلة. وتنتهي فترة الحداد باحتفال كبير. ولما عقدتُ مقاربة بين ذلك وبين فرضية داروين القائلة إن البشر عاشوا في الأصل عشائر بدائية، تخضع كل عشيرة منها لسيطرة ذكر واحد، قوي، عنيف وغيور، اجتمعت مختلف العناصر لتؤلف، في خاطري، الفرضية أو بالأحرى الرؤية التالية.

كان أبو العشيرة البدائية، بوصفه طاغية مستبداً مطلق السلطات، قد احتكر لنفسه النساء كافة، وقتل أو طرد الأبناء الذين كانوا غرماء خطرين عليه. بيد أن هؤلاء الأبناء ما لبثوا ذات يوم أن جمعوا صفوفهم، وغلبوا الأب، وقتلوه، وافترسوه مجتمعين، هو الذي كان غريمهم ومثلهم الأعلى في آن معاً. وعقب فعلتهم هذه عجزوا عن الاضطلاع بميراثه، إذ سدّ واحدهم الطريق على الآخر. وتحت تأثير الإخفاق والتبكيت تعلموا كيف ينبغي لهم أن يتعايشوا، فاتحدوا في عشيرة من الإخوة، منضوين تحت لواء أحكام الطوطمية الرامية إلى الحؤول دون تكرار مثل تلك الفعلة، واستنكفوا جميعهم عن امتلاك الإناث اللائي من أجلهن اغتالوا الأب. وبات عليهم الآن أن يلتمسوا لأنفسهم نساء غريبات: وذلك هو أصل الزواج الخارجي الوثيق الصلة بالطوطمية. أما الوليمة الطوطمية فما كانت

١٥ ـ وليم روبرتسون سميث: قس وأنتروبولوجي إسكتلندي (١٨٤٦ ـ ١٨٩٤). اتهم بالهرطقة بسبب ما أبداه من تحفظات بصدد صدقية الكتب المقدسة، فاضطر إلى الاستقالة من المعهد الذي كان يدرِّس فيه في إدنبره وانتقل إلى جامعة كامبردج ليدرِّس العربية التي كان يتقنها مع العبرية، ويومئذ كتب كتابه عن **أنبياء إسرائيل**. وفي عام ١٨٨٧ صار محرراً **للموسوعة البريطانية** وفيها نشر عام ١٨٨٩ بحثه: **قراءات في ديانة الساميين** الذي أصاب شهرة كبيرة من منظور الدراسة المقارنة بين الأديان. «م».

إلا احتفالاً لإحياء ذكرى الفعلة الفظيعة التي انبثق عنها شعور البشرية بالذنب (الخطيئة الأصلية)[١٦]، والتي بدأ معها التنظيم الاجتماعي والدين وقيود الأخلاق في آن معاً.

وسواء أقبلنا بهذه الصورة للوقائع باعتبارها حقيقة تاريخية أم لم نقبل، فإن نشأة الدين تكون في الأحوال جميعاً قد احتلت موقعها فوق أرضية العقدة الأبوية، كما يكون بنيانه قد ارتفع فوق الازدواجية الوجدانية المتحكمة بهذه العقدة. فبعد أن تمّ التخلي عن الحيوان الطوطم كبديل عن الأب، صار الأب البدائي نفسه هو الأب المهاب والمبغوض، المبجّل والمحسود ـ بعيم الإله ونموذجه الأول. والصراع الذي اعتمل في نفس الابن بين تمرده على أبيه وحنينه إليه كان يتمخض على الدوام عن تسوية توفيقية يكفِّر من خلالها عن جريمة قتل الأب من جهة أولى، ويثبِّت المكاسب التي عادت إليه منها من الجهة الثانية. هذا التصور للدين يلقي ضوءاً باهراً على الأسس السيكولوجية للمسيحية التي احتفظت بطقس الوليمة الطوطمية، وإن محرفاً بعض الشيء، في صورة المناولة[١٧]. وأريد أن أشير هنا صراحة إلى أن هذه المقاربة لا تأتي مني، وإنما هي موجودة أصلاً لدى روبرتسون سميث وفريزر.

سلك ت. رايك وعالم السلالات غ. روهايم ROHEIM[١٨]، في أبحاث عديدة ومهمّة لهما، الطريق الذي شقّه **الطوطم والتابو**، وقاما بتوسيعه وتعميقه أو تصحيحه. وقد عدت أنا نفسي غير مرة إلى هذه المنظومة من التصورات في

---

١٦ ـ الخطيئة الأصلية: عقيدة لاهوتية مسيحية تعزو إلى كل مولود من البشر خطيئة موروثة عن تلك التي ارتكبها آدم وحواء عندما أكلا من الشجرة المحرمة، أي شجرة معرفة الخير والشر. «م».

١٧ ـ تناول القربان المقدس عند المسيحيين، أي رمزياً جسد المسيح ودمه. «م».

١٨ ـ جيزا روهايم: إثنولوجي ومحلل نفسي أميركي من أصل مجري (١٨٩١ ـ ١٩٥٣). توزعت دراساته بين علم النفس والثقافة ويلقب بأبي الأنتروبولوجيا التحليلية النفسية.اعتبر الحلم من أهم مصادر الثقافة البشرية وأرجعه إلى قوتين نفسيتين متناحرتين: واحدة نكوصية أموية تنزع إلى العودة إلى الرحم، وبالتالي إلى العزوف عن العالم الأرضي، وثانية قضيبية أبوية تريد إعادة بناء العالم وإعماره بالرموز التناسلية. من أهم مؤلفاته: **الأرواحية والسحر والملك الإلهي**، **أبواب الحلم**، **لغز أبي الهول**، **ذعر الآلهة**. «م».

معرض البحوث التي قمت بها بصدد «الشعور اللاشعوري بالذنب»، هذا الإحساس الذي يضطلع بدور بالغ الأهمية في عداد عوامل العصاب، وفي عدد من البحوث التي كتبتها بغية توثيق الصلات بين علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الفردي (**الأنا والهذا ـ علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**). كما اعتمدت أيضاً، في تفسير القابلية للتنويم، على فكرة ميراث سحيق القدم متخلف من عهد العشيرة البدائية.

ضئيل هو نصيبي المباشر في غير ذلك من تطبيقات التحليل النفسي، وإن لم تكن أقل جدارة بالاهتمام العام. فلاحب هو الطريق الذي يمتد من أخاييل المريض العصبي المنطوي على نفسه إلى الإبداعات الخيالية للجماعات والشعوب، كما تتبدى في الأساطير والحكايات الخرافية والقصص الشعبي. وقد باتت **الميتولوجيا** المضمار الخاص لأوتو رانك؛ فتأويل الأساطير، وربطها بعقد الطفولة اللاشعورية المعروفة، والاستعاضة عن التفسيرات التنجيمية بتعليل مبني على الدوافع البشرية، كل ذلك جاء في العديد من الحالات تتويجاً لجهوده التحليلية. كذلك حظي موضوع الرمزية بالعديد من الدراسات في حلقتي. وقد ألّب علم الرموز أعداء كُثُراً على التحليل النفسي؛ فالكثيرون من الباحثين من ذوي العقل المتزمت ما استطاعوا قط أن يغفروا له اعترافه بالرمزية كما تمخَّض عنها تأويل الأحلام. غير أن التحليل براء من اكتشاف الرمزية، فهذه معروفة منذ أمد بعيد في ميادين أخرى (الفولكلور، الحكاية الخرافية، الأسطورة). بل إن الدور الذي تلعبه فيها أهمّ من ذاك الذي تلعبه في «لغة الحلم».

إني لم أسهم بأي قسط شخصي في تطبيق التحليل النفسي على علم التربية، لكن كان من الطبيعي أن تسترعي المشاهدات والكشوف التحليلية المتصلة بالحياة الجنسية والنمو النفسي لدى الأطفال انتباه المربين وأن تجعلهم يرون إلى مهمتهم في ضوء جديد. وقد برز الراعي البروتستانتي أ. بفستر PFISTER، من زوريخ، كرائد لا يكلّ لهذا الاتجاه، ولم يرَ أصلاً من تعارض بين الاهتمام بالتحليل وبين تديُّنه الذي كان في الحقيقة تديُّناً إسمائياً[19]. وقد نذر كل من الدكتورة السيدة

١٩ ـ نسبة إلى الإسماء: sublimation. «م».

هوغ هلموت HUG HELLMUTH[٢٠] والدكتور س. برنفلد PERNFELD[٢١] من فيينا، وكثيرون غيرهما، أنفسهم لهذا الفرع من التحليل[٢٢]. وقد أثمر تطبيق التحليل النفسي في مجال علم التربية نتيجة عملية مهمة: الوقاية فيما يتعلق بالطفل الصحيح المعافى، والتقويم فيما يتصل بالطفل الذي حاد في نموه عن السواء وإن لم يكن صار عصابياً بعد.

ولم يعد ممكناً حصر مزاولة التحليل النفسي بالأطباء وحدهم واستبعاد غير الأطباء عنها. وفي الواقع، إن الطبيب الذي لم يتلقَّ تأهيلاً خاصاً في هذا المجال لهو بمثابة غير «طبيب» في موضوع التحليل على الرغم من الشهادة التي يحملها، في حين أن من ليس هو بطبيب يستطيع، إذا ما تلقّى إعداداً مناسباً، وبالاستعانة عند الاقتضاء بطبيب، أن يضطلع على الوجه المرام بمهمة المعالجة التحليلية للأعصبة[٢٣].

وهكذا، وبنتيجة تطور لم يكن ثمة جدوى من معارضته، اتخذ لفظ التحليل النفسي ذاته عدة معانٍ. فقد كان هذا اللفظ يشير في الأصل إلى طريقة علاجية محددة؛ أما اليوم فقد صار أيضاً اسماً لعلم: علم النفسية اللاشعورية. ونادراً ما

---

٢٠ ـ هرمين فون هوغ هلموت: محللة نفسية نمساوية (١٨٧١ ـ ١٩٢٤). تولى تحليلها إيزودور سادجر وتخصصت بتحليل الأطفال ونشرت مقالاتها في مجلة **إيماغو**. وقد ماتت خنقاً على يد ابن أخيها رولف هوغ الذي كانت ربّته قبل أن تعهد به إلى إصلاحية للجانحين. وبعد أن قضى عقوبته في السجن طالب **الجمعية الفيناوية للتحليل النفسي** بتعويض مالي باعتباره ضحية التحليل النفسي. «م».

٢١ ـ سيغفريد برنفلد: مربٍّ ومحلل نفسي نمساوي من أصل أوكراني (١٨٩٢ ـ١٩٥٣). كانت له في شبابه أنشطة صهيونية واشتراكية قبل أن يتحول نحو التحليل النفسي وينتمي إلى **الجمعية الفيناوية للتحليل النفسي**. في أثناء الاضطرابات السياسية التي أعقبت هزيمة الإمبراطورية النمساوية في الحرب العالمية الأولى شكل لجاناً للدفاع الذاتي اليهودي ونشط في صفوف الحركة الماركسية النمساوية. هاجر عام ١٩٣٤ إلى فرنسا ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية على إثر صعود النازية. ونشر دراسات عن حياة فرويد ومقالات عن التربية من منظور التحليل النفسي. من مؤلفاته: **سيزيف أو حدود التربية**. «م».

٢٢ ـ (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٥): ـ كسب تحليل الأطفال بوجه خاص منذ كتابة هذه السطور زخماً قوياً بفضل بحوث السيدة ميلاني كلاين وابنتي آنا فرويد.

٢٣ ـ سوف يفرد فرويد لهذا الموضوع في عام ١٩٢٥ بحثاً خاصاً بعنوان: **مسألة مزاولة تحليل النفسي من قبل غير الأطباء**. «م».

يتمكن هذا العلم بحدّ ذاته من حلّ مشكلة من المشكلات حلاً تاماً، ولكن يلوح أنه مدعو إلى تقديم مساهمات لها شأنها في ميادين العلوم الأكثر تنوعاً. وبالفعل، إن مجال تطبيق التحليل النفسي لا يقلّ اتساعاً عن مجال تطبيق علم النفس، وهو بالأصل مكمّل بعيد المدى وعظيم الأهمية له.

يحلو لي إذاً أن أقول، وأنا ألقي نظرة استرجاعية على النصيب من العمل الذي قُيّض لي أن أؤديه في حياتي، إنني شققت طرقاً عديدة وحفزت على أمور كثيرة يمكن أن تتمخض عن شيء ما في المستقبل. ولا يسعني أنا نفسي أن أعرف سلفاً هل سيكون هذا الشيء كثيراً أو ضئيلاً. ولكني أستطيع بالمقابل أن أعرب عن رجائي في أن أكون شققت أمام المعرفة الإنسانية الطريق إلى تقدم مهم.

تذييل
(١٩٣٥)

أرجح الظن أن المشرف على هذه السلسلة من السيَر الذاتية لم يدر له في خلد أن بعضها قد يستوجب بعد انقضاء فترة من الزمن ملحقاً يذيَّل به. ولعل ذلك لم يحدث إلا في سيرتي هذه. فقد كان عليّ أن أقوم بذلك لأن ناشري الأميركي رغب في إصدار طبعة جديدة لهذا النص الصغير. وقد نُشر هذا النص في أميركا لأول مرة عام ١٩٢٧ (منشورات برنتانو) تحت عنوان «**دراسة سيرية ذاتية**»؛ ولكنه لم ينشر بمفرده، بل جمع مع نص آخر هو **مسألة مزاولة التحليل النفسي من قبل غير الأطباء** في مجلد واحد أطلق عليه برمته هذا العنوان الأخير، فاحتجب بذلك النص الذي بين أيدينا.

مسألتان تعالجهما هذه الصفحات: تاريخ حياتي وتاريخ التحليل النفسي، وهما تتداخلان في نسيج واحد. فسيرتي الذاتية تبين على أجلى نحو أن التحليل النفسي كان كل شيء في حياتي، وأن تجاربي الشخصية ليست بذات أهمية بالمقارنة مع ارتباطي بهذا العلم.

لقد كان تراءى لي قبل وقت وجيز من كتابة هذه السيرة أن حياتي تشارف على نهايتها بسبب مرض عضال عاودني؛ غير أن براعة الجراح أنقذتني عام ١٩٢٣، فأمكنني أن أواصل حياتي وعملي، ولكن بدون أن أفلت من قبضة الألم. ومنذئذ، وعلى مدى عشرة أعوام ونيف، لم أتوقف قط عن عملي التحليلي وعن التأليف، والدليل على ذلك أنني انتهيت تواً من إعداد المجلد الثاني عشر من الطبعة الألمانية لأعمالي الكاملة. على أن هذه الفترة لم تمر بدون أن يطرأ عليّ تغير مهمّ. فالخيوط التي تشابكت فيما بينها في مسار تطوري عادت تنقطع منذ ذلك الحين. فقد راحت الاهتمامات التي تولدت لديّ في الطور الأخير من حياتي تتقهقر لتعاود الظهور مكانها

الاهتماماتُ القديمة الأصلية. صحيح أنني استكملت في العقد المنصرم جوانب ذات بال من البحث التحليلي النفسي، كإعادة النظر في مشكلة الحصر في كتابي **الكف والعرض والحصر** الذي صدر عام ١٩٢٦، أو تقديم تفسير بسيط لـ «**عصاب شيطاني من القرن السابع عشر**»[١]. ولكن لا مناص لي من القول إنني منذ وضعت فرضيتي عن وجود دافعين غريزيين أساسيين (الإيروس وغريزة الموت)، ومنذ اقترحت تقسيم الشخصية النفسية إلى أنا وأنا أعلى وهذا (١٩٢٣)[٢]، لم أضف شيئاً حاسماً إلى التحليل النفسي. فكل ما كتبته منذ ذلك الحين كان إما أنه غير أساسي وإما أنه كان لغيري أن يكتشفه بعد زمن قليل. وكان ذلك نتيجة لتغير طرأ على نفسي قد يصحّ وصفه بأنه طور من أطوار النكوص في تطوري. فبعد أن أمضيت عمراً بأكمله أجوب خلال العلوم الطبيعية والطب والعلاج النفسي، ارتد اهتمامي صوب المشكلات الثقافية التي طالما اجتذبتني من قبل حين كنت لا أزال في مقتبل العمر ولا يتوفر لي التأهيل للتأمل. وكنت قد حاولت بالفعل، وأنا في أوج نشاطي التحليلي النفسي في عام ١٩١٢، أن أطبِّق أحدث كشوف التحليل، في كتابي **الطوطم والتابو**، على البحث في أصول الدين والأخلاق، ثم قطعت شوطاً آخر في هذا السبيل حين أصدرت **مستقبل وهم** عام ١٩٢٧، **وقلق في الحضارة** عام ١٩٣٠. وقد رحت أدرك في وضوح متزايد أن وقائع التاريخ الإنساني، والتفاعلات بين الطبيعة البشرية والتقدم الثقافي ورواسب خبرات الأزمنة البدائية (والدين أبرز أمثلتها)، ما هي إلا انعكاس للصراع الدينامي بين الأنا والهذا والأنا الأعلى ـ وهو الصراع الذي يدرسه التحليل النفسي على مستوى الفرد ـ وتكرار للسيرورات نفسها وإن على نطاق أوسع. وقد جاء تقييمي للدين في **مستقبل وهم** سلبياً في جوهره، لكني توصلت في زمن لاحق إلى صيغة أعدل في هذا التقييم. فمع التسليم بأن قوة الدين تكمن في صدقه، أوضحت أن هذا الصدق ليس مادياً ولكنه صدق تاريخي[٣].

١ ـ انظر ترجمتنا لهذا النص في **المؤلفات شبه الكاملة، ج ٣**. «م».

٢ ـ في كتابه: **الأنا والهذا** (١٩٢٣). «م».

٣ ـ أبان فرويد عن وجوه من هذا الصدق التاريخي في الدين في كتابه **موسى والتوحيد**، الذي كتب القسم الأول منه عام ١٩٣٤. «م».

هذه الدراسات إن تكن صدرت عن التحليل النفسي، فإنها تتجاوز مع ذلك حدوده تجاوزاً بعيداً. ولعلها حازت أكثر من التحليل النفسي على رضى الجمهور. وربما كانت هي وراء ذلك الوهم الذي لم يقيّض له أن يعمِّر طويلاً، أعني الوهم الذي صوَّر للناس أنني واحد من الكتاب الذين يطيب لشعب عظيم كالشعب الألماني أن يستمع إليهم. وبالفعل، خصّني توماس مان[٤]، وهو أبرز الناطقين بلسان الشعب الألماني، في عام ١٩٢٩ بمكان في تاريخ الفكر المعاصر بعبارات بليغة وعظيمة الود. وبعد ذلك بزمن وجيز أقيم في دار البلدية بفرانكفورت احتفال رسمي لابنتي آنا بالنيابة عني بمناسبة منحي جائزة غوته لعام ١٩٣٠. وكان ذلك ذروة حياتي كمواطن، ثم تقلصت حدود وطننا، ولم تعد الأمة مهتمة بأن تعرف عنا شيئاً.

عند هذا الحدّ أبيح لنفسي أن أختم هذه المذكرات عن سيرتي الذاتية. فلا حاجة لمعرفة المزيد من التفاصيل عن شؤوني الشخصية - عن كفاحي وخيباتي ونجاحاتي. وعلى كل حال، كنت في بعض مؤلفاتي الأخرى (مثل **تأويل الحلم وعلم نفس أمراض الحياة اليومية**) أكثر صراحة مما درج عليه الناس حين يتحدثون عن حياتهم الخاصة لمعاصريهم أو لمن سيأتون بعدهم. بيد أنني لم أقابل بالإنصاف، ولا تأذن لي تجربتي بأن أنصح أحداً بأن يحذو حذوي.

أودّ أن أضيف بضع كلمات عن تاريخ التحليل النفسي خلال العقد المنصرم. فلم يعد ثمة شك في استمراره بعد أن أثبت مقدرته على الصمود والتطور بوصفه طريقة علاجية وفرعاً من فروع المعرفة. وقد زاد عدد أنصاره زيادة كبيرة (ممن تنتظمهم **الرابطة الدولية للتحليل النفسي**). ففضلاً عن الفروع القديمة (في فيينا، وبرلين، وبودابست، ولندن، وهولندا، وسويسرا، وروسيا)، نشأت فروع جديدة في باريس وكالكوتا، وتأسست جمعيتان في اليابان، وعدة جمعيات في الولايات المتحدة الأميركية، ومؤخراً فرع في القدس[٥] وفرعان في إسكندنافيا.

٤ - توماس مان: روائي وقاص ألماني (١٨٧٥ - ١٩٥٥). يعتبر من كبار الكتاب الأوروبيين في النصف الأول من القرن العشرين. حائز على جائزة نوبل للأدب عام١٩٢٩. «م».

٥ - أنشأ هذا الفرع في القدس ماكس آيتنغون باسم «**الرابطة التحليلية النفسية الفلسطينية**» التي صارت تسمى لاحقاً بـ «**الرابطة التحليلية النفسية الإسرائيلية**». «م».

وقد أسَّست هذه الجمعيات (أو هي على وشك أن تؤسس) بأموالها الخاصة معاهد تأهيل، يجري فيها التدريب على مزاولة التحليل النفسي طبقاً لمنهاج موحَّد، وتضمّ عيادات خارجية يتولى فيها المحلِّلون المدرَّبون والطلاب المتمرنون معالجة المرضى من ذوي الدخل المحدود مجاناً. ويعقد أعضاء **الرابطة الدولية للتحليل النفسي** مرة كل عامين مؤتمراً تتلى فيه بحوث علمية وتتخذ قرارات تنظيمية. وقد انعقد الثالث عشر من هذه المؤتمرات (التي لم يعد في مستطاعي حضورها) في لوزرن[٦] عام ١٩٣٤. وتجمع أعضاء الرابطة اهتمامات مشتركة هي لهم بمثابة المركز الذي منه يتوزع نشاطهم في اتجاهات مختلفة. فمنهم من يلتمس تعميق معرفتنا بعلم النفس، ومنهم من يسعى إلى توثيق صلتنا بالطب والطب النفسي. أما من الناحية العملية فقد أخذ بعض المحللين على عاتقهم مهمة انتزاع الاعتراف بالتحليل النفسي من قبل الجامعات وإدخاله في منهاج دراسة الطب، بينما آثر بعضهم الآخر البقاء بمنأى عن هذه المعاهد إيماناً منهم بأن التحليل النفسي لا يقلّ في مجال التربية أهمية عنه في مجال الطب. وقد يتفق بين الحين والآخر أن ينشقّ عنا أحد المحللين إصراراً منه على تغليب كشف من كشوف التحليل النفسي أو تصور من تصوراته على حساب ما عداه من الكشوف والتصورات. بيد أن الشعور السائد يبقى بالإجمال شعوراً بالرضى عن عمل جادّ ورفيع المستوى.

٦ ـ لوزرن: سادس مدن سويسرا. «م».

ثبت المؤلفات

سأهمل البحوث الهستولوجية والسريرية التي تعود إلى الزمن الذي كنت فيه طالباً أو أستاذاً خصوصياً. أما مؤلفاتي اللاحقة، التي صدرت في كتب مستقلة، فهوذا ثبت بها بحسب التسلسل الزمني لصدورها[1]:

١٨٨٤ ـ **حول الكوكا.**

١٨٩١ ـ **دراسات سريرية في الشلل المخي النصفي لدى الأطفال**، بالتعاون مع د. أ. راي.

١٨٩١ ـ **حول تصور الحبسة.**

١٨٩٣ ـ **حول كشف الشلل المخي الكامل في الطفولة.**

١٨٩٥ ـ **دراسات في الهستيريا**، بالتعاون مع جوزيف بروير، الترجمة الفرنسية قيد الإعداد بقلم ب. لافورغ وآ. برمان.

١٨٩٧ ـ **الشلل المخي الطفلي** (في وجيز نوثناغل).

١٩٠٠ ـ تأويل الحلم، (الطبعة السابعة ١٩٢٢، نقله إلى الفرنسية مير ميرسون، منشورات آلكان، باريس ١٩٢٦).

١٩٠١ ـ **الحلم (في المسائل الحدّية للوفنفلد)**، (الطبعة الثالثة ١٩٢٢)، نقلته إلى الفرنسية هيلين لوغرو بعنوان **الحلم وتأويله**، منشورات غاليمار، باريس ١٩٢٥.

١ ـ نظراً إلى أن فرويد راجع بنفسه الترجمة الفرنسية لكتيِّبه **حياتي والتحليل النفسي**، فقد ارتأى أنه من المفيد أن يورد في هذا الثبت ذكر ما تُرجم إلى حينه من مؤلفاته إلى الفرنسية، مع ذكر اسم المترجم والناشر وتاريخ النشر. «م».

١٩٠١ - **حول علم نفس أمراض الحياة اليومية** (لم يصدر في كتاب مستقل إلا عام ١٩٠٤)، الطبعة العاشرة ١٩٢٤، نقله إلى الفرنسية د. يانكيليفتش، منشورات بايو، باريس ١٩٢٤.

١٩٠٥ - **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، الطبعة الخامسة ١٩٢٢، نقلته إلى الفرنسية د. ريفرشون، غاليمار، باريس ١٩٢٥.

١٩٠٥ - **النكتة وصلاتها باللاشعور** (الطبعة الرابعة ١٩٢٥). الترجمة الفرنسية قيد الإعداد لدى غاليمار، بقلم د. ك. ناتان وماري بونابرت.

١٩٠٧ - **الهذيان والأحلام في «غراديفا» لمؤلفها ف. جنسن** (الطبعة الثالثة ١٩٢٤)، الترجمة الفرنسية قيد الإعداد لدى غاليمار، بقلم د. م. ناتان وماري بونابرت.

١٩١٠ - **حول التحليل النفسي**، محاضرات ألقيت في ورسستر بماساشوستس (الطبعة الثانية ١٩٢٤)، نقله إلى الفرنسية إيف لو لاي بعنوان **خمسة دروس في التحليل النفسي**، منشورات بايو ١٩٢١.

١٩١٠ - **ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي** (الطبعة الثالثة ١٩٢٣)، نقلته إلى الفرنسية ماري بونابرت، غاليمار، باريس ١٩٢٧.

١٩١٣ - **الطوطم والتابو** (الطبعة الثالثة ١٩٢٢)، نقله إلى الفرنسية د. يانكيليفتش، بايو، باريس ١٩٢٣.

١٩١٦ - ١٩١٨ - **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي** (الطبعة الرابعة ١٩٢٢)، نقله إلى الفرنسية د. يانكيليفتش بعنوان **المدخل إلى التحليل النفسي**، بايو ١٩٢١.

١٩٢٠ - **ما وراء مبدأ اللذة** (الطبعة الثالثة ١٩٢٢)، نقله إلى الفرنسية د. يانكيليفتش.

١٩٢١ - **علم النفس الجماهير وتحليل الأنا** (الطبعة الثانية ١٩٢٣)، نقله إلى الفرنسية د. يانكيليفتش، بايو، باريس ١٩٢٥.

١٩٢٣ - **الأنا والهذا**، نقله إلى الفرنسية د. يانكيليفتش.

هذه الترجمات الثلاث الأخيرة جمعت، مع **تأملات راهنة في الحرب والموت** ومع **مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي**، في كتاب واحد بعنوان **مباحث في التحليل النفسي** (ترجمة يانكيليفتش)، بايو، باريس ١٩٢٧.

أما مقالاتي العديدة في التحليل النفسي وتطبيقاته فقد صدرت، بين ١٩٠٦ و١٩٢٢، في خمسة مجلدات متتالية تحت عنوان **مقالات مجموعة في نظرية الأعصبة**. وكان أكثرها نشر في مجلات أتولى بنفسي الإشراف على إصدارها (**المجلة الدولية للتحليل النفسي، إيماغو**).

في السنوات الأخيرة شرعت «المنشورات التحليلية النفسية» بفيينا بطبع أعمالي الكاملة، وقد صدر منها حتى الآن (١٩٢٤) خمسة مجلدات[٢]. كما صدرت عن منشورات ر. كاستيلو بمدريد، وبإشراف لوبيز بالستروس، خمسة مجلدات من طبعة إسبانية لمؤلفاتي الكاملة. وأكثر كتبي التي ورد ذكرها في هذا الثبت وكثير من مقالاتي باتت متاحة للقراء الأجانب بفضل الترجمة (مثلاً: **علم نفس أمراض الحياة اليومية** ترجم إلى الروسية والإنكليزية والهولاندية والبولونية والمجرية والفرنسية والإسبانية، كما ترجمت **المحاضرات التمهيدية في التحليل النفسي** في أميركا وإنكلترا وهولاندا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وروسيا).

٢ ـ بلغ عدد مجلدات الطبعة الألمانية لمؤلفات فرويد الكاملة ١٨ مجلداً (إيماغو، لندن ١٩٤٠ ـ ١٩٥٢). أما مجلدات الطبعة الإنكليزية، المعروفة باسم طبعة ستاندارد، والصادرة عن هوغارث برس، لندن ١٩٥٣ ـ ١٩٦٨، فقد بلغ عددها ٢٤ مجلداً. أما الطبعة الفرنسية الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية ١٩٨٩ ـ ٢٠٠٥ فقد بلغ عددها ٢٠ مجلداً.«م».

محاضرات تمهيدية جديدة

حياتي ـ خمسة دروس ـ مساهمة في تاريخ التحليل النفسي

في عام 1932 أضاف فرويد إلى المحاضرات التمهيدية في التحليل النفسي التي كنا أصدرنا ترجمتها في الجزء الأول من المؤلفات شبه الكاملة سبع محاضرات جديدة. كتبها ولم يلقها. استكمل بها ما استجدّ من تطوير في النظرية التحليلية النفسية حول الحلم وعلم الغيب واللاشعور والأنوثة والدين والماركسية وتصور الكون.

وبالإضافة إلى هذه المحاضرات التمهيدية السبع الجديدة يتضمن الجزء الثاني الذي بين يدي القارئ ثلاثة نصوص مركزية في التعريف بالتحليل النفسي نظريةً وممارسةً وتاريخاً هي على التوالي:

1. خمسة دروس في التحليل النفسي.
2. مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي.
3. حياتي والتحليل النفسي.





